الجمهورية العربية السورية
جامعة البعث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية



الرواية التاريخية بين الأدبين العربي والروسي
في النصف الأول من القرن العشرين
نماذج مختارة

"رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها"

إعداد

آمال شحادة حسن

إشراف الأستاذ الدكتور:

ممدوح أبو الوي

2009 - 2010م
1429 - 1430هـ

الجمهورية العربية السورية
جامعة البعث

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الماجـــستير، مـــن كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة البعث

المرشحة
آمال حسن

This thesis is submitted for degree of M.A. To the Faculty of arts and Humanities, AL Bath University

candidate
Amal Hasn

الجمهورية العربية السورية

جامعة البعث

تصريح

أصرح بأنّ هذا البحث (الرواية التاريخية بين الأدبين العربي والروسي/ نماذج مختارة من النصف الأول من القرن العشرين) لم يسبق أن قُبل للحصول على أية شهادة، ولا هو مقدم حالياً للحصول على شهادة أخرى.

التاريخ: / / 2009م

المرشحة

آمال حسن

DECLARATION

It's hereby declared that this research (Historical Novel in Arabic lit and Russian literature: Selected Samples from the first half of the 20 the Century)

Has not been submitted or accepted for the Fulfillment for any other degree.

Date:2009

Candidate
Amal Hasn

الجمهورية العربية السورية

جامعة البعث

شهادة

أشهد أنّ العمل الموصوف في هذه الرسالة هو نتيجة بحث قامت به المرشحة آمال حسن تحت إشراف الأستاذ الدكتور ممدوح أبوالوي في كلية الآداب والعلوم لإنسانية بجامعة البعــث، وأي رجوع إلى بحث آخر في هذا الموضوع موثق في النص.

التاريخ: / / 2009م

المرشحة

آمال حسن

المشرف على الدراسة

الأستاذ الدكتور ممدوح أبوالوي

CERTIFICATE

I hereby certify that the work described in this thesis is the result of the author's own investigations under the supervision of assistant professor Mamdouh Abu al'wai , Faculty of Arts and Humanities, AL Baath University, Reference to any work in this are fully acknowlwdge in the text.

Date: 2009

Supervisor
Professor
Mamdoh Abu al-wai

Candidate
Amal Hasn

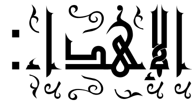
نوقشت هذه الرسالة بتاريخ / / 2009 بدرجة قدرها
وتقدير وتألفت لجنة الحكم من الأستاذة:

-1

-2

-3

فهرس المحتويات



* إلى من قال عزّ وجلّ فيهما:

﴿وقل ربي ارحمهما كما ربيّاني صغيراً﴾

صدق الله العظيم

* إلى كلّ من أحبّ العلم فجعله في حياته سراجاً منيراً.

* إلى كلّ من حمل الفضيلة سلاحاً فكان بين الناس كبيراً.

* إلى التي اجتمع في قلبها كلّ حبّ العالم وحنانه، فكرّست حياتها لتوزّعه إلى كلّ من كان بهما فقيراً.

إلى أمّي الثانية:

أختي هيفاء وزوجها علي وولديهما: سارة وحسين.

كلمة شكر

إنّ المشرفين لا ينتظرون ثناءً أو شكراً على ما قاموا به، لذلك فإنّي أشعر بالخجل وأنا أوجّه هذه الكلمة لأستاذي الكبير

الدكتور ممدوح أبو الوي

الذي كان أباً لي قبل أن يكون أستاذاً مشرفاً، وكان لي نعم النّصوح الذي جرّب الحياة وخبرها، فعلّمني أنّ الحياة شجرة ورد يجب علينا أن نتعلّم كيف نستطيع قطف زهورها دون أن نجرح أيدينا..

وعندما يُذكر الكبار لابد من ذكر اسم الدكتور **الياس خلف** وتوجيه الشكر له لتواضعه مع سمّو نفسه ومساعدته لي ما أمكنه ذلك.

وأوجه شكري أيضاً إلى الدكتور القدير **سامي منصور** لوقوفه إلى جانبي ومساندته لي.

الرواية التاريخية بين الأدبين العربي والروسي

في النصف الأول من القرن العشرين

نماذج مختارة

مخطط البحث

مقدمة عامة:

تتألف الرسالة من ثلاثة فصول ومقدمة وخاتمة، وعنوان الرسالة: "الرواية التاريخية في الأدبين العربي والروسي / نماذج مختارة من النصف الأول من القرن العشرين"، ولقد وقع اختيارنا على هذا الموضوع لسببين: السب الأوّل: أنّ الرواية التاريخية في الأدبين العربيّ والروسيّ لم تلقَ الاهتمام الكافي من قبل الروائيين أنفسهم، فكان عدد الكتاب الذين يكتبون هذا النوع من الروايات أقلّ بكثير من الكتّاب الذين يكتبون الروايات ذات الطابع الاجتماعي والنفسي، ولم تبلغ الرواية التاريخية في الأدبين الروسيّ والعربيّ مكانة عالمية كتلك التي بلغتها الروايات الأخرى، وبوجه خاصّ الرواية العربية، فالرواية التاريخية العربية لم تترجم إلى اللغات الأجنبية، ولذلك لم تصبح رواية عالمية، كما أصبحت روايات نجيب محفوظ، وحنّا مينه وغيرهما ، إذا تُرجمت رواياتهما إلى لغات كثيرة .

أضف إلى ذلك أنّ النقد لم يعطِ الرواية التاريخية حقهّا من الدراسات، فالكتابات النقدية عن الرواية التاريخية كانت قليلة جداً، فمثلاً لم أجد دراسة نقدية عن رواية "الهيام في فتوح الشام" لسليم البستاني عام 1774م، وكذلك عن روايته الأخرى بعنوان "زنوبيا" عام 1771م.

أمّا النقد الروسيّ فقد اهتمّ بالرواية التاريخية الروسية أكثر من اهتمام النقد العربي بالرواية التاريخية العربية.

قد يستغرب المرء، لماذا هذه المقارنة بين الروايتين التاريخيتين العربية والروسية، والجواب: إنّ هناك مقارنات بين الرواية الاجتماعية الروسية والعربية مثل: كتاب "مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي" للدكتورة مكارم الغمري الذي صدر في الكويت عام 1991م، وكتاب "الواقعية في الأدبين السوفييتي والعربي" للدكتور ماجد علاء الدين، وكتاب الدكتور ممدوح أبو الوي "تولستوي ودوستويفسكي في الأدب العربي" عام 1999م، ولكن لا توجد مقارنات بين الرواية التاريخية الروسية والرواية التاريخية العربية لعدم وجود تأثير مباشر .

قدمنا في الفصل الأول من دراستنا والذي بعنوان "آراء نقدية في الرواية التاريخية العربية"، وفيه تناولنا بالدراسة كتاب الناقد شوقي أبو خليل، والذي تحدث فيه الناقد عن روايات الأديب جرجي زيدان التاريخية، وقد عرضنا آراء هذا الناقد فيما كتب الأديب جرجي زيدان من روايات تاريخية، وما ذكره هذا الناقد من أقوال للأديب جرجي زيدان على لسان أبطال رواياته، فقد كان الناقد يذكر القول ثم يشير إلى مكانه في رواية الأديب جرجي زيدان، ويعلّق على ما جاء في القول، مشيراً إلى الدسّ والتشويه والخطأ في الرواية، ذاكراً أنه فعل

متعمّد من الأديب زيدان وقصده من ذلك تشويه تاريخنا العربيّ ، كما يتحدّث الناقد عن صلة الأديب زيدان بالمستشرقين، وأنّ ما جاء في رواياته التاريخية ليس له سنده التاريخي.

وبعد تقديمنا ما جاء في كتاب الناقد شوقي أبو خليل ذكرنا آراء أخرى حول ما كتب الأديب زيدان في مجال التاريخ ، ومنها ما كتبه الناقد محمد كامل الخطيب، وقد تنوعت الآراء بين مدح وذمّ.

وتناولنا في الفصل الأول أيضاً كتاب الناقد عبد اللطيف أرناؤط "معروف الأرناؤوط رائد الرواية التاريخية في بلاد الشام 1892-1948"، والذي تحدّث فيه الناقد عن رواية "سيد قريش" التي كتبها الأديب معروف الأرناؤوط، ولخص أحداث أجزائها الثلاثة .

وكذلك قدمنا ما جاء به الناقد عبد اللطيف أرناؤوط من تلخيص لروايات الأديب معروف الأرناؤوط التاريخية الأخرى، ومنها : رواية "عمر بن الخطاب"، ورواية "طارق بن زياد "، و"فاطمة البتول" ،"والقاهرة ".

ولعل أهمّ ما جاء في كتاب الناقد الأرناؤوط هو الفصل الذي عنوانه "الرواية التاريخية بين جرجي زيدان ومعروف الأرناؤوط"، ويشير الناقد في هذا الفصل إلى نقاط الالتقاء بين الأديبين جرجي زيدان ومعروف الأرناؤوط في بعض رواياتهما.

كما قدّمنا في هذا الفصل ما جاء به الدكتور عبده قاسم عبده في كتابه "الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث"، وفيه يتحدّث عن الروايات التاريخية التي تناولت فتح مصر، ومن هذه الروايات "أرمانوسة المصرية " لجرجي زيدان، ورواية " اليوم الموعود " لنجيب كيلاني، ورواية " وإسلاماه" لعلي أحمد باكثير .

وتحدّثنا في الفصل الثاني "الأحداث التاريخية الحقيقية والأحداث المتخيلة في الرواية التاريخية" عن أهم الكتب التي تحدثت عن الرواية التاريخية، ومنها كتاب جورج لوكاتش (1885-1971) "الرواية التاريخية" بالتفصيل، وعرضنا ما جاء في فصوله الثلاثة، وتأتي أهمية هذا الكتاب في أنّ كاتبه قد تحدّث عن الظروف الاجتماعية والتاريخية لنشوء الرواية التاريخية، وفي حديثه عن روايات الكاتب وولترسكوت التاريخية، وأيضاً في وصفه لرواية "الحرب والسلام" ورأيه فيها كملحمة عصرية للحياة الشعبية في روسيا .

وتحدثنا في هذا الفصل عن رواية "ابنة الآمر " لكاتبها ألكسندر بوشكين (1799-1837) ويُعدّ هذا الكاتب أهم كتّاب الرواية التاريخية الروسية في القرن التاسع عشر، وفي روايته هذه يتحدث بوشكين عن حدث تاريخي حقيقي، وهو التمرّد الفلاحي الذي جرى بين

عامي (1774-1775) والذي قاده بوغاتشوف ورجاله، وشخصية بوغاتشوف في رواية "ابنة الآمر" هي شخصية حقيقية، وأحداث الرواية حقيقية .

أما رواية " الحرب والسلم" (1863-1869) للكاتب الروسي ليف تولستوي (1828-1910)، فهي أشهر رواية تاريخية في القرن التاسع عشر، وفي دراستنا للأجزاء الأربعة من هذه الرواية ، أشرنا إلى أحداث الرواية التاريخية الحقيقية ، وإلى الأحداث المتخيلة فيها .

بعد عرضنا لأهم الروايات التاريخية الروسية، انتقلنا إلى الرواية التاريخية السورية في النصف الأول من القرن العشرين، ومن أولى الروايات التاريخية العربية ، رواية "الهيام في فتوح الشام" 1874م لمؤلفها سليم بطرس البستاني، وهي رواية تاريخية غرامية تتضمن فتح العرب لبلاد الشام بقيادة خالد بن الوليد في زمن الخليفة عمر بن الخطاب والمعارك التي قامت ضد الروم ، والأحداث في هذه الرواية هي أحداث تاريخية حقيقية ، إلاّ فيما يتعلق بأخبار الغرام فيها وقصص الحب والعشق ، فالأحداث التي تؤرخ لمعركة أجنادين التي انتصر فيها العرب على الرّومان بقيادة خالد بن الوليد هي أحداث تاريخية حقيقية، وكذلك الأحداث التي تصوّر فتح العرب لمدينة تبوك ولبصرى ولدمشق وحلب.

بعد رواية "الهيام في فتوح الشام" قدمنا ما كتبه الأديب اللبناني فرح أنطون من روايات تاريخية، وهذه الروايات هي "الدين والعلم والمال أو المدن الثلاث"، ورواية "الوحش، الوحش، الوحش، أو سياحة في أرز لبنان"، والرواية الثالثة "أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس".

وعرضنا في الفصل الثاني الروايات التاريخية السورية التي تناولت فترة النضال ضد العدو في النصف الأول من القرن العشرين، ومنها روايات الكاتب السوري فارس زرزور، وأولها رواية "لن تسقط المدينة" التي تؤرخ للثورة السورية الكبرى، ولمعركة ميسلون المشرفة في تاريخنا الحديث، وروايته "حسن جبل " التي يتحدث فيها الكاتب فارس زرزور عن مرحلة ما بعد الثورة السورية الكبرى وحتى الاستقلال عام 1946، وروايته الحوارية "الأشقياء والسادة" التي يتحدث فيها الكاتب عن نضال فلاحي غوطة دمشق ضد المستعمر الفرنسي .

لقد حقّق الكاتب فارس زرزور تطوّراً فنياً في روايتيه التاريخيتين "لن تسقط المدينة" و"حسن جبل"، وقد تفوّق الكاتب في روايته "لن تسقط المدينة" في استخدام التقنية التقليدية، ولا بد لنا أن نذكر ما قاله الناقد والروائي العربي السوري نبيل سليمان حول تجربة الكاتب فارس زرزور، إذ يقول:

"هكذا يبدو أنّ الامتياز الفني لفارس زرزور في رحاب التقنية التقليدية هو في الرواية التاريخية ....، إنّ تجربة فارس زرزور في الرواية التاريخية وتجربته في الرواية المسرحية (الحوارية) ظلتا وحيدتين"[1].وكذلك قوله:

"وتجربة الرواية التاريخية لزرزور خاصة، تصلنا بالرواية التاريخية الكلاسيكية العالمية التي تحدّث عنها لوكاتش".[2]

وختمنا الفصل الثاني برواية " أبو صابر " للكاتب سلامة عبيد، وهي من الروايات التاريخية السورية التي تحدثت عن فترة نضال فلاحي جبل العرب ضد المستعمر الفرنسي.

وتحدّثنا في الفصل الثالث عن رواية "درب الآلام" للكاتب الروسيّ ألكسي تولستوي (1883-1945) وهذه الرواية هي ثلاثية، وتحدثنا عن رواية "قصة إنسان حقيقي" للكاتب الرّوسيّ بوريس بوليفوي ، وهي من الروايات التاريخية ، وهذه الرواية تتناول شخصية حقيقية وهي شخصية الطيار الروسي ألكسي ميريسييف .

وتناولنا أيضاً أشهر الروايات الروسية التي خلّدت أحداث الحرب الوطنية العظمى في روسيا، وهي رواية "الحرس الفتي" للكاتب الروسي ألكسندر فادييف (1901-1956).

وكذلك من الكتب التي تحدثت عن الحرب العالمية الثانية كتاب " نحن السوفييت"، وهو لمجموعة من الأدباء الروس الذين شاركوا في الحرب الوطنية الروسية العظمى.

ورواية "الثلج الحار" للكاتب الروسي يوري بونداريف، وهي رواية تاريخية تصوّر المعركة من أجل ستالينغراد، وأغلب شخصياتها هي شخصيّات حقيقيّة.

وأيضاً رواية "رفاق الطريق" ورواية "كلّ إلى مكانه"، وقصة "خط الاتصال".

وبعد الرواية الروسيّة تناولنا في هذا الفصل الرّواية التاريخيّة العربيّة ، فتحدثنا عن رواية " عمر بن الخطاب ، ورواية " طارق بن زياد " للكاتب معروف الأرناؤوط.

---

[1] - سليمان، نبيل: الرواية السورية (دراسة)، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1982، ص140.

[2] انظر: المرجع السابق، ص141.

الفصل الأول:

آراء نقدية في الرواية التاريخية العربية

مقدمة :

سوف نتناول في هذا الفصل ما كتبه الناقد شوقي أبو خليل عن الأديب جرجي زيدان الذي كتب في التاريخ العربي الإسلامي، وألّف ثماني عشرة رواية تاريخية بناها على التاريخ الإسلامي، وندرس كتاب هذا الناقد "جرجي زيدان في الميزان " بالتفصيل، ونعرض آراءه عن روايات الأديب جرجي التاريخية ومنها: فتاة غسان وأرمانوسة المصرية و17 رمضان وفتح الأندلس وغيرها من الروايات التاريخية التي كتبها الأديب جرجي.

وسوف نعرض آراء بعض الباحثين أيضاً حول ما كتبه الأديب جرجي زيدان في مجال التاريخ الإسلامي ومنهم الباحث غياث رمزي الجرف، والكاتب الناقد محمد كامل الخطيب ونشير إلى بعض الآراء الأخرى حول روايات الأديب جرجي زيدان التاريخيّة، لأنّ الاعتماد على ما كتبه ناقد أو ناقدان في هذا المجال لا يمكّننا من الوقوف على حقيقة الأمر، فلا بد من عرض العديد من الآراء حتى نصل إلى نتيجة مرضية وصحيحة.

وفصّلنا أيضاً في هذا الفصل في الحديث عن كتاب الناقد عبد اللطيف الأرناؤوط وهو "معروف الأرناؤوط رائد الراوية التاريخية في بلاد الشام 1892-1948"، وعرضنا آراء هذا الناقد حول الروايات التي كتبها الأديب معروف الأرناوؤط في التاريخ الإسلامي ومن رواياته هذه: رواية "سيد قريش" عام 1929م، وراوية "عمر بن الخطاب" عام 1936، وغيرها من روايات معروف الأرناؤوط التاريخية، أمّا أحداث هذه الروايات فقد ذكرناها كما لخّصها الناقد عبد اللطيف الأرناؤوط.

أمّا كتاب "الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث" للمؤلفين "عبده قاسم عبده، ود.أحمد إبراهيم الهواري فقد بيّنا ما جاء في أقسامه الأربعة، التي تناولت بالدراسة بعض الروايات التي كتبت عن مصر قلب العالم الإسلامي، ومواجهتها للعدوان الصّليبي والمغولي.

ظهور الرواية التاريخية العربية:

هناك العديد من الدراسات التي تناولت الرواية التّاريخية، ومن المهمّ عرض بعض هذه الدرّاسات بالنقد والتحليل، ومعرفة كيف تناولت هذه الدّراسات تلك الروّايات، وكيف نظرت إليها، وكيف عكست لنا نظرتها لتوجّه الفكر الحديث، وتناوله للتّاريخ وكما قال إيان واط:

"إنّ الرّواية لا تميّز ثقافتنا بشيء مقدار ما تميّزها بالطّريقة التي تعكس بها هذا التوجّه المتميّز للفكر الحديث".[1]

ويضيف قائلاً: "إن إ.م. نورستر يرى أن تصوير الحياة من خلال الزمن هو الدّور المتميّز الذي أضافته الرّواية إلى الانهماك القديم الذي انهمكه الأدب في تصوير الحياة من خلال القيم".[2]

ومن هذه الدّراسات التي تناولت الرواية التاريخيّة العربية: (الرّواية التاريخيّة في الأدب السوري المعاصر) للدكتور عبد الرحمن برمو، وكتاب (معروف الأرناؤوط- رائد الرّواية التّاريخية في بلاد الشّام) لعبد اللّطيف أرناؤوط، و(الرّواية التاريخية في الأدب العربي الحديث) للدكتور قاسم عبده قاسم.

وسعت هذه الدّراسات إلى معرفة كيف عالجت الرّواية التّاريخية موضوعها، وكيف رسمت الشخصية العربية في التّاريخ، وسمات هذه الرّواية، وتحليل عناصرها الفنيّة الرّوائية آخذة بعين الاعتبار المرحلة التّاريخية التي تصدّت لها هذه الرّوايات.

يرى النّاقد سمر روحي الفيصل: "أنّ الرّواية التّاريخيّة واكبت تفتّح الشخصيّة العربيّة في القرن العشرين، وقد اتّسمت هذه الرّواية بغلبة الجانب الدّيني التّاريخي على العناصر الفنيّة الرّوائية"[3]

لا نعرف مدى صحّة كلام النّاقد الآنف الذكر، فهذا يحتاج إلى إثبات، وهذا يتبين من خلال دراستنا لبعض الرّوايات التّاريخيّة العربية، وفي الوقت نفسه لا نستطيع أن ننكر اهتمام العرب بالدّين وخاصّة الأدباء. كما أنّ النّاقد سمر روحي الفيصل يربط ظهور الرّواية التّاريخية بردّ الفعل العربي على سياسة العدو فيقول:

---

[1] - واط، إيان، نشوء الرّواية، ترجمة عبد الكريم محفوض، وزارة الثقافة، سوريّا، دمشق 1991م، ص23.

[2] - المرجع السابق نفسه، ص23.

[3] -الفيصل، سمر روحي: الاتجاه الواقعي في الرّواية العربية السورية، اتحاد الكتّاب العرب، 1986م ص265.

"....، وظهور الرواية التّاريخيّة مرتبط بردّ الفعل العربي على سياسة التتريك، وحين بدأت المرحلة تتجه نحو الاستقلال شرعت الرّواية التاريخيّة تجمد وتتراخى"[1]

هذا الكلام أيضاً بحاجة إلى النّظر فيه، ومعرفة مدى صحتّه، فهل ظهور الرّواية التّاريخيّة يقتصر على زمن معيّن، هو الزمن الذي يمارس فيه عدّو ما استبداده وسياسته ضد البلد الذي احتلّه؟

وبرأي النّاقد أنّ الأديب لا يلتفت إلى تاريخه إلا إذا شعر بتأزّم أوضاع بلده نتيجة سيطرة استعماريّة أو هزيمة ما فيقول:

"ثم جاءت هزيمة حزيران 1967 م وتراكمت المشكلات الاجتماعية الدّاخلية والمشكلات السياسيّة بين الأقطار العربية ممّا جعل الرّوائيين السوريين يلتفتون ثانية إلى التّاريخ العربيّ ليستمدّوا منه ما يعينهم على التماسك في حاضرهم المأزوم، لهذا قصرت الرّوايات جهدها على التّاريخ المعاصر ومشكلاته الاجتماعية"[2]

هذا الكلام أيضاً سوف نبيّن مدى صحتّه من خلال دراستنا لبعض الرّوايات التّاريخيّة، وإذا كان صحيحاً أنّ الأدباء السوريين قد التفتوا إلى التّاريخ العربي، فمن الأهميّة بمكان أن نعرف كيف وظّفوا هذا التّاريخ في رواياتهم التّاريخية، وهل استمدّوا منه ما يعينهم على الهروب والتخلص من واقعهم الحاضر المأزوم.

كتاب شوقي أبو خليل عن روايات جرجي زيدان:

لقد تصدّى "جرجي زيدان" للرواية التاريخيّة، فقد كتب العديد من الروايات التاريخية، وقد اختلف النقّاد في نظرتهم إلى هذه الرّوايات، فمنهم من رأى أنّه لا يمكن تجاهل هذا الكمّ الكبير من الرّوايات التّاريخية والتي تذكّرنا بتاريخنا الماضي المجيد، فكانت نظرته إيجابيّة، ومنهم من رأى فيها محاولة مدروسة لإفساد تاريخنا، وتشويه صورة أعلامه ومن هؤلاء النقّاد شوقي أبو خليل ولعلّه كان موفّقاً في عنونة كتابه بـ "جرجي زيدان في الميزان" لأننّا نرى من خلال دراستنا لهذا الكتاب أنّ النّاقد قد تناول "جرجي زيدان بالنقد والتجريح، وحاسبه على أعماله، كانتسابه إلى الماسونيّة، وانتظامه في سلك المخابرات البريطانيّة، وعمله مترجماً لها، وإنشائه مطبعة الهلال، وأنّه احتفظ بها لنفسه ليسوّق إنتاجه وينشره، فهو يقول في كتابه هذا عن الأديب جرجي:

---

[1] - المرجع السابق نفسه، ص 265.

[2] - المرجع السابق نفسه، ص 266.

"هاجر سنة 1883م إلى مصر بعد انتسابه إلى الماسونيّة... وفي هـذه الفتـرة انـتظم جرجي في سلك المخابرات البريطانيّة"[1]

ولكن ما الذي يثبت صحّة هذا الكلام، وخاصّة أن النّاقد لم يقدّم لنا إثباتاً أو دليلاً يؤكـد صحّة أو حقيقة ما جاء به في كتابه هذا ولنفرض جدلاً أنّ الأديب جرجي كان ماسـوّنياً كمـا قال الناقد شوقي أبو خليل، فهل هذا جرم ارتكبه الأديب جرجي؟! وخاصّة أنّ الماسـونيّة لـم تكن معروفة بشرورها في ذلك الوقت، كما هي معروفة بارتباطها الآن بالمنظمـات المعاديـة لشعوب العالم الثالث، ولحركات التحرر العالمية، وبمؤامراتها السرية؟

يضيف النّاقد قائلاً:

"أنشأ مطبعة المعارف مع نجيب متري ثمّ احتفظ جرجي بالمطبعة لنفسه وأسماها مطبعة الهلال، وفي سنة 1892م أصدر مجلّة الهلال، وقام بتحريرها بنفسه"[2].

فالناقد أبو خليل يظهر في كتابه هذا متحاملاً على جرجي زيـدان عنـدما وضـع فـي الميزان حياته وأعماله، وكان الأجدر به أن يسميّ كتابه "روايات جرجي زيدان التّاريخية فـي الميزان" فمهمة النّاقد هي نقد نتاج الأديب، وليس نقد شخصية الأديب وحياتـه، كمـا أنّ مـن الأمور المهمّة أن يتّصف النّاقد بالموضوعيّة، وأن ينقد أدب الأديب، وهو لا يحمل في رأسـه أيّة فكرة سابقة أو معلومة عن الأديب نفسه، بغضّ النظر إن كانت هذه المعلومة صـحيحة أم مغلوطة، ويبدو أنّ النّاقد شوقي أبو خليل قد دخل معركة نقده للأديب جرجـي وهـو يحمـل سلاحاً يشهره ضد شخصية الأديب نفسه، وكان الأصحّ أن يحمل سلاح الموضـوعيّة، وينقـد روايات الأديب التّاريخيّة، ونحن في قولنا هذا لا نغالط أنفسنا، فصحيح أنّ النّاقـد قـد تنـاول روايات جرجي لكنّه لم يبيّن إلا سلبيّاتها، ووظف كلّ هذا في سبيل إثبات فكـرة مـسبقة فـي رأسه وهي محاولة الأديب جرجي إفساد وتزييف تاريخنا، ففي كتابـه هـذا يـرى النّاقـد أنّ تاريخنا العربي وأعلامه يواجه محاولة مدروسة لتزييفه وإفساده، وتمييع قيمه وكلّ ذلـك فـي عرض روائي جذّاب وبثّ السموم إلى الشباب عن طريق قصص تقوم على الحبكة الغراميّـة الخياليّة حملت عنوان "روايات تاريخ الإسلام" لجرجي زيدان، كما يستغرب أبو خليـل أنّ دار الهلال روّجت لهذه الرّوايات الغرامية، وأنّ بعض الأدباء والكتّاب ردّدوا ادّعـاءات جرجـي على تراثنا وتاريخنا ومنهم د. طه حسين (1889-1973)م، ولطفي السيّد، ومحمود عزمـي، وحسين فوزي.[3]

---

[1] - أبو خليل، شوقي: جرجي زيدان في الميزان، دار الفكر، دمشق، ط1، 1981، ص 16.

[2] - أبو خليل، شوقي: جرجي زيدان في الميزان، ص 16

[3] - أبو خليل، شوقي: جرجي زيدان في الميزان، ص 7.

وقد كُتبت دراستان موجزتان عن جرجي زيدان كما ذكر النّاقد أبو خليل في كتابه، الأولى بعنوان "انتقاد كتاب تاريخ التمدّن الإسلامي" للشيخ شبلي النعماني، والثّانية "انتقاد تاريخ آداب اللغة العربيّة" للشيخ "أحمد عمر الإسكندري" ودراسة موجزة للأب "لويس شيخو" عن تاريخ آداب اللغة العربيّة.

ويرى شوقي أبو خليل أنّ جرجي زيدان اقتبس أسلوب الغربيّين وراجع وترجم كتبهم، وأخطأ بالرأي وأخطأ بالنقل والترجمة، وقد ابتعد جرجي زيدان برأي شوقي أبو خليل عن البحث المنهجي في دراسة التّاريخ ساعده في ذلك إمكاناته الجيّدة في اللغة العربيّة واللغات الأجنبية وسعة خياله[1].

ويرى شوقي أبو خليل أنّ هذه الرّوايات أساءت أيضاً لسمعتنا في دول العالم عندما ترجمت إلى الفارسيّة والتركيّة والهندستانية.[2]

ويذكر الناقد بعض أقوال جرجي زيدان في رواياته التّاريخية على لسان أبطاله، وهذه نماذج منها:

"العرب البدو الحفاة".

"أرى اللّص ينقّب بيتي فأتغافل عنه" واللّص هنا هم العرب!؟ وهذا ورد في رواية "أرمانوسة المصرية" ص 163 -168- على التوالي.[3]

هذا الكلام الذي ذكره أبو خليل جاء على لسان أحد أبطال رواية جرجي، ولكنّني أرى أنه ليس من الضرورة أن يكون الكلام الذي يجريه الكاتب على لسان أحد أبطال روايته هو ما يقتنع به الأديب، ويؤمن به، كما أنّ النّاقد يعقّب بقوله "واللص هنا هم العرب"!؟، فما الذي يؤكد أنّ الأديب جرجي يقصد العرب هنا، وأنّ ما جاء على لسان أحد أبطال الرّواية هو تحامل وهجوم على العرب؟.

كما يذكر شوقي أبو خليل قولاً لأحد أبطال رواية "عروس فرغانة" ص 168 وهذا القول يأخذه أبو خليل تصديراً لكتابه وكأنّه قول لجرجي زيدان، وهذا القول هو:

"والعربيّ بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه".

وفي رواية "المملوك الشّارد" قوله: "فهؤلاء العرب مازالوا من الخونة العاصين" ص36.[1]

---

[1] - انظر: المرجع السابق نفسه، ص 8.

[2] - المرجع السابق، ص9.

[3] - المرجع السابق، ص 10.

هل نسي الناقد شوقي أبو خليل أنّ هذا قول أحد أبطال الرواية، وليس كلاماً للأديب جرجي، وليس من الضرورة أن يكون كلام أحد أبطال الرّواية معبّراً عن رأي الكاتب واعتقاده، ثمّ هل نسي الناقد أنّ الأديب عربي فكيف يذمّ قوماً هو منهم؟! والناقد نفسه يقول عنه:

"لبناني من قرية (عين عنوب)، والده حبيب زيدان، ولد جرجي في بيروت في 14 كانون الأول (ديسمبر) سنة 1861، أرسله والده إلى مدرسة ليتعلّم اللغة الفرنسية ثمّ إلى أخرى حيث تعلّم اللغة الإنكليزية، مارس صناعة الأحذية عامين ليعود إلى مطعم أبيه، وانتظم في سلك (جمعية شمس البر)".[2]

كما أنّنا نستنتج من هذا الكلام أنّ جرجي زيدان من أسرة فقيرة، ولكنّه تعلّم إذ أتقن اللّغتين الفرنسية والإنكليزية.

وفي رأي شوقي أبو خليل أنّ في بعض أقوال جرجي على لسان أبطال رواياته دسّاً وتشويهاً فيقول:

(ونجد الدسّ والخطأ والتشويه في قول جرجي:

"في وصيّة عمر بن الخطّاب حين احتضر، فأوصى بالشّورى، قال: أنشدك الله يا علي أن تحمل بني هاشم على رقاب النّاس" وهذا في كتابه "تاريخ التمدّن الإسلامي" ص 174... وصوا به "أن لا تحمل بني هاشم على رقاب النّاس"[3])

ويتابع شوقي أبو خليل عرضه لأخطاء جرجي زيدان فيقول:

"كما ذكر جرجي بسر بن أرطأة كما يلي (يسر بن قرطام) وسلم الخاسر أورده جرجي: (سالم)، وقال: يقال سالم بن عمرو.

وأورد اسم سعد الأزدي خطأ والصّواب "سعيد الأزدي" وقال عن "الدرعية" وهي الصّواب، "الدراية" خطأ... فحرف العين غير موجود في الإنكليزية والفرنسية؟! وكذلك حرف "الطاء"، ولا يميّزون بين عمرو وعمر، وسعد وسعيد"[4].

هل نوافق النّاقد في آرائه السّابقة؟ وهل نعدّها صحيحة فنؤيد النّاقد في اتهام الأديب جرجي بتشويه تاريخنا العربيّ وإفساده في محاولة مقصودة منه؟!

---

[1] - أبو خليل، شوقي: جرجي زيدان في الميزان، ص 10.

[2] - المرجع السابق، ص 15.

[3] - المرجع السابق، ص 11.

[4] - كتاب شوقي أبو خليل السابق، ص 11، ص 12.

الناقد نفسه يقول عن جرجي: "أخطأ بالنقل والترجمة"، ولم يقل "تعمّد الخطأ"، إذاً ذنب الكاتب الأديب جرجي لا يتعدّى حدود الخطأ بالنقل والترجمة، وليس ما ذكره على لسان أبطال روايته محاولة مقصودة منه لتزييف وتشويه تاريخنا كما قال الناقد أبو خليل.

وهل ذكره اسم "سعد الأزدي" بدلاً من "سعيد الأزدي"، وأيضاً "يسر بن قرطام" بدلاً من "بسر بن أرطأة" يمكن اعتباره محاولة مقصودة لبثّ السّموم إلى شبابنا؟! هل ما يهم شبابنا هو اسم البطل في الرواية أو اسم أحد شخصياتها؟ أمّ أنّ المهمّ هو ما تقوم به الشخصية من أعمال، وما تتّخذ من مواقف؟! ثمّ هل هناك أديب لا يخطئ بالنقل والترجمة؟! هل تبديل حرف في الكلمة بحرف آخر، أو استبدال كلمة بكلمة أخرى يجعل وراء الأكمة ما وراءها؟!

والأديب جرجي كما ذكر شوقي أبو خليل نفسه لديه إمكانيات جيّدة في اللغة العربيّة، فهل من الصعب على جرجي اتّباع أساليب أكثر فاعليّة تمكنّه من الوصول إلى هدفه وهو تشويه تاريخنا العربي كما قال شوقي أبو خليل إن كان ما قاله صحيحاً!

ومن الأمور التي ذكرها النّاقد بحقّ الأديب، إصداره مجلّة الهلال، وقيامه بتحريرها بنفسه، ولكن أليس من الأفضل أن يحرّر مجلّة ما أديب متخصص في كتابة الأدب؟ وكما يقول المثل: "أعطِ الخبّاز خبزه ولو أكل نصفه". ويذكر النّاقد أنّ الأديب كان على صلة بالمستشرقين، فقال:

"وكانت صلته وثيقة بالمستشرقين منذ عام 1881م ومنهم مارجيلوث، وجولد تسيهر، ووليام رايت، واغناطيوس كراتشو فسكي..."[1]

وهنا نتساءل هل علاقة الأديب بالمستشرقين يُعدّ عيباً ونقصاً في أدبه؟! خاصّة أن بعض المستشرقين كتبوا عن تاريخنا العربي أفضل ممّا كتب أدباؤنا! وبعضهم حقّق جزءاً من التّراث العربي وساهم في المحافظة عليه، ومنهم من هو معروف بحبّه للعرب والأدب العربي ولاسيّما "اغناطيوس كراتشوفسكي" المستشرق الروسي الكبير.

ثمّ يذكر النّاقد أنّ الأديب جرجي قدّم كتباً في التاريخ ومنها: تاريخ التمدّن الإسلامي 1902م، والتاريخ العام منذ الخليقة إلى الآن، وتاريخ الماسوينة العام منذ نشأتها إلى هذه الأيام 1889م، وأنساب العرب القدماء 1906.. وله كتب في التّراجم والسِّير، وكتب في الجغرافية، وكتب اللغة العربية وتاريخ آدابها، وكتب في الاجتماع، وله روايات تاريخ الإسلام ومنها: فتاة غسان، وأرمانوسة المصرية، و17 رمضان، والأمين والمأمون، وصلاح الدين الأيوبي،[2]

---

[1] - أبو خليل ، شوقي، جرجي زيدان في الميزان، ص 17.

[2] - انظر المرجع السابق، ص 18- 19- 21

وقبل أن يعرّف لنا الناقد الرواية أو القصة التّاريخية، يذكر قولاً للناقد عمر الدسوقي يقول فيه: "روايات جرجي ما هي إلا تاريخ في قالب قصة لم تكتمل شروطها الفنيّة، وتاريخ لم يحـــافظ فيه على الحقائق".

ويبدو لنا أنّ النّاقد شوقي أبو خليل إنّما ذكر قول عمر الدسوقي السّابق لأنّه وجد فيه ما يعبّر عن رأيه بروايات جرجي زيدان التاريخيّة، ويؤيّد قولنا هذا ما ذكره النّاقد أبو خليل بعــد تعريفه للرواية التّاريخية بقوله:

"هي تسجيل لحياة الإنسان ولعواطفه، ولانفعالاته في إطار تاريخي، ومعنى ذلــك أنّهــا تقوم على عنصرين اثنين:

1- الميل إلى التّاريخ وتفهّم روحه وحقائقه.

2- فهم الشخصيّة الإنسانيّة، وتقدير أهميّتها في الحياة.

ثم يذكر أنّ ولتر سكوت أبو القصّة التّاريخية في أوربة، في قصّته "ويفرلي" التي نشرها سنة 1814م، وكانت موضوعاته مستمدة من البيئة التاريخيّة الأسكتلندية[1]

ويعلّل النّاقد اعتماد الأديب جرجي أسلوب القصة التّاريخية قائلاً: "لقد اعتمــد جرجـــي زيدان أسلوب القصة التاريخيّة ليسرح في خياله ما شاء، مع أنّ الخيال المسموح به في القصّة التّاريخية يجب ألا يتّصل بالشخصيّات الرئيسة، أو بالأحداث الكبرى"[2]

وهذا الكلام يحتاج إلى إثبات، وهنا يستوقفنا تساؤل وهو: مادام جرجي أراد أن يـــسرح في خياله ما شاء كما قال الناقد، فلماذا إذاً اعتمد أسلوب القــصة التاريخيّــة مــع أنّ الخيـــال المسموح به محدود كما يقول الناقد ؟!.

ألا يعلم جرجي هذه الحقيقة؟! أم أنه تعمّد أن يسرح بخياله كما يقول الناقــد؟ هــذا مـــا سوف نراه فيما بعد عند دراستنا لبعض روايات جرجي التّاريخيّة، ويقول الناقد أبو خليل:

"والبعض يقول إنّ جرجي زيدان خالق الرّواية التاريخيّة عندنا مع أنّ سليم البستاني قدّم روايتين تاريخيتين سبقتا روايات جرجي زيدان بأكثر من عشرين عاماً، ففـــي ســـنة 1871م ظهرت قصّة "زنوبيا"، وفي سنة 1874م ظهرت روايته الثانية "الهيام في فتوح الشام".[3]

---

1 - المرجع السابق، ص 23

2 - كتاب شوقي أبو خليل السابق، ص 24.

3 - المرجع السابق، ص 25.

نحن نوافق النّاقد، ونؤيّد كلامه هذا، فصحيح أن بذرة الرواية التّاريخيّة كانت موجـــودة في روايتي سليم البستاني، ولكن ربما قد يكون البعض قد عدّ جرجي أبا الروايـــة التاريخيّـــة العربيّة من حيث الكمّ الذي كتبه. فهو كما ذكر الناقد نفسه قد كتـــب العديـــد مـــن الروايـــات التاريخيّة.

ويتابع الناقد: "كلّ قول يجريه مؤلف القصّة التّاريخيّة على لسان أحد أبطـــال قصـــصه، وليس له سنده التاريخي، ونصه في المراجع والمصادر، يُحسب على المؤلـــف قـــولاً واحـــداً بإجماع الآراء... وعلى هذا فكلّ ما قدمه جرجي من رواياته وكتبه محسوب عليه حصراً"[1]

قد يكون جرجي في بعض رواياته التّاريخيّة قد أهمل سنده التّاريخي، ولكن هل يمكـــن اعتبار كلّ ما قدّمه جرجي في رواياته وكتبه محسوب عليه حصراً كما قال الناقد ؟! ألا يمكن للأديب أن يأخذ فحوى الكلام أو الفكرة التي جاء بها أحد أبطال رواياته ويلبسه حلّـــة جديـــدة؟ هل يُعدّ هذا الفعل تشويهاً لتاريخنا العربي كما قال النّاقد، هل نسي الناقد أبو خليل أنّ جرجـــي يكتب رواية تاريخيّة، وليس تاريخاً محضاً؟!

ويذكر النّاقد أبو خليل قول عمر الدسوقي عن جرجي في كتابه "في الأدب الحديث" فـــي جزئه الأوّل، ص 348 قول:

"إنّه غيّر في حقائق التّاريخ وبدّل، حتى يدخل عامل التشويق والتتابع القصصي، وأخرج عدداً كبيراً من القصص التاريخية بلغت ثماني عشرة قصة مستمدة من التّـــاريخ الإســـلامي، وأربع قصص أخرى مكتوبة كلّها بأسلوب صحفي، خالية من شروطها الفنية وتاريخ لم يحافظ فيه على الحقائق"[2]

هذا الكلام الذي ذكره الناقد على لسان غيره يحتاج إلى إثبات ودليل، وكان على النّاقـــد أبي خليل أن يتوصل إليه بنفسه إن فرضنا جدلاً أنّه صحيح، لا أن يأخذ هذا الكلام من غيـــره من النقاد ثم يبني عليه نقده هو.

روايات جرجي زيدان في ميزان الناقد شوقي أبو خليل:

يبدأ شوقي أبو خليل بعرض روايات جرجي التاريخية، ويضعها في ميزانه الواحدة تلـــو الأخرى، ففي رواية "فتاة غسّان" الجزء الأول، يذكر لنا الناقد شخصيّاتها، ثم يورد لنـــا قـــولاً لجرجي زيدان على لسان أحد أبطاله في هذه الرواية ص 88 وهو:

---

[1] - المرجع السابق، ص 25.

[2] - كتاب شوقي أبو خليل، ص 24

"وسوف يلقى منّا ما لقيه عرب الحجاز واليمن ممّن أبوا الإسلام... فإن أبــوا قاتلنـــاهم حتى نفنيهم عن آخرهم..." ثم في الصفحة 132- 133 من الرواية يقول:

"جاؤوا ليقتّصّوا من الغسّانيين ويبيدوهم عن آخرهم"[1]

يعلّق الناقد أبو خليل قائلاً: "ونحن نسأل أيّ شعب أفني وأبيد في فتوحات المسلمين. من كان جرجي يعمل في استخباراتهم هم أصحاب الإبادة في أسترالية وأمريكا لا المسلمون!!"[2]

يبدو أنّ في قول الناقد هذا تحاملاً على الأديب جرجي، لأنه على ما يظهر أنّ الناقد قــد نسي أن القول الذي يذكره في الرواية، هو كلام جاء على لسان أحد أبطال الرواية، وليس رأياً للأديب جرجي، وليس من الضروري أن يكون كلام أحد شخصيات الرواية مطابقــاً لاعتقــاد ورأي كاتب الرواية، ثم مالنا ولأصحاب الإبادة في أسترالية وأمريكا؟ ومـــا الــذي يثبــت أنّ الأديب "جرجي: كان يعمل في استخباراتهم؟!.

وفي الجزء الثاني من رواية "فتاة غسان"، ص307 يذكر النّاقد أبو خليل قــول جرجــي على لسان أحد شخصيات الرواية:

"سبب فتح دمشق اشتغال توما بولادة أخته، ولولا هذه الولادة لما استطاع خالد بن الوليد فتح دمشق"!.

ثمّ يورد أبو خليل مراجع جرجي وهي خليط بين الطّبري وصموئيل شارب، واســحاق الكندي، ودائرة المعارف البريطانيّة، وصنّاجة العرب، وجون مري ،وملبطرن وسيريل، ونور كهارت، وموشيه وادنين، والأغاني للأصفهاني.. ويستغرب الناقد أنّ جرجي لم يــشر مطلقــاً إلى هذه المراجع.[3]

ويقول أبو خليل: "استعمل جرجي كلمات تدلّ على خبث طويتّة، وسوء نيتّــه، وعمــق صليبيتّه، بحقّ المسلمين الفاتحين منها: (البطش)0 بحقّ النبي (ص) وجيشه المسلم عنــد فــتح مكة المكرمة، وقال بحقّ عمر "شدّة البطش"، فتمكّن بذلك من إذلال قبائل العرب حتى أنّه لــم يعد يحتاج في إذلالهم..."[4]

كما يذكر النّاقد أرقام الصفحات التي وردت فيها هذه الكلمات في الرواية السابقة.

---

[1] - انظر المرجع السابق، ص 36

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 36.

[3] - انظر كتاب شوقي أبو خليل، ص 39.

[4] - المرجع السابق، ص 43.

هل ذكر الأديب لكلمات مثل (شدّة البطش) دليل على عمق صليبيّة، وسوء نيّة بحقّ المسلمين الفاتحين، ولاسيما أنّ مثل هذه الكلمات جاءت على لسان شخصيّات الرّواية، فهذه الكلمات إن كانت تدلّ على خبث طويّة، وسوء نيّة، فهي تدل على سوء نيّة الشخصيّة التي وصفها لنا جرجي في روايته، والرّواية فيها الشخصيّات الإيجابيّة والشخصيّات السلبيّة.

وفي رواية "أرمانوسة المصرية" يتساءل أبو خليل بعد عرضه شخصيات الرّواية كيف تحمل هذه الرواية شعار "روايات تاريخ الإسلام؟" واثنان فقط من الشخصيات مسلمان وعشرة منهم مسيحيّون[1] وبعد ذلك يقدّم الناقد ألواناً من الدسّ والتّجريح من أهمّها قوله:

"يكررّ جرجي اسم بلدة قرب جبل المقطم هي "بابل" كما في الصفحات : 3، 13، 44، 45، 49، 124، 129، 134، 164، 184. وهذا خطأ جغرافيّ كبير، فأين (بابل) وهي مدينة في أواسط غرب العراق كما هو معروف، كما جاء في معجم البلدان، ج1، ص: 309، من (بابليون) وهو اسم لموضع الفسطاط عند الفتح الإسلامي"[2]

كما يذكر الناقد أن جرجي يخلط بين كلمتي (عرب)، و(مسلمين) فيقول:

"يخلط جرجي كعادته في رواياته بين كلمتي (عرب)، و(مسلمين) فهو يقول في الصفحة8: "حارب ابن هرقل العرب قبل فتح مصر"[3]

وهنا نقف قليلاً عند أقوال الناقد أبي خليل فنتساءل: هل تقصّد جرجي أن تكون معظم شخصيّات روايته "أرمانوسة المصرية" شخصيات مسيحيّة؟ وهل يدلّ هذا على كره جرجي للإسلام؟! أليس من حقّ الأديب أن يختار شخصيات روايته، ويختار لها ما يراه مناسباً من الديانات. ثمّ أليس من الأفضل أن يّركز النّاقد على الأحداث والمواقف في الرّواية فيضعها في ميزانه بدلاً من التركيز على الدّين الذي تدين به الشخصية، ثمّ إنّه من الممكن أن نقرأ رواية تتحدّث عن التاريخ الإسلامي وكلّ شخصيّاتها مسيحيّة أو تدين بغير دين الإسلام.

وقد يكون جرجي قد أخطأ حقّاً في خلطه بين (بابل) و (بابليون)، ولكن هل يدلّ هذا على محاولة مقصودة منه لتشويه تاريخنا العربي أو سوء نيّة؟!.

وخلطه أيضاً بين كلمتي (عرب)، و(مسلمين) هل يمكن اعتباره دليلاً على سوء نيّة الكاتب؟! وفي رواية "عذراء قريش" التي تتضمّن مقتل الخليفة عثمان بن عفّان وخلافة الإمام علي يقول الناقد أبو خليل:

---

[1] - المرجع السابق، ص 51.

[2] - كتاب شوقي أبو خليل، ص 52.

[3] - المرجع السابق، ص 53.

"لقد نسج جرجي رواية حول شخصيّة لا وجود لها على أرض الواقع أو علـى مسرح الحياة، فكلّ ما قاله عنها خيال، ولكنّه أدخل خلال هذه البطولة الأسطوريّة وخزات وطعنـات وتشويهاً على تاريخ الإسلام وعلى رجالاته الكرام"[(1)].

وممّا يتعجّب منه أبو خليل ويستنكره قول جرجي في هذه الرواية:

"وأمّا علي كرّم الله وجهه فترجّل وقد شغله أمر الفتاة عن الالتفـات إلـى الميتّـة....". ويعلّق أبو خليل قائلاً: "علي تشغله الفتاة!! علي رضي الله عنه بإيمانه وعظمته وورعه تشغله فتاة متوردّة الوجنتين، يزداد جمالها جاذبية بدموعها وحزنها... هذا تاريخكم يا عـرب يكتبـه لكم جرجي؟!!"[(2)]

نحن لا ننكر ما قاله النّاقد بأنّ جرجي نسج روايته حول شخصيّة خياليّة لا وجـود لهـا على أرض الواقع، والقارئ الجيّد للتاريخ الإسلامي يعرف هذا الأمر، ويعرف أنّ ما يتّـصل بهذه الشخصية خيال في خيال، ونحن عندما نقرأ رواية جرجي "عـذراء قـريش" نـدرك أنّ الكاتب جرجي قد ركّز على جمال البطلة الخياليّة، وأنّه جعل كلّ شخصيّات الرواية الأخـرى تُعجب بجاذبيّتها وقوة شخصيّتها، ربما يكون فعل ذلك بدافع التشويق، وخاصة أنّنا نجـد عنـد قراءتنا للرواية اهتمام جرجي بعنصر التشويق والإثارة. وربما يكون الأديب جرجـي قـصد بقوله إنّ الإمام شُغل بأمر الفتاة، أي أنّ حال الفتاة وما هي عليه من الحزن والبكاء قـد شـد انتباه الإمام، فأراد أن يساعدها، فلماذا يصرّ النّاقد على سوء نيّة الكاتب جرجي؟!

وفي رواية (17 رمضان) التي تبيّن تفصيل مقتل الإمام علـي واسـتئثار بنـي أميّـة بالخلافة، يذكر النّاقد مراجع جرجي ومنها: تاريخ ابن الأثير، التقويم العام، والـسيرة الحلبيـة وتاريخ المقريزي...

ولكنه يقول عنها: "ولكنه يظهر دجله في إيراد هذه المراجع، عندما نقلّب الرّوايـة فـلا نجد تخريجاً لقول، أو سنداً لحادثة، أو إشارة إلى مرجع!!".[(3)]

كما يذكر النّاقد أنّ بطل الرّواية "سعيد" شخصية خياليّة ثم يعرض بعض صور الغـرام في هذه الرواية، وذلك في ص 116: "فرآها مستلقية على الفراش".[(4)]

[1] - المرجع السابق، ص 80
[2] - المرجع السابق، ص 67
[3] - كتاب شوقي أبو خليل: ص 82.
[4] - المرجع السّابق: ص 88- 89.

ونقول ربّما يكون النّاقد محقاً في لومه جرجي وأنه لم يذكر مراجعه، ولكن من حقه كأديب وروائي أن يتخيّل بعض الشخصيّات ويصوّرها كيفما شاء، وفي رواية "غادة كربلاء" يقول النّاقد:

"يخطئ جرجي أيضاً حين يقول في الصفحة: 190: "ولكنّي سمعت بموت يزيد على حدود حوران...). والحقيقة التّاريخيّة تقول: (الطبري جـ:5- ص499) وكانت وفاة يزيد بقرية من قرى حمص يُقال لها حوّارين من أرض الشام...".[1] ويتابع الناقد:

"حتى أنّه يدري ما يجول في خواطر الشخصيّات" كقوله: وسمع هاتفاً ص 28- قال في نفسه ص 89- تصوّرت ص 148- تخيّلت ص 159، أبمثل هذا تكتب الرواية التاريخية؟! وبالتالي .. يا عرب: أبمثل هذا يُسجّل تاريخكم؟!!"[2]

ربّما يكون الأديب قد أخطأ حقاً ولكن هل موت أحد شخصيّات الرواية وهو "سعيد" على حدود حوران بدلاً من موته بقرية من قرى حمص، يُعدّ دسّاً وتشويهاً قصده جرجي بحق تاريخنا الإسلامي؟ ثمّ هل هناك ما يمنع الكاتب من جعل شخصيات روايته تتخيّل وتتصوّر؟!.

- وفي رواية "الحجاج بن يوسف" التي تتضمّن حصار مكة في عهد عبد الله بن الزبير، يذكر أبو خليل أنّ بطلي الرّواية لا أصل لهما في "الأعلام" ولا في "أعلام النساء"، ويذكر ألفاظ الغرام والصور المضحكة في الرّواية ومنها: "إنّني ذهبت شهيداً في سبيل هواك...."[3].

ونردّ على كلام النّاقد هذا بأنّ روايات جرجي ليست تاريخاً صافياً، وهي تقوم على الحبكة الغرامية كما ذكر جرجي نفسه.

وفي رواية "فتح الأندلس" يذكر النّاقد أن جرجي يورد كلاماً طويلاً على لسان طارق أو بدر ولكنه لا يذكر المصدر أو المرجع، كقول جرجي ملعقاً على إحراق السفن: "فأحرق سفنه ليبذر اليأس في نفسه وفي نفوس رجاله". ... ص354.

ويعلّق أبو خليل: بقوله: "وكان الأجدر أن يقول: "فأحرق سفنه ليبذر الأمل والتّصميم والعزيمة والاستماتة في طلب الشهادة أو النّصر".

كما يقول: "وهكذا إنّ كتاباً يحمل عنوان: "روايات تاريخ الإسلام" صفحاته 276، ليس فيه عن طارق والفتح إلا ما يقلّ عن خمسين صفحة .. وما بقي من صفحات رواية غراميّة، لعب الخيال فيها دوراً بارزاً....." [4].

---

[1] - المرجع السّابق: ص 102.

[2] - المرجع السّابق: ص 102- ص 103.

[3] - كتاب شوقي أبو خليل، ص 111.

[4] - المرجع السابق، ص 124، ص 125.

ربّما يكون الناقد محقاً في أنّ الأديب جرجي لم يستفض بوصف الأحداث التاريخيّة في هذه الرواية، وركز على القصّة الغرامية، وقد يكون ذلك بداعي جذب القرّاء الشّباب حتى يقبلوا على قراءة الرّواية دون تذمّر أو ملل، ولكن هل قصد بقوله: "فأحرق سفنه ليبذر اليأس في نفسه وفي نفوس رجاله" تشويه صورة البطل طارق بن زياد؟!، نحن لا نستطيع أن نجزم بما قصده الكاتب جرجي، ولكن من المحتمل أن يكون قصده أنّ طارق بن زياد أحرق سفنه ليبذر اليأس في نفسه وفي نفوس رجاله من النّجاة والخروج أحياءً من المعركة فبذلك يستبسلون في قتالهم، لأن المقاتل عندما يدرك أنّه ليس أمامه إلا الشهادة أو النصر، فإنه يبذل كل ما بوسعه لكي ينتصر، وينحصر تفكيره في القتال والتضحية فليس أقوى من الإنسان الذي وضع الموت بين عينيه.

وفي رواية (شارل وعبد الرحمن) يقول الناقد أبو خليل:

"في الصفحة 8، يركّز جرجي، على اغتصاب المسلمين للكنائس"، وأنّهُ يخلط كعادته بين كلمة عرب وبربر ومسلمين[1]. فيقول:

"وتراه يسمّي البربر "البرابرة" في الصفحات: 28، 325، 330، 331، 336. وشتّان بين المعنيين، بين قبائل تسكن الأطلس والمغرب الأقصى، وبين معنى "البرابرة" التي أطلقت على القبائل الهمجيّة التي جاءت أوربة فدمّرتها، وأبادت مدناً وقرى......"[2]

ونحن إن كنّا نوافق الناقد على ما جاء به، في ملاحظاته الدقيقة السّابقة، لكنّنا لا نستطيع أن نجزم بأنّ ذلك محاولة مقصودة من الكاتب جرجي لتشويه تاريخنا العربي، وربّما يكون الأديب جرجي لم يرَ فرقاً من وجهة نظره بين "البربر" والبرابرة"، أو أنّه لم يحسن اختيار ألفاظه.

ورواية "أبو مسلم الخراساني" يقول النّاقد عنها: إنّ الشعوبيّة تقطر من كلمات جرجي في هذه الرّواية، وإنّ جرجي جعل أحداث تاريخنا "غراماً وانتقاماً"... ، وإنّ روايته هذه رواية شعوبيّة فيها تحقير للعرب وتعظيم للفرس وإثارة لنار العداوة والطائفيّة....."[3].

إنّ اتهام النّاقد للأديب جرجي بالشعوبيّة هو أمر خطير وبحاجة إلى إثبات ودليل، وليس لنا أن نتّهمه أيضاً بأنه عظّم شأن الفرس في هذه الرواية، وأنّه أثار نار العداوة والطائفيّة لمجرد كلام جرى على لسان شخصيّات الرّواية، وهل تعد "الشعوبيّة" تهمة جاهزة، أو سلاحاً

[1] - كتاب شوقي أبو خليل، ص 133.

[2] - المرجع السّابق، ص 136

[3] - انظر: المرجع السابق، الصفحات 147، 139، 157.

ماضياً نشهره في وجه منْ نريد دون أدلّة قاطعة أو براهين تثبت هذه التهمة؟!. وما هي مصلحة جرجي زيدان من تعظيم الفرس على حساب العرب، أعتقد أنّ لا مصلحة له.

أمّا رواية "العبّاسة أخت الرشيد" التي تشمل نكبة البرامكة وأسبابها، يذكر الناقد أنّ جرجي شوّه فيها سيرة العباسييّن فيقول:

"فوَصْف الأمين بالقصف واللهو والمجون والخلاعة.. شعوبية من جرجي"[1]، كما يذكر النّاقد أنّ الأديب جرجي شوّه صورة الرشيد فيقول:

"وهكذا يركّز جرجي في سياق الرّواية كلّها على بناء صورة مشوّهة للرشيد ينتهي القارئ من الرّواية وقد انعكست الصورّة تماماً، فيبقى في القلب كره واحتقار للشخصيّة التي أرادها جرجي للرشيد"[2].

ولكن هل نستطيع أن ننكر وجود مجالس اللّهو والشّرب أيام الرشيد والأمين ، وانغماس العباسيين ومنهم الرّشيد والأمين في التّرف والشّرب، ساعدهم على ذلك انتشار مظاهر الغنى والتّرف، ونحن بعكس ما قاله النّاقد ربما نعذر الخلفاء لتصرّفهم هذا، فكل ما حولهم من مظاهر الحياة الغنيّة وانتشار البذخ والترف يدعوهم إلى استغلال كلّ هذا في سبيل شهواتهم، وقد نشعر بالشفقة عليهم لأنّ الحياة الدّنيا سرقتهم من واجباتهم نحو شعوبهم ومصالح بلادهم، ولا نشعر بالاحتقار كما قال النّاقد.

وفي رواية "الأمين والمأمون" التي يذكر الناقد أنّها تدور حول بطلين خياليين يقول: "ويستمّر جرجي بشعوبيّته بمدح الفرس والخرّمية والزّنادقة..... واصفاً العرب المسلمين بالظلم والفساد والبداوة، بالرذيلة والمنكرات ... "[3]، وقوله أيضاً: "ومن دسّه وخرافاته، أنّه جعل في قصر الأمين "دائرة للمنجّمين"......"[4].

ولكن هذا الموقف من العرب المسلمين، واتّهام بعضهم بالظلم والفساد والرذيلة، جاء على لسان بعض شخصيات الرواية، ولا يعبّر بالضرورة عن رأي كاتب الرواية ولا يمكننا اعتباره دليلاً يؤكد شعوبية جرجي، وكرهه للعرب المسلمين.

وهل يُعد دسّاً وتشويهاً وخرافاتٍ أنّ الأديب جرجي جعل في قصر الأمين "دائرة للمنجّمين"، وعلم التنجيم علم قائم بذاته له أصوله، ولا يمكن إنكار وجوده آنذاك زمن الأمين

---

[1] - المرجع السّابق، ص 170.

[2] - كتاب شوقي أبو خليل، ص 181.

[3] - المرجع السّابق ، ص 190.

[4] - المرجع السابق، ص 190.

والمأمون، ونحن لا نستطيع إنكار اعتماد الكاتب جرجي على الخيال كما قال النّاقد أبو خليل نفسه، إذاً فمن الطبيعي أن يعتمد جرجي على التّنجيم، ويوظف ذلك في روايته، لأنه يؤمّن له مساحة واسعة من الخيال، وصحيح أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلّم يقول: "كذب المنجمون ولو صدقوا"، ولكننّا لا نستطيع أن ننكر أنّ العرب بشكل عام معروفون بميلهم إلى التّنجيم، واشتغالهم به، فلماذا يعدّ الناقد أنّ ذكر جرجي دائرة التنجيم في قصر الأمين من الخرافات والدّسائس؟! والتّنجيم معروف لدى العرب ولدى الشعوب الأخرى، حتى إنّنا نجده في أيامنا هذه.

وفي رواية "عروس فرغانة: نذكر بعض ملاحظات النّاقد حول هذه الرّواية ومنها قوله: "جعل جرجي تاريخنا الإسلامي: "جواسيس، وانتقام، ودسائس" يقابلها تمجيد بالخُرَّميّة والفرس، مظهراً بجلاء شعوبيّة حاقدة"[1].

كما يقول: "كان ضرغام قد بثّ العيون والجواسيس....."[2] وذلك في الصفحة 121 من هذه الرّواية، كما يستنكر النّاقد قول جرجي في الصفحة 168: "والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه"[3].

ولكن هذا الوصف "للعربي": جاء على لسان أحد شخصيات الرّواية ولا يعبّر بالضرورة عن رأي الكاتب جرجي، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

ثم ما الضرر في استخدام الكاتب للفظتي العيون والجواسيس، ألم يكن العرب المسلمون في فتوحاتهم يعتمدون على العيون والجواسيس مادام في ذلك مصلحة للمسلمين، وسبب لنصرهم. وكلّ دول العالم تعتمد على ذلك، في ذلك الوقت وأيامنا هذه.

يبدو لنا أن النّاقد أبو خليل اختار من الرواية ألفاظاً جمعها بدّقة لكي يثبت فكرة آمن بها وسيطرت عليه وهي شعوبية جرجي زيدان.

وفي رواية "أحمد بن طولون" يقول الناقد أبو خليل عنها: "هذه الرّواية الغريبة والتي لا تمتّ إلى الواقع بصلة، مسرح أحداثها بلا استثناء في الكنس والأديرة"[4].

ويذكر أيضاً أنّ جرجي ركّز على أنّ المسلمين أخذوا بتحويل الكنائس إلى مساجد في مصر، فيذكر قول جرجي على لسان أحد الشخصيات:

---

1 - كتاب شوقي أبو خليل، ص 203.

2 - المرجع السابق، ص 204.

3 - المرجع السابق، ص 211.

4 - المرجع السابق، ص 216.

"وحوّلوا بعض الكنائس إلى مساجد [ص5]"[1].

هل يحقّ لنا أن نعدّ الرّواية التي يكثر فيها الحديث عن الكنائس والأديرة والمسيحيين رواية غريبة؟! ثم إنّ الكاتب حر في اختيار المسرح الذي يراه مناسباً لأحداث روايته.

وفي رواية "عبد الرحمن الناصر" يذكر قول جرجي في الصفحة 16 عن عبد الرحمن الناصر:

"استبدّ بالأحكام، واغتصب المناصب من أهلها فسلّمها إلى جماعة من الخصيان والعبيد حملوا إليه الأغنام من أقصى الشمال......"[2].

ورواية "فتاة القيروان" يقول النّاقد أبو خليل عنها:

"هذه الرواية (فتاة القيروان).. خيال، وحبّ، وساحرة، وظالمون ومظلومون ودسائس وثارات وانتقام، ويهود.. ينتهي هذا كلّه إلى لقاء الحبيبين.. فما علاقة تاريخ الإسلام بها؟ وبماذا تفيد هذه الرّواية أبناء الجيل وهم في معركة إثبات الذّات أمام عدوّ صهيوني لا يرحم؟!؟"[3]

نحن مع النّاقد في أنّ الكاتب جرجي كان يجب أن يركّز أكثر على تاريخنا الماضي ويربطه بما نعانيه الآن من هجوم شرس من الصهاينة المعتدين، ولكنّ جرجي نفسه يشير منذ البداية إلى أنّ رواياته هي روايات تاريخيّة غراميّة، فمن الطبيعيّ إذاً أن يكون فيها خيال، وحبّ، وثارات، وانتقام، ولقاء بين الحبيبين.

أمّا رواية "صلاح الدين الأيوبي" فيذكر النّاقد أنّ فيها خطأً تاريخياً كبيراً ينقضها من أساس فكرتها وهو أنّ جرجي جعل "ست الملك" أختاً للعاضد، وهي أخت الحاكم وتوفيت سنة 415هـ/ 1024م أي قبل قيام دولة الأيوبيّن بكثير، فبين قيام دولة الأيوبيين وبين "ست الملك" مائة واثنتين وخمسين سنة!!، كما يصف جرجي صلاح الدين بأنّه "كردي" بقوله في الصفحة 20: "لملاقاة هذا الكردي"[4]

ربما كان الكاتب جرجي لم يعتمد على مصادر موثوقة ينقل منها، ولذلك أخطأ في استخدام كلمة (كردي) وكان المفترض أن يقول لملاقاة هذا البطل لأنّ في هذه المنطقة العربية يتعايش الكردي والعربي والشركسي دون تفرقة، ولكن هل هذا يجعلنا نرفض الرّواية

---

[1] - المرجع السابق، ص 220.

[2] - المرجع السابق، ص 227.

[3] - كتاب شوقي أبو خليل، ص 248- 249.

[4] - انظر كتاب شوقي أبو خليل، ص 254.

بأكملها؟! كما يجب ألا ننسى أنّ وصف صلاح الدين بأنه كردي جاء على لسان أحد شخصيات روايته، وما الضرر في أنه كردي، فليس مهماً انتماء البطل القومي وإنما المهم أنه صنع البطولات وأحبّ شعبه وأرضه، ألا يوجد أكراد يحبّون بلادهم وشعبهم؟!. وهل استخدام جرجي لكلمة "الإفرنج" بدلاً من كلمة "الصليبيين" يدل على صليبيته، كما قال الناقد في ملاحظاته حول رواية جرجي "شجرة الدر"؟![1] ويقول النّاقد عن رواية "الانقلاب العثماني":

"فماذا نقول بحقّ رواية أبطالها الثلاثة خياليون؟!؟"[2]

ونحن مع النّاقد في أنّ أبطال الرواية يجب أن تكون شخصيّات حقيقيّة كانت موجودة في التاريخ، ما دام الكاتب يطلق على رواياته "روايات تاريخ الإسلام". ولكن لسنا معه في أن إبدال كلمة الصليبيين" بكلمة "الإفرنج" يدل على صليبية جرجي. علماً بأنّ مصطلح الصليبيين مستخدم حتى في الأدبيّات الأوربيّة ولكن في الشرق يحاولون استبداله بمصطلح الإفرنج حتّى لا تُجرح كرامة بعض الناس.

ونحن نوافق النّاقد في ملاحظته حول رواية جرجي "أسير المتمهدي" في أنّ جرجي ذكر سورة جديدة هي سورة "المبايعة" في روايته ومن يقرأ كتاب الله عزّ وجلّ في مشارق الأرض وفي مغاربها لن يرى هذه السورة[3]، فالقرآن الكريم كتاب مقدّس، وكلام الله سبحانه المنزل على نبيّه صلّى الله عليه وسلم محفوظ بحفظ الله تعالى، ولا يمكن لمخلوق أن يزيد في سوره، أو يتلاعب بألفاظه.

ورواية "استبداد المماليك" يقول عنها النّاقد:

"حشو كلام، أظهر فيها جرجي مجتمعاً ساذجاً، غارقاً في التّنجيم والمندل"[4]

والكاتب حرّ في اختيار المجتمع الذي يصوّره، وما دام هذا المجتمع الذي يصوّره في روايته ساذجاً كما قال النّاقد فمن الطبيعي أن يغرق في التنجيم والمندل.

ويذكر النّاقد أنّ في رواية "المملوك الشارد" خطأً تاريخيّاً، بالإضافة إلى ذكر جرجي للآية الذهبيّة ولا يُعرف مصدر هذه الآية.[5]

---

1 - المرجع السابق، ص 262.

2 - المرجع السابق، ص 273.

3 - انظر: كتاب شوقي أبو خليل، ص 287.

4 - المرجع السّابق، ص 294.

5 - انظر المرجع السّابق، 302.

ونحن مع النّاقد في أنّ جرجي كان يجب أن يذكر مصدر الآية الذهبية إن كانت موجودة فعلاً.

وعن آخر رواية "جهاد المحبيّن" يقول النّاقد أبو خليل:

"رواية غراميّة تمثّل مأساة من مآسي المحبين ومـــا يقاســـونة تحـــت عنـــوان "تـــاريخ الإسلام"[1]

ونحن نقول ما دام الأديب جرجي جعل عنوان الرّواية "جهاد المحبيّن" فمن الطبيعـــي أن يصورّ فيها مآسي المحبيّن وما يقاسونه، ولكن يجـــب عليـــه ألا يـــصنّفها ضـــمن الرّوايـــات التّاريخيّة.

وفي خاتمة كتابه يقول الناقد شوقي أبو خليل تحت عنوان (تاريخكم يا عرب) وبعـــد أن لخّص لنا ملاحظاته ومنها أنّ جرجي تعمّد في رواياته التّخريب والكذب لأجل تحقير العـــرب، عن سوء قصد، لا عن جهل، كما أنه لا يمكننا استخراج فائدة من رواياته، كما كان يختـــصر فيما ينبغي الإطناب فيه، والإطناب فيما ينبغي الاختـــصار... واعتمـــاده علـــى كتـــب شـــكّ المؤرخون بصحتها مثل الأغاني الذي جعله مرجعاً رئيسياً في رواياته.

وفي النهاية يقترح الناقد حلّين: إمّا منع هذه الرّوايات من التداول في الأسواق وإمّا إلزام دور النشر والمطابع بوضع عبارة "هذه الرّوايات الزيدانية لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة"[2].

هل يمكن التسليم بكلّ ما جاء به النّاقد شوقي أبو خليل؟ وهل يمكن الحكم على ما كتبـــه الأديب جرجي زيدان من وجهة نظر واحدة؟ والجواب معروف يعرفه الجاهل قبـــل المثقّـــف، فنحن لا يمكن أن نحكم على ثمار شجرة ما من خلال رأي شخص واحد أكل من هذه الشّجرة، بل لا بد من الوقوف على آراء مجموعة من المتذوّقين الذين أكلوا من هذه الشجرة، ومقارنـــة هذه الآراء وغربلتها لمعرفة الحقيقة، وفيما إذا كانت ثمار هذه الشجرة جيّدة أم سيّئة.

---

[1] - المرجع السّابق، 303.

[2] - انظر: المرجع السّابق، الصفحات: 214- 307 -313- 315

دعوة إلى إعادة النّظر فيما كتبه الأديب جرجي زيدان:

إذاً للوقوف على حقيقة ما كتبه الأديب جرجي لابد من إعادة النّظر في كلّ ما كتبه، لا أن نوافق على ما جاء به ناقد ما، وهذا ما أكدّه الباحث غياث رمزي الجرف فيما كتبه تحت عنوان (دعوة إلى إعادة النّظر). فقد أشار هذا الباحث في مقدمّة بحثه إلى ما أثاره الأديب جرجي من جدل فيما كتبه فقال:

"ما أحسب أنّ مؤرّخاً أو لغوياً أو صحافياً أو أديباً.. ذاع صيته خلال أكثر من قرن وحظي باهتمام كبير، وردّد بعض المشتغلين بالثقافة والأدب وسواهم "ادّعاءاته" التراثيّة والتاريخيّة العربيّة الإسلامية وكثر القول فيه والجدل وتنوّعت فيه الآراء وتضاربت أكثر من جرجي زيدان.

وهذا الجدل والتنوّع والتضارب لا يتعلق فقط بحياته ورواياته التي دخلت التّاريخ الحديث باسم روايات تاريخ الإسلام، بل يتعداه إلى جوهر كتاباته المختلفة لاسيّما التّاريخيّة منها".(1)

نلاحظ من قول الباحث السّابق إشارته إلى بعض المشتغلين بالثقافة والأدب الذين يسمّون ما كتبه الأديب جرجي في التّاريخ العربيّ "ادّعاءات"، وربما يقصد الباحث من قوله هذا أن يلفت انتباهنا إلى البعض الذين لا تهمّهم الحقيقة بقدر ما يهمّهم التجريح بأديب ما أو اتّهامه بتشويه تراثنا العربيّ، وذلك من أجل لفت النّظر إليهم أو تحقيق الشّهرة، والصعود على سلّمها، لذلك يجب أن نكون حذرين في إطلاق الأحكام، وأن نعيد النّظر في كلّ ما كُتب عن الأديب جرجي وعن ما قيل في رواياته التّاريخيّة، وهذا ما دعا إليه الباحث غياث رمزي الجرف فهو يذكر أنّه بعدما قرأ ما تيسّر له من أعمال جرجي زيدان، وكذلك ما تيسّر له من كتابات عن أعماله، وصل إلى نتيجة مفادها أنّه لابد من إعادة النّظر في كتابات جرجي زيدان "الملْتبِسة" ولابد من مراجعة شاملة لها في مناخ نقدي مثقّف وحرّ، ورؤية علميّة غنيّة ومضيئة، بعيدة عن موقف من يتصدّى الأخطاء ويغمض عينه عن الصّواب، وبالتّالي بعيدة عن كلّ عسف وقسر وإقحام ورغبة في "التفخيم" أو :التبخيس"... فالباحث يدعو إلى التأنّي والتأمّل، والوقوف وقفة عقلانيّة من مختلف الآراء فيقول:

"تأسيساً على ما تقدّم أتمنّى على من يقرأ هذه المقاربة أن يقف وقفة عقلانيّة متأمّلة من مختلف الآراء والتعليقات والإشارات والملاحظات والإضاءات الواردة فيها، وأن يقرأها قراءة واعية فاحصة مستكشفة ومتسائلة... وأن يزيل الغشاوة عن بصيرته إن وجدت، وأن يلحظ

---

[1]- الجرف، غياث رمزي: دعوة إلى إعادة النّظر، مجلّة بناة الأجيال، العدد (57)، خريف 2005، ص 116

هذا المنطق "التهليلي- التبريري"- عند بعضهم- الذي يدعو إلى الدهشة والاستغراب ووضع علامات الاستفهام والتعجّب...."[1]

وكما نرى يبدو الباحث موضوعيّاً يقف على الحياد، ولا يؤيّد موقفاً، أو يرفض آخراً، وهو يعرض لنا مجموعة آراء وتعليقات حول ما كتبه الأديب جرجي زيدان، فهو بذلك يضع بين أيدينا مجموعة من المفاتيح، ويريد منّا أن نختار المناسب منها للولوج إلى باب الحقيقة، وهذا ما يجعلنا نؤيّده فيما جاء به في دعوته إلى عادة النظر فيما كتبه الأديب جرجي، ويذكر لنا رأي السيّد محمد كرد علي تحت عنوان كتبه الباحث الجرف وهو "آراء وتعليقات" حيث يشير الباحث إلى ما قرّره السيد كرد علي وهو أنّ ما كتبه جرجي زيدان من مؤلّفات أدبيّة وعلميّة، ومن روايات وقصص أخذ أكثرها من تاريخ العرب، ومن اثنين وعشرين مجلّداً من "الهلال" وهو محصول كبير أخرجه زيدان بسرعة وما توخّى أن يكتب للخاصّة بل كتب على الأكثر للعامة والطبقة الوسطى.[2]

ويذكر الباحث أنّ السيّد كرد علي يرى أن طريقة المؤلّف السّهلة التناول حبّبت إلى كثير من قرّاء العربيّة الرّجوع إلى التّاريخ الإسلامي، وكان من قبل وقفاً على خاصّة المسلمين والمشتغلين بالعلم فهذه منقبة يجب أن لا ينساها النّاقدون والطّاعنون.. كما يشير الباحث إلى ما ذهب إليه السيّد كرد علي في أنّ زيدان كان أوّل من خاض بحر الأدب العربيّ، واستخرج دُرره وصاغ أكثرها في قصصه صياغة مقبولة يحملها إلى القرّاء...[3]

كما يشير الباحث "الجرف" إلى ما قدّمه الأستاذ شوقي أبو خليل في كتابه الذي عنوانه "جرجي زيدان في الميزان" الذي ذكرناه سابقاً، وعرضنا ما جاء فيه من نقد قدّمه شوقي أبو خليل حول ما كتبه جرجي زيدان في رواياته التّاريخيّة، فيذكر الباحث قول أبي خليل الذي قدّمناه سابقاً وهو أنّ تاريخنا العربيّ وأعلامه يواجه محاولة مدروسة دقيقة، لتزييفه وإفساده، وتمييع قيمه ومثله،.... وأنّ الغاية التي توخّاها جرجي هي تحقير الأمّة العربيّة، وإبداء مساوئها، وتمييع تاريخها وتفسيره تفسيراً جنسياً فرويدياً... فما ترك سيّئة إلا وعزاها للعرب..[4] كما يشير الباحث إلى استغراب شوقي أبي خليل من أنّ روايات جرجي التّاريخيّة لم يُكتب عنها نقدٌ شافٍ خلال ثلاثة أرباع القرن، فكأنّها في حراسة متينة ورعاية أمينة، ثمّ يذكر لنا قول الأستاذ شوقي أبي خليل الذي جاء فيه:

---

[1] - انظر: المرجع السابق، ص 116.

[2] - انظر: المرجع السّابق ، ص 116

[3] - انظر المرجع السّابق، ص 117

[4] - انظر المرجع السابق، ص117.

"إنّ جرجي حرّ في إنشاء أية قصّة غراميّة، كقصة "جهاد المحبيّن" ولكنّه ليس حرّاً بأن يجعل عنوان هذه الرّوايات الغراميّة "روايات تاريخ الإسلام" وبخاصّة أنّه عندما يخطئ بها يخطئ خطأ من يعلم، لا خطأ من يجهل!!.

وبعد أن يقدّم لنا الباحث بعض آراء شوقي أبو خليل يشير إلى أنّ كتاب الأستاذ شوقي المذكور آنفاً هو كتاب يتناول بالدّراسة والتحليل أعمال جرجي زيدان الرّوائية فقط.

وهذه إشارة مهمة من الباحث الجرف، وفي صالح الأديب جرجي، وكان يجب على الناقد شوقي أن يثبت صحّة ما جاء به حول الأديب جرجي من خلال كتب هذا الأديب التاريخية، وليس من خلال روايته التاريخية فقط.

يتابع الباحث فيقول: "وإذا كان الأستاذ شوقي أبو خليل قد نظر إلى جرجي على أنّه أحد العابثين في تراث أمّتنا وتاريخها وآدابها ورجالاتها.. فإنّ الأستاذ محمد عبد الغني حسن قد نظر إليه على أنّه علم من أعلام العرب، وقدّم عنه كتاباً ضمن سلسلة أعلام العرب، وقرّر أنّ جرجي زيدان كان أوّل من كتب القصّة التّاريخيّة، وأنّه دون منازع خالق الرّواية التّاريخيّة عندنا.. وذهب إلى أنّ جرجي هو الذي نقل إلى الأدب العربيّ مذهباً من مذاهب الأدب الأوربيّ هو القصص التّاريخيّة... وكان يسير على نهج الأوربيّين والمستشرقين في تاريخ الآداب العربيّة ".[1]

نستنتج ممّا سبق أنّ الباحث الجرف في عرضه لرأي شوقي أبي خليل ورأي محمد عبد الغني حسن السّابقين أراد منّا أن نقف وقفة واعية متأنية أمام ما قرأناه، وأن نعيد النّظر فيما كنّا قد كوّناه من رأي حول ما كتب جرجي كما يشير الباحث إلى رأي الأستاذ عمر الدسوقي الذي كان يرى أنّ جرجي غيّر في حقائق التّاريخ العربي وبدّل حتّى يدخل عامل التشويق والتتابع القصصي ... وأنّ بعض قصصه ما هي إلا تاريخ في قالب قصّة لم تكتمل شروطها الفنيّة، وتاريخ لم يحافظ فيه على الحقائق.[2]

أمّا الأستاذ عبّاس محمود العقّاد فيذكر الباحث أنّه كتب عن جرجي زيدان في كتابه "رجال عرفتهم" كتابة لا تخرج عن دائرة التعليقات المتفرّقة الخالية من أيّ تحليل أو نقد أو بحث أو استقصاء ... وأنّ العقّاد تحدّث في كتابه عن نفسه أكثر ممّا تحدّث عن جرجي....

ويذكر الباحث أيضاً رأي الأب لويس شيخو الذي يرى فيه أنّ كلام جرجي زيدان في كتابه "تاريخ آداب اللّغة العربيّة" في مرّات كثيرة تعريب لا تأليف وكان العدل يقضي بأن

---

[1] - انظر: المرجع السّابق، ص 118.

[2] - انظر المرجع السّابق، ص 118.

يشير إليه مراراً في أسانيده إلى رواته في ذيل الكتاب. ويقدّم لنا الباحث قول الأب لويس شيخو والذي جاء فيه: "نقل جرجي – فصولاً كاملة من كتاب الآداب العربيّة لكارل بروكلمان..."[1]

كما يشير الباحث الجرف إلى أنّ البعض كال لجرجي المديح فهو من أشهر رجال النّهضة المتأخّرين، عصامي كبير، ولغويّ شهير، ومؤرّخ يُرجع إليه، وأديب ذائع الصّيت، وأوّل من كتب في تاريخ الآداب العربيّة في الشّرق، صاحب الهلال الأغرّ ومؤسّسه ومنشئه ومؤلّف ما يزيد على ثمانين مجلّداً كبيراً في اللّغة والتّاريخ والصّحافة والعلم.. وكان وطنيّاً شرقياً يتفانى في حبّ الشّرق عامة والعرب خاصّة.[2]

لكنّ الباحث لم يذكر لنا أسماء هؤلاء الذين كالوا المديح لجرجي زيدان: وكان الأصحّ أن يذكر أسماء بعضهم، ويورد بعض أقوالهم وأن يذكر رأيه هو فيما كتبوه أو أن يعلّق على هذه الأقوال. كما يعرض لنا الباحث ما قاله الأديب محمد حسين هيكل دون أن يشير إلى المرجع الذي أخذ منه القول فيقول: "وقال محمد حسين هيكل: لم يدخل جرجي إلى روح العرب لكي يستطيع أن ينشرها أمام نظره ويفتّش فيها ويعرف دقائقها..."[3]

ولا يكتفي الباحث غياث رمزي الجرف بما جاء به في بحثه من آراء، وما عرضه من مواقف بعض الأدباء والنّقاد ممّا كتبه جرجي زيدان وخاصّة في التّاريخ العربي الإسلامي، بل نراه يذكر تحت عنوان "إشارات وملاحظات وإضاءات" بعض الأمور حول الأديب جرجي زيدان والتي تدعّم الآراء السّابقة، وما من شكّ في أنّها تفيدنا في إعادة وجهة نظرنا التي دعا إليها الباحث، ومن هذه الإشارات التي ذكرها الباحث:

1- أهدى جرجي زيدان كتابه "الفلسفة اللغويّة" إلى المجامع العلميّة في أوربا وعليه انتخب عضواً في كثير منها، وكان من أشهر رجال الشّرق عند المستشرقين الذين كانوا يرجعون إليه في كثير من الأمور اللغوية والتّاريخيّة.

2- أشارت بعض المراجع إلى أنّ جرجي كان سريع التأليف، ألفّ في مدّة تزيد على عشرين سنة ونيّف ثمانين مجلّداً كبيراً، ولم يكن له من الوقت ليمحّص وينقد ويؤلّف على الطّراز العلمي الجديد وقد سعى جهده في أن تكون تآليفه علميّة فلم يوفّق كثيراً، وجهوده في التّاريخ تقوم على الجمع والتنقيب ولم يفتح في التّاريخ فتحاً جديداً.

---

[1] - انظر المرجع السّابق، ص 118، ص 119.

[2] - انظر: المرجع السّابق، ص 119.

[3] - انظر المرجع السّابق ، ص 119.

3- ألّف جرجي زيدان ثماني عشرة رواية بناها على التّاريخ الإسلامي، وحملت عنوان "روايات تاريخ الإسلام" هذا وقد صرّح جرجي أكثر من مرّة أنّه يبغي مــن رواياتــه إطـــلاع العامّة وقليلي العلم على الحقائق التاريخية.... وهكذا قدّمها بقالب روائي جذّاب رشيق يعتمــد السّهولة والرقّة والأحاديث الغرامية المغرية.. والخيال الذي يتسع حيناً ويضيق حيناً آخر.

4- كان جرجي يزيد في رواياته التّاريخيّة شخصيّات لا وجود لها، ويبنيها على سرّ ما فإذا لم يجد ذلك السرّ قام هو باختراعه للإثارة والتشويق..... إضافة إلى أنّه كان يكثــر مــن المفاجآت والموضوعات ويكرّرها.

5- صرّح جرجي نفسه بإشارة جديرة بالتأمّل، وهي أنّه كان يبدأ بالرواية مــع مجلّــة "الهلال" لنشرها فيها فإذا وجد أنّ الرّواية تكاد تنتهي ولم تزل هنـــاك فــسحة فــي صــفحاتها وإعدادها فإنّه كان يمدّ الرّواية والعكس صحيح.

6- وهناك إشارة أخرى جديرة بالتأمّل إلى الحد الأقصى، وقد ذكرتها بعض المراجـــع، تفيد أنّ جرجي زيدان لم يقصد أن يكون روائيّاً، ولكن اتّفق له مرّة أن ذيّل "هلالــه" بروايــة عليها صبغة وطنية مصريّة هي "أرمانوسة المصريّة" فزاد رواج الهلال تلك السّنة زيادة لمس بها الفائدة وكان زيدان من الذين يعرفون كيف يغتنمون الفرص، فرأى أنّ تـــأليف الرّوايـــات يزيد في رواج الهلال وذاق به لذّة ووافق ميله التّاريخي.. وذهــب (بعــضهم) إلــى أنّ تلــك الحقائق التاريخية التي أراد زيدان تقريرها لا تغني الأديب بل هي في خدمة العامّــة فحــسب فهو يبني رواية من ثلاثمئة صفحة ليقرّر حقائق عشرين صفحة إذا وفّق، وفائدة عملــه فــتح جديد فقط فضلاً عن التفنن في الإنشاء.(1)

وهذه الإشارات والملاحظات التي قدّمها لنا الباحث غياث رمــزي الجــرف لا يمكــن تجاهلها، بل لها أهميّة ودور في تكوين وجهة نظر صحيحة فيما كتبه جرجي زيدان في مجال التّاريخ العربيّ، ولكن يُؤخذ على الباحث عدم إشارته إلى المراجع التي استقى منها معلوماته، ولكن هذا لا يجعلنا نشكّ فيما جاء به، لأننّا قرأنا ما قدّمه في كتب مختلفة، ويعود إليه الفــضل في جمع هذه المعلومات وتقديمها لنا، وهذا يسهّل لنا مقارنتها وتمحيصها وغربلتها مــن أجــل الوصول إلى نتيجة مرضية بعد أخذ الثّمين منها وطرح الغثّ الذي لا قيمة له.

يقدّم لنا الباحث بعد ما عرضه من إشارات مهمّة، لمحة عن حياة الأديب جرجي زيدان، ولا داعي لذكره، لأنّ ما ذكره الباحث حول الأديب جرجي كنّا قد ذكرناه سابقاً في عرضــنا لكتاب النّاقد شوقي أبو خليل (جرجي زيدان في الميزان) وما جاء فيه حول الأديــب جرجــي

[1] - انظر: المرجع السابق، ص 119

وما كتبه، ولكن نشير إلى قول الباحث الجرف الذي جاء فيه: "في سنة (1892) انقطع جرجي زيدان إلى الكتابة والتأليف وأصدر مؤلّفاته ورواياته التّاريخيّة حيث أنشأ مطبعة الهلال ومجلّة الهلال وتولّى تحريرها مدّة اثنتين وعشرين سنة حتى توفيّ فجأة في شهر تموز من عام (1914)"[1] وقد ذكرنا هذا القول للباحث بسبب أهميّته، وما جاء فيه من انقطاع الأديب جرجي إلى التأليف في مجال التاريخ العربي.

ثم يشير الباحث غياث رمزي الجرف إلى أنّ دار الكتاب الجديد نشرت مذكّرات جرجي زيدان عام 1968 في بيروت، ثمّ قامت وزارة الثقافة ودار البعث بنشرها عام 2005 ضمن سلسلة مختارات تحت رقم 21، ويذكر الباحث بعض ما جاء في هذه المذكّرات، وممّا ذكره قول جرجي زيدان:

"فبعد أن كنت أقلّد الآخرين في حركاتي وأفكاري لا أقول قولاً أو أبدي رأياً إلاّ إذا سمعت غيري يفعل ذلك، فأقلّده فيه أصبحت ولي نظر في الأشياء. وبرأتُ أحكّم نظري وأبدي رأياً من عند نفسي. والفضل في ذلك للعلوم الطبيعية والرياضيّة معاً.. ولحسن حظّي أنّي في دور التقليد لم أنجح في تقليد رفاقي الأولين في الرذائل، فقضيت بينهم دهراً وأنا حزين لعجزي عن تقليدهم فلّما تعرّفت إلى شاول ورفاقه رأيتني قادراً على تقليدهم، فقلّدتهم في الحسنات ونجحت..."[2]

ولعلّ من المفيد قراءة مذكّرات الأديب جرجي، لأنّ في ذلك برأيي ما يساعد على التعرّف أكثر على شخصيّة هذا الأديب، ولذلك فإنّي أوافق الباحث في الإشارة إلى هذه المذكّرات، فربّما نجد فيها تبريراً لموقف ما من الأديب، أو إجابة على سؤال ما يمكن أن يثار من قِبل من يقرأ روايات هذا الأديب وخاصّة التّاريخيّة منها. فلا يمكن الحكم على ما كتبه الأديب جرجي من وجهة نظر واحدة، وخاصّة أنّه أثار جدلاً كبيراً، وخلافاً واسعاً، وتساؤلات كثيرة لا يمكن تجاهلها، فلا بد برأيي من البحث والتنقيب، والأخذ بالآراء كلّها، والمواقف المختلفة وتحليلها تحليلاً منطقيّاً بعيداً عن التسرّع والعصبيّة ولابدّ من تضافر الجهود جميعها للوصول إلى الحقيقة التي تضيء العتمة، وتجيب عن التساؤلات، ويجب أن نضع أمام أعيننا دائماً الهمّ القوميّ، وألا ننسى أنّ بين أيدينا جيلاً يجب أن نعده أمانة نحافظ عليها من كلّ تحريف أو تشويه، وهذا ما أكّده الباحث غياث رمزي الجرف في نهاية بحثه حيث قال:

---

[1] - انظر: المرجع السابق، ص 120.

[2] - المرجع السّابق، ص 121.

"وبناءً على ما تقدّم قلنا: لابد من إعادة النّظر في كتابات جرجي بهدف دفع "اللّبسة" والوصول إلى الحقيقة.. أين الحقيقة؟ وأين الحقّ وأين الباطل؟ أين الصّواب وأين الخطأ؟ أين النّقاد والباحثون والمحقّقون والمؤرّخون؟ أين المؤسسات والمجامع العلميّة؟ إنّ الجهود الفرديّة لا تستطيع أن تفعل الكثير في مثل هذا الميدان الواسع...، وإلى ذلك أين الحمية والغيرة العربيّة، وأين الهمّ القومي؟ علامات استفهام وتساؤلات حاولتُ أن أثيرها في هذه المقاربة لذوي الشأن لاسيّما المؤرخون والمشتغلون بالنّقد الرّوائي والأدبي عموماً، المخلصون لأمّتهم والذين في قلوبهم وعقولهم منزلة كبرى للهمّ القوميّ والحقيقة"[1]

ولابد من الإشارة إلى أنّ الباحث الجرف يذكر في الهامش لمحة عن الأديب الإنكليزي الشهير "ولتر سكوت" ورأيت أنّه من المفيد ذكر هذه اللّمحّة، لأنّ فيها ما يشير إلى رأي ولتر سكوت في كتابة القصّة التّاريخيّة، يقول الباحث في الهامش..

"ولتر سكوت: أديب إنكليزي شهير، ولد في مدينة (أدنبرة) عام 1771م من أصل اسكتلندي، درس القانون واشتغل بالمحاماة، ولكنّه أصيب بشلل أقعده بقيّة حياته ممّا كان له أثر في انصرافه إلى الشّعر والتأليف القصصي، ومن مؤلّفاته الشعريّة (مارميون) و(سيّدة البحيرة).

بدأ عام 1814م سلسلة من الرّوايات التّاريخية أكسبته شهرة كبيرة، ضمّنها مجموعة قصص تاريخيّة أطلق عليها اسم (ويفرلي)، ومن أبرزها (كلنو يرث) و (إيفان هو).

ويعدّ سكوت من أكثر كتّاب القصة الإنكليز إنتاجاً .. نادى بعدم التقيّد بالتّاريخ ولاسيّما إذا وقف هذا التاريخ حاجزاً بينه وبين كتابة القصّة وإخراجها في إطار فنّي مفتوح، حرّ وبلا قيود أو حدود، انتقده المؤرّخون وقالوا : إنّ سكوت يعبث بالتّاريخ ويغيّر حقائقه لأجل قصصه.. توفي في 21 أيلول 1832م"[2]

ونحن نضيف إلى ما قاله الباحث الجرف من ملاحظات ملاحظة ربما تكون على درجة ما من الأهميّة، وهي ما ذكره النّاقد محمد كامل الخطيب حول روايات جرجي زيدان التّاريخيّة، وتقديمه التّاريخ العربيّ القديم في إناء حديث. يقول النّاقد محمد كامل الخطيب:

"كانت روايات جرجي زيدان (1861- 1914) التّاريخيّة محاولة لإدخال جنس الرّواية في السلسلة الثقافيّة العربيّة عبر باب خلفي، أي عبر باب التّاريخ العربيّ تحديداً، فإذا كان جنس الرّواية أوربيّاً في مصدره، فإن التّاريخ العربيّ سيكون المادّة المحليّة التي سيُطَوَّع هذا

---

[1] - المرجع السّابق، ص 121.

[2] - المرجع السابق، ص 121.

الجنس الأدبي الغريب بواسطتها ليوضع الشّراب القديم (التاريخ العربيّ) فـي إنـاء حـديث، والشّارب لن يستطيع أخذ هذا الشّراب دون إنائه، تلك كانت أهميّة جرجـي زيـدان، أو تلـك كانت طريقته في قطع السلسلة الثقافيّة العربيّة التقليدية وإدخال حلقة جديدة فيها أو عليها"[1]

إذاً النّاقد الخطيب يعدّ الأديب جرجي زيدان مجدّداً في رواياته التّاريخيّة ويـشير إلـى فضله في إدخال حلقة جديدة إلى سلسلة الثقافة العربيّة التقليديّة، وتقديمه التّاريخ العربي القـديم الجّاف بأسلوب حديث مستساغ للقارئ العربيّ، فالنّاقد الخطيب برأيه هذا يخـالف رأي النّاقـد شوقي أبو خليل في كتابه "جرجي زيدان في الميزان" والذي قدّمناه سابقاً حين أشرنا إلى كتابه السّابق، فالناقد شوقي أبو خليل يرى في روايات جرجي زيدان التاريخيّة محاولـة مقـصودة لتشويه تاريخنا العربيّ المجيد، وأنّ هدف جرجي زيدان كان تخريب عقول النّاشئة من خـلال ما كتبه من روايات تاريخيّة. ولعلّ من المفيد أن نشير إلى ما كتبه النّاقد برهان غليون تحـت عنوان "تأملات في الواقع العربي والرّواية" حيث يقول: "..ففي إطار الـصّراع بـين الدولـة التقليديّة والدولة الحديثة القومية جاءت الرّواية التاريخيّة العربيّة مـن جرجـي زيـدان إلـى روايات نجيب محفوظ التّاريخيّة لتخلق للدولة الحديثة العربيّة أو المصريّة تاريخاً جديداً يطرد عنها التّاريخ الدّيني أو يحتوي هذا التاريخ في تاريخ آخر هو صـورة تتجـاوز معـاً تـاريخ الشرق والغرب"[2]

وفي هذا القول ما يؤيّد ما جاء به النّاقد محمد كامل الخطيب الذي قدّمناه سابقاً، وهو أنّ الأديب جرجي زيدان فتح فتحاً جديداً في مجال التّاريخ العربيّ، وذلـك بكتابتـه عـدداً مـن الرّوايات التّاريخيّة، وهذا يُحسب للأديب جرجي، ويُضاف إلى مجموعة الآراء التي تشير إلى أهميّة ما كتبه جرجي في مجال التّاريخ العربيّ، وهذا ما يجعلنا ملزمين بإعادة النّظر فيما قاله شوقي أبو خليل وغيره من الذين رفضوا ما كتبه جرجي في مجال التّاريخ العربـيّ، وعـدّوه دسّاً وتشويهاً لتاريخنا العربيّ المجيد، حتّى إنّ بعضهم عدّ كلّ ما كتبه جرجـي زيـدان مـن روايات تاريخيّة خيالاً لا أساس له من الصحّة، فهل يُعاب على الأديب جرجي استعانته بخياله الواسع في رواياته التّاريخيّة، يجب ألا ننسى أنّه روائي وليس مؤرخاً، وخياله هو سلاح بيـده وليس ضدّه.

يقول الأديب الكبير محمد حسين هيكل (1888- 1956) في مقـال لـه بعنـوان "فـن القصص": "والتاريخ لذاته ليس إلا قصصاً يسبغ عليه كلّ مؤرّخ من خياله ما يسبغ على حياته

[1] - الخطيب، محمد كامل: تكوين الرواية العربية (اللغة ورؤية العالم)، وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، ط1، 1990م، ص91.

[2] - برادة، محمد، ومجموعة من الكتاب: الرواية العربية واقع وآفاق، دار ابن رشد، ط1، 1981م، ص 179.

قوّة وفيضاً. كما أنّ القصّة ليست إلا تاريخاً إن يكن أبدعه خيال كاتب أو أديب فهو إنّما أبدعه من واقع الحياة. وكثيرون من القصصيّين، يلجؤون إلى التّاريخ يستلهمونه مادّة قصصهم كلّها. فوالترسكوت في إنكلترا وإسكندر دوماس في فرنسا إنّما اتخذا من تاريخ إنكلترا ومن تاريخ فرنسا مادّة قصصهم جميعاً. وهم قد أسبغوا على هذه القصص من خيالهم قوّة تجعلنا نتشكّك إلى حدّ كبير في صحّة كلّ الوقائع التي يروونها وإن كان خيالهم يزيد هذه الوقائع رواء وروعة عمّا كانت الوقائع التي حدثت بالفعل"[1]

إذاً للخيال دور كبير في نجاح الرواية، حتّى ولو كانت هذه الرّواية تاريخيّة، وبعض الكتّاب يُرجعون سبب نقص القصص والرّوايات في أدبنا العربي الحديث إلى ضعف الخيال لدى كتّابنا، وهذا ما أشار إليه الأديب محمد حسين هيكل في مقال له بعنوان "سبب فتور القصص" حيث يذكر في مقاله هذا أنّ الأستاذ جب، الأستاذ بمعهد الدّارسات الشرقية في لندن، نشر دراسات مستفيضة باللغة الإنكليزيّة عن الأدب العربيّ الحديث، وقد تناولت هذه الدّراسات النثر العربيّ والشعر العربيّ وسائر فنون الأدب العربيّ الحديث في الفترة الأخيرة في حياة مصر الأدبيّة.. وقد وقف جب كما يشير الأديب هيكل في بحثه عند فنّ القصص والرّواية من فنون الأدب فأشار الأستاذ جب إلى أنّها لم تتأصّل بعد في الآداب العربيّة وتكلّم عن روايات جرجي زيدان التاريخيّة، وقال إنّ قصة زينب هي الأولى من نوع القصص الحديث......

يقول الأديب محمد حسين هيكل في مقاله الذي أشرنا إليه فيما سبق:

"يحلو لبعض الكتّاب من المستشرقين وغير المستشرقين، أن يعزو السبّب في هذا النقص إلى ضعف في الخيال يحول بينه وبين تأليف مجموع القصّة .... وما أحسبني بحاجة إلى الإطالة في دحض هذا الزعم بأكثر من الإشارة إلى ما يقوله كتّاب الغرب وساسته طعناً على الشّرق بأنّه خيالي..... وكيف يمكن أن يكون الشّرقيّ خياليّاً وضعيف الخيال في وقت معاً"[2]

إذاً ممّا سبق نرى أنّ كتّابنا تارةً يُتَّهمُون بأنهم خياليّون كما مرّ معنا سابقاً حين اتّهم النّاقد شوقي أبو خليل الكاتب جرجي زيدان بعدم أمانته للتّاريخ العربيّ، وباعتماده أسلوب القصّة التّاريخيّة ليسرح في خياله ما شاء، وتارةً أخرى يُتّهم كتّاب الرّواية عندنا بضعف خيالهم، كما جاء في مقال الأديب محمد حسين هيكل السّابق، فلا بّد وهذا الحال من إعادة النّظر في كلّ الآراء والمواقف، كما دعا الباحث الجرف في بحثه الذي ذكرناه سابقاً، وإذا كان شوقي أبو خليل يعدّ أنّ كلّ ما كتبه جرجي زيدان من روايات تاريخيّة خيالٌ، وهو محسوب

---

[1] - الخطيب، محمد كامل: نظرية الرّواية، وزارة الثقافة، دمشق، 1990، ص 62.

[2] - انظر: المرجع السّابق نفسه، ص 72- 73- 74.

عليه وحده، نجد بعضهم يعدّ جرجي زيدان الخزّان الرّحب للتّاريخ العربيّ منذ الجاهليّة وحتى عصره، وهذا ما ذكره النّاشر صاحب "دار نوبليس" نبيل عبد الحقّ في مقدّمة الكتاب الذي نشره "تاريخ العرب والإسلام من خلال روايات جرجي زيدان" متسائلاً "لماذا جرجي زيدان؟" ويجيب على سؤال طرحه هو بأن "جرجي زيدان" علم من أعلام النّهضة الفكرية العربيّة التي شهدتها بداية القرن المنصرم، ويتابع النّاشر بقوله:

"للدأب والاجتهاد في البحث والتنقيب عن الكتب والمراجع في أصولها... بل راح جرجي زيدان ينبش المجموعات والمحفوظات الخاصّة علّه يعثر فيها على مؤلّفات وكنوز لا تزال محفوظة بأقلام الورّاقين كتبة العصور الغابرة، بعدما نقلوها عن الرّواة الذين استقوها من مصادرها البكر في الصحّراء"[1]

وهذا مخالف لرأي النّاقد شوقي أبو خليل الذي يرى أنّ جرجي زيدان تلاعب بالمصادر والمراجع، وكتب كلاماً من أفكاره ووضعه بين قوسين، وأنّه أكثر من الدّعوى بلا دليل، وهذا الكلام للنّاقد نجده في كتابه الذي ذكرناه سابقاً جرجي زيدان في الميزان" في الصفحة (310).

وإذا كان شوقي أبو خليل قد ذكر لنا في كتابه السّابق الكثير من الأخطاء والتحريف في روايات جرجي التّاريخيّة، فالنّاشر صاحب دار نوبليس يذكر أنّ السّلبيات في روايات جرجي التّاريخيّة لا تتعدّى الأخطاء في الطّباعة، إضافة إلى سوء التبويب، ويشير صاحب دار نوبليس إلى أنّ هذه السلّبيات لا ذنب للكاتب جرجي فيها، كما يرى أنّ جرجي زيدان جعل التّاريخ العربي في قالب روائي آسر، بحيث يفيد القارئ من المعلومات التّاريخيّة الموثّقة، من دون أن يجهد النّفس، كما يصف النّاشر عبد الحقّ جرجي بأنّه موسوعة فهو كاتب وباحث ومؤرخ وروائي وفنّان وأديب، وأنّه أدخل إلى فنّ التأريخ نموذجاً من الرّواية التي تتقيّد بالمجريات التّاريخيّة العامّة في إطار شيّق يجذب القارئ إليه، كما يصف ما كتبه جرجي بالدّقة والشّمول، يقول النّاشر:

"وجرجي زيدان لا يغفل ملاحظة أو تلميحاً أو تفصيلاً أو إشارة عن هذا التّاريخ إلاّ وجاء بها في مجموعته، فقد تطرّق ليس فقط إلى التّاريخ من خلال الرّواية، إنمّا وخاصّة إلى مظاهر الحضارة الإسلاميّة"[2]

---

[1] - انظر: قسم الدراسات في دار نوبليس، تاريخ العرب والإسلام من خلال روايات جرجي زيدان، المجلّد الأوّل، دار نوبليس ، بيروت، ط1 ، 2003- 2004م، ص 5- 6.

[2] انظر: المرجع السّابق نفسه، ص 6- 10- 11.

وهذا الرأي الذي جاء به النّاشر عبد الحقّ مخالف لرأي النّاقد شوقي أبو خليل فيما كتبه جرجي زيدان. ونحن إنّ كنّا لا نوافق النّاقد شوقي أبو خليل في كلّ ما جاء بـــه فـــي كتابـــه "جرجي زيدان في الميزان" فإننا أيضاً لا نقرّ بكلّ ما ذكره النّاشر عبد الحق، بل نجد الكثيـــر من المبالغة التي لا يمكن القبول بها، وخاصّة أنّ هذا النّاشر قد مدح ما كتبـــه جرجـــي مـــن روايات تاريخيّة بكلام مبالغ فيه لدرجة يجعلنا نشك بأنّ وراء ذلك منفعة ما، أو غاية تُرجـــى وخاصة إذا قرأنا ما كتبه الناشر عن روايات جرجي التاريخية أنّها من أجمل ما كتـــب عـــن التّاريخ الإسلامي، وأنّ جرجي شدّد على حقائق عدّة فيما كتبـــه، وأهمّهـــا تقيّـــده بالتسلـــسل التّاريخي والزّمني للأحداث، والوصف الواقعي والصّادق لأبطال الرّوايـــة، وســـرد أو إيـــراد مقاطع تاريخيّة طويلة يستند فيها المؤلّف إلى المؤرخين العرب والمسلمين الذين عاشـــوا فـــي منطقة أحداث الرّواية، وحرص الرّواية على أمانة النقـــل، وجمـــال الروايـــة ورومنـــسيتها، وحبكتها الرّائعة...[1]

فيما عرضناه سابقاً ذكرنا موقفين متناقضين تماماً ممّا كتبه جرجي زيدان فـــي التّـــاريخ العربيّ، أحد هذين الموقفين فيه مدح لدرجة مبالغ فيه، والموقف الآخر فيه ذم مبالغ فيه أيضاً، فلابد -كما دعا الباحث غياث الجرف- من إعادة النظر، والبحث عن آراء أخرى.

وإذا كان الأديب جرجي زيدان يُعدّ رائد الرّواية التّاريخية فـــي مـــصر فـــإنّ الأديـــب معروف الأرناؤوط يُعدّ رائد الرّواية التاريخية في بلاد الشام، ولكـــن هـــل تعـــرّض الأديـــب معروف الأرناؤوط لما تعرّض له سلفه الأديب جرجي زيدان من نقد وتجريح ولوم فيما كتبـــه من روايات تاريخيّة؟ سوف نجد الإجابة عن هذا السؤال من خلال عرضنا فيما يأتي لـــلآراء التي كُتب حول روايات معروف الأرناؤوط التاريخية ولعلّ أهمّ كتاب نتناوله حول هذا الأديب هو كتاب الناقد عبد اللطيف الأرناؤوط.

---

[1] انظر: المرجع السّابق، ص 13-14

كتاب الناقد عبد اللطيف الأرناؤوط عن الأديب معروف الأرناؤوط:

ومن النقاد الذين تحدثوا عن معروف الأرناؤوط ورواياته التّاريخيّة، الناقد عبد اللطيف أرناؤوط، حيث جاء في كتابه "معروف الأرناؤوط رائد الرواية التاريخية في بلاد الشام 1892-1948" أنه في الأربعينيات من القرن العشرين، كان الكاتب معروف الأرناؤوط يعمل بجدّ في مقهى في ساحة الشّهداء في دمشق، وفي مكتبه أصدر جريدته "فتى العرب" إحدى وثلاثين سنة، وتابع التأليف والترجمة عن اللغة الفرنسية وانتقل إلى ساحة النّجمة قبل وفاته 1948م، كما يذكر لنا الناقد عبد اللطيف أرناؤوط، بعض كتب معروف الأرناؤوط التي ضاعت وهي: "حياتي".. ويتضمّن مذكرّات الأديب الرّاحل معروف، و"ابتسامات ودموع" وهو ديوان شعر يتضمّن أبرز محاولات معروف الشعريّة، وكتاب "نصارى العرب في الشام والعراق"، و"تاريخ الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر".. وهو يعكس ثقافة الأديب معروف الغربية واطّلاعه العميق على الأدب الفرنسي.

كما يذكر الناقد أنّه ضاع قسم كبير من أعداد المجلاّت السّوريّة التي نشر فيها معروف ترجماته ومنها مجلّة "أنفس النفائس" الدمشقيّة، وأنّه ترجم "روما الحمراء" أو "أسرار الفاتيكان" للكاتب ميشيل زيفاكو، ونشرها في مجلّة "اللّطائف السوريّة" كما ترجم رواية "المجنون" للشاعر التركي رفيق خالد بك.

ويشير النّاقد إلى ضياع ما نشره معروف، وأنّه لم يسلم حتّى بعض أجزاء من رواياته التّاريخية الاجتماعيّة، وأنّ ما وصل إلينا منها كان قد نشرها تباعاً في جريدته "فتى العرب" وهي: سيّد قريش، عمر بن الخطّاب، طارق بن زياد، فاطمة البتول، القاهرة.(1)

لابدّ لنا أن نتساءل عن موقف الناقد عبد اللطيف الأرناؤوط ممّا كتبه معروف من روايات تاريخيّة، وهل كان يعده أديباً كبيراً؟ أم أنّه اتهمّه بالدسّ والتشويه كما فعل النّاقد شوقي أبو خليل عندما تناول روايات جرجي زيدان بالنّقد والتّجريح، واتّهمه بإفساد وتشويه تاريخنا العربي؟!

وقبل أن ننتظر طويلاً لمعرفة الجواب، نقرأ ما كتبه النّاقد عبد اللطيف الأرناؤوط عن الأديب معروف الأرناؤوط:

[1] - أرناؤوط، عبد اللطيف: معروف الأرناؤوط رائد الرواية التاريخية في بلاد الشام 1892- 1948 ، دار عكرمة، دمشق ، ط1، 2001م، ص 5- 6- 7.

"وقد كان هدف معروف من وراء تلك الرّوايات بعث الماضي المجيد، وإزكاء روح اليقظة في نفوس الأجيال، وقد أبدع بقلمه الرّفيع أدباً راقياً ممتازاً، قويّ الأسلوب، فهو رائد من روّاد النهضة العربية الإسلامية وداعية من دعاتها، وكان أساتذة الأدب العربي يرون في روايته "سيّد قريش" مدرسة للبلاغة"[1].

وإذا كان بعض النقّاد يعدّ الكاتب جرجي زيدان رائد الرواية التّاريخيّة في مصر، فإنّ النّاقد عبد اللطيف أرناؤوط يجعل الأديب معروف رائد الرّواية التّاريخية في بلاد الشام إذ يقول في كتابه:

"كان رائداً من روّاد الرّواية التّاريخية، ولم تكن عدّته إلا ما قرأه من كتب التاريخ العربي، واحتذاء أعمال غربيّة.. ويظلّ في نظر الدّارسين أوّل من فتح الطريق، فتصدّى لكتابة الرّواية التّاريخيّة العربيّة الإسلاميّة، فهو رائدها في بلاد الشام".[2]

ولعلّنا منذ قراءتنا عنوان كتابه "معروف الأرناؤوط رائد الرّواية التّاريخية في بلاد الشّام" نقف على رأي النّاقد عبد اللطيف الأرناؤوط ممّا كتب الأديب معروف من روايات تاريخيّة.

وبعد ما قدّم به النّاقد عن معروف الأرناؤوط، يذكر أنّه لا بد من موازنة فنّ معروف مع سلفه جرجي زيدان كما يشير إلى صعوبة هذا العمل لاتّساع آثار الأديبين وضخامة عدد صفحاتها، وأنّه استعان بالنقّاد الذين رصدوا خصائص أسلوب كلّ من الأديبين.

كما يشير النّاقد إلى أنّه حرص في دراسته على إبراز الخلفيّة القوميّة والاجتماعيّة للروايّة التّاريخيّة العربيّة المعاصرة، مثلما لجأ القصّاصون الشعبيّون على حفز الهمم ودفع النّاس للجهاد والدّفاع عن حياض الوطن المهدّد، فكانت لدينا سيرة: سيف بن ذي يزن، وعنترة والشاطر حسن.

ويذكر النّاقد عبد اللطيف أرناؤوط أنّ معروف الأرناؤوط بدا كاتباً ملتزماً يسخّر لرواياته التّاريخية أبلغ الأثر في اليقظة العربية المعاصرة، في محاولة منه لمزج عاطفة الحبّ الإنسانيّ بحبّ الوطن والاعتزاز بالانتماء إلى الإسلام والعروبة.[3]

كما يشير الناقد إلى أنّ الغرب اهتمّ بنشر لغاته وثقافاته في لبنان الذي عرف منذ منتصف القرن التاسع عشر نهضة ثقافية ومعرفية متميّزة بحكم انفتاحه على العالم، ويلفت

---

[1] - المرجع السابق نفسه، ص 7، ص 8.

[2] - المرجع السابق، ص8.

[3] - انظر: المرجع السابق نفسه ص 9

النّاقد انتباهنا إلى أنّ كتب الأدب لم تشر إلى إسهام معروف الأرناؤوط الأديب المبدع، ودوره في تطوير النثر العربي، وتخليصه من قيود السجع والتكلّف، وبديع صوره وخياله وتعبيره عن روح العصر حتّى ليمكن أن يعدّ من أبرز روّاد النثر الحديث.

ويذكّرنا الناقد أنه مرّ على وفاة الأديب معروف أكثر من نصف قرن، وإليه يعود الفضل في إطلاق العبارة العربيّة وتحريرها من جمودها.[1]

لمحة عن حياة الأديب معروف الأرناؤوط

ويقدّم لنا النّاقد عبد اللطيف أرناؤوط لمحة عن حياة الأديب معروف الأرناؤوط، فيذكر أنّه ألباني الأصل يعود نسبه إلى مدينة (آلونية)، وفد جدّه حسن آغا المولى يوسف إلى بيروت في منتصف القرن التاسع عشر أيام الدّولة العثمانية، وتولّى أمن مدينة بيروت، تزوّج سيّدة لبنانية هي مريم بنة يوسف ساسين أرملة الشيخ مصطفى الرفاعي، فرزق منها بغلامين أحدهما أحمد الأرناؤوط والد معروف الذي تزوّج امرأة دمشقيّة فاضلة ديّنة، وتحفظ سيرة الرسول (ص)[2]...

ويتابع الناقد فيذكر لنا الشيوخ الذين تأثّر بهم معروف ومنهم: شيخه حسن الحبال وكان شديد التديّن متمسّكاً بعثمانيّته، تعلّم معروف على يديه القراءة وحفظ القرآن.... والشيخ أحمد عبّاس الأزهري الذي كان يدير المدرسة العثمانية التي دخلها معروف وكان حريصاً على زرع بذور الوطنية وحبّ العربيّة، وتعليم تلامذته اللغات الأجنبية، ونظم الشّعر.

كما يشير النّاقد إلى تأثّر معروف بكتاب "أمّ القرى" لعبد الرحمن الكواكبي الذي كان يدرّس في المدرسة العثمانيّة، ومن زملاء معروف: عمر الفاخوري، والشهيد عمر حمد.. ومعروف- كما يذكر الناقد- مارس منذ طفولته الخطابة والكتابة ونظم الشّعر.[3]

إذاً كان لشيوخ معروف وزملائه، والأسرة التي نشأ فيها أكبر الأثر في إبداعه الأدبي، وبخاصّة كتابته للرّواية التاريخيّة، وربّما يكون لأمّه الدّور الرّائد في ذلك، حيث غرست في نفس ولدها معروف حبّ الإسلام، والاعتزاز بسير أعلامه.

ويذكر الناقد أنّ معروفاً ترجم لكبار الكتّاب الفرنسيين أمثال: فرانسوا كوبيه، وتيوفل غويتيه، وألفريد دي موسيه، وزيفاكو... ، وأن إلمامه باللغتين التركية والفرنسية ساعده في الاطّلاع الواسع على الأفانين المتنوّعة من الأساليب الأدبيّة، وكانت سوريّة ولبنان آنذاك بلداً

---

1 - المرجع السابق نفسه ص 11.

2 - المرجع السابق، ص 12.

3 - المرجع السّابق، ص13.

واحداً، وأنّه ترجم (الفردوس المفقود) لجون ملتون، ووضع قصّة (الصحفي الشّريف)، وكان أوّل عمل إبداعي أصدره هو كتابه عن أبي العلاء المعري الذي أسماه (فردوس المعري) وهو رحلة خياليّة استوحاها من رسالة الغفران.[1]

ويشير النّاقد إلى أن معروفاً هرب من الخدمة الإلزاميّة في الجيش العثمانيّ في استانبول سنة 1916م. بعد أن خرجت الدولة العثمانية مهزومة في الحرب العالمية الأولى، وأنّه علم بقيام الثورة العربية في الحجاز سرّاً، وتوجه إلى العقبة والتحق بجيش الشّريف، الذي دخل دمشق في خريف 1918م.[2]

ويشير النّاقد عبد اللطيف أرناؤوط إلى عمل الأديب معروف في الصحافة، وأنه أسسّ مع قاسم عثمان جريدة (الاستقلال العربي) ثم مجلّة (العلم العربي) 1919م، وأصدر جريدة (فتى العرب) إلى أن مات في عام 1948م، وامتدّ عمر (فتى العرب) ثلاثين عاماً، ونشر أكثر رواياته التاريخيّة مسلسلة في هذه الجريدة.[3]

ويتابع النّاقد سيرة حياة الأديب معروف فيذكر أنّه استقرّ وتزوجّ في دمشق، ورزق ثلاثة أولاد، وأسّس مطبعة (فتى العرب) التي طبع فيها معظم آثاره، وبدأ الفرنسيّون مضايقته، ووجّه حسّه الديني نحو تركيا، ومدح الثّورة الكمالية (نسبة إلى كمال أتاتورك)، ونجح في ميدان الصّحافة.[4]

أمّا عن شخصيّة الأديب معروف الأرناؤوط فيقول الناقد أرناؤوط:

"كان ربعة من الرجال، يمشي متخايلاً، يستهويك حديثه، ولهجته مزيج من اللبنانيّة والدمشقيّة، مولعاً بالدّعابة، لاذع النكتة، صبوراً، متسامحاً، ليّن العريكة، رفيع النفس، كريماً، متفائلاً، كان رديء الخط، مولعاً بالنرجيلة، كان في طفولته صاحب مقالب وحيل...، اشتد به المرض في عام 1948م، وأسلم روحه في 30 كانون الثّاني عام 1948م. ولم يضاهه في الكتابة الإبداعية إلاّ مصطفى صادق الرافعي، غير أنّ عبارة معروف أكثر عفوية، وخياله أعلى تحليقاً وأقرب إلى روح العصر، أمّا المهجريون فقد ماثلوه في النّفس الإبداعي.[5]

---

1 - المرجع السّابق، ص 14.

2 - المرجع السّابق، ص 15.

3 - انظر: كتاب عبد اللطيف الأرناؤوط السّابق، ص 15- ص 16.

4 - انظر: المرجع السابق، ص 16.

5 - انظر: المرجع السّابق، ص 17- ص 18.

يظهر لنا من خلال كلام النّاقد إعجابه بشخصيّة معروف، غير أنّه يظهر أنــه معجــب أكثر بأدبه ونَفَسِه الإبداعي وعفويّة عبارته وخياله المحلّق.

روايات معروف الأرناؤوط التّاريخية:

يذكر النّاقد أنّه في عام 1929م أصدر معروف الأرنــاؤوط روايتــه التاريخيّــة (ســيّد قريش) التي رسم فيها حياة العرب في فترة البعثة النبوية، كما يشير إلى أنّ معروفــاً عنــدما سُئِل عن سبب كتابة الرّواية أجاب: إنّ السبب هو إظهار الحقيقة التي حاول طمــسها أعــداء الإسلام، ولاسيما بعد أن قرأ كتاب فلورندا البيزنطيّة للكاتب الفرنسي رينيــه دي ســيكونزاك، ووجد فيه المغالطات عن فتوحات العرب في الأندلس والحضارة الإسلامية.[1]

كما يشير النّاقد إلى أنّ الأديب طبع روايته في ثلاثة أجزاء، استغرقت ألف صفحة مــن القطع الكبير، وأدخل عليها ملاحق تاريخيّة وتعديلات، وأصــدرها فــي حلّــة جديــدة ســنة 1931.[2]

ولكنّ النّاقد يعيب على الكاتب وجود عيوب فنيّة كثيرة في روايته "سيّد قريش" فيقــول: "ولكنّ الرّواية لا تخلو من عيوب فنيّة كثيرة بمنظار النقد الروائي المعاصر فهي تــاريخ فــي ثوب روائيّ، أكثر منها رواية فنيّة، وقد طغى فيها الأسلوب على التّحليل والتّعليــل، لكنّهــا لا تفتقر إلى الخيال الفنيّ المجنّح، والحبكة الفنيّة والأسلوب الرّائع المصفّى".[3]

وقول الناقد هذا يجعلنا نتذكّر ما قاله النّاقد شوقي أبو خليل عندما نقد روايــات جرجــي زيدان التاريخيّة، وأنّ جرجي سمّاها "روايات تاريخ الإسلام" ولكنّها لا تمّت فــي رأي شــوقي إلى التّاريخ بصلة، كما يعيب عليه كثرة الخيال فيها، بينما النّاقد أرناؤوط جعــل الخيــال فــي رواية معروف الأرناؤوط (سيّد قريش) من إيجابيات الرّواية، وإذا أردنا الموازنة بــين عمــل النّاقدين يظهر لنا حياديّة وموضوعيّة النّاقد عبد اللطيف أرناؤوط فهو رغم إعجابه بالرّوايــة، وحبكتها الفنية، وقوله عنها إنّها صوت الحقّ وصوت التّاريخ، فهو يذكر عيوبها الفنيّة الكثيرة، فهو وإن ذكر الإيجابيات في الرّواية لا يغفل عن سلبيّاتها، وهنا نلمس جدّية الناقد ونزاهته.

أمّا الناقد شوقي أبو خليل لم يذكر إلا سلبيات روايات جرجي التاريخيّة فهــل يُعقــل أنّ هذا الكمّ من الرّوايات التاريخية التي كتبها جرجي تخلو من إيجابية واحدة على الأقل؟!!.

---

[1] - انظر المرجع السابق، ص 19.

[2] - كتاب النّاقد "عبد اللطيف أرناؤوط" السّابق ص 19.

[3] - المرجع السّابق، ص 19.

ربَّما نقف على الجواب الشّافي عندما نطّلع على آراء لنقّاد آخــرين تنــاولوا روايــات جرجي التّاريخيّة..

كما يخبرنا الناقد أرناؤوط أنّ معروف الأرناؤوط أصدر بعد رواية (سيّد قريش) روايته التّاريخيّة الثانية (عمر بن الخطاب) عام 1936م في جزأين أولهما (ليالي شــاعر)، والثــاني (فرسان سيّد قريش)، وأنّه تناول في رواياته هذه معارك الحريّة بين الفرس وعرب العــراق، والروم وعرب الشام، ونزع في رسمه لشخصيّة عمر بن الخطّاب نزعــة إنــسانيّة، إذ جعــل الشعوب المقهورة تسهم في الانقضاض على حكم الروّمان، وأنّه أوجد بعض الشخصيات التي ليس لها أساس تاريخي إلى جانب الشخصيّات التّاريخيّة، وكتبها ببيان أدبي راقٍ مجنح يقترب من لغة الشعر.[1]

ويتابع النّاقد عرضه لروايات معروف التّاريخية فيقول: إنّ الأديــب فــي عــام 1941 أكمل ما رسمه من الفتوح العربية الإسلامية برواية "طارق بن زياد" التي صــوّر فيهــا فــتح إفريقية والأندلس، وما نهض به العرب والبربر من دور في ذلك، كما أنّه صوّر فيها طبيعــة الأندلس ودور العرب الحضاري ومعجزة الأمويين في توسيع رقعة بــلاد الخلافــة العربيــة الإسلامية.

ويذكر النّاقد أيضاً أنّ آخر روايات معروف التّاريخية هي "فاطمة البتول" التي صــدرت في عام 1942م، والتي روى فيها مجريات بيعة يزيد، والصرّاع بين معاوية وعلي، ثــمّ بــين يزيد والحسين، وما كان من ضحايا الفتنة، وأثر الانقسام في تمزيق وحدة الصفّ، كما يــشير الناقد إلى أن الأديب معروفاً بدا في هذه الرّواية حزيناً لمأساة الحسين منتصراً له فــي قيامــه بحقِّه.[2] وممّا يستغربه النّاقد في هذه الرّوايات أنّ معروفاً أظهر فيهــا نزعــة عربيّــة وهــو الألباني نسباً، وكأنّ ثقافته العربيّة، وحياته في رحاب الأرض العربية قد جبلته بجبلتها.

ويعللّ النّاقد لنا سبب كتابة معروف في مجال التّاريخ بقوله: "ويبدو أنّ الحكم الفرنــسي قد حال بينه وبين التصريح بطموحه في نهضة عربية إسلامية فوجد في التاريخ ضالتّه، فهــو يذكّر الأمة العربية بماضيها، ويحفزّها على النهوض واليقظة...."[3]

كما يورد لنّا الناقد قولاً للنّاقد "وجيه بيضون" في كتابه "بين الصناديق خمــسون عامــاً" يقول فيه عن معروف: "وسيذكره التّاريخ مؤرّخاً للرسالة العربيّة في أمجادها ومفاخرها...".

---

[1] - انظر المرجع السّابق، ص 20

[2] - انظر كتاب النّاقد السابق، ص 20.

[3] - المرجع السّابق، ص 21.

ويشير إلى وصف الدكتور "سامي الدهان" لأسلوب معروف في كتابه "قدماء ومعاصرون" الذي يقول فيه:

"كان معروف ينسكب على الورق، كما ينسكب الرّبيع على الطبيعة فيورق ويزهر ويعطر ويسحر.. يرسم المعركة فتسمع القعقعة والدويّ، ويصف الليل الساجي، فترى الأشباح تسبح في الظلام... كلّ ذلك في كلمات جمعت للكاتب وجعلت طوع بنانه.. فكأنّه يقول الشّعر في غير قواف، أو كأنّه يرصف الدّرر في السّطور من غير أن تحسّ له تصنّعاً كبيراً...." [1]

كما يبين لنا أنّ أعلام الأدب في تلك المدّة قد تناولوا روايات معروف بالنقد فعدّوها فتحاً جديداً في الأدب العربي.

مكانة الكاتب معروف الأرناؤوط الأدبيّة:

أمّا فيما يتعلق بمكانة الأديب معروف الأرناؤوط الأدبية، فقد ذكر النّاقد عبد اللطيف أرناؤوط أنّ الأديب دخل غمار الحياة الأدبية، واللغة العربيّة ما زالت مشدودة على ماضيها، والمدرسة الرّومانسية كانت هي السّائدة، والأساليب النثرية تسير على أصول البلاغة العربيّة في التعبير ولم تكن قد تخلّصت من ماضيها الأدبيّ الذي يُعنى بالترادف والتوازن والمزاوجة[2].

كما يرى النّاقد أرناؤوط أن معروف الأرناؤوط هو أحد أعلام المدرسة التي كان الأديب طه حسين أستاذاً لها، حيث كان هذا الأخير يجمع بين متانة اللغة والافتتان في تقسيم العبارة بنفس طويل، فهو لا يقودنا إلى الفكرة مباشرة، كما كان الأديب مصطفى صادق الرافعي من أعلام هذه المدرسة، حيث كان يعتمد في كتاباته على جمال العبارة، وموسيقا التراكيب، وروعة الصورة، وكانت البلاغة عند هؤلاء الأعلام هي أن يتجلّى الإبداع في النصّ شكلاً ومضموناً، وساعدهم على ذلك تمكّنهم اللّغوي وسعة معرفتهم التي جمعت بين القديم والحديث.

كما ينوّه النّاقد بأنّ معروفاً كان ابن عصره، فهو يُعنى بقالب التعبير باللغة، ويلتمس التأثير في قرائه بفنيّة الكلمة وسحرها، فالقصة عنده ليست تعبيراً عن الحياة، وتصويراً لها بلغة الحياة فحسب وإنّما هي نصّ أدبيّ يجب أن تتوافر له عناصر الفنّ في الشكل والمضمون[3].

---

[1] - انظر: المرجع السّابق، ص21.

[2] - انظر كتاب الناقد عبد اللطيف أرناؤوط السّابق، ص 22

[3] - انظر كتاب الناقد عبد اللطيف أرناؤوط السّابق، ص 22

و برأيي إنّ النّاقد محقّ فيما جاء به من وصف لفنيّة الكلمة وسحرها عند الأديب معروف الأرناؤوط، ونستشهد على ذلك بهذا المقطع الذي كتبه الأديب في بداية الفصل الأوّل من روايته "سيدّ قريش" تحت عنوان "شاعر غسّان" والذي جاء فيه:

"في صباح يوم صائف بهيّ من أيام سنة إحدى وثمانين وخمسمئة، غشيت دمشق المدينة الخالدة فرحة رائعة، فبدت لرائيها دائمة النّضارة والنعيم، وراح ربيعها الذي ينشر عطوره الفوّاحة في أفق شديد الصحّو، تنيره شمس دافئة تبعث في الحقول والجنّات كثيراً من الحياة، وكثيراً من الإشراق، وخرج سكانّها من دورهم وعزلاتهم يتبرّدون بالظلال، في عالم يزخر بالألوان الزّاهية المتورّدة، وقد استساغت نفوسهم الملاذ والأهواء كأنّ الطبيعة الفاتنة قد أعارت هذه النفوس بعض صفائها ومرحها فما عادت تحبّ غير ضحك الأطيار إلى جانب ضحك الأنهار)[1].

فالأديب كما نرى يُعنى بالموصوف عناية فائقة، ويعطيه حقّه من الوصف المفصّل، كما أنّ للكلمة عنده سحرها الخاصّ الذي يؤثّر في النفوس، فيجعلها تشعر بالارتياح، فالأديب ينقلنا بوصفه الجميل إلى دنيا مشرقة أشبه بجنّة الله على الأرض.

كما يضيف النّاقد أنّ معروف الأرناؤوط يكتب عن شخصيات تاريخيّة عاشت مع شباب اللغة ونقائها، فلم يبعد كثيراً عن مشاكلة الواقع حين كتب رواياته بلغة أدبية تشاكل ما كان يكتب في عصورها الماضية، فالحوار الأدبي عنده يناسب الشخصيات، وإن كان ينّد أحياناً عن هدفه في رسمها إلى أغراض بلاغيّة، كما ينبّه النّاقد إلى أنّه ممّا يُؤخذ على معروف أنه لم يحسن تركيب رواياته في بنية تستبعد أثر التّاريخ وطابعه، ولكنّ مع ذلك يظلّ هذا الأديب في رأيه من روّاد هذا الفن الذي حمل لواءه قبله وبعده كتّاب آخرون أمثال جرجي زيدان ومحمد حسين هيكل، وهو في أدبه الخالد يقدّم للأجيال دروساً في القومية والعقيدة والاعتزاز بالتراث الإسلامي.[2]

وهنا نقف قليلاً لنتساءل: لماذا يجب على الأديب معروف أن يركّب رواياته في بنية تستبعد أثر التاريخ وطابعه؟ وكيف يمكن لروايات تاريخيّة أن تخلو من أثر للتاريخ أو طابع له؟!.

هل نسي النّاقد أنه يتحدّث عن روايات تاريخية كتبها معروف الأرناؤوط رائد الرواية التّاريخية في بلاد الشام كما جاء في عنوان كتابه نفسه؟! وكما جاء من أقواله تحت عنوان:

---

[1] - الأرناؤوط، معروف: سيّد قريش، الجزء الأوّل، دار القلم، بيروت، لبنان، ط3، 1971، ص 1.

[2] - انظر كتاب النّاقد "عبد اللطيف أرناؤوط" السّابق، ص 23.

(سيّد قريش رواية بين الواقع التّاريخي والواقع الفني) في كتابه "معــروف الأرنــاؤوط رائد الرّواية التّاريخية في بلاد الــشّام 1892- 1948م" حيــث يقــول النّاقــد إن معــروف الأرناؤوط بأدبه الرّوائي قد أسهم في تفجير الوعي الوطني والقومي في جماهير الأمة العربيّة في فترة كانت تواجه فيها الاستعمار الغربيّ بشتّى صنوفه وأشكاله، وحملــت روايتــه "ســيّد قريش" العبء الأكبر في تلك الرّسالة، إذ كتبها مؤلفها في فترة النــضال الــوطني فــي عــام 1929، وأهداها إلى فتيان الشّام والعراق والجزيرة[1]. كما يشير النّاقــد إلــى قــول الأديــب الدكتور منير العجلاني الذي قدّم لرواية سيّد قريش بقوله: (وأظنّ أنّنا في حاجــة إلــى إثــارة النضال بين القديم والحديث ولو لم يفهم الكثيرون ما هو القديم وما هو الحديث......)[2].

كما يقول النّاقد إنّ الأديب الدكتور منير العجلاني أحسن إذ أشار إلى التزام كاتب رواية "سيّد قريش" برسالة التوجيه والتوعية، ويذكر قول الدكتور العجلاني في مقدمة الرّواية:

(أيّها الأدباء، هذه رواية (سيّد قريش) بين يديكم، فيها عطر وفيهــا موســيقى، وفيهــا عنصر من الشّعر، كتبها صاحبها لا ليلعب ولا ليبذر منحة الكتابة التي أعطيها ولكنــه كتبهــا كما أتنفس أنا وأنت، بسائق القيام بالواجب وليس بسائق البذخ!).[3]

وبرأي النّاقد إنّ رواية "سيّد قريش" تشكّل معلماً بارزاً من معالم النتــاج الأدبــي فــي الوطن العربيّ، فهي حتّى يومنا هذا أطول رواية تاريخيّة صدرت في الأدب العربي، إذ بلغت (807) صفحة حوت عالماً غنيّاً باللمحات والصور، وتحليلاً تاريخياً رائعــاً، وعرضــاً لعــدد وافر من الشخصيات التّاريخيّة الحقيقيّة والمتخيلّة، كما أنّ الناقــد يقارنهــا بروايــة "الحــرب والسلام" لتولستوي من حيث ضخامة الحجم، واتساع الأفق التّــاريخي، ويعــدّ أنّ الرّوايــات التّاريخيّة التي صدرت بالعربية قبلها أو بعدها لا تدانيها من حيث الضخامة والغنى.[4]

أسباب كتابة معروف الأرناؤوط لروايته "سيد قريش":

يقدّم لنا النّاقد خمسة حوافز أساسيّة، وضعها معروف الأرناؤوط نصب عينيــه، وهــي تشكّل الدافع لكتابة روايته "سيدّ قريش"، فقد أراد معروف:

أولاً: أن يعرّف الأجيال إلى الصفحات المشرقة من تاريخ الأمّة الإسلاميّة، وأن يحــرّك المشاعر القومية التي أيقظت الأجداد لبناء الأمّة ووحدتها...

---

[1] - انظر: المرجع السّابق، ص 25.

[2] - الأرناؤوط، معروف: سيّد قريش الجزء الأول، دار القلم ، بيروت، لبنان ط3، 1971، ص 23

[3] - المرجع السابق ص 24.

[4] - كتاب النّاقد "عبد اللطيف ارناؤوط"، ص 26

والحافز الثّاني: الذي دفعه إلى كتابة هذه الرّواية التاريخيّة هو أنّه قرأ رواية "فلورندا البيزنطيّة" للكاتب الفرنسي "رينيه دي سيكونزاك" عن تاريخ العرب في الأندلس، فلمس فيها تشويهاً للأحداث التاريخيّة فأحبّ أن يصححّه.

وأما الحافز الثّالث: فيتجلّى في اختياره حقبة من تاريخ الأمّة الإسلامية تشبه إلى حدّ بعيد الحقبة التي عاش فيها معروف... وكان المجتمع العربي في فترة صدور الرّواية يعيش في ظروف مماثلة للظروف النى مرّت بها الأمة قبيل الإسلام، وتخضع أجزاؤه للاستعمار الفرنسي والإنكليزي والإيطالي، وقد ضرب المستعمر طوقاً حديديّاً على الأدباء...فوجد معروف في التّاريخ ضالتّه المنشودة، ورأى أنّ إسقاط أحداث الماضي على الحاضر يبعث الأمل في النفوس ويحرّك الثورة في الرؤوس دون أن يتعرض للملاحقة.

أمّا الحافز الرّابع: فيتجلّى كما ذكر النّاقد في تركيز الكاتب على الجيل المهيّأ لمقارعة الاستعمار، فهو في "سيّد قريش" يفصّل في تصوير الصّراع بين جيلين، جيل متمسّك بالقديم يتمثّل بزعماء قريش التقليديين، وجيل جديد من الشبّاب المؤمن بالتغيير ولاسيّما الفقراء والمساكين، لذلك كانت دعوة الكاتب قومية ولم تكن دينيّة فحسب ذات أهداف من أبرزها توحيد العرب، وممّا يدخل في هذا الهدف عناية المؤلّف بالمرأة وحرصه على إبراز دورها في النضال والثورة، فليلى الكندية وهند بنة امرئ القيس ومارية الغسّانية وفاطمة بنة الخطّاب وغيرهنّ جعلهنّ الكاتب قدوة لفتياتنا في عصرنا الحاضر.

وأمّا الحافز الخامس: فهو لغوي وتربوي حرض فيه الكاتب كما يقول النّاقد على أن يقدّم للأجيال نصّاً أدبيّاً حافلاً بالجمال الأدبي.[1]

رواية "سيّد قريش"، أجزاؤها، أحداثها، مصادرها:

يتابع الناقد حديثه عن رواية "سيّد قريش" فيذكر أنّ الكاتب معروف قسم روايته إلى ثلاثة أجزاء متوازية الطّول، يتناول الجزء الأوّل واقع العرب المتجزئ في فترة حكم المناذرة والغساسنة، ومعاناة العرب بسبب تلك التجزئة في الأرض والمعتقد والفكر.

ويتناول الجزء الثّاني من الرّواية الظروف التّاريخية والاجتماعيّة والسياسيّة التي أدّت إلى تقارب وتوحيد عربي فرضه دخول الأحباش مكّة، وطردهم منها على يد سيف بن ذي يزن... وأثر الشّعر في توحيد المشاعر من خلال الأسواق الأدبيّة، وانتظار العرب قيام سيّد قريش محمّد (ص).

[1] - المرجع السّابق نفسه، الصفحات: 27، 28، 29.

وفي الجزء الثّالث من الرّواية يتابع المؤلف مراحل الدّعوة معتمداً على كتب السّيرة النبوية وغيرها من المصادر، فيعيد كتابة هذه السّيرة بنفس روائي شاعريّ محللاً شخصية الرسول الكريم (ص)... كما ينوّه النّاقد بأنّ المؤلّف معروفاً قد تزوّد بقراءات مستفيضة عن تاريخ الرّوم والفرس والغساسنة والمناذرة، وحياة العرب في الجاهلية.[1]

كما يذكر لنا المصادر التي اعتمدها في كتابة الرّواية، وأبرزها الطبقات الكبرى لابن سعد، وكتاب الأصنام لابن الكلبيّ، والعقد الفريد لابن عبد ربّه، وتاريخ الطبريّ، ودلائل النبوّة للبيهقي، والأغاني للأصبهاني، ومصادر الشّعر الجاهلي، والكامل لابن الأثير، وسيرة عمر بن الخطّاب. وتاريخ أبي الفداء، وبلوغ الأرب للألّوسي، وتاريخ العرب للكونت دي ساسي، وتاريخ الإمبراطورية العثمانية لغانيته، وتاريخ فارس القديمة لكليمان هيار، وتاريخ العرب لسيديو، وأمراء آل جفنة الغسّانيين لنولدكي، ومن المصادر الحديثة: فجر الإسلام، وضحى الإسلام لأحمد أمين.[2]

أمّا فيما يتعلق بأحداث رواية "سيّد قريش"، فقد تغلغلت الوقائع التّاريخية مع الوقائع المتخيلّة فيها كما ذكر الناقد، وقد طغت الأحداث التّاريخية فأكثر شخصيات الرّواية لها وجود تاريخي حقيقي، وأكثر تحركاتها مستمدة من التّاريخ، كزيارات الشّعراء حسّان بن ثابت والنابغة الذّبياني لدمشق والحيرة، وزيارة امرئ القيس للقسطنطينية.[3]

ولكن نحن لا نستطيع أن نجزم بكلّ ما جاء به الناقد أرناؤوط من آراء، واعتبار بعض الوقائع التي جاءت في الرّواية تاريخية حقيقيّة كذكره زيارة امرئ القيس الشّاعر للقسطنطينية وخاصّة أنّ النّاقد لم يذكر ما يثبت ذلك، ولم يعتمد على مصدر موثوق لتأكيد صحّة ما جاء به، وهنا لا يسعنا إلا أنّ نقف وقفة حياديّة فنعدّ زيارة الشاعر امرئ القيس إلى القسطنطينية في موقع متوسط بين الوقائع التّاريخية الحقيقيّة وبين الوقائع المتخيلّة. لأنّ الناقد والأديب د.طه حسين أبدى شكوكه في صحة زيارة امرئ القيس للقسطنطينية لأنه لم يذكرها في شعره، ولم يصف كنائسها.

ويتحدّث النّاقد عن الأحداث التي أبدعها الكاتب، والشخصيات التي اخترعها، فيذكر أنّها محدودة جدّاً لا تتجاوز ليلى الكندية الشخصيّة النسائية البارزة في الرّواية ومارية بنت امرئ القيس، وسيلفيا ابنة الإمبراطور جوستينيان، والنّاقد معجب بشدة حرص الكاتب معروف على

---

1 - انظر كتاب النّاقد "عبد اللطيف أرناؤوط" السّابق، الصفحات: 30، 31.

2 - انظر كتاب النّاقد "عبد اللطيف أرناؤوط" السّابق، الصفحات: 29- 30- 31.

3 - انظر: المرجع السّابق، ص 31.

الأمانة التّاريخية فيذكر أنّه يثبت المصدر الذي استقى منه الواقعة التّاريخيّة في هامش الرّواية.(1)

ونحن إذا عدنا إلى رواية سيّد قريش، نجد أنّ الكاتب معروف الأرناؤوط قد ذكر المصدر الذي استقى منه كما أشار النّاقد، ولكن هل كان معروف شديد الحرص في ذلك كما قال النّاقد؟

إذا عُدنا إلى الرواية، وفتحنا الجزء الثّاني منها، نجد الكاتب في هامش الصفحة (229) يذكر قولاً لياقوت الحموي مؤلف معجم البلدان، وقولاً آخر لمؤلّف كتاب الأغاني، ولكنّه أهمل ذكر الجزء الذي أخذ منه، وأهمل أيضاً ذكر رقم الصفحة، وكذلك نراه في هامش الصفحة رقم (230) يثبت المصدر "بلوغ الأرب للألوسيّ" دون أن يذكر رقم الصفحة في المصدر السّابق الذي استقى منه معلومته الذي يقول فيها إنّ أقدم الأصنام مناة الذي بالغ العرب في إعظامه، وإنهم اتّخذوا العزّى واللاّت بالطائف وهي صخرة مربعة عظّمتها قريش وسائر العرب، كما أنّه في حديثه عن يوستانيوس، والحارث بن جبلة الغسّاني وذلك في الجزء الثاني من رواية "سيّد قريش" صفحة (310) نجد الكاتب معروف يثبت في هامش الصفحة المذكورة سابقاً مصدره الذي استقى منه بهذه الصورة "شارل دوهل في كتابه القسطنطينية" لكنه لا يذكر شيئاً آخر ولا حتّى رقم الصفحة في كتاب شارل دوهل الذي أخذ منه الكاتب.(2)

والنّاقد يثني على الكاتب معروف لأنّه كثيراً ما يمنح شخصيات روايته وعياً وسلوكاً قومياً أو اجتماعيّاً يتجاوز ثقافة العصر الذي يكتب عنه، ويذكر ليلى الكنديّة البطلة القومية التي نهضت بدور في تصفية الوجود الرومي في بلاد العرب، وشاركت أيضاً في معركة ذي قار، وخطبت في الكعبة داعية لسيّد قريش.... وهي كثيراً ما تتحدّث بلغة عصرنا ومفاهيمه التي لم تكن قد برزت إلى الوجود.(3)

ونذكر هنا قول ليلى الكنديّة في الرواية والذي يظهر فيه حسّها القومي كما وصفه الكاتب: ((اسمح لي أيّها الوطن البعيد الذي بهرت حوادث أبطاله وحميّة نفوس الشّباب، أن أتأمل في جبالك وأنهارك وظلالك وأنا في هذه الأرض الأجنبية، بل اسمح لي أيّها الوطن أن

[1] - كتاب النّاقد السابق، ص 31.

[2] - انظر: الأرناؤوط، معروف: سيّد قريش، الجزء الثاني، دار القلم، بيروت، لبنان، ط3، 1971، الصفحات: 229-230 -310.

[3] - كتاب الناقد "عبد اللطيف أرناؤوط" ص 31.

أحلم من نسيم مروجك الزاهية عطراً يخلع على تمثال أحبّ البنين إليك حياة دائمة مــصحيّة لا يتحيّفها غيم)).[1]

كما يذكر النّاقد هند بنة امرئ القيس التي لم تكن أقلّ وعياً قوميّــاً مــن ســابقتها ليلــى الكنديّة فهي تتابع هدفها في الثأر لأبيها، وتتحدّث عن وحدة العرب وواقعهم المجــزّأ، وكــان معروف الأرناؤوط كما يشير النّاقد يهدف من وراء تصوير شخصيّاته التاريخيّة إلــى رســم المثل الأعلى للأجيال العربيّة...[2]

وبرأيي النّاقد محقّ فيما ذكره عن هدف معروف من وراء تصوير شخصياته وهو رسم المثل الأعلى للأجيال العربية، فنحن نلمس ذلك في رواية "سيّد قريش" حيث أعطــى الكاتــب صورة مشرقة لشخصياته سواء التاريخيّة الحقيقة أو المتخيّلة، فهو يصوّر هنــد بنــة امــرئ القيس بطلة شجاعة تدافع عن شرفها بقوة ولا تخاف أعداءها الرّوم، وقد قاومت هيباس قائــد الرّومان وجنوده، وقالت وهي تحدّث الفرسان الثلاثة، أبا سفيان وحسان بن ثابت وأميّة بن أبي الصلت:

((فنظرت إلى الرجل فإذا وجهه قد ارتدّ مسفوعاً شاحباً، ثمّ تركني هائماً علــى وجهــه فلحقه فرسانه وهم لا يرون طريقهم من فرط الجزع، أجل أيّها السّادة فرّهيباس النذل من غير أن يمسّني!))[3]

كما يصورّها فتاة عربيّة أبيّة ذات إرادة صلبة وعزيمة لا تفتر، فقد صممّت على الثــأر لأبيها امرئ القيس واسترداد دروعه من الرّوم كما جاء في قولها:

((لقد وقر في عزمي أن أتحدّث إلى الرّوم بشأن دروع أبي، فهبطّت دمشق وحاولت أن أجتمع إلى عمرو بن الحارث صديق قيصر)).[4]

كما ويشير النّاقد إلى أنّ المؤلّف معروف الأرناؤوط قد أجاد في تصميم حبكة الرّوايــة حين ربط التّاريخ العربيّ الجاهليّ منه والإسلامي وأحداثه في وحدة متماسكة تحقّق هدفه، كما ساعدته المصادر في الرّبط بين الأحداث المتباعدة في الزمان والمكان: ليلى الكنديــة تــرتبط

---

[1] - رواية سيّد قريش، ج2، ص 327.

[2] - كتاب الناقد "عبد اللطيف أرناؤوط" ص 32.

[3] - رواية "سيّد قريش"، ج1، ص 47.

[4] - الرواية السّابقة، ج1 ، ص 50.

ببلاد العرب برابطة النّسب والولاء، وببلاد الرّوم برابطة العيش والاستقرار.. وملوك الحيــرة تربطهم بدمشق صله الخصومة مع الغساسنة وبالحجاز رابطة النّسب.[1]

ولكنّ النّاقد رغم ما ذكره سابقاً عن الروّاية من مميّزات، إلا أنه يــشير إلــى أن فــي الرّواية وقائع تجاوز فيها المؤلّف الشّائع التاريخي المشهور والمألوف، فالمؤلف يجعــل جبلــة بن الأيهم يُقتل في مواجهة المناذرة حين اكتسحوا بلاد الشام، مع أنّ المصادر التاريخيّة تــشير إلى أنه شهد اليرموك وزار الحجاز وأسلم وارتد عن الإسلام. في حين يذهب المؤلــف -كمــا يقول الناقد- إلى أنّ ملك الغساسنة في تلك الفترة كان شرحبيل بن عمرو الغسّاني بعد جبلــة، والكاتب لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في تقرير واقعة موت جبلة قبل الفتوح.

كما يقول: على الرغم من طغيان الحقائق التّاريخيّة على الرّواية وإسهاب المؤلف فــي تفصيلات تاريخيّة، إلا أنّه نجح في خلق الحبكة التي أبدعها للرّوايــة، وإن تــساوق الجانــب المتخيلّ مع الواقع التّاريخي منح الرّواية جوّاً من الرقّة والنعومة والموسيقا.

كما يبيّن النّاقد البيئة الزّمانية لرواية معروف فهي تمتّد من أواخر القرن السادس للميلاد إلى ما بعد هجرة الرسول الكريم (ص) بقليل، وتجري أحداثها في بيئات متعددة، منها دمــشق ومناطق الغساسنة والحيرة عاصمة المناذرة ومكّة والمدينة والطّائف وغيرها كبصرى.

والناقد يعيب على الكاتب تحوّل الحوار في روايته إلى سرد تاريخي مسهب يسيء إلــى فن الرّواية، وأنّ المؤلّف عمد إلى رسم الوقائع التاريخيّة التي تمّت في زمن واحد بالمعارضة بينها في فصول متعاقبة يتبدّل فيها المكان والحدث دون أن يتبدّل الزمان، ويلجأ الكاتب أحيانــاً إلى طريقة الخطف خلفاً فيرجع بالتّاريخ إلى الوراء محلّلاً خلفيات الأحداث ومكوّناتها البعيدة، فيطول كلام الشخصيات بإسهاب.[2]

ونحن مع النّاقد فالكاتب في روايته كثيراً ما يلجأ إلى طريقة الخطــف خلفــاً ولكنّهــا طريقة يتبعها الرّوائيون وهي تبعث جمالاً في الرّواية، لكنّ الكاتب كما قال النّاقد أطال كــلام شخصيّاته ممّا أدّى برأيي إلى إعادة الكاتب لبعض أحداث الرّواية التي ذكرها سابقاً، ونجد مــا يؤيّد هذا في الجزء الأوّل من رواية "سيّد قريش"، وذلك في حديث أبي سفيان إلى الشاعر أميّة ابن أبي الصلّت، فيقول الكاتب على لسان هذه الشخصية: (هذه هي كلماتك أعدّتها على أذنيك، وأنا مشفق أن ينزل بك في هذه المرّة ما نزل بك في المرّة الأولى، ماذا أتودّ أن أنقلــك إلــى الماضي فتتصل بشجونه ومآسيه؟ إذا كان في الماضي ما يستهويك فإني لن أتردّد في عــرض

[1] - كتاب النّاقد "عبد اللطيف أرناؤوط"، ص 32.

[2] - انظر: كتاب النّاقد، ص 33، 34.

صوره عليك، أذاكر أنت انبعاثك إلى الشام في ليلة عمياء طخياء، وكان معك بعض قريش فلمّا انحسر الليل صعدت في كثيب، فرفعت لك كنيسة فانتهيت إليها، فإذا شبح جالس فقال لك حين رآك: إنّك لمتبوع، فمن أين يأتيك رِبيئك، فقلت له: من شقي الأيسر، قال: فأيّ الثياب أحبّ إليك أن يلقاك فيها؟ فقلت له: السّواد، فقال كدّت تكون نبيّ العرب ولست به وإنّ نبيّ العرب صاحب هذا الأمر، يأتيه من شقّه الأيمن وأحبّ الثّياب أن يلقاه فيها البياض).[1]

والكاتب معروف يثبت في هامش الصفحة (173) المصدر الذي أخذ منه المقطع السّابق ويكتب (الأغاني ج3، ص 81، وروى هذه الرّواية ابن عبد ربّه في كتابه العقد الفريد)، ولكن لا يذكر رقم الصفحة التي أخذ منها في كتاب العقد الفريد، كما نجد الإسهاب في كلام الشخصيات في الرّواية واضحاً في الفصل العاشر من رواية "سيّد قريش" الذي عنوانه "الملك الشاعر".[2]

وبسبب تعدّد البيئات والشخصيات فقد تنامى الحدث الرّوائي برأي الناقد أرناؤوط من فصل إلى فصل ببطء ......، وأمّا عنصر التشويق كما يذكر الناقد فيبرز أكثر ما يبرز في الواقع الموهوم أو المتخيلّ الذي ابتدعه الكاتب، وحشد فيه المفاجآت التي تشدّ القارئ وترجئ الحلّ.

وبرأيي إنّ عنصر التشويق في الرّواية كان واضحاً، والكاتب معروف كان بارعاً، عرف كيف يجذب القارئ، وكيف يجعله متشوّقاً لمتابعة أحداث الّرواية، ونجد هذا في الفصل العاشر من الرّواية الذي عنوانه "الملك الشاعر"، فقد ورد فيه حديث ليلى الكندية لغلامها حنظلة حين سألته عن هند بنة امرئ القيس فقد جاء في نهاية هذا الفصل:

((فتأوّهت العجوز وراحت تذرف دمعها، ثم همست قائلة:

- لقد عرفتها منذ النظرة الأولى! والآن قل لي؟ أفي وسعك أن تدلّني على المكان الذي نزل فيه ضيوف قيصر؟

أجاب حنظلة ملتاعاً: - قصر تيودوس!.

فصاحت ليلى صيحة هائلة:

- قصر تيودروس! قصر تيودوس! يا للألم يا للرعب ثم أغمي عليها فأحاط بها حنظلة ورجاله))[3]

---

[1] - رواية "سيّد قريش"، ج1، ص 173، وانظر أيضاً الرواية ص 172.

[2] - رواية "سيد قريش"، ج2، ص 322

[3] - رواية "سيد قريش"، ج2، ص 330.

فالكاتب جعل القارئ متشوقاً لمعرفة ماذا جرى لليلى الكندية، ومتسائلاً لماذا أغمي عليها عندما سمعت اسم قصر تيودوس، ونذكر مقطعاً آخر في الرّواية يبرز فيه عنصر التشويق جاء في نهاية الفصل الثاني عشر من الرواية بعنوان "الأشعة والظلال" في حديث الكاتب عن هند هو:

((ولم تقل أكثر من ذلك، لأنّ الحزن قد عقل لسانها، فمشت بين عمرو ومارية وصعد الثلاثة في طريق المنزل المنعزل وفي تلك الأثناء كانت العجوز ذات الملابس السّوداء قد دخلت ذلك المنزل القائم على شواطئ البوسفور من باب صغير تحمل مفتاحه بيدها وقد رابط حنظلة برجاله العشرة حيال الشاطئ)).[1]

فالقارئ بعد قراءته لهذا المقطع سوف يظلّ متشوقاً لمعرفة ماذا فعلت العجوز.

أحداث الجزء الأوّل من رواية "سيّد قريش":

ينتقل النّاقد عبد اللطيف أرناؤوط إلى تلخيص أجزاء رواية "سيّد قريش" فيقول:

يفد الشّاعر حسان بن ثابت إلى دمشق لزيارة الغساسنة من طريق الغوطة، ويصل إلى بيعة منارة فيها راهب تعرّف على حسّان لأنّ شهرته كانت قد بلغت دمشق وحفظ الناس شعره، ورافق الشّاعر في رحلته إلى الغساسنة الشّاعر النّصراني أميّة بن أبي الصلّت، وعرّجا على بصرى، وباتا فيها ليلة في /دير بحيرا/، والتقى الشاعر حسّان في دمشق زعيم قريش في الجاهلية أبا سفيان بن حرب الذي أبدى أساه، إذ رأى دمشق تخضع للأجنبي، وملوكها يخدمون قيصر، وأنبأ أبو سفيان الشّاعريْن بظهور نبي عربي كريم يقود الأمّة إلى نصر أبديّ، فيطرب حسّان لما يسمع ويعلن إيمانه به قبل بعثه، وكان أميّة بن أبي الصلّت يودّ أن يكون هو ذلك النبي الموعود، لذلك كان دائم السّفر إلى الشّام، وثيق الصّلة بالرهبان والأديرة، وقرّر زيارة الرّاهب بحيرا ليسأله أن يحدّثه عن النبيّ المنتظر".[2] وهنا يذكر لنا النّاقد قول الرّاهب بحيرا لأميّة وهو يشير إلى الصحراء:

".... حدّق طويلاً إلى هذا الرّمل المنبسط الذي تحمله إلينا بادية العرب!" هنالك في هذا الرمل الذي تعصف به شتّى الرّياح قافلة تسير مطمئنّة، في هذه القافلة تجارة إلى بصرى،.... إذا نظرت إلى رجال هذه القافلة وتبيّنت ملامحهم بدا لك صبيّ كعقد الجمان في وميضه وإشراقه، ولاح لك في هذا الصبيّ المجيد ذلك النّاموس الذي لاح لموسى وعيسى!...

---

[1] - رواية "سيد قريش"، ج2، ص 359.

[2] - انظر: كتاب النّاقد "عبد اللطيف ارناؤوط"، ص 34، ص 35

لقد ولد النبي في أشرف القبائل بل في أكرم البيوت!"[1]

وتحيّر الشاعر أميّة ممّا قاله الرّاهب، فقال له بحيرا:

"فيمَ إجفالك هذا، أيرمضك كثيراً أن ينبت في الحجاز هذا النبت الذكي المتأرّج؟ واعجباً لكم معاشر العرب! تعيشون في الصحراء عيشة السّائمة وقد ألظ بها الفصل القائظ فراحت تهيم في شتّى النّواحي، بينما يغشى تلك المدن التي تركتموها وراء هذه الصحراء العارية أجنبي ينعم بالظّلال الوارفة الرطبة، وبينما يحصد هذا الأجنبي ما زرعته أيديكم في الحقول التي أمرعت في لهث نفوسكم..، وبينما ينشئ هذا الأجنبي في الأرض الزاهرة المورقة حصوناً من الحجر الصّلد وقصوراً في صخور الجبال تنّم عن جبروته وصلفه بينما هي تنّم عن هذا الموت البارد المقرور الذي يغشى نفوسكم!... أيّها الشّاعر الذي يأتيه الإلهام من جمال الأرض وجمال السّماء، لتتبدّل أنغامك في الرّوضة الغناء، والدّمنة الوطفاء، بنغمات عذاب تبعثها نفسك في الإشادة بروائع هذا الفجر الذي سيظلّ نوره البهيّ عالماً جديداً تفيئون إليه وتحصدون في أديمه نبات الحياة المتورّدة الزاهية".[2]

ويتابع النّاقد تلخيص الرواية قائلاً: "وراح أميّة يقص ما سمعه من نبأ النبي (ص) على أبي سفيان في طريق عودتهما مع القافلة إلى الحجاز، فيتمنّى أبو سفيان لو يرى بحيرا في بصرى، ليسمع منه ما سمعه أميّة، ويلتقي أبو سفيان بالراهب فيعيد الرّاهب على مسامعه ما كان قد أنبأ به أميّة، ويرجوه ألا يتفوّه أمام الرّوم بما سمع، وقبل أن يودّع الراهب أبا سفيان يقول له:[3] "سيخرج من أبنائك ملوك يزيلون الرّوم عن هذه البلاد! وسيكون أبناؤك جنداً لهذا النبيّ العظيم ينصرونه إذا قعد النّاس عن نصرته ولا تقعد بهم هممهم عن تأييده في دعوته".[4]

ويتابع النّاقد فيذكر في تلخيصه "أنّ أبا سفيان وحسان بن ثابت وأميّة عندما اقتربوا من ضفة نهر بردى، سمعوا صوت استغاثة يصدر عن امرأة عربيّة، تعرّضت لعدوان جنود من الرّوم فامتشقوا سيوفهم، وعثروا على فتاة عربيّة من كندة تستنجد وقد دهمها القائد الرّومي هيباس وجنوده قبل أن تلج القصر، ولمّا سمعوا أصوات الفرسان هربوا، ثم تبيّن لهم أنّ الفتاة هي هند بنة امرئ القيس التي خلّفها أبوها وهو في طريقه إلى القسطنطينية، وقد جاءت لتتوسّط الغساسنة في استرداد دروع أبيها التي أودعها قبل موته عند السّموءل بن عادياء، وكان الرّوم قد أخذوها منه، ويعرض عليها الثلاثة أن ترافقهم إلى بصرى، فتعتذر لأنّها تريد

---

[1] - انظر: رواية "سيّد قريش"، ج1، ص 27.

[2] - انظر: رواية "سيّد قريش"، ج1، ص 27

[3] - كتاب النّاقد "عبد اللطيف أرناؤوط"، ص، 36

[4] - انظر: رواية سيّد قريش، ج1، ص 34.

أن تنتقم من هيباس، وتشكوه إلى عامل قيصر، فإن لم ينتصف لها ستلجأ إلى هانئ بن مسعود سيّد شيبان.

وفي تلك الليلة ذاتها كان الفتى عمرو بن الحارث الغسّاني مع حبيبته مارية في قصره المطلّ على بردى فسمع استغاثة هند، وكانت مارية جارية أهداها قيصر الروم إلى عامله المنذر فأحبّها أخوه عمرو، وعاشت مارية في قصر البريص، وأطلّ عمرو ودعا أبا سفيان وصحبه للدخول إلى قصر الغساسنة، وتقصّ هند على عمرو بن الحارث نبأ النبي المبعوث وما أخبرها به الكاهن سطيح، وسالت دموع أميّة حين تيّقن أنّه لن يكون النبي الموعود، ويذهل الجميع للشّبه بين مارية وهند، ويعرض الملك المنذر بن الحارث أن تمكث هند مع مارية في القصر ريثما يسافر إلى القسطنطينية... ويعود الثلاثة إلى دير إيلياء قرب دمشق حيث وفد إليه الرّاهب بحيرا من بصرى، فيحسن وفادتهم، ويعلمهم أن النبيّ ظهر وهو يقترب من بصرى في إحدى القوافل"[1] وعندما يسأله الشّاعر حسّان فيما إذا آمن بهذا النبي الذي حسر عنه يقول الرّاهب: "لقد آمنت به وهو لا يبرح جنيناً في أحشاء أمّه وأنا اليوم أشدّ إيماناً به من الأمس!"[2]

ونتابع مع النّاقد أحداث الرّواية حيث يقول: "فلّما رأى هيباس الثلاثة يدخلون الدّير، دهمهم وصحبه، فكانت معركة سقط فيها عدد من جنود هيباس، وفرّ هيباس ثم لفظ أنفاسه، ثم يتابع الثلاثة طريقهم إلى بصرى... وبينما كانت قوافل أبي سفيان تدخل بصرى، كان المنذر الملك الغساني يدخل بموكبه دمشق عائداً من القسطنطينية، وتمرض مارية، فيقرّر عمرو أن يرتحل معها إلى موطنها القسطنطينية التي زارها أبوها فيما مضى، ومات في طريقه إليها.

ويتعرّف ملك الغساسنة على هند لأنّها كانت قد راجعته من قبل في قصة الدروع، ويخبره عمرو بقصّة الاعتداء على هند، فيغضب..، ولم يغادر حسّان دمشق إلا بعد أن اجتمع بصديقه جبلة بن الأيهم الذي جمعه بدوره بعلقمة الفحل والنّابغة، فكان لقاء بين عمالقة الشعر في بلاط الغساسنة.. ويقرّر المنذر ملك الغساسنة أن يخرج لقتال النعمان بن المنذر اللّخمي ملك الحيرة، فاتجه جيشه إلى العراق، والتقى الجيشان فكانت معركة عنيفة خسر فيها المنذر الغسّاني ثلث جيشه ولكنه أسر قابوساً ابن ملك المناذرة ، ثم أطلق سراحه أملاً أن يقبل أبوه، بهدنة طويلة بين الخصمين، وتنتهي المعركة في الخامس عشر من حزيران عام 580م، ولكن الملك كان حزيناً لما ارتكبه جنوده من قتل ونهب في أبناء عمومته المناذرة، وبسبب قلقه من قيصر الروم جوسنتيان الذي طلب منه أن يزور القسطنطينية ويصحب معه ولده، ثمّ يتوجّه

---

[1] - انظر: كتاب النّاقد أرناؤوط، ص 37، ص 38.

[2] - رواية "سيّد" قريش، ج1، ص 87

موكب الملك الغساني إلى القسطنطينية ومعه عمرو ومارية وهند سالكاً طريق حمص فحلب، ويمرّ حسّان بن ثابت في طريق عودته بالبلقاء، ويحاول أن يزور الكاهن سطيحاً ومعه أميّة، فلا يجدانه في كهفه، ويجدان عجوزاً تسخر من أميّة وادّعائه النبّوة، وتخبرهما أن سطيحاً في البتراء، فيذهبان إلى البتراء ويلتقيان فيها بقافلة أبي سفيان عائدة من دمشق، ولقيا سطيحاً ومعه شقّ بن أنمار بن نزار، وكان منظره مرعباً، وكانا يعرفان الغيب، ويبشّرهم سطيح بالنبي العظيم المنتظر من ولد غالب بن فهر، ويقرأ سطيح طالع حسّان فيبشّره بحظوة لدى النبي المنتظر، ثم يقابل أبو طالب الرّاهب بحيرا، ويتخلّف عن الرّكب طفل في العاشرة من عمره، يتيم، ماتت أمّه، فكفله جدّه عبد المطّلب، فلّما مات جدّه كفله أبو طالب، وكان يرافق القافلة إلى بصرى، فيطلب بحيرا إحضاره، ويسأل عن اسمه فيعرف أنّه يُدعى محمداً، فيقول لأبي طالب بعد أن تملّى بقسمات وجهه طويلاً إنّ لابن أخيه شأناً، وإنّه نبي موعود، يدعو إلى ديانة مهذّبة.[1]

يقول الراهب بحيرا: "لقد عاش النبيّون الذين تقدّموه أيتاماً... لقد عاش موسى النبيّ يتيماً أيضاً، وعاش مضطهداً مروّعاً لا أسرة له.... وكذلك عيسى فإنّه ولد يتيماً مروّعاً من أعدائه مضطهداً في قومه.. وسيعيش هذا الطفل اليتيم كما عاش موسى وعيسى ولكنّه سيطلّ في النهاية على عالم يحبّه ويشعر أنّه متّصل به. عد أيها السيّد بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه من اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينّه شرّاً، فإنّه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، وسيدين له العرب، ويملك الروم والعجم".[2]

والكاتب معروف الأرناؤوط يعتمد في الحديث السّابق عن النبي (ص) على مصدرين يثبتهما في الهامش وهما: "ابن هشام ج1، ص 171" و "تاريخ ابن عساكر ج1، ص 254" وهذا يدلّ على دقّة الكاتب وأمانته في ذكر الجزء ورقم الصفحة التي أخذ منها..

أحداث الجزء الثاني من رواية "سيّد قريش"

لقد لخصّ الناقد أرناؤوط أبرز أحداث الجزء الثاني من الرواية قائلاً:

جلا الأحباش عن اليمن بعد سنتين من ولادة الرسول، وأقبلت وفود العرب على سيف ابن ذي يزن تهنّئه بالنّصر، وفيها وفود قريش، وخطب عبد المطلب خطبته المشهورة، ويخبر سيف بن ذي يزن أبا طالب أنّه سيولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة، وتكون له الإمامة

1 - انظر: كتاب النّاقد "عبد اللطيف أرناؤوط"، الصفحات: 39، 40، 41، 42.

2 - انظر: رواية "سيّد قريش"، ج1، ص 210، ص211.

والزعامة إلى يوم القيامة، فيفرح أبو طالب ويعلمه أنّ محمّداً حفيده وفيه كلّ ما ذكر من علامات...

ومرّت أربعة أشهر على رجوع أبي سفيان من الشام إلى مكة، وأخذت مكّة تستقبل وفود القبائل استعداداً لسوق عكاظ، وتبارى الشعراء الذين تنبّهت مشاعرهم القومية بعد هزيمة الأحباش،... ويبرز ورقة بن نوفل وهو في السبعين من عمره، ويهنّئ العرب بالنّصر، ويخطب أبو طالب ويمدح ملوك الغساسنة والحيرة، وانقضى الموسم، وطافت في نفس ورقة الخواطر[1] فانثنى يقول: "إنّ هذا الهواء الذي ينبعث على جنبي نديّاً سائغاً يحمل إلى نفسي عبق ذلك النبيّ العظيم الذي سيجيء بعثه منحة من أبهر منحك، وعطيّة من أبهى عطاياك.

ربيّ! إنّ في قدرتك أن تطبع على هذه الصحراء المتبرمة بعزلتها عن العالم جلال الديانة وعظمة النبيين الذين يحملون إلى الإنسان الغريق الخلاص والنجاة والظلّ الرخي الممدود".[2] واتجهت الجموع من مكّة إلى عكاظ، ويقبل عنترة وقيس بن زهير وعلقمة بن عبدة وزهير وحسّان وعروة والخنساء، ثم يقبل النابغة حزيناً، بسبب غضب ملك الحيرة عليه بعد وصفه للمتجرَّدة زوجته، وتنتصر قريش على الأحباش. وفي العقد الأخير من عام 580م اجتمع سادة قريش في دار عبد الله بن جدعان لدراسة قرار الرّوم بمنع قوافل العرب من الدخول إلى الشام، ويطلب إليهم ورقة بن نوفل أن يخلدوا للسكينة، وأبدى أبو سفيان مناصرته للغساسنة ضد الروم، وقرّر المجتمعون أن يرسلوا وفداً لملك الحيرة لوقف الغزو على بلاد الشام.

وتطول غيبة النعمان ملك الغساسنة في عاصمة الروم، ويخلع عليه قيصر الروم تاج الملك ورتبة بطريق، ويتوّج في كنيسة أياصوفيا، وتحضر ليلى العجوز حفل التتويج، فتسخر من أساليب الروم، وسذاجة ملوك الغساسنة الذين يقدّمون خدماتهم للأجنبي مقابل عروش من ورق.[3]

ثمّ تنطلق ليلى إلى شواطئ آسية الجميلة، وتلتقي هند على الشاطئ، وكانت تعرفها منذ طفولتها في القسطنطينيّة، ثمّ تتحوّل إلى ساحة أيبودروم المقفرة، ويجوس نظرها بتماثيل القياصرة، ثمّ تركع أمام تمثال امرئ القيس الذي نحته المثّال (روزاس) فتؤكّد له أنّ ساعة الانتقام آزفة، ثمّ تتحوّل إلى شوارع العاصمة تبيع عقاقيرها، وعطورها، وتمارس سحرها بين النّاس، وعندما تلتقي بهند ومارية في القصر تخبر مارية أنّها ابنة امرئ القيس من سيلفيا ابنة

---

1 - انظر: كتاب النّاقد، الصفحات: 42، 43، 44، 45

2 - رواية "سيد قريش" ج1، ص 243.

3 - انظر كتاب النّاقد، الصفحات: 42، 43، 44، 45

القيصر جوستنيان، فقد أحبّها امرؤ القيس، وكانت مارية ثمرة حبهما، فهي أخت هند، وأخبرت ليلى مارية أنّ دروع امرئ القيس عندها.. وتخبرهم أنّ جوستنيان شعر بعلاقة امرئ القيس بابنته، ودبّرت له زوجة جوستنيان حيلة، فقتله بالسمّ وهو في طريق عودته من بلاد الروم، وكان قد أوكل شأن مارية إلى ليلى تربيّها ثم أهداها إلى ملك الغساسنة، أمّا ابنته سيليفيا فلم تطق فراق طفلتها ومقتل حبيبها امرئ القيس فدنفت حتى ماتت. وتودّع ليلى عمراً وهنداً وماريّة، وتخبرهم بالخطر الذي يتهدّد المنذر لأنّ قيصر قرّر احتجازه بسبب تهاونه مع المناذرة... وفي قصر جوستنيان كان ملك الروم يلوم المنذر على تقاعسه في محاربة المناذرة والفرس وبتواطئه في قتل القائد هيباس، ودبّرت ليلى خطّة فأسكرت الحرس، وحذّرت المنذر وطلبت منه أن يهرب، فيخرج المنذر ومعه هند وعمرو ومارية التي كانت في النزع الأخير، وتدسّ ليلى السمّ للقيصر فيصيبه الجنون... ويصبح البطريرك طيباريوس وصيّاً على العرش، وأمّا المنذر فيستقرّ على الحدود حيث يتلّقى نبأ وفاة مارية، .. واجتمع مجلس الشّيوخ الروماني فنادى بطيباريوس قيصراً جديداً، وأمر باعتقال البطريرك ملاتيوس وكان محبوباً من الرعية، وأُعلن نبأ موت جوستنيان الثاني، وكانت هذه الأحداث المتلاحقة نقطة البداية في تصدّع إمبراطورية روما.

يقضي المنذر أول ليل من سفره في (إيبنون) في سورية، ثم يتوجّه إلى الشام، ويقرّر عقد زواج أخيه عمرو من هند بنة امرئ القيس عندما اشتدّ عليه المرض، أمّا ليلى فتقرّر السفر إلى الحجاز للبحث عن "سيّد قريش" ثم أسلم المنذر الروح عام 580م، وكان وفد قريش في طريقه إلى الحيرة يلتمس من ملكها عقد سلم طويل مع غسّان، فرضي النعمان بذلك، وفرح الناس لهذا التقارب في حياة شعب واحد يسعى إلى تضامن وثيق يدفع أذى الروم والفرس.(1)

وقبل أن يموت المنذر همس قائلاً: "متى يطلّ سيد قريش؟، وأنصت قليلاً فإذا هو يسمع أناشيد الرّعاة وقد احتوت كلّها وصف هذه الأرض المقدّسة الحالية بالمشاهد اللذيذة، واستيقن أنّ الأبطال يموتون والحماة يموتون وينقرضون ولكنهم يعيشون ويتجدّدون كما يعيش الوطن...."(2)

---

[1] - انظر كتاب الناقد، الصفحات 45، 46، 47، 48.

[2] - رواية "سيّد قريش" ج2 ، ص 487.

أحداث الجزء الثالث من رواية "سيد قريش":

أمّا الجزء الثالث من رواية "سيّد قريش" والذي قسّمه الكاتب معروف الأرناؤوط إلى أربعين فصلاً، فيتناول الأحداث التي جرت بعد ظهور دعوة محمد (ص)، حيث اجتمع مشركو قريش في دار الندوة لينظروا بأمر هذا النبي الجديد الذي عاب دينهم، وشكوه إلى عمه أبي طالب، ويندّد ورقة بن نوفل وليلى بموقف المشركين، ويرفض أبو طالب التخلّي عن ابن أخيه، ويؤكّد ورقة بن نوفل وميسرة لخديجة بنة خويلد أن محمّداً نبي هذه الأمّة، وقد عرضت خديجة على الرسول (ص) أن يخرج تاجراً إلى الشام مع غلامها ميسرة.

يقول الكاتب معروف في روايته:

" فلّما أتى الشام نزل في ظل شجرة عن كثب من منسك لراهب نصراني، فخرج الرّاهب إلى ميسرة فقال له: من يكون هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش أهل الحرم، فقال الرّاهب: "ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبيّ!"[(1)]

وأرسلت خديجة جاريتها نفيسة بنة علية إلى يتيم قريش تعرض عليه الزواج بها، فقبل الزواج بها، وشهد على ذلك صناديد قريش.

وفي الفصل الرابع الذي عنونه الكاتب بعنوان (حنان الشيخ) يصوّر فيه الكاتب موقف أبي طالب من الرسول محمد (ص)، يقول الكاتب على لسان أبي طالب:

"ولا قدّر الله يا نبي أن أكون خاذلك، اذهب، اذهب، وقل ما أحببت فوالله لا أسلّمك لشيء أبداً"[(2)]

يذكر الناقد أرناؤوط في تلخيصه للجزء الثالث من الرّواية أنّ أبا طالب التمس من الرسول (ص) أن يتحوّل عن دعوته، فقال له: يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه.[(3)]

وكان سيّد قريش يعتزل الناس في غار حراء كلّ سنة شهراً.. ومنذ صيف 610م اعتزل أسابيع عديدة قضاها في الصّوم والعبادة حتى ظهر له جبريل، فقصّ على زوجته ما رآه، وتراءى له جبريل للمرة الثالثة في السابع عشر من رمضان "13 شباط 610م" في غار

---

[1] - الأرناؤوط، معروف: سيّد قريش، ج3، دار القلم، بيروت، لبنان، ط3، 1971، ص 41.

[2] - المرجع السابق نفسه، ص 50، ويشير الكاتب معروف في الهامش إلى المصدر الذي استقى منه وهو "سيرة ابن هشام"، ج1، ص 145.

[3] - انظر كتاب الناقد، ص 49.

حراء، وأمره أن يقرأ، ونجد هذا في الفصل السادس من الرواية الذي عنوانه "اقرأ" يقول فيه الكاتب معروف:

"في اليوم الثالث عشر من شهر مايس سنة إحدى عشرة وستمئة خرج سيّد قريش إلى عزلته في غار حراء "وأغمض عينيه، فإذ ذلك الزائر المقدّس يهبط عليه من السّماء وقد جاءه بنمط من ديباج فيه كتاب فقال له: اقرأ.. وكان أميّاً لا يعرف القراءة والكتابة فانثنى قائلاً: ما أنا بقارئ. فتهافت جبريل عليه، وضمّه ضمّةً شديدة فخيلّ إلى السيّد أنّه مقبل على موت وقال الملك:

اقرأ، فصاح: ما أدري أيّ شيءٍ أقرؤه، فقال الملك:

(اقرأ باسم ربّك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربّك الأكرم الذي علّم بالقلم علمّ الإنسان ما لم يعلم).(1)

ونتابع مع النّاقد أرناؤوط تلخيصه أحداث الجزء الثالث من رواية "سيّد قريش" حيث يقول: ثم يتوالى الوحي على محمد (ص) فتؤمن خديجة برسالته، ثمّ يؤمن عليّ بن أبي طالب فزيد بن حارثة، وخطبت ليلى الكندية بالنّاس في الكعبة، وندّدت باستيلاء الفرس على الحيرة، ومطاردتهم الغساسنة وزحفهم إلى أراضي غسّان، وأهابت بالعرب أن تجتمع كلمتهم لنصرة الدين الجديد..

ويلبث الرسول (ص) ثلاث سنوات يدعو للدين الجديد سرّاً في بيوت الفقراء حتّى التحق بالدعوة خلق كثير ويأسى المسلمون لانتصار الفرس، وتتّسع الدعوة فتتجاوز مكّة، ويدعو الرسول (ص) بني عبد المطلب إلى الدين الجديد فيتحوّلوا عن عبادة الأصنام... ويجتاح الفرس سورية ويطردون أمراء الغساسنة.

وبلغت أنباء الدعوة الجديدة دمشق.. وسار الرسول (ص) حتّى بلغ الصّفا على جبل أبي قبيس، ودعا قومه إلى الإيمان فأنكر أبو لهب دعوته، وتآمر القوم على سيّد العالم وأوفدوا له وفداً من كبارهم اصطدم بورقة بن نوفل الذي ردّهم إلى منازلهم..، وتقوم جماعة من مشركي قريش بتعذيب عمّار بن ياسر وبلال الحبشي وبعض الفقراء الذي آمنوا بالدين الجديد، ويخطب الوليد بن المغيرة في الكعبة، ويطلب من مشركي قريش أن يوحدّوا موقفهم من

---

[1] - الأرناؤوط، معروف: سيد قريش، ج3، دار القلم، بيروت، لبنان، ط3، 1971، ص 61. ويثبت الكاتب في الهامش المصدر الذي نقل منه وهو سيرة ابن هشام ج1، ص، 226.

الرسول (ص)[1]، فيتّهمه أبو جهل بالخروج عن دين آبائه بعد أن وصف ما سمعه من الرسول (ص) بقوله:

" وماذا أقول؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشّعر مني: لا برجزه ولا بقصده ولا بأشعار الجنّ، والله إنّ في قوله الذي يقول لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنّه يعلو ولا يُعلى عليه، وإنّه ليحطّم ما تحته".[2]

ويسمع عمر بن الخطّاب بإسلام أخته وزوجها سعد بن زيد العدوي، فيذهب إلى بيتها، وتأخذه بلاغة ما سمع وهي تقرأ سورة (طه)، ثم يطلب منها أن تدلّه على محمد (ص) ليسلم على يديه، ويقصّ عمر بن الخطاب على ورقة بن نوفل قصّة إسلامه، فيقول ورقة: كان سيد العالم يقول: "اللهّم أعزّ الإسلام بأحبّ الرجلين إليك عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام.[3]

ويصف الكاتب معروف موقف المؤمنين من إسلام عمر بن الخطاب حيث كبّروا لإسلامه تكبيرة سُمعت في طرف مكة.[4]

ويموت ورقة بن نوفل، ويتآمر المشركون على قتل محمّد (ص)، ويشير الرسول (ص) إلى أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة.. ويموت أبو طالب، ثم تموت خديجة بنة خويلد، ويتحوّل الرسول (ص) إلى الطّائف، ويقيم في عكاظ يدعو الناس إلى رسالته، ثم ينطلق مهاجراً إلى يثرب.. وفي دمشق كانت هند قد تحوّلت إلى العبادة بعد مصرع زوجها عمرو في المعارك التي اقتحم فيها الفرس سورية.. ويغادر أميّة بن أبي الصلت الجزيرة إلى دمشق، ويأوي إلى منسك /دارس/. وتجتاز ليلى الكنديّة الصحراء، فتصل إلى دمشق، وتستقبل جموع المصلّين في عيد الفصح، وتصلّي لسيّد قريش، ويتحدّث أبو سفيان عن دخول الرسول (ص) مكّة وتحطيمه الأصنام، وإرساله الرسل إلى ملوك الفرس والرّوم يدعوهم إلى الإيمان..، ثم يعلم حنظلة القائد الغسّاني الذي شارك في معارك ذي قار هند أن عمّتها ليلى قادت كتائب كندة في معركة ذي قار، وتخرج المرأتان على روابي جبل سنير فتشرفان على دمشق، وتلتفت ليلى إلى ناحية الصّحراء وتقول: "أترين هذه الرمال الوردية التي تتراءى في الأفق البعيد؟ من هذه الرمال سيخرج الشّعب العربي إلى نواحي العالم، ليبني المدن والصّروح والمعابد تحت راية سيّد قريش...!"

---

[1] - انظر: كتاب النّاقد "عبد اللطيف أرناؤوط"، ص 50- 51- 52.

[2] - رواية "سيّد قريش" ج3، ص 213.

[3] - كتاب الناقد، ص 53.

[4] - انظر: رواية "سيّد قريش" ج3، الفصل الثامن والعشرون، ص 283، ويثبت الكاتب في الهامش المرجع الذي استقى منه وهو سيرة عمر بن الخطّاب.

بعد أن يُنهي الناقد أرناؤوط الخلاصة الموجزة للرواية، يقدّم لنا رأيه في رواية "سيّد قريش" فهو يعدّها قطعة غنائية، كُتبت بنثر يقترب كثيراً من الشعر، وممّا زادها جمالاً برأيه هو اهتمام كاتبها بوصف الطبيعة والبيئات، ويقدّم لنا مقطعاً مؤيّداً لما جاء به وهو وصف الكاتب للطبيعة في ضواحي دمشق.

والناقد تعجبه رومانسية معروف الأرناؤوط وإحساسه المرهف، ويبيّن لنا أن تمجيده للألم كان ناجحاً وشديد الانسجام مع أحداث الرّواية المأساوية، ويذكر أنّ كلّ شخصية من شخصيات الرّواية يغتسل بالألم كعمرو بن الحارث وهند بنة عمرو وليلى الكنديّة ومارية بنة امرئ القيس وأميّة بن أبي الصّلت وسيّد قريش الذي كانت حياته مع المؤمنين به سلسلة من العذاب المتواصل لبلوغ الهدف، وبرأي الناقد أرناؤوط إنّ هذه الآلام الفردية تخلق جوّاً دراميأ في الرّواية وتلتقي مع الأفراح الفردية، تصبّ كلّها في ألم واحد هو معاناة الشّعب العربي، ثم تتحوّل إلى فرح جماعي واحد بانتصار الدّعوة واسترداد الشعب حريتّه وكرامته تحت قيادة النبي محمد بن عبد الله (ص)، والرواية كما يراها دراما تنتهي نهاية مفرحة يطمئنّ لها القارئ، ومن ذلك يتبيّن له أنّ إبداعية معروف الأرناؤوط لم تكن إبداعية تفرّد وعزلة وألم وتشاؤم، إنّها إبداعيّة إيجابيّة متفتحة على الجماعة تسعى للبناء، وتلتقي برأيه في أبعادها مع الشعر الإبداعي الحديث في فترة التحرر الوطني والقومي، هذا الشّعر الذي رسم فيه الشّعراء آلامهم الفردية لكنّهم لم يتخلّوا عن التعبير عن آلام أمتهم وقضاياها التحرريّة.[1]

وبرأيي كان الكاتب حريصاً على الأمانة التاريخيّة، فإذا عدنا إلى الجزء الثالث في روايته نجده يذكر ملحقاً تاريخياً، ثم يذكر مصادره ومنها: الأغاني، العقد الفريد، تاريخ ابن الأثير، تاريخ الطّبري، تاريخ ابن خلدون، معجم البلدان، السّيرة النبوية، سيرة ابن هشام، السّيرة الحلبية، الطبقات الكبرى لابن سعد، ديوان النابغة الذبياني، ديوان الحماسة، كما يذكر لنا الكتب الأجنبية التي اعتمد عليها.

رواية "عمر بن الخطاب" لمعروف الأرناؤوط:

يتابع الناقد عبد اللطيف أرناؤوط عرضه لروايات معروف الأرناؤوط التاريخيّة، فيذكر أنّه بعد ثماني سنوات من صدور رواية "سيّد قريش" وفي عام 1936 طلع معروف الأرناؤوط على النّاس برائعته الثّانية "عمر بن الخطّاب" بعد شهرته في الرّواية الأولى، وأنّه كان يطمح لإصدارها في أربعة أجزاء، غير أنّ المؤلّف لم يصدر إلا الجزأين الأول والثّاني، كما أنّه

[1] - انظر كتاب الناقد أرناؤوط، الصفحات: 54، 55، 56، 57، 58.

يشير في مقدّمة روايته إلى أنّه كان يطمح أن يصدر سلسلة كاملة من الرّوايات عن تاريخ العرب والإسلام، حيث أشار النّاقد إلى قول الكاتب:

"وإنّي لأرجو الله أن يمدّ أيامي، فلعلّني أقول هذا الشيء الكثير على فمي، ولعلّني بعد هذا كلّه أفيء إلى ظلّ هذه الأرض الحادبة فأستريح بجوار أميّ في حفرة تنديها السّحب، وترققها الأزهار التي جمعتها في أسفاري من سيناء ومكّة وبوادي الشام والعراق، رحم الله أميّ فقد حسرت عن بصري وأرتني دنيا محمد رسول الله (ص) ودنيا صحبه، ووهبت لي مجد هذا اليوم". فالنّاقد يشير إلى الفضل الكبير لأمّه في تنشئته على الدّين ومحبّة التاريخ العربي الإسلامي، وكذلك يشير إلى تعرّفه على الشاعر التركي عبد الحق حامد حين دُعي للمشاركة في الحرب العالمية الأولى مع العثمانيين، وكان في الثامنة عشرة من عمره، وقراءته للشعر الفرنسي ولاسيّما شعر لامارتين، وتأثّره بالشاعر الفرنسي لاسيلي وبامرئ القيس، فكان كلّ ذلك منهلاً له...

ويذكر النّاقد أن رواية "عمر بن الخطّاب" التي لم تكتمل أجزاؤها تقع في مجلّد واحد، وقد وصفها معروف بقوله: "رواية اجتماعيّة تاريخيّة في أربعة أجزاء تصف حياة العرب الاجتماعيّة والسياسيّة وكفاحهم في سبيل حريّة الشّام والعراق من زمن محمّد سيّد قريش إلى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب[1].

ويمتّد زمن الرّواية التّاريخي كما يشير النّاقد أرناؤوط من عام 616م إلى ما بعد معركة مؤتة بقليل 624 م متممّة أحداث "سيّد قريش"، ومع أنّ الرواية معنونة باسم "عمر بن الخطّاب" إلا أنّ الكاتب لم يتحدّث فيها كثيراً عن عمر.

ويذكر النّاقد أنّ عناية الكاتب في روايته انصبّت على وصف الظروف الاجتماعيّة والتّاريخيّة التي مهدّت لظهور الإسلام زمن الروّم والفرس، وأنّ الكاتب قد ركّز اهتمامه على البيئات خارج الحجاز ولاسيّما سوريّة والعراق والأردن، دون أن يهمل أصداء الدعوة الإسلاميّة الناشئة في تلك البيئات العربيّة...[2]

كما يذكر لنا النّاقد أسماء الكتب الأجنبيّة والكتب العربيّة التي اعتمد عليها الكاتب قائلاً: "وبحكم أن الأحداث التي تناولتها الرواية تتصّل بالتاريخ الرّوماني والفارسي وصنائعها من العرب في الحيرة والشّام، فقد اضطّر الكاتب أن يوسّع قراءته التّاريخيّة حول هذه الفترة معتمداً المصادر الأجنبيّة والمصادر العربيّة، ومن الكتب الأجنبيّة: "نصارى العرب في الشّام

[1] - انظر: كتاب الناقد" عبد اللطيف أرناؤوط" ص 59- 60.

[2] - انظر: كتاب الناقد" عبد اللطيف أرناؤوط" ص 61.

والعراق حوالي القرن السّابع" لفرانسوا نادو، و"فتح العرب لمصر" لجورج بتلر. و "فتح العرب" لسيديو، "والعرب في سورية قبل الإسلام" لرينه ديو، و"بيزنطة" لشارل ديل، "وأمراء غسّان" لنولدكي، "وتاريخ العرب" و "تاريخ فارس القديمة" لكليمان هوارت.

وأمّا المصادر العربيّة فمحدودة منها: طبقات ابن سعد، والسيّرة النبوية لابن هشام، والطبّري، وابن الأثير، والأغاني، وللمؤلف نفسه كتاب عنوانه "تاريخ الدولة الغسّانيّة في الشّام".[1]

وبرأي النّاقد إن الكاتب اهتّم بالمصادر التاريخيّة الأجنبيّة لقلّة المصادر العربيّة وإنّه أحسن اختيار مادّته التّاريخيّة في هذه المصادر في ضوء أهدافه القوميّة والدينيّة....، وإنّه يبدو في روايته "عمر بن الخطّاب" أكثر التزاماً بالشّروط الفنيّة للرّواية التّاريخيّة منه في رواية "سيّد قريش"، كما أنّه حرص على تثقيف القارئ بالمعلومات التّاريخيّة ممّا دفعه إلى ذكر تفصيلات تاريخيّة ومعلومات مسهبة لا يتحملّها الفنّ القصصي.

ويشير النّاقد أرناؤوط إلى أنّ الرّواية تقع في ستة وثلاثين فصلاً، وتجري أحداثها في عدّة بيئات ومدن عربيّة منها طبريّة والنّاصرة وبصرى والقدس والبتراء (سلع)، وأنّ الكاتب استرجع ماضي هذه المدن ودورها في مناهضة بيزنطة زمن المسيحيّة ولاسيّما سلع زمن ملكها الحارث الثالث.[2]

كما يذكر النّاقد أنّ أبطال رواية عمر بن الخطّاب متنوّعون: منهم من له وجود تاريخي أضفى عليه الكاتب من خياله، كعروة بن عمرو أمير سلع، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، ونوع آخر ابتكره خياله، كشخصيّة كريستيا الشّاعر، ونوع ثالث له وجود تاريخي عابر توقّف عنده الكاتب واستغلّه لبناء حبكة الرّواية كشخصيتي نفتالي، ومنصور بن سرجون....

أمّا فيما يتعلّق بطابع الرواية فهو رومانسي كما يقول النّاقد، من حيث رسم المشاعر الوجدانيّة التي برزت أكثر ما يكون في تصوير حبّ كريستيا للبطل عروة بن عمرو. ويعلّل النّاقد ذلك بتأثّر الكاتب بقراءاته في الأدب الإبداعي الفرنسي، فقد حرص على أن يجمع بين القبح والجمال في شخصيّتي بنيامينا السّاحرة الرّائعة الجمال وأبيها نفتالي القبيح الوجه الأشبه بأحدب نوتردام، وكأنّ الأرناؤوط كما يقول النّاقد يبرهن على ما ذهب إليه الرّومانسيّون من

[1] - انظر: كتاب الناقد" عبد اللطيف أرناؤوط" ص 61- 62.

[2] - انظر: كتاب الناقد" عبد اللطيف أرناؤوط" ص62.

أنّ القبح والجمال يمكن أن يلتقيا في الحياة في إطار المشاعر الإنسانيّة، ولم يكــن الاتبــاعيّون يقبلون بهذا المنطق حتّى جاء فيكتور هوغو فأثبته في روايته.(1)

ويرى النّاقد أرناؤوط أنّ الكاتب مبدع، فالنزعة الإبداعية كما يرى النّاقد تتجلّــى لــدى الكاتب في رسمه لدور الفنان والشّاعر كريستيا فهو دور قيادي نضالي، فقصائده في الحريّــة والحبّ كان يلهج بها أهل سورية كلّهم، وكريستيا كامرئ القيس صاحب رسالة جــسيمة هــي الثّأر لأبيه فهو ابن الإمبراطور المخلوع موريس الذي نحّاه الطّاغية جوستنيان عــن الحكــم، وفي رأي الناقد أنّ الكاتب رسم هذه الشخصيّة متأثراً بالشّاعر التركي عبد الحق حامد، كمــا أنّ حركة التاريخ في الرّواية تقوم على دور الفرد محرّكاً لأماني الجماعة، فعروة بن عمــرو قائد بني جذام يتحدّى بيزنطة ويواجهها، وقوّته ليست فرديّة بل مــستمدة مــن قــوّة العــرب، وأمانيهم في الثورة على ظلم الرّومان، فالكاتب يقول على لسان عروة:

"لقد روّع قيصر شعوباً كثيرة كانت آمنة في أوطانهم فلّما وطئ أرضها طفــرت هــذه الشعوب من ممارستها لقتال الرّومان، ومنعهم من أن يدنّسوا قبور الأجداد، ثم أســلمت هــذه الشّعوب منازلها وحقولها وأطفالها وشيوخها إلى النيران، وآثرت أن يتداعى الوطن كلّه تحــت صليل الحريق، فتلتهم النّار رفاته الغالي، وتحصد حريّته، حتّى إذا قدّر للعدو المغير أن ينــشر ظلّه الرّاعب على جبال الوطن وسهوله لم يلق في هذه الجبال والسهّول شعباً يعذّبه ويضطهّده، ناشدتك الله يا عمرو أن تقول لسيّد العالم (قيصر) إذا لقيته أو استمعت له أنّ (سلع) قد أســلمت جمالها ونساءها وشيوخها للنّار لتستقي حرّيتها وشمعها فلا يعبث بها قيصر"(2)

برأي الناقد إنّ هذا الوعي القومي الذي يحمله الكاتب لشخــصيّاته أقــرب إلــى روح عصرنا ويقارن النّاقد رواية "عمر بن الخطّاب" مع رواية "سيّد قــريش" فيــذكر أنّ البيئتــين الثقافيّة والاجتماعيّة اللتّين رسمهما الكاتب في الرّوايتين متباينتان، ففي حين اهتّم الكاتب فــي روايته "سيّد قريش" بالثقافة العربيّة في بلاطي الغساسنة والمناذرة، نجــده فــي "عمــر بــن الخطّاب" يرسم معالم الثقافة الهلينيّة والبيزنطيّة ومعالمهمــا فــي ســورية، ويعنــى برصــد الصّراعات الدينيّة، ويبرز أنّ ذلك مظهراً خفيّاً للصّراع السّياسي بين الشعب العربي والشعوب الأخرى الخاضعة للدولة الرّومانية.

ويعيب النّاقد على الكاتب تركيزه على ثقافة الدولة الحاكمة.... واختياره أبطالاً يــدعون إلى التحرّر من غير العرب ومن الرومان أنفسهم، فطغى الجو الثقــافي والاجتمــاعي غيــر

[1] - انظر: المرجع السّابق، ص 63.

[2] - انظر: كتاب الناقد" عبد اللطيف أرناؤوط" ص 64- 65.

العربي على الرّواية، كما أنّ ما قدّمه الكاتب عن بطولة الشخصيات العربيّة في الرّواية كعبد الله بن رواحة في مؤتة، وعروة بن عمرو في سلع، وعمر بن الخطّاب في دمشق، والأزدي الشّهيد رسول النبي (ص) إلى الغساسنة لا يحتل من الرّواية حيّزاً يساوي الحيّز الذي أولاه لأبطال روايته من أبناء سوريا مثل كريستيا وسافو ونفتالي.. ممّا يمنح الرّواية أفقاً معاصراً، فنضال الشّعوب ونزوعها إلى الحريّة واحد.[1]

ويقدّم لنا النّاقد خلاصة رواية "عمر بن الخطّاب" بإيجاز للوقوف على خيال الكاتب الإبداعي كما يقول:

"في صباح يوم رائق من شهر أيار سنة 616م كان كريستيا الشّاعر الرّوماني والنحّات الملهم، يتنزّه قرب بحيرة طبريّة، حزيناً، فقد أحبّ فتاة لعوباً تدعى بنيامين ابنة نبيل يُدعى نفتالي الفاحش الثّراء السّامري الأصل، فحسده قيصر لشهرته، وحسده البطريرك أيضاً لأنّه كان ينافسه في سيادته على الجليل، فأوغر صدر القيصر عليه، فقرّر مصادرة أملاكه كلّها ونفيه إلى شاطئ البحر الميّت، فبرزت في وجهه بثور وقروح نتيجة مصيبته تلك.. ونشأت ابنة نفتالي في جحر أًمها على شاطئ "مجدلة" في الجليل، إلى أن ماتت الأم... وفي ذات يوم وقعت عليها عين الفيلارك يوليوس عامل قيصر في بلاد الجليل فاقتادها إلى منزله واغتصبها، وتعلّق بها كريستيا رغم علمه بماضيها الشّائن، وكان نفتالي يخشى أن تعرف ابنته مأساته، فاتفق مع زوجته على أن يربيّاها على طيّ اسمه في حياتها، فاعتقدت أنّ والدها مات، وقررّ نفتالي الانتقام من القيصر والبطريرك، فكان يخرج من منفاه بلباس متسوّل، يطوف حول بيت ابنته دون أن تشعر بوجوده، وكان كريستيا يرعى أخته سافو المريضة، ولم ينسَ حقده على قيصر ودم أبيه، فهو سليل شخصيّة عظيمة، فوالده موريس قيصر روما من قبل، واغتصب الحكم منه فوكاس سنة 602م، فهربت القيصرة بولديها بعد مقتل زوجها مع خمسة من أولاده، ثم جاء هرقل فأنهى حكم فوكاس، لكنّه استأثر بالحكم دون ابن القيصر المخلوع كريستيا، وهكذا عاش ابن قيصر الشاعر وأمّه وأخته في بلاد الجليل دون أن يعرف هرقل حقيقته، فعاش كريستيا ينتظر الثأر لعرش أبيه موريس من هرقل، ثم تموت أمّه الإمبراطورة في منفاها، ويزور هرقل في تلك الفترة القدس، ويأمر أركاديوس جنوده بإحراق بيت بنيامينا، لأنّها تحوّلت عنه إلى الشاعر كريستيا، فيحملها نفتالي على ظهره وينقذها وهي لا تعلم أنّه أبوها.....

[1] - انظر: المرجع السّابق، ص 65- 66.

ومرّ هرقل قبل قدومه إلى طبريّة ببصرى عاصمة الغساسنة فاستقبله أمراء غسّان ومنهم حنظلة أمير الجولان، وزياد أمير اليرموك، وامرؤ القيس أمير غزّة والبحر الميّت وغيرهم من الأمراء... وكان عروة سيّد قومه بني جذام، وكانت في نفسه موجدة على القيصر بسبب أخيه تيودور حاكم البلقاء الرّوماني، وإنزاله تمثال الملك العربي النبّطي الحارث قاهر الرّوم في زمانه في ساحة (سلع) ورفعه تمثال هرقل مكانه..، وكان هرقل قلقاً من الصراع المذهبي في بلاد الشّام حول طبيعة السيّد المسيح، ثم يصل إليه كتاب من سيّد قريش محمد بن عبد الله(ص) يدعوه فيه إلى الإسلام، فيجمع هرقل أمراء غسّان ليعرف رأيهم، وقد ورد في الكتاب: "من محمّد رسول الله إلى هرقل عظيم الرّوم: السّلام على من اتّبع الهدى، أمّا بعد أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرّتين وأن تتولّ فإنّ إثم الأكّادين عليك" ويقترح بعض قادة الرّوم قتل حامل الرسالة دحيّة بن خليفة الكلبي،[1] ويقترح قيصر أن تُقدّم لمحمد (ص) الجزية كلّ سنة...، ويقرّر قيصر تسريح الرسول إلى بلده دون جواب،.. وفيما كان موكب هرقل يشقّ شوارع طبريّة، قدم عروة بن عمرو لاستقباله من البلقاء، ومرّ في طريقه ببيت كريسيتا، شاهد سافو فأحبّها، ويجتمع عروة أمير سلع والبلقاء بكريستيا، وكلاهما حاقد على هرقل، فيرضى الفنان كريستيا أن ينحت تمثالاً لجدّ عروة الملك الحارث النّبطي قاهر روما، ويتزوّج فروة سافو ويحملها إلى سلع لتصبح أميرة البلقاء، وتتّحد بذلك عرى المقاومة بين شعبين يحكمهما طغاة الرّوم. ثم يخبر مارسيليوس صديق كريستيا بنيامينا أنّ نفتالي هو أبوها، فتودّع كريستيا لترافق أباها إلى منفاه قرب البحر الميّت، وتنتهي قصّة حبّهما الرائعة...

في تلك الليلة كان عمر بن الخطّاب يتّجه إلى وطنه الحجاز عائداً من دمشق بعد أن قدم إليها داعياً قومه إلى الدين الجديد، لكنّ فلافيوس يشكّ في أمره ويضايقه، فيقتله عمر ويخرج إلى بصرى هائماً، ويخفيه مالك الكندي سادن دير ماريّة فيها ويخفيه عن عيون جنوده الروم ثم يخرج من بصرى مع القوافل المسافرة إلى الحجاز، ويحمّله تحيّاته إلى سيّد قريش. وينتقل مالك الكندي راهب بصرى القديم إلى دير فاران في سيناء، وكان عليماً بأخبار العرب وأخبار أجدادهم، وكان واثقاً من ظهور النبيّ (ص) الذي قرأ عنه في الكتب، وزاره صديقه فروة بن عمرو أمير البلقاء، وكاشفه برغبته في الثورة على الرّوم فحذّره مالك من بطش قيصر بعد انتصاره على الفرس وقال له: "في ميسورك أن تقصّ على قيصر عمل أخيه، فينهاه عن النبي، ويمنعه أن يسرف في مجافاة النّاس، وذلك أفضل من استنفارك عصبيّة قومك... إنّي لأرى في عينيك صورة القتيل الشّهيد، وما أحبّ أن يطل دم أراقه صاحبه في سبيل قيصر والنّصرانية..." فيقول فروة: "أمّا أنّك رأيت في عينيّ صورة القتيل الشّهيد فذلك أمر ما كان

---

[1] - انظر: كتاب الناقد السّابق، الصفحات: 67- 68- 69- 70- 71- 72...

يفوتني شيء منه، فلقد تنبّأ به كاهن لأبي يوم مولدي عن موتة أموتها في وادي سلع، وقال لذلك الوالد: إنّها لموتة تشرّف الجيل الذي تعيش فيه، وتمجّد الأجيال القادمة...." وكانت سلع وريثة أمجاد الأنباط ومعجزة الدّهر في بنائها ومدرّجها، وكان لها مجد تاريخي عريق، فقد طهّر ملكها الحارث الثالث أرض الشام من نفوذ اليهود عام 580م، وظلّ سيّد بلاد الشام إلى عام 609 وحين دخل أنطيوخوس مدينة دمشق، كما قام الحارث الثالث بتأديب هيراكانوس ملك اليهوديّة فحاصر أورشليم.. هذه الأمجاد للحارث هي التي دفعت عروة أمير سلع أن يردّ تمثاله إلى مدينته.... ويغضب شيوخ جذام بسبب قتل عمير بن الحارث الأزدي رسول سيّد قريش إلى شرحبيل بن عمرو الغسّاني الذي قتله عامل قيصر على معان، ويحطّم أهل سلع تمثال هرقل، ويرتفع تمثال الحارث، ويخطب عروة بالجموع معلناً ثورته.[1]

أمّا بنيامينا فقد استقّرت في أريحا بلد يوحنّا المعمدان، وكان أبوها يبحث عنها، وكانت كتائب عمرو بن معدي كرب تمرّ من فلسطين في طريقها إلى فروة بن عمرو... وفي تلك الليلة يدخل موكب هراقليوس إلى إيلياء (القدس)، وفي اليوم ذاته تخرج من جزيرة العرب سريّة من الفرسان بقيادة جعفر بن أبي طالب إلى الشام لتثأر لدم عمير بن الحارث الأزدي... ويتحوّل نفتالي إلى بيت لحم، فيقابل امرأة عمياء كانت تدعو على قيصر بالهلاك، فقد أمر قيصر أن تقتل بتهمة السحّر عقوبة لها لأنّها آوت فرسان العرب الذين يقودهم عمرو بن معدي كرب في بيتها بعد أن لاحقهم جنود الرّوم.

وأمر قيصر بتأديب عروة لتمرّده فحشد له جيشاً من الغساسنة في بصرى وعليه شرحبيل بن عمرو الغسّاني، أمّا الحارث الملك الغسّاني فقد أدركته حمّى فمات في الشّام، ورابط جيش آخر من الرّوم في وادي عربة، وجيش ثالث من عرب الشّام والرّوم في محاذاة البحر الأحمر يقوده مالك بن رافلة عميل الرّوم، أمّا فروة بن عمرو فجمع قوّة من لخم وجذام لا يزيدون على ثلاثة آلاف محارب، انضمّ إليهم جيش زيد بن حارثة الذي أرسله النبي الكريم (ص)، ورفرفت راية العقاب التي رفعها جيش زيد بن حارثة إلى جانب رايات لخم وجذام، وتحوّل أهل سلع عن الوثنيّة، وفتحوا صدورهم للدين الجديد يلقّنهم مبادئه عبد الله بن رواحة إلى جوار معان، والتقى جيش زيد بن حارثة جيش الرّوم عند مشارف مؤتة، فقتل من الرّومان عدداً كبيراً، وقتل من أصحاب زيد مثل هذا العدد. ولاذ الرّومان إلى البحر الميّت، ورجع أصحاب زيد إلى مؤتة.. غير أنّ الجيوش الرّومانية أنجدت الجيش الرّوماني المحارب بقيادة هرقل نفسه وأركاديوس وثيودور شقيق قيصر الذي جرحه زيد، والتحم الطّرفان فقتل زيد بن حارثة، فتلقّف الرّاية جعفر بن أبي طالب، فقاتل حتى قطعت يمناه، فتلقّاها بشماله حتّى

[1] انظر: كتاب النّاقد "عبد اللطيف أرناؤوط"، الصفحات: 72- 73- 74- 75.

قطعت شماله، فاحتضنها إلى أن قتل، ثم تحوّل الرّوم عن القتال إلـى سـلع. وبلغـت أنبـاء معركة مؤتة فروة بن عمرو، وبلغه زحف قيصر إليها من جميع الجهات، واستّمر القتال بـين الطّرفين، وقتل أركاديوس، وراحت سافو تبحث عن زوجها فروة، فبصرت بحنظلة أحد قـادة جيش فروة وهو بين الموت والحياة، فحدّثها عن بطولات زوجها في المعركة، وتكاثر فرسـان الرّوم عليه حتى استطاعوا القبض عليه، وصلبه قيصر في ساحة المدينة...

وهكذا طويت صفحة البطل فروة، وطويت معه حضارة سلع، وفي أريحا كانت بنيامينـا تعيش في كوخ ويعيش معها نفتالي يتتبّع أخبار النبي المبعوث، إلى أن كان يوم قـرّر فيـه أن يعتنق الإسلام، ويسمّي نفسه علقمة رمزاً لآلامه في الحياة، ويعود كريستيا إلى أريحا فيلتقـي بحبيبته بنيامينا وقد هام على وجهه بعد خراب سلع، ويفقد صوابه، ويستـسلم إلـى الجنـون، فتضمّه بنيامينا إلى صدرها وهي ترسم علامة الصّليب.[1]

بعد أن ينتهي النّاقد من تلخيصه لرواية "عمر بن الخطّاب" يبيّن لنا أنّ الكاتب معـروف الأرناؤوط صوّر الحقائق في روايته تلك بوحي وجدانه وقلبه، فشاع فـي عرضـه التهويـل والمبالغات أحياناً، ممّا جعله يبتعد قليلاً عن الواقعيّة فـي التـصوير، ويـسهب فـي تقـديم المعلومات التّاريخيّة، وكلّ همّه -كما يرى النّاقد- أنّ يبعث في الأجيال تلك الرّوح النّـضالية للأجداد، وهذه الرواية في نظر الناقد أرناؤوط مرجع لغوي هام حيث نجد فيهـا الكثيـر مـن كلمات اللغة التي ماتت، فالكاتب استخدم أفعالاً أماتها الزّمن كقوله: "صحرته الشّمس، وطحـا البدر، وأصباه الهوى، وسرب قيصر في أنحاء الكنيسة، وسدرت شعرها، وأغشاه الليّل، وكان الألم يرمض نفسه، وأسدفت الشّمس لمصرع الرجل، ورعش النّسيم"

كما يذكر النّاقد أن الكاتب أحيا بعض أسماء اللغة العربيّة كقوله: "تنشد الطّبيعـة لحنـاً على الربا والذرا ثمّ على الرّواميس السّابحة في غبش المساء، وتريق على الأصلاء أفناناً مـن السّحب"، كما أنّه ابتكر صوراً حلوة كقوله: "زهت الخيول بفرسانها وراحـت تتـرع الفـضاء بصليل اختلط بعزيف الأبواق وحداء الفرسان"[2]

وأخيراً يقول الناقد رأيه في الرّواية الذي يدلّ على إعجابه الشدّيد بلغة الرّواية فيقـول: "لقد ترك للأجيال نصّاً إبداعيّاً يصقل الذوق ويرهف الوجدان ويهذّبه، ويشدّ النّاشئة إلى سـحر هذه اللغة".[3]

---

[1] - انظر كتاب الناقد السّابق، الصفحات: 76- 77- 78- 79.

[2] - كتاب الناقد السّابق، الصفحات: 79-80.

[3] - كتاب الناقد السّابق، الصفحات: 80.

رواية "طارق بن زياد" لمعروف الأرناؤوط:

ومن الرّوايات التّاريخية التي كتبها معروف الأرناؤوط رواية "طارق بن زيــاد"، وقــد تناولها النّاقد عبد اللطيف أرناؤوط بالدراسة والنقد، وقال عنها:

"رواية عن تاريخ العرب في إفريقية والأندلس زمن الفتوح، أصدر الجزء الأوّل منهــا عام 1941، ولم يتمّ جزأها الثاني، وقسّم الجزء الأول من روايته هذه إلى قسمين عرض فــي القسم الأوّل تاريخ فتوح إفريقية وجعل بطل هذا القسم عقبة بن نافع، وكــان ورود شخــصيّة طارق في هذا القسم عابراً، ثم قدّم في القسم الثّاني فتح الأندلس، وجعل بطل هذا القــسم مــن الرّواية مغيثاً الرّومي. وانتهى الجزء الأوّل من الرّواية دون أن يكون لطارق بن زياد ظهــور متميّز فيه مع أنّ المؤلّف سمّى الرّواية باسمه.

يقع القسم الأوّل في عشرة فصول، مجموع صفحاتها (132) صفحة، وأمّا القسم الثــاني فيقع في أربعة فصول، مجموع صفحاتها (91) صفحة، فرواية "طــارق بــن زيــاد" أقــصر روايات معروف الأرناؤوط طولاً، وقد طغى فيها التّاريخ على القسم الأوّل، في حين برز الفنّ الرّوائي بصورة أوضح في القسم الثّاني"[(1)]

والكاتب معروف كما يقول النّاقد خالف في روايته هذه "طارق بن زياد" طريقتــه التــي اعتمدها في "سيّد قريش" و"عمر بن الخطّاب" من حيث إقحام فصول تاريخيّة في صلب نــسيج الرّواية إلا ما جاء في الفصلين الأوّل والثّاني منها. ويعلّل النّاقد ذلك بأنّ الكاتب اســتفاد مــن ملاحظات النقّاد الذين عابوا على رواياته عجزها عن ربط التّاريخ بالبنية الرّوائية.

وبرأي النّاقد إنّ بناء الرّوايتين على شخصيتين تاريخيتين هما عقبة بن نــافع ومغيــث الرّومي، وفي بيئتين لا يجمع بينهما إلا الإطار التّاريخي قد أضعف حبكتها، كمــا أنّ الجــزء الأوّل منها بدا أقرب إلى التاريخ وإن كان المؤلّف قد منحه نفساً روائيّاً، واستغلّ فيه الحوادث الأسطوريّة والملحميّة كأسطورة حصن سبتة، ونبوءات السّاحرة البربريّة داميــة ابنــة زعــيم البربر.

في القسم الأوّل من الرّواية كما يذكر الناقد استعرض المؤلّــف انهيــار الإمبراطوريّــة البيزنطيّة الشّرقية على يد البرابرة، وفتح مصر على يد عمرو بن العاص، ثمّ فتح إفريقيا عام (647م)، فالمغرب من قبل معاوية بن جريج زمن الخلفية معاوية، وتولّي عقبة بن نافع إمــارة إفريقية.[(2)]

---

[1] - كتاب الناقد السّابق، الصفحات: 81- 82.

[2] - انظر كتاب الناقد، الصفحات: 82- 83.

والحبكة الرّوائية في هذا القسم كما يذكر الكاتب تدور حول شخصيّة عقبة بن نافع وقدوم السّاحرة دامية البربريّة لزيارته.. وكان والد دامية قد قُتل على يد كسيلا الذي اعتصم بالجبال، وقبل موت والدها أخبرها أنّ في الأندلس حصناً مغلقاً، وفي داخله صور فرسان بأصباغ على أشكال العرب، وجاء في الرقّ الذي فيه الصّور أنّه متى فتح هذا التابوت دخل القوم الذين صورهم فيه إلى الأندلس، وذهب مُلكُ من فيها، وقد وردت هذه القصة في كتاب "نفح الطيب"، واستغلّها الكاتب معروف ليمنح الوقائع نفساً ملحميّاً شعبياً. وتتابع دامية القصّة فتقول: إنّ والدها لمّا سمع حكاية الحصن سأل كاهنة بربريّة فقالت له: سينزل العرب في شواطئ إسبانيا، فطمأنها عقبة إلى أنّه سيقضي على كسيلا عدو أبيها.. وندب عقبة عشرة من رجاله بينهم طارق بن زياد وطريف ومغيث الرّومي ليجتازوا المضيق إلى جبل طارق... وهاجم كسيلا مضارب دامية فأحرقها، فاستنجدت بعقبة الذي ألقى جنوده القبض على كسيلا وسُجن.. ثم قرّر عقبة فتح الأندلس بعد أن دانت إفريقية، وتوجّه إلى معسكره في القيروان ومعه كسيلا الذي نكث عهده وأعلن العصيان واعتصم بالجبال، ولم تكن المعركة مع كسيلا سهلة، واستقرّ رجال عقبة في الوادي وهاجمته قوات كسيلا، لكن البربريّ الماكر وضع كميناً لعقبة، وصُرع عقبة بن نافع وانتهت حياته بعيداً عن دمشق.[1]

ويلّخص الناقد أرناؤوط القسم الثّاني من الرّواية فيبيّن أنّ الكاتب ينتقل إلى بلاد الأندلس إلى قصر (فال كلارا) المشرف على طليطلة حيث تعيش فلوريندار بنة جوليان مع عمّها أسقف إشبيلية بعد أن أرسلها والدها إلى خالها الملك هيتزا، لكنها لم تسلم من أذى رودريك فنقلها أبوها إلى قصر فلارا إلى عمّها الأسقف الذي كان يعيش مع مربيّة وعبد وخولّي ماهر جيء به من طنجة، وكان ذلك الخولّي مغيثاً الرّومي قائد عقبة الذي تسلّل إلى الأندلس تمهيداً لفتحها، وكان يوافي عقبة بالمعلومات، وتنشأ علاقة حبّ بين فلوريندا ومغيث فيصارحها مغيث أنّ أباها هو الحارث بن جبلة بن الأيهم الذي عاش في القسطنطينية، وكان الحارث يراسل معاوية سرّاً ليعود إلى ديار الغساسنة في الشام، فلّما منعه قيصر من اللّحاق بقومه عاش حزيناً ثم مات وماتت زوجته، واستطاع ثعلبة أحد أعوان الحارث أن يفرّ بالصبيّ ابنهما وهو مغيث الذي لم يبقَ سواه في الأسرة، فأنزله ديار الغساسنة في الغوطة، وكان جدّه قيصر قد حشد له المؤدّبين فبرع في العلوم، وعُرف باسم مغيث الرّومي، وأعلن إسلامه، والتحق بالجيوش الفاتحة حتى أصبح أحد قادة عقبة بن نافع البارزين.. وجاء يوم قرّر فيه مغيث العودة إلى إفريقية تمهيداً للفتح، وكان فيها والي إفريقية الجديد موسى بن نصير، ويسافر

[1] - انظر كتاب الناقد، الصفحات: 83- 84- 85- 86.

مغيث وفي قلبه صوت الوطن الذي ترعرع فيه على ضفاف دمشق، وفي عينه صورة الدنيا الجديدة التي سيحملها إلى قومه.

وينتهي الجزء الأوّل من الرّواية عند هذا الحدّ، وبرأي الناقد لو تابع الأرناؤوط رواية الجزء الثّاني لصوّر فتح الأندلس بصورة رائعة.(1)

آراء النّاقد عبد اللطيف أرناؤوط حول رواية "طارق بن زياد":

ويشير النّاقد إلى أنّه في القسم الثاني من الجزء الأوّل يبدع معروف في تصوير علاقة مغيث بفلوريندا وتحليل مشاعر الحبّ، مع براعة في وصف الطبيعة والعمران كوصفه لقصر فال كلارا إذ يقول:

"في قصر فال كلارا المنيف وفي حجرة من حجراته، تعيش فلوريندا الحسناء عيشة الزهرة في إناء من الخزف لا عيشة هذه الأزهار التي ينديها الطلّ في جنّات تضيئها الشمس وتدغدغها السّحب".

ويصف القصر فيقول: "يطل قصر فال كلارا على وادي التاج، ويجثم على شيع في الصخر قائم اللون، شديد الجهمة، لا تلين ريوده لقاصد ولا تضحك حدوره لرائد، ثمّ يبين مولّياً ظهره شطر طليطلة، كأنّما هو ينظر إليها من ناحية الغرب، حيث يفيض الوادي، ويتدفّق بين شوامخ طليطلة وبواذخ (ثلابريفة) فلو أنّ سائحاً امتدّت به أسفاره إلى هذا الطلل الجاهم الباسق، ونزل عرصاته وسوحه، وطاف أروقته وممّراته، لما استطاع أن يجنّب نفسه الروع، وذلك لأنّ في كلّ ناحية من نواحي هذا الطلل قصّة حياة شجيّة لأيّ راهب من الرّهبان الذين عمّروه وأثلوه وجعلوا من غرفه ومقاصيره ودهاليزه ومنحنياته مواضع لذّة ومراتع صبوة...."(2)

ويرى النّاقد أنّ الكاتب معروفاً في كلّ قصصه مولع بتاريخ الغساسنة يختار منه شخصيّاته أو عالمه القصصي..، وأغلب شخصيّاته مأساوية، فالبطل مغيث الرّومي عادته الأيام، وكثيراً ما يختار أبطاله من الفقراء أو من الذين فقدوا الأب فتكفّلت الأمّ برعاية الطفل، وللأم عند معروف مكانة بارزة في كلّ رواياته، فهي في "سيّد قريش" آمنة البارّة بولدها، وهي في "عمر بن الخطّاب" زوج نتالي، وهي في "فاطمة البتول" فاطمة أمّ الحسين نفسها، وأبطاله مأساويون متألّمون يدفعهم قدرهم إلى الثأر والانتقام... وهم فاعلون يصيغون التّاريخ

---

1 - انظر، كتاب الناقد: الصفحات، 87- 88.

2 - انظر: المرجع السابق، ص 89.

ومنهم مغيث الرّومي، وامرؤ القيس، والحسين بن علي، وعروة بن عمــرو، وهــم يتمتّعــون بالنّبل والإباء والشّجاعة....

ويتساءل النّاقد: "فهل ترتد روايات معروف إلى عقدة الأب التي تحدّث عنها (مــاريوت) مستندة إلى نظرية فرويد؟ وهل كانت حياة الكاتب ثمرة حلم طفولي، فخلق من خلال الكتابــة عالماً عوّض فيه عن فقد أبيه الذي مات وهو طفل.. والأب في رواياته كلّها يخضع للعقوبة، وتتولّى الأمّ مكانه وتنشئ الأولاد الذين يصبحون أبطالاً يحققّون المعجزات"[1]

وممّا يلفت النّظر برأي النّاقد اعتماد الكاتب معروف على الأساطير الــشعبيّة، وتوخّيــه الكمال الأدبي في أسلوبه الذي يحفل بالبيان، وكما يــشير إلــى اهتمــام الكاتــب بالجوانــب الحضارية التي نقلها العرب إلى الأندلس، فالتاريخ عند معروف عبرة وثقافة وحضارة.

كما يراه أكثر التزاماً بالحقائق التّاريخيّة في القسم الأوّل، فلم يحوّر في التّــاريخ حتّــى الأساطير التي بنى عليها روايته، وردت في الوثائق كقصة الحصن، وقصّة الكاهنة البربريّــة، وإن حوّر قليلاً في الأسماء، أمّا القسم الثّاني الذي تحدّث فيه عن فلوريندا، فقد حــرّف قلــيلاً الوقائع كما يقول النّاقد، فكانت قصّة حبّ فلوريندا لمغيث الرّومي من بنات خيالــه، وجعلهــا تستعصي على رودريك مع أنّ كتب التّاريخ تذكر أنّه اغتصبها، كما شاركت الشخصيّات التي اختارها في صنع الأحداث ولاسيّما شخصيّة عقبة بن نافع ومغيث الرّومي، وإن بدت بعــض الوقائع أحياناً مخالفة للواقع،[2] كدخول طارق ومغيث الرومي، ولم يكن لهذه المغامرة أثر في الأحداث اللاّحقة مما جعلها مقحمة في النّص. ويبدو النّاقد أرناؤوط معجباً كثيراً برواية الكاتب "طارق بن زياد" فيقول:

"هذه رواية طارق بن زياد فيها عالم من السّحر الأدبي والجمال ودنيــا مــن المــشاعر المتنوّعة التي يمتزج فيها حبّ المرأة بحبّ الوطن، ويتّحد فيها الــشعور الــدّيني بــالاعتزاز القومي، فهي مدرسة للأجيال يتعلّمون فيها دروساً في العزّة والكرامة، وقــد جهــد معــروف الأرناؤوط أن يبعث مشاعر الثّورة في النفّوس المستكينة، والأدب هــو خيــر وســيلة لنــشر الوعي، فكان للكاتب ما أراد إذ جلا المستعمرون عن أرضنا العربيّة بعــد صــدور الرّوايــة بسنوات، وكان لمعروف شرف الإسهام مع الشّعراء والكتّاب الآخرين في تعبئة الــرأي العــام للمقاومة وحفزه إلى النّضال"[3]

---

[1] - انظر: كتاب الناقد، ص 90- 91.

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 91-92-93.

[3] - المرجع السابق، ص 93- 94.

رواية "فاطمة البتول" بين يديّ النّاقد عند اللّطيف أرناؤوط:

ويعرض لنا النّاقد رواية معروف الأرناؤوط "فاطمة البتول" وهي رواية تاريخيّة اجتماعيّة حاول الكاتب كما يقول النّاقد أن يصوّر الفترة التّاريخيّة التي مرّت بها أمّتنا زمن يزيد بن معاوية في عهد بني أميّة، والصّراع بين الأمويين والهاشميين على الخلافة، وهي فترة مهمّة من تاريخنا السيّاسي كُتبت بلغة الفنّ، ويبيّن لنا النّاقد عبد اللطيف أرناؤوط هدف الكاتب معروف من كتابة هذه الرّواية وهو إبراز قيمة النّضال في سبيل المبادئ، وأهميّة الدفاع عنها لتحرير الأمّة من الظّلم، فهو يبرز شخصيّة الحسين بن علي وإصراره على مواجهة بني أميّة، وكأن المؤلّف يريد تحريك النفوس الهاجعة، ويحثّها على مناهضة الاستعمار الغربي متمّماً ما كتبه عن عظمة النبي الكريم في روايته "سيد قريش" فالإسلام عنده رسالة إنسانية، وهو في الوقت ذاته هيّأ العرب لمواجهة فارس والرّوم، ولن يتاح للعرب أن يعيدوا ماضيهم المجيد إلا بالتّمسك بالقيم الإسلامية.

- تقع رواية "فاطمة البتول" كما يذكر النّاقد في (376) صفحة من القطع المتوسّط، عرضها الكاتب في (34) فصلاً، واستند فيها إلى المرويّات التّاريخيّة الموثّقة، ومن مصادره: سيرة ابن هشام- الحديث الشّريف- تاريخ الطّبري- العقد الفريد لابن عبد ربّه، والأمالي للقالي، والأغاني للأصفهاني، والكامل للمبرّد، وتاريخ ابن الأثير ومروج الذهب للمسعودي وغيرها....[1]

ويمدح النّاقد الكاتب الأرناؤوط في أنّه كان أميناً في نقل وقائعه من المصادر، إلى حدّ أنّه أثبت في هوامش الرّواية المراجع التي اقتبس منها كلّ رأي أو واقعة، كما يبيّنه غير متحيّز لطرف معيّن فالكاتب رغم أنّه أهدى الرّواية إلى أرواح الأبطال من أبناء فاطمة البتول من صلبها، ومع أنّ القارئ يخرج بانطباع يشعره بتحيّز الكاتب للطالبيين إلا أنّ هذا الانطباع يزول إذا تأمّل القارئ موقفه من بني أميّة ورسمه شخصيّة يزيد، فقد اعترف له بالشجاعة وحبّ العلم مقابل ذكره لانصرافه إلى اللهو وشرب الخمرة وقسوته.

ويشير الناقد إلى أنّ الكاتب اختار شخصيّاته من الواقع التّاريخي، فالرّواية تدور حول بطل ثائر هو عمر بن الحويرث من بني عذرة الذي صحب زوجته هند إلى الحجّ، ويسهب في وصف الحسين وأخلاقه وأمه فاطمة البتول عندما تسأله زوجته عن الحسين بن علي ويخبرها أنّ الحسين سيزور مكّة حاجّاً في هذا الموسم، وفي الطّريق يلتقيان رجلاً من الشّام فيحدّثهما عن أخبار يزيد وولايته وحملته على القسطنطينيّة دون أن يتمكّن من فتحها، ويتحدّث عن

---

[1] انظر: كتاب النّاقد "عبد اللطيف أرناؤوط" ص 95- 96.

مجونه واستهتاره، وإصرار معاوية على توليته العهد وما قام به من محاولات لأخـذ البيعـة بولاية العهد لابنه من القادة والأعيان، ويستعرض الضغوط التي تعرّض لهـا عبـد الله بـن الزبير، والأحنف بن قيس،[1] ويتوجّه عمرو مع زوجته إلى المدينة لرؤيـة الحـسين، وفـي الطريق يبكي عمرو ويقول لزوجته: "ما فكّرت بالموت لأني كرهت الحياة، وأنـا بعـد فـي الرّبيع العشرين، ولكنّ الطريق التي اخترتها لا يرفّ عليها الأقحوان والنعناع والقرنفل، وإنّما هي طريق مشبكّة يرفّ على حواشيها الأسل والحنظل والحمم، ولست بمستطيع أن أتنكّب عن هذه الطّريق لأنّ القدر هو الذي اختّطها لي، ولأنّني رضيت أن يتولّى القدر أمري".[2]

وقبل أن يصلا إلى بيت فاطمة البتول يلتقيان هناك ليلى الكندية من بني حجـر، وهـي سيّدة مشايعة للحسين، وكانت أمّ عمرو كندية النّسب أيضاً، ويلج الزوجان بيت فاطمة البتـول، ويبهرهما منظر الحسين الذي يسألهما عن أمرهما، ويعتذران له عن النزول عنده أمـلاً فـي لقائه في المسجد...

ويخرج موكب الحسين للصلاة في مسجد المدينة، فيتألّب النّاس حوله، ويخـشى والـي المدينة الوليد بن عتبة أن يستغلّ الطّواف لتأييد الحسين، فيخترق موكب الحسن.... ثـم تعلـم ليلى الكندية الزّوجين بأنّ الحسين سيتحوّل إلى الكوفة بعد فراغه من حجّه في مكّة.. ويـزور الحسين البقيع حيث دفن أهله وأجداده وأمّه، ويرقى جبل أحد... وتعود هند مع زوجها عمـرو إلى وادي القرى... وينصح ابن عبّاس الحسين بالتريث قبل الخروج إلى الكوفة، لكنه يـصمّم على مسيره، وفي طريقه إلى الكوفة لقيه الفرزدق الشاعر فقال لـه: قلـوب النّـاس معـك، وسيوفهم مع بني أميّة، ويجيب الحسين: "القضاء ينزل من الـسّماء، والله يفعـل مـا يـشاء"، ويمضي الحسين ويحمل معه ثلاثة آلاف كتاب وردت إليه يدعوه فيها أصحابها للخروج إليها، ويعاهدونه على النّصرة، ثم يعلم الحسين أن مسلم بن عقيل الذي أوفده في مهمّة اسـتطلاعيّة إلى الكوفة قُتل في الكوفة بعد أن انكشف أمره لعبيد الله بن زياد والي الكوفة لبنـي أميّـة... وقبل أن يبلغ موكب الحسين الكوفة، كانت ليلى الكندية مع ثلاثة من أنصار الحسين ينـشرون بحذر خبر قدوم الحسين إليها، ويدعون الناس للالتفاف حوله.. وتخبر ليلى الكندية زوجها أنّها ترغب في الثأر لأخيها صخر، فيتعاهدان معاً على الموت، ثم يظهر عبيد الله في ساحة المدينة ويخطب بالنّاس ويعلمهم أنّه وجّه جيشاً لردّ الحسين، وهو في طريقه إلى الكوفة بقيـادة الحـر بن يزيد التميمي، ويدعو الناس إلى قتال الحسين... وعند شاطئ الفرات يتدارس الحسين مـع رفاقه أمر عبيد الله بن زياد، ومواجهة جيشه، وقد أثقله همّ الأطفال والنساء... ثم تفاجأ ليلـى

---

[1] - انظر: المرجع السّابق نفسه، ص 96- 97- 98.

[2] - كتاب النّاقد السابق، ص 98.

الكندية بجثّة عمرو الذي لم يتح له المشاركة مع الحسين في قتال خصومه، ثم تظهر طلائع جيوش عبيد الله يتقدّمهم الحرّ بن يزيد التميمي، ويقفون أمام الحسين الذي تكلم قائلاً:

"أيّها النّاس، إنّي لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا، وأنّه ليس لنا إمام، لعلّ الله أن يجمعنا بكم على الهدى والحقّ، وها إنّي قد جئتكم، فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم، أقدم مصركم، وإن لم تفعلوا أو كنتم لقدومي كارهين، انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه". فيجيبه الحرّ: "إنّا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أُمرنا إذا لقيناك أن لا نفارقك حتّى مقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد". فيتجهّم وجه الحسين ثم يقول: "الموت أدنى إليك من ذلك".[1]

ثم يأمر الحسين أصحابه أن يركبوا لينصرفوا نحو الحجاز، فيمنعهم الحرّ، فيصيح به الحسين: ويحك ما الذي تريد..؟ فيجيب الحرّ: "أريد أن أنطلق بك إلى عبيد الله..."ويتّفق الحسين مع الحر على أن يساير جيش الحرّ الحسين حتى يسلك طريقاً لا تردّه إلى الكوفة أو الحجاز، وأن يكاتب عبيد الله بأمره، ثم يعسكر الفريقان في غرب الهجينات، ويتابع الحسين سيره إلى قصر بني مقاتل ونينوى، والحرّ يواكب مسيرته، ثم يقبل فارس يحمل أمر عبيد الله بن زياد بتنفيذ ما أمر به من اقتياد الحسين إلى الكوفة، فينصح الحسين أصحابه بالتحصّن في قرية (العقر) ويأبى أن يقاتل الحر قبل أن يبادئه القتال، ويأمر عبيد الله بن زياد عمراً بن سعد بالزّحف، ويُقتل الحرّ بن يزيد وهو يقاتل إلى جانب الحسين، ويأمر عمر بن سعد بحرق معسكر الحسين، ويُصرع ابن الحسن وهو فتى في السابعة عشرة من عمره، ثم يُصرع القاسم بن الحسين بن علي.. ويحول جيش ابن سعد بينهم وبين الماء، ويدرك الحسين عسكر شمر ذي الجوشن، ويضربه رجل من كندة بالسيف على رأسه، ولم يبقَ معه في المعركة إلا ثلاثة رهط أو أربعة، ويطعن سنان بن أنس النّجعي الحسين بالرمح فيصرعه، ويحزّ شمر رأسه بعد أن يضربه زرعة بن شريك التميمي على كفّه اليسرى ويقطعها.[2]

يقول النّاقد بعد انتهائه من تلخيص الرّواية: "وهكذا انتهت صفحة من البطولة العظيمة لأعظم ثائر في حياة العرب والإسلام" وممّا يؤخذ على الكاتب برأي النّاقد وجود التفصيلات الكثيرة فيها التي أقحمها المؤلف فأخلّت بالبناء الفني للرّواية وأحالتها إلى ضرب من التاريخ...

---

[1]- انظر كتاب الناقد، الصفحات من 99 حتى 105.

[2] - انظر: كتاب الناقد، الصفحات من 105 حتى 107.

ولكن يحمد له صدق مشاعره، وبراعته في تحليل نفسيّة شخصيّات القصّة ولاسيما الحسين، وإشراكه العنصر النّسائي في القضايا التحرّريّة والنضالية من خلال تصويره لشخصية ليلى الكندية، وربطه بين القيم الإنسانيّة والاجتماعيّة من خلال الصّراع بين الحبّ والواجب في نفس عمرو، ولكنّ الصراع يبقى سطحياً ولم يتعمّق في الرّواية، ويظلّ الأرناؤوط رومانسي النزعة في أسلوبه يتحدث بلسان القلب أكثر ممّا يستجيب لنوازع العقل والفكر.[1]

ويمدح النّاقد أسلوب الكاتب في روايته "فاطمة البتول" فيقول:

"وأروع ما في الرّواية أسلوب معروف الذي يقطر حلاوة، ويستصفي الكاتب فيه صفوة جمال العربيّة، ونشوة العبارة، وأحيا تعابير العربيّة وجدّد ثوبها ولاسيّما في الوصف والتحليل، فقد أطاعت لقلمه اللغة العربيّة، وهو من غير أبنائها نسباً".

ويستشهد الناقد بمقطعين من الرّواية أحدهما في مشهد لقاء الحبيبين عمرو وهند، يقول الكاتب:

"وإنهما لفي نشوة وغرق إذ لاحت لهما على حافّة السيل طيور تخطف على أجنحتها الألوان الحمراء والألوان الصفراء، فتصبّاهما اللون، وأنمى شجونهما أن تريح الطيور حبّها على الطبيعة، وتلقي بهمسها إلى الجبال والأدوية، بل لقد هيّج الحبّ في قلبيهما أن يضع طائر منقاره في منقار طائر آخر، ثمّ أن تنسجم العصافير في ظلالة واحدة، وتطير في آفاق السّماء تاركة في الأرض الدّافئة أثراً من مرحها وغنائها وحبّها".[2]

وفي المقطع الآخر يحلل نفسيّة الحسين في ذروة محنته إذ يقول:

"لقد شهد قاتلو الطفولة في ضحى ذلك اليوم على وجهه النبيل ابتسامة فاتنة شهد آباؤهم مثلها على وجه جدّه، ورأوا إلى جماله فما غاب عنهم، وهم يرون فيه جمال أبيه الذي كانت حياته شرفاً لجيله وعصره، ولكنّ واحداً من هؤلاء القتلة لم ترقّقه تلك الابتسامة ولم يفتنه جماله الرّائع، ولو شهده مصوّرو الإغريق والرّومان ما تردّدوا في تصويره على جدران البيع وجدر المناسك".[3]

لابد بعد قراءتنا للمقطعين السابقين من أن نشير إلى أمر يلاحظه القارئ، وهو غرابة بعض التّعابير التي جاء بها الكاتب معروف الأرناؤوط مثل: "فتصبّاهما اللّون"، "رأوا إلى

---

[1] - انظر: المرجع السّابق، الصفحات: 107- 108

[2] - انظر: كتاب النّاقد، ص109.

[3] - انظر: المرجع السابق، ص 109.

جمال"، "جدر المناسك"، والناقد أرناؤوط يرى في ذلك إحياء لتعابير اللغة، وتجديد لثوبها ولكنّنا نرى أنّ التجديد يجب أن يتماشى مع العصر فهذه العبارات التي ذكرناها، وقعها غريب على الأذن، فربّما يكون النّاقد يرى في الغرابة إحياءً وتجديداً!!

كما يحمد الناقد للكاتب أنّه قرأ كثيراً حتى لتعدّ الرّواية مرجعاً دقيقاً للأحداث، وأنّه يسرد الأحداث على لسان الشخصيّات بكلّ أمانه ولكنّه يلومه على أنّه بالغ في حشد المواقف، وأرهق الرّواية بتفصيلات لا مسوّغ لها.. ولكنّه يعذره في ذلك، فيجعل إلحاحه على التفصيلات الزائدة كان بدافع حرصه على أن يقدّم للأجيال حقائق عن تاريخهم.[1]

ويختم النّاقد حديثه عن رواية "فاطمة البتول" فيقول:

"وتجدر الموازنة بين الرّواية التاريخية عند معروف الأرناؤوط وأضرابه من كتّاب هذا الفنّ كجرجي زيدان ومحمد فريد أبي حديد، فإنّ هؤلاء الكتاب قد يكونوا أكثر التزاماً بفنّ الرّواية التاريخيّة بمفهومها الحديث من الأرناؤوط، ولكنّه يبزّهم جميعاً بصدق عاطفته وسلامة توجيهه، وروعة أسلوبه وسعة ثقافته وأمانته في نقل الوقائع التاريخية، وروعة تصويره وتحليله، وهي خصائص ذات أثر في تفكير القارئ ودمجه في أحداث الرّواية..."[2]

رواية "القاهرة" لمعروف الأرناؤوط:

أمّا أضخم رواية كتبها المؤلّف معروف هي رواية "القاهرة"، وفي هذه الرّواية يقول النّاقد إنّ القارئ يقرأ فيها أمجاد الدّولة الفاطميّة التي بنت زمن المعزّ القاهرة عام 975م، والتي استطاعت أن تقهر جيوش بيزنطة وجرمانية وإيطالية في معركة ضاحية ستيليو في صقلية، ويشير أيضاً إلى قول كاتب الرّواية بأنّ عدد صفحات هذه الرّواية سيبلغ 1500 صفحة، غير أنّ المنيّة لم تمهل الكاتب لينجز مشروعه، فلم يُعثر بين أوراقه إلا على فصل واحد بعنوان (سيادة العرب في صقلية)، يتساءل النّاقد: هل كان هذا الفصل هو الفصل الأوّل من الرّواية أو ضاعت فصول أخرى قبله كتبها الكاتب.....؟ ويجيب نفسه قائلاً: إنّ الفصل الذي عثرت عليه لا يوحي بأنّه الفصل الأوّل، فقد درج معروف الأرناؤوط في رواياته السّابقة أن يبدأها برسم شخصيّاتها في الفصل الأوّل، ويمهّد للأحداث بحبكة يجمع فيها بين الوقائع التّاريخيّة والوقائع الرّوائية الخياليّة... ولا وجود للوقائع التّاريخيّة في الفصل الذي كتبه الكاتب، وإنّما هو سرد تاريخي يتناول وصفاً لمطامع الملك أوتون الثّاني من أسرة الساكس الألمانيّة في احتلال صقلية.. ويفصّل في خطط ذلك الملك، ثم يتابع المؤلّف أحداث الوقائع

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات: 109.

[2] - المرجع السّابق: ص 110.

التي تمّت في صقلية، وانتهت بهزيمة الإمبراطور الألماني وإخفاق أحلامه، فبعد معركة بريّة وبحريّة تمّت قرب شواطئ بلدة "روسانو" وقُتل فيها القائد العربي البطل أبو القاسم من أغالبة المغرب العربي أمير صقلية، ومصرع هذا البطل أججّ حماسة العرب من أبناء صقلية، وكانت غلطة أوتون أنّه ظنّ أن تعقّب الفارّين عمل سهل يضمن إبادتهم في صقلية، فورّط جيشه بالتوغّل في الشّعاب وكانت السّيوف العربيّة تنتظرهم، ومات في المعركة أغلب أمراء جيش أوتون، وفرّ أوتون في البحر... وانتصر العرب في معركة ستيليو التي وقعت في 23 أيّار 983م .[1]

ويتابع النّاقد: إنّ غلبة الوقائع التّاريخيّة على الفصل دون أن تتضمّن أيّ واقعة روائيّة توحي أنّه ليس الفصل الأوّل من الرّواية، وفي هذا الفصل يعتمد الكاتب على المصادر الوثيقة، ويحرص على أن يسرد شهادات المؤرّخين الغربيّين أنفسهم في أحكامه التّاريخيّة لكي لا يتّهم بالتحيّز للعرب المسلمين. فمن المصادر التي اعتمدها مؤلّفات غوستاف ستلمبرجر عضو المجمّع العلمي الفرنسي... والكتّاب الألمان، ومن المصادر العربيّة (الكامل) لابن الأثير...، وهو لا يخرج أيضاً عن أهدافه التوجيهيّة وهي بعث الرّوح القوميّة، والاعتزاز بالماضي المجيد في نفوس الناشئة اليوم ليعيدوا مجدهم الغابر وحرّيتهم وسيادتهم. أمّا أسلوبه في هذا الفصل فيبرهن على أنّ الأرناؤوط صاحب القلم السّاحر، واستصفاء سحر اللّغة العربيّة، وإحياء ما انطوى من تعابيرها وكنوزها، فكان متميّزاً في استخدام التراث اللّغوي، وتوظيف كنوزه، من ذلك قوله: "تحت ستار ليل شديد التعبيس"، "أولئك الشّهداء الذين ماتوا زلفى لإيمانهم".[2]

ونحن نؤيد رأي الناقد أرناؤوط في أنّ قيمة روايات الأرناؤوط تكمن في أنّها مدرسة قومية، ومدرسة لغويّة لتعليّم الناس أسرار اللغة العربيّة التي أفسدتها الترجمة.

ولكي نستمتع بحلاوة نسج الكاتب اللغوي في روايته هذه يقدم لنا النّاقد الفصل اليتيم منها الذي عنوانه (سيادة العرب في صقلية)، ويلخص أهمّ أحداثه فيقول:

لمّا بويع أوتون الثّاني من أسرة الساكس الألمانيّة إمبراطوراً على ألمانية وملكاً على إيطاليا وبعض الممالك الأوربيّة، زيّن له الحلم أن يترسّم خطا أبيه أوتون الأوّل فيقوّي أواصر المحبّة والصداقة مع الإمبراطوريّة البيزنطيّة، آملاً أن يتفرّغ لمحاربة الدولة الفاطميّة، وكان سبيله إلى تحقيق غايته أن يتزوّج الأميرة تيوفانو كريمة إمبراطور القسطنطينيّة أعدى عدو

[1] - انظر: كتاب النّاقد، الصفحات: 111- 112- 113.

[2] - انظر: كتاب النّاقد، الصفحات: 113- 114.

للدّولة الفاطميّة الناشئة، وقد كانت سنة اثنتين وثمانين وتسعمئة لميلاد السيّد المسيح بادية العراك القاسمي الذي احتدم بين أمّة عربيّة باسلة وبين أمّة ضخمة قدرت على التبسّط في معظم أوربا ما خلا الجزيرة البريطانيّة، وكانت شواطئ بلدة (روسانو) الصّعيد الأوّل الذي تلاقى عليه أبناء جرمانية الشّقر وأبناء العربيّة السّمر... وخشي الجرمان أن يقارعوا أبطال المغرب، فهمّوا برجعة لولا أنّهم ربطوا جأشهم، وإذ طلع عليهم الفجر أقفرت ضاحية (روسانو) من حماتها العرب...

ثم تعقّب أوتون الثّاني تنقّل أبي القاسم، وبعد أن نزح عن (روسانو) ولّى عليها عظيماً من الجرمان هو مستشار الإمبراطورية ديتريش سيد مقاطعة (متز)، واصطحب زوجته تيوفانو ورجال حاشيته ونبلاء جرمانية، وصعد الجبال يبحث عن البطل العربي الذي ملأت صورته واسمه جميع مدن البحر المتوسّط.

يقول ابن الأثير مؤرّخ العرب: إنّ أبا القاسم شرع في الزّحف في مستهل شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة لهجرة سيّد قريش أي في اليوم الأوّل من شهر أيّار سنة اثنتين وثمانين وتسعمئة لميلاد المسيح.

ولم يكن لدى أوتون الثّاني أسطول يصارع اللجّة الثّائرة لأنّ السّيادة البحريّة على البحر المتوسط قد استأثرت بها مدينة القاهرة العاصمة الجديدة... ثم تمدّه بيزنطة ببعض السّفن.. وآثر إمبراطور الجرمان وسيد الطّليان أن يتوغّل في البحر بعد أن توهّم أن عدّوه لا يستطيع القتال على الأرض.. ولا تلبث المعركة الطّاحنة أن تنشب على الشّاطئ قبالة ساحل (ستيلو) في الطّرف الجنوبي إلى الغرب من (سكولاك) عند موضع يُعرف "بالعمود"، وفي صباح اليوم التاسع من أيار سنة اثنتين وثمانين وتسعمئة للميلاد أمر أبو قاسم جيوشه بالكفّ عن الانسحاب، وقرّر أن يقاتل إلى النّهاية سادة جرمانية وغطاريفها...

يقول ستلمبرجر عضو المجمّع العلمي الفرنسي: إنّ تاريخ ألمانية في جميع أدواره وعصوره لم يعرف مثل هذه السّاعة في روعتها وخطورتها حتى ليجوز القول إنّ فرسان الشمال لم يواجهوا منذ معركة (بواتيه) المشهورة أمّة أكملت إيمانها وسلاحها كالأمّة التي خرجت من جزيرة صقلية، لتردّ باسم خليفة القاهرة هذه الجحافل الجرمانية[1]... ويذكر ستلمبرجر أيضاً في وصفه حماسة الجرمان أنّ فارساً من اللورين هو الشّاب كونراد نجل الكونت رودلف أمير مقاطعة (متز) كان قد وهب جميع أملاكه وأمواله للإمبراطور رجاة أن ينفق ريعها على هذه الحرب، فولاه الإمبراطور قيادة الكتيبة التي تحمل رايته اعترافاً بجميله.

---

[1] انظر: كتاب النّاقد، الصفحات: 115- 117- 118- 119- 120- 121.

ولم يكن من السهل على كتائب الجرمان أن تربح المعركة بسبب حماسة هؤلاء العرب وشجاعتهم، ويصف أرنست لاميش المؤرّخ الفرنسي المعروف هذه المعركة، وكيف تدفّق الجحفل الألماني كالسّيل وموت الأمير أبي القاسم مع عدد من الشّهداء الذين ماتوا زلفى لإيمانهم ومسايرة لوطنهم.

ولعلّ الأستاذ غوستاف ستلمبرجر هو المؤرّخ الفرد الذي وفّق في وصف هذا الموت المؤثّر فقال:

إنّ الجيل الأوربيّ الذي فتح عينيه على نور القرن العاشر قد قبس من حياة أبي القاسم ومن موته كلّ شعائر البطولة والأريحيّة.. ولكنّ موت الزعيم لم يثمر اليأس في نفوس أصحابه، وخيّل إلى الجرمان أنّ المعركة كانت نصراً رائعاً.... وأنّ جرمانية لن تبطئ في توحيد إيطاليا تحت سيادتها من ساحل صقلية إلى (رامين) على ساحل الأدرياتيك.... وكانت جيوش أوتون الثّاني تسير في محاذاة البحر ومعها راياتها، وكان ذلك في اليوم الثّاني من ربيع الأوّل. يقول ستلمرجر: إنّ المعركة الثّانية التي خاض الجرمان غمارها كان مقدّراً لها أن تقع بعد يومين اثنين من وقوع المعركة الأولى، وقد جرت أحداثها في موضع ليس بعيداً عن بلدة (كرترون) بجوار موضع (العمود)، وكانت أشنع مذبحة شمل خطبها أولئك التعساء من محاربي الجرمان والطليان فقد هلك عدد كبير من الفرسان. وأبلغ الصورة المؤثرة التي كتبها كتّاب ألمانية وإيطالية هي التي تضع صوراً شاحبة تمثّل فرسان الشّمال والجنوب، وهم يلقون بأنفسهم إلى البحر فراراً من عدوّ شجاع، واستمرّت المعركة الليّل بطوله، وقد أدرك الموت النّبلاء على حضيض الجبل ومنهم الدّوق ريشار، والكونت أوتو زعيم المحاربين الفرنج، والكونت جيهار وشقيقه أزولين، ونبلاء آخرون...

ويقول كاتب ألماني في وصف هذه المأساة: (لم ينج من سيوف سمر إفريقية واحد من كلّ أولئك الشّبان الذين كانت شبيبتهم زينة في جبين وطنهم، وزهرة في حياته، ولقد طوى البحر في لجحه كلّ هؤلاء الذين فخرت بهم جرمانية الشّقراء وكانوا أعزّ النّاس على قلب إمبراطورهم".

ويقول ستلمبرجر: "إنّ بين الذين هلكوا من عظماء جرمانية من إيطاليا ومن ألمعهم وأنضرهم لاندولف أمير مقاطعة كابو وهو الابن البكر للدّوق لاندولف المعروف بصاحب الرأس الحديدي، ثم الدّوق رنالدو.. وجميع هؤلاء كانوا حماة إيطالية في كهولة القرن العاشر".

وأمّا الأحياء الذين نجوا من هذه المذبحة فقد أهلكت بعضهم الأمراض والأوبئة واليأس، وكان الإمبراطور أوتون الثّاني الرّجل الوحيد الذي نجا من الموت.[1]

حدث هذا كلّه في ضاحية (ستيلو) في اليوم الثالث عشر من شهر أيّار سنة اثنتين وثمانين وتسعمئة لميلاد السيّد المسيح، وهو اليوم الثّاني عشر من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وسبعين وثلاثمئة لهجرة سيّد قريش.

رواية "على ضفاف البوسفور" لمعروف الأرناؤوط:

أمّا رواية معروف الأرناؤوط المجهولة فهي "على ضفاف البوسفور" فيذكر النّاقد أنّ هذا الأثر الأدبي ليس رواية بالمعنى الحديث، بل كان أشبه بقصّة استقى المؤلّف أحداثها من الحرب العالميّة الأولى، فقد دُعي الكاتب للخدمة الإلزاميّة آنذاك، والتحق بالجيش العثماني، وقرأ شيئاً من الأدب التركي، ومن المرجّح أنّه كتبها مستنداً إلى وقائع حقيقيّة، وحرص على أن يظل اسمه كمؤلّف للقصّة مجهولاً، والقصّة تدخل في نطاق الأدب القصصي الذي أخذت محاولاته الإبداعيّة تظهر في الأدب الحديث منذ منتصف القرن التاسع عشر، ونضج في مطلع القرن العشرين على يد محمد حسين هيكل في قصّة "زينب" ومحمود تيمور وتوفيق يوسف عوّاد.

تعالج قصّة "على ضفاف البوسفور" كما يشير النّاقد وضع المرأة في المجتمع العثماني، والظلم الواقع عليها بسبب الأعراف الاجتماعيّة، ويعكس الكاتب فيها واقع المجتمع العثماني الذي احتكّ أبناؤه بالغرب، لكنّ التقاليد البالية لم تزل متأصّلة في النّفوس، وأبطال القصّة مثقّفون لكنّهم سطحيون... وتقع أحداث الرّواية في مدنية استانبول، وفي فترة الحرب العالميّة الأولى، وبطلتها نعمت هانم التي يملك أبوها قصراً على ضفاف البوسفور، وكانت تحبّ ضابطاً في الجيش التركي يُدعى أحمد الذي يُدعى إلى الحملة المتوجهّة إلى اليمن، ثم يموت والد نعمت بعد مرضه، وبعد أن يعقد خطبة ابنته على كمال بك وهو رجل غنّي وضابط في البحريّة التركيّة، فيتزوّج من نعمت ويجعلها من أعظم سيّدات الأستانة، ثم يسافر زوجها إلى مياه البحر المتوسّط، ثم يعود أحمد إلى الأستانة، ويلتقي الحبيبان، لكنّ نعمت تصدّ حبيبها أحمد فدبّر لها أمراً وخدعها فحملت منه دون أن تدري ما فعل بها، ويعود زوجها فلا يجدها، ويظنّها خائنة، ويموت أحمد ولكنّه قبل أن يفارق الحياة يعترف لكمال بك بالحقيقة، فيغفر كمال بك لزوجته وتتجدّد سعادتهما، ولم يفرّق بينهما بعد ذلك إلا الموت.[2]

[1] - انظر: كتاب الناقد، الصفحات من 121 حتى 126.

[2] انظر: المرجع السّابق، الصفحات: 149-150-151-152- 153- 154.

بعد أن يقدّم النّاقد خلاصة القصّة يشير إلى أنّ القصّة تحمل طابعاً مأساوياً عنيفاً يقرّبها من الأدب الرّومانسي، إلا أنّ الكاتب يجعل شخصياته تسلك سلوكاً واقعيّاً... ولكنّ القصّة فقيرة من حيث التحليل النفّسي للشخصيّات وينصبّ السّرد والحوار فيها على الأحداث دون أن يكون للمؤلّف عناية في رسم الصّراع... وقصّة معروف الأرناؤوط تمثلّ مرحلة من تاريخ فنّ القصّة العربيّة التقى فيها القديم الموروث بالجديد المبتكر.. ويرقى السّرد فيها إلى مستوى رفيع... ويحاول الكاتب تحديث أساليبه القصصيّة فهو يقسّم القصّة إلى فصول مراعياً تأخير حلّ العقدة، واعتماد أساليب في التشويق.... وهو يضع لكلّ فصل عنواناً يلخّص مضمونه على غرار الرّوائيين العصريين، وهو يحسن رسم البيئات الزّمانيّة والمكانيّة، ويبرع في فنّ الوصف، وهو فنّ طوره الأرناؤوط في رواية "سيد قريش" وأجاده، فهو يقول واصفاً قصر والد نعمت: "صفا أديم الجوّ، واعتلّ النّسيم وتلألأ البدر في كبد السّماء، فنفذت أشعّته دنانير وهّاجة يرقصها الهواء فوق أمواج البوسفور..." ويتجلّى أثر التحديث القصصي عند معروف الأرناؤوط في محاولة إقامة صراع بين الحبّ والواجب في علاقة نعمت بأحمد بعد الزّواج، وصراعها الذي يدور في نفسها فهي تقول لأحمد:

"قد قيدّتني بزوجي شرائع الله، فإذا توهمّت أنّي أحبّك، أسأت إليّ وإلى الواجب وإلى الله...".

وبرأي النّاقد إنّ الكاتب لم يحسن رسم الصّراع في هذه القصّة، ولم يختمه بطريقة معقولة، وإنّ القصّة رسمت عالم المظلومين، ولكنّ أثر الظلم لم يكن صارخاً....... وإنّ فقر الشخصيّات فيها جعل هذا الأثر الأدبيّ أقرب إلى المحاولة الفنيّة منه إلى العمل الأدبي الكامل، وما كان الكاتب ليطالب بمثل هذا النضج في تلك المرحلة من حياة القصّة العربيّة، كما يحمد النّاقد للأديب أنّه حاول أن يشقّ الطّريق فاجتهد، ولكل مجتهد نصيب.[1]

الرّواية التاريخية بين جرجي زيدان ومعروف الأرناؤوط:

بعد أن ينتهي النّاقد عبد اللطيف أرناؤوط من عرضه لروايات معروف الأرناؤوط التّاريخيّة يكتب فصلاً بعنوان "الرّواية التّاريخيّة بين جرجي زيدان ومعروف الأرناؤوط، ويذكر في بدايته أنّ الرّواية التّاريخيّة فنّ من الفنون الأدبيّة يتميّز بأنّه ما يزال يرتبط بالأشكال الملحميّة الكبرى في الأدب التي تحدّر منها الفنّ الرّوائي. لكنّ الرّواية التّاريخيّة تختلف عن التّاريخ فهي ليست تاريخاً بقدر ما هي صورة حياة من وجهة نظر كاتبها، كما ويشير النّاقد إلى رأي فولتير في "أنّ التّاريخ يقول ما فعله النّاس، وتقول الرّواية الجيّدة ما ينبغي لهم أن

[1] - انظر كتاب الناقد أرناؤوط، الصفحات من 155 حتى 160.

يفعلوا"، وأنّ جيراردان يذهب إلى أنّ التّاريخ " لا يقول إلا ما تفعله الإنسانيّة، وتقول الرواية ما تتمنّاه أو تحلم به الإنسانيّة"[1]

فالروائي حرّ في تشكيل حلمه الذي يجمع فيه بين الواقع والخيال، والرّواية تستمّد قوّتها من حريّتها المطلقة، وهذه الحريّة تتّهم من النّقاد بشيء من الفوضى... والنقاد عادة يحكّمون عواطفهم وأمزجتهم لتحلّ محلّ القواعد... كما يؤكد النّاقد أرناؤوط قائلاً: "ولا شك أنّ الأشكال القديمة من الرّواية هي أكثر قرباً من التّاريخ بطبيعتها، والرّواية التّاريخيّة تظلّ أقرب إلى الواقع من الرّوايات الأخرى، "فالحرب والسلام" لتولستوي، و"ماري أنطوانيت" لستيفان زفايج أقرب إلى واقع الحياة من رواية "مدام بوفاري" لفلوبير، ولكن ذلك لا يعني بحال من الأحوال أن تكون الرواية التاريخيّة صورة حرفيّة عن التّاريخ، لأنّ الواقع التّاريخي والواقع المتخيّل يتضافران معاً على خلق الواقع الفنّي للرواية التّاريخيّة، ويكسوان التّاريخ لحماً ودماً، من وجهة نظر الكاتب الذي يعتقد أنّ الوهم الذي يبتدعه لا يقلّ أهميّة في تصوير الواقع عن الحقائق التّاريخيّة المرويّة، وقد اعترف النّقاد بالإجماع في عصرنا بأنّ الرّواية لم تعد "أخباراً مختلفة بهدف إسعاد القارئ وتسليته"، بل أصبحت فنّاً ذا نفع عام.. وأنّ صلة الفنّ بالكذب والخيال تجعل الكذب نبيلاً أكثر ممّا تحطّ من شأن الفنّ. ولعلّ النّاقد أرناؤوط محقّ في موقفه من بعض النّقاد، ولا يبدو راضياً عمّا يقدمونه من نقد، فيقول: "وتمتاز الرّواية من جميع الأجناس الأدبيّة الأخرى كلّها بقابليّتها لتحريك الحياة وخلقها من جديد... ومن هنا يتجلّى موقف بعض النقاد الذي ينصّبون أنفسهم حكّاماً على كتّاب الرّواية التّاريخيّة، فيتّهمونهم بمسخ التّاريخ وتشويه الحقائق، وردّ الحوادث التّاريخيّة إلى أسباب وهميّة يشارك في صنعها شخصيّات لا وجود لها إلا في ذهن الكاتب. وهم يرفضون أن يتحوّل التاريخي ولاسيّما تاريخ الأمّة المقدّس على يد هؤلاء القصّاصين إلى التشويه والتحرّيف. فقد انتقد المؤرّخون مثلاً موقف ولترسكوت رائد القصّة التّاريخيّة، وعابوا دعوته إلى تجاوز الحقائق التّاريخيّة، مثلما عاب الأستاذ عمر الدسوقي على جرجي زيدان تبديله حقائق التّاريخ الإسلامي، ورأى أنّ قصصه " لا تعدو أن تكون تاريخاً في قالب قصّة لم تكتمل شروطها الفنيّة، وتاريخاً لم يحافظ فيه على الحقائق "[2]

ويناقش النّاقد هذه الآراء، فيذكر أنّ كاتب الرّواية التّاريخيّة ليس مؤرّخاً، ومن الوهم أن نلتمس التّاريخ الحقيقي في الرّوايات، مادامت هذه الرّوايات نظرة ذاتيّة للتّاريخ قابلة للنقاش، ومن الخطأ أيضاً أن نطالب الرّوائي بالالتزام الحرفي بالتّاريخ فيما يبتدعه من الشخصيّات،

---

[1] - المرجع السابق، ص 161

[2] انظر: كتاب الناقد، الصفحات 161- 162- 163.

وما يجري على ألسنتها من حوار، ومن الخطأ كما يرى النّاقد أن نطالب الرّوائـي بـالالتزام الحرفي بالتّاريخ فيما يبتدعه من الشخصيّات، وما يجري على ألسنتها من حوار، ومن الخطـأ أن نعيب على الكاتب أن يتيح لبعض شخصيّاته التي يبتدعها الإسهام في صنع التّاريخ، لأنّهـا رمز لدور الشعب في رسم مسيرة التّاريخ، والتّاريخ لا يصنعه القادة فحسب، وهـم الـذين يذكرهم غالباً، إنّما يصنعه الأفراد أيضاً.[1]

والشخصيّات التي يبتدعها الكاتب لا تقلّ تاريخيّة عن شخصيّات التّاريخ ذاته التـي لهـا وجود حقيقي، ومن التجنّي أن نعيب على كاتب الرّواية التّاريخيّة، إذا ضمّن روايتـه قـصص الحبّ والغرام التي يبتدعها فيندّي بها جفاف التّاريخ، فهذه القصص لا تحطّ من قدسيّة التّاريخ، ولاسيّما إذا كانت هذه القصص تندمج مع الحبكة الرّوائيّة في إطار هادف.. ومن حقّ الكاتـب -كما يرى النّاقد أرناؤوط- أن يصور شخصياته الرّوائية على أنّها نماذج بشريّة حيّة.. لكـن الكاتب يجب أن يكون أميناً للتّاريخ في سرد الأحداث، وتعليل الوقائع بمنطق تـاريخي سـليم ومقبول، فليس له مثلاً أن يردّ انتصار العرب المسلمين في معركة ما إلـى بطولـة فـرد أو شخصيّة أبدعها خياله لأنّ ذلك مخالف لمنطق التّاريخ والحقـائق التّاريخيّـة، ولا يـضرّه أن يجعل هذه الشخصيّة تسهم في صنع النّصر بحسب دورها المعقول فـي الحيـاة، ولاشـك أنّ مبالغة الكاتب في تقدير دور الشخصيّات الثّانويّة سيقود إلى عدم قناعة القارئ بمنطقه، وسيبعد الرّواية عن مشاكل الواقع، على أنّ الواقع الفنّي يستمّد صدقه إلى حدّ بعيد من الواقع الحقيقي.

ويشير النّاقد إلى قول غابريل غارسيا ماركيز بهذا المعنى: "إنّ الواقع في الرّوايـة هـو غير الواقع في الحياة، مع أنّه يستند إليه كما تستند الأحلام". وكان غوركي يعدّ قصّة "يغفينـي أو نيفين" أهمّ بكثير من الوقائع التّاريخيّة، إذ صوّر فيها الكاتب عصره بشكل أدقّ من عشرات الكتب التّاريخيّة التي كُتبت في ذلك الوقت.

وصفوة قول النّاقد إنّ الرّوائي لا يمكن أن يكون نتاجه مطابقاً للتّـاريخ، فكـلّ روائـي مسوق إلى أحد أمرين:

1- إما أن يلتزم العالم ويسعى إلى تغييره.

2- وإمّا أن يرفضه ويخلق عامداً عالماً آخر يتحدّى به الحقائق، وهو في الحالتين يخـرج عن حدود الواقع والتاريخ من خلال نظرته إليها.[2]

---

[1] - كتاب النّاقد السابق، ص 163.

[2] - انظر: كتاب الناقد، ص 164- 165.

وفيما يلي يعرض لنا النّاقد عبد اللطيف أرنــاؤوط الروايــة التّاريخيــة بــين زيــدان والأرناؤوط فيقول:

"يُعد جرجي زيدان رائد الرّواية التّاريخيّة في الأدب العربي الحــديث، ومــع أنّ ســليم البستاني قد سبقه بأكثر من عشرين عاماً، إذا كتب قصّة "زنوبيا" في سنة 1861م، ثمّ روايتــه الثّانية بعنوان "الهيام في فتوح بلاد الشام"، إلا أنّ النّقاد عدّوا جرجي زيــدان أوّل مــن كتــب القصّة التّاريخيّة، وهو دون منازع أوجد الرّواية في أدبنا الحديث كما يقــول عنــه المــؤرّخ الكاتب محمد عبد الغني حسن. وقد ساعد في طريق كتابة الرواية التّاريخيّة أنّه مؤرّخ أصــدر كتباً عديدة في التّاريخ منها: تاريخ التمدّن الإسلامي، وتاريخ مصر الحــديث، والعــرب قبــل الإسلام، واهتّم أيضاً بالدراسات الاجتماعية.. وله مختارات في فلسفة علم الاجتماع والعمران، وله عناية أيضاً في فنّ السيرة فقد أصدر "تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر و بناة النهضة العربيّة"، كما اهتم بالجغرافية، وقد مكّنته ثقافتــه الواســعة مــن الإحاطــة بالبيئــات التاريخيّة والجغرافيّة والاجتماعيّة التي بنى عليها قصصه، كما زوّدتــه قراءاتــه للرّوايــات التاريخية الغربيّة، ولاسيّما مؤلفات ولترسكوت بخيال واسع وقدرة على التــصوير، واهتمــام باللّغة العربيّة وتطويرها لتلائم العصر".[(1)]

ويتابع الناقد كلامه فيبين لنا رأيه في الكاتب معروف الأرناؤوط فيقول: أمّــا معــروف الأرناؤوط فقد جاء بعد جرجي زيدان وكانت مطالعاته واسعة في التاريخ العربــي الإســلامي وجغرافية بلاد العرب، يساعده في ذلك إلمامه باللغة الفرنسية، واطّلاع دقيق علــى الأدبــين الغربي والتركي، وتمكّن من اللغة العربية، فالكاتبان إذاً كانا يملكان الشروط الأساســية لمــن يريد أن يلج باب الرواية التاريخية بمفهومها الذي كان سائداً في تلك الفترة، ذلــك أنّ الروايــة التاريخية مرت بمرحلتين:

1- مرحلة الطابع التّاريخي الرسمي كما تطرحه روايات جرجــي زيــدان ومعــروف الأرناؤوط، والشخصيّات فيه في نظر النقّاد شخصيات تاريخيّــة وليــست أناســاً تــاريخيين، فالشخصيّة التّاريخيّة هي فرد محدّد عاش في زمن معيّن، أمّا الإنسان التّاريخي فهو على حــدّ تعبير ألكسندروفا يعكس كلّ الصفات الخاصّة والمميّزة بعصره.

2- أمّا المرحلة الثّانية من مراحل كتابة الرّواية التاريخية فقد تجاوزت فيهــا الرّوايــة التّاريخيّة التّاريخ الرسمي، واتّخذت طابعاً شعبيّاً تاريخيّاً ذا اتجاه إنساني يركّز علــى تــاريخ الشعب لا الحكام ولا الطبقات الحاكمة التي يبرزها التّاريخ الرسمي، ويــستند إلــى الأفكــار

---

[1] - كتاب الناقد، ص 165- 166

التحرريّة التي تصبح هدفاً للرواية، فيغدو التاريخ الماضي تاريخاً لهــذه الأفكــار والمبــادئ وسبيلاً إلى فهم الحاضر وتغذية الأجيال بوعي معيّن للتاريخ.

ويؤكد النّاقد أرناؤوط أنّ الرّواية التّاريخيّة التي كانت سائدة في الفترة التي كانــت بــين جرجي زيدان ومعروف الأرناؤوط يمكن تصنيفها في المرحلة الأولى التي تعتمــد نــصوص التّاريخ الرّسمي، لذلك غلب عليها التدوين التّاريخي على الفنّ، وقصرت شخصياتها عن تمثــل المرحلة التّاريخيّة التي عاشت فيها، ففي رواية جرجي زيدان "فتاة غسان" التي تــشرح حالــة الإسلام في أوّل ظهوره إلى فتوح العراق والشّام، ليس بين أبطالها أيّ شخصيّة مسلمة، فكيف يمكن لرواية تتحدّث عن تاريخ العرب والإسلام، أن تشرح حالــة الإســلام دون أن تتجــسّد الدعوة في شخصيّة مسلمة من شخصيّاتها...؟؟ وبالمقابل فإنّ رواية "سيّد قــريش" لمعــروف الأرناؤوط تناظر رواية "فتاة غسّان" لزيدان، إذ تتحدّث عن الفترة التّاريخية ذاتها، ومع ذلــك فقد انصبّ نقد النقاد لها على إخفاقها في تصوير الدعوة الإسلامية وأبعادها من خلال شخصية سيّد قريش محمد بن عبد الله (ص)[1]

ويشير الناقد إلى ما ذهب إليه الدكتور شاكر مصطفى في كتابــه (محاضــرات عــن القصة في سورية) إلى أنّ كاتب "سيد قريش" لم يخصص في هذه الرواية لسيد قــريش علــى الرغم من طولها إلا حيزاً قليلاً لا يتجاوز ربعها، وهذا الحيز لا يبرهن عن الأهمية الداخليــة النفسية لسيرته، وأنّ الأرناؤوط بحث عن الأسباب التي جعلت الرسول الكريم مهماً في الفتــرة التاريخية التي بعث فيها، وكان الأولى به أن ينطلق من النتائج إلى الأسباب وليس العكس.

كما ويشير إلى نقد عدنان بن ذريل لرواية "سيّد قريش" في كتابــه (أدب القــصة فــي سورية) واعتباره شخصيات الرواية المتوهمة لا تمثل الملحمة العربية الإســلامية وبزوغهــا، كما عاب على الكاتب الإغراق في الخيال والبعد عن الموضوع الأساس.[2]

ولا يقف النّاقد أرناؤوط موقف المحايد من هذه الآراء، بل يردّ عليها قائلاً:

"وقد فات هؤلاء النقاد أنّ القدسية التي تتمتع بها شخصية الرسول الكريم (ص) والتاريخ العربي الإسلامي في هذه الفترة، لا تسمح لأي روائي أن يخلق أو يبتدع أحــداثاً وهميــة، أو تطويرات يتخيلها على الشخصيات الدينية، لأن خروج الروائي وتجــاوزه الــسيرة التاريخيــة المعتمدة في كتب السيرة سيعرضه لنقد شديد، ولذلك آثر جرجي زيدان السلامة، فلــم يــدخل شخصية الرسول (ص) في رواياته بل تحدث عنها من الخارج بعكس الشخصيات الأخرى.

1- انظر: كتاب الناقد أرناؤوط، ص 166- 167.

2 - انظر: كتاب الناقد أرناؤوط، ص 167- 168.

أمّا معروف الأرناؤوط فكان أكثر جرأة منه، فقد أدخل شخصيّة الرّسول (ص) في روايته، بل جعلها محور الرّواية ولكن دون أن يوليها من الاهتمام ما يجعلها الشخصية الرّئيسية في روايته، وآثر أن يرسمها من الخارج خلال الحوار بين الشخصيات والسرد القصصي تخلّصاً من إضافة حقائق وهمية على السيرة الحقيقية، والتزم بكلّ أمانة بنصوص السيرة التاريخية فلم يتجاوزها، ولم يقع فيما وقع فيه جرجي زيدان من مزالق، مثل توهمه أنّ الرسول الكريم (ص) اجتمع ببحيرا في بصرى، بل أشار إلى مروره بها مع عمّه أبي طالب، وهو غلام صغير قبل الدعوة ببضع وعشرين سنة، ولا شك أنّ تهيب معروف الأرناؤوط من جعل شخصية سيد قريش شخصية فنية لا تاريخية مع أنّه بطل الرواية، قد دفعه إلى تغطية هذا العيب في الرّواية بقبسات تاريخية مسهبة من التاريخ والسيرة النبوية فأفقد الرواية فنّيتها، وأدّى بها إلى التشتت، فتشعبت بها الأحداث دون أن تخدم الغرض الفني، وضاع الهدف الفني من الرّواية، فبدت أشبه بتاريخ في قالب قصصي، ولم تستطع شخصيّة سيّد قريش أن تستقطب الأحداث وتسيّرها.(1)

والناقد فيما نستنتج من آرائه يضع الكاتبين جرجي ومعروف في كفّة واحدة، ويشير إلى هدفهما النبيل في كتابتهما الرواية التاريخية، وهو تحفيز العرب للنضال في وجه الاستعمار على الرغم من سلبيات روايتي الكاتبين، فيقول: "على أننا نظلم "سيّد قريش وفتاة غسان" معاً إذا نظرنا إلى الرّوايتين على أنهما مجرد تاريخ فحسب، فقد هدف الكاتبان منهما إلى إزكاء الرّوح النضالية لدى العرب في مواجهة الاستعمار، فكان الإسلام في نظرهما ثورة قومية، ولم يكن عرضهما للتاريخ من أجل التاريخ بل هدفا إلى ربط حاضر الأمة بماضيها، وتثقيف الشعب، وإطلاعه على المواقف المشرقة من تاريخ الأمة، وهو هدف محقق لديهما على الرغم من الضعف الفني الملحوظ في الرّوايتين، وإن كان يُعاب على جرجي زيدان بعض غلطه في الأمانة التاريخية ونقل الوثائق كما أشار إلى ذلك أحد النقاد"(2)، "ولكننا لا نقر الناقد في استنكاره قصص الحبّ التي جعلها جرجي زيدان إطاراً لرواياته لأنها محور لا غنى عنه لكلّ رواية، فالرّواية تقوم على الخيال وتتغذى منه، ولا يفرّقها عن التاريخ إلا ذلك الجانب الوهمي المبتدع الذي يشدّ القارئ، فالحبّ هو عالم الرّواية المفضل، وهو أصلها الذي تقوم عليه، ولا يتنافى ذكره مع قدسية التاريخ، فالحبّ أسطورة الحياة، كلّ حياة إنسانية ، فلا يعيب جرجي زيدان مثلاً أن يجعل أجمل ساعات العمر في نظر حمّاد وهند بطلي رواية "فتاة غسان" ساعة زواجهما، ولا نرى في ذلك انتقاصاً من قيمة انتصار اليرموك أو القادسيّة التي يجب أن يكون

---

[1] انظر كتاب الناقد أرناؤوط ص 168- 169

[2] كتاب الناقد السابق، ص 169

أسعد ساعات العمر لدى البطلين.. كذلك لسنا مع النقاد الذين رأوا في "فتاة غسان وسيّد قريش" إسهاباً في وصف البيئات غير العربية التي تجلّت فيها التأثيرات الأجنبية كحضارة الرّوم، والحياة المسيحية الدينية في الشام، فلا يمكن للمؤرخ أو للرّوائي أن يتجاوز هذه البيئات وأثرها في ظهور الإسلام، ولا يتهم الرّوائي بأنه يروج للثقافات الأجنبية أو يعجب بها ما دام يصف واقعاً تاريخياً لا يمكن إنكاره. فالأديرة التي وصفها كلّ من جرجي زيدان ومعروف الأرناؤوط وصلة العرب بها حقائق تاريخية لا تنكر، والصراع القومي بين العرب سكان البلاد والروم، هو الذي فجر الصراعات الدينية الين مهدت لظهور الإسلام بعد تنازع اليهودية والمسيحية على الجزيرة العربية، ومع ذلك فإن الكاتبين لم يقصّرا في إبراز صورة الثقافة العربية في بلاد الغساسنة ومواسم الأدب في عكاظ وغيرها من الأسواق الأدبية، ولعلّ من التجنيّ أن تعدّ الشخصيات التاريخية أو المبتدعة في هذه الروايات مجرّد "أناس عاشوا في فترة من التاريخ" فقد استطاع الكاتبان ولاسيّما معروف الأرناؤوط إبراز دور الشعب في حركة المقاومة القومية في مواجهة الرّوم والفرس، فلم يكن رسم امرئ القيس في رواية "سيد قريش" رسماً لحياة أشخاص عاشوا في التاريخ وإنما أبعد من ذلك، فهي شخصيات إنسانية ورموز شعبية، تربط بين مراحل تاريخ الشعب العربي، بين ماضيه البعيد قبل الرواية وحاضره زمن الرواية، وتستغل الأساطير الشعبية لإبراز الواقع على الشعب عبر العصور، وتدعو إلى تصفيته فهي شخصيات فعالة مؤثرة يستجيب لها القارئ بحكم ما يعرف عن تاريخها الأسطوري، وقد استطاع معروف الأرناؤوط أن يستفيد كثيراً من الأساطير الشعبية والمرويّات الملازمة للضمير الشعبي، ويثمرها جيداً لأهدافه الفنية والقومية، ويربطها بإحكام بسيرة سيّد قريش وظهور الدعوة، وبيان غاياتها وأهدافها النبيلة وقد نلحظ لدى الكاتبين بعض المبالغة في إبراز دور هذه الشخصيات وأهميتها في تسيير الأحداث،كالدور الذي لعبته ليلى الكندية في القادسية أو الدّور الذي لعبه سلمان خادم حمّاد في جبهة العراق، وفي ذلك تجاوز للحقائق التاريخية بهدف إبراز مشاركة الشعب كلّه في حركة المقاومة، ولم ينجح المؤلفان بإقناع القارئ بهذه الأدوار المبالغ بها، فكانت مثل هذه المبالغات نقطة ضعف في الإيهام الفني لديهما.

كما يشير الناقد أرناؤوط إلى أنّ الكاتبين معروف الأرناؤوط و جرجي زيدان يلتقيان في روايتي "غادة كربلاء" لجرجي و"فاطمة البتول" للأرناؤوط، من حيث التركيز على الصراع الذي قام بين أمية وخصومهم آل البيت بعد مصرع علي (رض)، ولكنهما برأي الناقد لم يوفقا بطرح موضوع الصراع الذي كان عربياّ، فضاعت أهداف الروايتين، وبدا أنهما ينكأان جروح قديمة مرّ عليها زمن، ولم ينجحا في تصوير الصراع في الرّوايتين على أنّه صراع بين الحقّ

والباطل، فالموضوع التّاريخي الخلافي حساس يثير فرقة الأمة، ولا جدوى من إثارتــه فــي رواية تكتب للأجيال، ومع أنّ معروف الأرناؤوط حالفه التوفيق في رسم شخصية الحسين من الناحيتين التاريخية والفنية إلا أنّه برأي الناقد خالف غرضه الأساسي فــي عــرض الجوانــب المشرقة من التاريخ العربي الإسلامي لتربية الأجيال على الاعتزاز بتاريخهم.[1]

ويجعل النّاقد أرناؤوط رواية "أرمانوسة المصريّة" لجرجي زيدان مناظرة لرواية "عمــر بن الخطّاب" لمعروف الأرناؤوط، لكنّه يذكر أنّ بين الرّوايتين فارقاً، وهو أنّ روايــة زيــدان تتناول فتح مصر، في حين تتناول رواية الأرناؤوط معركة مؤتة وجانباً من فتوح الشّام التــي عرض لها جرجي زيدان في "عذراء قريش"، وليس بين روايتي "أرمانوسة المصريّة" و "عمر ابن الخطاب" -كما يذكر النّاقد أرناؤوط-، شخصيّة مشتركة سوى هرقــل أمّــا موضــوعهما الفني فيدور حول شخصيتي مرقس ومارية وحبّهما في رواية معــروف الأرنــاؤوط، وحــبّ أركاديوس لأرمانوسة التي ينافسه في حبّها قسطنطين بن هرقل في رواية جرجي زيدان[2].

ويشير النّاقد إلى أنّ هدف الكاتب جرجي زيدان لم يتّضح كثيراً في روايته، فلم يظهــر تعليله لدوافع الفتح ونتائجه على أنّه تخليص الأقباط من الضرائب المالية المرهقة، أو ضــمان الحريّة الدينيّة لهم في ظلّ الإسلام، فهذه الأهداف لم تبرز كثيراً أو قليلاً في ثنايا الرّوايــة وإن كانت تلحظ في ثنايا الحوار.

أمّا معروف الأرناؤوط فقد ذهب إلى أبعد من ذلك إذ جعل الظلم الواقع على الرّومانيين والعرب من قبل السلطة الحاكمة سبيلاً إلى توحيد الفئات الناقمة متمثلة في شخصيّة كريــستيا الشاعر ابن قيصر المخلوع الذي يطلب الثأر لأبيه من هرقل، وفروة بن عمرو الجذامي أميــر "سلع" الذي يعاني من ظلم شقيق هرقل حاكم البلقاء، والسامريّة ابنة نفتالي التي تطمح أن تثــأر لأبيها.

وهكذا -كما يقول النّاقد- ربط معروف الرّواية برباط إنساني تجاوز حدود القوميّــات، فلم يكن الصّراع بين عرب وروم، بل بين حاكم ظالم ورعية مظلومة من جنــسيّات مختلفــة تضمّها الإمبراطورية الرّومانية.

ويرى الناقد أنّ التّاريخ عند جرجي زيدان وقائع سياسيّة واجتماعيّة وأحداث، وهو عنــد معروف الأرناؤوط دفاع عن الإنسانيّة والحضارة والقيم، وقد ساعدته نزعته الرّومانسية على جعل شخصياته التي لها أساس من الوجود التاريخي يمثلون القيم السّامية...، أمّــا شخــصيات

[1] انظر: كتاب النّاقد، الصفحات: 169- 170- 171

[2] - انظر: كتاب النّاقد أرناؤوط، الصفحات 171- 172.

جرجي زيدان فأكثرها مبتدع لا وجود تاريخي له، وهي تسلك سلوكاً واقعياً أمّا الخاتمة، فغالباً ما ينهي الأرناؤوط رواياته بمآس دامية (مصرع الحسين، مصرع فروة بن عمرو، جنون كريستيا، حرق المرأة السّامريّة).[1]

أمّا جرجي زيدان فيميل إلى ختم روايته بنهايات مفرحة كزواج الحبيبين، والرّواية عند الأرناؤوط أقرب إلى الدراما الرّومانسية، في حين أنّها عند جرجي زيدان أقرب إلى الواقعية بمعناها الذي كان سائداً في بداية القرن العشرين، وقد دفعته واقعيّته إلى تضمين حوار الشخصيّات المعارضة للفتح العربي بتعبيرات قاسية رأى فيها بعض المؤرخين طعناً على العرب لا يليق، ولم يغفروا له ذلك بسبب حرصه على واقعية الحوار من ذلك ما ورد على لسان أركاديوس: "ونحن الرّوم أرباب المجد والسطوة، وقد رفعت أعلامنا على هام الأمم، ودانت لنا الملوك والقياصرة، أنفرّ أمام نفر من البدو ورعاة الإبل...؟؟"[2]

أمّا معروف الأرناؤوط فكان أكثر لباقة وأقلّ حدّة وعنفاً في رسم المواقف يقول على لسان ثيودور:

"أنكون تحت يدي العرب، ونحن أعظم النّاس ملكاً، وأكثرهم رجالاً، وأفضلهم بلداً، لا والله إنّ هذا لن يكون أبداً". ويرى الناقد أنّه على الرّغم من عنف ثيودور وقسوته على العرب كما ظهر من سلوكه في الرواية، فإن كلامه لا ينمّ عن احتقار للعرب أو تنديد سافر بهم كما ورد على لسان شخصيات جرجي زيدان، ولذا انصبت عليه حملة نقد قاسية، مع أنّ من شروط الكتابة الروائية الفنية أن يُنطق الكاتب شخصياته بما يلائم الواقع والحقيقة، ولا يُعد ذلك برأي الناقد تجنيّاً من الكاتب، لأنّه لا يتكلّم بشخصه وإنّما بلسان شخصيات معارضة، لها مواقف يعرفها القارئ ولا يتأثر بها لأنها مرفوضة في نظره، متحيزة في تقديره مع التسليم بتحامل جرجي في بعض المواقف وإساءته سرد النّصوص التّاريخيّة وتفسيرها في مواقف أخرى.[3]

أمّا عن البيئة الزمانية والمكانية، فيشير الناقد أرناؤوط إلى أنّ تقسيمات الكاتبين للمراحل الزمنية جاءت متقاربة، وإنّما ظهر الاختلاف جليّا في اختيار البيئة المكانية امتداداً أو موقعاً فبدا معروف الأرناؤوط أكثر اعتماداً على رسم بيئات ممتدة الاتساع مكانياً، فهو في "سيّد قريش" يجعل حوادث روايته تمتّد لتشمل بلاد الحجاز والعراق والشام ومناطق من الجزيرة العربية وبلاد الروم حتى القسطنطينية وكذلك شأنه في "عمر بن الخطّاب".

1- انظر: كتاب النّاقد أرناؤوط، الصفحات 172- 173.

2- انظر: كتاب النّاقد أرناؤوط، ص173.

3 - انظر: كتاب الناقد ، ص 173- 174

أمّا جرجي زيدان كما يقول الناقد فلا تتعدى البيئة المكانيّة في روايته حدود قطر معيّن كالعراق والشام أو مصر إلا نادراً، وهو أقل إغراقاً في رسم المعالم التاريخية والجغرافية بتفصيلات جغرافية وتاريخية واجتماعية تجاوزت الحدود الفنية.[1]

وبعد أن ينتهي النّاقد من مقارنته بين روايات جرجي زيدان التاريخية وروايات معروف الأرناؤوط التاريخية يشير إلى فضل الكاتبين وريادتهما في كتابة الرّواية التاريخية فيقول:

"من هذا العرض يتبين لنا أنّ الرواية العربية بدأت تلبية لدوافع قومية ودينية واجتماعية وفنية، وعلى الرّغم من أنّ كلّ بداية لا تخلو من عيوب وتجاوزات فإنها مهّدت الطريق لنشأة الرواية التاريخية الاجتماعية بمفهومها المعاصر التي نشهد ظهورها المتميز في عصرنا، فكان لهذين الأديبين فضل الرّيادة وحسبهما بذلك فخراً"[2]

وكما مر سابقاً فإننا نرى أنّ الناقد أرناؤوط وقف موقف المحايد من الكاتبين معروف الأرناؤط وجرجي زيدان، وذكر في مقارنته بين بعض رواياتهما التاريخية السلبيات والإيجابيات في تلك الروايات.

الكاتب معروف الأرناؤوط في وجدان دراسيه:

ويبين لنا النّاقد عبد اللطيف أرناؤوط مكانه معروف الأرناؤوط في وجدان دراسيه، فيذكر أنه نموذج حيّ لما تتمتع به الحضارة والقومية العربية من حيوية وانفتاح وأنّه أنشا مع زملائه صحيفة "الاستقلال العربي 1918م". ثم مجلّة "العلم العربي 1919م" التي حدّد هدفها في خدمة النهضة الأدبية المباركة، وتجديد رونق التاريخ العربي الذي خمدت شعلته ثم أصدر جريدة "فتى العرب" 1920م واختاره مجمع اللغة العربية عضواً فيه، وزار البلدان العربية، وكان يناصر بقلمه الحركات التحررية في بلاد العروبة والإسلام. فاجأته المنية ليلة الجمعة في الثلاثين من يناير عام 1948م... وخلق أدباً وفكراً نال عناية الدّارسين والنقاد.. ويُعد الكاتب معروف رائد الرواية التاريخية العربيّة وسيّدها، وإن كان قد سبقه سليم البستاني في محاولة تأليفها، كما مهد للكاتب جرجي زيدان وسواه في كتابة الرواية التاريخية لكنهم تخلفوا عن مجاراته في تلك اللغة المنتقاة التي اصطفاها من كنوز التراث. ويشير الناقد إلى دراسة الدكتور منير العجلاني في مقدمة رواية "سيّد قريش" والتي يذكر فيها العجلاني أنّ معروف الأرناؤوط كاتب غنائي وصوره غنية باللون.. وأنّ ميوله تغذّت من أدب اليونان وأنّ روايته فتح جديد من أدبنا العربي وأنّه شاعر ورسّام وصانع مبتكر..

---

[1] انظر المرجع السّابق، ص 174

[2] انظر المرجع السّابق، ص 174

كما يذكر الناقد أنّ الدكتور العجلاني يصنّف روايته "سيد قريش" في باب السّير ، سير العبقريات.. كما يشير الناقد أنّ الشاعر خليل مطران ذكر في المقدمة الثانية لرواية "سيد قريش" عاملين شغلا معروف الأرناؤوط في روايته "سيد قريش" وهما: إيمانه برسالة محمد الرسول (ص)، وإبراز دور النّصارى العرب، كما أنّ الكاتب خليل مطران أبدى إعجابه بالوصف في الرواية ولغة الكاتب الفصيحة المتميزة. كما ويذكر الناقد ما كتبه الكاتب فريد جحا في جريدة الثورة وهو أنّ روايات معروف الأرناؤوط تهدف إلى إحياء الماضي العربيّ التليد، والزّهوّ القومي في مشروع نهضوي يهدف إلى بعث الأمة من مرقدها.[1]

ويذكر الناقد أرناؤوط في نهاية كتابه "معروف الأرناؤوط رائد الرواية التاريخية في بلاد الشام 1892- 1948" أنّ المشروع النهضوي الكبير الذي كان يحلم به معروف الأرناؤوط كان يقوم على ثلاثة أركان وهي:

أولاً: إحياء اللغة والتراث الأدبي والتاريخي من حيث إحياء اللغة وبعث مفرداتها من مرقدها.

أمّا الرّكن الثاني من مشروعه النهضوي: فهو التّاريخيّ فقد وجد معروف في تاريخ العرب والإسلام مواقف مشرّقة وطموحاً قومياً جديراً أن تلاحقه الأجيال بعد ما خيم الرّكود والجمود على الطموح العربي.

والرّكن الثالث: فهو الرّكن الروحي والخلقي الذي تجلّى من خلال القيم العربية الإيجابية التي اعتمدها الإنسان العربي منذ الجاهلية والتي تجسدت في رسالة الإسلام، وتعاليمه...

فالأرناؤوط -كما يوضح الناقد- لم يرس دعائم النهضة العربية الحديثة على أساس الاقتباس من الغرب وعلومهم لأنّه وجد أنّ بناء الشخصية القومية على التراث أهم وأبعد أثراً من التقليد والاقتباس.. وهكذا يبدو معروف الأرناؤوط برأي الناقد أرناؤوط من أبرز رواد النهضة القومية العربية، وقد خدمها وكأنه أحد أبنائها المخلصين...[2]

كتاب "الرواية التّاريخيّة في الأدب العربيّ الحديث" للدكتور عبده قاسم عبده:

إذا كان الناقد عبد اللطيف أرناؤوط في كتابه السّابق قد ركّز على الروايات التّاريخيّة في بلاد الشام، فإن الدكتور قاسم عبده قاسم يتناول في كتابه الذي سوف نتحدّث عنه الرّوايات التاريخية التي تناولت فتح مصر قلب العالم الإسلامي.

---

[1] - انظر كتاب الناقد أرناؤوط، من الصفحة 175 وحتى الصفحة 182.

[2] - المرجع السابق ص 183.

إذاً من الكتب التي تناولت الرّواية التّاريخيّة في أدبنا العربي الحديث كتاب "الرّواية التّاريخيّة في الأدب العربيّ الحديث" للمؤلّفين: د. قاسم عبده قاسم و د.أحمد إبراهيم الهوّاري، وقد جاء في المقدّمة التي قدّم بها المؤلّفان لكتابهما توضيح للعلاقة بين الفنّ والتّاريخ، فقد أشار المؤلّفان إلى أنّه ثمّة علاقة جدليّة بين الفنّ والتّاريخ، فالفنّ مادة من مواد التدوين التّاريخي، والتّاريخ بدوره يشترك مع الفنّ في دعاماته الثلاث: الإنسان، الزّمان، والمكان، وكذلك فإنّ مادة المؤرّخ ومصادره كما يشير المؤلّفان تشمل فيما تشمل الفنّ بكافة أجناسه، وفي هذه الأشكال من الإبداع الفنّي، يجد المؤرّخ مصدراً من مصادر التّاريخ يعكس روح العصر الذي يصوّره، ويكشف عن وجدان الإنسان الذي يحيا فيه، كما يصوّر هذا الإنسان بمشاكله...

كما تسهم أشكال الإبداع الفنّي كما يوضّح المؤلّفان في إعادة صورة الماضي، وبعث روحه من مرقدها، وهي في هذا تكون مواكبة للمنهج التّاريخي الذي يستردّ الحدث من الماضي، والفن يجد لنفسه الوحي والإلهام في أحداث التّاريخ، فالفنّان الذي يستلهم التّاريخ في إبداعه الفنّي يتخّذ من الأحداث (أو الحقائق) التّاريخيّة المجرّدة نواة ينطلق منها خياله الخالق، ينسج حولها من رؤيته، ورؤاه الإبداعيّة.[1]

كما يذكر المؤلّفان في مقدّمتهما الفروق بين مهمّة المؤرّخ ومهمّة الفنان بقولهما: "فالمؤرّخ ينشد الحقيقة، ومن ثمّ فهو يتسلّح بمنهج التّاريخ ذي الصّفة الاستردادية، مسترشداً بمصادره ومن بينها الفنّ، في محاولة إعادة تصوير الماضي، بقدر ما يستطيع من الدّقة. ثم هو يحاول تفسير هذا الماضي من خلال الكشف عن العلاقة السببيّة بين الظواهر التّاريخيّة.

وينبغي على الفنّان ألا يلوي عنق الحقيقة التّاريخيّة في سبيل الإبداع الفنّي، فإنّ ذلك يعدّ تزييفاً للتّاريخ، وينأى بالأثر الفنّي عن خاصيّة أوّليّة تميّزه وهي "الصدق". فالصدق الفنّي ينبغي ألا يجور على الصدق التّاريخي....

إنّ المؤرّخ ينظر بباصرته نحو الماضي بهدف كشف الحقيقة. أمّا الرّوائي فهو ينظر بباصرته نحو الماضي بهدف تحقيق التواصل الإنساني أو وحدة التجربة الإنسانيّة.. هما معاً يحتفلان بدوافع الفعل الإنساني واستجابات الإنسان- من خلال التجربة الإنسانيّة- للمواقف التي يحياها"[2]

---

[1] - د. قاسم عبده قاسم، د. أحمد إبراهيم هوّاري: الرواية التّاريخيّة في الأدب العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة، 1979، ص 7.

[2] - المرجع السابق نفسه ، ص 8

إذاً كما يرى المؤلّفان د.قاسم عبده قاسم وأحمد إبراهيم الهوّاري فإنّ المؤرّخ والرّوائي هدفهما واحد هو الإنسان ودوافعه ومواقفه، كما أشارا إلى نقطة مهمّة وهي أنّ الرّوائي لا يجوز له إغفال الحقيقة التّاريخيّة، بل يجب عليه المحافظة على الصّدق التّاريخي، ونحن نوافق الأديبين في رأيهما، لأنّ الرّوائي يبدع أكثر إذا وصف أشياء أو تحدّث عن أمور موجودة فعلاً في التّاريخ، ويكون في قمّة إبداعه عندما يضفي على هذه الحقائق إضافات كثيرة مصدرها خياله الواسع، شرط ألا تمسّ هذه الإضافات جوهر الحقيقة.

وهنا يقف الناقدان أمام مسألة وهي دور الخيال بالنّسبة للمؤرّخ والرّوائي في صياغة المادّة التّاريخيّة بصورة معيّنة وفق منطق معيّن، ويذكران أنّ هذه المسألة تهمّنا لأنّها ترتبط بعمليّة التشكيل في البناء الرّوائي، ولأنّها تمثّل قدرة الرّوائي المؤرّخ على التخييل الإبداعي العقلي الذي يصوغ المادّة التّاريخيّة.

أمّا وجه الشبه بين مهمّة الرّوائي ومهمّة المؤرّخ فيكمن -كما يذكر المؤلّفان- عند الصورة المتخيّلة، فكلّ منهما يهدف إلى رسم صورة تتألّف من عدّة عناصر بحيث تنطوي على حكاية أو قصّ الأحداث، ووصف للمواقف ، وعرض للدوافع.....

ويشير الكاتبان إلى أنّ الرّواية يجب أن تنطوي على مغزى، وكذلك التّاريخ يجب أن ينطوي على مغزى، وبرأيهما إنّ الحدود بين الفنّ والتّاريخ هي حدود وهميّة، إذ إنّ القاسم المشترك الأعظم هو "الإنسان"، ولذلك فالمؤلّفان ينظران إلى الرّواية التاريخيّة بوصفها عملاً أدبيّا بحتاً لا يختلف عن الأعمال الرّوائية التي استهلّت موضوعاتها من الأحداث الحاضرة أو الواقع المعاصر، فالمطلب المشترك هو البحث عن الإنسان..، ومهمّة الرّواية هي تحليل المجتمع ونقده.

ويذكر المؤلّفان الهدف من دراستهما وهو محاولة إثارة الوعي بتراثنا الحضاري، وأنّ هذه الدراسة تصدر عن رؤية تلتمس في الماضي حلولاً لتساؤلات يطرحها الواقع المعاصر، مستشرفة رؤية للمستقبل، ودراستهما تعالج فكرة محدّدة وهي فكرة "الجهاد والبطولة" في سبيل نشر العقيدة الإسلامية.[1]

وكتاب "الرّواية التّاريخيّة في الأدب العربيّ الحديث" يهدف -كما يذكر المؤلّفان- إلى تحقيق مطلبين:

الأوّل:أن يقدّم للنّاقد الخلّفية التّاريخية للعصر والإنسان وموقعه في البناء الاجتماعي.

[1] - انظر: المرجع السابق نفسه، ص8-9-10-11.

والثاني: محاولة الانتفاع بمثار هذه الإضاءة التّاريخيّة في الدراسات النقدية للرّوايات المستوحاة من تلك الشرائح الزمنيّة المتوالية.

أمّا عن سبب اختيار "مصر" في دراستهما فيذكر المؤلّفان أنّ "مصر" تمثّل العنصر الثابت في أركان العمليّة التّاريخيّة (المكان) فضلاً عن أنّها قلب العالم الإسلامي والعربيّ، وكانت دوماً هدفاً لسهام المعتدين.[1]

يقسم المؤلّفان الدكتور قاسم عبده والدكتور احمد إبراهيم الهوّاري كتابهما إلى أربعة أقسام، وسنحاول تلخيص أهم ما جاء في هذه الأقسام.

القسم الأوّل:

مصر تحت راية الإسلام - فتح مصر بين الحقيقة التّاريخيّة والخيال الفنّي.

أولاً: الخلفية التاريخية لرواية أرمانوسة المصريّة:

تتسم الفترة ما قبل الفتح الإسلامي لمصر كما يذكر المؤلفان بالغموض الشديد لقلة المصادر والمعلومات التّاريخيّة. ويرى بعض الباحثين المحدثين أنّ الخلاف المذهبي، بين مصر - التي كانت ولاية بيزنطيّة - وبين الإمبراطورية البيزنطيّة يمكن أن يفسّر لنا السهولة التي تمّ بها الفتح العربي لمصر، فهل كان الفتح الإسلامي لمصر سهلاً حقاً كما يتساءل المؤلفان؟

يشير المؤلفان إلى أنّ بعض المصادر التّاريخيّة تذكر أنّ عمرو بن العاص أخذ يلحّ على عمر بن الخطّاب لكي يسمح له بفتح مصر، فأذن له الخليفة بالمسير.... بيد أنّ الرّوايات التي أوردها ابن جرير الطبري في هذا الشأن تشير إلى أنّ الخليفة هو الذي أرسل ابن العاص الذي واصل مسيره إلى مصر سنة 18هـ (639)م.

وبرأي المؤلّف إنّ فتح مصر كان ضرورة استراتيجيّة أملتها ظروف حركة الفتح الإسلاميّة، ذلك أنّ بقاء مصر بأيدي البيزنطيين (الروم) كان يشكلّ تهديداً خطيراً للحدود الجنوبيّة لبلاد الشام وسواحلها على البحر المتوسط، واستولى المسلمون على العريش دون مقاومة، ثم بلبيس.. ثم استطاع المسلمون هزيمة الرّوم عند قرية أم دنين، وتراجع الروم للتحصّن في حصن بابليون، وحاصر العرب الحصن بطريقة بدائيّة، وقاد الزبير بن العوّام الهجوم الإسلامي على الحصن الذي سقط أخيراً.[2]

---

[1] - انظر: مقدمة المرجع السّابق، ص12.

[2] - انظر: المرجع السابق، الصفحات 15- 16- 17.

ويشير المؤلّف إلى أنّ أحد الباحثين يرى أنّ المقوقس لعب دوراً كبيـراً فـي مـساعدة العرب على غزو مصر، والمقوقس هو الحاكم الذي عيّنه هرقل الأوّل على مصر البيزنطيـة ليجمع بين يديه السلطة الدينيّة والسلطة السياسيّة، كما يشير إلى ما ذكره المؤرّخ ابن البطريق أنّ المقوقس كان يعقوبيّاً مبغضاً للروم، واحتال على الروم، وطلب مفاوضة العـرب ويـذكر المؤلّف في هامش الصفحة 18 من كتابه أنّ جرجي زيدان أشار إلى دور المقوقس في فـتح مصر، وذلك خلال حديثه عن الديانة المسيحية في مصر في روايته "أرمانوسة المصريّة" ص 73، كما يشير الدكتور أحمد الهواري إلى ما يقوله الرّوائي جرجي زيدان على لسان مـرقس في روايته "أرمانوسة المصرية" ص 74، وهذا القول هو: "إنّ مولانا المقوقس مصمّم على ما ذكرت، فإذ رأى الغلبة للعرب انحاز إليهم وهو سيّدنا وواليناء ولولا الحامية الرّومية المراقبـة لأعماله، لفتح العرب بلاده ولم يرم عليهم نبلاً"[1]

ويشير المؤلّف في كتابه إلى أنّ المصادر التاريخية- الإسلاميّة منها والمـسيحيّة- قـد ذكرت أنّ الأقباط قد ساعدوا الجيش الإسلامي.

وتشاور عمرو بن العاص مع أصحابه فعقدوا لواء الحرب لعبادة بن الصامت، وتمكّـن هو وقواته من فتح الإسكندريّة، وعقدت معاهدة ثانية كانت أهمّ شروطها عقد هدنة مدّتها أحـد عشر شهراً تنتهي أواخر سنة 21هـ. (641م) يخرج الرّوم في أثنائهـا بمتـاعهم وأمـوالهم بشرط ألا يتدخّل المسلون في شئون المسيحييّن.. يقول المؤلّف:

"وعلى الرّغم من اختلاف الآراء حول فتح مصر، أكان صلحاً أم عنوة ممّا أثار مـشكلة وجدلاً بين المؤرخين المسلمين ملأ الحديث عنها صفحات المصادر التّاريخيّـة.. فـالواقع أنّ المصريين قد عوملوا على أساس أنّ بلادهم قد فتحت صلحاً، وهو ما يعني أن تتـرك الأرض لهم في مقابل ضريبة الخراج، وكان ذلك بتوجيه من الخليفة العظيم عمر بـن الخطّـاب كمـا يقول البلاذري صاحب كتاب "فتوح البلدان".[2]

كما يذكر المؤلّف أنّ البيزنطيّين قد حالوا في عهد الإمبراطـور قنـسطانز الثـاني أن يستردّوا مصر من العرب سنة 25 هـ (645م)، والتقى بهم عمرو بن العـاص عنـد بلـدة نقيوس القديمة، ودارت معركة رهيبة هُزم فيها البيزنطيّون، وبهذه المعركة تخلّت مصر عـن تبعيتها للدولة البيزنطيّة إلى الأبد وانضوت تحت راية الإسلام...

---

[1] - انظر: المرجع السابق نفسه، هامش الصفحة 18.

[2] - المرجع السابق ، ص 19- 20- 21.

ويشير المؤلف إلى أنّ جرجي زيدان قد نسج مادة روايته "أرمانوسة المصريّة" من خيوط أحداث الفتح، والفترة التي أعقبته بأسلوبه الرّوائي المعروف، وفي تصوّر المؤلّف أنّ رواية "أرمانوسة المصريّة" تفتقر إلى أهمّ مقوماتها كرواية تاريخيّة، وهي السّمة التّاريخيّة، فقد تخلّى زيدان كثيراً عن الحقيقة التاريخية التي وضع نفسه رهن أغلالها حين اختار لنفسه مجال الرواية التاريخيّة، ولكي تكون الصورة أقرب إلى الكمال، فقد ساق المؤلّف نصّاً مقتبساً من كتاب "فتوح مصر وأخبارها" للمؤرّخ المصري عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (187- 257هـ) الذي يمثّل الثقافة المصريّة في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وفي هذا القرن كان للتدوين التّاريخي نصيبه من التقدم والازدهار... ومن الواضح كما يشير المؤلّف أن ابن عبد الحكم قد اعتمد على جانب كبير من الرّوايات الشفوية التي تروي وقائع الفتح وأحداثه وقد تأثّر المؤرّخ بأسلوب القصص التاريخي الذي تغلب عليه سمة الأدب أكثر من خاصيّة التّاريخ.[1]

ويذكرنا رأي المؤلف د. قاسم عبده قاسم السابق برواية "أرمانوسة المصرية" برأي النّاقد عبد اللطيف أرناؤوط بهذه الرواية، والذي قدّمناه فيما سبق، وهو أنّ شخصيّات الكاتب جرجي زيدان في روايته هذه أكثرها مبتدع لا جود تاريخي له، ويذكّرنا أيضاً برأي الأستاذ عمر الدسوقي بروايات جرجي زيدان، فهو يعيب على الأديب جرجي تبديله حقائق التاريخ الإسلامي، وأن قصصه هي تاريخ لم يحافظ فيه على الحقائق.

ويقدّم لنا المؤلف قاسم عبده قاسم نصّ المؤرّخ ابن عبد الحكم، ويشير في الهامش إلى رقم الصفحتين ص 95، ص104، وهنا نلاحظ دقة المؤلّف حيث يذكر لنا المصدر التّاريخي موثّقاً، كما يذكر ما جاء في رواية جرجي زيدان "أرمانوسة المصريّة" ثم يترك لنا الاستنتاج. ثم الحكم على ما كتبه جرجي زيدان.

<u>ثانياً:</u> أرمانوسة المصرية- جرجي زيدان:

1- الرّؤية:

يشير المؤلّف د.قاسم عبده قاسم إلى أنّ جرجي زيدان كاتبٌ رائدٌ قدّم عطاءً روائياً صوّر من خلاله تاريخ الإسلام. وروايته "أرمانوسة المصريّة" استمّد مادّتها من وقائع الفتح الإسلامي لمصر، كما يذكر المؤلّف قول لجرجي زيدان كان قد أشار إليه في مقدّمة روايته "الحجاج بن يوسف" وفيه يذكر فيه جرجي تصوّره لمهمّة الرّواية التاريخية بقوله:

[1] - انظر: المرجع السابق الصفحات: 22- 23- 24- 25- 26.

"وأمّا نحن فالعمدة في روايتنا على التّاريخ، وإنّما نأتي بحوادث الرّواية تشويقاً للمطالعين، فنبقي الحوادث التّاريخيّة على حالها وندمج من خلالها قصّة غرامية تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها، فيصبح الاعتماد على مايجيء في هذه الرّوايات من حوادث التّاريخ مثل الاعتماد على أيّ كتاب من كتب التّاريخ من حيث الزمان والمكان والأشخاص إلا ما تقتضيه من التوسّع في الوصف مما لا تأثير له على الحقيقة بل هو يزيدها بياناً ووضوحاً بما يتخلّله من وصف العادات والأخلاق"[1]

وبرأي الدكتور عبده قاسم إنّ هذه المقدّمة تكشف عن رؤية جرجي زيدان للرّواية بوصفها فنّاً وللتّاريخ بوصفه علماً، كما تشفّ عن وضع جرجي زيدان التّاريخ في المرتبة الأولى ثم يأتي دور الرّواية...

كما يشير الدكتور عبده قاسم إلى أقوال جرجي زيدان التي أخذها من مجلّة الهلال، ويشير في هامش كتابه إلى عدد الهلال ورقم الصفحة، ومنها قول جرجي زيدان إنّ المهمّة التي انتدب "الهلال" نفسه للقيام بها، هي تعميم العلم بين النّاس على اختلاف مداركهم، وتفاوت معارفهم، كما أنّه يصدر في رؤيته للتّاريخ عن حسّ تعليمي، فهو يرى أنّ النّاس قلّما يميلون إلى مطالعة التّاريخ مجرّداً عن الفكاهة، وهذا لا يشي كما يشير الدكتور قاسم عبده باهتزاز رؤية جرجي وتذبذبها، فهو يسلّم بأن الهدف التعليمي الذي يصدر عنه جرجي يطالبه بتبسيط الأحداث، والفارق كبير كما يقول المؤلّف عبده بين "التبسيط" والتلفيق".. كما يشير المؤلّف عبده إلى أنّ العامل الدّيني كان الدّافع الرئيسي وراء سهام النقد التي وجهّت إلى مضمون روايات جرجي التاريخيّة، فالنقد الأدبي التّاريخي انصبّ أساساً على النّص أي أنّ التقويم النقدي تناول المادّة التّاريخية، ولم يمسّ الرّواية من حيث عناصرها الفنيّة.

كما إنّ النّاقد المعاصر حرص على أن يتحقّق من التزام جرجي زيدان بأمانة التّاريخ، ولم يحفل كثيراً بالعناصر الفنيّة للعمل الرّوائي، كما يرى هذا النّاقد أنّ نزعة جرجي نحو التعليم كانت من العوامل التي حدّدت من رؤيته وحالت دون تدفّق الحدث وتسلسله، فكثيراً ما كان يستطرد إلى بث معلوماته ونصائحه ممّا يشّوه العمل الفنّي لانحرافه نحو الهدف التعليمي المباشر، وبرأي الدكتور قاسم عبده إنّ المتأمّل في الخلفيّة التاريخيّة لملامح العصر، ولدور الشخصيّات التّاريخية يدرك مدى تجنّي جرجي زيدان على الحقيقة التّاريخيّة وطمسه للجوانب المضيئة في الشخصية التاريخية.[2]

---

[1] - المرجع السابق: ص 35

[2] - انظر: المرجع السّابق، ص 36- 37- 38- 39- 40

2- البناء الفنّي:

يشير المؤلّف الدكتور قاسم عبده إلى نقطة مهمة وهي "الوعي التّاريخي" وهي تكشف عن أصالة الرّوائي وموقفه من الشخصيّة التاريخيّة في العمل الرّوائي، ووعيه بأحداث العصر السياسيّة والاجتماعيّة، أي مدى وعيه بإيقاع العصر ونبضه، وهذه الزاوية من الرؤية تتطلب من الرّوائي قدرة على التخيّل، وإحساس عميق بعصر مضى. ويقف النّاقد الدكتور أمام شخصيتين تاريخيّتين في رواية "أرمانوسة المصريّة"، وهما شخصيّة (عمرو بن العاص وعبادة بن الصامت) اللتان ترمزان إلى فكرة نبيلة هي فكرة الجهاد التي تعطي معنىً للعمل الرّوائي "أرمانوسة المصريّة"، ولكنّ النّاقد يقول إنّه في ريب من وعي جرجي زيدان بهذه الفكرة، فالنّص الرّوائي يشفّ عن فكرة الجهاد ولا يجسّدها في مواقف حيّة، وإنّ استقراء النّص التّاريخي عن الفتح الإسلامي لمصر، يثير في ذهن القارئ المتذوّق للرواية تداعيات تكشف عمّا اعتور خيال الرّوائي من ضيق، إذ ينقل عن المقريزي وصفه لشخصيّة عمرو ابن العاص مكتفياً بهذ الشذرة من المعلومات، ويفعل الشيء ذاته كما يقول الناقد الدكتور في تصويره لشخصية عبادة بن الصامت، إذ ينقل عن المقريزي مغفلاً المؤرخ ابن عبد الحكم، ويشير الناقد إلى أرقام الصفحات في رواية "أرمانوسة المصرية" في هامش الصفحة 42 من كتابه لنكتشف بأنفسنا الصورة الشّاحبة الباهتة لشخصيّة عمرو بن العاص وكذلك عبادة بن الصامت كما رسمها جرجي. كما يشير النّاقد الدكتور في هامش الصفحة 42 ذاتها إلى ملاحظة أكّدها أيضاً النقاد المعاصرون، وهي أنّ جرجي لم يكن يجيد التعامل مع المصادر التّاريخيّة، فهو في روايته "أرمانوسة المصرية"، يغفل مؤرّخاً أقرب -زمنياً- إلى المرحلة التي تصوّر الرّواية أحداثها، فهو يعتمد على ابن خلدون في مواضع ينبغي الاعتماد على سواه من المؤرخين في هذا الموضع بالّذات، كما أنّ جرجي لم يستثمر منهج ابن عبد الحكم الذي عالج أحداث الفتح بأسلوب القصص التّاريخي.[1]

ويتابع النّاقد نقده لروايات جرجي زيدان التّاريخية، فيقول: إن شخصياتها غير محدّدة الملامح والسّلوك أو وجهة النّظر، لذلك فالقارئ لرواية "أرمانوسة المصريّة" لا يتعاطف مع أيّ شخصيّة من شخصّياتها، والروائي -برأي النّاقد- يجب أن يحيا مع شخصيّاته، لذلك يجب أن تتوفّر له القدرة على تخيّل وتصوّر أبعاد الشخصيّة ذاتها، وهذا لم يلمحه لدى جرجي زيدان الذي هو نفسه قال: إنّه كان يقيم بناء رواياته دون تصميم يسبق تنفيذ العمل الفنّي فقد ذكر أنّ ما ينشره من رواياته من الهلال إنّما هو ابن يومه.... وبهذا يكشف جرجي عن أسلوبه في التشكيل الجمالي لبناء الرواية، فهو لا يضع تصميماً أو إطاراً للرّواية قبل أن

[1] - انظر: كتاب الرواية التّاريخيّة في الأدب العربي الحديث" الصفحات41- 42.

يشرع في التفاصيل، وإنما تتواكب أحداث الرواية مع "المساحة" المحددة لها في مجلّة "الهلال"، والبناء الرّوائي في رواية أرمانوسة المصرية -كما يشير الناقد- لم يكشف عن تجسيد معنى الجهاد في سبيل الله ونشر الدين الإسلامي أو الاستشهاد، وأيّد الناقد كلامه بحديث للعقاد يبيّن فيه أبعاد عملية الإبداع الرّوائي، ذلك أنّ الروائي حين يبتدع الشخصيّة الرّوائية يستمدّ من خياله المبدع ما يعطي المادّة الرّوائية "معنى" ووحدة فنيّة تكسبها مضموناً... والرّوائي كما يوضّح النّاقد يجب أن يؤكد – فنيّاً- على سمة أصلية من سمات الإنسان وهي "الوعي" المستمد من عطاء التجربة البشرية، وحين يفلح الرّوائي في تصوير أبعاد هذا الوعي إنّما يؤكد أنّ الإنسان صانع تاريخه، و ليست مهمة الروائي أن يدرس شخوصه درس العالم المتفقه، بل عليه أن يخلق الشخوص ويحيا حياتها من الداخل ويجيئنا بها لنراها كما نرى الأحياء ونأخذ أخبارها من أقوالها وأفعالها، وما هكذا فعل جرجي زيدان كما يقول الناقد سواء في "أرمانوسة المصريّة" أو غيرها من آثاره الرّوائية.[1]

وهكذا نرى أنّ النّاقد قاسم عبده كان موضوعيّاً في نقده روايات جرجي زيدان التّاريخيّة، فقد أشار إلى مواطن الخلل والضعف فيها مستنداً في نقده إلى المصادر التاريخيّة الموثوقة، حتّى لا يكون في نقده متجنّياً أو متحاملاً على الأديب جرجي، فهو على الرغم من إشادته بما كتب جرجي إلا أنّ عينه اليقظة، وحسّه النقدي جعلاه لا يغفل عن سلبيات روايته "أرمانوسة المصريّة" أو آثاره التاريخيّة الأخرى، وهذا هو النقد الذي نحتاجه، أن ننقد بصدق وموضوعية إنتاج الأديب بغض النّظر عمّن يكون الأديب، وبذلك نلاحظ الفرق الواضح بين نقد الدكتور قاسم عبده ونقد شوقي أبو خليل في كتابه "جرجي زيدان في الميزان" الذي أشرنا إليه سابقاً.

القسم الثّاني:

مصر في مواجهة العدوان الصليبي

حملة لويس التاسع وهزيمته في المنصورة:

أولاً: الخلفيّة التاريخية لرواية "اليوم الموعود" لنجيب كيلاني:

في كلير مونت بجنوب فرنسا، وفي السّابع والعشرين من شهر نوفمبر، سنة 1095، دعا البابا أوريان الثاني إلى شنّ حرب مقدّسة لتحرير "الأخوة" المسيحيّين في الشّرق من السيّطرة الإسلامية، وقد استجابت أوربا الغربيّة سريعاً لهذه الدعوة، وأدّى ذلك إلى "الحروب

[1] - المرجع السابق، الصفحات من 44 حتى 48.

الصليبيّة"، وسقوط مدينة بيت المقدس بأيدي الصليّبيين في 15 يوليو سنة 1099... وكانت نهاية العدوان الصليبي حين سقطت عكا، آخر المعاقل الصليبية، في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاون سنة 1291. وفيما بين البداية والنّهاية لعبت مصر دوراً رائداً في الصراع ضد الصليبيين، وبدأ عماد الدين زنكي يحاول توحيد الجبهة الإسلاميّة ضد الخطر الصليبي.. وفي عهد نور الدين محمود استمّر الصّراع بين المسلمين والصليبيين حول مصر الذي انتهى بسقوط الخلافة الفاطمية، وقيام الدولة الأيوبية في مصر بزعامة صلاح الدّين.. واستولى الصّالح نجم الدين أيّوب على بيت المقدس سنة 642 هـ (1244م)، ويروي أحد المؤرّخين المعاصرين، وهو جوانفيل الذي كتب عن الحملة الصليبيّة بوصفه شاهد عيان باعتباره واحداً من ضباطها، أنّ الملك لويس التاسع ملك فرنسا عُيّن قائداً للحملة الصليّبية في مجمع ليون سنة 1245، وفي 20 صفر سنة 647 هـ (4 يونيو 1249) نزلت قوّات لويس التاسع إلى الشواطئ المصريّة، وسقطت دمياط بأيدي الصّليبيين دون قتال، لكن القوّات المصريّة أخذت تتوافد على مدينة دمياط المكوّنة من كتائب الجيش الأيّوبي النظامية المكوّنة أساساً من المماليك وفرسان العرب والمتطوّعين لحثّ الناس على الجهاد، وأخفت شجرة الدرّ نبأ موت زوجها السلطان الصالح نجم الدين أيّوب، وفي داخل أسوار مدينة المنصورة أعدّ الأمير المملوكي بيبرس البند قدراي خطة ماكرة للقاء الصليبيين، وسقطت القوات الصليبية بأيدي المصرين، وبعد أقلّ من نصف قرن من عدوان لويس التاسع على مصر تمكّن الأشرف خليل ابن قلاون من طرد بقايا الصليبيين من بلاد الشّام سنة 1291.[1]

كانت أحداث الحملة الصليبيّة المعروفة بالحملة السّابعة هي المادّة التي نسج منها الرّوائي نجيب الكيلاني صفحات روايته "اليوم الموعود" كما يذكر الدكتور قاسم عبده، وبرأيه إنّ الكيلاني قد أحسن صنعاً حين ركّز على دور الشّعب المصريّ في مقاومة العدوان الصّليبي على بلاده، وربما يكون قد أراد- بتصويره لشخصية توران شاه- أن يوضح حقيقة العلاقة بين الحاكم والرعيّة في ذلك العصر.[2]

وقد اختار الدكتور قاسم عبده نصاً من كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمؤرخ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت 845هـ /1442م) رغم تأخر هذا الكتاب زمنياً عن الحدث التاريخي -كما يقول الدكتور عبده- ويرجع ذلك إلى حقيقة أنّه يعوض النقص الكمّي في المراجع العربيّة المعاصرة لهذا الحدث التّاريخيّ وهي: مفرّج الكروب لابن واصل، ومرآة

---

[1] انظر: المرجع السّابق نفسه، الصفحات من 51 حتى 58.

[2] المرجع السابق، ص 58.

الزمان في تاريخ الأعيان لسبط بن الجوزي، والذيل عل الروضتين لأبي شامة، فقد حفظ لنا كتاب المقريزي معلومات وفيرة منقولة من أصول مفقودة أو مجهولة.

ويورد لنا الدكتور عبده النص في كتابه بدقة وأمانة، فقد أشار في هامش الصفحة 59 إلى كتاب المقريزي، "السلوك لمعرفة دول الملوك"، الجزء الأول (ط2، ص 342، ص256)[1]

ثانياً: "اليوم الموعود" لنجيب كيلاني:

1- الرّؤية:

يذكر النّاقد الدكتور قاسم عبده لنا ما قاله نجيب الكيلاني في الكلمة التي قدّم بها لروايته تحت عنوان "أضواء على القصّة"، حيث ذكر فيها الرّوائي أنّه لن يحيد عن الحقيقة أو الأمانة التّاريخيّة، إذا ما لجأ إلى الشخصيات الموضوعة إلى جانب الشخصيّات الحقيقيّة التي ورد ذكرها في بطون الأسفار، وقد ارتبط بناء الرّواية بهذه النظرة أو الموقف.. ويحدّد نجيب الكيلاني كما يقول النّاقد عبده مفهومه عن الرّواية التاريخية، من خلال مفهومه عن التاريخ بوصفه علماً، والرّواية بوصفها فنّاً، وعندما يتلاقى الفنّ والعلم في عمل أدبي فإنّ هذا يستلزم درجة من رهافة الحسّ، والوعي بما يأخذ الرّوائي وما يدع حتى لا يطغى العلم- التاريخ- على الفنّ- الرّواية- وهذا ما حاول نجيب الكيلاني أن يتحاشاه.[2]

ويذكر النّاقد قول نجيب الكيلاني الذي يوضّح فيه مفهومه عن الرّواية التّاريخيّة:

"من هنا كانت القصة التاريخية عملاً أدبيّاً ثرياً يحتاج لمزيد من الدقة والبراعة، لأنّ التّاريخ يمدّها بالوقائع الثّابتة.. ولهذا فإن المزيج الناتج من خلط الوقائع التاريخية بالقواعد القصصيّة مزيج يحتاج إلى يقظة الصيدلي ودقته وإلاّ تحوّلت القصة إلى كتاب تاريخ، أو على النقيض من ذلك أعني تشويه الحقائق التاريخية والعبث بها"[3]

2- البناء الفنّي:

يكشف لنا الكاتب نجيب الكيلاني عن طريقته في تناول المادة التاريخية وبناء الرّواية فيقول: "ولا شكّ أنّ أحسن توزيع للأحداث التّاريخيّة، واستنباط آثارها يكون أقرب إلى النجاح

---

1 - المرجع السابق نفسه، ص59.

2 - المرجع السابق، ص67- 68- 69.

3 - انظر:المرجع السابق، ص70.

إذا ما حاول الكاتب أن يربط أشخاص القصّة بالأحداث، ويحاول أيضاً أن يلجأ إلى التنوّع في سرده التّاريخي، كأن يدسّ في الحوار الجاري بين الأشخاص بعض الحقائق أو يدع الأشخاص أو الأحداث نفسها تعبّر عن التّاريخ وترسم صورة صادقة له بطريقة غير مباشرة". وقد عبّر نجيب الكيلاني -كما يقول الدكتور عبده- عن موقفه من شخصيّات الرّواية بقوله: "إنّ الفنّ انفعال وتعبير، فالذاتيّة فيه هي الأساس، لكنّ الذاتية بغير الموضوعيّة وخصوصاً في القصص التاريخي لا تكفي...."[1]

وإذا قارنّا هذه الرؤية للروائي نجيب الكيلاني بموقف جرجي زيدان من المادّة التّاريخيّة ندرك الفرق، فالروائي نجيب الكيلاني حرص في روايته "اليوم الموعود" على ربط الحدث التّاريخي بقيمة لصيقة بالإسلام، أمّا جرجي زيدان فالنّص الرّوائي عنده يشفّ عن فكرة الجهاد ولا يجسّدها في مواقف حيّة كما رأينا سابقاً في روايته "أرمانوسة المصرية"، "كما أنّ ضمور الحسّ التّاريخي عند زيدان جعله يغفل عن "استحضار" أحداث العصر بكلّ ما تمور به من ملابسات اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة، وتطعيمها في نسج البناء الرّوائي وتوظيفها لخدمة هذا البناء، وإغفال ما يكمن وراء الأحداث من مغزى إنسانيّ يُعد تجاهلاً لواقع هذه الأحداث"[2]

وأيضاً رأينا سابقاً ما اعتور خيال جرجي من ضيق إذا اكتفى بالقليل من المعلومات، نقلها عن المقريزي في وصفه لشخصيّة عمرو بن العاص وعبادة بن الصامت، أمّا نجيب الكيلاني في روايته المذكورة سابقاً كان يحاول إمداد القارئ بمعلومات عن الوجود النفسي والوظيفي للشخصية (الإنسان من الداخل) لذلك استخدم أسلوب "مناجاة النفس"، والمتأملّ في روايته "اليوم الموعود" كما يذكر النّاقد الدكتور قاسم عبده، يجد أنه ذكر فيها شخصيّة موضوعة هي شخصية عدنان بن المنذر وهي بمثابة نموذج يجسّد فيه آلام شعب وآماله، وروحه، وكفاحه، ضد الطغيان الداخلي والعدوان الخارجي، (فالمنذر هو الشعب وعدنان هو ابن الشّعب).. والروائي الكيلاني حريص على أن يبرز دور الكفاح الشعبيّ، كما ينوّع تصويره لعالم الشخصية لإبراز تفاعلها مع البيئة الخارجية، فينتقل من تصويرها من الداخل إلى تصوير البيئة الخارجية من خلال انطباع الشخصية حتى يزيد ارتباطها بالبيئة، ودفعها إلى الذّود عنها....

كما أنّ من آيات الصّدق الفني لديه أنّ عمله الرّوائي برأ من الاعتماد على التصوير الآحادي البعد، فالشخصية عنده ليست خيّرة خيراً مطلقاً، أو شريرة تماماً.. والرواية لم تبرأ

---

[1] - المرجع السّابق نفسه، ص 71.

[2] المرجع السابق، ص 42

من النبّرة الخطابيّة الحماسيّة كما يقول الناقد، ومن ثمّ أوشكت أن تفقد العمل الرّوائي عنصر الصّدق في مواضع عديدة من الرّواية، ويبقى تمجيدها لصاحب الفضل في النصر وهو "الشّعب".[1]

القسم الثالث:

هزيمة التتر في عين جالوت بين التّاريخ والرّواية:

أولاً: الخلفيّة التّاريخية لرواية " وإسلاماه" لعلي أحمد باكثير:

امتدّت إمبراطورية جنكير خان من بحر قزوين حتّى شواطئ الصّين.. كان أول صدام بين القبائل التتريّة وبين العالم الإسلامي في سنة 616 هـ (1218م)، وقبل أن يموت جنكيز خان سنة 625 هـ (1228م) كان قد قسّم إمبراطوريته الشاسعة بين أبنائه الأربعة، ثمّ قضى التتر على بلاد السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه، فأرسل الخليفة العبّاسي المستنصر بالله يستنجد بملوك بني أيّوب في مصر، فبعث إليه السلطان الكامل مساعدة مالية كبيرة، وعشرة آلاف رجل لمساعدته، وكان الهجوم التتري الأول على بغداد سنة 635 هـ، لكن التتر هُزموا هزيمة شنعاء، ثم أرسل التتر حملة عسكرية بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان إلى الغرب لتحقيق هدفين هما: القضاء على طائفة الإسماعيلية، وتدمير الخلافة العباسيّة في بغداد، وتمكّن هولاكو من تدمير طائفة الإسماعيلية... وفي سنة 656 هـ (1258م) أمر هولاكو بالهجوم العامّ على بغداد، وسلّم الخليفة العباسيّ نفسه وعاصمته دون شروط، ثم قُتل الخليفة وولداه، ونهب التتر بغداد بوحشية، ثمّ وصل زحف التتر حتّى وصل إلى مشارف الشّام حيث كان أمراء الأيوبيّين غارقين في حروبهم الدّاخلية.. وفي مصر كانت دولة سلاطين المماليك وكان المعزّ أيبك قد قتل، ثمّ تبعته زوجته شجرة الدرّ وتولّى الحكم طفل صغير هو الملك المنصور علي بن المعزّ أيبك بمساعدة قطز نائب السلطنة...[2]

وفي هذه الفترة عادت المماليك البحريّة لكي تشارك في الحرب ضدّ التتر، وفي سنة 658 هـ(1260م) اجتاحت جحافل التتر بلاد الشام، وتقدّمت حتّى غزّة ثمّ وّصلت رسل التتر تحمل إنذاراً وتهديداً للسلطان قطز الذي رفض قبول تهديدات هولاكو، وقتل رسله الأربعة، وعلّق رؤوسهم على باب زويلة وهو من أبواب القاهرة، وسارت الجيوش المصريّة والمتطوّعون من عامّة المصريين لصدّ الهجوم التتريّ، وانتصر المصريّون على التتر.

---

[1] - انظر: المرجع السابق، ص 72، 73، 75، 76.

[2] - المرجع السابق، الصفحات من 79 حتى 82.

وقد كانت هذه الأحداث التاريخيّة -كما يقول الناقد الدكتور قاسم عبده- هي الأساس الذي بنى عليه الرّوائي علي أحمد باكثير روايته الشهيرة "وإسلاماه".. ولكنّ الحوادث التاريخية كلّها و-أحداث الرّواية أيضاً – تدور حول شخصيّة قطز الذي يبدو وكأنّه يحرّك التاريخ من حوله.. وعلى الرّغم من أنّ عنوان الرّواية المثير يوحي بحركة جهاد إسلامية عامّة، ولكنّ باكثير قد نسي -كما يشير النّاقد- في غمرة اهتمامه ببطل رواياته أن يعطي لمن ساهموا في صنع نصر "عين جالوت" حقّهم، وكاد يهمل دور الشعب المصريّ وجموع المتطوّعين والمجاهدين، كما أنّه أهمل شخصيّة بيبرس البند قداري الذي يُعتبر المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك.

ويذكر النّاقد أنّه اختار نصّاً تاريخيّاً يعالج بعض أحداث هذه الفترة الهامّة من تاريخ مصر والعالم الإسلامي...، ويتناول هذا النص رسالة التهديد التي أرسلها هولاكو وردّ الفعل من جانب دولة سلاطين المماليك البحريّة، كما يوضح تخاذل أمراء المماليك في الخروج إلى القتال، كما يكشف النّص عن إخلاص بعض أفراد هذه الطائفة وحماستهم للدّفاع عن الإسلام، ومنهم قطز وبيبرس وكانت نتيجة انتصار الجيوش المصريّة في عين جالوت أن توطّد حكم المماليك البحرية بعد سقوط الخلافة العباسيّة.... وفي العام التالي لهذا الانتصار، أعاد السلطان الظاهر بيبرس إحياء الخلافة العباسيّة في القاهرة.

ويشير النّاقد إلى المصدر الذي أخذ منه النص وهو كتاب "السلوك" للمقرّي ج1، ص 427، ص 432.[1]

ثانياً: وإسلاماه لعلي أحمد باكثير:

1- الرّؤية:

موضوع الرّواية -كما يذكر النّاقد- يستمدّ مادّته الأساسية من الحدث التّاريخي "معركة عين جالوت والتي كسر المسلمون فيها شوكة التتار.. وقد أشار الرّوائي علي أحمد باكثير إلى موضوع روايته في مقدّمته..، وإذا كان الحسّ التّاريخي عند نجيب الكيلاني كما يوضّح النّاقد، قد أكّد على دور الكفاح الشعبيّ في صدّ الموجات الصليبية، فإنّ علي أحمد باكثير قد انطلق في تصوّر نظريّ يؤمن بدور الفرد في التاريخ، الفرد بوصفه المحرّك في دفع الأحداث، وقد بدت هذه الرؤية النظريّة في طبيعة البناء الفني لرواية "وإسلاماه" فجاء معتمداً

[1] - انظر: كتاب "الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث"، من ص 82 حتّى ص 85.

على شخصيّة محوريّة، هي شخصية البطل "قطز"، وقد بدت صورة البطـــل محاطـــة بهالـــة نورانية تستمد نورها من حرارة الفكرة الإسلامية عن "الجهاد الديني"[(1)]

2- البناء الفنّي:

يذكر النّاقد أنّ نسج البناء الروائي في رواية "واإسلاماه" يعتمد علـــى قالـــب أو شـــكل السّيرة الشعبيّة، من حيث توفّرها على رسم إرهاصات ظهور البطل...، وهذه الرّوايـــة تقـــدّم إجابة روائية للنبوءة التي اعتمد عليها الرّوائي في تصويره لميلاد البطل، وانتصاره المـــؤزّر على التتار، والرّوائي استخدم النبوءة في إطار إسلامي.[(2)]

تقول النبوءة على لسان الرّوائي في الرّواية:

"كان جلال الدين كأغلب ملوك عصره مولعاً باستطلاع النجوم، فهو يستشير المنجمـــين كلّما همّ بأمر عظيم. فلّما أراد المسير لقتال التتار بعث إلى منجمه الخاص فحضر عنده، فأمر بالنّظر في طالعه، فقال له المنجم: "إنك يا مولاي ستهزم التتار ويهزمونك، وسيولد فـــي أهـــل بيتك غلام يكون ملكاً عظيماً على بلاد عظيمة، ويهزم التتار هزيمة ساحقة"[(3)]

ويقوم بناء الرّواية كما يذكر النّاقد على شخصيّتين هما جهاد ابنة السلطان جلال الـــدين ابن خوارزم شاه وابن شقيقته محمود بن ممدود ...، وقد استخدم الرّوائـــي أداة فنيّـــة وهـــي "الرّؤيا" يطرح من خلالها رسالة البطل ودوره في التغيير الاجتماعي والسيّاسي.. كمـــا قـــدّم شخصية كان لها دور بارز في الجهاد ضد المغول، والصليبيين، وهي شخـــصية "بيبـــرس"... ويبدو أنّ الأديب باكثير ممّن يمجّدون البطولة الفردية المطلقة –كما يقول النّاقد- وظهر ذلـــك في تعاطفه مع شخصيّة "قطز" وقد وُفّق الرّوائي في تصويره لهموم البطل الرّوحيّـــة بعـــد أن افتقد رفيقة عمره وكفاحه، زوجته جلنار.[(4)]

يقول الرّوائي في تصويره مشاعر البطل قطز وحزنه على زوجته:

"وأضجعها السّلطان على فراشه وجعل يقبّل جبينها والدّموع تنهمر من عينيه وهو يقول لها: "وازوجاه.. واحبيبتاه" وأحسّت به ورفعت طرفها إليه، وقالت له بصوت ضعيف متقطـــع وهي تجود بروحها في السياق: "لا تقل واحبيبتاه.. قل واإسلاماه!" وما لبثت أن لفظت الـــرّوح بين يديه حين حضرت الجاريتان الحبشيتان مرتاعتين وخلفهما الطبيب، فطبع السلطان علـــى

---

[1] - انظر: المرجع السّابق نفسه، ص 91، ص 92.

[2] - المرجع السابق، ص 92، ص 93، ص 94.

[3] - باكثير، علي أحمد: واإسلاماه، دار مصر للطباعة ، (ب. ط) ، (ب. ت)، ص9.

[4] - انظر: كتاب "الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث"، الصفحات من 95 حتّى 103.

جبينها القبلة الأخيرة، ومسح دموعه ونهض تاركاً زوجته الشهيدة للطبيب والجاريتين يتولّــون تجهيزها، وخرج من المخيم وامتطى جواداً طار به إلى ساحة القتال"[1]

ومن الشخصيات الثّابتة في الرّواية شخصية عزّ الدّين عبد الــسلام وجــاء دوره فــي الرّواية رمزاً لنقاء الدّعوة الإسلاميّة.

يقول الناقد قاسم عبده في نهاية دراسته لرواية و"إسلاماه":

"ومهما يكن من ملاحظات حول رواية "واإسلاماه"، فالقارئ يشعر بعد أن يفــرغ مــن قراءة الرّواية بنجاح الرّوائي في إحياء عصر مضى، تميّز بمواكبة دعامتي النّــصر: جهــاد المسلمين لمقاومة الغزو الصليبي، والمغولي ممثّلاً في الأبطال المغــاوير قطــز و بيبــرس. واجتهاد علماء الدّين ممثلاً في حجّة الإسلام الشيخ عزّ الدّين بن عبد السلام.[2]

القسم الرّابع:

سقوط دولة سلاطين المماليك بين التاريخ والرّواية.

أولاً: الخلفيّة التّاريخيّة لرواية "على باب زويلة":

شهد النّصف الأخير من عصر سلاطين المماليك في مصر تدهوراً في شــتّى نــواحي الحياة المصريّة أدّى إلى نهاية هذه الدّولة. وأهمّ ملامح العصر الذي تتناولــه روايــة ســعيد العريان "على باب زويلة" هي تخبّط السّلطان في سياسته الماليّــة والــضريبيّة، والمجاعــات والأوبئة التي توالت على مصر، وتدهور حالة الأمن.. وتدور أحداث الرّواية حول شخــصية بعينها هي شخصيّة طومانباي، وصراعه ضدّ العثمانيين الذين ظهروا في المنطقة في النّصف الأوّل من القرن الرّابع عشر.. وتصاعدت التوترات بين الدولة العثمانيّــة وســلطنة المماليــك حتّى انتهت بمعركة مرج دابق في أغسطس سنة 1516 وهُــزم جــيش الــسلطان الغــوري، وتوغّل العثمانيون جنوباً واستولوا على المدن السورية كلها، وحاول السلطان طومانباي الدّفاع عن البلاد ضد العثمانيين لكنّ المماليك انهاروا أمام العثمانيين، فقد كانت خزائن الدولة خاويــة والجيش متشرذم متخاذل، والموارد مستهلكة.

يتناول النّص الذي أورده الناقد قاسم عبده معركة الرّيدانيّة بمقدّماتها ونتائجهــا، ونهــب العثمانيين لسكان القاهرة ومظاهر المقاومة التي قادها الــسلطان طومانبــاي والتــي انتهــت

---

[1] - باكثير، علي أحمد: واإسلاماه، دار مصر للطباعة، (ب. ط) ، (ب. ت)، ص 187.

[2] -كتاب "الرّواية التاريخية في الأدب العربي الحديث"، ص 104.

بمصرعه، وتخاذل أمراء المماليك وهروبهم من القتال. والنّاقد كان حريصاً على الدّقة والأمانة التّاريخيّة فقد أشار إلى المصدر الذي أخذ منه النّص في هامش الصفحة 112 من كتابه كما يلي: ابن أياس، بدائع الزّهور، جـ5، ص 14، ص 177.[1]

ثانياً: على "باب زويلة" لمحمد سعيد العريان:

1- الرؤية:

مدلول التاريخ عند سعيد العريان -كما يشير النّاقد- هو التّاريخ الاجتماعي الذي يصوّر فئات المجتمع، بحيث يستحيل فهم الشخصيّة الإنسانيّة بكلّ ما فيها من تفرّد وخصوصيّة بمعزل عن عصرها وبيئتها، والكاتب لا يقف عند حدود الأعلام بل يمتّد ليحتضن الشخصية العاديّة، وعنده أنّ الحادثة ليست شيئاً في التاريخ إلا إذا كان معها ناسها، فهي بهم، تاريخ وهم بها.

2- البناء الفنّي:

يذكر النّاقد أنّ الرّوائي محمد سعيد العريان في بناء الرّواية بدا مواكباً لحياة شخصياتها، فمن الشخصيّات المتطوّرة التي يصوّرها شخصية طومانباي فهو فارس لا يغالب.. والرّوائي يقوم أحياناً بترصيع الرّواية بأبيات من الشعر يجريها على لسان شخصيّاته.. ومن شخصياته الثابتة، شخصية الصوفيّ أبي الحسن الجارحي، واللغة في هذه الرّواية اعتمدت على التصوير والابتعاد عن التقرير، وأحياناً يقوم الرّوائي بتطعيم السّرد القصصي بكلمات شائعة في العاميّة وهي فصيحة مثل "زيطة" و "عطعطة"[2]. كقوله في روايته:

"لقد انبثّ مماليك السلطان ومماليك الأمراء جميعاً في الأسواق يكبسون الدّور، وينهبون المتاجر، ويحطّمون الأبواب، ويخطفون العمائم، ويهتكون الحرمات، ولهم في الطريق عطعطة وزياط وضجة..."[3].

في نهاية كتاب النّاقد قاسم عبده "الرّواية التّاريخيّة في الأدب العربيّ الحديث" يخصّص الصفحات من 155 حتّى 203 لذكر بعض الملاحق، ومنها النّص الكامل لرسالة رفيق العظم إلى منشئ الهلال، ويشير النّاقد قاسم عبده إلى عدد الهلال الذي نشر فيها هذا المقال، ويذكر ذلك في هامش الصفحة 155.

---

1 - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 107 حتّى 112.

2 - انظر: المرجع السابق نفسه، ص 123- 124- 125- 138- 148- 149- 150.

3 - العريان، محمد سعيد: على باب زويلة، دار المعارف، مصر، ط3 ، 1957، ص 78.

وفي هذا المقال يقول رفيق العظم للأديب جرجي زيدان:

"وممّا لا ريب فيه أنّ حضرتكم ممّن اشتهروا بفنّ التاريخ.. فإذا أضفنا هذا إلى علمكم بما يجب على المؤرّخ من هذا القبيل، لما وسعنا إلا الاستغراب من التزامكم تدوين التاريخ الإسلامي في قالب قصصي مهما بالغتم فيه بتتبّع الحقائق وتمحيص الأخبار، لا يمكنكم إلا مزج الحقيقة بالوهم، فكانت سلسلة تأريخكم هذه عرضة لانتقاد المنتقدين واعتراض المعترضين"[1]

وفي آخر المقال ينصح رفيق العظم جرجي زيدان بوضع تاريخ جامع للإسلام فذلك برأيه أنفع للقرّاء وللوطن فيقول له: "فالأنفع للوطن والأمة اشتغالكم بوضع تاريخ جامع للإسلام على نمط التواريخ الجديدة"[2]

ويرّد جرجي زيدان على مقال رفيق العظم مبيناً سبب اختيار هذه الطريقة في نشر التّاريخ الإسلامي فيقول: "ولكنّ الناس قلّما يميلون إلى مطالعة التّاريخ مجرّداً عن الفكاهة إلا فئة قليلة من طلاّب العلم. فلو ألّفنا تاريخاً لدول الإسلام لما رجونا أن ينتفع به إلا القليلون، لأن العامّة مع رغبتهم الشديدة في مطالعة التّاريخ والقصص، قلّما ترى فيهم من يصبر على قراءة تاريخ ضخم من أوّله إلى آخره ولا يملّ"[3]

ومن الملاحق التي أثبتها الدكتور قاسم عبده في آخر كتابه ما كتبه أتربي أبو العزّ كما يشير في هامش كتابه إلى المرجع الذي أخذ منه الملحق، فيذكر في هامش الصفحة 160 من كتابه ما يلي: الموسوعات / 23 يونيو 1899، صفحة 102 وفي هذا المقال يكتب أتربي أبو العزّ إلى "الهلال" مشيراً إلى أنّ رواية "فتاة غسّان" من خيرة الرّوايات لما فيها من صدق الرّواية ودّقة البحث، لكنّه يذكر بعض الأخطاء التي وردت فيها... كما يأخذ في نهاية مقاله على جرجي زيدان اعتماده على المؤرخ "ابن الأثير" الذي لم يشتهر إلا بكتابه تاريخ الإسلام من ابتداء القرن الثّاني للهجرة، أمّا القرن الأول فقد اقتصر فيه على نقل ما رواه أسلافه فلم يدقّق البحث كعادته، أمّا من جهة ابن خلدون فإنه لم يشتهر كما يشير أتربي أبو العزّ إلاّ بكتابه عن بلاد المغرب والأندلس، كما يعجب هذا القارئ من اعتماد الهلال ابن خلدون في النقل بعد ما قاله هذا المؤرخ في ترجمة حياته من أنّ تاريخه مملوء بالخطأ وبذلك قلّما يعتمد عليه.[4]

[1] - انظر: كتاب "الرّواية التاريخية في الأدب العربي الحديث"، الملحق، ص 155.

[2] - المرجع السابق، الملحق، ص156.

[3] - المرجع السّابق نفسه، الملحق ص 157.

[4] - انظر: المرجع السابق، الملحق، الصفحات من 161 حتّى ص167.

وبعد مقال أتربي أبي العزّ يورد الدكتور قاسم عبده مقالاً، ويشير في هـامش الـصفحة 168 من الملحق إلى المرجع الذي أخذه منه فيكتب: الفجر، 17 يناير 1926 وصاحب المقـال هو محمد طاهر راشد، وعنوان المقال هو: "ألكسندر ديماس وجورجي زيـدان" وفيـه يـذكر صاحب المقال أنّ ديماس كان يجعل التاريخ نصب عينيه قبل فكرة الرّواية التي لم يتخذها إلاّ لمجرّد سرد الحادثة التّاريخيّة، فينسى في أحيان كثيرة أنّه روائي يقصّ القصص ويلبس بـرود المؤرّخ وتورّط في كلا الأمرين حقّ التاريخ وحقّ الرّواية، وأتى بها قصة مضطربة متفككة.. ثم يشير صاحب المقال إلى أنّ زيدان أراد أن يقتفي أثر دوماس الكاتب الفرنسي ولكنّه برأيـه أخفق إخفاقاً شنيعاً، وأنهّ أراد - أي زيدان- أن ينشئ مجلّـة فطـالع وأحـاط بأشـتات مـن المعلومات التّاريخيّة العلميّة اللائقة بمجلّة، وأنّه نقل كلّ ما وجده من آراء الغربيّين والشرقيين في كتبه دون أن تكون روحه متشبعة بالموضوع الذي يكتب فيه، فكانت مؤلّفاته مرقّعة مختلفة وأفكاره مبعثرة.

ثم يذكر صاحب المقال لنا ما قاله المازني عن زيدان، بأنّه لو كان ذا أناة لما اسـتطاع أن يخرج لقرّائه هذا العدد الكبير من الكتب والرّوايات، وأنّ ولتر سكوت كان سريعاً، وكانـت كتابة بعض رواياته لا تستغرق أكثر من أسبوعين، ولكنه كان ذا سليقة، أما زيدان فلـيس لـه سليقة، لذلك لا يشرح لنا شخصيّات أبطاله فعل كبار الرّوائيين كما يقول المازني.

ويتابع صاحب المقال فيشير إلى إعجابه بكلمة المازنيّ، وأنّـه رأى فيهـا كثيـراً مـن الصّواب، كما يرى أنّ روايات زيدان عن العصور العربيّة القديمة ليس فيها ما نـشعر معـه بأيّ شيء من روح العصر الذي تطالعنا حوادثه، ويسوق لنا مثلاً رواية "الانقلاب العثمـاني" وفيها كان وصف زيدان لا يخرج عن المشهور الذي تعرفه العامّة من النّاس، كـذلك يـصف حديقة يلديز "غيباً" فهو يتصوّرها كيف شاء كما يقول صاحب المقال، كما يحشر في روايتـه ألفاظاً تركيّة منفردة كواحة الصحراء... وفي نهاية المقال يذكر صاحب المقال أنّه ينكر علـى زيدان أن يكون مؤرّخاً أو روائياً، ويعترف له بفضل وهو أنّه صاحب مجلّة ناجح من الإحاطة بكثير من المعلومات المتفرّقة.[1]

وعلى الرّغم من أنّ ما ذكرناه سابقاً هو رأي شخصي لصاحب المقال إلا أنّنا لا نستطيع أن ننكر ما فيه من الصواب والدّقة وخاصةً أنّ صاحب المقال أيّد رأيه بما كتبه المازني عـن زيدان، والمازني كما يعرف الجميع أديب وناقد كبير لا يجوز إغفال رأيه، على أنّنا ننكر على صاحب المقال مقارنته جرجي زيدان بالكاتب ديماس لأنّ لكل كاتب ظروفه الشخصيّة، وبيئته

[1] انظر: المرجع السّابق، الملحق، الصفحات من 168 حتّى 173.

التي تميّزه وأفكاره وآراءه التي تميّزه عن غيره، وكذلك لا نوافقه في حكمه على جرجي زيدان في أنّه أخفق إخفاقاً شنيعاً عندما أراد أن يقتفي أثر ديماس، وأنّه سقط سقوطاً مخجلاً فصاحب المقال لم يكتف بإطلاق حكمه على جرجي، وإنّما أكّده بصفات مثل "شنيع، مخجل" وبرأيي إنّ أيّ كاتب مهما كان سيئاً لا يمكن أن يأتي بما يخجل أو يعيب، كما يجب ألاّ ننسى أننا ننقد ما كتبه أديب لديه مشاعر وأحاسيس مرهفة، فلا يمكن الحكم عليه كأي إنسان من عامّة الناس أو كمجرم ارتكب من الأمور الشنيعة ما يخجل، ثمّ هل يمكن لأحد أن ينكر كلّ ما كتبه جرجي زيدان في مجال التّاريخ العربي فيجعل مكانه سلّة المهملات، وأن نعدّه صاحب مجلّة ناجحاً فقط، وليس مؤرخاً أو روائياً، كما ذكر صاحب المقال السّابق!!؟

يبقى هذا الرأي رأياً شخصيّاً منفرداً ولابدّ من البحث عن الحقيقة في أماكن متعددة. ويورد الدكتور قاسم عبده مقالاً بعنوان "العصر والبيئة في الأدب والتاريخ" لكاتبه محمد سعيد العريان، ويشير في هامش الصفحة 174 إلى المرجع فيكتب: الثقافة، 23 ديسمبر 1941، ص7، وفي هذا المقال يذكر الكاتب أنّ من يحاول أن يدرس أديباً من الأدباء أو حادثة من التّاريخ فعليه أن يعرف العصر الذي نشأ فيه الأديب أو حدثت فيه الحادثة، ثمّ يتساءل عن معنى "العصر"، وعن معنى "التاريخ": أهو الحادثة أم هو الناس؟...

ثم يبيّن لنا أن التّاريخ عنده هو النّاس، ويدعو إلى أن تكون لنا عناية عامّة بالتعبير عن كلّ ما يحيط بنا من صور الحياة في هذا الجيل، وبتدوين تاريخ البارزين من أهله وحوادثهم وأيامهم، أعياناً وسوقة وأمراء وصعاليك.

ثم يتساءل الكاتب محمد سعيد العريان: "تُرى أكان القدماء أبصر منّا بالحقيقة الأدبية العالية، وأعمق غوراً في فهم الأدب والتاريخ حيث جمعوا في كتبهم من أخبار الصعاليك والشطّار والمجانين... أكان ذلك منهمّ للهو والترفيه والمراوحة بين الجدّ والهزل، أم كان ذلك عندهم علماً من العلم وتاريخاً من التاريخ وفنّاً من فنون الأدب؟

وحتّى لو كان القصد كلّ القصد منه إلى الهزل والترفيه لكان فنّاً حقيقاً بالتدوين، فكيف به وهو وسيلة من وسائل الحكم في التاريخ العام وفي أدب كلّ أديب وشعر كلّ شاعر"[(1)]

ومن الملاحق التي أوردها الدكتور قاسم عبده في كتابه مقالاً بعنوان "الرّوايات التّاريخية" لكاتبه علي أدهم، ويشير النّاقد الدكتور إلى مرجعه في هامش الصفحة 181 من كتابه وهو الثقافة: 18أكتوبر 1951، ص 6، وفي هذا المقال يذكر الكاتب أنّ الروايات التاريخيّة ليست تاريخاً خالصاً محقّقاً يوثق به، ولكنّها مع ذلك تستمد مادتها من التّاريخ...،

[1] -انظر: كتاب "الرّواية التاريخيّة في الأدب العربي الحديث"، الصفحات من 174 حتى 179.

والرّوايات التاريخية كان لها أثر محمود في ترويج التّاريخ وتقريب حوادثه إلى الأفهام، وأكثر النّاس يملّون قراءة كتب التّاريخ الجافّة المملوءة بالحوادث المملّة والأخبار المتشابهة، وقد لحظ ذلك في الشّرق كما يقول كاتب المقال المؤرخ المعروف جرجي زيدان، ويذكر أنّ أستاذ الكتّاب جميعاً في الأدب التّاريخي ورائدهم الأول هو الكاتب الأسكتلندي الكبير السّير ولتر سكوت الذي ولد في القرن الثّامن عشر ونشأ فيه، وكتابه عن عهد لويز الرابع عشر يعدّ من طرائف الكتابات التاريخية، وبرأي كاتب المقال علي أدهم إنّ كتّاب التاريخ في القرن الثامن عشر كان ينقصهم شيء مهمّ، وهو فهم نفسيّة العصور التي يصفونها، كما يُؤخذ عليهم نقص الحاسّة التاريخية الذي جعلهم يعتقدون أنّ الإنسان في كلّ العصور مثل إنسان القرن الثّامن عشر، أمّا سكوت فقد استطاع بخياله القويّ أن يعرض على قرّائه صوراً تاريخية نابضة بالحياة ملونة باللون المحلّي، حتى ساد الاعتقاد بأنّ التاريخ الذي يتعلمه النّاس من روايات السّير ولتر سكوت أصدق تصويراً، وأصحّ تحقيقاً، وأقوى أثراً من التّاريخ الذي تحتويه الكتب الجّافة المملّة التي يخرجها المؤرخون المتخصّصون بعد الإمعان في التحقيق والتحذلق في عرض الموضوع.(1)

كما يرى هذا الكاتب أنّ نقص العنصر الفنّي في كتابة التاريخ أدى إلى ظهور الرّواية التاريخية، ولكن بعد أن عاد هذا العنصر إلى كتابة التّاريخ على يّد أعلام المؤرخين في القرن التاسع عشر قلّ الإقبال على الروايات التاريخية، كما يذكر الكاتب أن الرّوائي المؤرخ تلزمه صفتان، عقلية تاريخيّة تستطيع أن تستخلص الصور من سجلاّت الماضي، وتكوّن الأفكار عن حقيقته، وقوة الخيال المبدع الذي يستطيع استحضار الأحاسيس والمشاعر التي ألّمت بنفوس أهل تلك العصور الغابرة.. والرّوايات التاريخيّة تستعين بالبحث التاريخي وقوّة الخيال، لكن هناك روايات تاريخية من نوع آخر يصحّ تسميتها روايات تاريخية معاصرة، وهي تصف العادات المعاصرة والمشكلات الرّاهنة وهي تكتسب أهميّة وقيمة تاريخية بمرور الزّمن، كما تمتاز الرّوايات التاريخية على الكتب التاريخية لأن التّاريخ معظمه يدور حول الحوادث البارزة الكبرى والشخصيات الممتازة، أمّا الرّوايات التاريخية فقد تتناول حياة "الرّجل الصغير" من غمار الشّعب التي قد يهملها التاريخ...، كما يشير الكاتب إلى أنّ المؤرخ الناقد تين عاب على السّير ولتر سكوت إسراعه في الإخراج وعدّ ذلك دليلاً على قلة تحرّيه للحقائق، وقد أفاد كتاب الرواية التّاريخية من نقد تين الشديد لروايات السّير ولتر سكوت، فتحرّوا الدّقة وبالغوا في الاستقصاء، فجاءت بعض طرفهم الأدبية آيات فنيّة عظيمة تجمع بين دقة البحث

---

[1] - انظر: المرجع السّابق نفسه، ص 181- 182- 183- 184.

وقوة الخيال وبراعة العرض، ويتجلى ذلك في روايات أمثال فلوبير الفرنسي وجوكوفسكي الرّوسي.[1]

نلاحظ في المقال السّابق أنّ الكاتب علي أدهم رغم أنه لم يفصّل كثيراً في عرض أفكاره، إلا أنه قدّم لنا مفاتيح كثيرة للولوج إلى أبواب عديدة تستحقّ الدّراسة والبحث، فقد بدأ مقاله بتعريف للرّواية التاريخيّة وأشار إلى رائدها في الغرب وفضله على الرّواية التّاريخيّة، وعرّفنا على نوع آخر من الرّوايات التّاريخية.

ومن الملاحق التي أثبتها الدكتور قاسم عبده في كتابه ملحق بعنوان "مشاهد من لقاء طومانباي بالسلطان سليم العثماني" أخذه من كتاب ابن زنبل "آخرة المماليك" ويشير في الهامش إلى المحقّق ورقم الصفحات. وفي نص ابن زنبل نقرأ حواراً بين السلطان العثماني سليم خان وبين السلطان طومانباي، ونعرض فيما يأتي مقطعاً منه:

"فقال له السلطان سليم: والله ما كان قصدي أذيّتك ونويت الرّجوع من حلب ولو أطعتني من الأوّل وجعلت السكّة والخطبة باسمي ما جئت لك ولا دست أرضك.

فقال له طومانباي: الأنفس التي تربّت في العزّ لا تقبل الذّل، وهل سمعت أنّ الأسد يخضع للذئب؟ لا أنتم أفرس منّا، ولا أشجع منّا وليس في عسكرك من يقايسني في حومة الميدان، ونحن قوم قد خصّنا الله سبحانه وتعالى بذلك"[2]

وفي آخر كتاب "الرّواية التّاريخيّة في الأدب العربيّ الحديث" يورد الدكتور قاسم عبده ذكراً بعنوان "صلب السلطان طومانباي على باب زويلة" وفيه حديث عن وصول السلطان طومانباي إلى باب زويلة، وصلبه، وكيف غسله القاضي وكفّنه من ثياب أرسلها له السّلطان سليم، وكيف أمر السلطان سليم بضرب عنق الأمير شاربك الأعور، بعد أن كتب له خاير بك والغزالي ورقة يحثّون فيها السلطان سليم على الإسراع في صلب طومانباي، وذلك لأنهما خشيا أن يتّحد السلطان سليم مع طومانباي فيقضي بذلك عليهما، فعند ذلك أمر السلطان سليم بصلب طومانباي.[3]

ثمّ نقرأ ذكراً بعنوان "صفة السّلطان طومانباي، رحمة الله تعالى عليه". وفيه أنّ الجميع كان متّفقاً على أن السلطان طومانباي كان مقداماً خبيراً بالحرب، لا يخطر له الموت على بال، وكان ديّناً صالحاً، زائد الأدب والخشوع والوقار، ملازماً لزيارة المشايخ، لم يشرب

---

1 - المرجع السّابق نفسه، ص186- 187- 188.

2 - المرجع السابق نفسه، ص 192.

3 - انظر المرجع السابق، ص 199- ص 200- ص 201

الخمر في حياته،.. وقد تقدّم في التاريخ أن السلطان سليماً ما هان عليه قتل طومانباي لمّا رآه وسمع كلامه ولم يخلّف السلطان طومانباي أولاداً لا ذكوراً ولا إناثاً، وأكثرت فيه الشعراء المراثي والقصائد وتوفيّ في يوم الأحد الخامس عشر من شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة.[1]

ومن المصادر التي يذكرها النّاقد الدكتور قاسم عبده والتي اعتمد عليها في كتابه المصادر والمراجع التّاريخية ومنها: "بدائع الزهور في وقائع الدّهور" لابن إياس، ت 930 هـ، و"المقدمة" لابن خلدون ت 808هـ و" وفيّات الأعيان" لابن خلكان. و"كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" لحاجي خليفة، ت (1067هـ)، و"السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي (ت 845هـ). ومن المصادر والمراجع الأدبية الأدبيّة والنقدية: روايات علي أحمد باكثير، وجرجي زيدان، ومحمد سعيد العريان، ونجيب الكيلاني، ومقدّمات روايات جرجي زيدان.

ومن المراجع العربيّة: "ساعات بين الكتب" لعبّاس محمود العقاد، و"جرجي زيدان" لمحمد عبد الغني حسن، و "القصة في الأدب العربيّ الحديث": لمحمد يوسف نجم...

ومن المراجع المترجمة "دراسات في حضارة الإسلام" للمؤلف جب "هاملتون"، ترجمة د. إحسان عبّاس، و"فكرة التاريخ" لكولنجوود.

ومن الدّوريات: الأدب، والثقافة، والفجر، والمؤيّد، والموسوعات، والهلال.

وهناك المراجع الإفرنجية وعددها ثمانية.

[1] انظر المرجع السابق، ص 201، 202، 203.

خاتمة الفصل الأول :

من النتائج التي توصّلنا إليها في الفصل الثاني من هذا البحث، وبعد عرضنا لآراء الناقد شوقي أبي خليل فيما كتبه الأديب جرجي زيدان من كتب وروايات تاريخية تناول فيها التاريخ العربي الإسلامي، هي أنّ هذا الناقد كان متحاملاً وبشدّة على الأديب جرجي زيدان، فقد اتهمه بتشويه تاريخنا العربّي وإفساده في محاولة مقصودة منه، وقد بدا لنا أنّ الناقد شوقي أبا خليل لم ينقد فقط ما كتبه الأديب جرجي في مجال التاريخ الإسلامي، وإنمّا نقد شخصه، ودخل في تفاصيل حياته، فحاسبه على انتسابه إلى الماسونية في فترة من فترات حياته، واتهمه مرة بالصليبية، ومرة أخرى اتهمه بالشعوبية، وكلّ ذلك دون أن يكون للناقد دليل أو برهان على أقواله، وهو في كلّ اتهاماته للأديب جرجي يحاول أن يثبت هذه التّهم من خلال روايات هذا الأديب فقط، وهنا لا بد لنا أن نتساءل: هل كلّ ما كتبه الأديب جرجي من كتب وروايات تاريخية لا قيمة له، ولا يوجد فيه إيجابية واحدة؟

ربّما يكون الناقد شوقي أبو خليل محقّاً في أنّ الأديب جرجي زيدان قد اعتمد على الخيال في رواياته التاريخية، وأنّه بدّل في حقائق التاريخ العربي حتى يدخل عامل التشويق، ولكن كلّ من يقرأ ما كتبه هذا الناقد عن الأديب جرجي ورواياته التاريخية، يدرك أنّه بالغ في اتهامه وتحامله على الأديب جرجي.

إذاً لا بد لنا من إعادة النظر فيما كتبه الأديب جرجي زيدان في التاريخ العربي، ولاسيّما وأنّ هناك من النقاد والباحثين العرب الذين أشادوا بما كتب الأديب جرجي، وعّدوه خالق الرواية التاريخية العربية، ومنهم من رأى فيه أول من خاض بحر الأدب العربي واستخرج درره، ومنهم من وقف موقفاً محايداً داعياً إلى الوقوف بعقلانية وتأملّ من مختلف الآراء حول كتابات جرجي زيدان التاريخية، وهذا برأي ما يجب فعله حتى نصل إلى نتيجة صحيحة منطقية.

ولابد من الإشارة إلى رأي الناقد الدكتور عبد المحسن طه بدر فيما كتبه الأديب جرجي زيدان من روايات تاريخية، فهذا الناقد يرى أنّ الأديب جرجي لا يتجه في روايته إلى إحياء ماضينا القومي، وبعثه، وإنما يهدف إلى تعليم التاريخ، ويعلل هذا الناقد سب اهتمام الأديب جرجي بتعليم التاريخ بقوله:

"يرجع سبب اهتمام جرجي زيدان بتعليم التاريخ إلى ظروف ترتبط بالبيئة من ناحية، وبجرجي زيدان من ناحية أخرى، فقد سبق أن أشرنا في التمهيد إلى اهتمام المثقفين منذ عصر إسماعيل بالتعرف على التاريخ العربي القديم، وحاول تحقيق هدفه بنشر التراث

التاريخي العربي من ناحية، وترجمة كتب المستشرقين الذين كتبوا عن التاريخ العربي من ناحية أخرى.

أمّا الثاني منهما فيرمي إلى التعرّف على تاريخها، وكانت وسيلتهم لذلك تقتصر على الترجمة وحدها.

وأراد جرجي تحقيق هذه الأهداف فاتجه إلى دراسة التاريخ العربي الإسلامي معتمداً على المراجع العربية وعلى ما كتبه المستشرقون، وقدم في هذا الميدان مجموعة من المؤلفات ما زالت حتى الآن من المراجع الهامة التي يرجع إليها الباحثون."[1]

إنّ رأي الناقد السابق فيما كتبه عن روايات جرجي زيدان التاريخية، يبيّن لنا أنّ الأديب جرجي كان حريصاً على جعل رواياته مرجعاً تاريخياً وهذا الرأي مخالف تماماً لرأي الناقد شوقي أبو خليل الذي أشرنا إليه سابقاً.

أمّا النّاقد عبد اللطيف الأرناؤوط في كتابه "معروف الأرناؤوط رائد الرواية التاريخية في بلاد الشام 1892-1948"، والذي كتب فيه عن الرواية التاريخية بين جرجي زيدان ومعروف الأرناؤوط، فقط بدا لنا أنّ هذا الناقد رغم إشارته إلى ريادة الكاتبين في كتابة الرواية التاريخية، أنّه كان يفضّل ما كتبه الأديب معروف الأرناؤوط الذي عدّه ملتزماً أكثر من الأديب جرجي بحقائق التاريخ العربي.

أمّا كتاب "الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث" للدكتور عبده قاسم عبده ، فقد تبّين لنا أنّ ما جاء فيه لا يتناسب مع عنوان الكتاب، فقد تضمّن هذا الكتاب الحديث عن الروايات التي كُتبت عن مصر، ونضال أبنائها في مواجهة العدوان الذي تعّرضوا له، ونحن نرى أنّه يوجد في الأدب العربي الحديث ما يستحقّ أن يشار إليه من روايات كُتبت حول نضال شعبنا السوري والجزائري ضد المحتل كروايات الأديب السوري فارس زرزور وسلامة عبيد وغيرهما من الرّوائيين العرب.

[1] - بدر، عبد المحسن طه: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (1870- 1938)، دار المعارف، القاهرة ، 1963، ص 92.

الفصل الثاني:

الأحداث التاريخية الحقيقيّة والأحداث المتخيلة في الرواية التاريخية

مقدمة:

إنّ أهمّ ما في الرّواية التّاريخية برأيي هو الأحداث الحقيقية التي تتناولها هذه الرّواية، فهذه الأحداث هي التي تقدّم لنا صورة حقيقية عن الماضي الذي قد لا نعرف عنه شيئاً، كما أنّ الرّواية التّاريخية التي تتناول الشخصيّات بنوعيها الحقيقية والمتخيلة، تغنينا بالكثير من التفصيلات عن شخصيّات تاريخية مشهورة سمعنا عنها ولكنّنا لا نعرف إلا القليل عنها.

سوف نتناول في هذا الفصل أبرز الكتب التي تناولت الرواية التّاريخية ، ومن هذه الكتب كتاب "الرواية التّاريخية" لجورج لوكاتش، الذي يتحدّث الكاتب فيه عن الظروف الاجتماعية التاريخية لنشوء الرواية التاريخية، كما يتحدّث عن تطوّر الرواية الروسية، ويشير إلى مسألة مهمة، وهي مسألة "الصدق التاريخي".

وتناولنا في هذا الفصل أيضاً رواية "ابنة الآمر" للكاتب الرّوسيّ الشهير بوشكين، الذي أرّخ فيها لحدث تاريخيّ حقيقيّ، وهو التمرّد التاريخي الذي قام به بوغاتشوف ورجاله ما بين عامي (1774- 1775) ضدّ القوات القيصرية .

أمّا رواية "الحرب والسلم" للكاتب الرّوسي ليف تولستوي (1828- 1910) ، وهي من الرّوايات الرّوسيّة الشامخة التي صدرت في القرن التاسع عشر، فقد تناولنا كتبها الأربعة، وأشرنا إلى الأحداث التاريخية الحقيقية فها، وكذلك الشخصيات التاريخية الحقيقة.

ثم انتقلنا لنتحدث عن الروايات التّاريخية العربيّة، وبدأنا برواية "الهيام في فتوح الشام" للكاتب سليم البستاني ، والتي تعدّ من الرّوايات التاريخية الأولى في الأدب العربيّ.

وتناولنا روايات فرح أنطون التاريخية، وأشهرها رواياته "أورشليم الجديدة أو فتح العرب لبيت المقدس" التي كتبها عام 1904، وتتناول زحف العرب إلى بلاد الشام حين ظهور الإسلام، وحصارهم لمدينة القدس وإقامة المسجد الأقصى فيها.

وختمنا الفصل الثالث بأشهر الرّوايات التاريخية السوريّة التي أرخّت لمرحلة تاريخية مهمّة من تاريخ النضال العربي ضد المستعمر الفرنسي، وهي فترة النّصف الأول من القرن

العشرين، ومن هذه الروايات: "لن تسقط المدينة" و "حسن جبل" و "والأشقياء والسادة" للكاتـــب فارس زرزور، ورواية "أبو صابر" لسلامة عبيد.

بدايات ظهور الرواية التاريخية الروسية:

"الرّواية هي مؤلف ملحمي يتركّز القصّ فيه على مصير فرد في سياق تكوّنه وتطوّره في الزّمان والمكان الأدبيين. وهي كما يقول بيلينسكي(1811- 1848): (تصوير لمشاعر البشر وأحاسيسهم وأهوائهم وحياتهم الشخصيّة والدّاخلية) كما أنها ترسم الحياتين الفرديّة والاجتماعيّة بصفتهما وسطاً مستقلاً نسبيّاً، وحيث لا تعمل إحدى الحياتين على استنفاد الأخرى أو ابتلاعها. وهنا بالذّات، تكمن الخصوصيّة الملموسة لمضمونها. فتاريخ المصير الفردي الذي يعدّ هذه الاستقلاليّة مشروطة به بالذّات إنمّا تكتسب مغزى عامّاً وجوهريّاً. فضلاً عن هذا يجسّد التواصل بين البطل الرّوائي والمثل والغايات الجماعيّة. الشعبيّة والقوميّة والمجتمعيّة، اللّحظة النّهائية أي الذّروة في تطوّر وعيه الذّاتي، وإنّ محاولة تصوير نتائج هذه الذّروة الفعّالة والمحوريّة إنمّا يؤدّي إلى تحوّلات جوهريّة في الطبيعة الثريّة للرّواية وتركيبها سواءً بسواء."[1]

يقول باختين(1895- 1975) عن الموضوع ذاته:

"إن موضوع تعارض البطل مع مصيره ووضعه هو، بالذّات، الذي يشكّل واحداً من مواضيع الرّواية، الدّاخلية الأساسيّة، فالإنسان إمّا هو أكبر من قدره أو هو أدنى من روحه المحبّة للبشر".[2]

إنّ تاريخ الرّواية مشروط بمصير الفرد الفعليّ من حيث تحقيقه للاستقلاليّة وكيف وأيّة استقلاليّة، وهو مرتبط بدرجة أكبر بالاهتمامات الإيديولوجيّة والفنيّة السّائدة، وبتلك الأفكار الفنيّة التي تخصّ الزّمن وقبل كلّ شيء "أفكار الفرد" (بيلينسكي).

يرى البعض أنّ الرواية حتى لا يمكنها من حيث المبدأ، أن تكون لها صيغة حياتيّة مكتملة لأنها (ملحمة زمننا) أي ملحمة الحاضر نظراً لأنّ المهمّ بالنّسبة إليها هو (الصلة) بالواقع (غير الجاهز) والذي يعاني من حالة التكوّن، والرّواية لا تتحمّل الترتيب والتنظيم وليست لها قوانين ففي بداية تاريخها كانت تحاكي أسلوب الأجناس الأقدم، بعدها صارت تقتبس محاولات الرّوائيين على اختلافهم.[3]

---

[1] الملا، زياد: الرواية عبر التّاريخ، جريدة الأسبوع الأدبيّ، العدد 1107، 14/ 6/ 2008 ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص 8.

[2] - المرجع السابق، ص 8

[3] - المرجع السابق، ص 8

وفي نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين ظهرت روايات جون غولسورسي وهنري مان وتوماس مان (1875- 1955) وجاك لندن، الواقعيّة بآفاق جديدة في مجال حــلّ الصّراع بين الفرد والمجتمع.

وظهرت الرّواية الرّوسيّة في النّصف الثّاني من القرن الثامن عــشر، ومنهــا: أعمــال نيقولاي كارامزين وميخائيل تشولخوف وألكسندر اسماعيلوف وفاسيلي ناريجني. ثم صـــدرت رواية بوشكين (1799- 1837) (يفغيني أنيغين) (1823- 1838)التي تركت بصماتها، لاحقاً على ليرمنتــوف (1814- 1841) وغونتــشاروف وتورغينيــف (1818- 1883) بعــد أن صوّروا اللوحة الأكثر بروزاً للحياة الرّوسية في القرن التاسع عشر ألا وهي تنــافر (الإنــسان الزّائد) مع المجتمع أو تعارضه الكامل معه.

كان ليف تولستوي هو أوّل من أعاد بناء (دياليكتيــك الــرّوح) وهــي عمليّــة تلقائيّــة سيكولوجيّة ذاتيّة الحركة. وللعلم اكتست حياة الفرد الدّاخلية في رواياته قيمــة ذاتيّــة هائلــة. فضلاً عن هذا أسهم السّرد في تقوية السّمة الملحميّة نظراً لأنّ (ديالكتيك الرّوح) قــد تــشرّب بالإبداع الملحميّ من الموتيفات العميقة والخصوصيّات الأساسيّة التي جعلــت الفــرد ممــثلاً للمجتمع ككلّ وليس لوسط معيّن بل حتّى للأمّة أو البشريّة بأسرها.(1)

تابعت الرّواية تطوّرها الصّاعد في عشرينّيات وثلاثينيّات القرن العشرين، فــي أعمــال مارتين ديوغار وريتشارد أولد ينفتون وألبرتومورافيا وفرنسيس فيتزجيرالد وآرنست همنغواي (1899- 1961) وكاريل تشابيك، وبعد الحرب العالمية الثانية: تشارلز سنو وغراهام غــرين وجون شتاينبيك وغيرهم. وبلغ الفنّ الرّوائي عمقاً كبيراً وكمالاً مميّزاً في أعمال توماس مــان ووليم فوكنر كما قدّم غابرييل غارسيا ماركيز (الرّواية الملحميّة "مئة عام من العزلة ") التــي أسهمت إسهاماً جوهريّاً في تطوّر هذا الجنس الأدبيّ.(2)

تُعدّ الرّواية التّاريخيّة من أهم أنواع الرّواية لأنّها تصوّر لنا التّــاريخ، وتخبرنــا عــن الأحداث التي وقعت في الماضي، الماضي الذي لا يمكن للإنسان أن يستغني عنه، أو يرميــه وراء ظهره، فالماضي هو السّلاح الذي نواجه به الحاضر، ومَنْ لا ماضي له لا حاضر لــه، فالماضي هو تاريخ الحاضر، وكلّ حاضر سيصبح تاريخاً، ومن هنا تــأتي أهميّــة الرّوايــة التّاريخيّة، فهي إحدى أدوات تصوير التّاريخ وتزداد أهميّتها لأنها تخبرنا بصدق وبالتفــصيل عن الأحداث التي وقعت فعلاً في الماضي...

---

[1] - المرجع السابق، ص 8-9.

[2] المرجع السابق، ص 9

لذلك يمكننا تشبيه الرّواية التّاريخيّة بطائر ينقل لنا رسائل من الماضي، ويحطّ بها على شجرة الحاضر، وكما أنّ الطائر لا يمكنه الطيران بدون جناحين، والطّيران هو ميزة الطّائر الأساسيّة، كذلك فإنّ الرّواية التّاريخيّة لا يمكنها أن تؤدّي وظيفتها الأساسيّة -وهي نقل أخبار التّاريخ الماضي- بدون جناحيها، وهذان الجناحان هما التّاريخ والأدب، إنّها تقدّم لنا التّاريخ الصادق والحقيقي ولكن بطريقة أدبيّة رائعة، فهي لا تفرض علينا هذا التّاريخ، معتمدة التلقين كما يفعل الطائر عندما يضع الطّعام في أفواه صغاره، بل إنّها تقدّم لنا التّاريخ مزيّناً بصور أدبية رائعة، وقصص غرامية مسلية، وحكم وأمثال وعِبر مفيدة، أي إنّها تقدّم لنا ذلك التّاريخ على طبق من فضّة يُسر النّاظر إليه، ممّا يجعلنا نستسيغ ذلك التّاريخ الماضي، ونقبل عليه بشهيّة ولهفة.

"الرّواية التّاريخيّة" للكاتب جورج لوكاتش :

ولعلّ أهمّ ما كتبه جورج لوكاتش (1885- 1971) هو كتابه "الرّواية التّاريخيّة" الذي وضعه ما بين عامي 1936- 1937، وسوف نتناول هذا الكتاب بشيء من التفصيل.

يذكر المترجم د. صالح جواد الكاظم في المقدّمة التي كتبها عن هذا الكتاب أنّ الاهتمام بالتّاريخ يزداد، بوصفه خلفيّة الحاضر أو "تاريخ الحاضر"، وتسهم الرّواية بصدق وتفصيل في استجلاء ما حدث في التّاريخ، ويثير المترجم جملة من التساؤلات تدفعنا لتناول كتاب جورج لوكاتش " الرّواية التّاريخيّة" بكثير من التأمّل كما يقول المترجم نفسه، وهذه التساؤلات هي: ما هو التّاريخ؟ ومن أين يبدأ؟ وما هي القوى التي تشارك في صنعه؟ وكيف تصنعه؟ والأهمّ -كما يشير المترجم- ماذا يريد الرّوائي بعمله التّاريخي؟ وأيّة أهداف يخدم؟ وبتساؤل أدقّ: كيف يستطيع أن يخدم أهداف الحاضر عبر تمثّل الماضي؟ وأخيراً أيُراد بالرّواية التّاريخيّة أن تكون مهرباً من الحاضر إلى الماضي؟ أو أن تقلب الحاضر إلى الماضي؟

ويبيّن لنا المترجم جواد الكاظم الهدف الذي من أجله وضع لوكاتش كتابه هذا، فيذكر أنّ لوكاتش قد أوضح في المقدّمة التي تتصدّر ترجمة الكتاب الإنجليزيّة عام 1960م، أنّ هدفه ليس معالجة مسألة أدبيّة تاريخيّة صرفة، أيّ تطوّر الرواية التّاريخيّة.(1)

ويتابع المترجم فيذكر في مقدّمته أنّ ما دار في ذهن لوكاتش هو تقديم "دراسة نظريّة للتّفاعل بين الرّوح التأريخيّة والأنواع الأدبيّة الكبيرة التي تصوّر كلّية التّاريخ".

[1] - انظر: لوكاتش، جورج: الرّواية التاريخية، ترجمة: د. صالح جواد الكاظم، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقيّة، 1978، ص 7، ص8.

وبرغم أنه لا يتعقّب تطوّرا تاريخيّاً بمعنى الكلمة الضيّق، فهو يبرز الخطوط الرئيسية في التطوّر التّاريخي وما أثارته من مسائل.

يقول المترجم جواد الكاظم معلّلاً اختيار لوكاتش لأمثلته، وتناوله كتّاباً تاريخيّن أقلّ شأناً:

"وكما سيرى القارئ يتقحّم لوكاتش أعماق الأمثلة التي يسوقها من الرّوايات التّاريخيّة، ولا يكلّ عن عقد مقارنات بينها، وبالرّغم أنّ كتّاباً روائيين تاريخيّن كباراً من أمثال وولتر سكوت، و بلزاك (1799- 1850) و تولستوي (1828- 1910)، وتوماس مان (1875-1955)، يحظون بالقدر الأكبر من اهتمامه، إلا أنّه غالباً ما يتناول كتّاباً أقلّ شأناً. ورائده في ذلك أن يحدّد الاتجاهات النّمطيّة في تطوّر الرّواية التّاريخيّة وما أسفرت عنه.

وأخيراً، إنّ ما أعطاه جورج لوكاتش الذي وُلد عام 1885 ومات عام 1971، كثير، فهو مؤلّف "معنى الواقعيّة المعاصرة" و "التّاريخ والوعي الطبقي" و "نظريّة الرّواية" و "غوته وعصره" و"كتابات سياسيّة" وعشرات من البحوث في حقول شتّى، ولربمّا كانت "الرّواية التّاريخيّة" من بين أروع ما كتب"[1]

في الفصل الأوّل من كتاب "الرّواية التّاريخيّة" وعنوانه "شكل الرّواية التّاريخيّة الكلاسيكيّ" يتحدّث الكاتب جورج لوكاتش أولاً: عن الظّروف الاجتماعيّة والتّاريخيّة لنشوء الرّواية التّاريخيّة:

فيذكر أنّ الرّواية التّاريخيّة نشأت في مطلع القرن التاسع عشر، وذلك زمن انهيار نابليون تقريباً، إذ ظهرت رواية سكوت "ويفرلي" عام 1814، وطبيعي كما يذكر الكاتب أنّه يمكن العثور على روايات ذات موضوعات تاريخيّة في القرنين السّابع عشر والثّامن عشر أيضاً، ويستطيع المرء أن يعدّ الأعمال القروسطيّة المعدّة عن التّاريخ الكلاسيكيّ أو الأساطير "أسلافاً" أو مقدّمات للرّواية التّاريخيّة، وهي في الحقيقة، تعود إلى ماضٍ أبعد حتى تبلغ الصّين أو الهند. إلا أنّ المرء – كما يوضح لوكاتش- لن يعثر هنا على أيّ شيء يلقي ضوءاً حقيقيّاً على ظاهرة الرّواية التّاريخيّة. وليست روايات القرن السابع عشر المسمّاة بالتّاريخيّة، (سكوديري- كالبرانيديه... الخ) هي بتاريخيّة إلا فيما يتعلّق بالاختيار الخارجي الصرف للموضوع والأزياء، ففي أشهر "رواية تاريخيّة" من روايات القرن الثامن عشر، وهي رواية "قلعة أوترانتو" للكاتب "والبول" تجري معاملة التّاريخ وكأنّه مجرّد أزياء.[2]

---

[1] - المرجع السابق، ص 9.

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 11، ص 12.

ويشير لوكاتش إلى مسألة مهمّة، وهي مسألة الصّدق التّاريخي في الرّواية التّاريخيّة، فيقول:

"وما يفتقد في ما يُسمّى بالرّواية التّاريخيّة قبل السّير (وولتر سكوت) هو بالضبط ما هو تاريخي على وجه التّخصيص، أي اشتقاق الشخصيّة الفرديّة للشّخوص من خصوصيّة عصرهم التّاريخيّة.

وقد أصرّ النّاقد الكبير بوالو، الذي قيّم روايات معاصريه التّاريخيّة بكثير من الشكّ، على مجرد أن يكون الشخوص حقيقيّين اجتماعيّاً ونفسيّاً، مطالباً بأن يتغزّل حاكم على نحو يختلف عن مغازلة راعٍ من الرّعاة. وهلّم جرا... ولا تزال مسألة الصدق التّاريخي في الانعكاس الفنّي للواقع بعيدة عن الوضوح"[1]

ويتابع لوكاتش فيقول: إنّ هذا التجريد في تصوير الزّمان التّاريخي يؤثّر أيضاً في تصوير المكان التّاريخي. وهكذا يستطيع ليساج أن ينقل صورة بالغة الصّدق عن فرنسا في عصره إلى أسبانيا.. وعلى المرء عند تحليله ما قبل تاريخ الرّواية التّاريخيّة أن يقطع صلته بالأسطورة الرّومانتيكيّة- الرجعيّة التي تنكر على الحركة التنويريّة أيّ حسّ أو فهم للتّأريخ وتنسب اكتشاف الحسّ التّاريخي إلى خصوم الثّورة الفرنسيّة: بيرك ودي ميستر، ويضيف لوكاتش أنّ ما يهمّنا هو أن نبلور على نحو محدّد الصّفة الخاصة لهذا الحسّ بالتّاريخ قبل الثّورة الفرنسيّة وبعدها، لنرى بوضوح ماهيّة الأساس الاجتماعي والأيديولوجي الذي كانت الرّواية التّاريخيّة قادرة على الظهور منه...، والمنظّر الاقتصادي المهيمن فعلاً في أواخر القرن الثّامن عشر هو آدم سميث أمّا جيمس ستيوارت الذي عرض مشكلة الاقتصاد الرأسمالي بصورة أكثر تاريخيّة، والذي استقصى العمليّة التي يتكون بها رأس المال، فسرعان ما طواه النّسيان ، وقد ميّز ماركس (1818- 1883) الفرق بين هذين الاقتصاديين البارزين، كما يوضّح لوكاتش أنّ هذا الجهل بأهميّة الحسّ التّاريخي الماثل فعلاً في الممارسة، أي بإمكان تعميم خصوصيّة الحاضر المباشر التّاريخيّة التي رُصدت غريزيّاً رصداً صائباً يُميز الموقع الذي تحتلّه الرّواية الاجتماعيّة العظيمة الإنكليزيّة في تطوّر معضلتنا، فقد لفتت هذه الرّواية انتباه الكتّاب إلى الأهميّة الملموسة (أي التّاريخيّة) للزّمان والمكان، إلى الظّروف الاجتماعيّة وغيرها، وخلقت وسائل التعبيّر الواقعيّة والأدبيّة لتصوير هذا الطّابع الزّمكاني (أي التّاريخي)

[1] - المرجع السابق، ص 12.

للنّاس والظّروف، وإنّ معضلة عكس العصور الماضية فنيّاً لم تبرز معضلة رئيسية في الأدب إلا في أثناء المرحلة الأخيرة من الحركة التنويرية، وهذه تقع في ألمانيا.(1)

إلاّ أنّ معضلة الهيمنة الفنيّة على التّاريخ كما يشير لوكاتش تظهر فعلاً معضلة واعيـــة، بعد ليسينغ بفترة وجيزة، في حركة "العاصفة والشدّة". ولاتدشن مسرحيّة غوتـــه "غوتزفـــون بيرليشينغن"، مجرّد ازدهار جديد في الدراما التّاريخيّة، بل تمارس أيضاً تأثيراً مباشراً وقويّـــاً في نشوء الرّواية التّاريخيّة في أعمال السّير وولتر سكوت، ويجد نمّو التأريخيّة الواعي هـــذا، الذي يلقي تعبيره النّظري الأوّل في كتابات هيردير جذوره في وضع ألمانيـــا الخـــاصّ فـــي التّباين بين تأخّر ألمانيا الاقتصادي والسيّاسي وإيديولوجيّة المنوّرين الألمـــان...، ومـــا جعـــل التّاريخ، ولأوّل مرّة تجربة جماهيريّة وعلى نطاق أوربيّ -كما يقول لوكاتش- هو قيام الثّورة الفرنسيّة، والحروب الثّوريّة، ونهوض وسقوط نابليون (1769- 1821)، فقد مرّت كلّ دولـــة أوربيّة بين عام 1789 وعام 1814 بجيشانات أكثر ممّا مرّت بها سابقاً في قرون.

وأخيراً يشير لوكاتش إلى أنّ توسّع الحرب الكميّ الهائل يلعب دروراً جديدا من النّاحيـــة النّوعيّة، فقد أصبحت أوربا الآن بأكملها منطقة حرب. فالفلاحون الفرنسيّون يقاتلون أولاً فـــي مصر، ثمّ في إيطاليا، ومرّة أخرى في روسيا، والقـــوّات الاحتياطيّـــة الألمانيّـــة. والإيطاليّـــة تشارك في الحملة الرّوسيّة، والقوّات الألمانيّة والرّوسيّة تحتلّ باريس بعـــد انـــدحار نـــابليون، وهلم جرا، وما كان سابقاً يمرّ به مجرّد أفراد معزولين يـــصبح فـــي هـــذه الفتـــرة التجربـــة الجماهيرية لمئات الألوف، للملايين.(2)

وهذا هو تفسير الإمكانات المحسوسة المتاحة للنّاس ليستوعبوا وجودهم بوصـــفه شـــيئاً مكيّفاً تأريخيّاً، وليروا في التّاريخ شيئاً يؤثّر بعمق في حياتهم اليوميّـــة ويعيـــنهم علـــى نحـــو مباشر. إلا أنّ نقطة الحسّ القومي، ومعها شعور وفهم للتّاريخ القوميّ، تحدث ليس في فرنـــسا وحدها. فقد أثارت الحروب النّابوليونيّة في كلّ مكان موجة من الشّعور القـــوميّ، والمقاومـــة القوميّة للفتوحات النّابوليونيّة، وتجربة من الحماسة للاستقلال القوميّ، ولا ريب فـــي أنّ هـــذه الحركات في معظمها، كما يقول ماركس، مزيج من "التجدّد والرجعيّة"، كما هي الحـــال فـــي إسبانيا وألمانيا، وفي بولندا، من جهة أخرى يكون الكفاح من أجـــل الاســـتقلال، أي انفجـــار الشّعور القوميّ، تقدّميّاً في جوهره.(3)

---

[1] -انظر: المرجع السابق، ص 12، 13، 14، 15.

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 15، ص16، ص 17، ص 18.

[3] - انظر: المرجع السابق، ص 19، ص20.

"وهكذا، ففي تجربة التّاريخ الجماهيرية هذه، يرتبط العنصر القوميّ من جهة بمعاضل التحوّل الاجتماعي، ومن جهة أخرى يصبح المزيد والمزيد من النّاس على علم بالعلاقة بين التّأريخ القوميّ والتّاريخ العالمي. ويبدأ هذا الوعي المتزايد بالطّابع التّاريخي للتطوّر، التّأثير في الأحكام على الظّروف الاقتصادية والصّراع الطّبقي"[1]

ثانياً: السير وولتر سكوت:

يتحدث لوكاتش في هذا القسم من الفصل الأوّل عن روايات سكوت التّاريخيّة، وتأثيره في أدب عصره. فيؤكّد أنّ سكوت لم يكن له أي علم بفلسفة هيجل، كما يذكر أنّ رواية سكوت التّاريخيّة هي الاستمرار المباشر لرواية القرن الثّامن عشر الواقعيّة الاجتماعيّة، وتكشف دراسات سكوت عن كتّاب القرن الثّامن عشر. ويذكر لنا لوكاتش ما كتبه بوشكين عن وولتر سكوت، فقد كتب بوشكين قائلاً:

"إنّ تأثير وولتر سكوت يمكن أن يُحسّ في كلّ جانب من جوانب أدب عصره. وقد كوّنت مدرسة المؤرّخين الفرنسيّين الجديدة نفسها تحت تأثير الرّوائي الأسكتلندي . وقد أراهم مصادر جديدة كلّياً كانت قد بقيت حتى ذلك الوقت مجهولة رغم وجود دراما شكسبير وغوته التّاريخيّة.."[2]

وهكذا، يعطي مفهوم التّاريخ الإنجليزي في روايات سكوت كما يقول لوكاتش منظوراً (وإن لم يكن واضحاً) للتطوّر المستقبلي، بمفهوم مؤلّفها.....، وسكوت يرقى إلى مصاف أولئك (المحافظين) المخلصين في إنجلترا عصره، الذين لا يبرّئون أيّ شيء في تطوّر الرأسماليّة.

يقول لوكاتش موضّحاً غرض سكوت من اختيار أبطال روايته التّاريخيّة:

"إنّ عظمة سكوت ترتبط بنزعته المحافظة والضيّقة في معظم الأحيان، فهو ينشد "الطّريق الوسط" بين الطّرق المتطرّفة، ويسعى ليعرض بشكل فنّي الواقع التّاريخيّ لطريقه بتصويره الأزمات الكبرى في التاريخ الإنجليزي...، والبطل في أيّة رواية من روايات سكوت هو دائماً سيّد إنجليزيّ أقلّ من البارز أي متوسّط.

[1] - المرجع السابق، ص 20.

[2] - المرجع السابق، ص 29.

إنّ أمثال بوشكين أو ستيندال نظروا إلى الحاضر من النّاحيـــة التّاريخيّـــة.. ، ويحـــاول سكوت أن يصوّر صراعات التّاريخ وعداءاته عن طريق شخوص يمثّلون دائماً في نفـــسيّاتهم ومصائرهم، الاتجاهات الاجتماعية والقوى التّاريخيّة..."[1]

ويشير لوكاتش إلى أنّ بلزاك المعجب بسكوت ووارثه الكبير سبق أن اعتـــرض علـــى ضيق فكر سكوت الإنجليزي المحافظ هذا، فهو يقول – أي بلزاك- إنّ أغلب بطلات ســـكوت يمثلن في نفس النمط من المرأة الإنجليزية السّليمة والاعتياديّة من ناحية الضيّق الفكـــري، ولا مجال في هذه الرّاويات للتراجيديّات والكوميديّات المثيرة والمعقّدة في الحبّ والزّواج، وبـــرأي لوكاتش إنّ بلزاك صائب في انتقاده، وإنّ عظمة سكوت تكمن في قدرته على إعطاء الأنمـــاط التاريخيّة- الاجتماعيّة تجسيداً إنسانياً حيّاً..، وهذا ينطبق على أبطال سكوت العاديّين أيـــضاً، فهم لا يُجارون في تصويرهم السّمات المحتشمة والجذّابة ، وضيقة الأفق أيضاً، عند "الطبقـــة الوسطى" الإنجليزيّة وبوصفهم شخصيّات أساسيّة، فهم يقدّمون أداة كاملة لطريقة سكوت فـــي عرض مراحل انتقاليّة من التأريخ معيّنة، وكانت هذه العلاقة -كما يقول لوكاتش- قد أدركهـــا بأقصى الوضوح الناقد الرّوسيّ الكبير بيلينيسكي، فهو يسلّم بأنّ أكثر شخوصه الثّـــانويين هـــم أكثر إثارة للاهتمام، بوصفهم كائنات إنسانيّة، من البطل الرئيسي العاديّ، ومع ذلك فهـــو – أي بيلينيسكي- يدافع عن سكوت بشدّة، وفي كامل تأريخ الرّواية قلّما توجد أيّـــة أعمـــال أخـــرى باستثناء تولستوي، تقترب كلّ هذا الاقتراب من طابع الملحمة القديمة. وسكوت مصوّر ملحمي كبير لـــ (عصر الأبطال). وسكوت يطرح في روايته الأزمات الكبـــرى للحيـــاة التّاريخيّـــة. وعليه فإنّ القوة الاجتماعيّة المتقاربة تتصادم في كلّ مكان.[2]

"إن قدرة سكوت التي لا تُضاهي في إعادة خلق شخصيات التّاريخ الكبيرة كان مردّهـــا بالضبط هذا الجانب في كتابته وفي عمل سكوت الذي استغرق كامـــل حياتـــه، نلتقـــي أهـــمّ الشّخصيّات في التّاريخ الإنجليزيّ، بل حتّى الفرنسيّ: ريتشارد قلب الأســـد، لـــويس الحـــادي عشر وإليزابيث... الخ، وكلّ هذه الشّخصيّات تظهر عند سكوت بعظمتها التّاريخيّة الفعليّة"[3]

ويبيّن لنا لوكاتش أنّه في أهمّ روايات سكوت يؤدي هـــذا الـــدّور الرّئيـــسي أشـــخاص مجهولون تاريخيّاً، أو أشخاص شبه تأريخيّين، أو غير تاريخيّين إطلاقاً، كما يـــذكر أنّ فيـــتش إيان فوهر في رواية "ويفيرلي" هو شخصيّة تاريخيّة مهمّة خُلقت وفقاً لذات المبادئ الفنيّة التي خُلقت بموجبها الشخصيّات التّاريخيّة المألوفة، وإنّ الطّابع الشّخصي لفنّ ســـكوت التّـــاريخي

---

1 - المرجع السابق، ص 32، ص 33.

2 - انظر : المرجع السّابق، الصفحات: 34- 35- 36- 37.

3 - المرجع السّابق ص39.

يكشف عن نفسه في كون هذه الشخصيات القائدة، الملتحمة بحياة الناس التحاماً مباشراً، هي بصورة عامّة، أكثر إثارة للاحترام والإعجاب من شخصيات التاريخ المركزية المعروفة.

كما يشير لوكاتش إلى بلزاك الذي فهم السّر في تأليف سكوت، فقال: إنّ روايات سكوت تسير نحو الأبطال الكبار بنفس الطّريقة التي قام بها التأريخ عندما استلزم ظهورهم...، وأسلوب سكوت في التأليف يظهر شبيهاً بفلسفة التاريخ عند هيغل، وعبقريّة سكوت التّاريخيّة الفذّة تظهر نفسها في الصّفات المميّزة الفرديّة التي يسبغها على شخصيّاته الرّئيسة ويجري عند سكوت التميّيز بين التّضامن الاجتماعي والتّاريخيّ، بين القائد والمقود ببراعة فائقة.(1)

وتركيز الأحداث وتكثيفها عند سكوت يرمز إلى نقطة تحوّل في تاريخ الرّواية لأنّ سكوت أنجز هذا التوسّع في نقطة تحوّل تاريخيّة كبيرة، انسجاماً مع احتياطات العصر الفعليّة والسّبب هو أن الرّواية تجابه الكاتب بإغراء قويّ لينتج وحدة كاملة بصورة موسّعة. والفكرة القائلة إنّ هذا الكمال وحده يستطيع أن يضمن الأمانة التّاريخيّة مقنعة جدّاً، إلا أنّه ضلال لفت إليه الانتباه بشدة بلزاك بصورة خاصّة في أعماله النقديّة.(2)

ويلفت لوكاتش انتباهنا إلى ما يجب أن يهمّنا في الرّواية التّاريخيّة فيقول:

"إذن إنّ ما يهمّ في الرّواية التّاريخيّة ليس إعادة سرد الأحداث التّاريخيّة الكبيرة، بل الإيقاظ الشّعري للنّاس الذين برزوا في تلك الأحداث، وما يهمّ هو أن نعيش مرّة أخرى الدّوافع الاجتماعيّة والإنسانيّة التي أدّت بهم إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرّفوا كما فعلوا ذلك تماماً في الواقع التّاريخي"(3)

ويوضّح لوكاتش أنّ وصف بلزاك لطابع سكوت المكثّف، وصورة كوبر للتّاريخ ينطبق على التطوّر اللاحق للرّواية التّاريخيّة في عمل شرّاحها الكلاسيكيّن الكبار، وهكذا فمن الخطأ الاعتقاد بأنّ تولستوي مثلاً رسم فعلاً الحروب النّابوليونيّة بالتفصيل، إنّ ما يفعله هو أنه يأخذ حدثاً من الحرب له أهميّة ومغزى خاصّ للتطوّر الإنساني لشخوصه الرئيسيين.

"وتكمن عبقريّة تولستوي بوصفه روائيّاً تاريخياً، وفي قدرته على اختيار وتصوير هذه الأحداث بحيث يكتسب كامل مزاج الجيش الرّوسي، ومن خلاله الشّعب الرّوسيّ، تعبيراً حيّاً وحين يحاول معالجة مشاكل الحرب السّياسيّة والاستراتيجيّة الشاملة ومثال ذلك في وصفه

---

[1] - انظر: المرجع السّابق، الصفحات: 40- 41- 42.

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 45.

[3] - المرجع السّابق، ص 46.

نابليون فهو يستسلم لدُفعات تاريخيّة- فلسفيّة. وهو يفعل هذا ليس فقط لأنّه يُسيء فهم نابليون تاريخياً بل لأسباب أدبيّة أيضاً.(1)

إنّ قول لوكاتش السّابق يشير إلى رواية "الحرب والسّلم" لتولستوي، هذه الرّواية التي اكتسبت شهرة واسعة، وتجلّى فيها إبداع تولستوي وعظمته وعبقريّته، فتولستوي في روايته هذه لم يهمل التّاريخ، بل كان مخلصاً له فلم يزيّفه أو يحرّفه، ولكنّه في روايته التّاريخية هذه مزج الأدب والفلسفة والتّاريخ، وصوّر لنا شخوصه تصويراً رائعاً بحيث دخل إلى أعماق النفس الرّوسيّة، فبين لنا كيف تفكر وكيف تتصرّف في مواجهة القدر وظروف الحرب... إنّه ذلك الرّوائي العظيم الذي يجعل للحدث التاريخي مهما كان صغيراً مغزى ومعنى، فهو يهتم بالجزئيات التي غالباً ما تكون هي المحدّدة لنتيجة المعركة، وكنّا قد أشرنا إلى روايته هذه بالتفصيل، هذه الرّواية التي يمكننا أن ننظر إليها كلوحة تاريخيّة مزّينة بصور جزئيّة تمثّل الحب والحكمة والجمال والأمل، ولعلّ هذا ما جعل لوكاتش يعتبر تولستوي كاتباً عظيماً، وخاصة في مجال الرّواية التّاريخيّة.

أمّا فيما يتعلق بالأحداث و الشّخصيّات التّاريخيّة في الرّواية التّاريخيّة فيقول لوكاتش:

"إذن يترتّب على الرّواية التّاريخيّة أن تثبت بوسائل فنيّة بأن الظّروف والشّخوص التّاريخيّة وُجدت بكذا و كذا طريقة بالضّبط. وما سُمّي عند سكوت بشكل مصطنع جدّاً "صحّة أو أصالة اللّون المحلّي" هو في الحقيقة الفعلّية هذا الإثبات أو العرض للواقع التّاريخيّ. إنّه تصوير الأساس الحّي الواسع للأحداث التّاريخيّة قي تشابكها وتعقّدها، وفي تفاعلها المتعدّد الوجوه مع الأفراد الفاعلين".(2)

و يفرّق لوكاتش بين الأفراد "المحافظين" و" التاريخيّين العالميّن"، فيذكر أنّ الفرق بينهما يُعبّر عنه بهذه العلاقة الحيّة بأساس الأحداث الوجودي، فالأفراد المحافظون يعانون أصغر التقلّبات في هذا الأساس باعتبارها الاضطرابات المباشرة في حياتهم الفرديّة، بينما يكثّف التّاريخيّون العالميّون السّمات الرئيسة للأحدث في دوافع لتصرّفاتهم بالذات وللتّأثير في تصرّفات الجماهير وقيادتها . . .

و برأي لوكاتش أنّه كلّما كان "الأفراد المحافظون" أكثر التصاقاً بالأساس كانوا أقلّ ملاءمة للقيادة التّاريخيّة، وأنّ للعلاقة بين ردّ فعل الجماهير العفوي والوعي التّاريخيّ للشّخصيّات القائدة أهميّة حاسمة في فهم التّاريخ، ومن السّمات المميّزة للقادة السّياسيّين

---

[1] - المرجع السابق، ص 48.

[2] - المرجع السّابق، ص 48.

الشعبييّن حقاً هو فهمهم الحسّاس لردود الفعل العفويّة هذه، و تبرز عبقريّتهم في إدراكهم تغيّر مزاج الشّعب، أو طبقة ما، وتعميمهم العلاقة بين المزاج ومجـرى الأحـداث الموضـوعي، وتؤلّف هذه القدرة على الإدراك والتعميم أساس ما يدعوه القـادة عـادةً بـ "الـتعلّم مـن الجماهير"، ويذكر لوكاتش أنّ لينين في كرّاسه "هل سيحتفظ البلاشفة بسلطة الدّولـة؟" يـصف مثلاً مفيداً جدّاً على هذا التّفاعل. فبعد إخماد انتفاضه تمـوز التـي قامـت بهـا بروليتاريـا بتروغراد عام 1917، يضطّر لينين إلى العيش سرّاً مع عائلة عامل من الضّواحي، ويـصف لينين تهيئة وجبة الظّهر، حيث يقول الزّوج مشيراً إلى الخبز الرّائع: "إنهّم لا يجـرؤون علـى إعطائنا الآن خبزاً رديئاً، لقد كدنا ننسى أنّه يوجد خبز جيـد يمكـن الحـصول عليـه فـي بتروغراد".(1)

ويضيف لينين:

"لقد كنت مندهشاً لهذا التقدير الطّبقي لأيام تموز. كانت أفكاري تـدور حـول مغـزى الأحداث السّياسي.. وبوصفي شخصاً لم يكن قد عرف الحاجة إطلاقاً فأنا لـم أفكّـر بـالخبز أبداً... إنّ الفكر يتبع طريقاً معقّداً ومتشابكاً على نحو غير مألوف ليصل، عبر تحليل سياسـيّ، إلى ما هو في الأساس من كلّ شيء، أي النّضال الطّبقي من أجل الخبز."(2)

ويذكر لوكاتش أنّه يظهر بوضوح بالغ مزج سكوت ما بين الرّوح الـشعبيّة والـصّحة التّاريخيّة، وتعني الصّحة التّاريخيّة بالنّسبة لسكوت –كما يـشير لوكـاتش- نوعيّـة الحيـاة الدّاخلية، المعنويّات، البطولة، القدرة، على التضحية، الثّبات... الخ، تلك الـصّفات الخاصّـة بعصر معيّن، وهذا هو الشيء المهمّ، الخالد برأي لوكاتش.

كما يذكر لوكاتش أنّه بالنّسبة لتاريخ الأدب – صـانع العـصر، فـي صـحّة سـكوت التّاريخيّة، ليس ما يُسمّى "اللّون المحلّي" الذي طال النّقاش فيه، للأوصاف، والذي هو ليس إلا واحداً من بين العديد من الطّرق الفنية المساعدة، ولا يستطيع إطلاقاً أن يوقظ وحـده مجـدّداً روح عصر من العصور.

إنّ هدف سكوت الفنّي الكبير، في تصويره الأزمات التّاريخيّة في الحياة الشعبية- كمـا يذكر لوكاتش- هو إظهار العظمة الإنسانية التي تكون مطلقة من عقالها في ممثّليها المهمّـين باضطراب من هذا النّوع الشّامل جدّاً.(3)

---

[1] - انظر: المرجع السّابق، ص 48، ص49

[2] - المرجع السابق، ص 49.

[3] - انظر: المرجع السابق: ص 58، ص 59.

يقول لوكاتش مشيراً إلى الصّدق التّاريخي في روايات سكوت التّاريخيّة:

"إنّ سكوت يحتفظ بهذا الصّدق التّاريخي في مفهوم شخوصه الإنساني - الأخلاقي. وردود الفعل الأكثر تناقضاً واختلافاً تجاه أحداث معيّنة تحدث دائماً في رواياته النّاجمة ضمن الإطار الجدلي الموضوعي لأزمة تاريخيّة معينة، وبهذا المعنى فهو لا يخلق البتّة شخصيّات شاذّة، شخصيات تقع نفسيّاً خارج هذا العصر".(1)

أمّا الفصل الثالث من كتاب لوكاتش فهو بعنوان:

الرواية التّاريخيّة الكلاسيكيّة في الصّراع مع الرّومانتيكيّة:

ويتحدّث لوكاتش تحت هذا العنوان عن رواية "الحرب والسلم" لتولستوي، فيقول إنّ وصف هذه الرّواية بأنّها رواية تاريخيّة من النّمط الكلاسيكي يبيّن مدى أهميّة عدم تفسير هذه الكلمة بمعنى أدبيّ- تاريخيّ أو شكلي- فنّي ضيّق، أمّا فيما يتعلّق بتأثير سكوت الأدبي على تولستوي فيذكر لوكاتش أنّه لا يمكن العثور عند تولستوي على أيّ أثر لأيّ تأثير أدبيّ مباشر من جانب سكوت.

كما أنّ تولستوي بقدر ما يعلم لوكاتش – كما يقول هو نفسه- لم يقم حتى بدراسة سكوت دراسة مستفيضة جدّاً. إنّ تولستوي – برأي لوكاتش- خلق رواية تاريخيّة من نوع فريد، مستوحاة من ظروف الحياة الفعليّة في هذه الفترة الانتقاليّة، كما أنّ رواية "الحرب والسلم" لا تؤلّف تجديداً رائعاً وتطويراً للنّمط الكلاسيكيّ لرواية سكوت التّاريخيّة إلا من ناحية المبادئ الخلاقة العامّة والجوهريّة أكثر من سواها، وهذا المبدأ، الموحّد، الجوهري -كما يقول لوكاتش– هو مبدأ الطّابع الشّعبي.(2)

يقول لوكاتش مبيّناً رأيه في رواية "الحرب والسّلم" التّي تصوّر الحياة الشعبيّة بشكل واسع:

"إنّ "الحرب والسّلم" هي الملحمة العصريّة للحياة الشعبيّة، وعلى نحو أكثر حسماً من أعمال سكوت أو مانزوني، فتصوير الحياة الشّعبيّة فيها أوسع، أزهى، وأغنى في الصّفات. وتأكيد الحياة الشعبيّة بوصفها الأساس الفعلي للأحداث التّاريخيّة أكثر وعياً".(3)

كما يذكر لوكاتش أنّه في قلب تولستوي يكمن التناقض بين أنصار التّاريخ والقوى الحيّة للحياة الشعبيّة، وهو يبيّن أنّ أولئك الذي يواصلون بالرّغم من الأحداث الكبيرة في

---

[1] - المرجع السابق: ص 73

[2] - انظر: المرج السابق، ص 113

[3] - المرجع السابق: ص 113.

مقدّمة التّاريخ، عيش حياتهم الطبيعيّة والخاصّة والأنانيّة يدفعون فعلاً بالتطوّر الحقيقي (غير الواعي، غير المعروف) بينما يكون أبطال التّاريخ العالمون بوعي دمى متحرّكة، مضحكة، وضارّة، وبرأي لوكاتش هذا، إنّ المفهوم الأساسي عن التّأريخ يقرّر عظمة عمل تولستوي، فحياة الشّخوص الفرديّة تتفتّح عن غنى وحيويّة نادراً ما كان لهما سابق مثيل في الأدب العالمي، إلا أن هؤلاء الشّخوص في الوقت الذي تُثار فيه عواطفهم بالأحداث القائمة في المقدّمة، لا تمتصّهم هذه الأحداث كلياً أبداً.....

إلا أنّ هذه التولستويّة – كما يقول لوكاتش – وهي أنّ النّضالات الفرديّة العفويّة في حركتها، غير الواعية أهميّتها ونتائجها، التي تؤلّف معاً القوى الشعبيّة، وهي القوى العفوية في حركتها، تدفع فعلاً مجرى التّاريخ، وهذه الفكرة – برأي لوكاتش – يبقى مشكوكاً فيها.[1]

وهذه الفكرة التولستويّة –كما يسميّها لوكاتش- ذكرها ألكسندر سولوفييف في الحاشية التي كتبها عن نشأة رواية "الحرب و السلم"، وفيها ذكر سولوفييف أنّ حرب 1812 أوحت إلى الكاتب تولستوي بنظرات فلسفيّة عن التّاريخ وواقع الحرب، و الدّور الذي يقوم به "عظماء الرّجال" من جهة، و الشّعب من جهة أخرى، و عندئذٍ تتجسّد فكرة تولستوي الكبرى – كما يقول سولوفييف – وهي أنّ " عظماء الرّجال " ليسوا هم الذين يصنعون التاريّخ، وإنمّا التاريّخ من صنع سواد الشّعب، ومن صنع الشّعب الذي يتألّم ويقاسي والذي يتحقّق به النّصر....، و التّعارض بين نابليون و كوتوزوف في رواية " الحرب و السلم " يشتدّ وضوحاً، فنابليون يبدو أنّه يوجّه الأحداث و لكنّه يتوه و يضلّ، و كوتوزوف يكاد يدع الأحداث أن تقوده، فتحمله ثقة جنوده و تحمله ثقة الشّعب الذي يسند إليه المؤلّف شأناً خطيراً، وتجسّد هذا الشّعب شخصيّة "أفلاطون كاراتايف" الجندي البسيط الذي يكشف لبيير بيزخوف المعنى العميق للحياة في البساطة و التواضع.[2]

ويشير لوكاتش إلى كوتوزوف في رواية "الحرب والسلم" فيقول إنّ تولستوي خلق بنجاح بطلاً شعبيّاً حقيقيّاً في شخصيّة "كوتوزوف" فهو رجل مهمّ لأنّه يريد أن يكون ليس غير أداة بسيطة، جماعيّة، تنفيذيّة، لهذه القوى الهائلة، و تتركّز صفاته الأكثر شخصانيّة وودّية تركّزاً رائعاً حول مصدر العظمة الاجتماعيّة هذا.[3]

---

[1] انظر: المرجع السابق: ص 114.

[2] - انظر : تولستوي ، ليون : الحرب و السلم ، المجلد الرابع ،الكتاب الأول ، ترجمة: سامي الدروبي ،منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ،1976 ، ص 827-828.

[3] - انظر: كتاب الرواية التّاريخية، جورج لوكاتش، ص 114.

يقول لوكاتش مشيراً إلى مفهوم البطل التّاريخي (الإيجابي)، وموقف تولستوي من القادة:

"إنّ هذه المفهوم عن البطل التّاريخي (الإيجابي)، يبيّن إلى أيّ حدّ كانت العداءات الطبقيّة قد اشتدّت –حتّى في روسيا القيصرية – منذ أيام سكوت. وإنّه لجزء من عظمة تولستوي أنّه ليست لديه أيّة ثقة بـ "القادة الرّسميّين" للتّاريخ، لا بالرّجعيين المكشوفين منهم و لا باللبراليّين".[1]

ونحن نوافق لوكاتش حول ما ذكره عن تولستوي وعدم ثقته بالقادة الرّسمين، فالقارئ لروايته "الحرب و السلم" يستنتج أن الكاتب تولستوي يصور لنا مثلاً شخصية جندي أو إنسان من عامة الشعب، ويعطي هذه الشخصية أهمية بالغة، ويوليها رعاية عظيمة ولا يفعل مثل هذا مع الامبراطور نابليون أو ألكسندر الإمبراطور الرّوسي، بل أكثر الأحيان نجده يلوم الاثنين على بعض الأعمال التي قاما بها، وهذا ما أشار إليه المؤلف تولستوي في مقدمة روايته "الحرب والسلم"، والذي كنا قد أشرنا إليه سابقاً عند تناولنا هذه الرّواية، وهو أن تولستوي يعتقد أن من يُسمّون عظماء الرّجال ليس لهم كبير شأن في الأحداث التّاريخيّة، وأنّ الذي يحكم التّاريخ ليس إرادة أفراد معيّنين، وإنمّا الذي يحكم التّاريخ هو قانون الحتميّة.

و يضيف لوكاتش بأنّ تولستوي عجز كلّياً عن فهم حركة الديمقراطيّة الثّوريّة البادئة فعلاً في زمانه، وأنّ هذا العجز عن فهم دور حركة الشّعب الواعية دفع بتولستوي إلى إنكار متطرّف وتجريدي لمغزى الحركة الواعية من قبل المستغَلين، ويشير لوكاتش إلى أنه ليس من باب المصادفة أن يتحرّك أفضل الشخوص الذين يرسمهم تولستوي هنا نحو الحركة الديسمبريّة بشكل ملحوظ، وإن هذا الطابع المتناقض، ذا الجانبين، في تصوير تولستوي التّاريخي للحياة الشعبيّة نفسها ينمّ عن تحوّل من الماضي إلى الحاضر. ورواية "الحرب والسلم"، بتصويرها في شكل واسع حياة النّاس الاقتصاديّة والأخلاقيّة، أثارت المشكلة التولستويّة الكبيرة الخاصّة بطبقة الفلاحين، وكيف كانت تنتسب إليها طبقات ومراتب وأفراد مختلفون. وأخيراً يقول لوكاتش: إن "الحرب والسلم " هي نتاج رواية روسيا و فرنسا الاجتماعية الواقعية السابقة بقدر ما هو تصوير سكوت للتّاريخ، نتاج واقعية القرن الثّامن عشر الاجتماعيّة – الانتقاديّة الإنكليزيّة .[2]

في الفصل الثالث من كتاب لوكاتش والذي هو بعنوان:

---

[1] - المرجع السابق ،ص115 .

[2] -انظر المرجع السابق ص115 ، 116 .

"الرواية التّاريخيّة وأزمة الواقعيّة البرجوازيّة"، يطرح لوكاتش مسألة مهمة، وهي موقف الكاتب من الأحداث التّاريخيّة التي يكتب عنها، وبمعنى أدقّ موقف الكاتب من الحرب، ويذكر مثالاً على ذلك الكاتب تولستوي، وكيف صوّر الحرب في روايته "الحرب و السلم"، وكره عامّة الشّعب الرّوسي للحرب، فيقول :

"ولننعم النّظر في تصوير تولستوي للحرب. فما من كاتب في عالم الأدب يخامره مثل هذا الشك كتولسوي، ولاسيّما في ما يتعلّق بهذه المسألة، في كلّ ما يدور في الأعلى وطرحه للعالم "الأعلى"، رئاسات الأركان، البلاط، داخل البلاد ...الخ، يعكس عدم الثّقة و الكره لدى الفلاح و الجندي البسيطين"[1]

كما يوضّح لوكاتش أن تولستوي يرسم بمهارة الحاذق يقظة المشاعر القوميّة بين الشّعب خلال حملة 1812. وسابقاً كانت الجماهير الشعبيّة مخزون طعام المدافع لأهداف السّلب التي تحملها القيصريّة، وعلى ذلك - كما يقول لوكاتش - لم تكن أهداف و مصائر الحرب تعني هذه الجماهير بشئ، وقد صدرت العبارات الوطنيّة عن غباء أو تفاخر أو استجابة لإيحاء من " فوق". وحين يتراجع الجيش الروسي إلى موسكو، ولاسيّما عندما جرى الاستيلاء على موسكو وأُحرقت، يتغيّر الموقف التّاريخيّ الموضوعيّ، و تتغيّر معه المواقف الشعبيّة، ويصوّر تولستوي هذه التغيّرات بغناه المعهود، دون أن يهمل إطلاقاً الإشارة إلى أنّ أقساماً كبيرة من الحياة الشعبيّة في ظل الحكم القيصري تبقى، موضوعيّاً و ذاتيّاً معاً، غير متأثّرة بمصير بلادها، إلا أنّ نقطة التحوّل رغم ذلك موجودة. وتولستوي يعطيها تعبيراً واضحاً ومجسّداً بإظهاره كيف أن كوتوزوف، وقد اندفع بثقة الشّعب، يُعين رئيس أركان الحرب ضدّ إرادة القيصر والبلاط، وكيف يكون، رغم جميع مكائد العالم "الأعلى"، قادراً لا على مجرّد الاحتفاظ بمنصبه، بل أيضاً على تنفيذ الخطّ الأساسيّ من استراتيجيّته، ولكن عندما تقع حرب فتوحات قيصريّة جديدة، و تنتهي الحرب الدّفاعيّة الشعبيّة ينهار كوتوزوف خارجيّاً وداخليّاً، ورسالته للدّفاع عن البلاد بوصفه مثل الإرادة الشعبيّة، تبلغ نهايتها، و إرادة الحرب الجديدة يتسلّمها مرّة أخرى رجال الحاشية المالكة والمتآمرون السّابقون، و يأخذ موقف النّشاط الشّعبي شكلاً واضحاً و مرئيّاً من استقالة كوتوزوف.[2]

رأينا فيما سبق اهتمام الكاتب جورج لوكاتش بالرواية التّاريخيّة، ولعلّ من أهمّ وأروع ما كتبه، كتابه "الرّواية التّاريخيّة" الذي وضعه ما بين عامي (1936- 1937)، والذي تحدّث فيه الكاتب عن نشوء الرواية التّاريخية، ومسألة الصدق التّاريخي، وغيرها من المسائل

---

[1] - المرجع السابق ، ص307 ، 308 .

[2] - انظر: المرجع السّابق، ص 308، ص 309.

المهمّة، ولكنّ هذا الكاتب تعرّض لنقد شديد فيما كتبه، وأنّ هناك فرقاً عميقاً بين لوكاتش المبكر غير الماركسي ولوكاتش المتأخّر الماركسي، ووجود نقاط ضعف في أعماله المتأخّرة، وقد فُسِّر ذلك نتيجة لتحولّه الماركسي، ولكنّ البعض يرى أنّ عمله الماركسي "التاريخ والوعي الطبقي" 1923، لا يقلّ أهمية عن عمله غير الماركسي "نظرية الرواية" (1914-1915).

يقول الناقد الإنكليزي بول دومان في مقالة له حول ما كتبه جورج لوكاتش:

"مهما يكن رأي المرء في لوكاتش فإنّه بالتأكيد عقل هام بما فيه الكفاية ليدرس بوصفه كلاً ... إنّ نقاط الضعف في العمل المتأخّر ماثلة لتوّها من البداية، وبعض القوة المبكّرة ظلّ يمارس عمله طوال الوقت. ولكنّ الضعف والقوة كليهما يوجدان على مستوى فلسفي بكلّ معنى الكلمة، ولا يمكن فهمها إلا من خلال المنظور الأوسع للتاريخ الفكري للقرنين التاسع عشر والعشرين: إنّهما جزء من تراث الفكر الرّومنتي والمثالي. وهذا يؤكد ثانية الأهميّة التّاريخيّة لجورج لوكاتش، ويرفض اللوم المتكرر الموجّه له في أنّه كان مبالغاً في اهتمامه بأنماط الفكر في القرن التاسع عشر..."[(1)]

وحول كتاب "نظرية الرواية" يقول النّاقد بول دومان:

"وعندما يقرأ المرء صياغة لوكاتش للفروق بين الأجناس الأدبيّة الرئيسية ، يُذكر حقاً وباستمرار بكتابات شيلر الفلسفية. إنّ التمييز بين الملحمة والرواية مؤسس على التمييز بين العقلين الهيلينيّ والغربيّ".[(2)]

ونرى أن آراء الدكتور سمر روحي الفيصل تتقاطع إلى حدّ نما مع آراء جورج لوكاتش ولا أجد تعارضاً في آرائهما عن الرواية التاريخية.

إنّ الحدث في الرّواية – أيّة رواية- سواء أكان هذا الحدث حقيقيّاً أم متخيّلاً، له أهميّة كبيرة في الرّواية، وخاصّة إذا كانت الرّواية تاريخيّة، وعلاقة الفنّ بالتّاريخ هي قضيّة متشعبّة، لكنّ الحدود بين الفنّ والتّاريخ حدود وهميّة، ويجمع بينهما قاسم مشترك هو "الإنسان"، والإنسان هو صانع التّاريخ، والرّواية التّاريخيّة لا تختلف عن أيّة رواية تستمدّ موضوعها من الواقع المعاصر، ويبقى الهدف الأسمى وهو البحث عن الإنسان، وتحليل موقفه من الحدث، ومهمة الرّواية تاريخية كانت أم غير تاريخية هي نقد المجتمع وتحليله، والحدث مهما كان صغيراً، فالرّوائي الذي يعبّر عنه هو الذي يجعله مهمّاً، هذا ما أشار إليه الناقد سمر روحي الفيصل بقوله:

---

[1] - دومان، بول : نظرية الرواية لجورج لوكاتش، ترجمة: د. عبد النبي اصطيف، مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 97، شتاء 1999، السنة الرابعة والعشرون ، ص 25.

[2] - انظر: المرجع السابق نفسه ص 26.

"......فالرّواية أيّة رواية، عمل فنّي قبل أيّ شيء آخر، والمجتمع فيها مجتمع روائي متخيّل مهما تكن صلته بالواقع الخارجي كبيرة أو صغيرة، وليس الاستناد إلى حدث خارجي حقيقي بغريب على العالم الرّوائي على أية حال، لأنّ الحدث ليس مهمّاً بحدّ ذاته، وإنّما المهمّ طريقة الرّوائي في التعبير عنه والرؤية الفنيّة التي يطرحها من خلاله".[1]

وما من شكٍّ في أنّ كلّ رواية تاريخيّة فيها تاريخ وفيها خيال يبدعه الرّوائي، ويجب أن يجتمع التّاريخ والخيال معاً في الرّواية التّاريخيّة، فلو كانت الرّواية كلها أحداث ووقائع تاريخيّة، لكانت تاريخاً وليست رواية تاريخيّة، ولو كانت الأحداث في الرّواية كلّها خياليّة لما صحّ تسميتها "رواية تاريخية"، والكاتب المبدع برأيي -إذا ما شبّهنا الأحداث التّاريخية بالغراس- أشبه بفلاّح ذكيّ مجتهد، يختار من الغراس أحسنها نوعاً، ويزرعها في تربة صالحة، ثم يرعاها بشتّى الطرق، ويشحذ خياله، ليبتكر طرقاً جديدة لرعايتها وتحسينها، فتكون النتيجة رائعة، وهي حصوله على أشجار فيها من الثّمار أجودها وأجملها، ممّا يلفت نظر النّاس، ويستحوذ على إعجابهم، وهذا ما أشار إليه الدكتور قاسم عبده قاسم والدكتور أحمد إبراهيم الهواري من مقدمة كتابهما "الرواية التاريخيّة في الأدب العربيّ الحديث" بقولهما:

"ومن ناحية أخرى، فإنّ الفنّ يجد لنفسه الوحي والإلهام في أحداث التّاريخ، وهنا نجد أنّ الفنان الذي يستلهم التّاريخ في إبداعه الفنّي يتخذ من الأحداث (أو الحقائق) التّاريخيّة المجرّدة نواة ينطلق منها خياله الخالق، ينسج حولها من رؤيته، ورؤاه الإبداعيّة.

والخيال المبدع للفنّان يكون هنا مقيّداً بالحدث التّاريخي إذ إنّه يبدأ بالمحسوس، بالحدث المادّي (الماثل) لينطلق إلى الرمز المعنوي (المثال)" [2]

وينبغي الإشارة إلى نقطة مهمّة وهي أنّ على الفنّان ألا يزيّف التّاريخ، أي ألاّ يلوي عنق الحقيقة التّاريخيّة في سبيل الإبداع الفنّي، فالصدق الفنّي يجب ألا يجور على الصدق التّاريخي، وهذا ما ذكرناه سابقاً عند تناولنا كتاب "الرواية التّاريخيّة في الأدب العربي الحديث" للدكتور قاسم عبده والدكتور أحمد إبراهيم الهوّاري، وقد أشار الكاتبان في هذا الكتاب إلى دور الخيال بالنسبة للمؤرّخ والرّوائي في صياغة المادّة التّاريخيّة بصورة معيّنة وفق منطق معيّن، وهذه المسألة تمثّل قدرة الرّوائي المؤرّخ على التخيل الإبداعي العقلي الذي يصوغ المادّة التّاريخيّة، وعند الصورة المتخيّلة كما يقول مؤلّفا الكتاب، يكمن وجه الشّبه بين مهمّة الرّوائي

---

[1] - الفيصل، سمر روحي: تجربة الرواية السوريّة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 1985،ص28.

[2] - قاسم، د.قاسم عبده، الهواري، أحمد إبراهيم، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة 1979، ص 7ــ ص8.

ومهمّة المؤرّخ، وكلّ منهما يهدف إلى رسم صورة تتألّف من عدّة عناصر بحيث تنطوي على حكاية أو قصّ الأحداث، ووصف للمواقف وعرض للدوافع أو البواعث، وتحليل السّلوك أو فعل الشخصيّات في البيئة وانفعالها بالأشياء..

كما يجب أن تنطوي الرّواية، كما ينطوي التاريخ على مغزى، بحيث لا يقحم في أحدهما تفصيل لا يفرضه منطق الأحداث. والذي يقرّر هذه الضرورة المنطقيّة، هو الخيال من جانب، ورؤية المؤرّخ أو الرّوائي وموقفهما من التّاريخ من جانب آخر، يقول الكاتبان: "وزاوية الرّؤية هذه تحدّد موقفهما سواء المؤرّخ أو الرّوائي من أحداث التاريخ ودور القادة والحكّام وتأثير العلاقات الاجتماعية والصراعات الطبقيّة، والمؤثرات الباطنة- التي يكون لها تأثيرات بعيدة في مجرى التاريخ"[1]

إنّ كلام الكاتبين السابقين يبيّن لنا بوضوح مهمة كاتب الرواية التاريخيّة، وسنوضّح هذا الأمر من خلال دراستنا لأهم كتّاب الرواية التاريخية الروسيّة في القرن التاسع عشر وهو بوشكين وروايته "ابنة الآمر".

رواية "ابنة الآمر" (1836) لبوشكين

ولا بدّ لأيّ باحث إذا أراد معرفة الحياة التّاريخيّة لشعب ما في فترة ما أن يطّلع على الأدب الذي كُتب في تلك الفترة، وفي تناولنا للأدب الرّوسي، ودارستنا للأحداث التّاريخيّة الحقيقيّة في هذا الأدب في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، يبرز لنا في المقام الأوّل شاعر روسيا الأكبر ألكسندر بوشكين (1799- 1837) ، ونذكر هنا ما قاله النّاقد الكبير الفيلسوف بيلينسكي (1811- 1848) عن بوشكين، والذي ذكره الدكتور نزار عيون السود في مقدّمة مقاله "شاعر روسيا الأكبر: ألكسندر بوشكين" الذي كتبه بمناسبة مرور مئتي سنة على ولادة الشاعر العظيم بوشكين، يقول النّاقد الكبير بيلينسكي:

"الكتابة عن بوشكين تعني الكتابة عن الأدب الرّوسي كله. وبوشكين ظاهرة لا تخصّ الأدب الرّوسي وحده، بل وتشمل الثقافة الرّوسيّة كلّها، بل والحياة التّاريخيّة كلها للشعب الرّوسي "[2]

ولد الشاعر الكبير بوشكين -كما يذكر الدكتور نزار عيون السود- في أواخر القرن الثامن عشر، وهي حقبة الانهيار السّريع للمؤسسّات الإقطاعيّة وأنظمة الحكم المطلق

---

[1] انظر: المرجع السّابق نفسه، الصفحات: 8- 9.

[2]- انظر: عيون السود، د. نزار، شاعر روسيا الأكبر: ألكسندر بوشكين، مجلّة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 99- 100، صيف، خريف 1999، السنة الرابعة والعشرون ، ص 18.

الاستبداديّة، وعاصر بوشكين كثيراً من العواصف السياسيّة والهزّات الاجتماعيّة، فقبل ولادته بعشر سنوات بدأت الثورة الفرنسيّة، وتزامنت مع سنوات حياته أحـداث ثـورة نـابولي فـي إيطاليا، والثورة الإسبانيّة، والتمرّد اليوناني. وكما يشير الدكتور عيون السود فقد كان لتصاعد الرّوح الوطنيّة الروسيّة، المرتبط بالحرب الوطنية الرّوسيّة عام 1812، وبحركة الديـسمبريّين التي اختتمت بتمرّد 14 ديسمبر عام 1825 دور كبير في تكوين شخصيّة بوشـكين وإبداعـه. وبوشكين أوّل كاتب وشاعر روسيّ وطنيّ وشعبيّ، وقد نشأ في أسرة نبيلة، مشهود لها بعلـوّ المقام في الثقافة والأدب والشّعر، وكان يتردّد علـى منـزل آل بوشـكين الكتّـاب والأدبـاء المشهورين مثل كارامزين، ودميتربيف، وجوكوفسكي، (1783- 1852) وكانت مكتبة والـده غنيّة بمؤلّفات الكتّاب الرّوس والفرنسيّين فتعرّف بوشكين منذ صباه علـى مؤلّفـات الـشّعراء والكتاب الرّوس وعلى مؤلفات موليير (1622- 1673)، وبـو مارشـيه، وفـولتير. وكـان بوشكين يتقن إلى جانب لغته الأمّ اللغة الفرنسيّة واللاّتينية ولغات أخرى.

وقد ارتبط الاستيقاظ المبكر للوعي السيّاسي عند بوشكين بأحداث الحرب الوطنيّة عـام 1812... وبدأ قرض الشّعر منذ طفولته وخلال الفترة القصيرة من حياتـه الإبداعيّـة التـي استمرّت عقدين ونيّف من السنين، أنجز بوشكين عملاً تاريخياً جبّاراً، وهـو تأسـيس اللّغـة الأدبيّة المعاصرة والأدب الرّوائي الرّوسي الحديث.

وشارك الشاعر الكبير بوشكين في الحياة الأدبيّة الرّوسيّة منذ أن كان في الثامنة عـشرة من عمره.[1]

ويشير الدكتور نزار عيون السود إلى رواية بوشكين "ابنة الآمر" بقولـه: "إنّ الخاصّـة الرئيسة المميّزة لأشعار بوشكين ونثره هي البساطة والبعد عن التكلّف والتـصنّع، والإيجـاز والبعد عن الحشو والتزويق الفارغ. وتُعد رواية "ابنة الأمر" (1836) أكبر عمل روائي نثـري من مؤلّفاته وأعماله المنجزة"[2] كما ويذكر الدكتور عيون السود أنّ بوشكين طرح في مؤلّفاته وأعماله الشعريّة منها والنثريّة عدداً من القضايا والمسائل الهامّة للواقع السياسي والاجتمـاعي في عصره، فقد عالج موضوعين رئيسين هما: الصراع ضـد الحكـم القيـصري المطلـق، ومحاربة نظام القنانة. وكان بوشكين البشير والنذير الملهم لأفكـار الديـسمبريين وحـركتهم وثورتهم على القيصر وحكمه ونظامه. يقول الدكتور عيون السود:

[1] - المرجع السّابق نفسه، ص18، ص 19، ص20.

[2] - المرجع السّابق نفسه، ص 20

" ومن السّمات المهمة المميّزة لبوشكين وشخصيّته وإبداعه نزعته التّاريخيّة الواضحة، التي تجلّت في سعيه إلى معرفة حياة الشعب وفهمها والتعبير عنها بحركتها وتبدّلاتها، ورؤية التواصل في التطوّر التّاريخي، حيث الحاضر هو نتيجة للماضي، للمرحلة التّاريخية السّابقة.

وقد ظهر اهتمام الشاعر بالتّاريخ، وبخاصّة تاريخ شعبه ووطنه منذ طفولته، حيث صوّر في أعماله مجموعة كاملة من الشخصيات التّاريخيّة الرّوسيّة الرّائعة التي تجسّد أهم رجالات التّاريخ الرّوسي، بدءاً بالقيصر بطرس الأكبر والأمراء والنّبلاء الرّوس وانتهاءً بالقادة العسكريين البارزين.. كما كان الشاعر بوشكين مناضلاً وطنيّاً روسيّاً في حياته وسيرته وإبداعه، فقد مدح وتغنى في قصائده بحبّه العظيم لروسيا عامة ولموسكو، مسقط رأسه خاصّة ولبطرسبورغ والمدن الروسيّة الأخرى.. وكان بوشكين مؤيّداً ومتعاطفاً بصدق مع نضال شعوب روسيا القيصرية ضد النظام القيصري وهذا ما تجلى في تعاطفه مع نضال شعب بشكيريا ضد النظام القيصري الاستعماري، وذلك في روايته النثرية "ابنة الآمر" و"في قصّة بوغاتشوف".[1]

وتجدر الإشارة إلى ما ترجمه الدكتور ممدوح أبو الوي تحت عنوان "ألكسندر بوشكين (1799- 1837) بقلم بيتروف":

"تركت الحرب الفرنسية – الرّوسيّة التي امتدّت ما بين عامي 1805- 1841 والتي استطاع خلالها نابليون بونابرت (1769- 1821) احتلال موسكو عام 1812 بعد معركة بوردينو قرب موسكو، وبعد ذلك خرج من موسكو فلاحقه الجيش الرّوسي بقيادة كوتوزوف، واستطاع الجيش الرّوسيّ دخول باريس، تركت هذه الحرب أثراً كبيراً في أدب بوشكين، لقد ساهمت هذه الحرب في تأجيج حبّ الحريّة، وكانت أحد أسباب قيام حركة الديسمبريّين عام 1825 ، التي قام بها أبناء جيل بوشكين"[2] ونقرأ في المقال السّابق نفسه:

"يفتخر بوشكين ببطولات الشعب الرّوسي في دفاعه عن أرضه وكرامته ووطنه، ويندّد بالاحتلال الفرنسي لأرض وطنه، ويرى أنّ الموقف الرّوسي موقف عادل في حين مارس نابليون بونابرت الظّلم والعدوان والقهر والوحشيّة، ويرى أنّ الحضارات تزدهر في ظلّ النّظام العادل وتميل شمسها للغروب في عهد العبوديّة والاستبداد، ويقدّم مثالاً على ذلك حضارة روما"[3]

---

[1] انظر: المرجع السّابق ، ص 22.

[2] - بيتروف: ألكسندر بوشكين 1799- 1837 ترجمة: الدكتور ممدوح أبو الوي، مجلّة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 99- 100، صيف، خريف 1999، السنة الرابعة والعشرون، ص 52.

[3] المرجع السّابق، نفسه، ص 53.

ويشير بيتروف في مقاله السّابق إلى حركة الديسمبريّين التي قامت في 14 كانون الأوّل 1825 بعد وفاة الإمبراطور ألكسندر الأوّل (1777- 1825)، وقبل تتويج وليّ العهد نيكولاي الأوّل إلا أنها باءت بالفشل...، وكان معظم أعضائها أصدقاء بوشكين، وشــاءت الأقــدار ألاّ يكون بوشكين واحداً منهم....، وحين تمّ لقاء الإمبراطور نيكــولاي الأوّل وبوشــكين وســأله الإمبراطور: فيما لو كنت في 14 كانون الأول في العاصمة ماذا فعلت؟ أجاب الــشاعر: لــو كنت في العاصمة لوقفت إلى جانب الثوّار... وتوصّل الشاعر بعد هزيمة الديسمبريّين إلى أنّ الإصلاح يجب أن يتمّ بطريقة سلميّة....، ونقرأ في المقال: "بدأ بوشــكين عــام 1827 كتابــة رواية تاريخيّة عن عصر القيصر بطرس الأوّل، فكتب رواية "عبد بطرس العظيم" يتناول فيها سيرة حياة جدّه من جهة الأمّ وهو إبراهيم هينيبال الحبشيّ، الذي اختطفه الأتراك من الحبــشة وهو في الثامنة من عمره، ونقلوه إلى استنبول (القسطنطينية) حيث اشتراه الــسّفير الروســيّ، والذي قام بدوره بإهدائه إلى القيصر بطرس الأوّل، الذي جعلــه مــن المقــرّبين....، وكــان بوشكين يعتّز بأجداده العظماء، ولذلك خصّ مصر بعدد من مؤلّفاته، لأنّه يعلم علم اليقين أنّــه من أصل أفريقي..."[1]

ورواية "ابنة الآمر" كما يشير بيتروف في مقاله، يصف فيها بوشكين أحــداث التمــرّد الفلاحيّ الذي قاده بوغاتشوف (1744- 1775) وقد جرى هذا التمرّد الفلاحيّ خلال عــاميّ (1774-1775)، وأنهى بوشكين كتابة الرّواية الآنفة الذكر في خريف 1836....، وقد أشــاع أعداء بوشكين أنّ زوجته غير مخلصة له، وأنّ لها علاقة مع الفرنسي دونتيس الــذي دعــاه بوشكين إلى المبارزة بالمسدّسات دفاعاً عن شرفه، وتمّت المبارزة في 27 كانون الثاني عــام 1837، وجُرح بوشكين وتوفّي بعد مرور يومين من المبارزة. وهو مؤسّس المدرسة الواقعيّة النقدية في الأدب الرّوسي، وهو الذي أجرى بعض الإصلاحات على اللغة الرّوســيّة الأدبيّــة المعاصرة، ووقع تحت تأثيره كثير من الأدباء الرّوس في القرن التاسع عــشر، لا بــل وفــي القرن العشرين، وهو شمس الأدب الرّوسي.[2]

ويشير الباحث إبراهيم كاسوحة إلى قصة بوشكين "ابنة الآمر" بقوله:

"إنّ قصّة "ابنة الآمر" هي أوّل عمل واقعي تاريخي في الأدب الرّوسي، وفاتحــة عهــد جديد ومرحلة جديدة في تطوّر هذا النّوع من الأدب"[3]

[1] - المرجع السّابق ص 61

[2] انظر : المرجع السّابق نفسه، ص 65.

[3] - كاسوحة، إبراهيم: بوشكين من خلال أدبه، المرجع السابق، ص 91

وفي هذه القصة يتحدّث الكاتب بوشكين عن حدث تاريخيّ حقيقيّ، وهو ما قام به بوغاتشوف ورجاله من عصيان ضدّ القوّات القيصريّة، وقد ذكرنا ما جاء به سابقاً الدكتور ممدوح أبو الوي أنّ هذا التمرّد الفلاحي جرى فعلاً في عاميّ (1774- 1775)، والذي قاد هذا التمرّد هو بوغاتشوف- محور القصّة- وهذه الشخصيّة حقيقيّة، وما قامت به هذه الشخصية حقيقيّ تاريخيّ، وقد كان الكاتب دقيقاً أميناً في تصوير هذا الحدث التاريخي الحقيقيّ، ويدلّ على هذا ما ذكره إبراهيم كاسوحة في مقاله، فقد أشار إلى أنّ هذه الحركة حظيت باهتمام بوشكين وشغلت جزءاً من تفكيره، فلجأ إلى دراستها من جميع جوانبها، وزار الأماكن التي دارت فيها المعارك، وقابل عدداً من الأشخاص الذي يعرفون بوغاتشوف أو كانوا على اطلاع كافٍ على شخصيّته.[1]

تتألّف قصّة "ابنة الأمر" من أربعة عشر فصلاً، في الفصل الأوّل تظهر شخصيّة الشّاب النبيل بيوتر الذي يحدّثنا عن أبيه أندريه بتروفيتش غرينيف وأمّه أفدويتا فاسيلفنا اللّذين سلّماه إلى السّائس سافيليتش للعناية به، كما استقدما من موسكو الفرنسي مسيو بوبريه لتعليم بيوتر الفرنسية، والألمانية، وجميع العلوم إلا أنّ والد بيوتر طرده بسبب سوء سلوكه، ويحدّثنا بيوتر عن التغيّر الذي حدث في حياته حين بلغ السادسة عشرة، فقد سمع حديثاً بين والده ووالدته يدور حول ضرورة التحاق ابنهما بيوتر بالخدمة العسكريّة لتأدية واجبه المقدّس كنبيل تجاه وطنه والقيصر، ويصف لنا بيوتر فرحه لأن خدمته بالجيش كانت تعني له الحريّة، ومسرّات الحياة في بطرسبورغ، لكنّ أحلامه تلاشت حين علم أنّ والده قرّر إرساله إلى قلعة بيلاغورسكي لتأدية الخدمة تحت إشراف قائد القلعة النقيب ميرنوف.

وفي الطّريق إلى القلعة يقابل بيوتر الثائر بوغاتشوف، يقول إبراهيم كاسوحة: "وفيما كان بيوتر ومربيه في طريقهما إلى القلعة هبّت عاصفة ثلجيّة كبيرة كادت تودي بحياتهما لولا تدخلّ ذلك الإنسان الذي قابلهما صدفة وقادهما إلى ملجأ آمن حتّى انتهاء العاصفة. وقد تبيّن فيما بعد أنّ هذا الإنسان ما هو إلاّ الثّائر بوغاتشوف. وردّاً على هذا العمل الإنسانيّ وما قام به بوغاتشوف من مخاطرة لإنقاذ حياة الشّاب النّبيل ومرافقه، فقد أقدم الأخير على إهداء معطفه الثّمين والنّادر إلى بوغاتشوف"[2]

ونلمس براعة بوشكين في وصف شخصيّة بوغاتشوف، فهو يذكر صفاته الخارجيّة التي تعبّر عن شعوره وما يدور في داخله من تناقضات، يقول بوشكين في وصف بوغاتشوف:

---

[1] -انظر: المرجع السّابق، ص 87.

[2] - المرجع السّابق، ص 87.

"نزل الفلاح من الرّفوف فوق الموقد. فلاح لي مظهره رائعاً: كان في نحو الأربعين من العمر، متوسّط القامة، نحيلاً، عريض المنكبين. وخطّ الشّيب لحيته السّوداء، وكانت عيناه الكبيرتان المتألقتان لا تفتآن تتحرّكان. وقد ارتسم على وجهه تعبير لطيف جدّاً ولكن فيه دهاء. وقد حلق شعره على شكل دائرة. وكان يرتدي معطفاً فلاحيّاً مهلهلاً وسروالاً تتريّاً"[1]

وفي الفصل الثالث يصف لنا الكاتب بدقّة موقع قلعة بيلوغورسك على بعد أربعين فرسخاً من أورنبورغ..... ويصوّر لنا على لسان بيوتر دخوله إلى القلعة وما رآه، ومقابلته زوجة آمر القلعة فاسيليا يغورفنا التي طلبت من مكسيميتش ضابط الصّف وهو قوزاقيّ شاب حسن القوام، طلبت منه أن يُسكن بيوتر مسكناً نظيفاً، وحديثها مع زوجها الآمر، وهذه الأحداث التفصيليّة التي يذكرها بوشكين هي أحداث متخيّلة، وكذلك الحديث الذي دار بين الآمر وزوجته وبيوتر، وحديث زوجة الآمر عن ابنتها ماريا إيفانوفنا (ماشا) وأمنيتها بتزويجها من رجل طيّب، يقول بيوتر بعد ذكره ما قالته زوجة الآمر حول ابنتها التي تخشى أن تصبح عانساً:

"حدجتُ ماريا إيفانوفنا ورأيتها مضرّجة بحمرة الخجل، بل إنّ قطرات الدّموع نزلت على صحنها، أشفقتُ عليها، فأسرعتُ في تغيير الحديث. قلت في غير ما رابطة: "سمعت أنّ الباشكريين يستعدّون للهجوم على قلعتكم"[2]

وفي الفصل الرّابع يصوّر لنا بوشكين حياة بيوتر في قلعة بيلوغورسك، وتعلّقه بعائلة الآمر الطيّبة، وقد أُعطي بيوتر رتبة ضابط، وانشغل في الأدب، وكتب أبياتاً من الشعر قرأها لـ (شفابرين) القادر على تقييم الشعر، إلا أنّ شفابرين أعلن أنّ الأغنية ركيكة، وعندما سأله بيوتر عن السبب أجابه شفابرين: "لأنّ هذه الأشعار جديرة بأن ينظمها معلّمي فاسيلي كيريلوفيتش تريد ياكوفسكي، وهي تذكّرني كثيراً بمثانيه الغراميّة".[3]

وتريد ياكوفسكي كما يشير الناشر في الهامش وهو شاعر ومترجم روسي عاش في القرن الثامن عشر. كانت قصائده كثيراً ما تثير سخرية معاصريه.

ويحتدم النقاش بين بيوتر وشفابرين حول ماشا ابنة الآمر، فيدعو شفابرين بيوتر للمبارزة، وقبل أن تبدأ المبارزة في اليوم التالي، ظهر إيفان ايفناتيفيتش ضابط الحامية الأعور

---

[1] بوشكين، ألكسندر: ابنة الآمر، دار التقدّم، موسكو، (ب.ط)، 1974، ص 202.

[2] بوشكين، ألكسندر: ابنة الآمر، ص 217

[3] المرجع السّابق نفسه، ص 223

مع مجموعة من الجنود، فأحاطوا بهما، وقادوهما إلى القلعة، وهناك لامتهما زوجة الآمر على تصرّفهما ووافقها إيفان كوزميتش زوجها قائلاً:

"إن فاسيليا يغوروفنا على حقّ، المبارزات ممنوعة رسميّاً في قانون الجيش"[1]

وتطلب زوجة الآمر من زوجها أن يسجن بيوتر وشفابرين، إلا أنّهما يتظاهران بالمصالحة، ويتّفقان على المبارزة مرة ثانية، وفي اليوم التّالي يلتقيان عند النهر، ويتبارزان بالسّيف، ويحسّ بيوتر بوخزة قوّية في صدره ويسقط مغشيّاً عليه.

إنّ الأحداث السّابقة التي صوّرها لنا الكاتب بوشكين هي أحداث متخيّلة، وكذلك الحوارات التي جرت بين شخصيّات القصّة، لكن بسبب دقّة الكاتب وتفصيله في تصوير الحدث، وبراعته في إبراز عالم الشخصيّة الداخلي، وما تفكّر وتشعر به، كلّ هذا جعلنا نشعر وكأنّ هذه الأحداث حقيقيّة وليست متخيّلة.

وفي الفصل الخامس من القصّة يفصّل لنا بيوتر كيف اعتنت به ابنة الآمر ماريا إيفانوفنا بعد إصابته في المبارزة، وكيف فاتحها بالزواج وموافقتها، أمّا شفابرين فقد سُجن في مخزن الحبوب، وأسف على ما فعله لبيوتر الذي سامحه، فأُفرج عن شفابرين، وأرسل بيوتر رسالة إلى أبيه يلتمس فيها موافقته على زواجه من ماريا، وجاء الردّ بعدم موافقة الأب، بل إنّه قرّر معاقبته على نزواته، فكتب في رسالته أنّه سوف يرجو أندريه كارلوفيتش أن ينقل ابنه من قلعة بيلوغورسك، ويخبر بيوتر ماريا بمضمون الرّسالة، ويطلب منها أن يتزوّجا إلا أنّها ترفض الزواج به دون موافقة والديه، وبعد ابتعاد ماريا عنه يصوّر لنا بيوتر بدقة مشاعره فيقول: "وأصبحت حياتي لا تُطاق، وانغمرتُ في أفكار سوداوية كان تغذّيها الوحدة والفراغ. وكان حبّي يتأجّج في العزلة، ويصبح رهقاً عليّ أكثر فأكثر. وفقدت الرّغبة في القراءة والأدب. وخارت عزيمتي. وخشيت أن أفقد عقلي، أو أنغمس في الفجور. إلا أنّ أحداثاً غير متوقّعة تركت أثرها على مجمل حياتي، بعثت في نفسي هزّة شديدة نافعة"[2]

إنّ ما ذكره الكاتب بوشكين على لسان شخصيّة قصّته بيوتر يجعلنا متشوّقين لمعرفة هذه الأحداث التي هزّت حياته، والتي يفصّل في ذكرها في الفصل السادس بعنوان "جماعة بوغاتشوف"، وقبل أن يبدأ بيوتر برواية الأحداث الغريبة التي شهدها يقول بعض الكلمات عن وضع ولاية أورنبورغ في أواخر عام 1773، فقد كان يسكن هذه الولاية عدد كبير من شعوب نصف متوحّشة التي لم تعترف بسيادة الحكّام الرّوس إلا منذ عهد قريب.

---

[1] المرجع السّابق، ص230

[2] بوشكين، ابنة الآمر ص 245.

وكانت الحكومة دائمة الرّقابة لها، وعُيّن القوزاق على ضفاف نهر يايك للمحافظة على الهدوء والأمن إلا أنهم كانوا أحياناً خطرين بالنسبة للحكومة، وفي عام 1772 حصل اضطراب في بلدتهم الرئيسية، كان مبعثه التدابير المشدّدة التي اتخذها الجنرال تراوبنبرغ لإخضاع القوّات للطاعة الواجبة. فأدّى ذلك إلى قتل تراوبنبرغ بشكل وحشي، وفي آخر الأمر أخمد العصيان بالرّصاص والعقوبات الصارمة.

ويبدأ بيوتر سرد الأحداث، فقد أُستدعي باسم الآمر في إحدى أمسيات تشرين الأوّل عام 1773، فتوجّه إلى الآمر الذي طلب من الضباط أن يسمعوا الخبر المهم الذي كتبه الجنرال، وقرأ الآمر ما جاء فيه:

"إلى السيّد آمر قلعة بيلوغورسكيا النّقيب ميرونوف /سرّي/:

أحيطكم علماً بأنّ القازاقي من منطقة نهر الدون والخارج على الطّائفة إميليان بوغاتشوف الهارب من السّجن قد جمع شرذمة من الأشرار مبدياً وقاحةً شنيعة بانتحاله اسم الإمبراطور الرّاحل بطرس الثالث، وأثار اضطرابات في قرى منطقة يايك، واستولى وعاث بعدّة قلاع، مقترفاً في كلّ مكان أعمال النّهب والقتل. وبناءً على ذلك اتّخذوا، يا حضرة النقيب، حال تسلّمكم هذه الرّسالة التدابير اللازمة لدحر هذا الشّرير والدعيّ المذكور أعلاه، والقضاء عليه كليّاً، إن أمكن، إذا تطاول على القلعة التي عهد بها إلى عنايتكم"[(1)]

وما جاء في رسالة الجنرال ليس حدثاً متخيّلاً من قبل الكاتب بوشكين، وإنّما هو حدث تاريخيّ حقيقيّ، فالقازاقي بوغاتشوف قام بثورته ما بين عامي 1773- 1775 ضدّ القيصرة كاترينا الثّانية. يطلب الآمر بعد قراءته الخبر من الضبّاط أن يتّخذوا التدابير اللازمة، وطلب منهم أيضاً أن يكتموا الخبر، ولكن رغم كلّ تحوّطاتهم انتشر نبأ ظهور بوغاتشوف في القلعة كلّها، وعلمت زوجة الآمر بالأمر رغم جهود زوجها في إخفاء الأمر عنها، وعندما شاهدت العجوز إيفان إيغناتيفيتش ينظّف المدفع أوقعته في الكلام وسألته عمّا سيحصل، فأجابها:

"لا يحدث شيء يا سيّدة، ولكنّ الله رحيم، عندنا الكفاية من الجنود، والكثير من البارود، وقد نظّفتُ المدفع. ونأمل أن نصدّ بوغاتشوف. من كان الله في عونه فلا غالب له"[(2)]

ومن القول السّابق يتّضح لنا ثقافة بوشكين الإسلاميّة، واهتمامه بالقرآن الكريم، فربّما في قوله هذا إشارة إلى الآية القرآنية:

---

[1] المرجع السّابق نفسه، ص 247، ص 248.

[2] المرجع السّابق، ص 251.

(الآن خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين)(1)

إذاَ كان بوشكين مهتمّاً بالقرآن الكريم، وهذا ما أشار إليه مالك صقّور في كلمة له قالها في الذّكرى المئوية الثّانية لميلاد بوشكين إذ يقول:

"إنّ بوشكين شُغف بالقرآن الكريم فها هو ذا يكتب رسالة قصيرة إلى أخيه فيقول: إنّي مشغول بكلمات القرآن. وفي رسالة أخرى يقول: إنّي أقرأ القرآن"(2)

واجتمع الضباط من جديد، وقرأ الآمر بحضور زوجته نداء بوغاتشوف، "وقد أعلن قاطع الطّريق فيه عن عزمه على الزحف على قلعتهم، ودعا القوزاق والجنود إلى الانضمام إلى عصابته، وحثّ الضباط على عدم المقاومة، متوعّداً إيّاهم بالقتل في حالة الرّفض. وكان النّداء مكتوباً بعبارات خشنة، ولكنّها قويّة، ولا بدّ أنّه سيترك تأثيراً خطيراً على عقول بسطاء النّاس"(3)

وطلب الآمر أن يُؤتى بالمحجوز في الشّونة باشكيريا بعد أن اُعتقل ومعه منشورات، وقرّر الآمر معاقبته وقد عرف من وصماته بأنّه واحد من المتمرّدين الذي عُوقبوا في عام 1741، وتناول يولاي السّوط مهدّداً به باشكيريا، وفتح العجوز باشكيريا فمه، وإذا بقطعة لحم صغيرة، تتحرك داخل الفم بدلاً من اللسان. يقول بوشكين:

"عندما أتذكّر أنّ ذلك حدث في زماني، وأنّ العمر قد امتدّ بي الآن إلى العهد السّمح للإمبراطور ألكسندر الأول لا يسعني إلا أن أدهش للنّجاحات السّريعة في التنوير، وانتشار أصول حبّ الإنسان. أيهّا الشباب".(4)

يشير الناشر في هامش الصفحة التي ذُكر فيها قول بوشكين السّابق بقوله:

"يصف بوشكين عهد حكم هذا الإمبراطور بالسّمح سخرية به"

وفي قول بوشكين السّابق يتّضح لنا ما يؤمن به بوشكين من أفكار تدعو إلى الحرية والمساواة والوقوف إلى جانب الشعب ضدّ الحاكم الظالم، فالحرّية حقّ مشروع من حقوق

---

[1] القرآن الكريم، سورة الأنفال، الآية رقم 66.

[2] صقور، مالك: بوشكين والقرآن، مجلّة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 99- 100 صيف، خريف 1999، السنة الرابعة والعشرون، ص 115.

[3] بوشكين، ابنة الآمر، ص 253- 254.

[4] المرجع السّابق، ص 257.

الإنسان، وبوشكين معروف بتأثّره بأفكار الثورة الفرنسيّة (1789)، وآراء الفلاسفة الفرنسيّين أمثال فولتير وجان جاك روسو(1712- 1778)، وتأثّر بوشكين بالأحداث التاريخيّة التي يصوّرها لنا واضح، وتفاعله معها كذلك.

يصف لنا بوشكين على لسان بيوتر كيف صُعق بالنّبأ الجديد، وهو استيلاء بوغاتشوف ورجاله على قلعة نيشني أوزرسك، وشنقهم للآمر والضبّاط في القلعة، وأسرهم للجنود كافّة، كانت قلعة أوزرسك تقع على بعد خمسة وعشرين فرسخاً من قلعة بيلوغورسك، وأخبر بيوتر الآمر أنّ من واجبهم الدّفاع عن القلعة حتّى آخر نفس، ونصحه بإرسال النّساء إلى أورنبورغ، ولكنّ زوجة الآمر تقرّر البقاء مع زوجها معلّلة ذلك بأنهما عاشا سويّة، وسيموتان سويّة، وتقرّر إرسال ابنتها ماشا إلى أورنبورغ وتودّع ماشا بيوتر وهي تبكي.

وفي الفصل السّابع من القصّة الذي يعنونه الكاتب بكلمة "الغارة"، وقبل أن يبدأ بوشكين بسرد أحداثه ووصف انفعاله، وخوفه على ماريا إيفانوفنا بعد سماعه أنّ أناساً مجهولين يطوفون حول القلعة، ولم تتمكّن ماريا من السّفر فالطريق إلى أورنبورغ قد قُطع، ويصوّر الكاتب استعداداتهم لمواجهة بوغاتشوف، فسكّان القلعة تجمهروا على السّور الذي نُقل المدفع إليه، وفي السّهب على مسافة غير بعيدة من القلعة كان يتحرّك زهاء عشرين فارساً، وكانوا قوزاقاً على ما يبدو، إلاّ أنّ بعض البشكيريّن كانوا بينهم، وطاف الآمر بجنوده وأمرهم بالثّبات في سبيل أمّهم الإمبراطورة، فأبدى جنوده حماسهم بصوت عالٍ، وأوعز أمره إلى إيفان إيغناتيفيتش بقذفهم بالمدفع، لكن القذيفة لم تلحق بهم الأذى.[1]

يقول الكاتب في وصف الغارة:

"في أثناء ذلك ظهرت من وراء المرتفع الواقع على بعد نصف فرسخ من القلعة تجمّعات جديدة من الخيّالة، وسرعان ما انزرع السّهب بعدد كبير من المسلّحين بالرّماح والأقواس والنّبال، بينما سار بينهم فارس على حصان أبيض في قفطان أحمر يمسك في يده سيفاً مجرّداً. كان ذلك بوغاتشوف نفسه. توقّف، وأحاطوا به، وبناءً على أمره على ما يبدو، خرج أربعة فرسان منطلقين بأقصى ما تستطيع خيولهم نحو قلعتنا، ولمّا اقتربوا عرفنا فيهم خونتنا. كان أحدهم يرفع ورقة بالقرب من قبّعته، والآخر يحمل رأس يولاي على طرف رمحه. وقد هزّه، وقذفه إلينا عبر السّياج. وقع رأس الكالميكي المسكين عند قدمي الآمر. وصرخ الخونة: "لا تطلقوا النّار، واخرجوا إلى القيصر، إنّه هنا"[2]

---

[1] انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 258 حتى 264.

[2] بوشكين، ابنة الآمر، ص 265

في عمق الحدث السّابق يعرّفنا بوشكين على شخصيّة بوغاتشوف الحرّة المتوازنة، وكيف يرى فيه الشعب والفلاحون صورة الحاكم الشعبيّ المدافع عن مصالحهم وحرّيتهم.

ويتابع الكاتب في وصف الحدث، فيذكر أنّ إيفان كوزمتيش صاح آمراً بإطلاق النّار بعد سماعه ما قاله الخونة.... وبعد وقت قصير أخذ رصاص بوغاتشوف ورجاله يئزّ قرب آذان الآمر وجنوده، وفجأة أخذ العصاة يترجّلون عن خيولهم ويركضون نحو القلعة، وأمر الآمر بقذفهم بالمدفع وقرع الطبّل والتقدّم إلى الأمام، ووصل المتمرّدون واقتحموا القلعة، وألقى جنود الحامية السّلاح، وكان الآمر قد جُرح في رأسه، أمّا بيوتر فقد أمسك به بعض القوزاق الأقوياء وشدّوه بالأحزمة وجرّوه مع الآخرين في الشّوارع، وقادوهم إلى السّاحة حيث كان القيصر ينتظر الأسرى، والقيصر المقصود هو بوغاتشوف الذي جلس في مدخل بيت الآمر يحيط به العمد القوزاقيون، والأب غيراسيم، ونُصبت مشنقة في السّاحة وأبعد الباشكيريون النّاس، يقول بوشكين في وصف ما حدث:

"سأل الدعيّ: "من الآمر؟" خرج ضابط الصفّ من الحشد، وأشار إلى إيفان كوزوميتش: نظر بوغاتشوف إلى العجوز نظرة متوعّدة وقال له: "كيف تجرّأت على مقاومتي وأنا قيصرك؟" جمع الآمر الذي أوهنه الجرح بقايا قوّته، وأجاب بصوت قويّ: "لست قيصري، بل أنت لصّ ودعيّ فاسمع قولي!" تجهّم بوغاتشوف عبوساً ولوّح بمنديل أبيض. أمسك بعض القوزاق بالنقيب العجوز وجرّوه إلى المشنقة"[1]

وشُنق الملازم إيفان إيغناتيفيتش بالقرب من رئيسه العجوز لأنّه رفض أن يُقسم يمين الولاء لبوغاتشوف، ويتابع بوشكين قوله على لسان بيوتر كيف جاء دوره، وكيف رأى بين المتمرّدين شفابرين الذي اقترب من بوغاتشوف وهمس في أذنه بعض الكلمات التي جعلت بوغاتشوف يأمر بشنقه دون أن يكلّمه، وأخذ بيوتر يقرأ الصلاة في سرّه، وسحبوه تحت المشنقة، وإذ به يسمع صراخ سافيليتش الذي ارتمى على قدمي بوغاتشوف راجياً إيّاه أن يطلق سراح بيوتر، فأمر بوغاتشوف بتركه، ومدّ يده ليقبّلها بيوتر، ولكنّ بيوتر رفض تقبيلها، فتركوه وشأنه، فأخذ يتابع فصول الكوميديا كما يصوّرها، فيقول:

"أخذ الأهالي يقسمون يمين الولاء، كانوا يتقدّمون واحداً وراء الآخر، ويقبّلون الصّليب، وينحنون للدعيّ. وكان جنود الحامية يقفون هناك أيضاً. كان خيّاط السريّة يقصّ لهم ضفائرهم

---

[1] المرجع السابق، ص 269

بمقصّه المثلم، ويدنون من يد بوغاتشوف، نافضين عنهم الشّعر، فيعلن هذا مغفرتـــه، ويقـــبلهم في شرذمته، وقد استمرّ كلّ ذلك حوالي ثلاث ساعات"[1]

وفي اللحظة التي ترك بوغاتشوف مقعده، ورفعه قوزاقيان وأجلساه على السّرج ارتفعت صيحة نسائية، فقد كان بعض الشّقاة يجرّون زوجة الآمر فاسيليا يغوروفنا، شـــعثاء الـــشّعر، مجرّدة من الثياب، وكان الآخرون يجرّون أمتعة البيت، يصف بوشكين هذا الحـــدث المريـــع بقوله:

"وفجأة وقع بصرها على المشنقة، وتعرّفت على زوجها. صـــاحت فـــي هلـــع: "أيّهـــا الأشرار! ماذا فعلتم به؟ يا ضيائي، يا إيفان كوزميتش، أيّها الرأس المحارب الشجاع، لم تنـــل منك حراب البروسيين ولا رصاص الترك، لم تصرع في معركة نزيهة، بـــل قتلـــك مجـــرم هارب!". قال بوغاتشوف: "أسكتوا السّاحرة العجوز!" وفي هذه اللحظة ضرب قوزاقي رأســـها بالسّيف، فوقعت صريعة على درجات المدخل. وتحرك بوغاتشوف وانطلق النّاس في أثره"[2]

إنّ أوّل ما يخطر في بال القارئ عند انتهائه من قراءة الفصل السّابع هو براعة الكاتـــب بوشكين في وصف غارة بوغاتشوف، وإبداعه في ذكر تفصيلات ربمّا يكون قد استمدّ بعضها من خياله الواسع، ولكن يبقى أسلوبه في وصف هذا الحدث التاريخي الذي أثار ضجّة آنـــذاك متميّزاً فريداً، وتفرّده في وصف المشاعر الإنسانيّة وصلابة وقوّة الإنسان الرّوسيّ، وتمـــسّكه بالقيم التي يحملها، كلّ ما سبق يجعل القارئ يشعر وكأنّه يعيش الحـــدث مـــع الشخـــصيات، فيحزن لحزن بعضها، ويتألّم لألم بعضها الآخر، وهذا هو الكاتب المبدع بوشكين الذي يقـــدّم لنا الحدث التاريخ الحقيقي مزّيناً بأدب رائع وصور مبدعة، وخيال يرفد الحدث التاريخي الذي يقدّمه لنا.

وفي الفصل الثامن يصوّر لنا بوشكين على لسان بيوتركيف كان غير قادر على تنظـــيم أفكاره التي أثارتها المشاهد الفظيعة التي شاهدها، وأشدّ ما كانت يعذّبه هو جهله بمصير ماريا إيفانوفنا، ثم يعلم أنّها مختبئة في بيت القسّ، فيذعر لأنّ بوغاتشوف كان هناك، ويـــسرع إلـــى بيت القسّ، ويسأل زوجة القسّ عن ماريا، فتخبره أنّها نائمة في سريرها، ثم يعلـــم بيـــوتر أنّ بوغاتشوف والدليل الذي كان سابقاً قد أعطاه معطفه في النزل هما شـــخص واحـــد، يقـــول بيوتر: "فأيقنت أن بوغاتشوف والدليل شخص واحد. وفهمت السبب في الرّأفة التـــي شـــملني بها. فما كان بوسعي إلا أن أتعجّب من تشابك الظّروف: معطف صبيّ أهديته إلـــى متـــشرّد

[1] - المرجع السابق، ص 272

[2] المرجع السابق، ص 272، ص 273.

أنقذني من حبل المشنقة، وسكيّر كان يترنّح بين الحانات استطاع أن يحاصر القلاع ويهزّ الدّولة!"[1]

ثم يصل أحد القوزاق يعلن أنّ بوغاتشوف يطلب مثول بيوتر بين يديه، فيذهب بيوتر إلى بيت الآمر، ويقابل بوغاتشوف، ويذكر بيوتر كيف كان الجميع أي بوغاتشوف ورفاقه يتعاملون فيما بينهم كرفاق، وفي ذلك المجلس تقرّر الزّحف على أورنبورغ، ثم يتحدّث بوغاتشوف مع بيوتر على انفراد، ووعده أن يجازيه إذا وعده بأن يخدمه بحماس، ويعترف أنّه القيصر بيتر فيودوروفيتش، فيجيبه بيوتر أنّه نبيل في الأصل، وقد أقسم يمين الولاء للإمبراطورة، وطلب منه أن يدعه يسافر إلى أونبورغ إذا كان يريد له الخير حقّاً، فيسمح له بوغاتشوف بالذّهاب إلى حيث يشاء.[2]

وفي الفصل التاسع من القصّة والذي وضع بوشكين عنواناً له هو "الفراق" يعيّن بوغاتشوف شفابرين آمراً للقلعة، ويقرّر بيوتر الذهاب إلى أورنبورغ، بغية التعجيل في تحرير قلعة بيلوغورسك.

والفصل العاشر بعنوان "حصار المدينة" يقابل بيوتر الجنرال الذي عقد مجلساً حربيّاً ليقرّر كيف يتصرّف مع العصاة، وهل يتّخذ طريقة الهجوم أم الدّفاع، ثم أخذ بغالبيّة الآراء التي أقرّت بأنّ أصوب وآمن طريقة هو التحصّن داخل المدينة في انتظار الحصار، وصدّ العدوّ بقوّة المدفعيّة، وبعد عدّة أيام اقترب بوغاتشوف من أورنبورغ ومعه المتمرّدون وقد ازداد عددهم، ومعهم المدفعيّة التي أخذها بوغاتشوف من القلاع الصغيرة التي احتلّها، ويخبرنا بيوتر أنه كاد يبكي من الأسى لأنه تنبأ بحصار طويل الأجل داخل أسوار أورنبورغ. يقول بوشكين في وصف هذا الحدث التاريخيّ الحقيقيّ على لسان بيوتر:

"لا أريد أن أصف حصار أورنبورغ فهو من اختصاص المؤرّخ، ولا يخصّ مذكّرات عائليّة، بل أقول باختصار إنّ هذا الحصار كان، بسبب تراخي القيادة المحلّية، وبالاً على الأهالي الذين عانوا الجوع ومختلف الويلات. في وسع المرء أن يتصوّر بسهولة أنّ الحياة في أورنبورغ كانت لا تُطاق إلى أقصى حدّ. فكان الجميع ينتظرون بجزع حكم القدر عليهم، ويتوجّعون من غلاء الأسعار الذي كان فظيعاً في الواقع. اعتاد الأهالي على القنابل المتطايرة

---

[1] - بوشكين، رواية ابنة الآمر، ص 278

[2] - انظر: المرجع السّابق نفسه، الصفحات من 279 حتى 286.

إلى أفنية دورهم، وحتّى هجمات بوغاتشوف لم تعد تثير اهتمام العامّة. ضجرتُ ضجراً قاتلاً، ومضى الزمن، ولم أتلقّ رسائل من قلعة بيلوغورسك، فقد كان جميع الطرق مقطوعة." [1]

ثمّ يطلب بيوتر من الجنرال أن يضعه على رأس سريّة من الجنود وخمسين من القوزاق، ويتركه ليحرّر قلعة بيلوغورسك، بعد أن أرسلت له ماريا إيفانوفنا رسالة ترجوه فيها أن ينقدها من بوغاتشوف ومن ألكسي إيفانوفيتش الذي يريد إجبارها على الزواج به، فلا يجيبه الجنرال إلى طلبه لأنه لا يستطيع أن يتحملّ مسؤوليّة هذه الحملة.

والفصل الحادي عشر بعنوان "قرية العصاة" يذهب بيوتر أندرييفيتش مع خادمه سافيليتش إلى قرية بيردسك، مأوى أنصار بوغاتشوف، ويقابل بيوتر بوغاتشوف مع ضابطين من ضبّاطه، ويخبره بقصة ماريا وأنها خطيبته، ويذهب بوغاتشوف مع بيوتر إلى قلعة بيلوغورسك، وينصح بيوتر بوغاتشوف أن ينصرف عن رجاله، ويلتمس عفو القيصرة، فيجيبه بوغاتشوف بأنه لن يُعفى عنه، وسيستمر كما بدأ.[2]

وفي الفصل الثّاني عشر تصل عربة بوغاتشوف ومعه بيوتر إلى بيت الآمر، ويستقبله شفابرين الذي يصفه بيوتر بالخائن، ويرى بيوتر ماريا وهي في حالة سيّئة، ويسمح بوغاتشوف لبيوتر أن يأخذ ماريا إلى حيث يشاء. ويهدّد شفابرين بمعاقبته، ويخرج بيوتر مع ماريا من القلعة مغادرين إيّاها إلى الأبد.[3]

وفي الفصل الثالث عشر وعنوانه (الاعتقال): يصل بيوتر مع ماريا إلى قلعة مجاورة يسيطر عليها بوغاتشوف، وهنا يتعرف بيوتر على إيفان إيفانوفيتش زورين الذي جعله يخسر في حانة سيمبيرسك، فروى له بيوتر مغامراته، ونصحه زورين أن يظل معه في المفرزة وألاّ يعود إلى أورنبورغ، ويرسل بيوتر ماريا إلى والديه في القرية، أمّا هو فقد كان يشعر أنّ واجبه العسكريّ كان يقتضي وجوده في قوّات الإمبراطورة. يقول بوشكين على لسان بيوتر في وصف ما حدث بعد ذلك:

"كان ذلك في نهاية شباط، والشتاء المعوّق للعمليّات العسكريّة في سبيله إلى الانتهاء، وقد تهيّأ جنرالاتنا إلى عمل منسّق. كان بوغاتشوف ما يزال عند مشارف أورنبورغ. وفي غضون ذلك كانت القوّات القيصريّة تلتقي فيما بينها وتطوّق وكر الشرّ من جميع الجهات. أخذت القوى المتمرّدة تعود إلى الطّاعة بظهور قوّاتنا، وكانت شراذم اللصوص تفرّ منّا في كلّ

---

[1] - المرجع السّابق، ص 301، ص 302.

[2] - انظر: المرجع السّابق: الصفحات من 303 حتّى 324.

[3] - انظر: بوشكين، ابنة الآمر، ص 324 حتى ص 336.

مكان، وكان كلّ شيء ينبئ بخاتمة موقّتة سريعة. وبعد قليل استطاع الأمير غوليتسين أن يدحر بوغاتشوف عند قعلة تاتيشيفو، ويشتّت حشوده، ويحرّر أورنبورغ، فكان بذلك قد وجّه إلى العصيان الضّربة الأخيرة الحاسمة. كان زورين في ذلك الحين قد جُرِّد ضد عصابات المتمرّدين الباشكيريّين الذين كانوا يتشتتون قبل أن تقع أبصارنا عليهم"[1]

وقد تبيّن فيما بعد أنّ بوغاتشوف لم يُؤسر، فقد ظهر في مصانع سيبريا، وأخذ يجمع هناك عصابات جديدة، وخرّب القلاع السيبيريّة، واستولى على قازان، وزحف إلى موسكو، وصدر الأمر إلى زورين بعبور الفولغا بقوّاته، ويذكر بيوتر أنهّم مرّوا بقرى دمّرها العصاة، وتفكّكت الإدارة في كلّ مكان بعد نهاية الحرب. وكانت حالة الإقليم الواسع مريعة بعد تفشي الحريق، يقول بيوتر:

"هرب بوغاشوف يتعقبه إيفان إيفانوفيتش ميخلسون، وبعد وقت قصير سمعنا بنبأ اندحاره الكليّ، وأخيراً تلّقى زورين نبأ القبض على الدعيّ، ومعه أمر بالتوقّف. لقد انتهت الحرب. وصار من الممكن أخيراً أن أسافر إلى والديّ"[2]

وفي اليوم الذي حُدّد لسفربيوتر، يدخل عليه زورين ويسلّمه ورقة فيها أمر سرّي لكلّ أمراء الوحدات باعتقال بيوتر أينما وجد، وإرساله فوراً إلى قازان تحت الحراسة للمثول أمام لجنة التحقيق المختصّة بقضيّة بوغاتشوف.[3]

فيما سبق وبعد القبض على بوغاتشوف الذي قام بالعصيان، نرى كيف يفصّل بوشكين في شرح الأحداث المتخيّلة.

يتابع الكاتب في سرد أحداث الفصل الرابع عشر والأخير الذي عنوانه (المحاكمة) فيذكر فيه على لسان بيوتر أنّ اتّصالاته الوديّة مع بوغاتشوف يمكن أن تثبت بعدد كبير من الشّهود، ولابدّ أن تبدو مريبة على أقلّ تقدير، وأُخذ بيوتر إلى قلعة وسط مدينة (قازان) وساروا به إلى السّجن، وفي اليوم التالي طلبته لجنّة مؤلفة من جنرال ونقيب وسأله النّقيب الشاب عن الوقت الذي دخل فيه في خدمة بوغاتشوف، وما هي المهمّات التي نفذّها له".[4]

ويردّ بيوتر على سؤال النّقيب بأنّه كضابط ونبيل ما كان من الممكن أن يدخل في أيّة خدمة لبوغاتشوف، ولا أن يتلّقى منه أية مهمّة، ويعترض المستجوب بقوله:

---

[1] - بوشكين، ابنة الآمر، ص 344.

[2] - المرجع السّابق، ص 346.

[3] - انظر: المرجع السابق ، 347، ص 348

[4] -انظر: المرجع السّابق، ص 349، ص 350

"وكيف إذن يرأف هذا الدعيّ بضابط ونبيل واحد، بينما يفتك بجميع رفاقــه بوحــشيّة؟ وكيف يمكن لهذا الضابط وهذا النبيل أن يمرح مع المتمرّدين، ويقبل مــن رئــيس الأشــرار هدايا: معطفاً وجواداً ونصف روبل؟ كيف نشأت هذه الصّداقة الغريبة وعلى أيّ أساس قامت، إذا لم تكن على أساس الخيانة، أو على أقلّ تقدير على ضعف عزيمة المجرم الشائن"[1]

يقول بيوتر إنّه شعر بإهانة شديدة من كلمات ضابط الحرس، فبدأ دفاعه بحرارة، وروى كيف بدأ تعارفه ببوغاتشوف في السّهب، ودفاعه عن قلعة بيلوغورسك ضــدّ الــشرير حتّــى النّهاية.

وبعد ذلك ظهر شفابرين،واتّهم بيوتر بأنه كان جاسوساً لبوغاتشوف الذي كــان يرســله إلى أورنبورغ، وينقل له معلومات مكتوبة عن كلّ ما يحدث في المدينة، ولكنّ شــفابرين لــم يتفوه باسم ماريا إيفانوفنا. ويسأل القاضيان بويتر كيف يدحض أقوال شفابرين فأجاب بأنه باقٍ على توضيحه الأوّل.[2]

أمّا ماريا فقد استقبلها والدا بيوتر بالفرح الصّادق كما يقول بيوتر، ويذكر بيوتر أنّه بعــد مضيّ عدّة أسابيع تلقّى والده رسالة من بطرسبورغ مرسلة من قريبهم الأمير "ب" يذكر فيهــا أنّ الشّكوك بخصوص اشتراك بيوتر في خطط العصاة قد ثبتت تماماً، وأنّ الإعدام كان سيُنفذ في بيوتر لولا عطف الإمبراطورة عليه احتراماً لخدمات أبيه وشيخوخته، فقــرّرت اســتبدال الإعدام بالنفي المؤبّد إلى إقليم ناءٍ من سيبيريا، وكادت هذه الصّدمة المفاجئة كما يقول بيــوتر أن تُودي بأبيه الذي عدّ نكث النبيل بيمينه، وانضمامه إلى لصوص هو عار لعشيرتهم كلّهــا، وتقرّر ماريا السّفر إلى بطرسبورغ للبحث عن الحماية والعون من ذوي النفوذ، بوصفها ابنــة رجل وقع ضحيّة في سبيل ولائه، وتصل ماريا إلى صوفيا وتتوقف في مدينــة تــسارسكويه سيلو، وتقابل سيّدة مجهولة تشرح لها قصّتها، وتجيبها السيّدة أنّ الإمبراطورة لن تــستطيع أن تعفو عن غرينيف، فتدافع ماريا عن بيوتر وتخبر السيدة أنّ بيوتر لم يبرّر نفسه أمام المحكمــة لأنّه لم يُرد أن يشرك ماريا في القضيّة، ثمّ تدعو القيصرة ماريا إلى بلاطها، وتكتشف ماريّــا أنّ القيصرة هي نفسها السيّدة المجهولة التي قابلتها سابقاً، فتخبرها القيصرة أنها اقتنعت ببراءة خطيبها، وأعطتها رسالة لتحملها إلى حميّها المقبل، ثمّ تسافر ماريا إلى الضيعة.[3]

يذكر بوشكين في نهاية روايته ما حدث بعد ذلك واصفاً الحدث التاريخيّ الحقيقيّ وهــو إعدام بوغاتشوف:

---

[1] - بوشكين، ابنة الآمر، ص 351.

[2] - المرجع السّابق، ص 351 حتى ص 354.

[3] - انظر، المرجع السابق، الصفحات من 354 حتى 365.

"إلى هنا تنتهي مذكّرات بيوتر أندرييفيتش غرينيف. وتذكر روايات العائلة أنّ الابن قد أطلق سراحه في نهاية 1774 بموجب عفو خاص، وأنّه شهد إعدام بوغاتشوف الذي عرفه من بين الحشود، وهزّ له رأسه، نفس الرأس الذي عُرض للشعب بعد دقيقة مقطوعاً مدمّى. وبعد ذلك بفترة قصيرة تزوج بيوتر أندرييفيتش ماريا إيفانوفنا، وأحفادهما ينعمون الآن في مقاطعة سيمبيرسك وعلى بعد ثلاثين فرسخاً من ... تقع قرية يملكها عشرة من أصحاب الأطيان. وفي أحد البيوت العائدة لأصحاب هذه القرية تعرض الرسالة التي كتبتها الإمبراطورة يكاترينا الثّانية بخط يدها، وقد وُضعت في إطار تحت الزجاج، وهي الرسالة التي أرسلت إلى والد بيوتر أندرييفيتش غرينيف تعلن براءة ابنه، وتمتدح نباهة وطيبة الآمر ميرونوف. وقد حصلنا على مخطوطة بيوتر أندرييفيتش من أحد أحفاده..."[1]

لا شك في أنّ أيّ قارئ عندما ينتهي من قراءته رواية بوشكين "ابنة الآمر" يظهر له بجلاء ووضوح بوشكين الإنسان قبل بوشكين الكاتب، فقد بدا بوشكين في روايته السّابقة محايداً، يقف مع الإنسان ويقدّر ظروفه، ويفهم مشاعره وعواطفه، وهذا ظهر واضحاً في علاقة بيوتر بالثّائر بوغاتشوف، يقول بيوتر في الرواية وهو يطلب من بوغاتشوف أن يُطلق حبيبته ماريا إيفانوفنا:

"اسمع لا أعرف كيف أناديك؟ ولا أريد أن أعرف... ولكنّ الله يعرف أنّني سعيد في أن أضحّي لك بحياتي جزاء ما فعلته لي. فقط ألا تطالبني بما يتنافى وشرفي وضميري المسيحيّ .أنت محسني. فأكمل ما بدأته"[2]

إنّ بوشكين في روايته يصوّر لنا تمرّد بوغاتشوف، هذا الفعل الذي يعبّر عن وقائع وحقائق وممارسات تعكس حياة النّاس ومعاناتهم وتطلّعاتهم، ونجده أيضاً عندما يصوّر لنا شخصيّة بيوتر، يصف لنا إيمان بيوتر وتمسّكه بمبادئه، ووقوفه إلى جانب آمر القلعة الذي كان مخلصاً في دفاعه عن القلعة، يقول بوشكين في روايته:

"طاف الآمر بجنوده قائلاً لهم: "يا أبنائي، لنثبت اليوم في سبيل أمّنا الإمبراطورة، ولنظهر للدّنيا كلّها أنّنا مقدامون حافظون للأيمان التي قسمناها!". أبدى الجنود حماسهم بصوت عال"[3]

[1] - المرجع السّابق ص 365ــ ص 366.

[2] - بوشكين، ابنة الآمر، ص 231

[3] - المرجع السّابق، ص 264

وبوشكين يحرص على الأخلاق، ونلحظ هذا في تصويره شخصية ماريا ابنة الآمر، وإخلاصها في حبّها لبيوتر، لذلك فالكاتب يؤكد في روايته أهميّة المحافظة على الأخلاق، والانطلاق منها في عمليّة التغيير التي تستهدف الناشئة، ويدل على ذلك قوله في روايته:

"أيهّا الشّاب! إن تقع مذكّراتي في يديك تذكّر أنّ أحسن التغيّرات وأرسخها هي تلك التي تنتج عن تحسين الأخلاق دون أيّة هزّات عنيفة"[(1)]

كما أنّ بوشكين يطعّم روايته بمقطوعات شعرية، فيذكر لنا الأغاني الشّعبيّة التي كان يردّدها الشّعب الرّوسيّ آنذاك، ومنها تلك الأغنية الخريفيّة التي تهزّ النّفس، وهي تصوّر النّفس الإنسانيّة وهي تواجه مصيرها في خضمّ العاصفة الاجتماعيّة الطّاغية، وهذه الأغنية غنّاها بوغاتشوف مع رفاقه، وهي أغنية محبوبة لديه، تقول الأغنية:

لا تضجّي، أيتها الغابة الخضراء،
ولا تعيقي الفتى الطيّب عن التفكير.
في صباح الغد سأمثل أمام قاض رهيب.
هو القيصر نفسه.
....
....
وسيجيبني مولاي القيصر المؤمن:
مرحى لك، أيّها الفتى ابن الفلاح:
قدير أنت في السّطو، قدير في الجواب!
وسأجازيك على ذلك،
بقصر عال في سهب:
خشبتان قائمتان
عليهما عارضة.[(2)]

وهذه الأغنية الشعبيّة البسيطة عن أناس حُكم عليهم بأن يُشنقوا، تهزّ النفس برهبة شاعريّة كما يقول الكاتب. ويلمس القارئ الأثر الذي تتركه هذه الأغنية في النّفس رغم بساطتها وعفويّتها، ويمتاز بوشكين ببساطة شعره ونثره، وبعده عن التكلّف والتصنّع، والشّعر ربيع الرّوح الذي تجعلها تحلّق عالياً في فضاءات بعيدة، والشّعر عند بوشكين هو شعر حقيقيّ

---

[1] - المرجع السابق، ص 257.

[2] - المرجع السابق، ص 281، ص 282.

لأنه يعبّر عن الحياة، وربمّا لهذا السبب عدّ بيلينسكي الشّاعر بوشكين أوّل شاعر في روسيا، وبوشكين يقدّم الفكرة للقارئ بإيجاز وجمال، فيغذّي عقله، ويدفعه إلى التأمّل والتفكير، كما يمكن للقارئ أن يلحظ أسلوب بوشكين في اعتماده عنصر التشويق، ففي روايته الآنفة الذكر "ابنة الآمر" يجعل القارئ متشوقاً لمعرفة الأحداث المقبلة في الفصل الجديد، كقوله في نهاية الفصل الخامس على لسان بيوتر، وهو يصور حالته بعد أن تركته ماريا ابنة الآمر:

"وأصبحت حياتي لا تطاق. وانغمرت في أفكار سوداويّة كانت تغذيّها الوحدة والفراغ. وكان حبّي يتأجّج في العزلة، ويصبح رهقاً عليّ أكثر فأكثر. وفقدت الرّغبة في القراءة والأدب. وخارت عزيمتي. وخشيت أن أفقد عقلي، أو أنغمس في الفجور. إلا أنّ أحداثاً متوقّعة تركت أثرها على مجمل حياتي، بعثت في نفسي هزّة شديدة نافعة"[1]

فالكاتب يجعلنا متشوّقين لمعرفة هذه الأحداث التي أثّرت على حياة بيوتر، كما نلحظ دقّة بوشكين في تصوير مشاعر النفّس الإنسانيّة، وما يعتريها من هزّات وأفكار..

إنّ بوشكين في روايته هذه يتحفنا بعدد من الصّور الرّائعة التي تعبّر عن شعور الإنسان الرّوسيّ، وما يدور في داخله من تناقضات، فهو يصوّر النّبل والشّهامة إلى جانب السّفالة، فهو على الرّغم من تصويره ما قام به الثّائر بوغاتشوف من عصيان وتمرّد، يصف لنا نبله وشهامته في بعض المواقف، وذلك عندما ذهب بيوتر إلى بوغاتشوف لإنقاذ ابنة الآمر ماريا بعد قتل والديها، يقول بوشكين:

"برقت عينا بوغاتشوف، فصاح: "من يجرؤ من رجالي على إهانة يتيمة؟ لن يفلت من محاكمتي، مهما بلغ من النّباهة. قل لي: من المذنب؟"[2]

إذاً فقد تمكّن بوشكين من أن ينقل لنا الصّفات العظيمة التي كان يتّصف بها بوغاتشوف ومنها الطّيبة والحريّة والعبقريّة، بالإضافة إلى تصويره ديمقراطيّة بوغاتشوف، فهو لا يتّخذ القرارات إلا بعد أن يشاور رفاقه، يقول بوغاتشوف على لسان بيوتر واصفاً بوغاتشوف ورفاقه وهم يتشاورون:

"كانوا جميعاً يتعاملون فيما بينهم كرفاق، ولم يُبدوا أيّ تعظيم خاصّ لرئيسهم. جرى الحديث على غارة الصّباح، وعن نجاح الانتفاضة، وعن العمليّات المقبلة. تباهى كلّ فرد، مقترحاً آراءه، وكان يجادل بوغاتشوف بطلاقة. وفي هذا المجلس الحربيّ الغريب تقرّر

---

1 - بوشكين، ابنة الآمر، ص 245.

2 - المرجع السابق، ص314.

الزّحف على أورنبورغ، وهو اندفاع جريء كاد يُتوّج بنجاح فاجع. وحُدّد اليوم التالي موعداً للزحف"(1)

فبوغاتشوف تهمّه مصلحة شعبه، فهو يشاور رفاقه فيما يعود بالنّفع على الشّعب، وهذا عكس ما كان يحدث في بلاط القيصرة كاترين الثانية حيث كانت القرارات التي تُتّخذ تصب في مصلحتها.

وبوشكين أيضاً يصوّر لنا في رواية "ابنة الآمر" الأخلاق النّبيلة والثّابتة للإنسان الرّوسيّ، فشخصيّة أندريه غرينيف تبدو متمّسكة بمبادئها من بداية الرّواية حتّى نهايتها، فهو قد خدم القيصريّة بإخلاص شديد، وأراد لابنه بيوتر أن يكون مثله، فكان دائماً ينصحه أن يخلص للقسم، ويتفانى في خدمة القيصر، فنجده يودّع ولده قائلاً له:

"وداعاً يا بيوتر. اخدم بإخلاص من تقسم له يمين الولاء، وأطع الرؤساء، ولا تستجد عطفهم، ولا تتهالك على الخدمة ولا تتهرّب منها، وتذكّر المثل القائل: احرص على لباسك وهو جديد، وعلى شرفك منذ الصّبا"(2)

لقد أبدع الكاتب بوشكين في روايته "ابنة الآمر" فهي وثيقة تاريخيّة مهمّة، وصف فيها بوشكين بدقّة وصدق حركة العصيان الشعبيّ التي قام بها بوغاتشوف ورجاله في روسيا القيصريّة، و صوّر لنا الواقع الاجتماعي الذي كانت تعيشه شعوب روسيا القيصريّة، وسيطرة نظام القنانة، فجمع في هذه الرواية الأدب المبدع والتّاريخ الصّادق.

وإذا كان الكاتب بوشكين في روايته "ابنة الآمر" قد ركّز على شخصيّة بيوتر وجعلها محورية تدور حولها الشخصيّات الأخرى في الرواية، فإنّ الكاتب الكبير ليف تولستوي، كما سنرى في روايته الشّهيرة "الحرب والسلم" قد تحدّث عن شخصيّات كثيرة، وجعلها كلّها تقريباً رئيسية، فكأنّ الحدث التّاريخي فيها هو البطل الرئيسي في الرواية.

رواية "الحرب والسلم" للأديب الرّوسي ليوتولستوي :

ومن الرّوايات التّاريخية التي كُتبت في القرن التاسع عشر الميلادي، والتي نالت شهرة واسعة، رواية "الحرب والسلم" للأديب الرّوسي ليف تولستوي وقبل أن نخوض في أحداث هذه الرّواية، لابد أن نذكر ما قاله الأديب ألبيريس (روائي إنكليزي) حول الرّواية وكيف تطوّرت في القرن العشرين.

---

1 - المرجع السابق ، ص 281

2 - المرجع السابق، ص 187.

يقول هذا الأديب:

"أصبحت الرّواية في منتصف القرن العشرين، أوسع أزياء التعبيـــر الأوّليـــة انتـــشاراً. وبينما كانت في الماضي وسيلة للتسلية، وإشباعاً سهلاً للمخيلة أو للعاطفة، أصبحت تعبّر اليوم عن القلق والسّرائر التي كانت فيما مضى موضوع الملحمـــة والتّـــاريخ والبحـــث الأخلاقـــي والتصوّف والشّعر في جانب منه. كما أنّ الرّواية نظراً لسعة توزيعها، تمثّـــل مـــن النّاحيـــة الاجتماعيّة أداة الاتّصال الأدبي بين الجماهير المتفاوتة فيما بينها أشدّ التفاوت، وإنّ رواية كـــ "الحرب والسّلم" أو "الوضع البشري" وحدهما تبيحان التقاء أكثر القرّاء تطلّعاً بأشدّهم بساطة"[(1)]

كما يشير هذا الأديب إلى أنّ سحر القدر هو الذي يربطنا برواية "الحرب والـــسلم" وأنّ تولستوي في روايته هذه لا يعدو أن يستحضر المصائر المتداخلة لبعض الأسر فـــي الطبقـــة العليا بموسكو من عام 1806 إلى عام 1812 ... وأنّ هذا كلّه مع الأشخاص الثّانويين لا يقدّم لنا رواية تاريخيّة ولا رواية فلسفيّة بل ولا وصفاً للمجتمع. إنّه يقدّم لنا بكل يسر موسيقا القدر وتدخل الحيوات وأخطاء ها وأوهامها.[(2)]

ونذكر ما ورد في الحاشية التي كُتبت عن نشأة رواية "الحرب والسلم"، ومـــا ورد عـــن كاتبها تولستوي:

"واتخذ فترة حرب 1805، 1812 بداية لروايته كلّها. وأوّل الأمر كان تولستوي يريـــد تصوير شخصيّات نموذجيّة لكنّها من صنع خياله، جاعلاً الأحـــداث الكبـــرى والشخـــصيّات التّاريخية في المحلّ الثاني من عنايته. ويشهد بذلك كلامه في إحدى مقـــدّمات الرّوايـــة: "لـــن يكون أبطالي لا نابليون، ولا ألكسندر، ولاكوتوزوف، ولاتاليران، سوف أكتب تاريخ الرّجـــال الذين كانوا لا يتّصفون بالعيوب اللازمة لترك أثر في سجلّ الوقائع.

وكان هؤلاء مثل تولستوي ينتمون إلى الطبقة النبيلة التي تملك الأراضي، وهـــي طبقـــة حرّة، وكان ينبغي أن تكون هذه الطبقة في المحلّ الأوّل من الرّواية التي هي نفـــسها روايـــة تاريخية مستمدّة من رواية أسرة. كرواية بوشكين "ابنة الآمر" لكنّها أوسع منها"[(3)]

كما نقرأ ما كتبه تولستوي في يومياته في 19 آذار - مارس 1865:

---

[1] - ألبيرس، ر.م، تاريخ الرّواية الحديثة، ترجمة: جورج سالم، منشورات بحر المتوسط وعويدات، بيروت، بـــاريس، ط2، 1982،ص 5.

[2] - انظر: المرجع السّابق نفسه، ص 63.

[3] - تولستوي، ليون: الحرب والسلم، م4، الكتاب الأول، ترجمة: د. سامي الدروبي، وزارة الثقافة والإرشاد القـــومي، دمشق، 1976 ، ص 825.

"غرقت في قراءة تاريخ نابليون وألكسندر. فإذا بفكرة تشبه أن تكون غمامة من الفرح ومن الشّعور بصنع عمل عظيم، تلفّني وتغمرني، وهي أن أكتب تاريخاً سيكولوجيّاً، أن أكتب رواية ألكسندر ونابليون. فأحكي كلّ ما يتّصف به الرّجال الذين يحيطون بهما، وما كانا يتّصفان به هما أيضاً....."[1]

ونقرأ ما كُتب في التصدير لكتاب "الحرب والسلم" بقلم جورج هالداس، وهو أنّ تولستوي يقول لنا في كتابه ما يهمّ القارئ أن يعرفه عن نشأة هذا الأثر الأدبيّ، وعن النتائج الفلسفيّة التي توصل إليها في كبريات المسائل: الحرب، دور الأشخاص في مجرى التّاريخ، دور الشعب والجماهير، أي المصير الإنساني منظوراً إليه من جهتين: جهة الجماعة، وجهة الفرد، المصير الإنساني عن طريق الحياة والموت.[2]

خطّ تولستوي الصيّاغة الأولى لروايته سنة 1856، وبعد أن غيّر عنوانها عدّة مرّات اهتدى إلى العنوان النّهائي "الحرب والسلم"، وظهرت طبعة ليف تولستوي سنة 1873 في ثمانية مجلّدات.

ونقرأ في كتاب "الحرب والسلم" تحت عنوان "مقدمة المؤلّف" المقطع الآتي:

"وقفتُ على طبع الكتاب خمس سنين من عمل متّصل انقطعتُ له، ولم أشرك به عملاً آخر.... ما كتاب "الحرب والسلم" برواية، ولا هو بقصيدة، ولا هو بسجل وقائع تاريخيّة. إنّ كتاب "الحرب والسلم" هو ما أراد المؤلّف وما استطاع أن يعبّر عنه"[3]

ويشير تولستوي في مقدمته إلى أنّ بعض القرّاء قال له حين نشر الجزء الأوّل من كتابه "الحرب والسّلم" إنّه لم يبرز فيه طابع العصر إبرازاً كافياً، ويعنون بقولهم "طابع العصر" هذا الذي لا يجدونه في روايته أي أهوال الرّق، وحبس النّساء، وضرب الأبناء، ويجيب الكاتب بأنّه لا يعتقد أنّ عليه أن يعرضها، ففي ذلك العصر، كما في عصرنا نحن - كما يقول - كان النّاس يبحثون عن الحقيقة ويبحثون عن الفضيلة، وينقادون للأهواء، وكانت الحياة العقليّة والأخلاقية معقدة وإنّ لذلك العصر طابعه الخّاص شأنه في ذلك شأن كلّ عصر، وهو طابع مردّه إلى أنّ الطبقة الارستقراطيّة بقيت غريبة عن الطبقات الأخرى، وإلى الفلسفة التي كانت

---

[1] - المرجع السابق، ص 826.

[2] - انظر: المرجع السّابق، ص 13

[3] - المرجع السّابق، مقدمة المؤلف، ص 15

سائدة في ذلك الأوان، وإلى نوع خاصّ من التّربية وإلى عادة استعمال اللغة الفرنسية...، وذلك الطّابع -كما يقول الكاتب- هو ما حاول أن يصفه في حدود قدراته.[1]

ويبين لنا تولستوي في مقدّمته الاختلاف بين وصفه لأحداث التّاريخ وبين ما يذكره المؤرّخون، فالمؤرّخ والفنّان حيث يرسمان صورة لعصر من العصور يستهدفان أمرين مختلّفين كلّ الاختلاف، إنّ المؤرّخ ليخطئ إذا هو أراد أن يصوّر شخصاً من أشخاص التّاريخ تصويراً تامّاً، ويرسم مجموع علاقاته المعقّدة بجميع جوانب الحياة. كذلك لا يقوم الفنّان بمهمته إذا هو عرض شخصيّته في وضعها التّاريخي دائماً...، والمؤرّخ يدرس الدّور التّاريخي الذي قام به شخص في تحقيق هدف واحد من الأهداف، يقع على أبطال، أمّا الفنّان الذي يدرس أفعال فرد من الأفراد في جميع ظروف الحياة، فإنّه لا يمكنه ولا يجب عليه أن يرى أبطالاً وإنما هو يرى بشراً. والاختلاف بين المؤرّخ والفنّان يكون في وصف الأحداث أشدّ وأعمق. والمؤرّخ كما يقول المؤلّف تولستوي يهتمّ بنتائج حادث من الأحداث، وأمّا الفنان فإنّه يُعنى بالحدث نفسه....، والاختلاف بين المؤرخ والفنّان فيما يخلصان إليه من نتائج إنّما يرجع إلى اختلاف الينابيع التي متح منها هذا وذاك، فالينابيع الرئيسيّة التي يستقي منها المؤرّخ فيما يتعلّق بالمعركة مثلاً إنما هي تقارير مختلف الضبّاط والقائد العام، أمّا الفنّان فيعرض عن مثل هذه الينابيع لأنّه يقع فيها على كذب لم يكن منه مفرّ.....، ويشير تولستوي إلى أن الاختلاف بين الفنّان والمؤرّخ في فهم أحداث التاريخ كثيراً ما يكون أمراً محتوماً.

ويتابع تولستوي قوله إنه رأى لدى مؤرّخي العصر الذي اهتمّ به طريقة خاصّة في القصص لا يفسد فيها الكذب والتشويه الوقائع ذاتها فحسب، وإنّما يفسدان كذلك دلالة الوقائع ومعناها، ويشير تولستوي إلى المؤرِّخَين الرئيسيّين اللذين أرّخا لذلك العصر، وهما تيير وميخائيلوفسكي- دانيلوفسكي، ويبيّن لنا أنّهما يعرضان أحداثاً واحدة عرضين متناقضين تناقضاً كاملاً.....، وبرأي تولستوي أنّ الفنان يجب ألا يغيب عن باله أنّ الفكرة التي يكّونها الشّعب لنفسه عن الشخصيّات والأحداث ليست من نتاج الخيال، وإنّما هي مستمّدة من طريقة المؤرخين في تجميع الوثائق.[2] يقول تولستوي:

(فحيثما تروا في كتابي أشخاصاً من التّاريخ يتكلّمون ويعلمون فاعلموا أنّني ههنا لم أخترع شيئاً من الأشياء اختراعاً، وإنّما اعتمدت على المواد التي وقعت عليها والتي تشكّلت منها في أثناء عملي مكتبة كاملة."[3]

---

[1] - انظر: المرجع السّابق، مقدمة المؤلف ، ص 16- 17.

[2] - انظر: المرجع السّابق نفسه، الصفحات من 20 حتى 26.

[3] - المرجع السابق ، ص 26.

ويشير تولستوي أخيراً إلى أمر يعدّه أخطر الأمور شأناً، وهو اعتقاده بأنّ من يسمّون عظماء الرّجال ليس لهم شأن كبير في الأحداث التّاريخيّة. كما يقول إنّ دراسة عصر كهذا العصر قد رسّخت في نفسه قناعة تصل إلى حدّ البداهة، وهي أنّ عقلنا عاجز عن معرفة أسباب الأحداث التي تجري، فأنّ ندعي أنّ أحداث سنة 1812 إنّما سببها حب الغزو عند نابليون وصلابة الوطنية عند ألكسندر بافلوفتش فذلك في نظر تولستوي رأي سخيف.....، وبرأيه إنّ حادثاً احترب فيه ملايين البشر، وقتل فيه نصف مليون من الرجال، لا يمكن أن تكون إرادة فرد هي سببه، كما يقول تولستوي إنّ بعض المؤرّخين يذهبون إلى أنّ الأسباب هي روح الغزو لدى الفرنسيين، وحبّ الوطن لدى الرّوس. ويتكلّم مؤرّخون آخرون عن الأفكار الديمقراطيّة التي نشرتها جيوش نابليون، وعن اضطرار روسيا إلى الدخول في الاتّفاق الأوربيّ......

ويتساءل تولستوي: لماذا اقتتل ملايين البشر وقتل بعضهم بعضاً؟ ويجيب تولستوي: لقد اقتتلوا وقتلوا لأنّ الاقتتال والقتل أمران لا مفرّ منهما، فكانوا حين يقتتلون ويقتلون إنّما يخضعون لذلك القانون الأوّلي، القانون الذي يخضع له النّحل حين يقتل بعضه بعضاً في الخريف.....، ويتابع تولستوي بأنّنا إذا ألقينا على التّاريخ نظرة عامّة شاملة اقتنعنا بأنّ هناك قانوناً أبديّاً يحكم الأحداث. ولكنّنا حين نظرنا إلى التّاريخ نظرة شخصيّة نقتنع بنقيض ذلك... كما يشير تولستوي إلا أنّه حين وضع الأحداث التّاريخيّة التي وقعت سنة 1805 وسنة 1807 وسنة 1812 خاصةً، وهي السنين التي تظهر فيها الحتميّة بارزة أكبر بروز، لم يستطع تولستوي أن ينسب شأناً كبيراً إلى الأعمال والإشارات التي قام بها رجال ظنّوا أنّهم يوجّهون هذه الأحداث ويتحكّمون بها، ولكنّهم في حقيقة الأمر كانوا أقلّ سائر العاملين تدّخلاً فيها بنشاط إنساني حرّ، إنّ نشاطهم -كما يقول تولستوي- لم يهمّه إلا من حيث هو مثال على قانون الحتمية ذاك الذي يحكم التاريخ في نظره.[1]

سبق أن ذكرنا أنّ طبعة أعمال ليف تولستوي ظهرت 1873 في ثمانية مجلّدات، ولكن نقرأ في الحاشية التي كتبت عن نشأة رواية "الحرب والسلم": "إنّ المؤلّف أدخل على رواية "الحرب والسلم" تعديلات جديدة فالكتب السّتة الأصليّة صارت أربعة، والنصّوص المكتوبة بالفرنسيّة حلّت محلّها نصوص روسيّة، والتأمّلات الفلسفيّة أُودعت في ملحق. وأخيراً في طبعة 1886، أعادت الكونتيسة صوفيا تولستوي النّصوص الفرنسيّة مع إبقائها على تقسيم الرّواية إلى أربعة كتب، وأعادت الاستطرادات التاريخية والفلسفيّة إلى مواضعها. وقد وافق

[1] - انظر: المرجع السّابق، مقدمة المؤلف، الصفحات من 26 حتى 32.

تولستوي ضمناً على هذا التغيير الجديد، وفي هذه الصورة الأخيرة إنّما ظهرت بعد ذلك جميع الطبعات اللاحقة لرواية "الحرب والسلم"[1]

وفيما يأتي سوف نلخّص الكتب الأربعة من رواية "الحرب والسلم"، ونشير إلى الأحداث الحقيقيّة، والأحداث المتخيّلة في هذه الرّواية.

يتألف الكتاب الأوّل وهو الجزء الأول من هذه الرواية من خمسة وعشرين فصلاً، في الفصل الأوّل يحدّثنا تولستوي عن سهرة في المجتمع الرّاقي بمنزل الوصيفة آنا بافلوفنا شيرر، ربّة الدار والأمير فاسيلي كوراجين، ويجري الحديث عن نابليون، وآنا بافلوفنا تريد تزويج آناتول، ابن الأمير فاسيلي، بالأميرة الغنيّة ماريا بولكونسكي.

وفي الفصل الثّاني يصل بيير بيزوخوف إلى السهرة، ويذهب الضيوف إلى ربّة الدّار يحيّونها وهم ابنة الأمير فاسيلي الجميلة هيلين، ابنه هيبوليت، والأميرة الصغيرة ليزا بولكونسكي، والمهاجر الفرنسي ألفيكونت مورتمار، والقسّ موريو.[2]

وفي الفصل الثالث: حديث عن إقدام نابليون على إعدام دوق أنجهين، وألفيكونت يروي قصّة لقاء الدّوق وبونابرت عند الممثّلة مدموازيل جورج، ووصول الأمير آندريه بولكونسي والتقاؤه ببيير.

وفي الفصل الرّابع: الأميرة آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي تسأل الأمير فاسيلي أن يحصل لها من القيصر على موافقة نقل ابنها إلى الحرس، ومناقشة في الصّالون عن نابليون، وبيير يدافع عن الثورة ونابليون (1769- 1821)

وفي الفصل السّابع: حديث عن النّبأ الأساسيّ وهو مرض الكونت الشّيخ بيزوخوف، وعن ابنه غير الشّرعي بيير الذي طُرد من بطرسبرج لقيامه ببعض الفضائح وعن مآل الثروة الضخمة التي يملكها الكونت الشيخ بيزوخوف، بعد موته.....[3]

وفي الفصل الحادي عشر يجتمع العشّاق: صوفيا مع نيقولا، وناتاشا مع بوريس، والأميرة آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي تقول إنها أفلحت في إلحاق ابنها بوريس في الحرس، وتشكو من سوء حالها الماديّة، وعدم امتلاكها المال الذي يمكنّها من تجهيز ابنها بوريس الذي أفلحت في إلحاقه بالحرس، وتأمل في الثروة التي سيتركها الكونت بيزوخوف...، ثم تذهب هي وابنها بوريس إلى الكونت بيزوخوف المريض لتعتني به، وهناك تلتقي بالأمير فاسيلي.

---

[1] - المرجع السّابق، ص 829.

[2] - انظر: المرجع السابق ص 831.

[3] - انظر: المرجع السابق، ص 831، 832.

ثم يجري حديث في منزل آل روستوف عن محاربة نابليون، ثمّ في منزل الكونت بيزخوف المحتضر يستعدّ الحضور للمسحة الأخيرة، ويتحدّث الحضور ومن بنيهم الدكتور لوران، ويجري تواطؤ سريّ بين الأمير فاسيلي والأميرة كايتش على إخفاء وصية الكونت...، ثم يدخل بطرس صالون الاستقبال الخاصّ بأبيه المحتضر الذي طلب أن يراه، ومن الحضور: الأميرات والسيّدة دروبتسكوي، والأمير فاسيلي والكهنة، والأطباء والخدم، وكبرى الأميرات تسرق الوصيّة ثم يموت بيزوخوف، ثم تصل رسالة من جوليا كاراجين إلى الأميرة ماريا ابنة الشيخ نيكولاي آندريتش بولكونسي، وتجيب الأميرة ماريا عليها، بعد ذلك يصل الأمير آندريه وزوجته إلى ليسيبه جوري، ويلتقيان بالأميرة ماريا ووصيفتها الفرنسية مدموزايل بوريين، ولقاء الأمير الشيخ مع ابنه، وحديثهما عن الحرب والسّياسة، ومناقشتهما عن القائد الروسي سوفوروف والقائد الفرنسي نابليون بونابرت.

وفي الفصل الخامس والعشرين والأخير من الجزء الأوّل: تجري استعدادت لسفر الأمير آندريه، وذهابه للالتحاق بالجيش، ومحادثته الأخيرة مع أخته، ووداعه لأبيه وامرأته وأخته قبل أن يسافر.[1]

لابد من الإشارة إلى أنّ الأحداث التي عرضها تولستوي في الجزء الأوّل من رواياته "الحرب والسلم" هي كلّها تقريباً أحداث متخيّلة، وسنبدأ فيما يأتي بتلخيص أحداث الجزء الثاني من الرّواية.

في بداية الجزء الثاني يصور لنا تولستوي الجيوش الرّوسيّة المعسكرة في النّمسا، بقرب براوناو، وكوتوزوف قائد الجيش الرّوسي يستعرض فوجاً من أفواج المشاة، ويفرح الجنرال بعد نجاح الاستعراض، ويجري حديث بين كوتوزوف وجنرال نمسوي عضو في المجلس الحربي الأعلى، والأمير آندريه ينضم إلى هيئة فوج أركان كوتوزوف، ووصول الجنرال النمساوي ماك، ويرجع فوج نيقولا روستوف، المرشح في فوج بافلوجراد من سلاح الفرسان من قيامه بسخرة توزيع العلف، ووصول الضابط تليا نين، ثمّ يصل جيركوف ويبلّغ عن هزيمة ماك والأمر بالتحرّك.

في الفصل السادس يخبرنا الكاتب عن انسحاب الجيوش الروسيّة نحو فيينا، وعبور نهر أينس والجنرال يرسل نزفتسكي ليكرّر على الفرسان أمره بأن يعبروا آخر العابرين، وأن

---

[1] - انظر: المرجع السّابق، الصفحات 833، 834، 835، 836.

يحرقوا الجسر، ويتدافع الجنود على الجسر، ويلتقي نزفتسكي على الجسر بد ينيسوف، ومرور كتيبة دينيسوف...[1]

يصوّر لنا تولستوي بعد ذلك القطعات الفرنسيّة وهي تقترب من الجسر، والمدفعية الفرنسيّة وهي تطلق نيرانها على الفرسان، وكتيبة دينيسوف تعبر الجسر وتنضمّ إلى القطعات الأخرى.

يأمر قائد مؤخرة الحرس كولونيل فرسان بافلو جراد بإحراق الجسر، فيحرق الفرسان الجسر تحت مرمى نيران الفرنسيين، وينسحب جيش كوتوزوف إلى سافلة نهر الدّانوب، وبعد الانتصار الرّوسي بقرب كريمس يرسل القائد العام الأمير آندريه إلى بلاط إمبراطور النمسا حاملاً رسالة تنبئ بهذا الانتصار، ويستقبل وزير الحرب الأمير آندريه دون اكتراث...

ينزل الأمير آندريه ضيفاً على صديقه الدبلوماسي بيليبين، ويتحدّث معه عن الاستيلاء على فيينا، ومعركة كريمس، والتحّالف مع بروسيا، وخيانة النّمسا، والانتصار الجديد الذي حقّقه بونابرت.. ثمّ يّذهب الأمير آندريه إلى قصر إمبراطور النّمسا، ويقابل إمبراطور النّمسا فرانسوا، بعد ذلك يُوشح الأمير آندريه بولكونسكي بوسام "ماري تيريز"، ويحتفي جميع رجال البلاط به، ويقرّر آندريه العودة إلى الجيش فوراً، وينضمّ إلى القطعات الرّوسيّة المتراجعة، ويكلّف كوتوزوف قائد الفوج باجراتيون بأن يذهب على رأس مفرزة ليناوش الفرنسيين فيؤخرهم عن التقدّم....ويتلقى كوتوزوف نبأ الخطر الذي يهدّد الجيش الرّوسي الذي تلاحقه قوّات فرنسيّة ضخمة، فيرسل كوتوزوف مفرزة باجراتيون إلى هولابرون، وقوامها أربعة آلاف رجل لصدّ جيش العدو، ويظنّ مورا أنّ هذه المفرزة هي أكثر الجيش الرّوسيّ فيقترح عقد هدنة، ثمّ يرسل نابليون رسالة إلى مورا يأمره فيها بقطع الهدنة...، والأمير آندريه يلاحظ، وهو في سريّة مدفعية توشين، مواقع القوّات الروسيّة والقوّات العدّوة، ويرسم لها خريطة وتُطلق أوّل رصاصة من الجانب الفرنسي، وتنشب معركة شونجران، ويعدو الأمير آندريه على حصانه قنّاصاً نحو جرونت، وينضمّ إلى حاشية باجراتيون الذي يصدر أوامره إلى القادة.[2]

يصوّر لنا تولستوي بعد ذلك قائد الفوج باجراتيون في مفرزته قرب المعركة، وينبّئه شيخ بأنّ هجمة الفرسان الفرنسيين قد صُدّت، ويخبره بخسائر فوجه، ثمّ يظهر رتل فرنسيّ

---

[1] - انظر: المرجع السّابق، ص836، ص837.

[2] - انظر: المرجع السّابق، ص 837، 838، 839

يتقدّم، وكتيبتان روسيّتان، ويقود باجراتيون الرّوس إلى الهجوم، ويبدي تيير ونابليون رأيهما في هذا الهجوم......

وينسحب الجانب الأيمن للقطعات الرّوسيّة، وكتيبة فرسان دينيسوف تهاجم، ويصاب نيكولاي روستوف في أثناء الهجوم برضّ في ذراعه، ويباغت الفرنسيون أفواجاً من المشاة في الغابة، ويفرح رماة مدفعيّة توشين المنسيّة بنجاح رميهم وإخفاق الهجوم الفرنسيّ، ويصل الأمير آندريه، وهو يحمل أمراً بالانسحاب إلى سريّة المدفعية، وتنسحب سريّة توشين، ويستدعي الجنرال توشين الذي يضطرب لدى رؤيته القادة، ويسأل باجراتيون توشين عن ترك مدفعين، فيتدخل الأمير آندريه ويثني على توشين.(1)

ونشير هنا أيضاً إلى أن بعض الأحداث التي صوّرها تولستوي في الجزء الثاني من روايته هي أحداث متخيلة، أمّا التفصيلات التي ذكرها فهي كلّها متخيّلة.

في الجزء الثّالث: يصوّر لنا تولستوي بيير في بطرسبرج عند آل كوراجين، وقد أصبح رجلاً ثريّاً، وأصبح اسمه الكونت بيزوخوف، ويقرّر الزواج من هيلين ابنة الأمير فاسيلي... ويقرّر بيير أن يسافر....(2)

يتلّقى الأمير العجوز نيكولاي آندريفتش بولكونسكي نبأ الزيارة التي يزمع الأمير فاسيلي وابنه أن يقوما بها إلى ليسييه جوري، وتنضمّ الأميرة ماريا إلى الضيوف، بعد أن تقوم الأميرة الصغيرة ومدموازيل بوريين بإلباسها أحسن الثياب، ويقوم آناتول بمغازلة مدموازيل بوريين وصيفة الأميرة ماريا الفرنسيّة فترفض الأميرة ماريا الزواج به، ويتلقّى آل روستوف رسالة من ابنهم نيكولاي يبلغهم فيها أنّه أصيب بجرح وأنّه رقّي إلى رتبة ضابط، وتقوم آنا ميخائيلوفنا بتسليم الكونتيسة رسالة ابنها..

ويصوّر لنا تولستوي الإمبراطور ألكسندر الأوّل قيصر روسيا وفرانسوا إمبراطور النمسا وهما يستعرضان القطعات الرّوسيّة والنّمساوية ونيكولاي روستوف يشعر بعاطفة حبّ وعبادة نحو الإمبراطور ألكسندر.

يسافر بوريس درو بتسكوي إلى أو لموتس سعياً إلى لقاء بولكونسكي، ويحدّث دولجوروكوف كلاً من بولكونسكي ودروبتسكوي عن جلسة مجلس الحرب، وعن انتصار حزب الشباب أنصار الهجوم، وعن رسالة نابليون، أمّا بوريس دروبتسكوي فينفعل بسبب شعوره بأنّه قريب من السلطة العليا، وينتصر الرّوس على الفرنسيين في مدينة فيشاو،

---

1 - انظر: المرجع السابق، ص 840، 841

2 - انظر: المرجع السابق، ص 841.

ويتحسّر روستوف لأنّه لم يشارك في القتال، ودينيسوف يحتفل بترقيته إلى رتبة ميجر، ويحلم روستوف بأن يموت في سبيل القيصر.[1]

في الفصل الحادي عشر: يتابع تولستوي في وصف الأحداث المتلاحقة ومنها: توعّك صحّة الإمبراطور في فيشاو. ووصول مفاوض فرنسي، وهو سافاراي، مقترحاً أن يتم لقاء بين الإمبراطور ألكسندر ونابليون، وإرسال الأمير دولجوروكوف في مهمّة إلى نابليون، وحركة في دوائر الجيش العليا يوم 19 تشرين الثاني (نوفمبر) تأييداً لبدء معركة أوسترلتس.

ويصف الأمير دولجوروكوف مقابلته لنابليون، ويقول إنّ نابليون يخشى نشوب معركة عامّة شاملة. ثمّ يتمّ اجتماع مجلس الحرب، ويقرأ فايروتهر نصّ خطّة معركة أوسترلتس...

الأمير باجراتيون والأمير دولجوروكوف يلاحظان ظاهرة غريبة، وهي ظاهرة الصّيحات والنيران في جيش العدوّ، ثمّ تبدأ حركة الأرتال الرّوسيّة، واستياء من النمساويين، ويبدأ القتال على شطآن نهر جولدباخ، ويبدأ تحرك الرّتل الرّوسي الرّابع بقيادة كوتوزف ويطوف إمبراطورا روسيا والنمسا وحاشيتهما بالقطعات، ويجري اشتباك بين الرّتل الرّابع والفرنسيين، وتفرّ القطعات الرّوسيّة ويُجرح كوتوزف ويندفع الأمير آندريه هاجماً بكتيبته، وحاملاً الرّاية بيده ويُصاب بجرح، ويرسل الأمير باجراتيون روستوف في مهمة إلى القائد العام ويصل روستوف إلى قرية براتس، وتنتشر شائعات عن جرح الإمبراطور، وبعد قرية جوستيرادك يلمح روستوف الإمبراطور، ويخسر الجيش الرّوسي معركة أوسترلتس، وتسحب الأرتال الرّوسيّة مفككة ويقصف الفرنسيون بالمدافع سدّ آوجست.[2]

وفي الفصل التاسع عشر والأخير من الجزء الثّالث يصوّر لنا تولستوي الأمير آندريه وهو جريح على روابي براتسن، ونابليون يطوف بساحة المعركة ويأمر بنقل الأمير آندريه الذي ما زال حيّاً إلى مركز الإسعاف، ويمرّ بذهن الأمير آندريه خواطر عن نابليون، وعن تفاهة العظمة وتفاهة الحياة والموت ويُعهد بالأمير آندريه وعدد من الجرحى الآخرين إلى السكّان.[3]

يقول تولستوي واصفاً مشاعر الأمير آندريه نحو نابليون:

"ولكنّ الأمير آندريه، رغم أنه منذ خمس دقائق قال بضع كلمات للجنود الذين كانوا ينقلونه، لم ينطق الآن بحرف، وصمت صمتاً كاملاً وهو يحدّق إلى نابليون بنظرة ثابتة، إنّ

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات: 842، 843، 844.

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 845، 847.

[3] - انظر المرجع السابق، ص 847.

الأمور التي تهم نابليون وتشغل باله كانت تبدو له بالقياس إلى هذه السماء الملأى عدالةً وخيراً، هذه السّماء التي رآها وفهمها، كانت تبدو له تافهة كل التّفاهة، وكان نابليون نفسه يبدو له صغيراً كلّ الصّغر، هو وهذا الغرور المسكين الذي يملأ نفسه وهذا الفرح بالنصر الذي يغمر قلبه، فلم يستطع الأمير آندريه أن يجيبه"[1].

تبدو براعة تولستوي في دقة تصويره لمشاعر النفس الإنسانيّة، وتكثر الخيوط الفلسفية التي يوشي بها نسيج روايته، فغالباً ما يكون لكلام أبطاله أبعاد فلسفية، كما في المقطع الآتي الذي يبرز لنا الأفكار والخواطر التي راودت الأمير آندريه وهو بين يدي الموت:

"وكان كلّ شيء كذلك يبدو له تافهاً لا جدوى منه، باطلاً لا قيمة له، بالقياس إلى ماكان يتصف به مسير فكرة من زهد وعظمة ولّدهما نضوب قواه من فرط النزف والألم وانتظار موت قريب، وكان الأمير آندريه وهو ينظر إلى نابليون يفكر في غرور العظمة، وفي غرور الحياة التي لا يفهم أحد معناها، وكذلك في غرور الموت الذي لا يستطيع أي حيّ أن ينفذ إلى سرّه وأن يفسّر دلالته"[2].

وقبل أن نبدأ بدراسة الكتاب الثّاني من رواية" الحرب والسلم" لابد من الإشارة إلى بعض الأمور ومنها: أن الرواية تبدأ بداية متخيلة في صالون الأميرة شيرر، ولكن الحديث الذي يدور في صالون هذه الأميرة كلّه مرتبط بالتّاريخ، فالمتحدثون يتوقّعون حدوث الحرب، وشخصيّة نابليون بونابرت حاضرة منذ الفصل الأول، فبعضهم يمدحه، وبعضهم الآخر يذمّه، أي أن شخصيّة نابليون بونابرت حاضرة على الرغم من عدم وجوده في صالون الأميرة، وتعجب به شخصيتان: الأولى هي شخصيّة بيير بيزوخوف، والشخصية الثانية المعجبة بنابليون هي شخصيّة الأمير آندريه بولكونسكي، ولكنهما بعد ذلك ينظران إلى نابليون نظرة تختلف عن نظرتهما السابقة، فليس هو الذي يصنع التاريخ، وإنّما التاريخ هو من صنع الأشخاص البسطاء، ومن صنع الشّعوب، وليس من صنع الأفراد، وهذه الرؤية هي رؤية تولستوي التي أشار إليها في المقدمة، إذاً هناك شخصيات تاريخية حقيقية، وشخصيات مرتبطة بالشخصيات الحقيقية، وهناك أحداث متخيلة، وهناك أحداث حقيقية، فمثلاً بعض المعارك هي معارك حقيقية حدثت فعلاً، ولكن ينقلها إلينا تولستوي بطريقة الرّوائي وليس بطريقة المؤرّخ مثل معركة أوسترلتس، فتولستوي ينقل إلينا هذه المعركة ولكن بطريقة تختلف عن نقل المؤرّخ، فالمؤرّخ يهتمّ بالنتائج في حين أنّ الرّوائي يهتمّ بتفصيلات الحدث.

---

[1] - المرجع السّابق نفسه، ص 816، ص 817.

[2] - المرجع السّابق، ص 817.

يتألف الكتاب الثاني من رواية" الحرب والسلم" من خمسة أجزاء متفاوتة الطول، وسنحاول عرض أحداث هذه الأجزاء بتلخيص موجز.

يتألف الجزء الأول من الكتاب الثاني من ستة عشر فصلاً، يصور تولستوي في هذا الجزء وصول نيكولاي روستوف ودينيسوف إلى موسكو، واستقبال عائلتهما لهما، كما يعرض تولستوي الحالة النفسية في موسكو وفي النّادي الإنكليزي عند وصول نبأ معركة أوسترلتس. يقرّر بيير الذّهاب إلى بطرسبرج بعد خواطره حول خيانة زوجته هيلين، ويصل نبأ معركة أوسترلتس وموت الأمير آندريه إلى ليسيه غوري، ولكن يصل الأمير آندريه فجأة، ويلتقي بالأميرة ماريا، وولادة ابنه الأمير الصغير نيقولا، وموت الأميرة الصغيرة...

عشاء في منزل آل روستوف، في عيد الميلاد سنة 1806، ويلتحق دولوخوف بالجيش بعد رفض صوفيا الزّواج به، وعرض لحياة نيقولا في البيت قبل سفره إلى الجيش[1]..

في الجزء الثاني: يصور لناتولستوي حياة بيير في بطرسبرج، والتحاقه بالماسونية، ووصول بوريس درو بتسكوي إلى سهرة آنا بافلوفنا شيرر في نهاية عام 1806، والتّقارب بينه وبين هيلين، ومرض الأمير الصغير نيقولا، وبيير في كييف يعلن لوكلاء أعماله نيتّه في تحرير الفلاّحين....، وتقوم هدنة بين الرّوس والفرنسيين بعد معركة فريد لاند، ولقاء الإمبراطور ألكسندر الأول ونابليون في تبلسيت، واستياء نيكولاي روستوف عند مرأى الصداقة بين ألكسندر و نابليون، وبين الرّوس والفرنسيّين[2].

في الجزء الثالث: يتحدث تولستوي عن صداقة نابليون وألكسندر في سنة 1808-1809، وسفر الأمير آندريه إلى أملاك ابنه في ريازان، ثم تعيينه عضواً في لجنة النّظام العسكريّ وفي لجنة القوانين، ووصول الإمبراطور ألكسندر إلى الحفلة الراقصة التي أقيمت في رأس السنة الجديدة لدى أحد النبلاء من عهد كاترين...

والأمير آندريه يخطب ناتاشا، ويسخط الأمير العجوز على ابنه الأمير آندريه.

في الجزء الرابع: يتحدث تولستوي عن خدمة نيكولاي روستوف في فوج بافلوغراد، وتردّي أحوال آل روستوف، والكونتيسة العجوز تنوي تزويج ابنها نيكولاي من جوليا كاراجين الغنيّة، ويرفض نيكولاي ويتقرّب من صونيا. ويسافر نيكولاي بعد ذلك إلى الجيش، ويسافر الكونت العجوز وناتاشا وصونيا إلى موسكو.

---

[1] - انظر: تولستوي، ليون: الحرب والسلم، م2، ج1، ترجمة: سامي الدروبي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980، ص777، ص778، ص779.

[2] - انظر: المرجع السابق، الصفحات 780، 781، 782، 783.

في الجزء الخامس: يصوّر لنا تولستوي حياة بيير بعد قطيعته مع الماسونيّين، والأمير العجوز بولكونسكي في دور زعيم المعارضة الموسكوفية للحكومة، ووصول آناتول كوراجين إلى منزل أخته هيلين، وناتاشا تنوي الهرب مع كوراجين، وفصم خطبتها بالأمير آندريه، ولكن تفشل ناتاشا في الهرب مع كوراجين، وتكتشف أنّه متزوج، ثم تمرض ناتاشا، ويلتقي بها بيير، ويشعر نحوها بالحبّ والحنان[1]...

ما نلاحظه بعد الانتهاء من تلخيص الكتاب الثاني من رواية "الحرب والسلم" هو دقّة تولستوي في ذكر الأحداث الحقيقية، وتدعيمها بتفصيلات وأحداث متخيلة، وبراعته في تصوير ردّ فعل المجتمع الرّوسي، ونورد مثالاً على ذلك، وصف تولستوي لقاء نابليون بونابرت مع الإمبراطور ألكسندر، يقول تولستوي:

"وفي سنة 1809كان التفاهم بين سيّدي العالم العظيمين كما كانا يلقّبان في ذلك الوقت، قد بلغ من القوة أنه حيث أعلن نابليون الحرب على النّمسا. عبر جيش روسيّ الحدود ليساعد عدّونا القديم بونابرت، على حليفنا القديم إمبراطور النمسا، وبلغ ذلك التّفاهم من القوة أن الدّوائر العليا من المجتمع أخذت تتكلّم عن زواج سوف يتم بين نابليون وإحدى أخوات الإمبراطور ألكسندر. ولكنّ المجتمع الرّوسيّ كان عدا اهتمامه بأحداث السياسية الخارجيّة هذه، مهتماً اهتماماً خاصاً شديداً بالإصلاحات الداخلية التي كانت تتم حينذاك في جميع أجزاء جهاز الدولة".[2]

يتألف الكتاب الثالث من رواية" الحرب والسلم" من ثلاثة أجزاء، وفي هذا الكتاب يتابع تولستوي ذكره للأحداث التّاريخيّة الحقيقيّة، وتقديمها بأسلوب الروائي الذي لا يغفل عن الحدث التّاريخي الحقيقيّ، بل يذكره، ويقدّمه لنا بطريقة يمزج فيها الخيال والوصف والحوار والحكمة...

في بداية الجزء الأول يقدم لنا تولتسوي تأملاته في أسباب الأحداث التاريخية على العموم، وفي حركة الشعوب الغربيّة من الغرب إلى الشرق سنة 1812...

يغادر نابليون درسدن، ويصل إلى الجيش في بولونيا، والأمر بعبور النييمين وغزو روسيا. وإقامة الإمبراطور ألكسندر في فيينا، وعدم استعداد روسيا للحرب، ونبأ دخول القطعات الفرنسيّة إلى روسيا، ورسالة ألكسندر الأول إلى نابليون..

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 783 حتى 792.

[2] المرجع السابق، حتى 321.

يسافر الأمير آندريه إلى بطرسبورج بحثاً عن آناتول كوراجين، ثم يلتحق بالجيش في تركيا حيث يعيّن في أركان كوتوزوف، وفي سنة 1812 عند إعلان الحرب ينقل بولكونسكي إلى جيش الغرب، ويسافر الأمير آندريه إلى الجيش...

فريق رجال الدولة، شيشكوف وآخرون، يوجّهون رسالة إلى ألكسندر الأوّل يقترحون عليه فيها ترك الجيش، وتفقّد ألكسندر الأوّل لمعسكر دريسا، والمجلس الحربي بفويل يعرض خطّته، والأمير آندريه يقرّر الخدمة في الصفوف لافي الأركان...[1]

ويعرض تولستوي حياة فرسان فوج بافلوغراد في أثناء المعارك في بولونيا، ويصوّر في الفصل الرّابع عشر بداية معركة أوستروفينا، يقول تولستوي في وصف هذه المعركة:

"وإلى الأمام، فيما وراء الوادي، كانت ترى أرتال العدّو ومدافعه، أمّا في الوادي فكانت مخافرنا الأماميّة مشتبكة مع العدو تتبادل وإيّاه طلقات ناريّة خفيفة"[2].

"وحمل الرّماحة على الفرسان الفرنسيين وتلاحم الفريقان تحت الدّخان، وبعد خمس دقائق ارتدّ الرّماحة إلى الوراء، لا إلى نقطة انطلاقهم، بل إلى اليسار منها، وبين الرّماحة بلونهم البرتقالي على خيولهم الشّقراء، كانت ترى جماعة متراصّة من الفرسان الفرنسيّين الزّرق على خيولهم الشّهباء"[3].

نيكولاي روستوف يهاجم الفرنسيين بكوكبته ويأسر ضابطاً فرنسياً...

نداء الإمبراطور وبيانه عن الحرب يصلان إلى موسكو، ثمّ وصول ألكسندر الأوّل إلى موسكو.

أمّا الجزء الثّاني فيبدأ بتأملات المؤلف في الأحداث التّاريخية ودور الشخصيّات التّاريخيّة، ودور ألكسندر ونابليون في أحداث 1812، ولمحة موجزة عن الحرب منذ البداية وحتّى التخلّي عن سمو لنسك...

ويبرز لنا تولستوي حركة القطعات الرّوسيّة خلال مدينة سمولنسك، ثم قصف هذه المدينة، والمنتديات السياسيّة في بطرسبرج، وموقف المنتديين من الحرب، وتعيين كوتوزوف

---

[1] - تولستوي، ليون: الحرب والسلم، م3، ج1، ترجمة: صياح الجهيم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1981، ص714، 715، 716.

[2] - المرجع السابق، ص 107، ص 108.

[3] - المرجع السابق، ص108.

قائداً عامّاً للجيوش الرّوسية ولجميع الأراضي التي تحتلّها، وتحرّك الفرنسيين من سمولنسك إلى موسكو، وموت الأمير الشّيخ بولكونسكي[1].

ثم يتابع تولستوي فيصوّر لنا عصيان الفلاحين الذين لا يريدون ترك الأميرة ماريا ترحل بعد موت والدها، وغضب نيقولا عليهم، وروستوف يقمع التمرّد...

استقبال ودّي للأمير آندريه من جانب القائد العام، وحديث بين كوتوزوف والأمير آندريه عن الحرب...

موسكو قبل الاحتلال الفرنسي، ونابليون يتّفقد ساحة القتال، وترتيبه القتالي...

يصور الكاتب اشتداد المعركة بين الرّوس والفرنسيين، وهجوم الرّوس المضاد وانتزاعهم البطاريّة من الفرنسيّين، ودور نابليون في أثناء المعركة من حيث هو قائد للعمليات، وبسالة القطعات الرّوسيّة، وشكوك نابليون وحيرته فيما يتّصل بالنّصر، وطوافه في ساحة القتال.

كوتوزوف قائد في معركة بورودينو، وفوج الأمير آندريه الاحتياطي تحت وابل عنيف من نيران الفرنسيين[2].

في الفصل التاسع والثلاثين من الجزء الثاني يقدّم لنا تولستوي تأمّلاته في نتائج معركة بورودينو وفي دلالتها. يقول تولستوي:

"لقد كانت النتيجة المباشرة لمعركة بورودينو فرار نابليون الذي لا سبب له من موسكو، وانسحابه على طريق سمولنسك القديمة، وفقدان جيش من خمسمئة ألف رجل، ونهاية فرنسا النابوليونية التي امتدّت عليها، لأوّل مرّة في "بورودينو" يدخصم يتمتّع بقوة معنويّة متفوّقة"[3].

الجزء الثالث يبدؤه المؤلف بتأملاته في حركات الجيوش الرّوسيّة والفرنسيّة سنة 1812 وعمليّاتها، ثم يتحدّث المؤلف عن خطّة العمليات، وأفكاره عن ترك السكان لموسكو وعن حريقها، وعودة بيير إلى موجاييسك بعد معركة بورودينو، ثم يسافر إلى موسكو، وتخلّي الرّوس عن موسكو للفرنسيّين، وتأمّل نابليون لموسكو من على هضبة بوكلونايا، ودخول القطعات الفرنسيّة إلى موسكو، ونهب وسلب المدينة من قبل الجيش الفرنسي، وتفسيرات آل روستوف لحريق موسكو[4].

---

1 - انظر: المرجع السابق، ص 718، ص 719.

2 - انظر: المرجع السابق، ص 720 إلى ص 724.

3 - المرجع السابق، ص 468.

4 - انظر: المرجع السّابق، من ص 724 حتى ص 728.

يقول تولستوي في وصفه لدخول الفرنسيين موسكو:

"دخل الفرنسيون موسكو بنظام مع أنّهم كانوا في ثياب رثّة، وقد عضّهم الجوع وأعياهم التّعب وفقدوا ثلثي عددهم. كان جيشاً بلغ به الجهد غايته، لكنّه كان جيشاً مقاتلاً، مرهوب الجانب، على أنّ هذا الجيش ظلّ جيشاً حتّى اللحظة التي تفرّق فيها الجنود في المنازل.

فما إن بدأ هؤلاء الرجال ينتشرون في تلك المنازل الغنيّة الخالية حتّى اختفى الجيش إلى الأبد، وغدا أفراده لا هم بالمدنيين ولا هم بالجنود وإنما غدوا شيئاً وسطا يدعى عادة النّهابين"[1].

هنا نلاحظ أنّ هناك شخصيّات متخيّلة وشخصيّات تاريخيّة، وأحداث متخيّلة، وأحداث تاريخيّة، من الأحداث التاريخية الحقيقية أن الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت (1769-1821) استطاع دخول موسكو وبالفعل احترقت موسكو، وتولستوي لايرى أنّ سبب حريق موسكو يعود للفرنسيين ولا للرّوس، فقد احترقت موسكو كأيّ مدينة هجرها سكّانها، ومعظم بيوتها كانت مبنيّة من الخشب، فكانت شرارة واحدة كافية لإشعال الحريق بالمدينة بكاملها، لكي ينتقل الحريق من بيت إلى آخر، لأنّ بيوت موسكو كانت مبنيّة من الخشب في ذلك الوقت، وهناك حقيقة تاريخيّة أخرى يشير إليها تولستوي، وهو أن الجيش الفرنسي فقد ثلثي جنوده قُبيل دخوله موسكو، وبذلك يتّفق تولستوي مع المؤرّخين، أي أنّ الرّوائي في كتابته للرّواية التّاريخيّة لا يحقّ له أن يزوّر التّاريخ ولكن تولستوي قدّم رؤيته لهذا التّاريخ وهي رؤية مواطن روسي، فلو كتب عن هذه الأحداث مواطن فرنسي لكتبها بشكل آخر لأنّ تولستوي يتعاطف مع الرّوس ومع تاريخهم، ومن الطبيعي أنّه يكره الذين غزوا بلده وحرقوه.

ورواية "الحرب والسلم" من الرّوايات التي تدعو إلى مقاومة المحتّل، فهنا يصف المحتلّين بأنهم مجموعة من النّهابين نهبوا بيوت موسكو.

أمّا الشخصيات فهناك شخصيّات تاريخيّة مثل نابليون بونابرت (1769- 1821)، والجنرال الرّوسي كوتوزوف توفي (1813)، والقيصر الرّوسي ألكسندر الأوّل (1777-1825)، أما معظم الشخصيّات فهي من صنع خيال المؤلف مثل ناتاشاروستوفا، وبيير بيزوخوف، وأندريه بولكونسكي، هذه الشخصيات من صنع خيال المؤلف ولكنها شخصيّات واقعيّة، فيرى النّقاد أنّ أندريه بولكونسكي هو خال تولستوي، وأخته ماريا بولكونسكي هي أمّ تولستوي، ونيكولاي روستوف هو والد تولستوي، وبلدة ليسي غوري هي بلدة تولستوي أي

[1] - المرجع السابق ص 638.

ياسنايا بوليانا، ووالد الأمير أندريه بولكونسكي هو جدّ تولستوي من جهّة أمّـه وبـذلك فـإنّ الشخصيات واقعيّة.

يتألف الكتاب الرّابع من رواية "الحرب والسلم" من أربعة أجزاء، وهو الكتـاب الأخيـر في هذه الرواية، والأجزاء الأربعة ملحقة بخاتمة من جزأين...

يتألف الجزء الأول من ستة عشر فصلاً، وفيه يصوّر لنا تولـستوي مـرض هيلـين، والأمير فاسيلي تقرأ رسالة رئيس الأساقفة أفلاطون إلى ألكسندر الأوّل، وتقريـر كوتـوزوف عن معركة بورودينو يصل إلى بطرسبرج ويُؤوّل على أنه بشرى بالانتصار، ومـوت هيلـين بيروخوف المفاجيء، ووصول العقيد ميشو إلى بطرسبرج مبعوثاً من قبل كوتوزوف ليحمـل النبأ الرسمي، نبأ التخلي عن موسكو، وتصريحات الإمبراطور المصمّم علـى قتـال نـابليون حتى النهاية..[1]

وفي الفصل الرّابع من الجزء الأوّل يبيّن لنا تولستوي تأمّلاته في الفترات الحرجة مـن حياة بلد ما، فمعظم النّاس لا يعيرون مجرى الأحداث العام أيّ اهتمام لكنهم يحيـون حيـاتهم الخاصة ولا ينقادون إلاّ لمصالحهم الشخصية الآنيّة، يقول تولستوي:

" .. على أنّ المصالح الشخصيّة قي تلك الفترة أعظم أهمية من الواقع إلى الحـد الـذي تحجب فيه دائماً المصلحة العامة(التي لا تُلحظ). ومعظم الناس في ذلك العصر لـم يكونـوا يعيرون سير الأحداث العام أي انتباه، ولم يكونوا ينقادون إلا لمـصالح الـسّاعة الشخـصيّة. هؤلاء النّاس بالذّات هم الذين كانوا أعظم الفاعلين نفعاً في هذا العصر.

أما الذين كانوا يسعون إلى فهم مجرى الأحداث وكانوا يريدون أن يشاركوا فيها بتفـانٍ وبطولة، فقد كانوا أقلّ أعضاء المجتمع نفعاً، لقد كانوا يرون كلّ شيء بالمقلوب، وكان كلّ مـا يفعلونه للخير العام يتجلى عبثاً تافهاً، كمثل فوجي بييـر ومـامونوف اللـذين كانـا ينهبـان القرى..."[2]

أما الجزء الثاني فيبدأ بتأملات المؤلف في أسباب الأحداث التّاريخيّة حيث يقول:

"وأسبق علاقة سببيّة ظهرت في الأحداث التّاريخيّة(حيث يتركّز موضوع الملاحظة في أعمال البشر) هي مشيئة الآلهة، ثم مشيئة الرّجال الذين يحتلّون أبرز مركـز فـي التّـاريخ، الأبطال التاريخيين. لكن يكفي أن نتعمق في كلّ حدث تاريخيّ، أي في نشاط كافة الناس الذين

---

[1] انظر: تولستوي، ليون: الحرب والسلم، م4، ترجمة: صياح الجهيم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983، ص689.

[2] المرجع السابق نفسه، ص 29، ص30.

شاركوا فيه، لنتأكّد من أن مشيئة البطل التّاريخيّ ليست قاصرة عن توجيه هذا النشاط فحسب، بل إنّها هي نفسها موجهة أبداً....).[1]

ثم يتحدث الكاتب عن مسيرة الجيش الرّوسي الشّهيرة، ورسالة نابليون إلى كوتوزوف، ورسالة ألكسندر الأول إلى كوتوزوف تطلب إليه الهجوم، وتقدّم القطعات الروسيّة، وتفكّك الجيش الفرنسي وانحلاله في أثناء إقامته في موسكو، وهربه من موسكو مع الأسلاب، بعد معركة تاروتينو...

يأمر نابليون بالانسحاب عن طريق سمولنسك....[2]

أما في الجزء الثالث فتبرز تأملات المؤلف في الطابع الشعبي لحرب الأنصار سنة 1812، ويصور لنا تولستوي بيير وهو في قافلة الأسرى أثناء مسيرة الفرنسيين من موسكو إلى سمولنسك، وتحرر بطرس من الأسر، وتأمّلات المؤلف في النتائج المشؤومة لهرب الجيش الفرنسي[3].

وفي الجزء الرابع يصوّر لنا الكاتب عزلة ناتاشا وابتعادها عن العالم والحياة بعد موت الأمير آندريه، ثم سفرها إلى موسكو مع الأميرة ماريا لاستشارة الأطباء، وتحرّك القطعات الروسية في آثار الفرنسيين، ومعركة كراسنوي، ثم اشتداد مكائد البلاط والأركان ضد الجنرال كوتوزوف الذي ينال وسام صليب القديس غريغوري من الدرجة الأولى، ثم إبعاده شيئاً فشيئاً عن قيادة الجيش، ثم موته...

ويصور الكاتب تحرر بيير بيزوخوف من الأسر، ثمّ ووصوله إلى موسكو، وزيارته للأميرة ماريا، ولقاءه مع ناتاشا[4].

خاتمة الرواية:

تتألف الخاتمة كما أسلفنا من جزأين: يقدم لنا المؤلف تولستوي في الفصل الأول من الجزء الأول تأملاته في القوة الفعّالة في التّاريخ المرتبطة بدور ألكسندر الأول ونابليون، ويذكر أنّه مضى سبع سنوات منذ 1812، وفيها عاد محيط تاريخ أوربا الهائج إلى شطآنه، وأن القوة الخفيّة التي تحرك الإنسانية استمرت في عملها، وأنّ نشاط الشخصيّات التّاريخيّة التي كانت تُترجم من قبل بأوامر الحرب والحملات والمعارك، يسميه المؤرخون: الرِدّة،

---

[1] المرجع السابق، ص133.

[2] المرجع السابق، من ص 692 حتى ص695.

[3] - المرجع السابق، من ص 695 حتى ص 697.

[4] - انظر المرجع السابق، ص 698، ص 699، ص700.

والمؤرّخون في وصفهم لفعاليّة هذه الشخصيّات التّاريخيّة، يدينونها بشدة، فجميع الشخصيات المعروفة في هذه الحقبة، مثل ألكسندر ونابليون وشيلنج وشاتوبريان وغيرهم، يمثلون أمام محكمتهم القاسية فيبرّؤون أو يُدانون، كما يقول تولستوي إنّه ليس من أحد في الأدب الروسي اليوم، لا يرمي ألكسندر الأول بحجر للأخطاء التي ارتكبت في أثناء هذه الفترة في عهده[1] ... يقول تولستوي:

"إن الأفعال التي من أجلها يشيد المؤرخون بألكسندر الأول، (1777-1825) من مثل المبادرات التحرّرية في عهده، ونضاله ضد نابليون، والصمود الذي يبرهن عليه في 1812 وحملة 1813، ألا تنبع من نفس المنابع التي جعلت شخصيّة ألكسندر على ما كانت عليه- دواعي الدم والتربية، وشروط الحياة- والتي نبعت منها الأفعال التي ينكرونها، من مثل الحلف المقدّس، وإعادة الملكية إلى بولونيا، ردّة سنوات 1820؟"[2] ويتابع تولستوي قائلاً:

"لكن حتّى لو افترضنا أن ألكسندر الأول قد أخطأ، منذ خمسين عاماً، في الفكرة التي تصوّرها عن خير الشعوب، فإننا ملزمون أن نفترض أن المؤرخ الذي يحكم على ألكسندر الأول سيبدو، في غضون بعض الوقت، كأنّما أخطأ في فكرته عن خير الإنسانية، وهذا الافتراض طبيعي ومحتوم ولاسيما أنّنا حين نتتبّع تطوّر التّاريخ، نرى أنّ وجهة النظر عن خير البشرية تتبدّل من عام إلى عام، ومع كل مؤلف جديد، بحيث أن ما كان يبدو خيراً يغدو بعد عشر سنوات شرّاً، وبالعكس".[3]

نتابع في ذكر الأحداث التي ذكرها تولستوي في الخاتمة ومنها: زواج بيير بناتاشا، وموت الكونت العجوز روستوف، وزواج نيقولا والأميرة ماريا وحياتهما في ليسييه غوري...

في الجزء الثاني من المقدمة يقدم لنا تولستوي تأمّلاته عن القوة التي تخلق الأحداث التّاريخيّة، وأن سلطة الشخصيّات التّاريخيّة لا يمكن أن تعدّ سبباً للأحداث التّاريخيّة، وقضيّة الحريّة والضرورة وفي الفصل الثاني عشر والأخير يتحدث الكاتب عن الصراع بين مفهوم التاريخ القديم ومفهومه الجديد[4].

يقول تولستوي في الفصل الثالث من الجزء الثاني في خاتمة كتابه:

---

1 - انظر: المرجع السابق، ص 485، ص 486.

2 - المرجع السابق، ص 487.

3 - المرجع السابق، ص 488.

4 - انظر المرجع السابق، ص 701، 702، 703، 704.

"وما دام التّاريخ الذي يكتب هو تاريخ الأفراد، سواء أكان تاريخ قيصر وألكسندر أم لوثر وفوليتر، لا تاريخ "الكل" بدون استثناء، كل الناس الذين يشاركون في حدث من الأحداث، فسيكون من المستحيل ألاّ تُعزى إلى بعض الأفراد القوّة التي تجبر الآخرين على أن يوجّهوا نشاطهم نحو هدف واحد. فالمفهوم الوحيد من هذا النّوع، المفهوم الوحيد الذي يعرفه المؤرّخون هو السلطة".(1)

[1] - المرجع السابق، ص 624.

الرواية التاريخيّة السّورية في النصف الأول من القرن العشرين

رواية " الهيام في فتوح الشام" لسليم البستاني (بداية الرواية التاريخية العربية):

ومن الرّوايات التاريخية الأولى التي تحدّثت عن فترة معيّنة من فترات تاريخنا الإسلامي، رواية "الهيام في فتوح الشّام" بقلم مؤلّفها سليم بطرس البستانيّ من لبنان، وبالرغم من أنّها رواية تاريخيّة تحدّث فيها الكاتب عن أحداث حقيقيّة جرت في تاريخنا الإسلامي، إلاّ أنّ المؤلّف قد طعّمها بأحداث متخيّلة، وقصص غرامية شيّقة، فكانت هذه الرّواية الفريدة رواية تاريخيّة غرامية أدبيّة...

وقد أشار مؤلّف هذه الرّواية سليم البستاني إليها بقوله:

"هي رواية تاريخيّة غراميّة أدبية تتضمّن تاريخ فتح العرب لبلاد الشّام واستيلائهم على ربوعها بقيادة أشهر قوّادهم وأعلاهم منزلة في الإسلام وأقربهم نسباً وصلة بالرّسول العربي، وتنتهي الرّواية بتقلّص سطوة الرّومان في سوريا وتلك الرّبوع وانحصارها في نقطة ضيقّة، وكلّ ذلك بعبارة سلسة وحوادث مفكهة ووقائع غريبة ووصف المعارك الحربيّة طبقا لما جاء في أصّح الرّوايات التّاريخيّة".[(1)]

يبدأ الكاتب سليم البستاني الفصل الأوّل من روايته "الهيام في فتوح الشّام" بأبيات مشهورة للمتنبي في الفروسيّة والشّجاعة والفخر والاعتداد بالنّفس، ثمّ يبيّن لنا أن ماتفعله سهام اللحّظ في قلب العاشق الولهان أفتك من فعل الرّماح في حشيّ البطل الصنديد.[(2)]

كما يذكر لنا الكاتب في بداية هذا الفصل موضوع روايته، والأسباب التي دعته إلى كتابة هذه الرّواية فيقول:

"ومع أنّ عنوان روايتنا لا يدلّ عليها لم نقصر عن اغتنام الفرص المناسبة لذلك عند سنوحها، ومع أنّنا لم ننقلها عن عربي، ولا ترجمناها عن عجمي، قد أودعنا فيها ماتيسّر من عوائد القومين، ولمّا كان الغرام في حالة واحدة في الماضي والحال، كان موضوع كلامنا ممّا

---

[1] - البستاني، سليم: الهيام في فتوح الشّام ، نُشرت تباعاً في الجنان عام 1874، مطبعة إدارة المرآة بنيويورك ، ص 1

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 3.

لا يهم المطالع، ولذلك قد راعينا ظروفنا وميلنا ورغبتنا في الوقوف على أخبار الغرام عند دخول العرب بلادنا السّورية أو الشّامية وما يليها، وابتداء أهاليها في الاستغراب والاختلاط مع أمّة فاتحة أقامت لنا ولنفسها ذكراً على صفحات التّاريخ لا يمحوه طوارق الحدثان ولا كرور الزّمان، وسميّناها الهيام في فتوح الشّام لاشتمالها على الخبرين في الزّمان الذي سقطت فيه الدّولة الرّومانيّة من هذه البلاد، وشيّدت على آثارها الدولة العربيّة."[1]

ومن الشخصيّات المتخيّلة في الرّواية شخصيّة "سلمى" ويعرّفنا إليها الكاتب، فهي من الفتيات العربيّات الحميريّات وقد خرجت من المدينة عندما عقد الخليفة أبو بكر الصديق لخالد ابن الوليد راية القيادة، وأرسله ليفتح الديّار الشامية، أمّا الشخصيّة المتخيلّة الثّانية فهي شخصيّة "أوغسطا"، ويذكر الكاتب أنّها من بنات الرّوم في ذلك الزّمان، وكانت تقيم تارة في الشّام وطوراً في حلب، ويذكر الكاتب أنّ كلا منهما –أي سلمى وأوغسطا- من سلالة قوم يختلفون في كلّ شيء عن قوم الأخرى، ويقطنون بلاداً بعيدة عن بلادهم، إلاّ أنّ الله سبحانه قد ألبسهما حلّة واحدة من جمال الصّورة ورقّة الصوت وقوّة العقل، ويصف لنا الكاتب جمال أوغسطا وكلامها الفصيح، ويذكر أنّها بلغت سنّ التسع عشرة سنة، ويذكر بعض الأبيات الشعريّة في وصف جمالها.[2]

يقول الكاتب مشيرا إلى شخصيّتي سلمى و أوغسطا :

"وكانت سلمى من القوم المهاجمين وهم العرب، و أوغسطا من المهجوم عليهم وهم الرّوم الذين كانوا تابعين للمملكة الرّومانيّة الشرقيّة، وكانت عاصمتها القسطنطينيّة وهي المسمّاة اليوم بالأستانة أو أسطنبول، وهكذا قد تقرّر أنهما عدوّتان ولكلٍّ منهما دين يختلف عن دين الأخرى، فإنّ أوغسطا نصرانيّة وسلمى مسلمة، وكانت التعصّبات الدينيّة في تلك الأيّام أشدّ منها اليوم، فإنّها جمعت فيها العصبة السياسيّة والجنسيّة فكان المتنصّر من العرب ينضمّ إلى الرّوم مع أنّه عربي، ومن الواجب أن ينضمّ إلى أبناء جنسه العرب وليس إلى أبناء دينه كأهل هذا العصر".[3]

وتنضمّ سلمى إلى جيش المسلمين، وتُغرم بفتى من فرسان العرب يخبرها أنّ أبا بكر الصدّيق أمير المؤمنين قد بعث إليهم برسول طالباً اجتماعهم إليه ليغزو بلاد الشّام، ويسألها فيما إذا كانت تريد الذهاب معهم في خدمة الجيش، فتجيبه سلمى بأنّها ترغب أن تموت معه، ثمّ يقصد هذا الفتى مكان الاجتماع، ومن بين المجتمعين كان أنس بن مالك رسول أبي بكر

---

[1] - المرجع السابق نفسه، ص 4.

[2] - انظر: المرجع السابق، ص4-5-6 .

[3] - المرجع السابق، ص 6.

الصدّيق، وكان مقيماً في المدينة المنّورة من بلاد العرب، ويخبر أنس القوم أنّــه بعــد وفــاة الرسول (ص)، خلفه أبو بكر الصديق الذي ظهر في خلافته رجل اسمه مسيلمة الكذّاب ادّعى النبّوة، فقتله أبو بكر الصديق لكي يخلّص المؤمنين من شرّه، ويجيب أكبر أمراء قبيلة حميــر اليمنيّة على أنس بن مالك بأنهم سوف يفعلون مافيه طاعة الله ورسوله وخليفته، وقــد كانــت سلمى ومحبّها من هذه القبيلة، وتُسرّ سلمى بما سمعت، وتقرّر السير وراء حبيبها الذي كــان من أولاد أمراء القبيلة ، وكانت هي من بنات سادتها ......

وأخذ أنس بن مالك يجول في بلاد العرب، ويدعو أهلها إلى الجهاد في سبيل الله بــشّن الغارة على بلاد الشّام، وكانوا يجيبونه على ذلك، وأخبر أنس بن مالك أمير المؤمنين بمجــيء قبائل اليمن.[1]

يقول الكاتب مصوراً فرحة أمير المؤمنين بقدوم القبائل العربية، وحديثه مع علي بــن أبي طالب:

"ثمّ قال لعليّ بن أبي طالب، وهو زوج بنت النبي وكان اسمها فاطمة: يا أبا الحسن أما سمعتَ الرسول يقول إذا أقبلت حمير ومعها نساؤها تحمل أولادها فابشر بنصر الله على أهــل الشّرك أجمعين. فقال الإمام: صدقت ، وأنا سمعته من الرّسول".[2]

وسارت حمير بكتائبها وأموالها، وكذلك قبائل طيّ وسيّدها حارث بن مسعد الطّائي، ثــمّ قدمت الأزد في جموع كثيرة، وبعدها جندب بن عمرو الدّوسيّ، ونزل سالم في خيمة ملاصقة للخيمة التي نزل فيها أبو محبوبته سلمى.....

يقول الكاتب مصوّرا مسيرة الجيوش العربيّة إلى بلاد الشّام لمحاربة الدّولة الرّومانيّة :

"هذا ومن المعلوم أنّ العرب الذين خرجوا من المدينة المنورة قاصدين فتح بلاد الــشّام سنة 632 للميلاد وبين السنّة العاشرة والثالثة عشرة للهجرة، هم من البلاد االعربيّــة الأصــليّة وفيها الحجاز واليمن وحدودها سوريّة والعراق وخليج العجم وبحر العرب والبحر الأحمــر والسويس، ومنها مكّة وجدّة وصنعاء والمدينة وعدن ومسقط وغيرها".[3]

ويتابع الكاتب سرد أحداث روايته في الفصل الثّاني، فيذكر أنّ أوغسطا كانت من النساء المسيحيّات التابعات للإمبراطوريّة الرّومانيّة في الشّرق في زمان الإمبراطــور هيراكليــوس المُسّمى عند العرب هرقل، وبعد إقامتها في الشّام بثلاثة أشهر وردت تحريــرات إليهــا مــن

---

[1] انظر: المرجع السابق، الصفحات من 8 حتّى 11.

[2] - المرجع السّابق، ص12

[3] - المرجع السّابق، ص 16

أنطاكيّة التي كانت أعظم مدن سوريّة في ذلك الزّمان مآلها أنّ محبّها جوليان قد عـاد مـن حرب الفرس.(1)

يقول الكاتب واصفاً حروب الدولة الرّومانيّة في ذلك الزّمان:

"ولم تكن الدّولة الرّومانيّة في ذلك الزّمان، وهو القرن السّابع بعد الميلاد ترتـاح مـن حرب حتّى تلتزم أن تشغل بحربٍ أخرى، فإنّه بعد أن ارتاح هرقل وهو هيراكليوس من حرب الفرس الذي كان فيه جوليان محبّ أوغسطا، وتخلّف عنه زماناً بأربع سنين سمع، وهو إمّا في قصره في أنطاكيّة، وإمّا في قصره في القسطنطينيّة بأنّ قوماً من الأمّة العربيّة شـرعوا فـي مهاجمة بلاده.(2)

أما في الفصل الثّالث من الرّواية، فيذكر الكاتب أن يزيد بن أبي سفيان وربيعة بن عامر كانا يسيران في فرسان العرب قاصدين البلاد الشّاميّة من الجهة الجنوبيّة، حتّى وصـلوا إلـى تبوك وهي مدينة من بلاد العرب عند البحر الأحمر، وكانوا قاصدين الخروج منها إلى دمشق، وكان في مدينة تبوك قوم من العرب المتنصّرة، حملوا خبر قدوم العرب إلى هرقل إمبراطور الرّومان، لأنّه في ذلك الزّمان كانت العصبية للدّين ولم تكن للجنس، ولمّا بلغ الخبر هرقل عقد مجلس مشورة وقصّ الخبر على رجال دولته، ووصف لهم ماكان يعهده من ضعف العـرب، وكان وصول العرب إلى تبوك قبل وصول جيش الرّوم ببضعة أيّام، وفي اليوم الرّابـع أخـذ قائدا العرب وهما يزيد بن أبي سفيان وربيعة بن عامر في الاهتمام بالرّحيل إلى الشّام، وكـان عدد جيش الرّوم ثمانية آلاف جنديّ، تحت قيادة خمسة مـن قـوّادهم يـسمّونهم (البطارقـة الخمسة)، أمّا عدد جنود ربيعة فكان ألف جنديّ، وتقدّم القائد الآخر يزيد بفرقته وكان عـددها ألفاً،... وقد هلك أكثر الرّومان في هذه المعركة ...، وبعد أن فرغ العرب مـن نتـائج تلـك المعركة، سلّموا على شرحبيل القائد العربي الذي أتاهم بالنجّدة. (3)

ويذكر الكاتب كيف كان ردّ الإمبراطور هرقل بعد أن سمع عن نتائج المعركة، فيقول:

"ولّما بلغ الإمبراطور هرقل خبر انكسار جنوده، خاف واغتاظ ولاسيّما لأنّـه تـيقّن أنّ جيشه كان أكثر من عدد جيش العرب، ولو لم يبادر وزراؤه إلى تـسليته بقـولهم إنّ العـرب لايقدرون أن يقتحموا الحصون لأنّهم لم يكونوا حاصلين على الآلات اللازمة، وأنّه لابدّ مـن

---

[1] - انظر: المرجع السابق، ص 19.

[2] - المرجع السابق، ص 21

[3] - انظر: المرجع السّابق الصفحات من 28 حتّى 35.

فوزهم في المعارك التي هي كمعارك تبوك....لاشتّد الغّم والكدر، فأمر على الفور بتجهيز جيوش أخرى لمحاربتهم ومنعهم عن فتح مدينة بعد مدينة".[1]

وقد شدّد نجاح يزيد وربيعة عزم أبي بكر الصدّيق، وبيّنت له الغنيمة منافع الفتوحات، فصمّم على توسيع دائرة الفتوحات بتكثير الجنود، فكتب كتاباً إلى أهل مكّة المشرّفة، بأن ينهضوا إلى الجهاد في سبيل الله، وقد جاء في هذا الكتاب مايأتي:

"بسم الله الرحمن الرحيم من أبي بكر إلى أهل مكّة وسائر المؤمنين، فإنّي أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلّي على نبيه محمد.

أمّا بعد فإنّي قد استنصرت المسلمين إلى الجهاد وفتح بلاد الشّام، وقد كتبت إليكم والى المسلمين أن تسرعوا إلى ما أمركم ربّكم تبارك وتعالى، إذ يقول الله عزّ وجلّ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ....."[2]

وختم الكتاب، وسلّمه إلى عبد الله بن حذاقة، فسار به إلى أهل مكّة الذين أجابوا الدّعوة، وكتب أبو بكر الصديق إلى أهل الطائف، فأجابوا الدعوة أيضاً، وسلّم أبو بكر الصديق قيادة الجيش إلى عمرو بن العاص، وهو من مشاهير قوّاد العرب، وأمره أن ينصرف إلى أرض فلسطين، وجعل أبا عبيدة القائد العام لجيوش العرب، وسار الجيش قاصداً فلسطين ليفتحها، وكان عدده تسعة آلاف.[3]

يقول الكاتب متحدثاً عن الجيوش العربيّة التي سيّرها الخليفة أبو بكر الصديق:

"إنّ أبا بكر الخليفة أرسل جيشاً من العرب إلى جنوب فلسطين، وهو جيش يزيد وربيعة وشرحبيل. فهذا هو الجيش الأوّل وعدده أربعة آلاف جنديّ. والجيش الثّاني هو الذي أرسله إلى بلاد الشّام تحت قيادة عمرو بن العاص وعدده تسعة آلاف. والجيش الثالث هو الذي جعله تحت قيادة أبي عبيدة، وأمّا الجيش الرّابع فهو الجيش الذي بعثه إلى بلاد فارس تحت قيادة خالد بن الوليد الملقّب بسيف الله، وضُمّ هذا الجيش إلى جيوش فتح بلاد الشّام بأمر أبي بكر بعد أن فتح خالد بن الوليد الأنبار والحيرة، وانتصر في مواقع أخرى جرت بينه وبين جنود فارس، ومن كان معهم من القبائل السّاكنة عند الحدود، والحيرة وأنبار مدينتان في العراق العربي في الجهة الشّمالية العربيّة من خليج العجم".[4]

---

[1] - المرجع السابق، ص 36.

[2] - المرجع السّابق، ص 37

[3] انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 37 حتى 40

[4] - المرجع السابق، ص 42

وكانت سلمى تخدم الجرحى في جيش خالد بن الوليد الذي فتح الحيرة، أمّا عمرو بن العاص فقد سار بجيشه إلى أبلية وهي بلدة في شمالي بلاد العرب عند خليج البحر الأحمر، ثمّ سار إلى أرض فلسطين...

وكانت أوغسطا تضمّد جراح حبيبها جوليان الذي أصيب بالحمّى من الجرح....، وقاتل الضحّاك والحارث بن هشام قتالا شديداً، وقُتل كبير الرّومان، وشدّد العرب الصدام، فوقع الاضطراب في جيش الرّومان، فانهزموا، وجمع جيش العرب الغنائم، ووقع في أيدي العرب من الرّومان ستمئة أسير، وقد قُتل من العرب سبعة نفر فقط، ولمّا بلغ إمبراطور الرّومان خبر معركة فلسطين تكدّر جدّاً، وأصدر الأوامر بجمع الزّاد في المدن الحصينة والقلاع، وترميم مايتيسّر ترميمه منها، وأمر بجمع جيوش جديدة في الشّام وفي القدس الشّريف وغيرهما من المدن.[1]

وفي الفصل الخامس من الرّواية يقول الكاتب :

"إنّ شرحبيل بن حسنة كاتب وحي الرّسول من القوّاد الذين خرجوا في أوّل الأمر إلى الجهاد وقاموا بالمعارك الأولى. وكان أبو عبيدة القائد العام قد أرسل شرحبيل القائد المذكور إلى بصرى وهي مدينة كانت مبنيّة في مكان يبعد عن الشّام مسافة أربعة أيام".[2]

وكان حاكم مدينة بصرى هو روماس، وقد استخفّ أهل المدينة بشرحبيل القائد الذي جرى حديث بينه وبين روماس المذكور، وبعد ذلك حمل العرب على جنود بصرى، واشتّد القتال بين الطّرفين، أمّا القائد خالد بن الوليد الذي كان قد خرج بأمر الخليفة قاصداً فتح بلاد فارس، قد شرع في الرّجوع عن بلاد العراق لينجد جيوش الشّام العربيّة، وكان وصول خالد إلى بصرى بالنجّدة واسطة لحمل الرّومان على الرّجوع عن القتال ...، وفي اليوم الثّاني من معركة بصرى نظر خالد بن الوليد القائد إلى جهة المدينة، فرأى جيوشها زاحفة قاصدة قتال العرب بقيادة القائد الرّوماني الديرجان، واشتّدت حملات العرب على جيش بصرى، وكان سالم وسلمى في جيش بن الوليد.[3]

ويصّور الكاتب ماجرى، مبّيناً رحمة الفاتحين العرب:

---

1 - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 45 حتى 59.

2 - المرجع السابق ، ص 62

3 - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 62 حتّى 78.

"هذا ولمّا رأى أهالي بصرى أنّ العرب قد دخلوا مدينتهم الحصينة، وفتكوا بهم صرخوا طالبين الأمان، فقال خالد بن الوليد القائد العام للجيوش العربيّة في فتوح الشّام ارفعوا السّيف عنهم".[1]

بعد ذلك أسلم القائد رومانوس، ففرح خالد بإسلامه، وقرّر رومانوس السّير مع خالد حيث سار.

وفي الفصل السّادس من الرّواية يصوّر لنا الكاتب أوغسطا وهي في الشّام مع محبّها جوليان الجريح، وتقرر أوغسطا الذّهاب إلى معسكر العرب للتجسّس، فترتدي ثياب بدوية، وتتظاهر أنّها خرساء تبيع اللّبن.[2]

أما الفصل السّابع فيذكر الكاتب أنّ الرّومان لم يكونوا ينتظرون مجئ خالد بن الوليد لغفلتهم، بينما كان الرومان ينتظرون أبا عبيدة، وفد عليهم خالد بن الوليد، ونزل في مكان يسمّى دير خالد بن الوليد، وهذا هو الجيش الذي سارت إليه أوغسطا مسيراً عجيباً.

يقول الكاتب:

"ولا نخطئ إذا قلنا إنّ جيش العرب عند الشّام كان نحو خمسة آلاف، ولم يكن ألفاً وخمسمئة كما تقرّر في بعض الكتب. ولمّا رأى خالد بن الوليد القائد العامّ لجميع الجيوش العربيّة التي خرجت لفتح بلاد الشّام أنّ الرّومان مقبلون عليه، وأنهّم كثيرون جدّاً تدرّع وصرخ في جنوده وقال: هذا يوم ما بعده يوم وهذا العدو قد زحف بخيله فدونكم الجهاد فانصروا الله ينصركم وكونوا ممّن باع نفسه لله عزّ وجلّ وكأنكّم بأخوانكم المسلمين وقد قدموا عليكم مع أبي عبيدة بن الجراح.[3]

وحمل شرحبيل بن حسنة، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وضرار بن الأزور على جيش الرّومان، ثمّ حمل خالد بن الوليد على الرومان، ولم يعبأ بسهامهم، وطلب من الرّومان أن يرسلوا أحد قوادهم ليقاتله على انفراد، وكان عزازير وكلوس قائدين رومانييّن في الشّام، ووقعت القرعة على كلوس، وطلب كلوس ترجماناً ليخرج معه، وكان اسم الترجمان غريغوريوس، وهو المعروف عند العرب بجرجيس، واتفّق كلوس مع الترجمان على خديعة

[1] - المرجع السابق، ص 82.

[2] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 85 حتّى 104.

[3] - المرجع السابق، ص 106.

خالد، لكنّ خالداً حمل على كلوس وأسره، وفرّ الترجمان، ويعرض عزازير على خالد ألف مثقال من الذهب مقابل أن يقتل خالد القائد كلوس، ويأتيه برأسه.[1]

ويهجم عزازير على خالد، ويضربه بالسّيف، ولكنّه لم يجرحه. يقول الكاتب البستاني:

"وقد تقرّر في التّواريخ العربيّة أنّه لمّا رأى الحاكم الرّوماني مارأى من ثبات خالد وعزمه انذهل وطلب الفرار، وكان راكباً فرساً أسبق من فرس خالد ولذلك لم يقدر أن يلحقه".[2]

نلاحظ في القول السّابق للكاتب أنّه يشير إلى أنّه استقى معلوماته التّاريخيّة من كتب التّاريخ، وذلك في قوله: "وقد تقرّر في التّواريخ العربيّة"، ولكن ما يُلفت النّظر هو أنّ الكاتب لم يذكر اسم المصدر الذي أخذ منه معلوماته، ولم يُشر أيضاً في الهامش إلى أيّ كتابٍ تاريخيّ، وهذا ليس فقط في قوله السّابق، وإنّما في جميع ما أوردناه سابقاً ممّا ذكره الكاتب من وصفٍ للمعارك، وذكرٍ للأحداث التّاريخيّة، ونصوص الخطابات، وما جاء في رسائل القوّاد بين بعضهم. كما ويشير الكاتب إلى الفرق بين رجال العرب وقوّادهم، وبين رجال الرّومان وقوّادهم، وتحلّي العرب بالقيم الأخلاقيّة، وانعدام هذه القيم عند الرّومان، وبيّن الكاتب ذلك في موقف أبي عبيدة من القائد خالد بن الوليد، مشيراً بذلك إلى التسامح عند العربي، وتفضيله المصلحة العامة على مصلحته الشخصيّة، فيقول:

"أمّا أبو عبيدة فأتى خالداً في ميدان الحرب وصافحه، فإنّه كان يحبّه. فقال له أبو عبيدة: لقد فرحت بكتاب أبي بكر الصديق الخليفة حين قدّمك عليَّ، وما أخذت في قلبي عليك لأنّني أعلم مواقفك في الحرب. فمن يا ترى يقرأ هذا الكلام بعد قراءة خبر كلوس وعزازير الرّومانيين، ولا يندهش عندما يرى الفرق بين رجال الرّومان ورجال العرب في ذلك الزّمان فإنّ أبا عبيدة قد بيّن فرحه بتقديم خالد عليه إذ إنّه عرف اقتداره الحربيّ وشجاعته فعوضاً عن أن يخاصمه وينازعه ويلقي القلاقل والشّقاق في الجيش صافحه في ميدان الحرب وهنّأه بإظهار سروره".[3]

وفي الفصل الثّامن يصوّر لنا الكاتب كيف تنكّر جوليان، وخرج ليبحث عن أوغسطا بعد أن عرف أنّها خرجت للتجسّس على أحوال العرب، أمّا أوغسطا فقد ذهب بها الحرّاس

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 107 حتى 112.

[2] - المرجع السابق، ص 112 - 113.

[3] - المرجع السابق، ص 113.

إلى خالد بن الوليد ليقصّوا عليه خبرها بأنّها فتاة محتالة، قصدها الضرّ بهم، ويجتمع جوليان مع حبيبته أوغسطا في خيمة واحدة، ويقرّر الاثنان محاولة الخلاص من الخيمة.[1]

وفي الفصل التاسع يصوّر لنا الكاتب اشتداد المعركة بالقرب من الدير بين العرب والرّومان الذي كان يقودهم القائد الخائن وقد انكسرت فرقته في الميمنة، وبات الرومان محصورين داخل أسوار الشّام، فرجع خالد عن مطاردتهم، واجتمع بأبي عبيدة وهو سلفه في القيادة العموميّة، ويذكر لنا الكاتب عدد الجيوش العربيّة ويصوّر الكاتب كيفية فتح دمشق بقوله:

"وكان في تلك المعركة الشديدة جنود كثيرة من العرب فإنّ الذين قدموا مع أبي عبيدة جيشاً بعد جيش كما مرّ 37 ألف فارس من الشجعان من أهل الحجاز واليمن وحضرموت وساحل عمان والطّائف وما حول مكّة، وكان قادماً مع عمرو بن العاص تسعة آلاف فارس. أمّا خالد بن الوليد الذي أرجعه الخليفة من العراق ليتقلّد قيادة جيش الشّام العامة فكان جيشه سبعة آلاف وخمسمئة فارس. فنزل خالد بن الوليد بنصف هذا الجيش على الباب الشرقيّ، ونزل أبو عبيدة بالنصف الآخر على باب الجابية"[2]

ويهرب جوليان مع أوغسطا، ويسيران إلى جهة الشام....، أمّا الرّومان فلّما رؤوا ما حلّ بهم، وأنّ مدينتهم باتت محصورة، وأنّ قائديهما قد قُتلا، كتبوا إلى الإمبراطور هرقل بما كان قد جرى، ووصفوا له المعارك، وذكروا البلاد التي فتحها العرب، وطلبوا نجدة لتهجم على جيش العرب، فأشار رجال الدولة على هرقل بإرسال القائد وردان أو فردن حاكم حمص الذي كان من أبسل قوّاد الرّومان وأعرفهم بفنون القتال، فدعا هرقل فردن إليه، وعقد له قيادة اثني عشر ألفاً من الجنود، ووعده بأن يعطيه الأراضي التي كان قد فتحها العرب إن هو فاز بطردهم، وأمره أن ينفذ أمراً إلى الجنود الرّومانيّة في أجنادين ليربطوا الطّرق ويمنعوا جيش عمرو بن العاص عن الانضمام إلى جيش خالد بن الوليد الذي كان يحاصر الشّام...، ويهجم خالد بن الوليد على أسوار الشّام ويحاصرها عشرين يوماً دون أن يتمكّن من فتحها، ويعلم خالد أنّ جيوش الرومان الجرّارة مجتمعة في أجنادين، وكان خالد يستشير أبا عبيدة في كل أمر فيه خير الأمّة...، ويشتبك الفريقان العرب والرّومان، وكانت خولة بنة الأزور تبحث عن أخيها لكنّها لم تقع له على أثر، أمّا سالم الذي كان يشارك جنود العرب في القتال فقد تأكّد أنّ محبوبته أسيرة في الشام.

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 114 حتى 141.

[2] - المرجع السّابق، ص 145.

وفي الفصل العاشر يذكر الكاتب أنّ خالداً بن الوليد سار في طليعة جيشه، أمّا أبو عبيدة فقد بقي في ألف من العرب في مؤخّرة الجيش...، وقد عُرضت النّساء التي أُسرت من العرب على بطرس الرّومانيّ، فلم تعجبه غير خولة بنة الأزور أخت ضرار، الفتاة التي فتكت بالرّومان.[1]

وفي الفصل السادس عشر يقول الكاتب:

"والحاصل أنّه استمرّ القتال إلى العصر، وعند ذلك افترق الجيشان بعد قتال شديد، وقد ذُكر في كتب العرب أنّه قُتل من الرّومان ثلاثة آلاف جندي وعشرة من عظماء الرّجال والحكّام الكبار".[2]

ونشير هنا إلى ملاحظة ذكرناها سابقاً، وهي أنّ الكاتب يقول: "وقد ذُكر في كتب العرب" ولكنّه لا يذكر أسماء هذه الكتب، وهذا ما يدعو للشكّ بصحة هذه الأقوال.

ويتابع الكاتب فيذكر لنا نتيجة معركة أجنادين، وهي انتصار العرب، وانهزام الرّومان، وحضور نجدة جديدة من الخليفة أبي بكر الذي كتب إليه خالد بن الوليد يخبره بذلك النّصر. وسار خالد بعد ذلك إلى الشّام قاصداً حصارها، وكان قد سمع أهلها بقتل القائد وردان وانكسار جيشه الجرّار، فخافوا، وتحصّنوا، ورفعوا السيّوف ، ونشروا الأعلام. ويُسرُّ الخليفة أبو بكر بخبر انتصار العرب في أجنادين، ويطلب منه أمراء العرب أن يسمح لهم بالذّهاب إلى الشام للانضمام إلى جيش خالد، وكان عمر بن الخطّاب كالوزير الأوّل عند أبي بكر، فقال لأبي بكر: "دعوا القوم لنا وفي قلوبهم حقائد، والحمد لله الذي كانت كلمة الله هي العليا وكلمتهم هي السّفلى....."[3]

وكان الرّومان قد سمعوا بانكسار جنودهم في أجنادين، وقتل قائدهم، فاستعدّوا في الشّام، وكان أبو عبيدة قد نزل على باب الجابية، وسمع أهل الشام بأنّ توما صهر الإمبراطور هرقل في دمشق، وأنّه خرج لقتال العرب من الباب المُسمّى باسمه.[4]

وفي الفصل السابع عشر: يذكر الكاتب أنّ سالماً كان من الذين دخلوا مع جيش خالد بن الوليد... ، وقد شاع خبر فتح الشّام في البلاد الرّومانيّة، وتقهقر الرّومان وقد قتلهم العرب جميعاً خلا جوليان واثنين منهم، وقد جُرح جوليان في ذراعه، واشتّد النزاع بين خالد بن

---

[1] انظر: المرجع السابق، الصفحات من ص 148 حتى ص 177.

[2] - المرجع السابق، ص 191.

[3] - انظر: المرجع السابق. الصفحات من 95 حتى 198.

[4] - انظر: لمرجع السابق، الصفحات من 200 حتى 202.

الوليد قائد العرب العام، وبين أبي عبيدة أمين الأمّة، وكان قائداً تحت أمرة خالد، وطلب أبو عبيدة من جنود خالد أن يكفّوا عن القتل والنّهب حتى يرى ما يتفق عليه هو وخالد، وعُقدت مشورة حضرها قوّاد العرب، وقرّروا أن يتحاكم خالد وأبو عبيدة إلى الخليفة، فكتبا إليه، وانقطع خالد عن القتل والنّهب...، أمّا الرّومان فقد عرجوا عن أنطاكيّة لأنّ الإمبراطور لم يسمح لهم بالدّخول إليها، ولكنّ العرب أدركوا الرّومان الذين خرجوا بالأموال والجواهر من الشّام، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ويذكر الكاتب ما تقرّر في الكتب العربيّة، نقلاً عن رافعة بن عميرة الطّائي الذي كان في المعركة التي جرت بين العرب والرّومان، حتّى خرجوا من الشام بخصوص أسر امرأة يونس الدّليل فقد قال رافعة الطائي إنّه كان في الميمنة مع خالد بن الوليد، ورأى يونس الدّليل يقاتل امرأته، وقد كان في زيّ الرّومان...، وبعد المعركة يتعرّف خالد بن الوليد على زوجة توما ابنة الملك هرقل، ويعرض على يونس أن يتزوجّها بدلاً من زوجته فيوافق يونس على ذلك.[(1)]

وفي الفصل الثامن عشر: يذكر الكاتب أنّ جوليان ورفيقه الجندي كانا نائمين في الغابة عندما رجع العرب من الحرب في ظاهر دمشق، أمّا سلّمى فقد تيقّنت أنّه لا سبيل لها للنّجاة بعد أن طال زمن أسرها، أمّا أوغسطا فقد كانت حالها بئس الحال.[(2)]

ويصف لنا الكاتب كيف فتح العرب مدينة حلب، وكيف كان موقف أهل المدينة من حصار العرب للمدينة، فيقول:

"وبعد أن فتح العرب تلك الفتوحات، ووقعوا في الضّيق مرّات كثيرة من جرّاء اجتماع جيوش كثيرة رومانيّة، وانضمام جيش يزيد عن الخمسين ألفاً من العرب المتنصّرة إلى الرّومان الذين أغروهم بالعطايا والوعود صمّموا على حصر مدينة حلب وقلعتها الحصينة.. ، ولمّا سمع أهالي حلب بدخول العرب إلى قنّسرين، وعقدهم الصّلح فيها، وإنشائهم مسجداً اضطربوا اضطراباً شديداً، وكان حاكمها رجلاً اسمه يوقنا وله شقيق اسمه يوحنا، كان راهباً متورّعاً في الدين، وكان يوقنا ذا بطش...."[(3)]

ويشير يوحنا على أخيه أن يرسل رسولاً إلى العرب. وقد عزم يوقنا على قتال أبي عبيدة قبل أن يصل إليه، وعند وصول أبي عبيدة، كان أهالي حلب قد باتوا في يأس، فالحاكم كان قد فتك بهم ودعاهم بالخائنين، أمّا الجنود العرب فقد أخرجوا أربعين أسيراً من أعيان قوم يوقنا، وأشار خالد بن الوليد عليهم بالزحف نحو القلعة، وكان العرب كلّما اقتربوا من القلعة

---

[1] انظر: المرجع السابق، الصفحات من 216 حتّى 233.

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 239 ، ص 240.

[3] - المرجع السابق: ص 241.

تأخذهم الحجارة، فارتدوا عنها، فقد جرحت الحجارة كثيرين منهم...، أمّا الرّومان فقد فرحــوا بهزيمة العرب، وما نزل بهم، ويصل كتاب الخليفة إلى أبي عبيدة يخبره فيه أنّه قلــقٌ عليــه، فكتب له أبو عبيدة يخبره بفتح قنّسرين، وشنّهم الغارة على العواصم، وفتح مدينة حلب صلحاً، ووصل الكتاب إلى الخليفة، فيقرؤه على النّاس، ويفرح النّاس كثيراً بهذا الكتاب...

أمّا سالم فقد التقى بحبيبته سلمى، وأرسل جوليان رسالة إلى أوغسطا التي كانت تعــيش في الدّير ، فلّما عرفت أوغسطا بسلامة جوليان عدلت عن الرّهبنة ، وخرجــت مــن الــدّير واجتمعت مع حبيبها جوليان وذهبا إلى القسطنطينيّة.[1]

يقول الكاتب سليم البستاني في نهاية روايته "الهيام في فتوح الشّام":

"فهذه هي أحوال عاشقين ومعشوقين في زمان تلك الانقلابات العظيمــة، فنــسأل الله أن يجعل عاقبة كلّ مطالع كعاقبتهم وهو الموفّق في البداية والنّهاية"[2]

تصوّر هذه الرّواية الأحداث التّاريخيّة في أثناء فتح العرب لمدينــة تبــوك ولبــصرى ولدمشق ولحلب، أي بلاد الشّام، وتصوّر شخصيّات عربيّة حقيقيّة مثل خالد بن الوليد، وأبــي عبيدة، وعمرو بن العاص، وخولة بنة الأزور، وأخيها ضــرار بــن الأزور، والشخــصيّات الرّومانيّة مثل هرقل، وبعض الشخصيّات العربيّة، والتي كان يجمعها مــع العــرب الانتمــاء القومي، وبالوقت ذاته يجمعها مع الرّوم الانتماء الدّيني، فكانت في أكثر الحالات تغلّب الانتماء القوميّ على الانتماء الدّيني إذ رفعوا شعار: "أبناء قومنا أقرب إلينا من أبناء ديننا".

كما ويصوّر المؤلّف إيجابيّات الفتح وسلبيّاته، فقد قام بعض الجنود العرب بنهب المــدن المفتوحة، ولذلك شكا أبو عبيدة بن الجراح هذا الأمر للخليفة متوقّعاً منه أن يصدر أمراً يمنــع ذلك، وهذا ما حدث بالفعل إذ كان العرب من الفاتحين الرّحماء.

فهذه الرّواية التّاريخية "الهيام في فتوح الشّام"، وهي من الرّوايات التاريخيّة الأولى فــي الأدب العربيّ، تصوّر أحداثاً تاريخية حقيقيّة وأخرى متخيّلة مثل قــصّة الحــبّ بــين ســالم وسلمى، وبين جوليان وأوغسطا، فهذه من صنع خيال المؤلّــف، ويبــدو أنّ جرجــي زيــدان (1860- 1914) قد تأثّر بهذه الرّواية، إذ جعل الأحداث المتخيّلة هامّة في حبكة الرّواية التي كتبها، وتنتهي بلقاء الحبيبين كلقاء سالم وسلمى، وجوليان وأغسطا فــي نهايــة روايــة ســليم البستاني، وممّا يُؤخذ على المؤلّف سليم بطرس البستاني أنّه لا يشير إلى المصادر التّاريخيّــة التي اعتمد عليها في تصويره لأحداث التاريخ، ولكن هذه الملاحظة، يبدو أنّها في ذلك الوقــت

[1] انظر: المرجع السابق، الصفحات من 242 حتى 262.

[2] - المرجع السابق، ص 262.

كانت سائدة أو منتشرة بدليل أنّ أحمد أمين في معظم مؤلّفاته على الرّغم من أنّه جاء بعد سليم بطرس البستانيّ بفترة طويلة، فهو لا يشير إلى المصادر التي اعتمدها في كتبه الكثيرة ومنها "قصّة الأدب في العالم" و "فجر الإسلام" وغيرهما.

روايات فرح أنطون التاريخية:

من المؤلّفات الرّوائيّة التّاريخيّة التي كتبها الأديب اللبناني فرح أنطون، رواياته: " الدّين و العلم و المال"، "الوحش، الوحش، الوحش"، "أورشيلم الجديدة" أو "فتح العرب بيت المقدس".

نبذة عن حياة فرح أنطون و مؤلّفاته :

وُلد الأديب فرح أنطون في مدينة طرابلس اللبنانيّة في عام 1874، و حصّل علومه الابتدائيّة والثّانويّة في مدرسة دير بكفتين في الكورة، ترك المدرسة في سنّ السّادسة عشرة، وعمل بالتّجارة، و إلى جانب عمله هذا انكبّ على التّحصيل العلمي الذّاتي بالمطالعة، ثمّ ترك التجارة، و تسلّم إدارة مدرسة في طرابلس، ثمّ انصرف إلى الصّحافة، وكان يراسل بعض المجلاّت والصّحف التي كانت تصدر في مصر، كصحيفة "البلاغ المصريّ" الصّادرة بالفرنسيّة، وجريدة "الأهرام"، و جريدة "الأهالي" المصريّة، وفي عام 1897 هاجر فرح أنطون إلى الإسكندريّة، و أنشأ مجلّة "الجامعة"، و نشر بوساطتها آراءه الاجتماعيّة والسياسيّة والأفكار الجديدة التي اكتسبها واقتبسها من مفكّري الغرب، أمثال جان جاك روسو، و جول سيمون، وكارل ماركس، ومجلّته "الجامعة" هذه هي مجلّة علميّة تهذيبيّة تاريخيّة صحيّة، وفي هذه المجلّة كان الأديب فرح أنطون يقوم بأعمال الترجمة والاقتباس، و كان يكتب المقالات المتفرّقة، و لكنّه صرف جهده الأكبر إلى نشر سير الرّجال المفكّرين وعظماء التّاريخ كالإسكندر الكبير، وعبد الرحمن أمير أفغانستان، و عبد الحميد خان الثّاني السلطان الأكبر، كما أنه أولى تولستوي أهميّة كبيرة، ولخّص له رواية "البعث"، و بالإضافة إلى ذلك بدأ فرح أنطون باختصار رواية ألكسندر دوماس عن تاريخ الثورة الفرنسيّة، وذلك تحت عنوان "نهضة الأسد".

وأُعجب الأديب أنطون بمؤلفات أرنست رينان، وقد انطلق من مبادئ هذا الفيلسوف ليلخّص فلسفة ابن رشد على ضوئها، وهذا ما أثار ضدّه محمد عبده، ثمّ سافر فرح أنطون إلى نيويورك، وهناك تابع إصدار مجلّته "الجامعة" مدة سنتين، وفي هذه الفترة تعرّف فرح أنطون إلى فكر نيتشه، ثمّ عاد إلى مصر بعد سنتين ليتابع نشر مجلّته "الجامعة" فترة قصيرة ثمّ

احتجبت بعدها، ولكنّ فرح أنطون لم يتوقف عن الكتابة ، فأخذ ينشر في الصّحف المصريّة مقالات تدعو إلى حريّة الأمم والشعّوب وتندّد بالحكم الطّاغي والمستعمر ....

وفي الثالث من تموز عام 1922 توفي فرح أنطون عن عمر يناهز الثمانية والأربعين سنة، وقد ترك العديد من المؤلّفات والترجمات، كما ألّف مسرحية"مصر الجديدة" و "السلطان صلاح الدين" وغيرهما .[1]

إنّ فرح أنطون لم يؤلّف كتاباً منهجيّاً، بل نشر فكره ومبادئه في مقالات وروايات مختلفة، وسنحاول فيما يأتي عرض محتويات رواياته الثلاث التي سبق الإشارة إليها .

1- الرواية الأولى : الدين و العلم و المال أو المدن الثلاث :

خلاصة هذه القصّة هي أنّ أحد المثقّفين، واسمه حليم، سمع بقيام مدن ثلاث مثاليّة في مكان ما من الأرض، فذهب برفقة صديقه صادق لزيارة تلك المدن، ووصلا إلى قرية "الدخول" وتبدو من هذه القرية المدن الثلاث قائمة الواحدة قرب الأخرى، و يخبر شيخ من تلك القرية حليماً بأنّ الشيخ سليمان اشترى ذلك السّهل، وأسكن فيه جماعة من الفتيان و الفتيات، و بعد مدّة أصبح ذلك السّهل مدينة عامرة، وكان الأبناء في هذه المدينة لهم ميول مختلفة، فاهتمّ قسم منهم بالتّجارة، وانصرف قسم آخر إلى العلم، والقسم الثالث إلى الدين ،وبعد مدّة نشأ خصام بينهم، وهكذا نشأت مدن ثلاث، وفي الصّباح يذهب حليم ورفيقه لزيارة المدن الثلاث، وهناك حضرا الاجتماعات التي عُقدت بين أهل المدن الثلاث، و كان فيها الخطباء المؤيدون لكلّ فئة من تلك الفئات، يعرضون وجهات نظرهم ويردّون على خصومهم، واشتدّ الخلاف وعمّت الفتنة بين الفئات الثلاث، وتدخّل الجنود لحسم الخلاف، وفي صباح اليوم التالي استيقظ النّاس على أصوات الصّراخ وزغردة النيران، و ساعدت السّماء بعواصفها وصواعقها على إبادة كلّ سكّان المدن الثلاث ....

إنّ هذه القصّة هي مجموعة آراء ونظريات تتناول الدين والمجتمع والاشتراكيّة، صيغت في إطار قصصي ، هدف الكاتب من خلاله إلى إبراز آرائه ومبادئه، و إيصالها إلى الأذهان بسهولة.

وتاريخ نشر هذه القصّة هو سنة 1903 ، أي في السّنة الرّابعة من مجلّة " الجامعة"، وأصدر الكاتب فرح أنطون رواية "الوحش، الوحش، الوحش" ليبيّن فقدان العدالة الاجتماعيّة، ويطرح القضيّة الأخلاقيّة في رواية "مريم قبل التوبة"، أما في "أورشليم الجديدة" فيطرح

---

[1] - أنطون، فرح: "الدين والعلم والمال "، "الوحش، الوحش، الوحش" ، " أورشيلم الجديدة "، قدّم لها:د.أدونيس العكرة، دار الطليعة ،بيروت،،ط1 ، تشرين الثاني ، 1979، الصفحات من 5حتى 10

المؤلّف من جديد بعض القضايا الأساسيّة التي طرحها في "المدن الثلاث"، وهي علاقة الدين بالمجتمع وأسباب انهيار الدول وتفكّك المجتمعات، فأورشليم الجديدة هي المدينة الفاضلة والعادلة والسّعيدة التي ظلّ فرح أنطون يسعى إلى تحقيقها طوال حياته.[1]

2- الرواية الثانية: الوحش، الوحش، الوحش أو سياحة في أرز لبنان:

خلاصة هذه القصّة أنّ شابين مثقّفين، سليم و كليم، أرادا التوجّه إلى قرى شمال لبنان للتعرّف إليها و لزيارة بعض الأصدقاء، و اصطحبا معهما مكاريّاً اسمه جرجس ليدلّهما على الطّريق، و في أثناء السّفر أخذا يتبادلان الأحاديث المختلفة ويطرحان المواضيع الاجتماعيّة التي أراد فرح أنطون أن يطرحها أمام قرّائه ، فهو يعالج المسألة الأخلاقية فيبرز الغرائز الشّريرة التي تسود بين الأفراد، و قد انطلق المؤلّف من موضوعين رئيسيين للتنازع البشريّ، وهما تأمين المعاش و الأنثى ....

ولكنّ فرح أنطون ليس من الدّاعين إلى مبدأ العين بالعين و السنّ بالسنّ، لذلك قصّته هذه انتهت بالصّفح عن الشرير وعن كلّ ماضيه.[2]

3- الرواية الثالثة: أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس:

تُعد هذه القصّة من أهمّ ما كتبه فرح أنطون، نظراً للمسائل الفلسفيّة الاجتماعيّة والأخلاقيّة والسياسيّة التي عالجها فيها ....، وقد بدأت حوادث هذه القصة عشيّة عيد الميلاد من عام 636 ، أي في الفترة التي فتح فيها العرب مدينة القدس، و الناس يحجّون إلى بيت لحم، والحجّاج بانتظار وصول البطريرك صفرونيوس، ولكن سرعان ما يظهر التعصّب الدّيني والطّائفي، ويتفرّق النّاس بحثاً عن اليهودي، و يُقبض على إيليا، ولكن تبيّن لهم أنّه ليس اليهودي المطلوب، ثمّ يتردّد إيليا إلى الدّير، ويعاني عن كثب حياة الرّهبنة، وما يشوبها من نقائض....

"وفي هذه الأثناء كانت أعمال العرب الحربيّة وفتوحاتهم المتتالية للممالك والمدن تشغل بال النّاس وبال البطريرك صفرونيوس، وخصوصاً بعد أن ترك الإمبراطور الرّومانيّ سوريا وفلسطين تعتمدان على قوّتهما الدّاخليّة بعد أن حجب إمداداته عنهما. وإذ برسول يفد إلى المدينة ليبلغ البطريرك تسليم المدينة للخليفة عمر بن الخطّاب شخصيّاً ذلك لأنّ دفاع أهل المدينة ضدّ العرب لم يكن حفاظاً على السّلطة".[3]

---

[1] - المرجع السابق الصفحات 11-12-13-14 .

[2] - المرجع السابق: الصفحات 14- 15- 16.

[3] - المرجع السابق، ص18

إذاً في رواية فرح أنطون "أورشليم الجديدة " يتحدّث الكاتب عن مرحلة تاريخيّة مهمّة في عصر الخلفاء الرّاشدين، وهي الفترة التي فتح فيها العرب بيت المقدس، و قد كان الفاتحون العرب رحماء بشعوب البلاد المفتوحة، و سمحوا لهم بإقامة الشعائر الدينية الخاصّة بهم.

إنّ رواية فرح أنطون "أورشليم الجديدة" التي كتبها عام 1904 هي رواية تاريخيّة فلسفيّة اجتماعيّة، تتضمّن زحف العرب إلى بلاد الشام حين ظهور الإسلام، وحصارهم لمدينة القدس (بيت المقدس) العاصمة الدينيّة الكبرى للمسيحيّين، و إقامة المسجد الأقصى فيها على أنقاض هيكل سليمان القديم، هيكل الإسرائيليين، ويتخلّل ذلك كلام عن أحوال اليهود والمسلمين والمسيحيّين يومئذ و الأفكار الدّينيّة التي أضعفت سلطة الرّوم في بزنطية (القسطنطينيّة) فكانت سبباً في سقوطهم و زوال ملكهم ، وقيام الأمم التي تليهم .[1]

في مقدمة رواية "أورشليم الجديدة "، والتي كتبها الدكتور أدونيس العكرة، نقرأ ما ذكره الدكتور أدونيس، وهو أنّ أفضل أنواع الروايات هو الذي يجمع بين الروايات الاجتماعية والأخلاقية، والنوع الثّاني وهو الروايات التّاريخيّة، والنّوع الثالث: وهو الّروايات البسيكولوجيّة، ولقد سلكت "الجامعة" هذا المسلك في روايتها الجديدة "أورشليم الجديدة" فجمعت فيها بين الفلسفة والاجتماع والتاريخ والحبّ والأدب، و ضمّنت إليها الدّين لأن العصر الذي تبحث فيه الرّواية هو عصر دينيّ محض سواء كان ذلك عند المسيحيّين أو عند المسلمين.....

يقول الدكتور أدونيس العكرة في مقدّمته، مشيراً إلى جهد المؤلّف في كتابه:

"والمؤلّف لا يدّعي في هذا الكتاب فضلاً أو مزيّة، ولكنّه يصرّح بأنّه بذل جهده للجهر بحريّة تامّة بكلّ ما يجب الجهر به عند الاشتغال بمسائل مهمّة خطيرة، كالمسائل التي في هذا الكتاب، وطلب الحقيقة بين كلّ الأحزاب باستقلال تامّ كأن الكاتب غير منسوب إلى أحدها" [2]

ويشير المؤلف فرح أنطون إلى أنّ المقصود من الرّوايات التّاريخيّة هو تكميل التّاريخ، ويعني بذلك أن يضع المؤلف نفسه موضع الأشخاص التّاريخيّين الذين يتكلّم عنهم، و يعبّر عن أفكارهم وآرائهم في المواقف التي يصوّرها لهم والتي لا أثر لها في التّاريخ مستدلاً على ذلك بما يعرفه عنهم كما كان الأمر في روايات ديماس.

يقول الكاتب فرح أنطون مشيراً إلى فهمه للرّوايات التّاريخيّة:

---

[1] - المرجع السابق، ص149

[2] - المرجع السابق، ص 151.

"والأمر الثاني الذي أحببنا التنبيه عليه أنّ الرّوايات التّاريخيّة لا يُقصد بها سرد وقائع التّاريخ و أرقامه، فإن طالب هذه الوقائع والأرقام يلتمسها في كتب التّاريخ حيث تكون قريبة المنال لتجرّدها عمّا ليس منها، لا في الرّوايات المطوّلة التي تشتبك وقائعها الخيّاليّة بها ولا يصبر طالب التّاريخ البحث على مطالعتها. وإنمّا المقصود من الرّوايات التّاريخية (فوق سرد الوقائع و الأرقام و تصوير الوسط المراد تصويره و إبراز العواطف و الأفكار التي كانت تختلج في هذا الوسط) تكميل التّاريخ في جوانبه النّاقصة."[1]

والكاتب –كما يذكر هو نفسه- قد سلك في روايته "أورشليم الجديدة" مسلك "تكميل التّاريخ"، ولكنه خشي أن يختلط التّاريخ بما ليس هو في شيء منه، فيضلّ بذلك القارئ، لذلك قام الكاتب بوضع علامات للتفريق بين التّاريخ وبين التصنيف والاستدلال ....

وهذا يدلّ على حرص الكاتب على ذكر الحقيقة التاريخية، وعدم تضليل القارئ.

جاء الفصل الأول من رواية "أورشليم الجديدة" بعنوان: "عيد الميلاد في بيت لحم سنة 636 " وتحت هذا العنوان نجد العبارة الآتية: (حالة الإمبراطور هرقل و السلطنة البيزنطيّة في صدر الإسلام " البيت الأحمر")

يتحدّث الكاتب فرح أنطون في هذا الفصل عن ليلة عيد الميلاد سنة 636، وقد خلت القدس من أهلها ومن الحجّاج لزحفهم إلى بيت لحم لحضور العيد، فامتلأت بلدة بيت لحم بأجناس القادمين إليها من نواحي فلسطين والثغور وسوريا و مصر والأناضول و القسطنطينيّة و قبرص ورودس وغيرها .

وكانت كنيسة المغارة مكان ولادة المسيح عند النّاس، قائمة في وسط البلدة، وهي مؤلفة من قسمين، وكان هناك منزل كبير قائم تجاه الكنيسة في الجهة الغربيّة، وهو مدهون بلون أحمر ولذلك يسمّونه "البيت الأحمر" .

و هذا المنزل هو فندق مقسّم إلى قسمين: قسم للرجال، وقسم للسّيدات، وأمام الفندق حديقة واسعة، وفي هذه الحديقة كان رجل يقرأ، وكان هذا الرجل و يُدعى إيليا يكتب عن الطبقات العليا التي ترك لها الإمبراطور حريّة التمتّع بالملّذات، وعن الطبقات الدنيا التي تقوم بالأعمال جميعها، وراحت بعض النّسوة يتأملن إيليا، و يتحدّثن عن فرار الجماهير من وجه العرب الذين صاروا على أبواب المدينة، وعن انكسار قائدهم مانويلس في "اليرموك"، هذه الواقعة التي فتحت سوريا كلها للعرب، كما فتحت لهم واقعة "القادسية" بلاد الفرس، و بعد فتح العرب دمشق، وانكسار تيودوروس- وهو أخو الإمبراطور مانويلس – أمام العرب في

---

1 - المرجع السابق ، ص 152.

أجنادين، ترك الإمبراطور مانويلس سوريا وعاد إلى القسطنطينيّة قاعدة مملكته، لأنّ السلافيين كسروا جنده وراء القسطنطينيّة شرّ كسرة، و لكنّه لمّا خرج من سوريا قدم إلى بيت المقدس لأخذ الصليب المقدس من الجلجلة إلى القسطنطينية خوفاً من أن يأخذه العرب ....، و يتحدّث أحد الرّجال عن إمبراطور القسطنطينيّة، وأنّه شاهده منذ ثماني سنوات لمّا عاد من حرب الفرس ظافراً بعد أن سحق سلطنة كسرى، و استردّ الصّليب، ويومئذ كان الإمبراطور معبوداً عند شعبه، أمّا المرّة الثانيّة التي رآه فيها فهي لمّا عاد الإمبراطور من أنطاكيّة بعد استيلاء العرب على دمشق، ليأخذ الصليب إلى القسطنطينيّة وينصبه في كنيسة هاجيا صوفيا، و في هذه المرّة كان الإمبراطور يبدو ضعيفاً، و صّحته سيئة، و عقله مضطرب لكثرة مشاكل سلطنته.[1]

إنّ الأحداث السّابقة التي ذكرها الكاتب فرح أنطون في بداية الفصل الأوّل من روايته، هي أحداث حقيقيّة، حدثت في تلك الفترة التّاريخيّة التي تناولها الكاتب في روايته "أورشليم الجديدة"، وقد أشار الكاتب نفسه إلى هذا الأمر، وذلك بوضعه علاقة النجمة (*) بجانب هذه الأحداث، ومن بين مصادر الكاتب أنطون "ابن الأثير" كما يشير الكاتب في الهامش.

بعد الفصل الأوّل يصوّر الكاتب كيف اندفع النّاس إلى الشوارع، يبحثون عن اليهودي الذي تجرّأ و دخل بيت لحم في ليلة عيد الميلاد، و يشك النّاس في إيليا، فتنقذه امرأة، ويلمح بعد ذلك النّبي إيليا يهودياً وابنته معه وتُدعى أستير، فيقرّر إنقاذهما، وعندما وصل البطريرك صفرونيوس استقبله النّاس وهم ينشدون نشيد عيد الميلاد، و كلّمه إيليا بشأن اليهودي وابنته، فقال له البطريرك: إنّ اليهود كانوا أكبر أعوان الفرس والعرب عليهم في جميع حروبهم معهم، وأخبره بما فعله أعداؤهم اليهود قائلاً:

"وقد بلغت بهم الجرأة أن ثاروا بأنطاكيّة و قتلوا بطريركها كما تذكر، و ثاروا أيضاً بصور ليغتالوا المسيحيّن ليلاً، فردّ الله كيدهم في نحورهم، ولا يزالون يتآمرون سرّاً في فلسطين مع يهود سوريا للثورة علينا، و أعظم من ذلك كلّه أنّهم اشتروا من الفرس عشرات الألوف من أسرانا و ذبحوهم انتقاماً منّا، فبغض كهذا البغض يا بنيّ لا يحول ولا يزول."[2]

إنّ الأحداث التاريخيّة السّابقة التي ذكرها الكاتب على لسان شخصيّة روايته البطريرك صفرونيوس، هي أحداث حقيقيّة، جرت فعلاً في التاريخ الماضي، وقد أشار الكاتب أنطون إلى ذلك بوضع إشارة تدلّ على صحّة هذه الأحداث، إلا أنّه ممّا يُؤخذ على الكاتب - رغم

---

[1] - انظر المرجع السابق ، ص 156 -157-158-159

[2] - المرجع السابق، ص 170- 171.

حرصه على التفريق بين الأحداث الحقيقيّة و الأحداث المتخيلّة-هو أنّه لم يذكر المصدر الذي استقى منه هذه الأحداث الحقيقيّة.

نتابع مع الكاتب ما جرى بين إيليا و البطريرك الـذي يقـرّر إطـلاق سـراح الـشّيخ اليهوديّ، وإبقاء ابنته أستيرفي دير الراهبات في جبل الزيتون حتى تنتفي الشّبهة عـن أبيهـا، وكان إيليا يشعر بميل نحو أستير لأنهّا ذكّرته بفتاة إسرائيليّة كان قد رآها منذ عـشر سـنوات في يافا،.... ويجري حديث بين النبي إيليا و صديقه النبيّ أرميا حول الإمبراطور والبطريرك صفرونيوس، فيخبر أرميا إيليا أنّ الإمبراطور هو المسيح الدجّال، وقد قام باسـتمالة أسـقف روما و البطاركة إليه، و قرّر مسألة الطبيعتين و المشيئة الواحدة للمسيح، و بـرأي أرميـا إنّ الحقّ مع البطريرك صفرونيوس الذي يعلّمهم أنّ المسيح بطبيعتين و مشيئتين، وهو مستاء من تدخّل الإمبراطور في شؤون الكنيسة.[1]

ومن الأحداث الحقيقيّة التي يذكرها الكاتب أنطون، ما قاله أرميا لإيليا ، وهو أنّ الأقباط في مصر الذين يئنّون تحت نيـر اليونـان ، و قـد انفـصلوا عـن الكرسـي الإسـكندري والقسطنطيني، والمقوقس كبيرهم يجامل العرب نكاية بالإمبراطورية، و يـشير الكاتـب فـي الهامش إلى الحادثة التاريخيّة، وهي أنّه لما كاتب صاحب الشريعة الإسلامية قيصر و كـسرى و النجاشي والمقوقس و الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوهم إلى الإسلام، أجابـه المقـوقس بلطف وأهدى إليه أربع جوارٍ منهنّ مارية التي أنجبت للرسول (ص) إبراهيم، وقد نقـل هـذا الخبر عن "ابن الأثير".[2]

يصوّر الكاتب بعد ذلك وصول جنود العرب إلى أسوار أورشليم، وهم يهتفون "الله أكبر .الله أكبر . لا إله إلاّ الله"، ويجتمع البطريرك ووالي المدينة وقائد الحامية في إحدى القاعـات بجانب كنيسة القيامة في القدس، يتشاورون في أمر العرب، و بينما هم يتحاورون دخل علـيهم بدويّ عربيّ يتكّلم باللّغة اليونانيّة واسمه يوحنا، وكان مـن الغـسّانييّن وهـم عـرب الـشام النّصارى الذين كانوا يعاونون الرّوم على المسلمين والفرس في حروبهم معهم، وقـد حـاربوا في اليرموك في جيش الرّوم حرباً شديدة.

و كان البدويّ قد جاءهم بأخبار العرب ، فقال لهم :

(لما توفّي نبيّ المسلمين و خلفه أبو بكر أنفذ الخليفة وصيّة النبيّ في استعمال أسامة بن زيد على جيش و إرساله لفتح الشام ، وكان العرب قد أخذت ترتد عن الدين الإسلامي لمـوت

[1] - المرجع السابق، الصفحات من 171 حتى 175.

[2] - المرجع السابق، ص 176.

النبيّ، فلما رأت مسير الجيش للشام هابوا الخلافة، وقالوا: "لو لم يكن بهم قوّة لما أرسلوا هـذا الجيش. فكفوا عن كثير ممّا كانوا يريدون أن يفعلوه"....، وبعد إخضاع المرتدين من العـرب أبلغ أبو بكر عدد هذا الجيش إلى 124 ألف مقاتل، و قد قسمه إلى جيـشين: جـيش لمقاتلـة الفرس و جيش لمقاتلتنا ....، و قد فتح جيشهم في الفرس بلاد بابل كلّها و دعوها العـراق العربيّ ، و كان قائدهم فيها خالد بن الوليد الذي يلقّبونه "سيف الله").[1]

إن الأحداث السّابقة التي يذكرها الكاتب هي أحداث تاريخيّة حقيقيّة ، و يـشير الكاتـب إلى المصدر الذي أخذ منه هذه الأحداث، و مصدره هو "ابن الأثير"، و لكن كان يجـب علـى الكاتب أن يذكر رقم الصفحة التي قرأ فيها هذه الأخبار، و ذلك حتّى يكون ما كتبه أكثر دقةً و مصداقيّة ، و حتى يتمكّن القارئ من الرّجوع بسهولة إلى المصدر الذي ذكره الكاتـب إذا أراد هذا القارئ أن يحصل على تفاصيل هذه الأحداث و الفتوحات العربية الإسلاميّة .

ومن الأحداث الحقيقيّة التي يذكرها الكاتب على لسان يوحنا عزل الخليفـة عمـر بـن الخطاب للقائد خالد ، وتولية أبي عبيدة على الشام .....

أمّا عن زحف المسلمين إلى بيت المقدس ، فقد أشار الكاتب إلى أنّه اعتمد فـي ذكـره تفصيلات هذه الأحداث على الواقدي رغم وجود تناقض بين ما كتبه هذا المؤرّخ، ومـا كتبـه باقي المؤرخين و قد فضل الكاتب هذا المؤرّخ علـى غيـره مـن المـؤرّخين لأنّـه أكثـر تفصيلاً....[2]

و لكن هذا برأيي لا يسوّغ له الاعتماد على الواقدي لمجرّد أنّه أكثر تفصيلاً، مع أنّ هذا المؤرّخ يخالف باقي المؤرخين، فيجب على الكاتب أن يتوخّى الحقيقـة التّاريخيّـة، فيختـار المصدر الأكثر موثوقيّة ولا يجري وراء التفصيلات التي قد تكون غير حقيقيّة، فإن ذلك قـد يدفع القارئ لاتّهامه بتشويه التّاريخ العربيّ و تزييفه، كما حصل مع جرجـي زيـدان، و قـد أشرنا إلى هذا الأمر في بحثنا هذا، عند دراستنا كتاب شوقي أبي خليل "جرجي زيـدان فـي الميزان"

و نذكر فيما يأتي الأحداث التي ذكرها الكاتب ، و التي أخذها عن الواقدي:

لمّا فتح أبو عبيدة دمشق، جمع إليه أمراء المسلمين، و طلب منهم أن يشيروا عليه إلـى أين يتّوجه، فاتفّق رأيهم إمّا إلى قيسارية (قيصرية)، و إمّا إلى بيت المقدس، ولكنّ أبـا عبيـدة أخذ برأي معاذ بن جبل الذي أشار عليه أن يكتب إلى أمير المؤمنين، و يعمل بـأمره، فكتـب

---

[1] - المرجع السابق، ص 180.

[2] -انظر هامش الصفحة 181

أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين، واستشار أميرالمؤمنين أعوانه، فقال له علي بن أبي طالب: "يـــا أمير المؤمنين مر صاحبك أن يسير إلى بيت المقدس، فيحدقوا بها ويقاتلوا أهلها، فهـــو خيـــر الرأي وأكبره. و إذا فتحت بيت المقدس، فاصرف جيشه إلى قيسارية فإنّها تفتح بعدها إنّ شاء الله تعالى. كذا أخبرني رسول الله ". فقال له الأمير:"صدقتَ يا أبا الحسن".....

و كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عامله بالشام أبي عبيدة، و أمره بالسّير إلـــى بيـــت المقدس، فدعا أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان، و عقد له راية على خمـــسة آلاف ، و أمـــره أن يزحف إلى بيت المقدس و فلسطين ، ثم دعا أبو عبيدة شرحبيل بن حسنة ، و عقد له رايـــة ، و ضم إليه خمسة آلاف فارس من أهل اليمن ، و أمره أن يتقدّم بهم إلى بيت المقدس ، و دعا أيضاً المرقال بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، و ضمّ إليه خمسة آلاف فارس مع جمع مـــن المسلمين ، و أمره أن ينزل على حصن بيت المقدس ، و عقد الرايات لغيرهم مـــن القـــادة ، فكان جملة من سرّحه أبو عبيدة إلى هذه المدينة خمسة و ثلاثين ألفاً .[1]

هذا ما أخبر به يوحنا والي مدينة القدس، وأخبره أيضاً عن مهاجمة جند العرب لبـــاقي مدن فلسطين ، و أنّ أبا عبيدة قصد حمص من دمشق بعد إرساله الجند إلى فلسطين، وأخبـــره عن انتصار جنود أبي عبيدة و خالد على الروم في مرج الروم قرب دمشق.

ويذكر الكاتب أنّ العرب يعبدون الله، و يحترمون المنقطعين إليه تعالى، و هـــم ليـــسوا كالفرس، فيشير إلى وصية الخليفة أبي بكر إلى قائد جيشه، هذه الوصيّة التي ذكرتهـــا كتـــب التّاريخ، وهي أنّه لمّا ودّع الخليفة أبو بكر جيش أسامة بن زيد حين زحفه إلى الشام أوصـــاهم فقال: "لا تخونوا ولا تغدروا و لا تغلّوا لا تمثّلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً و تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً، و ســـوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم و ما فرغوا أنفسهم له".[2]

وهذا ما أجمعت عليه كتب التّاريخ، وهو أنّ العرب قوم رحماء، فهم ليسوا كغيرهم، ولا يفعلون ما يغضب الله تعالى، فلا يقتلون ولا يمثّلون، ولا يخرّبون العمران والشجر وغيره ممّا خلق الله سبحانه، وهذا ما أشار إليه المستشرق غوستاف لوبون فقال: "لم أرَ فاتحاً أرحم مـــن العرب".

في الفصل الثّامن من رواية "أورشليم الجديدة" يعرض لنا الكاتب تاريخ حياة إيليا، فيذكر أنّه كان ابن فلاح من الناصرة يكسب رزقه من حراثة الأرض، و كان الجميع يتنبّؤون له بأنّه

---

[1] - المرجع السابق، ص 181- 182- 183.

[2] - انظر : هامش الصفحة 183.

سيصبح بطريرك القدس ، و كان ذلك يُفرح أمّه التي نذرته للعذراء ، فكانت تجلب له الكتب لمطالعتها.....

ويذكر الكاتب حادثة رآها بعينيه في قدّاس أمام القبر المقدس الذي كان القائم به بطريرك مشهور بشدّته قبل بطريرك القدس الحاضر، فيصوّر الكاتب فرح أنطون إيليا في عيد الإمبراطور، وهو يحضر القدّاس، و عندما مدّ أسقف بيت لحم يده لتناول الكتاب المقدّس تقدّم شماس ليفك أزرار كمّه فاضطرب و أبطأ، فغضب الأسقف و لطم الشمّاس على وجهه بيده اليمنى، ثم لطمه باليسرى، وعندئذٍ ارتعدت فرائص إيليا لرؤية ذلك المشهد الغريب، وزاد استياؤه عندما رأى الأسقف يتناول الكتاب المقدّس بيده التي لطم بها الشمّاس، دون أن يستغفر أخاه الشماس.[1]

وهذا وإنّ دلّ على شيء فإنمّا يدّل على آراء ومعتقدات الكاتب فرح أنطون، فهو رغم أنّه مسيحيّ إلاّ أنّه يدين بشدّة تصرّفات أولئك الذين يسمّون أنفسهم قائمين على النّاس، هؤلاء الأباطرة و الكهنة والأساقفة الذين يترفّعون عن النّاس البسطاء، و يعيشون مع أسرهم بترف وسعادة على حساب الشعب الفقير المسكين، متسلّحين بسلطة الدين والكنيسة.

يصوّر الكاتب أيضاً كيف تعرّف إيليا إلى الرّاهب ميخائيل، واستمع إلى خطبته التي ألقاها عليه في جبل الزيتون ، وهما تحت أرزه هناك ....، و كان إيليا شديد الاهتمام بحصار العرب لمدينة القدس ، ولكنّه كان قد ألف انكسارات قومه أمام جيوش العرب .....

وكان الشّيخ سليمان، وهو في السّتين من عمره قد لام إيليا لأنّه ترك الفتاة اليهوديّة أستير لمصيرها في الدّير، فذهب إيليا إلى الدير، ومن هناك سمع أصوات العرب الهاجمين على المدينة ....

وكان الشّيخ سليمان قد عرض على إيليا أن يصبح كاهناً بعد وفاة الراهب ميخائيل، ولكنّ إيليا يرفض ذلك الأمر ....، أمّا أستير فإنها كانت دائمة البكاء في الدّير، و كانت إحدى الرّاهبات تقول لها: انظري إلى صورة المسيح، فإنّه يقول لك: لن تعود مملكتك، لقد تشتّتت أورشليم القديمة و قامت مكانها أورشليم الجديدة ،...و يقرّر إيليا تخليص أستير من أسرها، و ينجح بذلك، و يأخذها إلى مزرعة الشّيخ سليمان، و يزور معها قبر الرّاهب ميخائيل، ويخبرها أنّ هذا الرّاهب كان يصرف ماله على الفقراء، و أنه طُرد من سلك الرّهبانيّة لأنّه خطب خطبة لام فيها الحكومة ورجال الدّين لاضطهادهم اليهود في سوريا و فلسطين، فتخبره أستير عندئذٍ أنّها تؤمن بالمسيح الذي لم يأتِ بعد ، فأجابها إيليا: إنّ كتاب

[1] - المرجع السابق، من ص 184 حتى 187.

التوراة التي تؤمن به يشهد أنّ المسيح قد أتى، ويعترف إيليا لأستير أنّه يحّبها، و يقصّ عليها قصّة المسيح، فتأثرت و بادلته الحبّ، و لكن في صبيحة اليوم التالي علم إيليا أن رفيقه أرميا خطف أستير، فذهب للبحث عنها، فهجم عليه فرسان العرب، و أرسلوه أسيراً إلى قائدهم.(1)

في الفصل الخامس عشر يصوّر الكاتب حصار العرب لبيت المقدس، و الأحداث التي يذكرها هي أحداث تاريخيّة حقيقية نقلها الكاتب عن الواقدي.

يذكر الكاتب أنّ جند العرب أقاموا على بيت المقدس ثلاثة أيام ، أمّا أهل بيت المقدس فقد حصّنوا أسوار مدينتهم ، ثمّ دعاهم أمير العرب يزيد بن أبي سفيان إلى إحدى خصال ثلاث وهي: إمّا الدّخول في الإسلام، أو أداء الجزية و إمّا السّيف، فاختاروا السيف فكتب يزيد إلى أبي عبيدة يعلمه بجواب القوم ، و بعد مدة ورد جواب أبي عبيدة يأمرهم بالزّحف ، و أنّه واصل بعد وصول الكتاب ، و كان أهل بيت المقدس يرشقون جنود المسلمين بالنشّاب من أعلى الأسوار ، و في اليوم الحادي عشر أشرفت على بيت المقدس راية أبي عبيدة ، و من ورائها الفرسان ، و كان مع أبي عبيدة ، خالد بن الوليد ، و عبد الرحمن بن أبي بكر ، فضعفت قلوب المحصورين، و ذهب وجوه المدينة إلى مقام البطريرك قرب كنيسة القيامة ، ليتشاوروا في أمرهم، و يبلغوه عن مقدم أمير العرب .... ، وأقام أبو عبيدة نحو أربعة أشهر على حصار بيت المقدس، وكان جنده يعانون بلاءً شديداً بسبب المطر و الثلج.

أمّا أستير فكانت تبكي في خيمة ضرار بن الأزور الذي أسرها مع أرميا، و يتعرّف عليها والدها، فتقصّ عليه ما جرى معها، و عندئذٍ أطلق ضرار سراحها مع أرميا الذي بقي معها في خيام العرب، و بينما كان مرّة يدور بين الخيام أبصر رفيقه إيليا مقيّداً في خيمة الفارس المشهور عمرو بن معدي كرب الزّبيديّ، فقرر القيام بحيلة، و هي أنّه أخبر حارس إيليا أن الموجود في الخيمة هو تيودوروس أخو الإمبراطور، و هو مفتاح مدينة القدس، وكان غرض أرميا من ذلك إبعاد إيليا عن أستير، و لكنّ حيلته أدت إلى عكس غرضه، فقد أمر أبو عبيدة الشيخ اليهودي يوسف والد أستير أن يتعرّف على تيودوروس، وعندما رأى اليهودي إيليا عرف فيه منقذه سابقاً، وأخبر أبا عبيدة بقصّته، فما كان من أبي عبيدة إلاّ أن أطلق سراح إيليا، و ذهب إيليا مع الشيخ اليهودي لرؤية أستير أمّا أرميا فقد سعى بحيلة أخرى، فأخبر إيليا أن أستير هي ابنة جاسوس، فذهب إيليا إلى الأمير عمرو بن معدي كرب، و أخبره عن رغبته بدخول مدينة بيت المقدس، فطلب منه الأمير أن ينصح قومه بالصلح مع المسلمين، ويقابل إيليا البطريرك، فيوافق البطريرك على طلبه، و يصعد مع القسس والرهبان إلى

[1] - المرجع السابق من ص 188 حتى 242.

السّور، حاملين الأناجيل و الصليب، و يخبر البطريرك أبا عبيـدة أنّـه يـرفض الإسـلام و الجزية، ولكنّه طلب مقابلة الخليفة عمر بن الخطاب، ليلقي إليه مفاتيح المدينة، فعند ذلك أرسل أبو عبيدة كتاباً إلى الخليفة عمر يطلب فيه منه القدوم، لعلّ الله تعالى يفتح المدينة على يديـه، ويذهب الخليفة عمر إلى الشام بعد أنّ ودّعه الناس في المدينة المنورة، و يصل الخليفـة إلـى معسكر الجند وبيت المقدس، ويستقبله البطريرك صفرونيوس ومعه ترجمان، فكتـب الخليفـة عمر عهد الصلح مع أهل بيت المقدس، وأرسله مع أحد رجاله إلى البطريرك، ويذكر الكاتـب نصّ الكتاب، ويشير إلى أنّه نقل عن الطبري في روايته لذلك النصّ.

وفي هذا الكتاب يؤمّن الخليفة أهل المقدس على أنفسهم وأرواحهم و كنائسهم، ويطلـب منهم دفع الجزية كغيرهم من الأقوام .[1]

في الفصل العشرين يتابع الكاتب ذكره للأحداث الحقيقيّة التي حدثت بعد عقد الصلح بين الخليفة عمر بن الخطاب والبطريرك، فيذكر أنّ الخليفة عمر عزم على دخول مدينـة القـدس لتخطيط مسجد فيها ، فقصد إلى هيكل سليمان القديم الذي كان مدفوناً بـالتراب ، ولـم يكـن ظاهراً منه غير الجدار الذي في زاوية سور الحرم ، وهو من آثار هيرودوس الكبيـر، وبعـد أن صلّى الخليفة صلاة الفجر، دخل عليه كعب الأحبار، وأعلن إسلامه، وذهب مع الخليفة إلى هيكل سليمان، وكشف الخليفة التراب عن الصخرة التي هي جزء من هيكل سـليمان القـديم. وفي يوم الجمعة فرغ الخليفة عمر من تخطيط مسجده وعزم على الصلاة فيه بالمسلمين، ثـم ذهب إلى كنيسة القيامة ، وزار قبر السيّد المسيح ، وصلّى مع المؤمنين بجانب باب الكنيـسة الخارجي، وفي هذا المكان أقام المسلمون بعد ذلك مسجداً تذكاراً لصلاة الخليفـة عمـر بـن الخطاب هذه .[2]

أمّا ما ذكره الكاتب من ذهاب الخليفة عمر بن الخطاب مع إيليا لرؤية الشّيخ سليمان في مزرعته، فهي أحداث تخيّلها الكاتب، لأنّ هذه الأحداث لم نقرأ عنها في أيّ مصدر.

يصوّر الكاتب استقبال الشيخ سليمان للخليفة عمر الذي طلب منه أن يقصّ عليه مـا رآه في حروب ملكهم هرقل (هراقليوس) مع الفرس، ويخبر الشّيخ سليمان الخليفة قـصّة الملـك هرقل، وكيف استلم الملك، وأرسل إلى ملك الفرس كسرى برويز رسالة يطلـب منـه فيهـا الصليب، فأجابه كسرى جواباً مهيناً، فخرج هرقل من القسطنطينيّة يطلب بلاد الفرس، وهـزم

---

[1]- المرجع السابق، الصفحات من 242حتى267

[2] - المرجع السابق، الصفحات من 271 حتى 276

كسرى، واستردّ الصليب، ولكن بعد ذلك ضعفت مملكة هرقل لانقسامها قسمين: غربي وشرقي، وحدوث خلاف بين الإمبراطور وبطريرك الكنيسة.

ويصور لنا الكاتب أستير وهي مريضة بحمّى التيفوئيد ، وتهذي باسم إيليا ، وتموت بعد أن التقت بحبيبها إيليا، ويمرض بعدها إيليا بعد معاناته من حمّى التيفوئيد أيضاً.[1]

في الفصل الرابع والعشرين من قصّة "أورشليم الجديدة" وهذا الفصل هو خاتمة القصّة، يصوّر لنا الكاتب الخليفة عمر وهو يودّع أمراء الجيش ليعود إلى المدينة المنوّرة، ولمّا وصل إلى الجابية، أقام بها حيناً، وأخذ خمس الفيء لبيت المال حسب العادة، ودوّن الدواوين، وفرض الفروض والعطاء للمسلمين ، ابتداءً من المهاجرين والأنصار، فلم يدع في المسلمين محتاجاً.

يقول الكاتب مصوراً ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب، و تسييره الرّجال إلى أقطار الأرض لفتحها و توحيدها:

"ثمّ إنّه شرع في تسريح الجند لإتمام الفتح ، و قسّم الشّام قسمين ، فأعطى أبا عبيدة من حوران إلى حلب و مايليها ، و أمره بالمسير إلى حلب و أن يقاتل أهلها. و أعطى أرض فلسطين و أرض القدس و السّاحل ليزيد بن أبي سفيان ، و جعل أبا عبيدة والياً عليه، وأمر يزيد أن يحارب أهل قيسارية إلى أن يفتحها الله على يديه، و سيّر عمراً بن العاص إلى مصر، و جعل علقمة بن حكيم على نصف فلسطين و أسكنه الرملة، و جعل علقمة بن مجزر على نصفها الآخر و أسكنه إيلياء. ثمّ إنّ الإمام ودّع الأمراء وأوصاهم بالاتحاد والنشاط، وعاد مع رجاله على بعيره قافلاً إلى المدينة عاصمته، وهو يحمد الله على الفتح ومعه كعب الأحبار"[2]

ويشير الكاتب إلى أنّه اعتمد في ذكره الأحداث التي وردت في النّص السّابق على ابن الأثير و الواقدي.

إنّ قصة "أورشليم الجديدة" للكاتب فرح أنطون هي رواية تاريخيّة فلسفيّة غراميّة، ويبيّن لنا الكاتب آراءه الفلسفية والدينيّة، ونظرته إلى الكنيسة، والقائمين على شؤونها.

و من النتائج التي توصّلنا إليها بعد قراءتنا هذه الرواية:

---

[1] - المرجع السابق الصفحات من 277 حتى 308.

[2] - المرجع السابق، ص 309.

1- الكاتب فرح أنطون مؤمن بأنّ الدين المسيحي دين أخوّة و تسامح، و لكنّ رؤساء الكنائس و الذين يجرون وراء مصالحهم ، قد شوّهوا هذا الدين .

2- إنّ الكاتب معجب بالتاريخ العربيّ المجيد، لذلك فقد ذكر بالتفصيل حادثة فتح الخليفة عمر بن الخطاب لمدينة القدس ، و صوّر شجاعة قوّاده و جنوده، و كيف كان هذا الخليفة رحيماً متسامحاً مع أعدائه.

3- في رواية "أورشليم الجديدة " الكثير من الآراء الفلسفية، وقد ذكرها الكاتب على لسان شخصيّاته.

4- الكاتب مؤمن بالإنسان، وعقله الرّاجح وعواطفه الصادقة، فالكاتب قد صوّر لنا كيف أحبّ إيليا المسيحي أستير اليهودية، ولم يفرّق بينهما شيء حتّى الموت نفسه، فقد مات إيليا بعد موت حبيبته أستير اليهودية، و دُفن بجوارها.

5- هذه القصة تذكّرنا بروايات جرجي زيدان التي درسناها في فصل سابق مثل : جهاد المحبيّن، عروس فرغانة ، عذراء قريش ، إلاّ أنّ نهاية قصة الكاتب أنطون كانت حزينة بعكس النهاية في روايات جرجي زيدان.

ومن المؤلّفات الفلسفيّة التي كتبها فرح أنطون، والتي لابد لنا من ذكرها، لأنّ فيها إشارات تاريخيّة عن تلك الفترة التي عاش فيها الكاتب فرح أنطون (1874-1922)، كتاب "ابن رشد و فلسفته"، و قد قدّم لهذا الكتاب الدكتور أدونيس العكرة، و قد رأينا أنّه من الأهميّة بمكان ذكر ما كتبه الأديب أنطون عن ابن رشد و فلسفته، لأنّ هذا الكاتب أبرز عدّة نواحٍ أساسيّة من تاريخ الحضارة العربيّة في مرحلة عصر النّهضة.

بعد أن انتهينا من دراسة روايات فرح أنطون الثّلاث، نستنتج أنّ المقاييس الأخلاقيّة والتعليميّة والأدبيّة النّهضويّة كانت حاضرة في ذهن هذا الكاتب المبدع، وخاصة في روايته "الوحش، الوحش، الوحش" التي تهدف إلى تهذيب الأخلاق، وبث المبادئ السّامية، و التّأكيد على العواطف الشّريفة التي تمنع الإنسان من ارتكاب الرّذائل و الخطايا ....، و يمكننا الإشارة إلى ميزة أخرى لروايات فرح أنطون بصورة عامّة، وهي البعد عن التعقيد و التكلّف، وسهولة المأخذ، كما أنّ لغة الرّواية عند الكاتب أنطون سهلة وخالية من الرّكاكة الفنيّة والأغلاط.

الدكتور عبد الله أبو هيف عن روايات فرح انطون:

ولابد من الإشارة إلى ما جاء في كتاب "العرب و الحوار الحضاري" للباحث عبد الله أبوهيف وكنّا تناولنا هذا الكتاب بالدّراسة في بحثنا هذا في الفصل الأول "لمحة عن الأدب المقارن".

فقد تحدّث هذا الباحث في الفصل الثّاني من كتابه، والذي كان عنوانه: "من الاستشراق إلى الحوار الحضاري: الاستشراق الرّوسيّ والأدب العربي أنموذجاً"، عن الاستشراق الرّوسي الذي عُني مبكّراً بالأدب العربيّ، كما ذكر أنّ الدكتورة آنا دولينينا ربما كانت أوّل مستعربة سوفييتيّة متخصّصة بالأدب العربيّ الحديث وحده، ولها فيه الكثير من المؤلفات والترجمات والبحوث، كما يشير الباحث أبوهيف إلى أنّ الاستعراب السّوفييتي قد وجّه اهتمامه إلى دراسة تطوّر الأدب العربيّ الحديث، والتعريف بالتطوّر الدّاخلي والمؤثّرات الخارجيّة لهذا التطوّر، والمقارنة بالآداب القوميّة والعالميّة التي تبادلت معه التأثير.

كما ويشير هذا الباحث إلى أنّ دولينينا الأستاذة في جامعة لينينغراد، والمختصّة في دراسة الأدب العربيّ الحديث، و الصّلات الأدبيّة الرّوسيّة العربيّة، فقد كتبت مقالة بعنوان:

"فرح أنطون وروايته الأخلاقيّة: الوحش، الوحش، الوحش"، وفي هذه المقالة تفصح المستعربة دولينينا عن إيمانها العميق بخصوصيّة تطوّر القصّة العربيّة من خلال تطوّر الفكر التنويري العربيّ، كما تبين هذه المقالة أنّ تأثير الفكر الأوربيّ الأدبيّ قد تجلّى بشكل ساطع في أدب فرح أنطون (1874-1923) الذي يمثّل حسب أقوال كراتشوفسكي طراز الفيلسوف العربيّ الحديث[1]

ويبيّن الباحث الدكتور أبوهيف نتيجة دراسة دولينينا لرواية فرح أنطون "الوحش، الوحش، الوحش"، فيقول:

"ثمّ تخلص دولينينا إلى أنّ لا ضرورة لدراسة هذه الرّواية وفق قوانين تحليل الأعمال الفنيّة وحدها، فالجانب الوعظي أو الوعظي - الإدراكي يضطلع بدور هام جدّاً في الرّواية التأريخيّة لفترة النصّف الثّاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ......، وتعلّل هذا التأثّير باستمرار تقاليد الأدب التهذيبيّ الفنيّة جدّاً لدى العرب."[2]

---

[1] - انظر : أبوهيف، عبد الله : العرب و الحوار الحضاري، وزارة الثقافة، الجمهورية العربيّة السورية، دمشق ، 2007، الصفحات من 76 حتى 87.

[2] المرجع السابق نفسه، ص 88.

إن الرّوايات التي كتبها فرح أنطون هي روايات معاصرة متحررة من القواعـد التـي تتمسّك بها الرّواية العربيّة التقليديّة، كوحدة الزمن، ووحـدة الحـدث، والحبكـة، ونمطيّـة الشخصيّة. إنّ فرح أنطون في رواياته التي تجمع بين التّاريخ والفلسفة والأدب والوعظ، قـدّم لنا أساليب جديدة في الكتابة، وعناصر وبنيات جديدة في الرّواية العربية الحديثة، وكان هـدف الكاتب من وراء ذلك هو تحرير النصّ من القيود التي تكبّله، و قد نجح الكاتب فـرح أنطـون في تقديم نماذج من الفكر الأوربيّ الغربيّ، و مقارنتها بمثيلاتها في الأدب العربيّ الحديث.

و قد كانت روايات هذا الكاتب عالماً مزدحماً بالأحداث التّاريخيّة و السّياسيّة وغيرها.

إنّ روايات الكاتب فرح أنطون تذكّرنا بما جاء به أحد الباحثين، وهو الباحـث الـدكتور خليل الموسى، في وصفه للرّواية، فقد ذكر أنّ الرّواية تتجاوز تخومها إلى تخوم أجناس أدبيّـة وفنيّة ومعرفية أخرى، ووصف الرواية بالأخطبوط فهي تمدّ أذرعها إلى المعـارف الإنـسانيّة كافّة، و هي بذلك تختلف عن السّرديّات في أدبنا العربيّ القديم .

يقول الباحث خليل موسى مشيراً إلى الرّواية العربيّة المعاصرة و تطوّرها :

"إنّها جنس أدبيّ جشع لا يقنع بالقليل، ولا يتوقّف عن الامتداد والتوسّع، وهو يحاكي أكبر الغزاة في التّاريخ بدءاً من الإسكندر المقدوني وأتيلا الجبّار وجنكيزخان وتيمورلنك وهتلر إلى آخر آليّة عسكريّة عرفها التّاريخ البشريّ، فهي جنس يضمّ إليه كلّ ما يقع تحت سلطانه، ويستطيع أن يحوّل الأجناس المغلوب على أمرها لخدمته، وأن يوظّفها توظيفاً جديداً لم تكن معروفة من قبل، ولذلك تختلف الرّواية عن الملحمة التي كانت منغلقة على ذاتها وقواعدها."(1)

[1]- الموسى، د.خليل : ملامح الرّواية العربيّة في سوريّة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2006 ، ص 17 .

روايات الكاتب فارس زرزور التاريخية:

لقد تناولت الرّاوية السّوريّة فترة النّضال ضد العدّو في النّصف الأوّل من القرن العشرين، واهتمّ الرّوائيّون السّوريّون في رواياتهم بهذه الفترة، وتحدّثوا عن معارك الحريّة في سوريّة، ومن أشهر الرّوائيّين السّوريّين الّذين تحدّثوا عن معارك التّحرير في سوريّة في الفترة المُشار إليها، الكاتب فارس زرزور الّذي يتميّز بغزارة إنتاجه القصصيّ، وبطابعه الملتزم بقضايا شعبه، وواقع حياته.

"وُلِد الكاتب فارس زرزور عام 1929 في دمشق في أسرةٍ فقيرة، وفي وسط دينيّ متعصّب، لأبٍ يعمل بائعاً متجوّلاً شاركه التنقّل في الرّيف بين القرى، حيث وقف على ظلم الإقطاع وبؤس الفلاّحين. نشأ نشأةً عصاميّة معتمداً على نفسه في كسب عيشه ودراسته. مارس التعليم في سنّ مبكّرة ثمّ التحق بالكلّية العسكريّة، وتخرّج فيها عام 1951. كان شديد الإقبال على المطالعة. وفي عام 1958 نُقِل إلى الإقليم الجنوبيّ من الجمهوريّة العربيّة المتّحدة (مصر)، ولم يلبث أن سُرِّح من الجيش مع عددٍ من الضبّاط، واعتقل بسبب ما عُرِف عنه من نزعةٍ يساريّة وميول اشتراكيّة".(1)

ومن الرّوايات التّاريخيّة الّتي كتبها الرّوائيّ فارس زرزور، وتحدّثت عن معارك النّضال والتّحرير في سوريّة في النّصف الأوّل من القرن العشرين، رواياته: "لن تسقط المدينة"، و"حسن جبل"، و "الأشقياء والسّادة"، وهذه الأخيرة هي رواية حواريّة.

وقد فاز الكاتب بجائزة المجلس الأعلى للآداب مرّتين: الأولى على روايته "لن تسقط المدينة"، والثّانية على قصّته "حسن جبل".

رواية "لن تسقط المدينة" للكاتب فارس زرزور:

إنّ رواية "لن تسقط المدينة" هي باكورة إنتاج الكاتب، وهي رواية تاريخيّة واقعيّة، تؤرّخ للثّورة السورية الكبرى، وتسرد قصّة ميسلون المؤلمة والمشرّفة في تاريخنا الحديث مستقصيةً الظّروف الّتي أحاطت بها من كيد الحلفاء ومطامعهم، إلى التخلّف الواضح الذي كانت عليه البلاد وقتها.

تدور أحداث الرّواية على أرض سوريّة كلّها شمالها وجنوبها، ولكنّها تتركّز حول الحدث الرّئيسيّ وهو دخول الجيش العربيّ دمشق بقيادة الأمير فيصل في الأوّل من تشرين

---

1 - سماق، فيصل: الواقعية في الرواية السّوريّة، دار البعث الجديدة، ط1، 1979، ص 121.

الأوّل عام 1918، والجيش الفرنسيّ المحتلّ في الخامس والعشرين من تمّوز عام 1920 بعد معركة ميسلون.[1]

الشّخصيّات في رواية "لن تسقط المدينة" متنوّعة، فهناك الشّخصيّات التّاريخيّة المعروفة مثل: يوسف العظمة بطل معركة ميسلون المشهورة، الشّيخ صالح العليّ أحد كبار المجاهدين ضد الاحتلال الفرنسي، والجنرال غورو، وعبد الرّحمن الشّهبندر، والأمير فيصل، ونوري السّعيد، وكليمنصو، ومحمّد الأشمر، وكامل قصّاب، ولورانس.

وهناك شخصيّات أخرى قد تكون مُتخيّلة من الكاتب فارس زرزور، وأصحاب هذه الشّخصيّات يمثّلون طبقة الشّعب السّوريّ الّتي تحمّلت أعباء النّضال ضدّ المحتلّ الأجنبيّ، وقاومت بكلّ ما تملك من وسائل في سبيل تحقيق الوحدة، وتحرير وطنها من المحتلّ الغاصب.

وأولى هذه الشّخصيّات هي شخصيّة بطل الرّواية محمد قاديش الّذي يعمل مساعداً للشّخصيّة الثّانيّة في الرّواية، وهي شخصيّة الصّيدلانيّ شفيق الصّافي، وهناك شخصيّة ماري إبراهيم الّتي تعمل في مصنع للحياكة في دمشق، وفي الوقت نفسه كان هذا المصنع مقرّاً للاجتماعات السّياسيّة.

ومن هذه الشّخصيّات أيضاً: حسن العليّ، وحميد الرّقي، وأنطوان عبيد، وشفيق الصّافي، ونجيب العويّد، وغيرها من الشّخصيّات الأخرى.

يتحدّث الكاتب فارس زرزور في روايته "لن تسقط المدينة" عن الثّورات السّوريّة المتلاحقة ضدّ الاحتلال الفرنسيّ، وهذه الثّورات هي: ثورة الشّيخ صالح العلي، وثورة جبال السّاحل السّوريّ، وثورة إبراهيم هنانو، وثورة دير الزّور.

إنّ الفكرة الرّئيسيّة الّتي يؤكّدها الكاتب فارس زرزور في روايته هي أنّ المناضلين الحقيقيّين ضدّ العدوّ الفرنسيّ هم أبناء الشّعب السّوريّ، وهم غالباً الفقراء الّذين لا يملكون ثمن السّلاح الّذي يقاتلون به، أمّا الأغنياء فهؤلاء لا همّ لهم سوى جمع المال والثّروة على حساب الشّعب وقضيّته الوطنيّة.

وفي الرّواية إشارة واضحة إلى البرجوازيّة، وتردّدها الّذي يؤثّر سلباً على نضال الشّعب ونجد هذا في حديث الكاتب فارس زرزور على لسان شخصيّاته، عن الوزراء والشّخصيّات الغنيّة.

---

[1] - انظر: المرجع السابق، ص 94.

والكاتب فارس زرزور في روايته يتحدّث عن بعض الأحداث التاريخية الهامّة التي جرت في سورية في النّصف الأوّل من القرن العشرين، وخاصّة مرحلة الانتداب الفرنسي على سورية، والمعارك التي قام بها السوريون في مواجهة الاحتلال الفرنسي، ومن رواياته التي أرّخت لتلك المرحلة: "لن تسقط المدينة"، و"حسن جبل"، وروايته "الحوارية"، "الأشقياء والسادة"، وفيما يأتي سوف ندرس روايته "لن تسقط المدينة" التي تتحدّث عن فترة هامة من تاريخ شعبنا السوري، وهي الفترة التي أعقبت وعد بلفور، ونتائج هذا الوعد، ومرحلة الانتداب الفرنسي والإنكليزي على بلاد الشام، ومعاهدة سايكس بيكو، واتفاقات فيصل-مكماهون، والثورة السورية.. يصوّر الكاتب في روايته كيف هبّ الشعب العربي لاستقبال الجيش العربي المظفّر الذي كان يشقّ طريقه إلى دمشق من الجنوب، مطارداً فلول الأتراك المبعثرة، وكان هذا الجيش قد سار من الحجاز قبل سنتين بعد البيان الذي أصدره الشريف حسين بن علي الذي بويع ملكاً على العرب، وكانت قيادة الجيش تتألف من أمراء وضبّاط عرب، وضبّاط إنكليز، ويونغ مندوب ملك إنكلترا والهند، ونوري السعيد، وملك العرب غير المتوّج لورنس. يقول الكاتب فارس زرزور:

"لم يكن وعد بلفور الذي برز إلى الوجود قبل عام واحد، قد هضم هضماً كافياً. ولم تكن اتفاقيات فيصل – مكماهون قد سمع بها، ولم تكن معاهدة سايكس – بيكو قد كشف عنها النقاب.

وفي غمرة الأفراح، وفي خضمّ الاحتفالات، إبّان هيجان الشعب، هبّ النّاس بطبقاتهم، بألوانهم، بأشكالهم، لاستقبال الجيش العربي المظفرّ، الذي كان يشقّ طريقه إلى دمشق من الجنوب، مطارداً فلول الأتراك المبعثرة، بضباطها الخائبين..."[1].

كان الجيش العربي كما يذكر الكاتب يخضع بمجموعه لأوامر متباينة من الإنكليز والشريف حسين، وكان الفرنسيون يحتجّون بأنّ الجيش العربي قد يهدّد مصالحهم، هذا الجيش الذي كانت ليلة وصوله في الأول من تشرين الأول 1918، ليلة القدر كما يقول الكاتب، وستبقى ذكراها سرمدية. وبعد وصول كتائب الإنكليز، أصدر الشريف حسين إلى الشعب بياناً شكر فيه جميع السوريين لحسن قبولهم جيوشه المنصورة، وبيعتهم له، ثم تحدّث عن الأمة العربية التي أصبحت مستقلة تحت رايته، وطلب إلى الأهالي عدم تعكير صفو الأمن والعبث بالقوانين[2]...

[1] - زورو، فارس: لن تسقط المدينة، دار الاعتدال، 1969، ص9.

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 11، ص 15، ص 35، ص 37، ص 38.

كما يقول الكاتب إن حكومة سعيد الجزائري، كانت عبارة عن خبر تناقله الناس، ولم يدرك أحد ماهية تلك الحكومة التي لم تعش أكثر من أربع وعشرين ساعة...، وقد وفقت دائرة الاستخبارات البريطانية في العثور على لورانس الذي حصل على ألقاب ومراتب خلال خدمته للعرب عندما أصبح يسمى بـ "ملك العرب غير المتوج"، وكانت آخر مهمة قام بها، هي تلك المقابلة التي جرت بينه وبين المبعوث الفرنسي(1).

وفي عرض الكاتب للأحداث التي جرت بعد ذلك، يشير إلى معاهدة (سايكس بيكو)، فيقول:

"وفي الثامن من تشرين الأول 1918 احتل الفرنسيّون السّواحل السورية في ضربة واحدة.. وفوجئ الشّعب بالمعنى الحقيقي لمعاهدة (سايكس بيكو) التي وصلت إلى أسماعه عقب الثّورة الروسية، يشوبها الكثير من الغموض، ويقدّم إلى من أحسّ بآلامها، حقناً من المخدرات والمسكّنات...

وصل الجيش العربي إلى حلب، ووصل في أعقابه فيصل بن الحسين، وكان كما يقول المثل (من ضرب ضرب ومن هرب هرب..).(2)

وبعد أن ألقى الأمير فيصل خطاباً سأله رجل من مدينة دير الزور:

"يا سيّدنا الأمير.. أليس خطأً أن تسمح للفرنسيين باحتلال سواحلنا..؟

ورد الأمير في لهجة تستند إلى القناعة الكاملة:

"لقد أكدّ لي السّير مكماهون بنفسه ومن ثم الجنرال اللنبي بأن اتفاقية "سايكس بيكو" لا يمكن أن تنفذ بأي صورة من الصور، وأما ما حدث في السواحل، فليس غير تدبير عسكري مؤقت. وعلى كلّ فليس الفرنسيون غرباء عنّا. ألم نحارب معهم جنباً إلى جنب، وفي سبيل القضاء على عدوّتنا المشتركة تركيا.؟"(3).

ثم يسافر الأمير فيصل إلى باريس في الثاني والعشرين من تشرين الثاني لحضور مؤتمر الصلح، تنفيذاً لكتاب والده الذي ورده قبل انتهاء الخطاب...(4)

يتحدث الكاتب عن رجالات الثورة السورية، ومنهم محمد قاديش الذي قُتل والده من قبل الأتراك، وخدم في حدود روسيا، وقد تعرّف قاديش على ماري إبراهيم التي تسكن في حارة

---

1 - انظر: المرجع السابق، ص 46، ص 57.

2 - المرجع السابق، ص 60.

3 - المرجع السابق نفسه، ص 65.

4 - انظر: المرجع السابق، ص 67.

القديس يوحنّا، عندما جاءت لتشتري دواءً لولدها من الصيدلية التي يعمل بها..، ويزور قاديش رجلاً ويخبره بأن أستاذه صاحب الصيدلية في اللاذقية يمهّد للاجتماع بالشيخ صالح العلي بعد أن اجتمع بنجيب العويد، وهما من قادة الثورة السورية (1919-1926).

يجتمع الصافي مع رفاقه: محمد قاديش، ونجيب العويد، وحميد الرقي، ويخبرهم بأنّ الفرنسيين يحتلون شمال البلاد وغربها، أي الساحل كله مع أنطاكية وكيليكيا، وأن الإنكليز يحتلّون الشّرق، وتمهيداً لتنفيذ اتفاقية (سايكس بيكو) سيفرغ الإنكليز شرق لبنان للفرنسيين، والحكومة الفيصلية لا تزال تأتمر بأمر الحلفاء، وجيشها ما يزال جزءاً من جيوشهم، واشتعلت ثلاث ثورات في الشمال والغرب... ، قال الصافي لرفاقه:

"وقد تسرّب إليّ نبأ يقول بأنّ ولسن وعد الأمير بإرسال لجنة لاستفتاء أهالي البلاد. نعود الآن إلى مشكلتنا الحاليّة.. ثورتنا الأولى هي ثورة العلويين، وسيحدثنا عنها الشيخ حسن، أمّا ثورة الشمال فنجيب عويد هو بطلها الأول"[1].

ويجيب عويد في شراسة:

"إن الثّورة الثّالثة هي في جبل الحفّة. وقد اجتمعت أنا شخصياً بآل البيطار رؤساء العشيرة وموّنتهم بالبنادق والذخائر بواسطة أحد المجاهدين المدعو هزاع أيوب. كما مهدّت للاجتماع بينهم وبين هنانو. وبهذا استحاط جسر الشغور بثورة العلويين في الغرب والحفة في الجنوب وثورتنا من الشرق والشمال"[2].

يتابع الكاتب في سرد الأحداث فيذكر أن الفرنسيين قاموا بشنّ حملة كبيرة، واستولوا على قلعة القدموس، ولكن كتيبتهم حوصرت هناك، ويأتي رسل صالح العلي يحملون أمراً ينصّ على ترك المنطقة المحاصرة والارتقاء إلى رؤوس الجبال، وقام الشيخ صالح العلي بتقسيم رجاله منذ بدء الثورة إلى فئات، تعمل كل عشيرة تحت أمرة شيوخها المرتبطين بقيادة واحدة هي قيادة الشيخ صالح، وكانت الجماعة التي بقيادة صالح العلي قد قامت بأصعب المهمّات...

يدعو لورانس الأمير فيصل لزيارة لندن، ثم يذهب الأمير فيصل إلى باريس حيث سمح له بحضور جلسات مؤتمر الصلح بعد إلحاح الرئيس الأمريكي ولسن، ثم يعود الأمير إلى دمشق ويقف في بهو السراي، ويلقي خطاباً تاريخياً في 5 مايس 1919 يشير المؤلف فارس زرزور إلى أنه نقل نصّ الخطاب عن الحصري (يوم ميسلون) بالنّص دون تصرّف..

---

[1] - المرجع السابق، ص 129.

[2] - المرجع السابق، ص 132.

وأكد الأمير في خطابه أنهم في سورية لا يرضون بيع استقلالهم، وأنه سيكون للعــرب مندوب في جمعية الأمم، وأنه سيطلع على أفكار رجال الثورة، وأكّد أنّ حلفــاءهم لا يريــدون لهم إلا الفلاح،.. فقاطعه الصافي ولكن ضباط الجيش أمسكو به مــع الرقــيّ، وســجنا فــي القلعة...

يتّفق الشهبندر مع حميد الرقيّ في الجامعة على أن يؤلّفا جمعيّة سريّة تنادي بمبدأ وطن العرب للعرب، واتفقا على تسميتها "الرابطة الثورية" وهدفها الأول الثّورة ضدّ الأتــراك، ثــم يذهب الشهبندر إلى أوروبا، ويلتحق بالجمعية العربية الفتاة، ثم ينتسب إلــى جمعيــة الاتحــاد والترقي التي انتدبته ليكون طبيباً خاصاً لجمال باشا قبل أن يكتسب لقبه المشهور (السّفاح)، ثم يهرب إلى مصر، ويعود بعد موت الباشا إلى دمشق[1].

ثم يعلن حميد الرقي أنهم اجتمعوا في بيروت مع يوسف العظمة الذي أخبره بنيّته في أن يتخلّص من رتبته وأوسمته ليلتحق بهنانو وصالح العلي، وأن خجله من الأمير يمنعه من تقديم الاستقالة، وهو قائد جيش، وقد عثر على السجينين الرقي والصافي بعد بحث طويل...[2]

ويشير الكاتب فارس زرزور إلى واقعة دنشواي، من خلال عرضه لخطبة الصافي فــي أبناء سورية. يقول الكاتب:

"وعندما اعتلى المنصّة قوبل بتصفيق كاد أن يكون إجماعيــاً. ونــادى قبــل أن يعــمّ الصمت:

- يا أخوان يا أبناء سورية الحبيبة لن أحدّثكم عن شــيء.. إلاّ عــن الإنكليــز.. أمّــا الفرنسيون، فأنتم تعرفونهم أكثر مني. سأحدّثكم أولاً عن دنشواي، عن تلك الحادثة التي جرت في بلدتي منذ ثلاثة عشر عاماً، والتي أُعدم نتيجتها الكثيرون، وحُكم بسببها على الكثيــرين – وأنا منهم - بالإعدام"[3].

ثم يحدّثهم الصافي عن أساليب الإنكليز القمعية، وإعلانهم الأحكام العرفية، وإبعاد عــدد من الوطنيين العاملين إلى جزيرة "مالطة"، ومراقبتهم الصحف والمجلات ومنع الاجتماعــات، وتشكيل المحاكم العسكرية، واحتلالهم المدن والقرى،.. ، لذلك رأى فريق من المــصريين أن يرفعوا صوت بلادهم إلى مؤتمر الصلح، وتزعّم الحركة الوطنيّة أستاذ الصافي سعد زغلــول، فتقدم مع زملائه إلى المندوب السامي البريطاني يعرضون عليه السماح لهم بالسّفر إلى لنــدن

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 170 حتى 246.

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 259.

[3] - المرجع السابق، ص 285.

لمباحثة الحكومة البريطانيّة بمطالب البلاد، ولكن وزارة الخارجية رفضت، وعندها وجد الشعب المصريّ أنه لابد من الثورة لتحقيق استقلاله، وكانت ساحة المرجة والشوارع المتفرعة عنها مسرحاً كبيراً للدّعاية والنشاط السياسي، وكان البعض يطلب وصاية فرنسا المجيدة، والبعض الآخر يطلب حماية ملك إنكلترا الذهبي، وكانت نداءات هائجة تهتف بالاستقلال والحرية..، وتشكلّت لجنة رئيسها تشارلز كراين وإلى جانبه الدكتور كينغ، وفي الوسط كان يقف الشهبندر، وقدم محمد قاديش لكراين عريضة جلبها معه من جبال الثورة، وكانت نتائج الاستفتاء راجحة إلى جانب الاستقلال التّام، ولكن الإنكليز والفرنسيّين والأمريكان كتموا الحقيقة عن شعوبهم وهي رغبة السوريين الحقيقية بالاستقلال.

ويسجل التاريخ اتفاقية (اتفاق لويد جورج- كليمنصو 15 أيلول 1919)، وتنصّ على ترك الحرية للفرنسيّين للتصرف بفلسطين وشرقي الأردن والعراق كلها، وأن تحلّ قوّات كليمنصو في المناطق الشرقية والغربية بعد إجلاء قوات الفرنسيين عنها، وكان انسحاب الإنكليز من الأقضية اللبنانية الأربعة وتسليمها للفرنسيين دليلاً صارخاً على تنفيذ اتفاقية سايكس بيكو بحذافيرها، تلك الاتفاقية التي قال عنها الإنكليز للأمير فيصل إنها حبر على ورق، وهبّ الشعب العربي ينادي بسقوط الفرنسيين والإنكليز(1).

ويعلم الأمير فيصل خلال وجوده في باريس بأنباء الثورة المندلعة في الشرق، وباحتلال دير الزور من قبل العشائر العربية، ونزوح الإنكليز عنها، فاستنكر ذلك، واعتبر الثّوار عصاة خارجين على القانون، فقام الناس وطالبوا بالاستقلال التام حتى عن حكومة فيصل، وعمّت ثورة الدير غرب العراق وشمال سورية...

ويتحدّث الدكتور ويقول: إن الأتاسي اشترط على الملك ألا يتدّخل في شؤون تأليف وزارته، وقد عرض على الدكتور ورفاقه الاشتراك فيها، وعهد إلى يوسف العظمة بوزارة الحربية، وعلى الشهبندر وزارة الخارجية...

وقد اتّخذت الحياة شكلاً جديداً بالنسبة للصافي وقاديش منذ انبثقت اللجنة الوطنية العليا إلى الوجود، وقد عرضت مريم على الصافي أن تقدّم للجنة ما تستطيع من مساعدة، وشاركت في المظاهرة الكبرى التي اندلعت عقب إعلان قرار (سان ريمو)، وكانت تصرخ بسقوط فرنسا وإنكلترا...

---

1 - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 286حتى 294.

كانت قلعة دمشق التي سُجن فيها الصافي والرقي حصناً منيعاً ضدّ الغزوات، وقد أخذت حشود هائلة من الرجال تقتحم باب القلعة الغربي إلى الداخل، أما غورو فقد كان في قصره الصيفي في "عاليه"[1]....

ويقرر يوسف العظمة الانتقال إلى ميسلون بعد إعطائه الأمر بإيقاف تسريح الجيش، ويتّخذ من هضاب ميسلون خطاً دفاعياً، أما الجنرال غورو فقد تلا شروطه رغم تسريح الجيش وقبول الإنذار...

ويصور الكاتب فارس زرزور بطولة يوسف العظمة أمام الفرنسيّين، فيقول:

".. ثم تناول قنبلة يدوية، وأقحم نفسه في فوهة البرج ليصعد. وفي هذه اللحظة وبينما كانت الدبابة تتراجع، ويوسف العظمة يتبعها دون فكرة معينة دوّى في المنعطف انفجار رهيب وتطايرت إثره أحجار كثيرة... وانتفض جسم الدبابة ثم سقط إلى الخلف. واندفع يوسف العظمة وراءها شاهراً سيفه في وجه الدّخان.

ثم من جميع الأنحاء، وكصدى لانشقاق السماء دوّى ذلك النّعيق المشؤوم، قُتل يوسف العظمة.."[2].

وبعد مقتل يوسف العظمة، وقف الجنرال غورو في يوم 24 تموز 1920 في قصره، وأعلن أسماء حكومته في دمشق في بلاغ رسمي، ويطلب ضابط الدرك من قاديش والأشمر تسليم أسلحتهما.

يقول الكاتب:

"ويصمت الضابط، في حين يعود قاديش إلى الصراخ:

- أوامر من..؟ أوامر الجنرال غورو؟ أهذه هي النهاية.. استلم الفرنسيون الحكم قبل أن يدخلوا المدينة...؟ هل سقطت المدينة..؟

- ويرد محمد الأشمر مبهور الأنفاس:

- لا.. لا.. لن تسقط المدينة.. لن تسقط المدينة. "[3].

ويرفض الشابان محمد قاديش ومحمد الأشمر تسليم أسلحتهما، ثم يموت الصافي، بعد ذلك يقابل محمد قاديش مريم، ويغادرها حاملاً بندقيته.

---

1 - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 302 حتى 336.

2 - المرجع السابق، ص 409.

3 - المرجع السابق، ص 426.

يقول الكاتب خاتماً روايته، وواصفاً البطل محمد قاديش:

"وفي غبش الفجر الأصفر – عبر بساتين الغوطة – يتبع خطواته إلى حيّ الميدان. وكانت تدوي في أعماقه عبارة محمد الأشمر "لن تسقط المدينة".. ولم يكن يدري أبداً بأنّ حارساً كهلاً معقوف الشاربين اسمه (حسن الخراط) كان يتعقب أثره".[1]

ويشير الكاتب في هامش الصفحة (436) إلى حسن الخراط بقوله:

"حسن الخراط أحد قادة الثورة السورية 1925-1927 استشهد في إحدى معارك الغوطة. وكان في ذلك الوقت يعمل حارساً ليليّاً في تلك المنطقة".

نلاحظ في هذه الرواية أحداثاً تاريخية حقيقية، هي الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين شريف مكة والحجاز، وتعاونه مع الإنكليز من أجل التخلّص من الاستبداد التركيّ الذي استمر أكثر من أربعمئة عام، أي من عام (1516-1918) ولم يخرج الأتراك من بلادنا إلاّ بالثّورة وبقوّة السّلاح، ففي خلال هذه الفترة تقدمت الدول الأوروبية وتوقّف نموّ الدّول العربيّة، فتأخّرت وتخلّفت مما جعل الدول الأوروبية تطمع بها، فعقدت فرنسا وبريطانيا اتفاقية سايكس – بيكو (1916) التي قسمت الوطن العربي بين الدولتين فرنسا وبريطانيا، وكانت سوريا ولبنان من نصيب فرنسا، التي أخذت تنفذ الاتفاقية بشكل ماكر ومراوغ، ولم تعلن صراحة أنها ملتزمة بهذه الاتفاقية...

بعد ذلك حكم الملك فيصل سورية وهو ابن الشريف حسين، حكم سوريا لمدة عامين (1918-1920) أي الفترة الممتدّة من استقلال سوريا عن تركيا إلى وقوعها تحت الانتداب الفرنسي، وبعد ذلك دخلت فرنسا الأراضي السورية مباشرة بقيادة الجنرال غورو، ويصف المؤلف فارس زرزور معركة ميسلون التي استشهد فيها الكثير من أبناء الوطن، وفي مقدمتهم يوسف العظمة، بعد أن استبسل في الدفاع عن دمشق، وسقطت دمشق بأيدي الفرنسيّن، ولكنّها بالوقت ذاته لم تسقط، لأنّ الثّوار الوطنيين أظهروا بطولات في كل يوم من أجل التخلص من الاستعمار الفرنسي.

إنّ الكاتب فارس زرزور في روايته التّاريخيّة "لن تسقط المدينة" قد فصّل في حديثه عن الوقائع التّاريخيّة الّتي وقعت في فترة الاحتلال الفرنسيّ لبلادنا، وقد توخّى الدّقة في ذكره لتواريخ تلك الوقائع، حيث اعتمد على الوثائق التّاريخيّة، والمصادر الموثوقة، وذلك في ذكره لوعد بلفور، ومعاهدة (سايكس – بيكو)، واتّفاق (لويد جورج – كليمنصو 15 أيلول 1919)، والخطاب التّاريخيّ الذي ألقاه الأمير فيصل في 5 مايس 1919 أمام النّاس.

[1] - المرجع السابق، ص 436.

وكذلك لقد فصّل الكاتب في وصفه أساليب الفرنسيّين الوحشيّة، وكــذلك الإنكليــز فــي معاملتهم للنّاس ورجال الثّورة، وخداعهم وتضليلهم للشّعب يساعدهم في ذلك الخونة الــذين لا يهمّهم سوى جمع المال والثّروة.

ولكنّ الكاتب في روايته لم يغفل عن تصوير حياة النّاس في تلك الفترة، والحديث عــن معاناتهم وفقرهم الذي لم يكن عائقاً أمام تصميمهم على مقاومة المحتلّ وعدم الاستسلام له.

كما يؤكّد على الرّوح الوطنيّة العالية الّتي يتحلّى بها الشّعب، فقد هبّ الــشّعب بجميــع فئاته للوقوف إلى جانب رجال الثّورة لمقاومة العدوّ المشترك، وقد توحّدت جميــع الطّوائــف الدّينيّة في سوريّة في سبيل تحقيق الوحدة والتّحرّر من السّيطرة الاستعماريّة، ولاحظنا هذا في حديث الكاتب فارس زرزور عن ماري إبراهيم الّتي تسكن في حارة القدّيس يوحنّا.

ولم يكتفِ الكاتب بالحديث عن الحرب وتأثيرها على حيــاة النّــاس فــي تلــك الفتــرة التّاريخيّة، وإنّما ركّز أيضاً على تصوير النّفس الإنسانيّة في أثناء الحرب ومقاومتهــا للعــدوّ، فالنّاس مختلفون في ذلك، فمنهم الخائف المذعور الّذي يفضّل الهــرب أو الاستــسلام للعــدوّ، ومنهم البطل الشّجاع الّذي لا يخاف العدوّ ولا أسلحته الكثيرة المتطوّرة مثــل البطــل محمّــد قاديش وشفيق الصّافي، وغيرهم من رجال الثّورة، وممّا تجدر الإشارة إليه هو تصوير الكاتب لرجال الثّورة وهم يتعاملون مع بعضهم كأنّهم أسرة واحدة، فقد كــان يــسود بيــنهم الحــبّ والتّعاون واحترام الرّأي الآخر، والأخوّة، والإيثار، والتّضحية، ومن هذه النّاحيــة فــإنّ هــذه الرّواية تشبه إلى حدٍّ ما رواية "الحرب والسلم" لتولستوي، فأبطال رواية "لن تــسقط المدينــة" يشبهون أبطال رواية "الحرب والسلم"، فهم يقاومون العدوّ، ويقاتلونه حتّــى الرّمــق الأخيــر، ويفضّلون الموت على أن يسلّموا وطنهم رخيصاً للعدوّ...

وعلى الرّغم من الفارق الكبير بين الرّوايتين، فرواية "الحرب والسلم" روايــة عالميّــة نالت شهرة واسعة، وهي رواية ضخمة جعلها الكاتب تولستوي في أربعة مجلّدات، فإنّه يوجــد بين الرّوايتين نقاط مشتركة منها:

1- تصوير كلّ من الكاتبين تولستوي وفارس زرزور حياة النّاس الاجتماعيّة في الفتــرة التّاريخيّة الّتي تتحدّث عنها كلّ من روايتي: "الحرب والسلم" و "لن تسقط المدينة".

2- إيمان كلّ من الكاتبين بقدرات الشّعب، ومقاومته المحتلّ وعدم الاستسلام له.

3- تحليل الكاتب فارس زرزور لنفسيّات بعض المقاتلين السوريّين، وهذا نجــده بــشكل كبير في رواية "الحرب والسلم"، حيث يفصّل الكاتب تولستوي في روايته هذه فــي ذكــر دوافع شخصيّاته، وأفكارها والّتي كان لها دورٌ كبير في الحرب.

4- تأكيد كلّ من الكاتبين على أنّ القوّة الفعّالة والّتي توجّه الأحداث التّاريخيّة الكبرى، هم الأفراد العاديّون البسطاء، وليست طبقة الحكّام الّتي يظنّ البعض أنّها سبب النّصر أو الخسارة.

5- إشارة كلّ من الكاتبين إلى طبقة الأغنياء والبرجوازيّين، والّتي كان لها دور سلبيّ في الحرب.

6- تحاول كلّ من الرّوايتين بثّ روح الأمل والتّفاؤل في النّفوس، من خلال تأكيد كلّ من الكاتبين تولستوي وفارس زرزور على مقاومة الاحتلال ، ودحر الظّلم والعدوان.

وهذا ما يؤكّده موقف بطل رواية "لن تسقط المدينة" في نهاية الرّواية، فقد رفض محمّد قاديش تسليم سلاحه لأنّه كان مؤمناً بأنّ مدينته دمشق لن تسقط، وفي هذا تأكيد على استمرار النّضال ومواصلته حتّى النّصر، ولذلك نجد الكاتب فارس زرزور يعود مرّة أخرى للحديث عن بطله محمّد قاديش في روايته "حسن جبل"، مواصلاً تصويره الأحداث الّتي بدأها في روايته الأولى "لن تسقط المدينة"، ويتحدّث فيها عن مرحلة ما بعد الثّورة السّوريّة الكبرى وحتّى الاستقلال عام 1946، مؤرّخاً بذلك لمرحلة هامّة من مراحل نضال شعبنا السّوريّ.

هذه الرواية تشبه الروايات الروسية عن مقاومة الاحتلال الألماني مثل رواية "الحرس الفتي" وغيرها حيث البطولة والشجاعة والدفاع عن الأرض والتضحية بالذات.

رواية "حسن جبل" للكاتب فارس زرزور:

ومن الروايات التاريخية التي كتبها فارس زرزور رواية "حسن جبل"، وفيها يتابع الكاتب الأحداث التي تكلم عنها في روايته السابقة "لن تسقط المدينة"، ويتحدث فيها عن مرحلة ما بعد الثّورة السوريّة الكبرى وحتّى الاستقلال عام 1946، مؤرخاً بذلك لمرحلة هامة من مراحل نضال شعبنا السوري...

قسم الكاتب فارس زرزور روايته "حسن جبل" إلى قسمين، يتألف القسم الأول من ثلاثة عشر فصلاً، ويتألف القسم الثاني من خمسة فصول، وقد جعل عنوان القسم الأول "الآبق"، ويتحدث الكاتب في بدايته عن الفشل الذّريع الذي لاقاه الفرنسيّون في معركة المزرعة، واستدعاء الجنرال ميشو إلى باريس ليمثل أمام لجنة من القضاء العسكري، فقد وجهت إليه اتهامات ومنها أنه ارتكب أخطاء فادحة، وعُزل ميشو، وأرسل بدلاً عنه جنرال اسمه غامان الذي وصل إلى دمشق في الثالث عشر من أيلول 1925 مصطحباً معه قوى ومعدّات ليستأنف الزحف على السويداء، ويقود الحملة بنفسه..، وفي قرية (المسيفرة) التي تقع بين درعا والسويداء، أنشأ الفرنسيون قاعدة عسكرية تمهيداً للزحف على السويداء في اليوم الرابع عشر

من أيلول، فاشتبك الثوار مع القوات الفرنسية، وحاصروا الفرنسيين، وجرى ما يسمى بمعركة (المتاريس)، وأصبح الفرنسيون عاجزين عن الهرب لوقوعهم بين نارين: نار الثـوار، ونـار الرماة الإفريقيين الذين كانوا في طريقهم من (إزرع) إلى (المسيفرة) بقيادة الجنـرال غـاملان نفسه[1]..

وكانت السلطات الفرنسية قد احتفظت بثلاثة مساجين مؤقّتاً في محطـة إزرع لحاجتهـا إليهم في تفريغ الشحنات التي كانت ترد بكميّات كبيرة تمهيداً لعمليات جديدة، يخطط لها القـادة لتنظيف جبل العرب وحوران من العصاة الثائرين، وقد تأكد للسلطات، بأن اتصالات تجـري بين ثوار جبل العرب وبعض النّوويات الثّورية في غوطة دمشق، لتوحيد الثورات فـي ثـورة واحدة، وكان قد أتي بالسجناء منذ شهرين، من سجن القلعة في دمشق، ومن هؤلاء الـسجناء الذين هربوا: السجين رقم (17) المحكوم بالإعدام، حسن جبل، وفي طريق هربه تذكّر رفيقيه أبا سطام وديوب القاضي، ثم قذف بنفسه من القطار الذي هرب فيه، بعـد أن اسـتولى علـى حقيبة رجل كان يجلس في مقصورة القطار، وتابع هربه حتى وصل إلى جسر، شـاهد تحتـه فارساً على دابّة، فظن أنه من رجال الحكومة، لذلك هدّده بالبندقيّة إذا لم يخبره مـن يكـون. يقول الكاتب واصفاً ما كان يفكّر به حسن جبل:

"وكان الشاب في هذه اللحظة يفكر – وقد أحس بجرح فخذه القديم يخزه وخزاً مفاجئـاً - بتلك القنبلة التي رمى بها على الجنرال قائد الحملة في معركة من معارك العلويين، قبل سـتة أعوام:

(لقد تغلبت على كثير من الصعاب. ونجوت من أشراك كثيـرة، فينبغـي لـي الآن أن أعرف كيف أتصرف)".[2]

يعثر الفارس الشاب الذي أنقذ حسن جبل في الحقيبة على بطاقة صغيرة مكتوب عليهـا (نشأة بيك كوشة) ويخبر حسن جبل أن هذه الشخصية تعمل مع الفرنسيين ضـدّ الثـوار، ثـم يعرّفه بنفسه، ويخبره بأنّ اسمه محمد قاديش الذي ظن الجميع أنه شُنق، فقد قـام المتنفّـذون المتعاملون مع الجنرال غورو، والذين يساعدون الفرنسيين بتقديم أخيه الصغير الذي انفـصل عنه وهو صغير تحت ظروف حرب (السفر برلك) للفرنسيين على أنه محمد قاديش، وطبعـت صورته في الجرائد ليكون عبرة لمن اعتبر، ويخبره بأنّ البندقيّة التي يحملهـا هـي البندقيـة

---

[1] - انظر: زرزور، فارس: حسن جبل،منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، 1969، الصفحات: من 7حتّى10.

[2] - المرجع السابق نفسه، ص 51، ويشير فارس زرزور في هامش هذه الصفحة بعد قوله (معارك العلويين، قبل ستة أعوام) إلى روايته السابقة (لن تسقط المدينة).

نفسها التي خاض معها معركة ميسلون، ويحدّثه عن محمد الأشمر وأدهم خنجر، وعن الاتّهامات التي وُجّهت إليه ومنها أنّه صديق لأدهم خنجر، وأنه مسؤول عن محاولة اغتيال غورو، ويعرّفه بأبيه صالح قاديش الذي اُدّعي أنه قُتل في حدود روسيا مجنّداً في الجيش التركيّ، وعندما عاد أبوه لم يعترف به أحد حتى زوجته أم محمد.(1)

يعرّف محمد قاديش حسن جبل على فتاة اسمها تميمة ويخبره أنها فقدت أهلها في معركة المسيفرة، ويسأله حسن جبل: من أين له كلّ هذه المعلومات، والأدوية، والضماد، ورداً على سؤال حسن جبل يقول الكاتب:

"وراح قاديش في اختصار يشرح لمضيفه ذلك الجانب من فتوته، الذي اشتغل فيه في صيدليّة، كان صاحبها سياسيّاً ووطنيّاً مخلصاً، دفع بقاديش إلى أن يسلك طريقه هذه إلى النهاية".(2)

يذهب محمد قاديش مع حسن جبل إلى المقلع، ويرحّب بهم عمّال المقلع، ومن بين العمال شيخ سأل محمد قاديش:

- يا تكتور! بالله عليك قل لنا الحقيقة الفرنساويين أكلوها في المزرعة أكثر وإلاّ في المسيفرة؟ فيجيبه محمد قاديش:

"المزرعة؟ وحق الذي خلقك يا أبا دياب. غير التاريخ ما يكتب عن هذه المعركة.. بس يا حيف.. لو عندنا رجال يكفون لما توقفنا عن الهجوم حتى وصلنا للشام. ومع ذلك هجمنا على الشام. ولكن بعض أولاد الكلب خانونا وأعلموا الفرنسيين بالخطة... الحقيقة يا إخوان.. إن معركة المسيفرة كانت غريبة كثيراً. وحصلت فيها خسائر بين الطرفين.

لكن معركة المزرعة ما بقي فيها من الفرنسيين المخبر. أفنيناهم إفناء. حتى إن حكومة فرنسا – كما سمعت - استدعت الجنرال ميشو."(3)

ويخبر محمد قاديش حسن أنه يحتل منطقة متوسطة بين منطقة الشام، وجبل الدروز، وهذا المركز حيوي لتأمين الاتّصال بين ثوار الشمال والجنوب، ثم يزور ثلاثة أشخاص محمد قاديش وهم: الدكتور ونجدة آغا، وداوود بيك، وعندما يسأل محمد قاديش الدكتور عن الحال في السويداء يجيبه بأن الفرنسيين يمهدون لدخولها من جديد، فالجنرال غاملان يعمل بالدعاية

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 58حتّى 64.

[2] - المرجع السابق، ص 75. ويشير الكاتب فارس زرزور في هامش هذه الصفحة إلى أن قصة قاديش مفصلة في روايته السابقة (لن تسقط المدينة).

[3] - المرجع السابق، ص 84.

على زلزلة المعنويات ليحتل الجبل دون معركة، ويشير قاديش إلـى أن المعارضـة تـسلمت وزارة الخارجية في حكومة الملك فيصل، وكان قاديش يعني الطبيب بقوله هذا، فقـد اشـترك الطّبيب مع يوسف العظمة في وزارة هاشم الأتاسي قبل خمس سنوات، متخلّياً عن المعارضـة الوطنية التي كان يتزعمها الصّيدلي – معلم قاديش في ذلك الحين- على أمل أن يوفّـق بـين مطالب الوطنيين ورغبة الحكومة في تحقيق الاستقلال، دون أن يأخذ بوجهة النظر الصحيحة، وهي أن الفرنسيين ليست لديهم رغبة صادقة في خدمة البلاد المحرّرة من استعمار العثمانيّين، بل في احتلالها من جديد.

ولم يشارك الطّبيب يوسف العظمة في تحدّيه لإنذار غورو، وتصميمه على الدفاع حتى الموت...

ويخبر الدكتور قاديش أنّ السلطات الفرنسية تطرح في الأسواق أسلحة وذخائر قديمـة فاسدة، لتجمع بدلاً منها ذهب البلاد، واتّفق الاثنان على أن نشأة بيك كوشـة عميـل فرنـسي خطير تجب محاسبته من قبل محكمة الثورة المزمع تشكيلها في إحدى قرى الغوطة، وينتظـر أن تكون قرية (زبدين)، كما يخبر الدكتور قاديش أنه سمع حديثاً عن أنّ حسن الخراط ومحمد الأشمر قد تقاسما المناطق الرئيسيّة، ويشرح له الوضع قائلاً:

"وأوضحت للقيادة في الاجتماع الماضي أنه تشكلت نوويات الثورة في الأحياء التالية:

حيّ العمارة، مسجد الأقصاب، قبر عاتكة، الميدان، الخراب، بـاب الـسّريجة، مأذنـة الشحم، سوق القطن، والقيمريّة، وأنّ حسن الخراط بات ينتظـر الإيعـاز الأول.. وبـالأحرى المناسبة الأولى لإشعال النار"[1].

ويسأل قاديش الدكتور عن مسألة حماة، فيجيبه بأنه قدم إلى الجبل منذ مـدة مبعوثـان، اجتمعا في شرق الأردن مع بعض المنفيّين، وتزوّدا بالسّلاح، ثمّ ذهبـا إلـى الجبـل، وهمـا يحملان صورة اتّفاق لأجل إشعال نار الثورة في حماة، وقد وقّع هذا الاتّفاق بعض الزعمـاء، ومن جملتهم فوزي بيك، ويشير الكاتب زرزور إلى أن فوزي القاوقجي هو أحد قـادة الثـورة السورية 1925-1927 ، وكان ضابطاً في جيش الاحتلال.

يصوّر الكاتب في الفصل الثالث عشر والأخير في القسم الأول من روايته، أهالي قريـة (العبادة) بعد جلاء الغزاة عنها، وكيف رجعوا إلى قريتهم في مهرجان عظيم يتقدّمهم قـاديش ورفاقه، وكانت تميمة العروس ممتطية فرساً يقوده العريس حسن جبل الذي يعطيـه قـاديش رسالة وبيان ليسلّمهما إلى حسن الخراط، ويطلب منه السفر إلى الشام لتنفيذ المهمـة الموكلـة

---

[1] - المرجع السابق، ص 152.

إليه، وهي أن يقوم مع حسن الخراط بخطف نشأة بيك كوشة، وتقديمه إلى محكمة الثورة في (زبدين)، وأعطاه خمسين ليرة ذهبية، ويسافر قاديش مع جماعته إلى الجبل[1].

في القسم الثاني من الرواية الذي عنوانه "الحاج" يصور الكاتب فارس زرزور حسن جبل بعد عودته من أداء فريضة الحج، وفي الطريق تضيع زوجته أسماء، وقد توفي ابنه البكر، وقد أنكر الحكواتي أن يكون له يد في مسألة اللّيرات الخمسين التي فقدها حسن جبل، ويتحدث الكاتب عن أحياء (الميدان والشاغور وباب السريجة) التي كانت مراكز لتحضير وصيانة الثورة، وكانت هذه الأحياء هي حلقة الوصل بين ثوّار الجبل وثوّار الغوطة والمناطق الأخرى، وكان الفرنسيون يعرفون ذلك، ويبثّون المخافر والدوريات، وقد ظلّت هذه المخافر الفرنسيّة المقامة في أطراف المدينة عرضة دائماً للهجوم من قبل الثّوار الذين كانوا في كل أمسية يتجمّعون في المقاهي يستمدون من بطولات أبي زيد الهلالي وعنتر بن شدّاد والزير أبي ليلى المهلهل عوناً لهجوماتهم، ويتخذون منهم نماذج في الكرّ والفرّ. وسمع صوت ينادي بأن عصابة القيمرية احتلت باب الجابية، وانهال الرصاص على الجنود الفرنسيين، فأدرك من بقي منهم أنه قد حكم عليه بالإعدام، وقرّر قاديش عدم التراجع حتى يسقط قصر العظم[2]، وأعطى تقريراً موجزاً عن آخر أنباء معركة السويداء الأخيرة:

"إنّ دخول الفرنسيين للسويداء هذه المرة ليست له قيمة تذكر بطبيعة الحال، لأنه كان دخولاً أشبه ما يكون بالاستسلام. فقلّة المياه في الجبل، ثم عودة النّشاط إلى الثّوار بعد معركة طفيفة قضوا فيها على نحو أربعين جندياً، كل هذا ألقى الرعب في قلب الجنرال غاملان، وحمله على الفرار بجنوده وبالقائد تومي مارتين ومن كان معه من المحصورين في القلعة منذ معركة (الكفر). وقد غادرها الجنرال خلسة تاركاً ما فيها من عتاد وسلاح. وقد جدّ الجنرال في الهرب على صورة ترك فيها قدور الطعام في المطابخ تغلي على النّار، حين تلّقى أمراً من المندوب السامي يعلمه فيه بالخطر المحدق بمدينة دمشق. وبهذا انسحب الفرنسيون من الجبل نهائياً"[3].

استطاع حسن مقبعة ورفاقه، بحراسة عصبة حسن الخراط أن يقتلعوا أحجار الجدران الشرقية لقصر العظم وأن ينفذوا إلى داخله، ويهرب المندوب السامي سراي من إحدى نوافذ القصر، ويستشهد حسن المقبعة، ولم يستطيع حرس الجنرال السيطرة على الوضع إلا بإحراق القصر، وهنا انقلب المجاهدون إلى رجال إطفاء.

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 153 حتى 179.

[2] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 189حتّى 248.

[3] - المرجع السابق، ص 249.

وعندما مثلت بضع نساء ثكالى وأرامل أمام القيادة الفرنسية يتوسلن إلـى الجنـرال أن يرفع القصف عن المدينة، أملى الجنرال شروطه ومطالبه، وأحرق خريطة دمشق أمام النّسوة، وكتب المعتمد البريطاني في دمشق بلاغاً إلى الرعايا البرطانيين فيها، جاء فيه:

"نظراً لتردّد الشاميين في إجابة السلطات بدفع الغرامات والأسلحة والـذّخائر المطلوبـة منهم، فإن القيادة ستستأنف قصف المدينة من جديد، فعلى رعايا مملكة صـاحب الجلالـة أن يؤمّوا دار القنصلية البريطانية، مزوّدين بما يكفيهم من القـوّات لمـدّة أسـبوع ومـصحوبين بالأوراق الرسمية التي تثبت تبعيتهم لمملكة صاحب الجلالة ملك بريطانيا والهند والمستعمرات كافة".[1]

وطمأنت وزارة الدفاع الفرنسية شعبها بأنها ستُعيد لهم أبنـاءهم حالمـا تقـضي علـى العصابات الإجرامية في سورية، وأُنيطت قيادة العمليـات بكولونيـل جديـد اسـمه كليمـان غرانكور، وكانت مهمّة قواته ضرب نطاق حول الميدان لكي تمنع تراجع الثوار أو اختفاءهم، وقسّم غرانكور قوّاته إلى قسمين، وأعطى أوامره للمدفعية بحرث المقبرة، وإحـراق الجثـث، وإلقاء القنابل المحرقة، وقد جابه هذه القوات محمد قاديش وأبو النور وحسن الأشمر.

يقول الكاتب مصوّراً ما حدث:

"وأوعز غرانكور إلى المدفعية باستئناف الحرث والقصف والحريق. ثم حُمل إلى قيادته على نقّالة وهو يرفع يده بالتحية (نُفِّذت المهمّة ياسيّدي الجنرال)"[2].

وفيما يبدو لنا أن كل الأحداث السابقة التي ذكرها الكاتب فارس زرزور، كـان البطـل حسن جبل فيها يسترجع ذكرياته، لأنّ الكاتب يصوّر لنا حسن جبل، وقد تنبّـه إلـى صـوت يناديه، ويهنئه بالعودة من الحج، وقد رأى الأعلام والزينات مرفوعة، احتفـالاً بعودتـه مـن الحجّ، وعندما دخل داره تصاعدت الزغاريد.[3]

ترحب بنات حسن جبل بأبيهنّ عند عودته من الحجّ، أما زوجته أسـماء التـي وجـدها تنتظره في البيت فقد كانت حزينة، لأن زوجها أضاع الكيس الكبير الذي يضمّ كل ما اشـتراه الزّوجان من هدايا، أما حسن جبل فقد تذكّر ماضيه، وكيف كاد أن يأسـره الفرنـسيون فـي معركة "جبرين" شرقي الغوطة، وأُلقي القبض على أكثر جماعته، وكيف اشترك لأول مرة في نسف جسر تورا، وكيف انهال الرصاص عليهم عندما توجّهوا مـن قريـة (جرمانـا) إلـى

---

1 - المرجع السابق، ص 253-254.

2 - المرجع السابق، ص 258.

3 - انظر: المرجع السابق، ص 259-260.

(عقربا)، وتذكر كيف دُمِّر (الميدان) بقنابل المدفعيّة، وكيف انتقم الفرنسيّون من أهـالي قريـة (حمورية) لأنهم آووا فريقاً من الثّوار، وتحدّث حسن جبل عن حملة كانت آتية عـن طريـق حمص، كمنوا لها في أراضي دوما، وكيف فُوجئت الحملة بالرصاص وكيف انتقم الفرنـسيون في الصّباح من الأهالي، وأعدموا نصف سكان القرية[1]..

يقول الكاتب مصوّراً أبطال الثورة:

"كان قادة الثورة مجتمعين في مزرعة أبي عجاج قرب المليحة، وكانوا ينتظرون رسولاً سيفد إليهم من الجبل يحمل خطة كاملة لتطهير دمشق من الفرنسيّين. وكان هذا الرسـول هـو (أبو النور) محمد قاديش. وكنت أنا حسن جبل أقف على السطح خفيراً وراصداً للعـدو الـذي يحتمل أن يباغت المزرعة في كل لحظة".[2]

ويصور الكاتب كيف دخل الثوار حماة، وقبضوا على الدّرك والشرطة، وهـاجموا دار الحكومة والسرايا وأحرقوها، وردّوا فرسان العدو بخسائر عظيمة بعد معركة دامـت نـصف ساعة على جسر السرايا، وكيف وصلت طيارات العدو وألقت قذائفها على المدينة، وقد امتنـع الكثير من زعماء حماة وأغنيائها عن القيام بوعودهم وعهودهم.

ويرجع حسن جبل أربعين سنة إلى الوراء، ويتذكّر أمه وقصتها مع الآغا الذي أحـرق البيت وهي في داخله...

يتابع الكاتب سرده للأحداث، فيذكر كيف حشدت السلطة دورياتها للقبض على العاصـي حسن جبل، وكيف تبرع الأغوات بدفع جائزة ثمينة لمن يدلي بمعلومات تؤدّي إلـى القـبض على (المجرم)، ورفض الفلاحين لهذه الجائزة، ويتابع حسن جبل ذكره للأحـداث الماضـية، فيحكي للمهنّئين كيف رأى صديقه قاديش جثّة هامدة، ويخبرهم عن أصدقائه علـي الـدرويش وأبي صطيف والبوم، وشرح لهم تفاصيل الموقعة الأخيرة، واستشهاد رفاقه، وأخبـرهم عـن هربه مع المساجين الثلاثة من سجن القلعة...[3]

في الفصل الثامن عشر والأخير من الرواية، يصور الكاتب حسن جبل، وصـوله إلـى (البوكمال) ثم (القنيطرة) وسؤاله للسائق كيف يصل إلى (الشيخ محي الـدين)، ومـروره فـي طريقه بالنّاس وهم يستعدّون للمسيرة.

يقول الكاتب مصوراً فرحة الناس بالجلاء:

---

[1] - انظر: المرجع السابق: من ص 161حتى 273.

[2] - المرجع السابق: ص 276.

[3] - انظر: المرجع السابق: الصفحات من 277حتّى 318.

"... واتّجه ناحية (ساحة الشهداء). معالم الزّينات قائمة، إنها تغتسل في نشوة صبايا القيظ، تحت أمطار نيسان.

إنها زينات الجلاء.

الجلاء؟ لطالما تحدّث محمد قاديش عن هذا الجلاء الذي لم يمهله العمر ليشعر بفرحته. كان يعمل ليتم الجلاء في البرهة نفسها التي عادا فيها من فلسطين مع جيوش الحلفاء عام 1941. وسقط قاديش من جبل (المانع) ولم ينهض أبداً.."(1)

وكان الرجال في المسيرة يحملون الأعلام ويسيرون تحت المطر هاتفين: المعامل للعمال والأراضي للفلاحين، ويلحق الشيخ حسن بالمسيرة، ويهتف مع الناس.

يصور لنا الكاتب إحساس الشيخ حسن جبل في هذه اللحظة فيقول:

"الشيخ حسن جبل يحس الآن، بأن رفاقه هؤلاء هم كلّ ما يتمناه.. أمام هذه التجربة التي تمرّ في حياته، والتي تمنّيه بأماني لا يدركها.. أو على الأكثر، لا يصدّقها.. إنّه يتمنّى أن يسيروا إلى جواره، ويهتفوا عالياً: المعامل للعمال والأرض للفلاحين. إنّ صحوة الحياة في نفسه، والتنبّه المرهف لما حوله، يجعلانه يحسّ بأنّ هؤلاء الأصدقاء يصيحون معه وفي طريقة عجيبة. ولم يستطع أن يذود عن مخيّلته الفكرة التي تلحّ عليه: "إنّ هذه المسيرة ليست إلا ثمرة ذلك الجهاد الطويل الذي قام به رفاقه، واشترك به هو نفسه، في كلّ مجال من مجالات الحياة: من الثورة، إلى العمل الشاق طوال سنين طويلة..."(2)

يقول الكاتب فارس زرزور في نهاية روايته "حسن جبل":

"ومصمص الحاج حسن لثّته العارية "هل كان يخاطب نفسه؟".. وفي لحظة من اللّحظات، يتلفّت حسن جبل حوله.. فيجد نفسه وحيداً.. يرقى في جهد بالغ طريق "الشيخ محي الدين".. إنه يجرّ قدمه المتورّمة.. مع أوجاعه.. مع خيبته... ويرفع حسن جبل رأسه إلى السماء ليأخذ نفساً عميقاً.. الجو يصحو.. الشمس تشرق.. الأعلام المثقلة بمطر نيسان ترتعش في نشوة.. وكأنها تستفيق.. من نوم عميق.. عميق..".(3)

هذه الرواية "حسن جبل" كأنّها تكملة لرواية "لن تسقط المدينة"، فهنا يتحدّث عن الثّورة السوريّة الكبرى، وعن معركتي "المزرعة والمسيفرة" وهي بالفعل معارك وقعت ضد الفرنسيّين، فهنا شخصيّات تاريخيّة حقيقيّة، وشخصيّات متخيّلة مثلها مثل رواية "لن تسقط

1 - المرجع السابق، ص 346.

2 - المرجع السابق، ص353-354..

3 - المرجع السابق، ص 354-355.

المدينة"، فهناك شخصية "مريم" في رواية "لن تسقط المدينة" متخيلة، ولكنها واقعية، لأنّ كـل المواطنين السوريين وقفوا ضدّ الاحتلال الفرنسي، كما وقفوا سـابقاً كلّهـم ضـدّ الاحـتلال التركيّ، وهنا الشخصيّة الرئيسيّة هي شخصيّة حسن جبل الذي استطاع الفرار من الأسر مـن الفرنسيّين، وتستغرق أحداث الرواية زمناً طويلاً يمتد من الثورة السورية الكبرى عـام 1925 إلى الجلاء عام 1946 في السابع عشر من نيسان، ويصوّر الكاتب فرحة المواطنين بـالجّلاء الذين حصلو عليه بدماء أبنائهم، وهذه الرواية تشبه إلى حد ما رواية "الحرب والسلم"، فهنـاك يصوّر تولستوي بطولات الشعب الروسي ضدّ المحتلّ الفرنسيّ، إذ احتل الفرنسيون موسـكو عام 1812، وهنا يصور فارس زرزور بطولات الشعب العربيّ ضدّ المحتل الفرنسي، وفـي الحالتين خرج المحتل من البلاد التي احتلها ذليلاً مقهوراً بعد أن تكبـد خـسائر فادحـة فـي الأرواح والمادّيات، وبعد أن ألحق بأهلها الضرّر الكبير.

ومن الروايات التاريخية التي كتبها "فارس زرزور"، والتي أرّخ بهـا لنـضال الـشعب السوري ضدّ الفرنسيين، ومعاركهم ومنها معركة ميسلون، رواية "الأشقياء والـسادة"، وهـي رواية حوارية.

رواية "الأشقياء و السادة " لفارس زرزور:

يعرض الكاتب في بداية روايته الحوارية أبطال روايته وهم: السيد، وعبده رئيس حرس السيد، وصطيف مساعد عبده، والمستشار، والشاويش، وحسن وجابر وهما ثائران، وأمّ حسن، وزينب أخت حسن، وممدوح بيك، وخدم السيّد، وصبيّان.

أما فيما يتعلق بأحداث الرّواية الحواريّة، فيصور الكاتب لنا زيـارة المستـشار للبلـدة، ومقابلته للسيّد، والحوار الذي جرى بينهما، يقول المستشار للسيد:

"أريد أيضاً أن أنقل للسيّد جنابكم ولكلّ السادة والوجهاء والمتنفّذين في المنطقـة وكـل المناطق، على حسن نية وطيب قلب سعادة الجنرال المندوب السامي.

وأنا مكلّف بأن أنقل لجنابكم ولكل الذين أقوم بزيارتهم: أنّ القبض على بعض العـصاة الذين اشتركوا بعصيان ميسلون ..، وحملوا السلاح ضدّ جيوش الحلفاء المظفّرة، كانت الغايـة من القبض على هؤلاء هو قمع الفوضى واستتباب الأمن في البلاد".[(1)]

يطمئن السيد المستشار، ويقول له: إنّ البلاد وأهلها وخيراتها كلّها تحت تصرّف أيـدي الجنرال وحكومته، ويخبره بأنّهم متبرّئون من المشاغبين الذين طلعوا على ميـسلون، والـذين يريدون محاربة جيش الأجانب، ويخبر المستشار السيّد بأنّ المندوب الـسامي سـعيد بـسبب

[1] - زرزور، فارس: الاشقياء والسادة، دار النشر ومكان وزمان النشر غير موجودين على الغلاف، ص 10 .

معرفته حقيقة الأوضاع السّائدة في البلدة بمساعدة السيّد، ومعرفته حقيقة موقف الأهالي من انتداب فرنسا العظيمة على سوريّة، كما يخبره بعلمه عن وجود بعض الفلاحين الذين كانوا في ميسلون، واشتركوا بالعصيان المسلح، وعرقلوا وصول جيش الجنرال إلى دمشق، فيرسل السيد عبده ليفتّش البيوت بحثاً عن هؤلاء الفلاحين.[1]

ينتقل الكاتب من الحوار بين المستشار والسيّد إلى الحوار بين زينب وأمّها التي كانت تبكي على ولدها الغائب حسن، وعلى الخروف الذي أخذه منها السيد، مع جميع خراف الضيعة ليذبحها على شرف المستشار، وقد كانت تربّيه لكي تذبحه في عيد الأضحى، وفي هذه الأثناء يدخل حسن ومعه صديقه جابر وهو فلاح من الغوطة الشمالية ومعهما بواريد وخرطوش، ثم يدخل عبده مع جماعته مصوّبين أسلحتهم على أهل البيت، فتخفي زينب السلاح في الدّاخل.

يأتي الشاويش إلى السيّد، فيحكي له السيد عن زيارة المستشار له، وأن المستشار يخشى من ثورة القرويّين، وأن تقضي هذه الثورة على الملاكين وعلى الحكومة بآن واحد[2]، فيقول الشاويش للسيد:

"ولو.. يا حيف، أين نحن عائشون، في روسيا أم في زمن الرّومان؟ لازم يفهم المستشار والمندوب السامي والجّميع أنّ الفلاح الجائع، والذي يظلّ السّوط يقرقع فوق رأسه لا يفكّر بثورة ولا بمورة، يجب أن يفهموا هذا هؤلاء الأرانب.."[3]

ويسأل السّيد الشّاويش عن القضيّة المعروفة بين ممدوح بيك، وبين جابر السليمان الذي هجم على البيك بالمنجل لكي ينقذ أخته، فأطلق عليه البيك ضروباً ستة، ولكنّ جابر هرب، وبينما هما يتحاوران يسمعان صوت المجنونة، فيخبر السيّد الشاويش عن قصّتها، والعالم كلّه لا يعرف إلا أنّ الولد شنق نفسه والمرأة جنّت، وألقت بنفسها في الجبّ، لكنّها لم تمت، فقد سمعا صوتها، فيشير الشاويش بقتل المرأة.

يسأل الشّاويش حسن كيف حصل على السلاح، فيخبره أنه كان ذاهباً ليبحث عن عمل، ووصل إلى دمشق، فرأى المظاهرات التي تطالب النّاس بالذّهاب إلى ميسلون للتصدّي للفرنسيّين، وكانت تهاجم القصر لأنه اتّفق مع الفرنساويين ضدّ الشّعب، والنّاس كانوا يهاجمون الملك لأنه قبل بإنذار الجنرال غورو، ويقبض السيد على حسن وجابر ويضعهما في

---

[1] - انظر المرجع السابق، الصفحات من 11حتى21.

[2] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 21حتى 38.

[3] - المرجع السابق، ص 38.

السجن، ويطلب منهما أن يخبراه عن مكان الأسلحة، فيخبر جابر عبده أنهما طمرا الأسلحة في حفرة في الجبل، وأن هذه الأسلحة من مخلّفات الجيش العربي المندحر، وأنه أقسم مع حسن أغلظ الأيمان أن لا يقوم أيّ منهما منفرداً بإخراج صناديق الأسلحة، وكانت هذه حيلة دبّراها لكي يهربا.

ويقرّر السّيد معاقبة حسن لأنه اشترك بعصيان ميسلون مع المجرمين والقتلة، ولأنه يحمل بندقية.

يقدّم صطيف رجل السيد المساعدة للثّائرين حسن وجابر وهما في السجن، ويساعد زينب لتزورهما في السجن.

يجري حوار بين السيد وممدوح بيك، ويخبر السيد ممدوح بيك أنه سمع حديثاً عن أمور لا تسرّ أبداً[1]، فيجيبه ممدوح بيك:

"يا سيدي الحكاية بحذافيرها: هي أنّه سافر رئيس الوزارة علاء الدين الدروبي ومعه الوزيران عبد الرحمن باشا اليوسف وعطا باشا الأيوبي حتّى يجمعوا الأسلحة والغرامات من النّاس. وفي محطة خربة الغزالة تصدّى القرويّون والعصابات لقافلة الحكومة والوزارة وسلخوا جلودهم عن عظامهم"[2].

يتقرّب السيّد من زينب، فتخبره أن أخيها حسن لا يوافق على زواجها منه إلا عندما يكون حرّاً تماماً، ويستردّ بارودته، ويخبر جابر حسن أنّه سمع الناس في ميسلون يدعون إلى الثورة، وهذا معناه أنّ الثّورة ستندلع ويلتحقان بها، فيجيبه جابر بأنّ هناك جماعة بودّها الالتحاق بثورة هنانو، وجماعة أخرى بودّها الالتحاق بثورة صالح العلي[3].

أما السيد فيعقد اجتماعاً يقول فيه:"اسمعوا يا أخوان إن أردتم.. اجتمعنا اليوم أعضاء مجلس الإدارة المحلية بناءً على طلب السلطة التي أعطتها عصبة الأمم حقّ الانتداب على سورية، وفوّضتها مطلق الصلاحية في تصريف شؤونها والتمتع بجميع حقوقها بهذا التّصريف.. وأحسنت السلطة الاختيار وفضّلت كثيراً من الرّجال الذين هم من أهل البلاد ويتمتّعون بالتبجيل والاحترام بين الأهالي عندما انتخبتهم من أجل إدارة البلاد، ولهم الكلمة المنفذة والباع الطويل كما يقولون في معرفة شؤون البلد".[4]

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 42 حتّى 150.

[2] - المرجع السابق، ص 150.

[3] - انظر: المرجع السابق، ص 208-209.

[4] - المرجع السابق، ص 261.

يهاجم حسن وجابر ومعهما بعض الأهالي قصر السيّد، الذي يهرب، ويقول جـابر: إنّ كلّ هذه الضحايا ذهبت من أجل حضرة السيد رئيس الإدارة المحليّـة.. والسيّد نفسه قد اختفى(1).

يُنهي الكاتب روايته الحوارية بمشهد يصوّر المعلّمة تتحاور مع تلاميذها الصّغار، بعد أن تشرح لهم أنّ أمّها زينب كانت تعمل مع الثّوار، وتشير إلى هيكل أحد القصور، وتقول:

"المعلمة: والآن يا أطفالي الأعزاء سننظر إلى هيكل أحد قصور الإقطاعيّين الذين حكموا آباءكم وأذاقوكم جميع أصناف الذلّ والعبوديّة والهوان. وكانت جميع هذه الأراضي وهذه البساتين والضياع الممتدة على اتساع مائة كيلو متر مربّع ملكه وحده، ووزّعها الإصلاح الزراعي بعدئذ عليكم وعلى آبائكم نتيجة للكفاح والنضال والثورة التي بذلوا دماءهم من أجلها، واستشهد في سبيلها كثير من الرّجال والنّساء أيضاً. انظروا، هذا هو القصر.

طفلة: ولماذا جميع الحيطان مثّقبة والنّوافذ مكسّرة يا آنسة؟

المعلمة: هذه نتيجة الثورة المسلحة التي قام بها الفلاحون يوم اختفاء السيد يا صغيرتي منذ أربعين سنة".(2)

هذه الرواية إلى حد ما تاريخيّة، فمثلاً هي تذكر أسماء شخصيّات حقيقيّة مثل رئيس الوزارة علاء الدين الدروبي، وبالوقت نفسه هي رواية اجتماعيـة لأنهـا تـصوّر الإصلاح الزراعي، وظلم الإقطاع للفلاحين، وحصول الفلاّحين على بعض حقوقهم بفضل الإصلاح الزراعي، الذي وزّع على الفلاحين بعض الأراضي التي كانوا يعملون فيهـا تطبيقـاً لـشعار "الأرض لمن يعمل بها".

لقد تحدّث الرّوائيّ فارس زرزور في روايته " الأشقياء والسّادة" عـن جهـاد فلاحـيّ غوطة دمشق ونضالهم ضدّ المستعمر الفرنسيّ، وذلك من خلال وصـفه لشخـصيّتيّ حـسن وجابر، وتحليل موقفهما من هذا العدوّ، وفي هذه الرّواية يؤكّد الكاتب على فكرة نجدها أيـضاً في روايتيه السّابقتين: "لن تسقط المدينة" و"حسن جبل"، وهي التّصميم على الاسـتمرار فـي النّضال، ويؤكّد هذا الأمر وصفه في بداية روايته "الأشقياء والسّادة" لشخصيّتيّ حسن وجـابر وهما عائدان من معركة ميسلون ومعهما سلاحهما، فهما رفضا تسليم السّلاح، وهـذا يـذكّرنا ببطليّ روايته "لن تسقط المدينة" قاديش والأشمر، فهما أيضاً قد رفضا تسليم أسلحتهما مؤكّدين أنّ مدينتهم لن تسقط.

---

[1] - انظر: المرجع السابق، ص 293.

[2] - المرجع السابق، ص 293.

إنّ الكاتب يصوّر لنا في روايته "الأشقياء والسّادة" معاناة الفلاّحين في غوطة دمشق، وما يعانونه من قمع وتعذيب وظلم على يد الإقطاعيّين، ونجد هذا في وصف الكاتب لشخصيّة السّيد المتواطئ مع المحتلّ الأجنبيّ، وكذلك الإقطاعيّ ممدوح بيك، والإقطاعيّون الذين هم أذنابٌ للمستعمر، يعملون لمصلحته، وينفّذون أوامره، ففي بداية رواية "الأشقياء والسّادة" كان الكاتب يصوّر لنا قدوم المستشار إلى السّيّد الإقطاعيّ، وإبلاغه أوامر المندوب السّامي له بملاحقة رجال الثّورة والقبض عليهم وتجريدهم من سلاحهم.

لقد جعل الكاتب بطليه حسن وجابر يتحرّكان ضمن محيطهم، فهما يقاومان المستعمر وعميله الإقطاعيّ بكل الوسائل المتاحة لهما، وهي وسائل بدائيّة بسيطة، فظروف البطلين السّياسيّة والاجتماعيّة أثّرت في مقاومتهما للمستعمر، ومع أنّ هذه الظّروف كانت صعبة وقاسية على البطلين إلاّ أنّهما صمّما على مواصلة القتال ورفض الخضوع للمستعمر.

وفي نهاية رواية "الأشقياء والسّادة" يصوّر لنا الكاتب مشهداً لمعلّمة وتلاميذها، وهذه المعلّمة هي ابنة زينب، وزينب في روايته هي أخت حسن بطل روايته، وتحدّث هذه المعلّمة تلاميذها عن صدور قانون الإصلاح الزّراعي، وتوزيع الأراضي على أصحابها الفلاّحين.

ومن خلال حديث المعلّمة نستنتج أنّه مرّ أربعون عاماً على الأحداث الّتي يصوّرها الكاتب في روايته هذه، وبذلك يكون الكاتب قد قفز قفزةً زمنيّة طويلة، وصوّر مرحلة تاريخيّة جديدة هي مرحلة ما بعد الاستقلال، وربّما أراد الكاتب بذلك أن يؤكّد على فكرة يؤمن بها وهي أنّ النّضال المستمرّ والمتواصل وتعاون جميع أبناء الشّعب السّوريّ مع بعضهم في مقاومتهم للمستعمر الغاصب، لا بدّ أن يؤدّي إلى النّصر والتّحرّر والاستقلال.

وقد صوّر لنا الكاتب فارس زرزور في روايته "الأشقياء والسّادة" المرأة الواعية الّتي تقف إلى جانب الرّجل في مقاومة المستعمر، من خلال شخصيّة زينب الفلاحة البسيطة.

وما نلاحظه بعد تحليلنا لروايات الكاتب فارس زرزور، وهي "لن تسقط المدينة" و "حسن جبل" و "الأشقياء والسّادة" هو أنّ الكاتب مؤمن بدور الشّعب في نضاله من أجل التّحرّر، كما يجسّد مصالح الفقراء والكادحين في سوريّة وخاصّة الفلاّحين، فقد عرض لنا بصورة صادقة ومؤلمة ما كان يعانيه الفلاّحون من الإقطاع في فترة الاحتلال الأجنبيّ، وربّما تشبه روايته "الأشقياء والسّادة" إلى حدٍّ ما رواية تولستوي "ابنة الآمر" فأبطال روايته وهم حسن وجابر ومعهم زينب يشبهون أبطال رواية "ابنة الآمر" وهم بوغاتشوف ورفاقه في نضالهم ضدّ الامبراطوة يكاترين الثانية التي حكمت روسيا ما بين (1762- 1796) أي أربعة وثلاثين عاماً.

وبرأيي إنّ الكاتب حسن جبل حين يؤكّد على دور الإنسان السّوريّ البسيط والفقير في صنع النّصر والتّحرير، يذكّرنا بأفكار تولستوي في روايته "الحرب والسّلم" فهذا الكاتب الرّوسيّ العظيم كان يؤكّد دائماً أنّ من يصنع التّاريخ والأمجاد هم الأفراد البسيطون العاديّون، وليس القادة والحكّام.

يقول الكاتب الدّكتور فيصل سمّاق مشيراً إلى روايات فارس زرزور التّاريخيّة:

"إنّ اختيار الأبطال من الفلاّحين يكاد يكون السّمة الأساسيّة لأدب فارس زرزور الرّوائيّ فهو يختارهم من الطّبقة الكادحة المسحوقة اجتماعيّاً عبر التّاريخ..، ومن هنا نجد أنّ الكاتب يستهلك قسماً كبيراً من الرّواية في وصف السّجن، والتّعذيب والاضطهاد الإنسانيّ الّذي تعرّض له هؤلاء المقاومون للاحتلال الأجنبيّ. ولعلّ الميزة الأخرى الّتي يجب أن نسجّلها للكاتب هي تصوير المرأة في الدّور الإيجابيّ الّذي تستحقّه".[1]

ولا بدّ من الإشارة أخيراً إلى أنّ الكاتب فارس زرزور كتب روايات أخرى غير الّتي أشرنا إليها فيما سبق، وفي هذه الرّوايات يجسّد مصالح الفلاحين ويتحدّث عن ظلم الإقطاع لهم، وربّما يكون سبب اهتمام الكاتب زرزور بهذه المواضيع في رواياته هو أنّ الكاتب عاش حياته في الرّيف، وشاهد بنفسه ظلم الإقطاع وبؤس الفلاّحين، ومن رواياته هذه: "الحفاة وخفّي حنين"، و"المذنبون"، و"معارك الحريّة في سوريّة".

من خلال دراستنا السّابقة لروايات فارس زرزور الواقعيّة الثلاث، والتي تحدّث فيها عن التّاريخ المعاصر عندما وقف عند فترة النضال المسلح ضدّ المستعمر الفرنسي (1920 - 1927) نجد أن الكاتب فارس زرزور قد اتّخذ السّيرة شكلاً لروايته "حسن جبل"، وقد كان دافعه في ذلك الوفاء لشخص شارك في الثّورة السّورية الكبرى، لأنّ التّاريخ الرسميّ لم يسجّل هذه المشاركة، وحاول الكاتب في روايته تصوير مواجهة الاستعمار والحياة الشعبيّة في أثناء الاحتلال، فكان له الفضل في إبراز هذه المرحلة التّاريخيّة، وقد أحسن الكاتب صوغ روايته فنيّاً، بالإضافة إلى أنّه اتّسم بحسّ تاريخيّ واضح جعله يربط بين صاحب السّيرة حسن جبل والحدث العام دون أن يؤثّر ذلك في إبراز الكاتب شخصيّة البطل حسن جبل وعفويّة تجاربه.

ونشير هنا إلى ما قاله النّاقد سمر روحي الفيصل، وهو أنّ شخصيّة حسن جبل ليست منتقاة من الواقع التّاريخي الحقيقيّ للثورة السّوريّة الكبرى وحسب، وإنّما هي قريبة جدّاً من الرّوائي فارس زرزور نفسه، فالبطل حسن جبل هو والد زوجة فارس زرزور، فقد أشار

---

[1] - سماق، فيصل: الواقعية في الرواية السورية، دار البعث الجديدة، ط1، 1979، ص 101- 102.

النّاقد سمر الفيصل إلى قول المؤلّف فارس زرزور عام 1966 الذي أثبته في هامش الصفحة (159) من كتابه الذي درس فيه تجربة الرّواية السّوريّة، فكتب: "وقد قال المؤلّف عام 1966 إن حسن جبل اسم شخص مازال حيّا يرزق. إنه صورة حيّة لكفاحنا الوطنيّ والاجتماعي، يلخّص تاريخ فترة كاملة من تاريخ بلادنا، الفترة التي كافحنا فيها لطرد المستمر الفرنسيّ، وتابعنا كفاحنا لتفجير الثورة الاشتراكية"(1)

وقد أشار النّاقد إلى المرجع الذي أخذ منه القول السّابق، وهو (صحيفة البعث-عدد آذار) وذلك في هامش الصفحة نفسها (159)، ونذكر هنا ما قاله النّاقد سمر الفيصل عن رواية "حسن جبل":

"ولا تخلو الرّواية من شخصيّات أخرى التقطها فارس زرزور من الواقع الحقيقي للثورة، كمحمد قاديش الذي كان بطلا لرواية "لن تسقط المدينة"، واستمرّ في هذه الرّواية يقاوم الفرنسيين كما قاومهم في ميسلون0

والرّواية على أيّة حال تاريخيّة تحاول تصوير القائمين الحقيقيّين بالثّورة السوريّة الكبرى عام 1925، كحسن جبل ومحمد قاديش ومحمد الأشمر وحسن المقبعة وغيرهم. أو إنّها –بتعبير أخر- تريد القول إنّ الثّورة على الفرنسيين-وهي ثورة تحرريّة- قامت على أكتاف الشعب، دون أن تهمل دور البرجوازية الوطنيّة فيها".(2)

كما يذكر النّاقد أن القسم الأوّل من رواية "حسن جبل" الذي ركّز فيه الكاتب فارس زرزور على شخصيتيّ حسن جبل ومحمد قاديش يصوّر بجديّة رجلاً من عامة الشّعب، فيه الرجولة والحماسة، وفيه ذلك القدر العفوي من الوعي الوطني، غير أنّ الرّواية تجعل مشاركة حسن جبل في الثّورة طبيعيّة، وليست نتيجة وعي خاصّ منه، لأن الذين حاكموه وأعانوا الآغا عليه هم أنفسهم الذين يحتلّون بلاده، كما تقع الرّواية في قسمها الثاني في مطبّ "الشعاريّة"، كما يذكر النّاقد، لأنّها تجعل حسن جبل يحاكم الأمور ويفلسفها، وحين ينخرط في المسيرة وينادي مع المنادين "المعامل للعمال، والأرض للفلاحين"، وعلى أيّة حال –كما يقول النّاقد سمر الفيصل –يبقى حسن جبل رجلاً وطنياً أدّى مهمته خير أداء، ،فسلّم الرسالة، واشترى للثوار بنادق باللّيرات الذهبيّة الخمسين، وشارك في الثّورة إلى جانب الآخرين. وقد عرض المؤلّف من خلال هذه المشاركة بساطة أدوات الثورة إلى جانب حماسة رجالاتها، وضعف التّخطيط الحربيّ إلى جانب شجاعة واندفاع الرجال في قتال عدّوهم، كما يشير النّاقد إلى

---

1 - الفيصل، سمر روحي: تجربة الرّواية السوريّة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1 1985، ص 159.

2 - المرجع السابق نفسه، ص 159.

طبيعة المرحلة التاريخيّة التي تتحدث عنها الرّواية، وهي أنّ عفوية العربي السوري وأصالته كانت تأبى عليه الرّكون إلى المحتلّ وفي يده سلاح مهما يكن بسيطاً وبدائيّاً، كما تلتزم الرواية الصّدق في نقل واقعها إلى القارئ[1]

كما يقول النّاقد سمر روحي الفيصل: إنّ القسم الثّاني من رواية "حسن جبل" المعنون "بالحاج" يختلف كثيراً في تقنيّته وحوادثه عن القسم الأوّل، فقد قفز المؤلّف أربعين سنة إلى الأمام، بحيث جعل حسن جبل يعود من الحجّ وهو يفكر في ضياع زوجته الثّالثة أسماء. وفي أثناء تداعياته وخواطره ونجواه الذّاتيّة يستعيد صور الثّورة منذ وصوله إلى دمشق، وهذا القسم لا يكتفي بالقفزة الزمنيّة الكبيرة التي يريد الرّوائي من ورائها تصوير المناضل حسن جبل بعد الاستقلال، وإنّما يكاد يجعل شخصيّته ذات وعي كافٍ بالمرحلة التي مر بها0 فقد كان حسن جبل قبل انخراطه في الثّورة عامل بناء فقير، ومازال على هذا الحال بعد الثورة والاستقلال. العامل الذي فقد ابنه العامل دون أن يعزّيه أحد فيه، أو يلتفت إليه00

كما يذكر الناقد أنّ الرّوائي فارس زرزور حين يعلن مسيرة التأميم يريد القول إنّ الثورة ليست أمل العمال والفلاحين فحسب، وإنّما هي أمل المناضلين القدامى الذين شاركوا في صنع الاستقلال حين ثاروا على المستعمر الفرنسي. يقول الناقد سمر روحي الفيصل مشيرا إلى رواية "حسن جبل":

"إنّ ميزة رواية حسن جبل بالدرجة الأولى ربطها الطّابع الشخصيّ – السيري بالحدث العام (الثورة السوريّة الكبرى) عن طريق توضيح الجذر الاجتماعي لهذه الثورة0 غير أنّ تأثيرات الحدث العام في الشخصيّة لا وجود له في الرّواية ،وهذه نقطة من نقاط ضعفها. لأنّ التأثير متبادل بين الشخصيّة التي تجسّد المصير الشعبيّ وبين الحدث الشعبي نفسه، أعني: ارتباط صاحب السيّرة بحياة عصره، وتأثير الحياة فيه. وقد فات الرّواية الالتفات إلى تأثير الثورة في حسن، ومحافظتها على شخصيّته من خلال تنميتها، مما جعلها ضعيفة في الوصول إلى القارئ. وهذا كلّه لا يمنع من وجود سمات واقعية واضحة فيها. فقد أبرزت الملامح الشعبية، وكشفت الجذر الاجتماعي للثّورة السّورية الكبرى ... صحيح أنها لم تستطيع نمذجة بطلها الشعبي تبعاً لارتباطها بالسّيرة الحقيقيّة، ولكنها استطاعت إعلان صفات ذات شأن في البطل الإيجابي، كالمزج بين الهم العام والخاص، وعفوية السلوك الروائي وبساطته".[2]

---

[1] انظر: المرجع السّابق، ص 160 ، ص 161.

[2] المرجع السابق، ص 162

كما يشير الناقد سمر الفيصل إلى مساهمة العاملين(من أصل فلاحي) حسن جبل ومحمد قاديش في الثورة العربية الكبرى، ومساهمة أهالي قرية "العبادة" التي اتّخذ محمد قاديش من صخور لجاتها ملجأ أو نقطة اتّصال بين الثّوار ،ثم مساهمة حسن الخراط ابن حي الشاغور بدمشق، ومحمد الأشمر وعلي درويش وحسن المقبعة في الثورة نفسها، وقد وردت هذه المساهمات من خلال سيرة حسن جبل، وهي تدل كما يقول الناقد نقلا عما كتبه د. حسام الخطيب في (مجلة المعرفة، العدد56-تشرين الأول 1966-ص124) على أنّ "الثورة السورية- كسائر ثّورات التحرّير في هذا العصر-كانت من صنع أبناء الشعب من العمال والفلاحين، وإذا كانت طبيعة المرحلة الاجتماعية في الأقطار الرازحة تحت الاستعمار تفسح مجال استغلال هذه الثورات من قبل الطبقات ذات المصالح المغايرة للشعب، وقيادتها وتوجيهها بحيث تخدم البرجوازية، فإن ذلك يجب أن لا يكون وسيلة لدفع الثّورات أو التغاضي عن لحمتها وسداها الحقيقيتين "[1]

كما يذكر الناقد أنّنا في سيرة "حسن جبل"، أمام حركة ماديّة للمجتمع، حركة لم يسجلها التاريخ الرسمي، حركة الذين "تحت"في وجه الذين "فوق". حركة ذات طابع شعبي - تاريخي، وهذا يعني أنّ الطّابع الشّعبي -التّاريخي ذو خصوصية معينة في الرواية التاريخية السورية، وذلك حين تهتم هذه الرواية بحياة الناس في فترة تاريخيّة محددّة: توضّح لنا مصائرهم وتسمعنا صوتهم وتنقل إلينا روح مجتمعهم كما يشير الناقد إلى أن هذا الطّابع الشعبي- التّاريخي ذو اتّجاه إنساني بسبب مساندة الأهالي للثّوار، وهذا ما يجعله يختلف عن التاريخ الرسمي كما تطرحه بعض الراويات التاريخية الأخرى، كروايات معروف الارناؤوط.[2]

ممّا سبق نرى أنّ موضوع روايات فارس زرزور الأساسي هو مقاومة الشعب العربي للاحتلال الأجنبي، وبذلك فإنّ هذه الرّوايات تشبه من حيثُ الموضوع الرويات التاريخية الرّوسيّة، فالموضوع الأساسي لرواية "الحرب والسلم" هو مقاومة الشعب الروسي للاحتلال الفرنسي، وكذلك الموضوع الأساسي للروايات الروسيّة التاريخية التي تناولت الحرب العالمية الثانية هو مقاومة الشعب الروسيّ للاحتلال الألماني.

[1] - انظر: المرجع السابق، ص 185، ص 186.

[2] انظر: المرجع السابق، ص 187، ص 188، ص 190.

رواية "أبو صابر" للكاتب سلامة عبيد:

من الروايات التّاريخيّة السوريّة التي تحدّثت عن فترة النضال، ومقاومة الشعب السوري للاحتلال الفرنسي في القرن العشرين، رواية أبو صابر (الثّائر المنسيّ مرّتين) للكاتب سلامة عبيد، والتي يصوّر فيها الكاتب الفترة ما بعد معركة ميسلون، ويتحدّث خاصّة عن حياة البطل أبي صابر الذي يقول الكاتب سلامة عبيد عنه في مقدمة روايته: "أبو صابر... بطل من بقايا السّيوف لا يزال حيّاً، قصّة حياته أسطورة إباء وإيمان...

كان يتكلّم، وكنت أسجّل حديثه يوماً بعد يوم.. تكاد تكون كلمات هذه القصّة كلماته بنصّها والصوّر صوره بألوانها وأبعادها. لو كنت قصاصاً لأبدعت له نهاية غير تلك النّهاية ولكنّي كتبت هنا ما سمعت وما رأيت.." [1]

وفيما يأتي سنحاول إبراز أهمّ أحداث هذه الرّواية التي تتحدّث عن حمد ذياب "أبو صابر" الذي تطوّع في الجيش الفرنسيّ، وأدرك بنظرته السّليمة معنى الاستعمار فتمرّد عليه، وانضمّ إلى ثوّار جبل العرب، واستبسل في معارك الجبل والغوطتين، ثم اعتقل وعُذّب ونُفي إلى أمريكا الجنوبيّة، ثم تمكّن من العودة إلى وطنه..

كان حمد مصمّماً على أن يكون جنديّاً، فترك بيت أهله، والتحق بالخدمة العسكريّة. يقول الكاتب:

"لم يكن حمد ذياب جندياً نظاميّاً في كتائب جيش الشّرق الذي بدأت فرنسا بتشكيله في سوريّة عقب ميسلون، والذي كان يضمّ عدداً كبيراً من الشّباب السّوريين واللبنانيين العاطلين عن العمل والذين خرّبت بيوتهم المجاعات والحروب والمصادرات أو الذين تستهويهم الحياة العسكريّة، فقد كان صغير السنّ لا يستطيع تحمل أعباء الجنديّة الشّاقّة لذلك أُلحق بكتيبة التموين وخصّصت له عربة يجرّها زوج من البغال الضخمة."[2]

يقرّر قائد معسكر المتطوّعين أن تنطلق قافلة التموين صباحاً إلى بيروت لنقل الأرزاق، وكان المتطوّعون شبّاناً فقراء، أميين، ويحدّث الكاربوال محمود صديقه حمد عن ذكرياته في ميسلون، وهروب الملك فيصل باتّجاه فلسطين عند قدوم الجيش لاحتلال الشّام، وانتهاء المقاومة مع مقتل وزير حربيّة الملك، وتأخّر الفرنساويين سنة كاملة بعد ميسلون قبل أن يرفعوا علمهم فوق قلعة السّويداء، وعندما يصل المتطوّعون إلى الثّكنة يأمر السّرجان حمد بحمل برميل نبيذ، فيرفض حمد ذلك، ويشهر خنجره على السّرجان، فحكم عليه بالسّجن لمدّة

---

[1] -عبيد، سلامة: أبو صابر (الثائر المنسيّ مرّتين)، وزارة الثقافة، دمشق 1971، ص 3.

[2] - المرجع السّابق نفسه، ص 17.

سنة، ثم أُفرج عنه بعد عفو عام، فسار حمد في سهول بيروت، ثم نُقِل الجنود إلى درعا، وفي السّويداء عرف حمد أنّ أهل السّويداء نقلوا عائلاتهم ومواشيهم إلى الجبال بعيداً عن خطّ النّار، ثّم يقابل حمد والده الذي يحدّثه عن قصّة الثورة في الكفر والمزرعة والغوطة، وعن الخيانة في المسيفرة والقتلى والجرحى، وموت ولده حمّود، ويودّع حمد أمّه، ويذهب للدّفاع عن السّويداء ، وتشتعل النيّران في قمم جبال حوران فالحرب قد بدأت، وكانت خسائر حملة عِرى- رساس كبيرة، وشجاعة الثّوار الذين لاحقوها لا توصف، وثبت الثوار في مواقعهم، وغنموا مدفعاً من عدّوهم، وحُوصر الثّوار وتراجعوا، أمّا حمد فقد صمّم على أن لا ينسحب، ودخلت قوّات العدّو القلعة، وخيّم جوّ من الكآبة ومرارة الهزيمة على المدينة الخالية[1]........

يقول الكاتب واصفاً ما حدث بعد سقوط السّويداء:

"كان الخامس والعشرون من نيسان 1926 ذروة النّضال الثّوري المسلّح، فقد كان لسقوط السّويداء والخسائر المتلاحقة بين رجال الحرب، وللدعاية الانهزاميّة يروّجها العملاء، وللشّهور العشرة من القتال الضّاري غير المتكافئ، ولحصر الثّورة في الغوطة والجبل، كان كلّ ذلك، وغير ذلك كافياً لتحويل المعارك الحربيّة المقبلة إلى حروب عصابات تُغير وتختفي، تضرب ولا تسمح للقوّات النظامية أن تضربها..

كان همّ الثّوار الأوّل أن يبتعدوا بعائلاتهم عن الحملات العسكريّة التي ستنطلق من السّويداء باتّجاه الشّمال والجنوب.... فكانت اللّجاة، المنطقة الصخريّة الواسعة التي يستحيل على الآليات أن تعمل فيها....".[2]

يتابع الكاتب في وصف الأحداث، فيذكر أنّه في الرّابع من حزيران سقطت قلعة صلخد تحت ضربات مدفعيّة العدّو الزّاحف، والتحق حمد بالثّوار المعتصمين باللّجاة بعد استشهاد الفارس عادل النكدي، وفي قرية أبو زريق فاجأت قطعة من الجيش (البارتيزان) بعض الثّوار وقتلت منهم وشرّدت الباقين.. وفي قميصا، هزم الثوار العسكر والبارتيزان، وفي الصوخر هاجم البارتيزان الباشا سلطان وكادوا يأسرونه، وقُتل الكابورال محمود الجزائري الذي التحق بالثورة..، وفي مطلع ربيع 1927 لم تشهد شعاب الجبل غير عصابة حمد ذياب الفارّ من الجيش مع ثلاثة من رفاقه، ثمّ يُجرح حمد، ويقف في المحكمة العسكرية ثابت الجأش، ويُحكم بإعدام يخفف إلى عشرين سنة نفي وعشرين سنة أشغال شاقة، ويُنقل إلى سجون مرسيليا هو ورفاقه، ثمّ يبعث رسالة إلى أمّه يخبرها فيها كيف نُقل بالبحر إلى فرنسا ثمّ نُقِل إلى الغويان

---

[1] - انظر المرجع السّابق، الصفحات من 21 حتى 52.

[2] - المرجع السّابق، ص 53.

في أميركا، وأخذ يعمل في قطع الأخشاب ونقلها مع السّجناء الآخرين، ويسأله العريف عن بلاده، فيخبره أنّه من سوريّا من بلاد الشّام، ويُنقل حمد إلى المستشفى بعد أن سقطت الشّجرة على ساقه، ويتعرّف إلى عدد من السّجناء، وعندما تماثل للشفاء أُعيد من جديد إلى السّجن، وكان يتوق إلى أن يلتقي بابن بلدته يونس أنيس جربوع الذي كان يعرف أنّه في سجون الغويان الواسعة، ويتوق إلى التعرّف إلى حسين العاقل من قرية المجدل، وفريد عزّ الدّين من قرية السّجن المطلّة على المزرعة والسّويداء، ويلتقي بيونس، بعد ذلك يُعفى حمد مؤقتاً من الأشغال الشّاقة في الأحراش ويكلّف بمهمّة فتح الأبواب في مهاجع السّجون، وأصبح لقبه الجديد (بورت كلاي) أي حامل المفاتيح، وقد عرّفته مهمّته الجديدة بعدد آخر من المعتقلين من بلاد الشّرق ومن أفريقيا، ثمّ يموت صديقه يونس، ويُعاد حمد إلى عمله المرهق في الغابات، وبعد تسعة أعوام من الأشغال الشّاقة أُبلغ بأنّه سيكلّف بمهمة حامل المفاتيح نظراً لحسن سلوكه في السجن، لكنه طلب الالتحاق بورشة بسبب سأمه من عمله السّابق، ثم بدأت قوافل السّجناء تستقبل الحاكم الجديد مسيو شينال، الذي راح يصافح السّجناء، ويسألهم عن بلادهم وأسمائهم، ويجيبه حمد بأنّه حمد عبّاس ذياب من السّويداء في سورية، محكوم بعشرين سنة أشغال شاقة ومثلها نفي، وأنّه قضى منها حتّى الآن ما يقرب من أربع عشرة سنة، ويخبر حمد الحاكم الجديد عن معاناة السّجناء ومعاملتهم السّيئة، فاستدعي حمد لمقابلة مدير المركز الذي أمر بنقل حمد إلى غرفة منفردة، وهناك يحاول حمد الانتحار بمادة الغريزيل، ويُنقل إلى المستوصف، ويشرف الحاكم بنفسه على التحقيق في الحادثة، وتجلس ابنة الحاكم بجانب سرير حمد وتحاول إنقاذه[1].

يقول الكاتب واصفاً ما حدث بعد محاولة حمد الانتحار:

"عندما خرج من المستشفى استدعاه الحاكم وأكّد له أنّه طلب من رؤسائه في باريس صلاحية لمنح عفو عام عن المساجين القدامى وتخفيض مدّة المساجين الجدد.

ولا تزال أمّ حمود تذكر أيضاً أنّ ولدها كان شديد الثّقة بالله في أنّ العفو سيصدر، وأنّ العودة إلى الوطن بحول الله قريبة...

وتضيف أمّ حمود أنّها أرسلت إليه رسالتين واحدة باسمها والثّانية باسم سلمان، إلاّ أنّ حمد أكّد لها عندما عاد بأنّه لم يتلق أية رسالة طوال سبع سنوات، فقد وقعت الحرب العالمية

[1] انظر: المرجع السّابق ، الصفحات من 55 حتّى 127.

الثّانية خلال تلك المدّة، وانقطعت أخباره انقطاعاً تاماً حتى كادت أمّه أن تصدق الشائعات القوية التي راجت عن قومه، ولم يبقَ في السّويداء من يعتقد بعودة حمد إلا هي...."[1]

بعد ذلك يُبلّغ حمد مع عدد من رفاقه بإعفائه من السّنوات الخمس الباقية من مدّة حكمه، وأنّه يستطيع أن يقضي مدّة منفاه في الجزيرة، وأُعطي بذلة مدنية أحسّ معها أنّه استعاد إنسانيّته، ويصل حمد إلى الساحة العامة في بلاد الزنوج ويهتدي إلى مطعم محفوظ، وهو واحد من بلاد حمد اسمه حسين محفوظ من رجال ثورة إبراهيم هنانو، وينصح محفوظ حمد بأن يوفّر كلّ يوم بضع فرنكات ويجمعها أجرة الطريق ليعود إلى وطنه وأمّه، ووعده بتأمين عمل له، فشكره حمد، ثم عمل في المطار ما يقرب من سنة، ثمّ عمل بنقل الأخشاب فوق مياه الأنهار مع زميل له من بعلبك وهو محمد عيد عبد الكريم.[2]

وفي يوم من الأيام بينما كان حمد يُواصل عمله المضني وهو جرّ الأخشاب إلى الشاطئ فوق طوّافته، جاءه محفوظ وعانقه وأخبره بصدور عفو عام، وأكّد مدير البوليس لهم أنّهم لا يستطيعون مغادرة البلاد دون تأشيرة خروج من القنصل، ومن ثم فإن أجرة الطّريق يتحملها المسافر نفسه. يقول الكاتب مصوّراً هذا الحدث المفاجئ:

"من أين لسورية قنصلية في الغويان؟ ولما لم يمضِ على استقلالها بضعة شهور.

أما أجرة السّفر فأمر أقل صعوبة وإن كان العفو مفاجأة لم يتوقعها أحد حتى حسين محفوظ نفسه، ما أشدّ مرارة تلك الليالي التي قضاها حسين وحمد ورفاقهما في انتظار حلّ لتلك المشكلة، ما أشدّ قسوتها، غريق على شاطئ البحر يتحسس صخرة النجاة ولكنه لا يستطيع أن يجد موضعاً ليده فيها.....

فتح مدير البوليس كفّه وقبّض أربعة آلاف فرنك...أجرة عامل كاملة لمائة يوم، ومدّ المنفيون العائدون المحظوظون يد المساعدة والمعونة بسخاء وشهامة إلى رفاقهم المعوزين...

وأقبلت الباخرة تتهادى... ما أجملها!.. ما أعظمها! قد تكون هي نفسها التي حملتهم إلى المنافي.. قد تكون هي نفسها التي كانوا يسخّرون لتفريغها من البضائع والأبقار، ومع ذلك فقد بدت في أعينهم اليوم في غاية الجمال والعظمة والرّوعة.... إنها تكاد تضحك لهم، تكاد ترقص...

---

[1] المرجع السّابق، ص 129.

[2] - انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 131 حتى 142.

هل يصدّقون حوّاسهم بأنّ الطّوافات تحملهم إليها أحراراً بعد عبوديّة وعـذاب رهيبين طوال عشرين إلى خمسة وعشرين عاماً؟! وبأنّهم يخرجون أحياء من مدينة قايين حفّارة قبور الغرباء ومن الغابات الرهيبة....

كانوا يؤمنون وظلّوا يؤمنون بأنّهم عائدون... عائدون إلى الوطن"[1].

وكان حمد وهو على ظهر الباخرة يتذكّر المنافي والأدغال، وكان يحلم بأنّه ينطلق نحو الحريّة، نحو السعادة، ووصل مع رفاقة الخمسة إلى ميناء مرسيليا، وهـم: حسين محفـوظ ورشيد العلي من شمال سوريّة ومحمد عيد عبد الكريم من بعلبك، وأحمد فلاح مـن درعـا، وأرتين الأرمني الأصل الذي لا يرغب في العودة إلى سوريّة بل إنّه يفضّل البقاء في فرنـسا، فقد قُتل أبوه في المذابح التركيّة الأرمنيّة، وماتت أمّه في حلب وهي تنتظر عودة ولدها الوحيد بلا جدوى، فلماذا يعود إلى سورية ولا أهل له.. ولا وطن.

وفي المطعم في مرسيليا التقوا بفتى جزائري أخبرهم بأنّ المطعم مفتوح لهم ليلاً نهـاراً على حساب الجالية المغربيّة في مرسيليا، وذات يوم قدّم إليهم الشّاب خمس بطاقات سفر مـن مرسيليا إلى باريس بالقطار مع كتاب توصية وبطاقة بعنوان أحد الأصدقاء العـرب المغاربـة في باريس، ووصلوا إلى باريس، ودلّهم السائق على ملهى "بار عمروش" الـذي يقـصدونه، وهناك طلب منهم الرجل الذي قرأ الرسالة التي يحملونها أن ينتظـروا فـي الفنـدق الـساعة التاسعة صباحاً لتوصلهم السّيارة إلى القنصليّة اللبنانيّة، وقـابلوا القنـصل، وعـاملهم بلطـف وعرف منهم أسماء المنفيين والسّجناء من أبناء المشرق العربي، الأمـوات مـنهم والأحيـاء، وأنجز لهم معاملاتهم، ورجاهم أن يقبلوا سبعة آلاف فرنك كمساعدة تمكّنهم من الوصول إلـى الوطن، وأن يقبلوا أيضاً أجرة الباخرة، وبعد ذلك استقلّوا أوّل باخرة نحو الشّرق...

وفي اليوم التّالي كان أحد مرافقي فيصل الثّاني ملك العراق يحـدّث جلالتـه أنّ بـين الرّكاب بعض المنفيين السّوريين يروون لرفاقهم عجائب وغرائب أسفارهم وسجونهم ومنافيهم ومجاهل بلاد الغويان القادمين منها، فطلب منه الملك أن يستدعهم لكي يسلّوه[2].

في الفصل الخامس عشر والأخير من رواية "أبو صابر" يصوّر الكاتـب شـعور أبـي صابر وهو عائد إلى وطنه، وكانت ضلوعه المهشّمة، وسـاقه الكـسيرة، وشـيبه، ووجهـه

[1] - المرجع السابق، ص 146، ص 147.

[2] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 149 حتى 169.

المغضّن الشاحب والسّعال الجاف المتقطّع، كانت كلّها تذكارات مادّية لربع قرن من الرّقّ والإرهاق[1].

ويصل حمد إلى دمشق، ويسأل عن موقف سيّارات السّويداء، وهو في السّيّارة راح يتذكّر رفاق الأمس، بينما راحت أبصار المسافرين تتفحّص وجهه العابس، فاستدعاه العريف إلى المخفر، وأخبر رئيس المخفر باسمه، وبأنّه كان محكوماً بالأشغال الشّاقّة، وأنّه صدر عفو وعاد إلى بلاده، وعاد إلى السّيارة التي أوصلته إلى مدينته السّويداء، وفي السّاحة العامة تفرس الحارس في وجه حمد الذي اجتاز حي المشنقة إلى مطخ قصر نجمة، ثم وصل إلى بيته، وتوقف أمام بوابته الخشبية المتهالكة، وقرعها بعصاه، وفتحت له أمه البوابة ثم ارتمى في عناق صامت على الوجه المغضن الملتفع بمنديل أبيض سميك[2].

يقول الكاتب سلامة عبيد مصوراً فرحة أهل الحي بعودة حمد ذياب:

"غصّت دار ذياب بالنّاس، شيوخاً وشباباً ونسوة، حتّى الأولاد كانوا يتجمعّون فوق السّطوح المطلّة أو يمدون رؤوسهم الصغيرة من خلال البوابة وهم يتهامسون أو يتدافعون، وفاحت رائحة القهوة والهال، وتردّدت أصداء المهباج الطّروب في الحيّ الذي بدا في شبه عيد أو مهرجان، وأشعلت نيران الزّينة فوق السطح وراح الشباب يهزجون في أضوائها المتراقصة الخافتة حيناً واللاهبة أحياناً، وهم يردّدون على ألحان المجوز والشبابة:

عالمزرعة يا شبابي   تلاقي حمد ذيابي"[3]

أما حمد فكان يبدو نشيطاً مرحاً، يردّ على أسئلة الجميع، ويحدّث الجميع بكلّ بشاشة وانطلاق. ويصف لنا الكاتب حمد وهو يستمع إلى أحاديث رفاقه عن الثورة قائلاً:

"وكان يستمع بشغف وشوق إلى أحاديث رفاقه القدامى عن الثورة وما بعد الثّورة، عن الكفاح المستمرّ العنيد في سبيل الوحدة والاستقلال، وعن معاهدة 1936 وعن عودة المجاهدين من الصّحراء بعد اثني عشر عاماً من الغياب وعن الحرب العالميّة الثّانية ومعارك 1945 الرائعة، البطولية التي أدت إلى الجلاء..."[4].

---

1 - انظر: المرجع السابق، ص 170، ص 171.

2 - انظر: المرجع السابق، الصفحات 172 حتى 183.

3 - المرجع السابق، ص 185.

4 - المرجع السابق، ص 185، ص 186.

وحدّثت النسوة أم حمّود عن ضرورة زواج حمد، فتذكرت أم حمّود عروس حمد التي انتظرته عامين كاملين، وتذكّرت أنها شاهدتها في السنة الماضية في (البلخي) مع ابنة لها في الخامسة عشرة من العمر..

ووافق حمد على فكرة الزّواج، وأمّن له بعض المتنفذين في الدّولة وظيفة آذن، يحمل الأغراض إلى الستّ زوجة رئيسه الجديد، ووُلد له مولود غلام أسماه صابراً[1].

تلك قصة "أبو صابر" الذي عاش في أدغال غويانا جائعاً، ربع قرن، ولكن بقي في أعماق نفسه من العزيمة والرّجولة ما مكّنه من العودة إلى وطنه، وممارسة عمله إنساناً بين النّاس، وقد اقتصر فيها الأديب سلامة عبيد على دور المؤرّخ الأمين، ولكن التّاريخ الذي سرده كان قطعة فنيّة ربطتنا بأبطال وطننا وبناته.

هذه الرّواية من أجمل الرّوايات التّاريخية لمؤلّفها سلامة عبيد الذي لم يُدرس دراسة كافية من قبل النقّاد، وعندما نقرأ أسماء أبطال الرّواية نحسّ بأنّها حقيقيّة وليست من صنع خيال المؤلّف، فقدّم لنا شخصيّة وطنيّة هي شخصية (أبو صابر) الذي ناضل ضد الاستعمار الفرنسي، وكاد أن يستشهد، ولكنه بعد ذلك عاد إلى وطنه وتزوّج، وعمل مستخدماً، وهي وظيفة متواضعة، ولكنّها تدل على أصالة هذه الشخصية، وبالتالي فإن هذه الرواية فيها بعد تاريخي تصوّر أوضاع النّاس البسطاء زمن الاحتلال الفرنسيّ، وتتحدّث عن معاهدة عام 1936م بين فرنسا وسوريّة، ولها بعد اجتماعي إذ تتحدّث عن إنسان فقير من (حي المشنقة) في السّويداء، عاش فترة طويلة في المنفى، ولم يتلقَّ أية مساعدة من أهله لأنّ أهله هم الذين بحاجة للمساعدة، وهناك في هذه الرّواية بعد نفسي، فهو يصف الباخرة التي تعود إلى الوطن بأنّها باخرة جميلة وليس ذلك لأنّ الباخرة هي فعلاً جميلة، وإنما لأنه مسرور بعودته إلى الوطن، فيرى الأشياء جميلة.

هذه الرواية تصور صراع الشعب العربيّ ضد المحتل. وهو صراع مشروع ويشبه صراع الشعب الرّوسي ضد المحتل الألماني.

وبذلك نجد شبهاً كبيراً بين الرويات التاريخية العربية، والرويات التاريخية الرّوسية، فهي تتناول حقبة تاريخية من تاريخ الشعب، وهي حقبة الاحتلال، والشبه الآخر أنّ هذه الرويات تتناول شخصيات حقيقية، ولكن ليس كلّ الشخصيات تاريخية فهناك شخصيات متخيلة.

[1] -انظر: المرجع السابق، ص 186- 187- 188.

خاتمة الفصل الثاني:

إنّ الرّواية التاريخية الرّوسية أكثر نضوجاً وتطوّراً من الرّواية التّاريخية العربية، كما أنّ مقدرة الكاتب الرّوسي في تصوير الأحداث سواءً أكان حقيقية أو متخيلّة، تفوق مقدرة الكاتب العربي في رواياته التاريخية، يُضاف إلى ذلك أنّ الرواية التاريخية الرّوسيّة تجعل قارئها ينسى أنّه يقرأ رواية تاريخيّة ذلك لأنّ كاتبها قد جمع في روايته التاريخية، التاريخ والفلسفة والأدب والفنّ، وهذا ما لمسناه عند تناولنا رواية "الحرب والسلم" (1863- 1869) لتولستوي، ورواية "ابنة الآمر 1836" لبوشكين (1799- 1837) إنّ تولستوي كاتب عظيم لأنّه يصوّر النفس الإنسانية بدقة، ويوشّي روايته بالخيوط الفلسفية، ويصوّر لنا الأحداث التاريخية الحقيقية، متأمّلاً فيها، كما يقدّم رؤيته، وهي أنّ التاريخ من صنع الشعوب والأشخاص البسطاء، وليس من صنع الأفراد والقادة ، كنابليون وألكسندر...

إنّ تولستوي صور أحداثاً تاريخية حقيقية، كدخول الجيش الفرنسي موسكو بقيادة نابليون بونابرت (1769- 1821)، واحتراق موسكو، والمعركة بين الروس والفرنسيين عام 1812.

إنّ الشخصيات المتخيلة في روايته "الحرب والسلم" هي شخصيات واقعية، فالنقاد يرون أنّ أندريه هو خال تولستوي، وأخته ماريا بولكونسكي هي أمّ تولستوي، ونيكولاي روستوف هو والد تولستوي.

كما تزخر روايته بتأملاته عن القوة التي تخلف الأحداث التاريخية، وأنّ سلطة الشخصيات التاريخية لا يمكن أن تُعدّ سبباً للأحداث التاريخية، ويتحدث عن الصراع بين مفهوم التاريخ القديم ومفهومه الجديد.

لقد قرأ تولستوي التواريخ الروسية والفرنسية والإنكليزية، ومنها كتاب المؤرّخ الروسي لحروب 1805 و 1806 و 1807 و 1812، وهو ميخائيلو فسكي- دانيلوفسكي، وهو مصدر مهمّ للحملات العسكرية في روايته "الحرب والسلم".

يقول الكاتب ر.ف كريستيان في كتابه "تولستوي":

"إنّ أسس روايته "الحرب والسلم" راسخة على أرضية من اهتمام تولستوي العميق الدائم بالتاريخ الذي بدأ منذ أن كان شاباً. فلقد شملت قراءته، منذ أن كان في العشرينات من عمره،

تواريخ أوربا الحديثة المعتمدة، لكنّ التاريخ الروسي، وتاريخ القرن الذي عاش فيه على وجه الخصوص هو الذي كان يهمّه أشدّ اهتمام".[1]

ويشير هذا الكاتب إلى أنّ تولستوي كان مقتنعاً بالهوة الواسعة التي تفصل بين حقيقة التاريخ والحقيقة عند المؤرخ، وأنّه أراد أن يكتب رواية تاريخية عن موضوع روسيا في القرن التاسع عشر، لا أن يحاول تصحيح السجلات التاريخية ، فقد كتب تولستوي قائلاً : "أول جرثومة الاهتمام بالتاريخ تصدر من ملاحظة الأحداث الجارية".[2]

لقد أراد تولستوي أن يقول في روايته: إنّ انتصار الجيش الروسي على الفرنسي يتجلّى بالانتصار الأخلاقي للإنسان الروسي، وانتصاره لا يعود إلى قوة السلاح بل إلى فضيلة تفوقّه الأخلاقي وعلى هذا المنوال يجري تقسيم الطبقة الأرستقراطية الروسية إلى "الأبطال الإيجابيين" الذي هم روس في الصميم، وينقسمون من الجهة الأخرى، إلى السّلبيين" وهم هدف لسخرية تولستوي.[3]

يقول الكاتب كريستيان:

"لكن أكثر جوانب نظرة تولستوي إلى التاريخ تحييراً أو تناقضاً في الظاهرة، هو اللهجة الكهنوتية التنزيلية التي يُطلق بها أحكامه على العلية في التاريخ، أو الجبرية التاريخ. "ليست للحوادث التاريخية، ولا يمكن أن تكون لها علّة إلا العلّة الأولى، علّة العلل"، هذا ما كتبه في أحد الفصول."[4]

إن تولستوي كاتب عظيم لم تنجب البشرية مثله، ولن يدانيه كاتب آخر فيما قدّمه من أدب رائع، ويبقى لنا أن نقول إنّ هذا الأديب كان إنساناً، ولم يكن شوفينياً، ويدلّ على هذا موقفه في روايته "الحرب والسلم" فموقفه أقرب إلى موقف الصديق منه إلى موقف العدو، ويتبين لنا هذا في تصويره للجنود الرّوس، وهم يتعاملون مع أسير حرب فرنسي.

إنّ تولستوي في حياته كان دائماً همّه هو التسامي بالذات، وهذا نلاحظه في روايته "الحرب والسلم"، فهذه الرواية تركّز اهتمامها على مشكلة أساسية. هي مشكلة التسامي بالذات.

إن الرواية التاريخية العربيّة، في كلّ مراحلها، تبرر إعجاب كاتبها بالتاريخ العربي المجيد، وتمجيده لانتصارات العرب، وهذا ما تبيّن لنا من خلال عرضنا لروايات الكاتب فرح

---

[1] - كريستيان، ر. ف ، "تولستوي" مقدمة نقدية، ترجمة" عبد الحميد الحسن، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983، ص139.

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 139- 140.

[3] - انظر: المرجع السابق، ص 207.

[4] - المرجع السابق، ص 219.

انطون التاريخية، هذا الكاتب الذي يرى أنّ المقصود من الروايات التاريخيـــة، هـــو تكميـــل التاريخ، وليس سرد وقائع التاريخ وأرقامه.

إنّ روايات الكاتب فارس زرزور وسلامة عبيد، تأتي أهميتهـــا مـــن خـــلال إعادتهـــا للماضي العربي المجيد، وانتصارات شعبنا السوري، وتبقى لهذه الروايات مكانتها عندنا وعند جيلنا الجديد، بالرغم من أنّ هذه الروايات لا يمكن مقارنتها بالروايات التاريخية الرّوسيّة.

الفصل الثالث

الشخصيات التاريخية الحقيقية والشخصيات المتخيلة في الرواية التاريخية

مقدمة:

سوف نتحدث في هذا الفصل عن أشهر الروايات الروسية التاريخية، التي تناولت فترة النصف الأول من القرن العشرين، ونركّز في حديثنا على الشخصيات في هذه الروايات، الحقيقية منها والمتخيلة.

أولى هذه الروايات هي رواية "درب الآلام " للكاتب الروسي ألكسي تولستوي (1883-1945)، وهذه الرواية من ثلاثة أجزاء: الجزء الأول بعنوان "الشقيقتان" ويكشف هذا الجزء عن بطر سبورغ قبيل الحرب، ويصوّر أحداث عام 1916، وهجوم الجيوش الروسية وهزائم الإنكليز، وهي أحداث حقيقية، فالكاتب يتحدث عن الثورة الروسية الأولى وهي ثورة شباط 1917، والجزء الثاني من الرواية بعنوان "عام 1918" يصوّر فيه الكاتب روسيا الخارجة من الحرب العالمية الأولى، ومعركة يكاترينودار ومحاولة اغتيال لينين عام 1918، وهروب فصائل البيض أمام الجيش الأحمر. والجزء الثالث بعنوان "صباح غائم "، يصوّر فيه الكاتب الهجوم على تساريتسين وأحداثاً أخرى.

نتناول في هذا الفصل أيضاً رواية "قصة إنسان حقيقي"، وفي هذه الرواية التاريخية يتحدث الكاتب بوريس بوليفوي عن شخصيّة حقيقية وإيجابية، وهو الطيار الرّوسيّ ألكسي الذي فقد قدميه في أثناء الحرب العالمية الثانية، ولكنّه صمّم على قتال الألمان، وقد نفّذ مع فوجه الحملة الحربية للسنين (1943-1945)، وقد منحته الدولة لقب "بطل الاتحاد السّوفييتي". ومن أشهر الروايات الروسية التي خلدت الأحداث البطولية للحرب الوطنية العظمى، رواية "الحرس الفتي" للكاتب الروسي الكسندر فادييف (1901-1956) ، وهي في جزأين ، ويصوّر الكاتب فيها شخصّيات تاريخية حقيقية، خلّد التاريخ ذكراها، وهم أعضاء "منظمة الحرس الفتي".

أمّا كتاب "نحن السوفييت" فقد ألّفه أدباء شاركوا في الكثير من الوقائع أيام الحرب الوطنية الروسّية العظمى ضد الغزاة الفاشست (1941-1945) .

ورواية "الثلج الحار "للكاتب الروسّي يوري بونداريف، هي رواية تاريخية تصوّر المعركة من أجل ستالينغراد، وشخصّياتها حقيقية منها شخصّية ستالين الزعيم السوفييتي،

وشخصية أودلف هتلر الزعيم الألماني، والجنرال بيسونوف قائد الجيش الروسي ، والجنــرال فولوبوف وغيرهم.

ومن الروايات الروسية التاريخية التي تتحدث عن نضال الشعب الروسي ضد الألمــان في فترة الحرب العالمية الثانية، رواية "رفاق الطريق" للكاتبة فيرا بانوفا ، وروايــة "ضــمائر حية" للكاتب بيوتر فيرشيغورا، ومن الأعمال الأدبية "كلّ إلى مكانه" للكاتب فيكتور تيبلوغوف، ورواية "خط الاتصال" للكاتب ليف كاسيل ، وتتحدّث هذه الرواية عن سنوات الحرب الوطنيــة العظمى (1941-1945) .

وبعد الرواية الروسية تناولنا في هذا الفصل الرواية التاريخية العربيــة، فتحــدثنا عــن رواية "عمر بن الخطاب"(1936) للكاتب معروف الأرناؤوط، وهي رواية اجتماعية تاريخية، يصف الكاتب فيها الظروف الاجتماعية والتاريخية لظهور الإسلام زمــن الــروم والفــرس ، وأبطال هذه الرواية متنوعون، فمنهم من له وجود تاريخي أضفى عليه الكاتــب مــن خيالــه، كزيد بن ثابت، وعبد الله بن رواحة ، ونوع آخر تخيله الكاتب كشخصية كريــستيا الــشاعر ، ونوع ثالث له وجود تاريخي عابر كشخصيتي نفتالي ومنصور بن سرجون .

ومن روايات الكاتب معروف الأرناؤوط التاريخية ، رواية "طارق بن زيــاد "، وهــي رواية عن تاريخ العرب في إفريقية والأندلس زمن الفتوح، وأصدر الكاتب الجزء الأول منهــا عام 1941م ، ولم يتمّ جزأها الثاني، وشخصيّات هذه الرواية متنوعة، منها شخصيّات تاريخية حقيقية ، كشخصية عقبة بن نافع ، وشخصية طارق بن زياد ، وشخصية معاويــة بــن أبــي سفيان وغيرهم ، وهناك شخصيّات متخيلة كشخصيّة دامية الساحرة البربرية .

رواية " درب الآلام " للكاتب الرّوسيّ ألكسي تولستوي :

ومن الرّوايات التّاريخيّة العظيمة، رواية "درب الآلام" للكاتب الرّوسي الكبير ألكسي تولستوي (1883-1945)، إنّها رواية صعبة وذات موضوع عظيم عن روسيا الضائعة والعائدة من جديد، وهذه الرواية ثلاثية أنهى الكاتب كتابه الثّالث منها عام 1941، وقبل أن نبدأ بالحديث عن هذه الثّلاثيّة لابد لنا أن نذكر ما قاله الكاتب السّوفييتي الشّهير قسطنطين فيدين في مقدّمة الكتاب الأوّل من الرّواية:

"عندما بدأ تولستوي كتابة رواية "درب الآلام" عام 1919 كان لابدّ لمحتواها أن يظهر للمؤلّف عصريّاً حادّاً في عصريّته، كان النّاس قد خرجوا لتوّهم من معاناة الاشتباك العالمي مع ألمانيا، والثّورة والحرب الأهليّة في روسيا، وكان كلّ ما قاسوه ما زال ألماً طريّاً في النّفس. ولكن حين التفت تولستوي لأوّل مرّة إلى اليوم الفائت، سمع هذا اليوم يتراجع إلى الماضي في مشية مهيبة ثقيلة لا عودة فيها. في الرّواية تتردّد خطوات التّاريخ خافتة في البداية، ثم مميّزة بوضوح وملحّة وثقيلة، وأخيراً، طاغية على كلّ شيء. وعندما بدأ تولستوي، عام 1927، بالرّواية الثّانية من الثّلاثيّة كان قد ترك لعاصفة التّاريخ كلّ الأبواب والنّوافذ لتدخل فيها، فراحت تعصف في الكتاب الدّافق بالحياة، وتدير مثلما تدير حبّات الرّمل، مصائر أبطال الرّواية، تلك المصائر الصغيرة، الحبيبة، المندفعة. وفي عام 1941 أنهى الكتاب الثّالث من الثّلاثيّة. كختام رواية تاريخيّة كبيرة".[(1)]

كما يشير الكاتب فيدين إلى أنّ الكتاب الأوّل من رواية "درب الآلام" والذي هو بعنوان "الشّقيقتان" يكشف عن بطر سبورغ قبيل الحرب، وعن الحلقات الأدبيّة والفلسفيّة للعاصمة القيصريّة التي اشتهرت برقصة التانغو الميّتة المتبعة لحن احتضارها. وتندلع الحرب، وتنتهي المعارك والحملة كلّها بالهزيمة ، ويُطاح بالقيصر، وينتهي الكتاب بالإحساس بأنّ "أيّ شيء لم يتغيّر"، والكتاب الثّاني عنوانه "عام 1918" وفيه نبض الأحداث انتقل إلى الجنوب، وروسيا تخرج من الحرب، والكريملن يقود النّضال في سبيل السّلطة السّوفييتيّة، وتجري على مسرح الأحداث درامات القفقاس وسامارا، والجمعيّة التأسيسيّة، وكوبان، ومنطقة القوزاق، والألمان في أوكرانيا، وفي نهاية الكتاب يعود إلى البروز في وضوح الإحساس بأنّ "أيّ شيء لم يتغيّر". والكتاب الثّالث من الرّواية بعنوان "صباح غائم" يصوّر الهجوم في كانون الأوّل على تساريتسين، ودينيكين، وما خنو، وتحطيم جيش المتطوّعين، وسحق البيض، وتُرسم اللّوحة الختاميّة للعاصمة الجديدة، موسكو، إنّ "الصباح الغائم من آذار" في نهاية الرّواية، غير غائم

---

[1] - تولستوي، ألكسي: درب الآلام، م1، الكتاب الأول (الشقيقتان)، ترجمة: غائب طعمة فرمان، دار رادوغا، فرع طشقند، 1984، ص 7.

باليأس، بل بالتشدد الصارم إزاء الناس الذين شرعوا في بناء عالم جديد... كما يذكر فيدين أنّ رواية "درب الآلام" ظلّت تتغيّر في مخيّلة الكاتب مرّات عديدة خلال عقدين من الزّمن، وهي تجذب القارئ لأنّها تضمّ عنصرين في اتجاه واحد، فهي تتحدّث جنباً إلى جنب عن الرقة الإنسانيّة، وعن الدّروب التّاريخية لدولة عظيمة، وتولستوي يتّصف بموهبة تصوير الإنسان الصّغير المتعطّش للسّعادة الشخصيّة، ويوجد في موهبة تولستوي شبه كبير بفكتور هوغو كما يرى الكاتب فيدين، الذي يذكر أنّ الرّواية ذات موضوع عظيم، فهي عن روسيا الضّائعة والعائدة من جديد.(1)

ونقرأ في مقدّمة الكتاب الأوّل من رواية "درب الآلام" سيرة ذاتيّة قصيرة للكاتب ألكسي تولستوي يقول فيها إنّه نشأ في ضيعة سهبّية على بعد تسعين فرسخاً من سامارا، وأبوه نيقولاي ألكسندروفيتش، وأمّه ألكسندرا ليونيتغنا كانت متعلّمة وكاتبة تركت زوجها، وتزوجت بآخر، فقضى الكاتب طفولته في ضيعة زوج أمّه المسمّاة سوسنوفكا، وقد تركت سنوات المجاعة الثلاث من عام 1891 حتى عام 1893 أثراً عميقاً في نفس الكاتب، ويُرجع الكاتب تجاربه الأدبيّة الأولى إلى سنّ السّادسة عشرة، وتزوّج في التاسعة عشرة، وكان يشارك في الإضرابات الطلاّبية، وانضمّ إلى كتلة الاشتراكيين الديمقراطيين، وفي عام 1907 كتب أوّل ديوان له...

ويذكر الكاتب أنّه مدين ببداية عمله بوصفه كاتباً قصصياً لصلته بالشاعر والمترجم م. فولوشين، وفي خريف 1909 كتب أول قصّة طويلة وهي "أسبوع في ضيعة تورغينيفو"...، وعندما بدأت الحرب العالميّة الأولى كان في جبهات القتال يعمل مراسلاً حربياً لإحدى الجرائد، وفي الأيام الأولى من الحرب بدأ عمله بوصفه كاتباً مسرحياً، وقد كتب ما بين عام 1914 و 1917 خمس كوميديّات، ومع قيام ثورة أكتوبر عاد إلى النّثر، وعندما سافر الكاتب إلى باريس، بدأ في تموز عام 1919 بكتابة ملحمة "درب الآلام"...

وفي خريف 1921انتقل الكاتب إلى برلين، وانضمّ إلى جماعة أدبيّة، وفي ربيع 1922 وصل من روسيا السّوفييتية مكسيم غوركي، وانعقدت بينه وبين الكاتب علاقات ودّية، وفي فترة إقامته في برلين كتب عدداً من الرّوايات، وفي ربيع 1922 سافر الكاتب مع عائلته إلى روسيا السّوفييتية، وفي عام 1924 عاد إلى المسرح، وفي عام 1927 بدأ بكتابة الجزء الثّاني من روايته "درب الآلام" وهو "عام 1918"، وفي عام 1930كتب الجزء الأوّل من رواية "بطرس الأوّل"، وأنهى الجزء الثّاني من هذه الرّواية في عام 1934، ويشير الكاتب تولستوي

[1] - انظر: المرجع السابق نفسه، الصفحات من8 حتى 12.

إلى أنّ أربعة عهود تجذبه إلى التصوير وهي: عهد إيفان الرّهيب، وعهد بطرس الأوّل، والحرب الأهلية (1918-1920)، وعهده الحالي، ولفهم سرّ الشعب الرّوسي كما يؤكّد الكاتب، يجب أن يُعرف ماضيه معرفة عميقة، أن يُعرف تاريخه....، كما يذكر تولستوي أنّه في عام 1935 بدأ بكتابة قصّته "الخبز" وهي نقلة ضروريّة بين رواية "عام 1918" ورواية "صباح غائم"[1] ، يقول الكاتب تولستوي مشيراً إلى روايته الثلاثية "درب الآلام":

"في اليوم الذي بدأت فيه الحرب الوطنيّة الكبرى، يوم 22 حزيران 1941، فرغت من رواية "صباح غائم". وعند إعدادي الثّلاثيّة كلّها للطّبع قمت بتنقيح الكتابين الأوّلين من هذه الملحمة. وقد كتبت الثّلاثيّة خلال اثنين وعشرين عاماً. وموضوعها العودة إلى البيت، الطّريق إلى الوطن. والواقع إنّ كتابة السّطور الأخيرة والصّفحات الأخيرة من "صباح غائم" يوم كان وطننا في نار الحرب تقنعني بأنّ سبيل هذه الرّواية صائب.

عندما أعود بنظري الآن إلى السّنتين الرّهيبتين المدمّرتين من الحرب أجد أنّ الإيمان بقوى شعبنا التي لا تنضب، الإيمان في صحّة طريقنا التّاريخي، الطّريق الباهظ والصّعب والمستقيم والإنساني نحو الحياة العظيمة، وحبّ الوطن وحده، ... كلّ هذا قد أعطى القوى للنّضال والنّصر. وقد آمنت بانتصارها حتّى في أصعب الأيّام من تشرين الأوّل – تشرين الثّاني عام 1941"[2].

ويذكر الكاتب قسطنطين فيدين في المقدّمة أنّ تولستوي بدأ عمله في فترة النّزعة الانحلاليّة العصريّة، ولكنّه فيما بعد ربط مصيره بوصف كاتباً بالمدرسة الواقعية ربطاً محكماً لا رجعة فيه، وأنّ تولستوي كشف عن سعة موهبته الملحميّة، ونبوغه في الرّسم بالكلمات، والفنّ الهائل الأبعاد في أعماله التي كتبها في عصره، في "بطرس الأوّل"، وفي "درب الآلام"، وفي ثنائيّته عن القيصر إيفان الرّهيب، كما يشير فيدين إلى أنّ تتبّع المسيرة الأدبيّة لتولستوي معناه التفكير معه في مصير الشّعب الرّوسي في منعطفات التّاريخ الكبيرة، وهنا يصير تولستوي مغنّي الثّورة، ومعاصرها، كما أظهر لنا تولستوي أضواء روسيا التي لم تنطفئ قطّ، كما أنّ الإيمان في الحياة، والحلم في بنائها العادل من أجل سعادة الإنسانيّة يقرّبان ألكسي تولستوي من الكتّاب الكلاسيكيين للقرن التاسع عشر، والرّومانسية تبدو وكأنّها تشبّع بها أبطال "درب الآلام" الرّئيسيّون.

---

[1] - انظر: المرجع السّابق، من ص 13 حتى 20.

[2] - المرجع السابق، ص 21.

كما يذكر الكاتب فيدين أنّ غوركي كان معجباً بحيويّة تولستوي وقوّته، وموهبته المتفائلة المرحة، وأنّ تولستوي طرح جسراً مستقيماً يوصل بين تراث الأدب الكلاسيكي الرّوسي والأدب السّوفييتي الذي وهبه كلّ إلهامه المبدع، وأنّ روايته "درب الآلام" تذكرنا بمسيرة "أم المسيح" في درب الآلام.[1]

الجزء الأول: "الشقيقتان"

نبدأ بالحديث عن أحداث الجزء الأوّل من رواية "درب الآلام" وهو بعنوان "الشّقيقتان" الذي يكشف عن بطرسبورغ قبيل الحرب، حيث يذكر الكاتب في بداية الجزء الأوّل من الرّواية كيف كانت الحياة في بطرسبورغ في عهد الإمبراطور بطرس الأوّل، فقد انتشر الرّعب، وشاع أنّ روحاً شرّيرة قد تقمّصت بطرسبورغ، ولكن بعد أن انقضى قرنان كالحلم كما يذكر الكاتب، كانت بطرسبورغ تحلم بالمجد وبالسلطان، وكانت انقلابات القصر، واغتيالات الأباطرة، والإعدامات الدّمويّة تمرّ مثل رؤى هلوسيّة، وكانت بطرسبورغ العاصمة تعيش بجنون حيث موائد القمار، ورقصات وأغاني الغجر، وفي العقد الأخير نشأت مشاريع ضخمة، وانبثقت ملايين الثّروات، وتسرّب الفجور إلى كلّ مكان، وأُصيب به القصر كما يصاب بمرض فتّاك، وفُتحت المسارح، ومنتزهات الترفيه...

ويشير الناشر في هامش الصفحة (28) إلى راسبوتين (1864-1916) الذي استطاع أن يقترب من القصر الإمبراطوري، ويكسب تأثيراً لا حدود له على نيقولاي الثّاني وعقيلته ألكساندرا فيدورفنا، وقُتل نتيجة مؤامرة الملكيين... ، ويذكر الكاتب أن بطرسبورغ كانت تعيش حياتها الخاصة المثقلة بالهموم في عام 1914، حيث كانت منهوكة بليالي السّهر، والخمور والذّهب، وأنغام التّانغو، ورقصة الموت، كأنّ شيئاً غامضاً كان يتسلّل من كلّ الشّقوق.

يتابع الكاتب بأنّه لا يريد أن يتذكّر شيئاً، بل يريد أن يدير ظهره إلى الماضي، ثمّ يذكر أنّ "جمعيّة الأمسيات الفلسفيّة" التي رئيسها أنتونوفسكي، ومحاضر اليوم المؤرّخ فليامينوف، والفيلسوف بورسكي، والكاتب ساكونين، قد تعرّضت إلى هجوم عنيف من جانب شبّان مغمورين، ويصعد أكوندين إلى المنبر، ويتكلّم عن الفلاح الرّوسيّ، وعن الاقتصاد العالميّ الذي وجّه أوّل ضربة من قبضته الحديديّة إلى قبّة الكنيسة، ويردّ عليه المحاضر فليامينوف ناظراً إلى صفوف المستمعين قائلاً لهم إنهّم يريدون تحويل الإنسان إلى رقم في الجنّة التي يحلمون بها، وفي هذه الجنّة الرّهيبة يكمن خطر ثورة جديدة هي ثورة الرّوح...، وتلتقي

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 4 حتى 8.

داريا دميتريفنا (داشا) بالفتى ألكسندر إيفانوفيتش، ثم تقابل بيسونوف، ثم تذهب إلى بيت زوج أختها نيقولاي إيفانوفيتش، وكانت داشا قد وصلت إلى بطرسبورغ في العام الماضي قادمة من سامارا لتدخل دورات الحقوق، وأقامت عند أختها الكبيرة يكاترينا دميتريفنا (كاتيا) المتزوجة من محام والتي تكبرها بخمسة أعوام، وجرت العادة أن يجتمع في بيت زوج كاتيا كلّ ثلاثاء مجموعة من الضّيوف صاخبة مرحة، وكانت داشا تعدّ أختها الشّخص الرئيسي في هذه الحفلات، ولم تسافر داشا في الصّيف إلى أبيها في سامارا القائظة، وقبلت أن تقيم عند أختها على ساحل البحر في سيستروريتسك...، وكان من ضيوف يكاترينا ألكسي ألكسيفيتش بيسونوف الذي بسببه أخذت داشا تتردّد على جمعية "الأمسيات الفلسفيّة"، وفي أحد الأيّام أخبرها نيقولاي إيفانوفيتش بأنّ أختها كاتيا تخونه، فقد ذهبت في منتصف إحدى الليّالي مع ألكسي بيسونوف إلى فندق خارج المدينة، وهناك امتلكها كدمية ورديّة. وفيما بعد اشتركت يكاترينا في مجلّة "طبق الآلهة" لسنة كاملة، هذه المجلّة التي أصدرتها جمعيّة "المجمّع المركزي لمكافحة العرف السّائد"...، وكان إيفان إيليتش يشعر نحو داشا بعاطفة فريدة، أمّا كاتيا فقد كانت تجمع المال لمنفعة لجنة الجناح اليساري للحزب الاشتراكي الديمقراطي، أو من يسمّون بالبلاشفة..[1]

يقول الكاتب على لسان يكاترينا واصفاً حال النّاس في تلك الأوقات:

"جميع النّاس يتجوّلون في الشّوارع كالسّكارى. عندي خبر آخر. التقيت بأكوندين، وهو يؤكّد بأنّ الثّورة ستندلع عندنا في القريب العاجل. الهيجان في المصانع، والقرى، وفي كلّ مكان. ليتها تقع في أقرب وقت"[2].

وفي أحد الأيّام تخبر داشا أختها كاتيا أنّها تحب ألكسي بيسونوف، فقالت لها كاتيا إنّ بيسونوف شخص سيّء جدّاً، وكان بيسونوف على علاقة بفنّانة، وكان ينظم الأشعار لها، ومن المعجبات ببيسونوف يلزافيتا كييفنا التي اشترت أحد كتبه، وكان تليغين ينفر من يلزافيتا، وكان عمر بيسونوف خمسة وثلاثين عاماً، وقد أخذ يلزافيتا في إحدى المرّات إلى فندق خارج المدينة، وكان بيسونوف يكتب في لحظات تجلّيه عن الليل الذي يخيّم على روسيا، والشّعب الذي يعبد الله يتحوّل إلى متمرّد على الله، وما من خلاص من الهاوية.[3]

وتذهب داشا إلى بيسونوف، الذي يخبرها بأنّه لا يستحقّها، ونظر إليها وأخبرها بأنّها شديدة الشبه بأختها كاتيا فتتركه غاضبة، وذهبت إلى أختها وأخبرتها أنّها كانت عند

---

[1] - انظر: المرجع السابق نفسه ، ص 25 حتى 69.

[2] - المرجع السابق، ص 70.

[3] - انظر: المرجع السابق، ص 71-91.

بيسونوف، وطلبت منها أن تذهب إلى زوجها، وتخبره بكلّ شيء، وتذهب كاتيا إلــى زوجهــا الذي كان يطالع مقالة أكوندين المنشورة في مجلّة "روســكيه زابــسكي" بعنــوان "المــذكّرات الرّوسيّة"، وكانت المقالة مخصّصة لذكرى وفاة بــاكونين (1814-1876) أحــد المنظّمــين البارزين للفوضويّة – كما يشير المترجم في الهامش- يقول نيكولاي لزوجته كاتيا معلّقاً علــى المقالة:

"عاشت الثّورة، مرحى، يا أكوندين! إنّه الواقع الذي نعيــشه، بــلا أفكــار كبيــرة ولا عواطف كبيرة، الحكومة منساقة بشيء واحد فقط! الخوف الجنوني على المستقبل، والمثقّفــون متهالكون على الطّعام والشّراب، ونحن نقضي أوقاتنا بــالثّرثرة، ولا شــيء غيــر الثّرثــرة، ياكاتيوشا... والشعب يتعفّن حيّاً، وروسيا جمعاء قد تآكلها السفلس والفودكا. روسيا متهرئــة، ستتحوّل إلى ركام في نفخة واحدة، والعيش على هذا النحو غير ممكن... نحن نحتاج إلى نوع من حرق النّفس، التطهير بالنّار.."[1].

ثم تخبر كاتيا زوجها أنّها غير مخلصة له، أمّا هو فقد كتب لها رسالة يخبرها فيهــا أنّ هناك مخرجين: إمّا قتل نفسه، أو تمزيق الغشاء الرّوحي المثقل على أفكاره، وأنّه غير قــادر على فعل أحد الأمرين... وكان نيكولاي يخرج من الصّباح الباكر للمرافعة في المحكمة، ثــم قرّر السّفر إلى القرم للاستراحة، وأعطى اثني عشر ألف روبل لزوجته كاتيا ونصحها بالسّفر إلى جنوب فرنسا، أمّا داشا فبقيت وحيدة في البيت مع الخادمة التي كانوا يلقّبونهــا "المغــولي العظيم"، ثمّ أدّت داشا امتحاناتها، وكانت متفوّقة فيها، ثمّ سافرت إلى أبيها، وفي الطّريق قابلت إيفان إيليتش تليغين، وفي أحد الأيام ظهر رجل غريب في المصنع الميكانيكي، وراح يــوزّع منشورات من اللّجنة المركزيّة، وبعد يومين من الحادث، لم تبدأ ورشة البــرادة العمــل فــي المصنع، مفاجئة بذلك إدارة المصنع الميكانيكي، وقُدّمت مطاليــب حازمــة، ويــسأل تليغــين أريشنيكوف عن سبب الإضراب، فأخبره بأنّ عمّال ورشة البرادة لا يكسبون ما كانوا يكسبونه من قبل، وكان من بين العمال المضربين ألكسي نوسوف الذي كان يصرخ (مصّاصو دماء!.. معذّبون!..)... وعند الظّهر كان المصنع كلّه مضرباً، وكان العمّال يقفون في باحــة المــصنع بجماعات كبيرة منتظرين نتيجة مفاوضات الإدارة مع لجنة الاضراب، ثمّ جاء أمر من وزارة الدّاخلية برفض جميع مطالب لجنة الإضراب، والامتناع عن إجراء أيّة مفاوضات معها حتّــى إشعار آخر، واعتقل أعضاء لجنة الإضراب جميعاً، وانتخبت لجنة جديدة، وأعلــن القــوزاق مطالبهم السياسيّة، وانضمّ عمّال مصنع أوبوخوفسكي، ومصنع نيفسكي لبناء السّفن، وبعــض المصانع الصّغيرة إلى الإضراب، وعمّت الفوضى، وجرى إطلاق نار...

[1] - المرجع السابق، ص99.

وبعد أسبوع انتهى التحقيق فيما حدث في المصنع، فكان المهندس إيفان إيليتش في قائمة الأشخاص الذين اشتبه في عطفهم على العمّال، واستدعته الإدارة، فقدّم استقالته...، أمّا داشا فقد ودّعت تليغين، وذهبت إلى أبيها الدكتور دميتري ستيبانوفيتش بولافين في سامارا، أمّا كاتيا فقد أرسلت لأختها داشا رسالة تخبرها فيها أنها في باريس، وأنها سمعت أن زوجها نيكولاي على علاقة بامرأة أرملة، ثم تسافر داشا إلى يفباتوريا، حيث كان نيكولاي إيفانوفيتش يستحم في البحر....، وعندما تصل إلى نيقولاي تسلّمه رسالتين من كاتيا، بعد ذلك التقت داشا ببيسونوف على شاطئ البحر، وبعد فترة جاء تليغين إلى داشا ليودّعها فقد استدعوه للخدمة[1].

يصوّر الكاتب فيما بعد الاجتماع الاستثنائي لهيئة التحرير الذي كان يُعقد في مكتب رئيس تحرير الصحيفة الليبرالية الكبيرة "كلمة الشّعب"، ويذكر لنا الكاتب الكلمة التي ألقاها رئيس التحرير والتي رسمت خطّ سلوك الصّحافة الليبرالية كلّها وقد جاء في هذه الكلمة:

"... التعقيد في مهمّتنا يرجع إلى أنّنا يجب ونحن أمام الخطر الذي يهدّد سلامة الدولة الرّوسيّة، أن نمدّ يدنا إلى السلطة القيصريّة، دون أن نتراجع عن معارضتها خطوة واحدة... إنّ مسألة لوم الحكومة القيصريّة على جرّ روسيا للحرب، هي في اللحظة الراهنة مسألة ثانوية. يجب أن ننتصر أولاً، ومن بعد نحاكم المذنبين. أيّها السّادة، بينما نتحدّث هنا، تجري معركة دموية قرب كراسنوستاف وقد أرسل حرسنا لسدّ الجبهة المصدوعة. ومصير هذه المعركة غير معروف الآن، ولكن يجب ألاّ يغيب عن الأذهان أن كييف مهدّدة. وليس من شكّ في أن الحرب لا يمكن أن تستمرّ أكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر"[2].

وبعد انتهاء رئيس التّحرير من كلمته، تمتم أحد كتّاب المقالات الافتتاحيّة بأنّ مدّ اليد إلى نيكولاي الثّاني شيء مقرف، واعترض أحد قدامى المحرّرين: الحكومة القيصريّة هي التي تحارب، فلماذا نمد يدنا لها؟ وشرح رئيس التّحرير أنّ الرقابة العسكريّة ستغلق الجريدة، وفق أحكام قانون الطّوارئ، على أقلّ هجوم على الحكومة، وأعلن رأيه وهو أنه يجب قبول الحرب بكلّيتها، وبكلّ عواقبها، وقد عُدّت في موسكو الحرب الوطنيّة الثّانية...، فهتف بيلو سفيتوف حزيناً:

وماذا عن عشرة آلاف روسي من أفضل أبناء روسيا الذين يذوون في سيبيريا منذ زمان؟ والعمال الذين قتلوا رمياً بالرّصاص؟[3]

---

1 - انظر: المرجع السابق، ص 99 حتى 157.

2 - المرجع السابق، ص 158.

3 - انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 158 حتى 160.

يقول الكاتب واصفاً الجيش الرّوسي المهاجم:

"كانت قوافل الجيش الرّوسي تتحرّك كالسّيل العرم في الوحل والمطر وتحت الصّيحات والشّتائم، وجلجلة السّياط واصطدام محور بآخر ....، وبين الحين والآخر كانت سيّارة عسكريّة تشقّ طريقها في هذا السّيل، فيبدأ تصاعد الصّياح والتأوّهات...، وحين كان ينقطع سيل العربات كان الجنود يأتون بعده سائرين على الأقدام في خطّ طويل منزلقين في الوحل، حاملين على ظهورهم الأكياس والمشمّعات ......، وعلى بعد حوالي خمسة وعشرين فرسخا من هذه الأماكن كان دوي ّالمدافع يترامى خافتاً في الأفق الدّاخن...."[1]

ويشير الكاتب إلى أنّ النّاس في الرّيف لم يسألوا عن الحرب، لأنّ الحقد والكراهية قد غشيا العيون بغشاوة دمويّة، وكان الفوج الذي سّجل فيه تليغين ملازما ثانياً قد خاض معارك هجوميّة...، وكانت القيادة العليا تسعى إلى الدخول إلى المجر، وتدميرها، وكانوا يتصوّرون أنّ مقاومة الجيوش النمساويّة المتراجعة بلا نظام ستنهار تحت الضّغط الطّويل لقتال مستمّر دخل شهره الثّالث ، وستسقط كراكوفيا وفينا. وسيتمكّن الرّوس من الخروج من الجناح الأيسر إلى المؤخّرة الألمانيّة غير المحميّة. وتطبيقاً لهذه الخطّة كانت القوّات الرّوسيّة تزحف نحو الغرب....، ووصلت بعد مدّة ست رسائل إلى إيفان إيلتيش من داشا تخبره فيها أنّها تحبّه، ويستدعي آمر الكتيبة روزانوف تليغين، ويأمره بإنجاز العبور إلى الضفّة الأخرى، وعبر الجميع الجسر راكضين، وكانت النّار من الجانب الرّوسي أشدّ، والنّمساوين يبتعدون داخل الأرض، وكان الأسرى قد سيقوا إلى ما وراء النّهر، واستمّر النّمساويون في تراجعهم، ولاحقتهم الوحدات الرّوسيّة حتى الليل، واحتلّ تليغين غابة صغيرة مع متطوّعيه، وفي المؤتمر السرّي المنعقد في استوكهولم لأعضاء العصبة الصّوفية السّريّة لأنصار "الحكمة الإنسانية"، قال مؤسس هذه الجماعة إنّ الصّراع الرّهيب الذي يجري في الأجواء العليا قد انتقل إلى الأرض، وستحدث كارثة عالمية، وستكون روسيا ضحيّة للتكفير عن الأوزار...، ودخل نيكولاي إيفا نوفيتش في فرع موسكو في الاتحاد البلدي للدّفاع محمولا بدوافع وطنيّة، وكانت داشا تدرس القانون الجزائي بعد سفرها إلى موسكو، وبينما كانت تقلّب صحيفة "الكلمة الرّوسيّة" رأت اسم تليغين في قائمة المفقودين، لذلك اشتغلت في مستشفى عسكري، وفي بادئ الأمر واجهت صعوبة كبيرة، وأخبرها أحد المصابين في المستشفى أنّه سمع أنّ خطيبها تليغين وقع في الأسر، لكنها كانت تعرف أنّ سيمين يلفّق كل شيء قاله حول خطيبها فهو لا

---

[1] - المرجع السابق، ص 171، 172.

يعرفه..، ويجتمع نيكولاي وداشا وكاتيا في جديد، وتعمل كاتيا مع داشا في المستشفى العسكري.[1]

أمّا فيما يتعلّق بالمعركة فقد احترق الجسر، وكانت السّرية الأولى تتخندق في الخنادق، وكانت من فوج أوسولسكي، وكانت مباني المزرعة الثلاثة تحترق، ووراءها كانت السّرية السّادسة، وعلى بعد ثلاثمئة خطوة كانت تبدأ خطوط الألمان، واشتّد قصف المدفعيّة، وقد أفسد الهجوم على المزرعة خطة قائد الفرقة الروسية الجنرال دوبروف، فقد كان الألمان عازمين على الاستيلاء على المزرعة، ثمّ وصل الخبر عن احتلال الألمان للمزرعة، والقضاء على السّرية السّادسة حتى آخر رجل.[2]

يقول الكاتب واصفاً المعركة:

"وفجأة نشبت نيران سريعة بعيداً في الضّفة الأخرى، وصفرت القذائف في طيرانها، وأخذت قنابل الشّرابنيل تتفجّر عالياً فوق النّهر بقرقعة معدنيّة... وتصاعدت صواريخ وتناثرت في السّماء كلّها بأضواء باهرة. ورعدت البطاريّات الرّوسية، وكانت زوبعة النّار الصّاعقة تهدر فوق النّهر والمعابر والتلال... وكانت رشاشات جادوف تلعلع في المؤخّرة والقذائف الرّوسيّة تتفجّر في المقدمة...، ومن وراء الجدول خرجت الكتيبة الأولى بصفوف كثيفة من خلل القصب، وتدفّق الألمان من الخنادق ...، واُحتلَّت المزرعة وجميع خطوط الخنادق المجاورة لها وأُسر حوالي مئتا أسير وفي الفجر خمدت نار المدفعيّة في كلا الجانبين. وبدأ جمع القتلى والجرحى....."[3]

يتابع الكاتب تصوير ما حدّث بعد المعركة، فيذكر أنّ داشا تلقّت بطاقة بريديّة من إيفان تليغين يخبرها فيها أنّ جرحه قد اندمل، وأنّه يتعلّم الإنجليزيّة والفرنسيّة.....، أمّا في موسكو فكان النّاس يحطّمون بيوت الألمان ومخازنهم، ويذبحون الألمان، واستمرّت الأوضاع الحربيّة، وكان النّاس يتحدّثون عن تصرّفات راسبوتين البغيضة، وعن الخيانة، وفي خضمّ اليأس والفساد أوقف الجنرال روزسكي هجوم الجيوش الألمانيّة بشكل مفاجئ وفي ميدان مكشوف...، أمّا أركادي جادوف الذي أُصيب في المعركة فقد كان راقداً في المستشفى العسكري، وكانت ذارعه مبتورة، ثم سافر مع يلزافيتا كييفنا إلى أنابا، وسكنا في قصر

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 173 حتّى 209.

[2] - انظر المرجع السابق، الصفحات من 218 حتّى 222.

[3] - المرجع السابق، ص 224، ص 225.

كابيرنيه، وكان جادوف يهين يلزافيتا، ويرسلها لتجلب النّبيذ من القبو، وكـــان يحــدّثها عــن الحرب والجريمة، وعن الاشتراكية.[1]

يقول الكاتب واصفاً الأحداث التي وقعت بعد ذلك:

"في أوائل الشّتاء من عام 1916، ووسط الجزع العام والتوقّعات التي لا تحمــل أمـــلاً، استولت القوّات الرّوسيّة فجأة على قلعة أرضروم بالعنوة...، وكان ذلك في وقت مُنـــي فيـــه الإنجليز بهزائم عسكريّة في ما بين النّهرين وقرب القسطنطينيّة.....، وفي الجبهة النّمـــساويّة تحوّلت الجيوش الرّوسيّة بقيادة الجنرال بروسيلوف إلى هجوم حاسم بـــنفس الفجـــاءة أيـــضاً. وحدثت بلبلة عالميّة، وصدر في إنجلترا كتاب عن الرّوح الرّوسيّة الملغزة، وبالفعــل وخلافـــاً للفكر المنطقي، وبعد سنة ونصف من الحرب، والهزيمة وفقدان ثماني عشرة ولاية....، وبعد الخراب الاقتصادي، والانحطاط السّياسي عادت روسيا مندفعة إلـــى الهجـــوم علـــى طـــول جبهتها...، وسارت صفوف مئات الألوف من الأسرى داخل روسيا، وتلقّـــت النّمـــسا ضـــربة مميتة، وعرضت ألمانيا الصّلح سرّاً، وارتفع سعر الرّوبل، وانبعثت من جديد الآمـــال بإنهـــاء الحرب العالمية بضربة حربيّة، وراجت "الرّوح الرّوسية"....، وشُـــحنت بـــواخر المحيطـــات بالفرق الرّوسيّة....، واستمرّ الهجوم طيلة الصّيف، واستدعي للخدمة رجال من أعمار متزايدة ممّن كانوا في الاحتياط...، واقترب عدد المعبّئين إلى أربعة وعشرين مليوناً، وخيّمـــت علـــى ألمانيا، وأوربّا كلّها سحابة الرّعب القديم من الجحافل الآسيويّة. وخلال هذا الـــصّيف أقفـــرت موسكو إقفاراً شديداً، فقد امتصّت الحرب الرّجال..."[2]

ويودّع بيسونوف داشا، ويذهب ليشارك في الحرب، أمّا تليغين فقد حاول أن يهرب مـــن معسكر الاعتقال، إلا أنّه قُبض عليه، وكان في الأسر مع تليغين جوكوف الذي ضـــرب آمـــر السّجن النّمساوي، ونتيجة لذلك أُستدعي النقيب جوكوف، والمقدّم ميلـــشين والمـــلازم الثّـــاني تليغين إلى بيت الآمر، ووُجّهت إليهم التّهمة، وهي استغلال انتحار أحد الأسرى لتحريض بقيّة الرّفاق على العصيان المكشوف للسّلطة، وصدر الحكم عليهم، وهي عقوبـــة الإعـــدام رميـــاً بالرّصاص، إلا أنّهم تمكنّوا من الهرب بالسّيارة التي جاءت لتنقلهم، ثمّ تخلّصوا من الـــسّيارة، وقرّروا أن يذهب ميلشين وجوكوف إلى رومانيا، ويتّجه تليغين إلى غاليسيا...، وفـــي اليـــوم العاشر يصل تليغين إلى خطّ الجبهة، ثمّ يتابع هربه حتّى يصل إلى بيت داشـــا، وفـــي اليـــوم الخامس من وصوله يتلّقى رسالة رسميّة من بطرسبورغ تبلغه بالحضور فوراً إلـــى مـــصنع البلطيق، وفي المصنع كان العمال يلعنون الحرب والقيصر والجنرالات، ساخطين على الغلاء

---

[1] - انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 232 حتّى 242.

[2] - المرجع السّابق، ص 243، 244.

وسوء الأوضاع، وكان تليغين يكتب لداشا كلّ يوم، وكتبت هي مرّة له عن مقتل بيسونوف المريع ....، ثمّ يُقتل راسبوتين الذي قال قبل موته إنّ العرش سينهار بموته، وتسقط سلالة رومانوف الحاكمة، وبموته خيّم جزع مشؤوم على القصر، بينما عمّت البهجة أرجاء البلاد، وبعد عدّة أيام نسي النّاس في روسيا مقتل راسبوتين إلا أنّ القصر لم ينسَ، فاستعد أهله لمواجهة الثّورة.[1]

يقول الكاتب واصفاً ما أحدثه مقتل راسبوتين:

"وكتبت الإمبراطورة إلى زوجها رسائل مفعمة باليأس ساعية إلى أن تثير فيه العزيمة وصلابة النّفس. إلا أنّ القيصر ظل قابعاً كالمسحور في موغيليف وسط العشرة ملايين من المقاتلين الموالين له- وكان لا يُشكّ في ولائهم- ولم تكن النساء المتمردات واللّغط في الطّوابير على الطّعام في بتروغراد يهمّه أكثر ممّا تهمه جيوش الإمبراطوريّات الثلاث الضّاغطة على الجبهة الرّوسيّة....

في كانون الثاني وقع على قرار الهجوم الشّماليّة...، وبدأت المعركة قرب ريغا....، واستمرّت المعركة الضّروس عشرة أيّام، وتناثرت آلاف الجثث تحت أكوام الثلج، وأوقف الهجوم وجمد. وخمدت الجبهة في الثّلوج"[2]

ويتحدث الروائي ألكسي تولستوي في الجزء الأول من روايته "الشقيقتان" عن ثورة أكتوبر عام 1917 وعن الشقيقتين داشا وكاتيا وعن الفترة الانتقالية ما بين ثورة شباط عام 1917 وثورة اكتوبر فيقول المؤلف:

كانت داشا وكاتيا وهما ابنتا طبيب تسيران في شارع مالايا نيكيتسكايا في طريقهما إلى نادي الحقوقيّن، وفي النّادي كانت القاعة تغصّ بالنّاس، وتكلّم رجل بصوت متوسّط الجّهارة عن الأحداث التي تتنامى بسرعة، وانتقال السّلطة في بتروغراد إلى الجنرال خابالوف الذي ألصق في أنحاء المدينة إعلان يمنع فيه التجمّع في الشّوارع، وينبّه سكّان بتروغراد إلى أنّه أكّد للقوّات اللّجوء إلى السّلاح عند الحاجة في سبيل إعادة النّظام إلى العاصمة، فقد حدثت في الأيام الأخيرة اعتداءات على حياة ضبّاط الجيش والشّرطة، ويتابع الخطيب كلامه، فيذكر أنّهم على عتبة أعظم حدث موشك على الوقوع في تاريخ بلادهم ، وفي هذه اللحظة تحقّق أخذ الثّأر لجموع الدّيسمبريين المفجوعة، والديسمبريون –كما يشير النّاشر في هامش الصّفحة

[1] - انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 248 حتّى 299.

[2] - المرجع السّابق، ص 299 – 300.

318 - هم زعماء أوّل مرحلة للحركة التحرريّة في روسيا يقوم بهـا الأشـراف، وأعـضاء جمعيّات سريّة، كانت تستهدف تحرير البلاد من الحكم القيصري المطلق ومن نظام القنانة.[1]

ثمّ تكلّم أحد الرّجال فقال لاشيء أفضل من اعتقال القيصر نيقولاي الثّاني في موغيليف، ومحاكمة الوزراء، وطرد حكّام الولايات ورجال الشّرطة، ورفع راية الثّورة الحمراء، وكـان المتكلّم الرّفيق كوزما، وهو عضو في سوفييت نوّاب العمّال، والذي عاد من المنفى قبل مـدّة قصيرة .....، ومرّةً عادت كاتيا من نادي الحقوقييّن وهي منفعلة، وذكـرت أنّ الـسّلطة فـي بتروغراد انتقلت إلى الدّوما، واُعتقل الوزراء، وأنّ الشائعات تقول إنّ القيـصر غـادر مقـرّ القيادة، وإنّ الجنرال إيفانوف يزحف إلى بتروغراد بفيلق كامل، وقد حدّد يومٌ لاقتحام الكرملين والترسانة ....، وبدأ سيل النّاس يتقدّم ببطء في شارع تفير سكايا الضيّق، وقـد علـم إيفـان إيليتش أنّ المفاوضات جارية في الكريملين، وكانت الأعلام الحمراء تزيّن بناية دومـا –مقـرّ قيادة الثورة –وأمام المدخل أربعة مدافع، وعلى المدخل جلـس جنـود الرشّاشـات، وتحمـل البرقيات نبأ تنحية القيصر، وانتقال الملك إلى كبير الأمناء ميخائيـل لكنـه يـرفض العـرش القيصري ..، وتذهب داشا مع إيفان إيليتش إلى الكنيسة لعقد قرانهما....،[2] ويهتف نيكـولاي إيفانوفيتش سموكو فنيكوف أمام آلاف الجنود المحتشدين قائلاً: "أيّها المواطنون، جنود الجيش الرّوسيّ الحرّ منذ الآن فصاعداً لقد حظيت بشرف نادر، هو أن أهنّئكم بيوم مجيـد: إنّ قيـود العبوديّة قد حطّمت، وقام الشّعب الرّوسيّ خلال ثلاثة أيّام بأعظم ثورة في التّاريخ دون إراقـة قطرة من الدّماء. فقد خلع القيصر المتوّج عن العرش، واُعتقل الوزراء القيـصريّون وتنـازل ميخائيل وليّ العهد من تلقاء نفسه عن عبء العرش الثقيل. ومنذ اليوم انتقلت السّلطة بكامـل هيئتها إلى الشّعب. وأصبحت على رأس الدّولة حكومة مؤقّتة لكي تجـري الانتخابـات إلـى الجمعيّة التأسيسيّة لعموم روسيا في أقرب وقت مستطاع، علـى أسـاس التّـصويت الـسريّ المباشر المتساوي العام ... فلنهتف منذ اليوم: عاشت الثّـورة الرّوسـيّة، عاشـت الجمّعيـة التأسيسيّة ،عاشت الحكومة المؤقّتة ....".[3]

ويتابع نيقولاي خطابه، فيذكر أنّ الحكومة المؤقّتة قد عيّنته مفوّضـاً لجيـوش الجبهـة الغربيّة، وصرّح أنّه لايوجد فرق بين الجنود وقائد الجـيش، ولا توجـد رتـب ولا ألقـاب، والحكومة المؤقّتة تقترح تشكيل لجان الجنود في جميع الجيوش، وذكر نيقـولاي للجنـود أنّ

---

[1] - انظر: المرجع السّابق، الصفحات ص 317، ص 318.

[2] - انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 319 حتّى 332.

[3] - المرجع السّابق، ص 332

الوصيّة الأولى للثّورة هي الإخلاص لحلفائهم، وعلى الجيش الرّوسيّ الثوريّ الحرّ أن يهاجم بقوّة جديدة عدوّ الحرّية الألدّ، ألمانيا الإمبرياليّة ....

يسافر تليغين وداشا إلى بتروغراد، وتبقى كاتيا وحيدة، وتصلها برقيّة تخبرها عن موت نيكولاي إيفانوفتش متأثّراً بجراح بليغة أصابته أثناء تأدية واجبه النّبيل، ويأتي لتعزيتها فاديم بتروفيتش روتشين....

تتلقى داشا رسالة من شقيقتها تخبرها فيها بوفاة نيكولاي إيفا نوفيتش، وأنّها عزمت السّفر إلى بتروغراد، ثم عند وصول كاتيا تقيم في بيت خشبي غير بعيد عن شقّة داشا.[1]

وكانت كاتيا تكتب لفاديم روتشين كلّ يوم، وعندما نفدت النّقود القليلة التي تركها لها زوجها نيكولاي قرّرت بيع شقّتها القديمة ....، ويأتي إيفان إيلتيش لزيارتها، ويخبرها عن العمال المضربين في مصنع البلطيق، وعن عقد اجتماع في المصنع، خطب فيه بلاشفة، وقالوا جميعاً إنّه يجب إنهاء الحرب، ولا تنازلات للحكومة البرجوازيّة. ثمّ يزور روتشين داشا وكاتيا، ويُخبرهما أنّه جاء من مقرّ القيادة العليا يحمل إلى وزير الحربيّة أخباراً مقلقة جدّاً، فالجيش لم يعد له وجود، والجنود يفرّون من الجبهة، وما من إمكانيّة لإيقاف انهيار الجبهة، وأنّه يحمل خطّة إلى وزير الحربيّة لإنقاذ الجبهة، والخطّة هي إعلان التّسريح التّام للجيش في أسرع وقت، والحفاظ على المدفعيّة، واحتياطات التّموين، والتأكيد لحلفائهم عن عزمهم على المضيّ في الحرب، وإقامة حاجزٍ من الوحدات الموثوقة في منطقة نهر الفولغا، والبدء بتكوين جيش جديد نواته من وحدات المتطوّعين، وبدء الحرب من جديد معتمدين على مصانع الأورال وفحم سيبريا وقمحها....

تقابل كاتيا روتشين، وتسير معه عبر جسر ترويتسكي.[2] يقول الكاتب في نهاية الجزء الأوّل من روايته:

"نادى روتشين وتناول يد كاتيا النّحيلة وتابع سيره البطيء في الجادّة الواسعة التي ركنت إلى الهدوء مع هبوط الظّلام بينما الشّفق المسائي لم يهمد بعد في طرفه القصيّ.

-ستمّر سنون، وتزول الحرب، وتهدأ الثورات، ويبقى شيء واحد غير خامد هو قلبك الحبيب الوديع الرّقيق.....".[3]

---

1 - - انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 333 حتّى 349.

2 - انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 350 حتّى 363.

3 - المرجع السّابق، ص 365.

هذا الجزء من هذه الرّواية التّاريخيّة يرصد أحداثاً تاريخيّة حقيقيّة، وهي الثّورة الرّوسيّة الأولى وهي ثورة شباط (فبراير)عام1917، والتي أُطلق عليها فيما بعد الثـورة البرجوازيّـة التي أطاحت بالنّظام الملكي أو القيصري الذي حكم روسيا حوالي ثلاثمئة عامٍ من خلال أسرة رومانوف، أمام الحكومة الانتقاليّة التي أيّدت المشاركة في الحرب العالميّة الأولى ضدّ ألمانيا.

ولكّن قسماً من الحزب الشّيوعي الرّوسيّ وهو حزب البلاشفة (الأكثريّة) بقيـادة لينـين (1870-1924) عدّوا هذه الثّورة ثورة برجوازيّة، ويجب الثّورة على الثّورة برأيهم كما عدّوا الحرب العالميّة الأوّلى حرباً إمبرياليّة يجب على روسيا الخروج منها، ولـم يثـق البلاشـفة بالحكومة المؤقتّة الانتقاليّة، ولذلك فإنّ الأحداث التي يصوّرها هذا الجزء هي أحداث حقيقيّـة من حيث سقوط النّظام القيصري وإعلان النّظام الجمهوريّ.

ولكّن هناك شخصيّات من صنع خيال المؤلّف، من هذه الشخـصيّات الـشقيقتان كاتيـا وداشا اللّتان برزتا في الجزء الأولّ من الرّواية، ولذلك كان عنوان الجزء الأول "الشقيقتان".

الكتاب الثاني: "عام 1918"

بعد أن أنهينا الكتاب الأوّل من "درب الآلام" ذاكرين أهمّ الأحداث فـي هـذا الكتـاب سنحاول قدر الإمكان ذكر الأحداث المهمّة في الكتّاب الثّاني من الرّواية الذي سـمّاه الكاتـب "عام1918"، وفيه سوف نقرأ عن روسيا الخارجة من الحرب، وعن الأحـداث التـي انتقـل نبضها إلى الجنوب، وعن درامات القفقاس وسامارا، ومنطقة القوزاق، والألمان في أوكرانيـا، والكريملين الذي يقود النّضال في سبيل السّلطة السّوفييتيّة ....، وفي نهاية الكتاب الثّاني يعود إلى البروز في وضوح الإحساس بأنّ "أيّ شيء لم يتغيّر"، وتتّضح لنا رؤية الكاتب تولستوي، وهي ضياع روسيا وعدم وجودها.

يبدأ الكاتب كتابه الثّاني بعبارات تدلّ على إيمانه العميق بالشّعب الرّوسيّ فيقول:

"غرقنا في الماء ثلاثا، وسبحنا بالدم ثلاثاً، وسُلقنا بالمحلول القلوي ثلاثـاً، فـلا أنظـف منّا".[(1)]

يذكر لنا الكاتب في بداية كتابه الثّاني أنّ كلّ شـيء قـد انتهـى، وأصـبحت شـوارع بطرسبورغ خالية راكنة إلى الهدوء، وأنّ بطر سبورغ كانت رهيبة في أواخـر العـام1917،

---

[1]- تولستوي، ألكسي: م2، الكتاب الثّاني (عام 1918)، ترجمة: غائب طعمة فرمان، دار رادوغـا، فـرع طـشقند، 1984، ص 3.

وفي اللّيل ظلام دامس، أمّا سمولني وهو مقرّ السلطة السوفييتية الأولى، ومقر هيئة أركان ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى في 1917، هذا المقرّ كان غارقاً في الضوء، والزّوبعة الثلجيّة تعربد فوق المدينة المعذّبة المثقّبة بالرصاص ..، وكان الرّوس يعودون بالملايين محشورين في قطارات لا نهاية لها، قادمين من الجبهة إلى بيوتهم في القرى، هؤلاء الرّوس الذين كانوا قبل ثلاثة أعوام لا يسألون كثيراً من يحاربون، ولأيّ شيء، وعندما عرفوا ما هي الحرب، سرت الرّعدة في أجسادهم، والزغللة في عيونهم، فقد قرّروا الثّورة، وبدا كأنّ الزّمن قد ارتدّ إلى القرون الخوالي. كان ذلك شتاءً، حين بدأت الثّورة الثّانية، ثورة أكتوبر ....، ونادى الهاربون من الجيش بسقوط الحرب الإمبرياليّة، ومنهم فاسيلي روبليف الذي التقى به إيفان تليغين، وشرح له أنّ الألمان -إذا شاؤوا- يستطيعون أن يكونوا في بتروغراد، وبتروغراد هو الاسم الذي أُطلق على بطرسبورغ من1914 حتّى 1924 .[1]

ويوضّح تليغين لروبليف أنّه إلى جانب روسيا، في حين أنّ روبليف إلى جانب الثّورة، فيخبره روبليف أن لا أحد الآن يستطيع إنقاذ روسّيا والثّورة غير السّلطة السّوفييتيّة، ولا شيء في العالم أهمّ من ثورتهم. بعد ذلك يعود تليغين إلى شقّته، فيجد زوجته كعادتها وحيدة حزينة بسبب وفاة ولدها في اليوم الثّالث من ميلاده، وكان ذلك قبل شهر، وكانت ولادتها متعسّرة، تمّت بعد صدمة عصبيّة فظيعة أصابتها.... أمّا أختها كاتيا فقد أخذت زوجها فاديم روتشين إلى أبيها في سامارا، وكانت أحاديث أبيها السّياسيّة قد ازدادت، وكان دميتري ليبراليّا قديماً، وهو الآن يسخر على ماكان مقدّساً في الماضي، وحين انتقلت السّلطة في سامارا إلى سوفييت النّواب وامتنعت غالبيّة الأطّباء عن العمل، عُرض على دميتري منصب المدير العامّ لمستشفيات المدينة، وكان روتشين زوج كاتيا يعيش مع دميتري في شقّته، يتصفّح كلّ يوم "أنباء سوفييت سامارا" وكان كلّ سطر فيها يلذعه كالسّوط،[2] وممّا كان يقرؤه من تلك الأنباء ما يلي:

"... إنّ مؤتمر سوفييتات نوّاب الفلاحين لعموم روسّيا يدعو فلاحي وعمّال وجنود ألمانيا والدّولة الهنغاريّة - النّمساويّة إلى أن يقاوموا بلا هوادة المطالب الإمبرياليّة لحكوماتهم ... إنّ المؤتمر يدعو جنود وفلاحي وعمّال فرنسا وإنجلترا وإيطاليا إلى إجبار حكوماتهم المتعطّشة للدّماء على أن تعقد على الفور سلاماً نزيهاً ديمقراطيّاً مع جميع الشعوب.. فلتسقط الحرب الإمبرياليّة ! وعاشت أخوة شغّيلة جميع الأقطار !".[3]

---

[1] - انظر: المرجع السّابق نفسه، الصفحات من 3 حتّى 8.

[2] انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 9 حتّى 20.

[3] - المرجع السّابق، ص 20.

يتابع الكاتب تولستوي سرده للأحداث فيذكر أنه مع الشّتاء، سرت شائعات في المدينـــة، فقد قيل إنّ الإنجليز والفرنسيّين تصالحوا مع الألمان سرّاً ليزحفوا على روسيا بقوى مشتركة، وشاعت روايات عن انتصارات أسطوريّة للجنرال كورنيلوف الذي يحطّم فـصائل الحـرس الأحمر، ويستولي على القرى القوزاقيّة، ويتهيّأ لهجوم عـام علـى موسـكو علـى أبـواب الصّيف....، وفي أوائل الشتاء كان سيلان من الجموع البشريّة يلتقيان فـي محطّـات ملتقـى الخطوط الحديديّة في جنوب روسيا، فقد كان سكّان العاصمتين ينزلـون مـن الـشّمال إلـى المناطق الغنيّة بالقمح في أحواض الدّون وكوبان وتيريك، ومن الجنوب، كان جـيش مـاوراء القفقاس يزحف بأسلحته ومدافعه، وانتشر اللّصوص والنّشالون على الخطوط الحديديّة، وكانت حواجز الحماية التي تقيمها الفصائل الحمراء قليلة المفعول، ولكنّ السّلطة السّوفييتيّة أخذت في نهاية تشرين الثّاني تظهر الجديّة في بسطها، فأنشأت الفصائل الثّوريّة الأولـى مـن البحّـارة والعمّال وجنود الجبهة ...، وكانت مناطق الدّون وكوبان حسب الخطّـة الموضـوعة آنـذاك مطوّقة من الجهات الأساسيّة الثّلاث: كان سابلين يتحرّك من الشّمال الغربيّ، وفصائل بحّـارة البحر الأسود تضغط من نوفوروسيسك، وسيفرس يزحف إلى روستوف ونوفو تـشير كاسـك بنصف دائرة، وفي الدّاخل يجري الإعداد لانتفاضة في مناطق المصانع ومناجم الفحم، وأصبح الحمر خطراً مميتاً، وثار العمّال في تاغا نروغ وعندئذٍ أرسل الأتمان كاليـدين إلـى رؤسـاء منطقة الدون بنداء يطلب فيه إرسال متطوّعين من القوزاق إلى التشكيلة العسكريّة –إلى جيش المتطوّعين - الذي كان يشكّله الجنرال كورنيلوف والجنرال ألكسييف، والجنرال دينكين فـي روستوف ... إلاّ أنّ أحداً لم يستجب لنداء الأتمان، فاقترح الأتمان على الرؤساء الأربعة عشر لدوائر قوّات قوازق منطقة الدون، وعلى ممثّلي "مركز موسكو لمكافحة الفوضويّة والبلشفيّة"، اقترح عليهم أن يسلّموا السّلطة إلى آخرين، وقال لهم إنّ الحكومة العسكريّة في حـلّ مـن أن تفعل ماتراه مناسباً ...، بعد ذلك خرج الأتمان إلى مقرّه، وسدّد رصاصة إلـى قلبـه، وفـي التاسع من شباط خرج الجنرال كورنيلوف بجيشه الصغير المؤلّف من المتطـوّعين، وغـادر روستوف إلى السّهوب وراء الدون ..، وتسافر كاتيا وروتشين إلى الجنوب.[(1)]

كان سيميون حتّى عام 1918 يخدم في أسطول البحر الأسود بحّاراً على ظهر المـدمّرة "كيرتش"، وكان هذا الأسطول تحت قيادة الأميرال كولتشاك الذي أقسم في عام 1917 يمـين الولاء للحكومة المؤقّتة، وكان يحضر في سيبا ستوبول اجتماعات البحّارة، ويطالب بـالحرب كوطني روسيّ، وسمع سيميون في الاجتماعات بأنّ الوطنيين ليسوا هم الذين يريدون استمرار الحرب، بل أصحاب المصانع والملاكّون الكبار، وأنّ الشّعب ليس بحاجة إلى هـذه الحـرب،

[1] انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 21 حتّى 28.

وبالرّغم من أنّ سيميون كان يحنّ إلى زوجته الشّابة ماتريونا فقد كان يُصغي إلى الخطباء، ويسكر، كالجميع، بخمر الثّورة ...، ثمّ لم يعد لسيميون الوقت ليفكّر في بيته، وزوجته، فقد خرج ليحارب، فروسيا من بحر البلطيق حتّى المحيط الهادئ، ومن البحر الأبيض حتّى البحر الأسود في غليان كدر حانق.

تصل كاتيا وزوجها إلى الدون، وينزلان في بيت المقدّم تيتكين، الذي كان روتشين يخدم تحت أمرته، ويخبر تيتكين روتشين عن المفوّض العسكريّ الرّفيق بروينيتسكي الذي يتصرّف كقاطع طريق، ويصيح قائلا إنّ الرّفيق لينين يقدّره، ويهتف له شخصيّاً.[1]

يقول تولستوي واصفاً ما حدث مع جيش المتطوّعين:

"لقي جيش المتطوّعين مقاومة جدّية جدّاً بالقرب من قرية كورينيفسكايا. ومع ذلك فقد استولى على القرية بخسائر كبيرة ....، قبل عدّة أيام استسلمت يكاترينودار عاصمة منطقة كوبان للبلاشفة بلا قتال ......، وهرب المتطوّعون من كوبان تحت أمرة بوكروفسكي وأتمان كوبان والحكومة المحليّة نفسها إلى جهة مجهولة. وهكذا وجد الجيش نفسه فجأة في دوّامة، وهو على مسيرة ثلاثة أيّام من الهدف".[2]

يقرّر روتشين ترك زوجته كاتيا، وتنفيذ خطّته، وهي الوصول في وحدة للحرس الأحمر إلى منطقة المعارك ضد جيش المتطوّعين، والتسلل إليه، فقد كان الجنرال ماركوف والعقيد نيجينتسيف من ضبّاط ذلك الجيش يعرفانه شخصيّاً.....، ويُرسل فوج فارنا فسكي إلى قرية نوفو - دميتروفسكايا لتعزيز القوّات المحليّة، ويغادر روتشين القرية مع فريق من المقاتلين متّجها إلى الأودية، وأخذ كورنيلوف يتقدّم ووصلت وحداته الأماميّة إلى شاطئ النّهر، وعبر الجيش النّهر، وزحف في المعركة باتجاه قرية نوفو - دميتروفسكايا، واشتبك الضبّاط في مناوشات بالسلاح الأبيض في الشّوارع مع جنود فوج فارنافسكي والأنصار.[3]

يقول تولستوي واصفاً مكر ودهاء كورنيلوف، وخديعته الحربيّة:

"وجاء آخر يوم من حملة كورنيلوف .....، كانت مهمّة وحدة الخيّالة الصدامية تنتزع من الحمر الوسيلة الوحيدة الموجودة في تلك الأماكن لعبور نهر كوبان بالقرب من قرية

---

[1] انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 39 حتّى 49.

[2] - المرجع السابق ، ص 57.

[3] - انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 62 حتّى 73.

يلزافيتينسكايا. وكان ذلك خديعة جديدة لكورنيلوف. فقد كان من الممكن أن يتوقّعوه من الجنوب ...، ومن الجنوب الغربي".[1]

تنشب معركة بالقرب ممّا يُسمّى "المزرعة"، ويستولي الحمر على المزرعة، ولكنّ قوزاق كوبان أجبروهم على التّراجع، أمّا كورنيلوف فقد اتّخذ مقرّاً لهيئة أركانه بيتاً من طابق واحد في المزرعة، وكان التفوّق للحمر في اليوم الأوّل، وفقد البيض حوالي ألف ضابط وجنديّ، وفي اليوم الثّاني من الهجوم اُستدعي الجنرال ماركوف مع فوج الضبّاط الذي كان يحمي معبر عربات الجيش، وكان روتشين جندياً في هذا الطّابور، وبساعة واحدة وصلوا إلى يكاترينودار، وكاليوم الأوّل لم يجلب اليوم الثّاني نصراً لجيش المتطوّعين، وضُعف الهجوم في اليوم الرّابع، وفي منتصف النّهار اجتمع مجلس حربيّ في غرفة كورنيلوف مؤلّف من الجنرالات ألكسييف وررومانوفسكي وماركوف ونوغايفسكي وفيليمو نوف ودينكين، وقرّر كورينلوف الهجوم على مدينة يكاترينودار، قائلا إنّه سيقود الهجوم بنفسه، ويُصاب القائد العام كورنيلوف بعد انفجار رهيب، ويموت، ويتسلّم القيادة بعده دنيكين.[2]

يقول الكاتب تولستوي مبيّناً نتائج حملة كورنيلوف:

"وفشلت حملة كورنيلوف وقُتل القادة الكبار ونصف المشتركين فيها. وبدا وكأنّ مؤرّخي المستقبل لا يحتاجون إلاّ لبضع كلمات لذكرها.

ولكن الواقع كانت "الحملة الجليديّة" لكورنيلوف ذات أهميّة كبيرة. فإنّ البيض وجدوا فيها لأوّل مرّة لسانهم، وأسطورتهم، ومصطلحاتهم القتالية صعوداً حتّى وسام البيض الجديد والذي يصوّر على شريط غيورغي القديس سيفاً وتاجاً من شوك".[3]

يذهب سيميون مع أخيه ألكسي كراسيلنيكوف إلى بيته الرّيفي، وتستقبله زوجته ماتريونا بفرح ..، وفي منتصف آذار بدأت القوّات الألمانيّة هجوماً على أوكرانيا والدونباس على طول الجبهة من ريغا حتّى البحر الأسود، وأخذ الضابط الألماني غريغوري كارلوفيتش ميل يخاطب فلاحي قرية فلاديميرسكويه، وأخبرهم بأنّ قوّات الإمبراطور غليوم الألمانيّة جاءت إليهم لتعيد لهم حياة النّاس الشّرفاء، ومن أجل هذا طرد الألمان البلاشفة، وأقام الألمان النّظام في قرية فلاديميرسكويه، وكان مدير الأعمال غريغوي كارلوفيتش مع جنوده يفتّشون بيوت فلاحيّ القرية بحثاً عن الحبوب والصّوف وشحم الخنزير والبيض لتقديمها إلى إدارة مؤونة الجيش

---

[1] - المرجع السّابق، ص 76.

[2] - انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 80 حتّى 93.

[3] - المرجع السابق، ص 93.

الألماني، ونُهبت القرية نهباً تامّاً، فأخذت النّساء تبكي في البيوت، داعكاتٍ بأيديهنّ الماركات الورقية التي لا فائدة منها بسبب توقّف المعامل، وكانت المؤن تُنقل بالقطارات إلى ألمانيا ...، ويقرّر كوجين مع بعض الفلاحين إثارة أهل القرية ضدّ الألمان والغايداماك....، وبلغت القوّات الألمانيّة حدود الدون وبحر آزوف وتوقّفت، وجاءت جماعة متطوّعين من رومانيا، واستولت على روستوف، وحاول الألمان إخضاع قرية باتايسك، ولكنّ القرية قاومت، وبقيت مستقلّة، وقصر الألمان جهودهم على تعزيز سلطة الأتمان، وتزويده بالأسلحة المأخوذة من مخازن الأسلحة الرّوسيّة في أوكرانيا، وسار المتطوّعون على وصيّتين: القضاء على البلاشفة، وتجديد الحرب ضد الألمان.[1]

يُحبط هجوم الجيش الأحمر على الألمان، أمّا روتشين فقد قوي، ونفّذ المهمّة التي كانت تعذّبه كمرض نفسي منذ خروجه من موسكو، وهي انتقامه من البلاشفة على الإساءة، ويتّهمه تيبلوف بأنّه يعمل في الجيش الأحمر، أمّا أونولي فقال عنه إنّه جاسوس، وفون ميكه أشار إلى معرفته الشخصيّة للجنرال ماركوف، وقال عنه إنّه بلشفيّ، ووغد، وقذر ...

كان جيش القفقاس الأحمر المؤلّف في معظمه من الجيش القيصري السّابق لما وراء القفقاس، يصل في عدده إلى مئة ألف مقاتل، وانتقلت قيادة المجموعة الشّماليّة إلى المقدّم كالينين، وانضمّ إلى جيش المتطوّعين العقيد دروزدوفسكي بجماعته، وبدأ الضبّاط يصلون من بتروغراد وموسكو ومن كلّ أنحاء روسيا، وكان جيش المتطوّعين يقوى كلّ يوم، وفي نهاية أيّار لم تكن قوّات الحمر المحلّية قادرة على سحق جيش المتطوّعين، فوجّه ضربة رهيبة إلى المجموعة الشّماليّة للجيش الأحمر بقيادة كالينين في محطّة تورغوفايا .

يتّفق إيفان إيليتش مع داشا على الافتراق، فأخذ إيليتش يسعى ليدخل الجيش الأحمر عن طريق روبليف، ثمّ رحل في قطار عسكريّ إلى الجنوب ....، ويذهب المفوّض سوكولوفسكي وتليغين إلى رئيس الأركان في مقرّ القيادة لطلب المساعدة وإنقاذ فوج "الحريّة البروليتاريّة"، ويستمع القائد العام سوروكين لهما، وكتب أمره على ورقة يأمر فيه آمر فوج فارنافسكي بالقيام فوراً بالزّحف، وتأدية واجبه الثّوري، ولكنّ رئيس الأركان يرفض التوقيع على الورقة، فهو لا يملك الحقّ في سحب وحدة عسكريّة واحدة من الجبهة، وكان العراك وإطلاق الرّصاص ظاهرة اعتياديّة في مقرّ هيئة الأركان، فقد كان جيش سوروكين يتألّف من جماعتين

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 94 حتّى 118

أساسيتين: القوزاق الكوبانيين، والأوكرانيين الذين جمعوا من بقايا الجيوش الأوكرانيّة الحمراء التي تراجعت تحت ضغط الألمان، وكان بين الجماعتين شحناء مزمنة.(1)

يقول تولستوي متابعاً سرد الأحداث:

"في تلك الأيام في أواخر أيّار، حين كان جيش دنيكين يقوم بـــ "حملة كوبان الثّانية" خيّم خطر جديد على جمهورية روسيا السّوفييتيّة. توجهت ثلاث فرق تشيكيّة في وقت واحد تقريباً في جميع القطارات من بينزا إلى أومسك زاحفة من الجبهة الأوكرانيّة نحو الشّرق.

وكان هذا التمّرد أول ضربة أعدّها مسبقاً المتدخّلون ضدّ روسيا السّوفييتيّة. كانت الفرق التشيكيّة قد بدأت تتشكّل منذ عام 1914 أولاً من التشيكيين الذين كانوا يعيشون في روسيا، ثمّ من أسرى الحرب، وقد أضحت بعد ثورة أكتوبر جسماً غريباً داخل البلاد، وراحت تتدخّل في الشّؤون الدّاخليّة بقوّة السّلاح".(2)

في 14 أيّار تحدث معركة خطيرة بين التشيكيين والمجريّين في محطّة تــشيليا بنـــسك، وأعلن رئيس المجلس العسكري الأعلى للجمهوريّة ردّه علـــى الأحـــداث بـــأن علـــى جميـــع السّوفييتيات تجريد التشيكوسلوفاكيّين من السّلاح، وتشكّلت جبهة جديدة للحرب الأهلية شـــملت مساحات هائلة في الفولغا والأورال وسيبيريا.

وعلى شاطئ ساماركا القذر قضى متطوّعون من الأهالي على فلول الحمر الفارّين مـــن ضواحي سامارا....

تكتب كاتيا لداشا رسالة تخبرها فيها عن مقتل زوجها فاديم، وتخبرها أنّها سمعت عـــن الحال السّيئة عندهم في بتروغراد ...، أمّا كاتيا فقد قابلت الأتمان ماخنو، ولكنّها لـــم تعرفـــه، وأخبرته أنّها أسيرة ... وكان ماخنو قد هاجم ضيعة ميرغورود ســـكي فـــي عيـــد الثـــالوث الأقدس، وأعلن الإرهاب، وسرت الشّائعات في القرى بأنّ الأتمان قد ظهـــر، وأخـــذ مـــاخنو بمهاجمة القوّات النمّساويّة بفصيلته الصّغيرة، وتبعه الفوضويّون، ولم تكن الفصائل الألمانيّـــة والنّمساويّة وهي تبحث عن ماخنو تجد شيئاً، فقد كان هذا الشيطان موجوداً في كلّ مكان.(3)

كانت داشا تعيش وحيدة في بتروغراد، ومرةً جلب لها كوليتشيك نيكـــانور يـــوريفيتش رسالة من أختها كاتيا، ولم تعرفه في البداية، فأخبرها بأنّه مـــساعد المرحـــوم نيكـــولاي زوج أختها، وكان مغرماً بها، لكنّها صدّته، وعندما قرأ رسالة كاتيا التي تخبر أختها فيها عن مقتـــل

---

[1] انظر: المرجع السّابق، الصّفحات من 119 حتّى 157.

[2] - المرجع السّابق، ص 160، ص 161.

[3] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 161 حتّى 208.

زوجها روتشين، يخبرها يوريفيتش أنّه رأى روتشين في وقت متأخّر، ويخبرها بأنّه من ضبّاط دنيكين، وطلب منها أن تجعله يبيت عندها لعدّة أيام، ووقعت داشا ببساطة ودون وعي في صميم مؤامرة مايُسمّى بـ "اتّحاد الدّفاع عن الوطن والحريّة" التي شملت العاصمتين وعدداً من مدن روسيا الكبرى، وكان سلوك كوليتشيك –عميل قيادة دنيكين- أهوج لا يكاد يُصدّق: أن يكشف نفسه بصراحة لامرأة لا يعرفها حق المعرفة، هي زوجة ضابط أحمر، ولكنّه كان يثق بداشا لأنّه يعشقها، وكان ما يُسمّى بـ "اتّحاد الدّفاع عن الوطن والحريّة" قد تأسّس في بداية ربيع عام 1918من قبل يوريس سافينكوف، وكان هذا الاتّحاد بمثابة منظّمة سريّة لجيش المتطوّعين، وصدّقت داشا كلّ ماقاله كوليتشيك حول الوطنيين الرّوس، ثم يطلب كوليتشيك من داشا أن تسافر إلى موسكو، وشرح لها من يجب أن تقابل في موسكو، والكلمات التي تنقلها إليه عن منظّمة بتروغراد، ويصل القطار إلى موسكو في منتصف النّهار، وأدهش داشا فراغ المدينة، ثمّ تتوجّه إلى شقّة كما أمرها كوليتشيك، وتقابل فيها رجلاً وامرأة، ويأمرها الرّجل أن تذهب إلى مقهى "بوم" في شارع تفير سكايا، ثمّ يطلب منها شاب يضع دبّوساً على شكل جمجمة أن تراقب خطب لينين، وتحضر اجتماعات عامّة، وتتردّد على المصانع، وشرح لها أنّ البلشفية هي لينين، وهم لن ينتصروا، ويدحروا الجيش الأحمر ما دام لينين في الكريميلين. ثمّ تلقّت عند تمثال غوغل تعليمات وأمراً بالحضور إلى أحد المصانع، وفي المصنع تكلّم الخطيب عن الوضع في الجبهات، وعن حصار القمح، وعن الألمان الذين يفتكون بأنصار أوكرانيا.....،[1] ثمّ تحدّث خطيب آخر عن مكافحة المجاعة، وكان هذا الخطيب رجلاً ربع القامة، ألثغ، جمجمته صلعاء، وخاطب الرّفاق قائلا :

"...لقد وقفنا، وسنقف يداً بيد مع الطبقة التي ناهضنا بها الحرب، مع التي أطحنا بها البرجوازيّة...، يجب أن نقف إلى جانب احتكار الحبوب حتى النهّاية....، أمامنا مهمّة ضرورة الانتصار على المجاعة ...، والدّفاع عن احتكار الحبوب، الدّفاع عن حقّ الدولة السّوفييتيّة، الدّفاع عن حق الدّولة البروليتاريّة. يجب أن نجمع كلّ فائض الحبوب ونعمل على أن تُنقل كلّ الاحتياطات إلى المناطق التي تحتاجها، وتوزيعها بصورة صحيحة. إنّ هذه المهّمة الأسّاسيّة هي الحفاظ على المجتمع الإنسانيّ، والعمل الجسيم ... وذلك لن يتّم إلا بطريق واحدة هي النهوض بالعمل على نحو مشترك..."[2]

ثمّ يتابع حديثه عن العمال والفلاحين، وأنّهم سيعتمدون على الكادحين الذين انتصروا بهم في أكتوبر، وذكر ثلاثة أفكار توجيهّية: الأولى توحيد الجميع في عمل مشترك تحت قيادة

[1] - انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 222 حتّى 267.

[2] - المرجع السّابق، ص 268.

المركز، والشّعار الثّاني: هو توحيد العمّال، والشّعار الثالث: تزويد الطبقة التّاريخيّة الجديدة بالوعي الطّبقي. وعندما أنهى خطابه هتف أحدهم:عاش إيلتيش. وبعد خروج داشا من الاجتماع أخبرت الرّجل صاحب الدّبوس عن الخطيب الذي قال أشياء عادلة، فشرح لها الرّجل أنّ لينين هو عميل القيادة العامّة الألمانيّة، وأنّ الألمان يرسلون البلاشفة لتأجيج الحرب الأهليّة....[1]

يبدأ جيش المتطوّعين بالهجوم، وهو مايسمّى بـ "حملة كوبان الثّانية" بعملية ضدّ محطّة تورغوفايا، وزحف هذا الجيش المؤلّف من تسعة آلاف رجل بقيادة دنيكين العامّة، وبدأ بعبور نهر يغورليك، فانسحبت وحدات الحمر شمالاً، وانتصر المتطوّعون في هذه المعركة التي أُصيب فيها روتشين، وقُتل الجنرال ماركوف ...، ثمّ يحاصر الجيش الحمر بالقرب من قرية بيستشانوكوبسكويه التي حارب أهلها إلى جانب الجيش الأحمر.[2]

وكان النّصر مذهلاً، وحصل جيش دنيكين على غنائم هائلة.....، ويُصاب إيفان إيليتش تليغين بخدش في رأسه، ويتذكّر زوجته داشا...، ثمّ يخبره أحدهم أنّ سوروكين عُين قائداً عامّاً أعلى، وكان هذا الذي أخبره هو الضابط غيمزا الذي أعطى تليغين رسالة يأمر فيها برمي سوروكين بالرّصاص، وطلب منه أن يوصل الرّسالة ...، أمّا فاديم بتروفيتش روتشين زوج كاتيا فقد كان يخدم في حامية المتطوّعين في محطّة فيليكوكنيا جيسكايا ..، ويلتقي روتشين في القطار بتليغين زوج داشا، ولكنّه يتذكّر أن تليغين في الجيش الأحمر، فهو عدّو له، ولا يمكن أن يكون غير جاسوس، وفكّر روتشين بأنّه يجب عليه الإسراع لإبلاغ القومندان، أمّا تليغين فقد توجّه إلى سيزران حيث كانت الجبهة التشيكوسلوفاكيّة ....، ثمّ يذهب تليغين إلى بيت الدكتور دميتري ستيبانوفيتش والد داشا، ويسأله عنها، ثمّ أخبره أنّه في جيش المتطوّعين، يحارب البلاشفة وقد أوفدته القيادة إلى الشّمال في مهمّة سريّة، فأعطاه الدكتور رسالة كانت داشا قد أرسلتها إلى أبيها تشرح فيها ما حصل لها، وكيف هربت مع نيكانور يور يفيتش إلى ماوراء الفولغا قبل سقوط ياروسلافل بيوم واحد ...، وبينما تليغين يقرأ الرّسالة، كان الدكتور في الدّهليز يطلب رقم الاستخبارات، ويدعو إلى التلفون سيميون سيميونوفيتش غفيادين شخصيّاً، وبعد قليل جاء رجلان يحملان مسدّسين للقبض على تليغين، وتدخل فجأة داشا لحمايته، ولكنّ تليغين يتمكّن من الهرب بعد أن يودّع داشا.[3]

[1] - انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 269 حتّى ص 273.

[2] - نظر: المرجع السّابق الصفحات من 275 حتّى 278.

[3] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 283 حتى 336.

كان جيش تامان تحت قيادة كوجوخ يشقّ طريقه إلى أعلى كوبان، ووصلت طوابير تامان إلى مدينة نوفورسييسك التي احتلّها الألمان بعد إغراق الأسطول، فانسحب الألمان من المدينة التي احتلّها القوزاق بعد مغادرة الألمان لها، ثمّ احتلتها قوّات البيض النظاميّة، وفي نهاية أيلول وصل جيش تامان إلى أرمافير التي كان يحتلّها الدينكيون، واستولى عليها، وكان سوروكين يتراجع أكثر نحو الشّرق...، أمّا الدكتور دميتري فقد شرح لابنته أنّه قام بواجبه، فزوجها تليغين بلشفي وجاسوس، فتطلب منه داشا أن يحمي زوجها ولكنّه يرفض ذلك، وفي تلك الليلة يخبره صوت من سمّاعة التلفون أن جثّتي غفيادين نائب رئيس الاستخبارات وأحد مخبريه قد اكتشفتا قرب رصيف ساموليتسكايا.

يصيب التحلّل جيش سوروكين، ويشتّد الخصام بين أفواجه، وهبّت قرى كاملة ضدّ جيشه، فتراجع إلى يكاترينودار، وتقدّم دنيكين بكلّ قوّاته إلى يكاترينودار، واحتلّ المدينة، وهكذا انتهت "الحملة الجليديّة" التي بدأها كورنيلوف قبل ستّة أشهر بحفنة من الضبّاط، وأضحت يكاترينودار عاصمة البيض ...، وفي العاشر من حزيران قدّمت ألمانيا للحكومة السّوفييتيّة إنذاراً نهائياً يقضي بأن ينقل أسطول البحر الأسود كلّه خلال تسعة أيّام من نوفوروسييسك إلى سيباستوبول، حيث كانت ترابط حامية ألمانيّة قويّة، وهدّدت ألمانيا، في حالة الرّفض، بالهجوم على موسكو. وحلّ لينين هذه المسألة الصّعبة كالآتي: محاربة الألمان غير ممكنة، ولكن تسليم الأسطول إليهم غير ممكن أيضاً.(1)

يقول الكاتب تولستوي مبينا نتائج معركة يكاترينودار:

"خرج بعد معركة يكاترينودار زهاء مئتي ألف من القوّات واللاجئين، والذين بقوا قتلوا وشنقوا وعذّبوا من قبل القوازق ، وفي كلّ قرية قوازقيّة كانت الجثث تتدلّى من أشجار الحور الهرميّة. وصاروا ينتقمون من الحمر الآن بلا رأفة، غير خائفين من عودتهم".(2)

ثارت الأفواج الأوكرانية، وانسحبت من الجبهة غير مكترثة بتهديدات سوروكين الذي نقل قيادته إلى بياتيغورسك، واضطرّ إلى الخضوع، ولم يعارض موسكو، وانتقلت سلطة القائد العام إلى الهيئة العسكريّة العليا.. ويصل غيمزا إلى بياتيغورسك واستدعى سريتين من الجبهة للحراسة، ثمّ يرسل سوروكين حرسه إلى شقّة روبين رئيس اللجنة التنفيذية المركزيّة، فيرمونه بالرصاص مع الأعضاء فلاسوف ودونايفسكي، وكرايني وروجانسكي ... وقدم سوروكين إلى المحاكمة، وسجن، وقبل سجنه خاطب المجتمعين عند مبنى السوفييت وقال إنّه

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 337 حتى 344. ص 355- 356.

[2] - المرجع السّابق، ص 357 .

القائد العام، وقوّاته حطّمت عصابات دنيكين، وطالب بتعيين لجنة للتّحقيق، وفي المحكمة قــام فيسلينكو عضو المحكمة- والذي كان يجلس بجانب غيمزا – بــإفراغ مــشط مــسدّسه فــي سوروكين ...، أمّا جيش تامان فقد حارب ثمانية وعشرين يوماً، ولم يبق من جيش تامان غير فلول هزيلة غادرت ستافروبول إلى بلاغودا تنويه.[1]

يتابع الكاتب تولستوي ذاكراً الأحداث التي وقعت، فيقول: إنّه قبل عــام، فــي تــشرين الأوّل طالبت الشّعوب السّاكنة في روسيا بإنهاء الحرب، وبسقوط البرجوازيّة ....، و قبل عام كان النّاس يهربون من الجبهة ...، و هزّت الفتن البلاد السّوفييتيّة من الــدّاخل، وتمّــرد فــي موسكو "الاشتراكيّون- الثّوريّون اليساريّون"، وذهب اثنان منهم إلى السّفير الألماني الكونــت ميرباخ، وأطلقا الرّصاص عليه ... ، وصار الجوّ داخل الكريملين عصيباً، وقامــت القــوّات بالهجوم على مقرّ الانتفاضة، وهرب جيش الاشتراكيين – الثّوريّن اليساريّن، واختفــى مــن موسكو قائده بوبوف ، ...، وقُضي على العصيان في موسكو وعلى الفولغا، إلاّ أنّ العــصيان كان يبزغ في كلّ مكان: تمرّد ضدّ البلاشفة، وضدّ الألمان، وضدّ البيض، غارات القرى على المدن، وبدأ عهد الجمهوريّات المستقلّة، وبذلت السلطة الــسّوفييتيّة قــصارى جهــدها لتكــبح الفوضى ...، وفي الثلاثين من آب، وبعد اجتماع في مصنع ميخلسون، أطلقــت الاشــتراكية الثّوريّة اليمينيّة كابلان النّار على لينين، وجرحته جرحا بليغاً ....، وقي الخامس مــن أيلــول ظهرت صحف موسكو وبتروغراد بعنوان مشؤوم هو "الإرهاب الأحمر"، وكتب تحــت هــذا العنوان "يُطلب من جميع السّوفييتيات على الفور اعتقال الاشتراكيّين - الثّــوريّن اليمينيــين، وممثّلي البرجوازية الكبيرة والضّبّاط، واعتبارهم رهائن ... وعند محاولة الهــرب أو القيــام بانتفاضة اللّجوء فوراً إلى إعدامهم الجماعي بدون قيد أو شرط ..."[2]

يقول تولستوي في آخر كتابه الثّاني "عام 1918":

"وانقضى عام1918 مندفعا كالزّوبعة الوحشية فوق روسيا ...، وكانت الجبهة في كــلّ مكان: في الشّمال الأقصى، وفي الفولغا قرب قازان ...، وفي شمال القفقاس، وعلــى حــدود المناطق المحتلّة من قبل ألمانيا ... وما من نهاية تُرى للحــرب، والمــستقبل حافــل باللّيــالي الدّامسة.

بعد القضاء على التمرّدات وكردّ على الوهن الخريفي جنّدت اللّجنة المركزيّة أصــلب الشّيوعيين في موسكو و بتروغراد وإيفانوفو – فورنسينسك، وأرسلتهم إلى الجيش. واتجهــت

1 - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 358 حتى 366.

2 - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 367 حتى 369

قطارات الشّيوعيين إلى الجبهات ونفذ الإرهاب الصارم إلى الجيش. وتكوّنت من الفصائل الممّزقة أفواج تخضع لإرادة واحدة هي إرادة المجلس العسكري الثّوري ....، وتحوّلت الجبهة الحمراء إلى الهجوم ...، وهربت فصائل البيض مذعورة أمام الإرهاب الأحمر. وبالقرب من تسارتسين، حيث كان ستالين عضو اللّجنة العسكريّة للجيش العاشر حدثت معركة هائلة دامية ضد جيش القوازق البيض للأتمان كراسنوف الذي كانت القيادة العامّة الألمانيّة تموّله وتحرّضه .. ولكن كلّ ذلك لم يكن إلا بداية لكفاح عظيم واستعراضاً للقوى قبيل الأحداث الرئيسيّة لعام 1919".(1)

يؤدي إيفان إيلتيش تليغين المهمّة التي أوكلها له غيمزا، ويعيّن آمراً لفوج قرب قازان، وكان من أوائل الذين شقّوا طريقهم إلى سامارا ...، وفي يوم خريفيّ سار على حصانه في شارع دفوريانسكايا، ونظر إلى نوافذ شقّة الدكتور بولافين المحطّمة، وتذكّر داشا التي لا يعرف أحد أين هي، أو ماذا حصل لها.(2)

يتحدّث الرّوائي ألكسي تولستوي في الجزء الثاني من روايته وهو "عام 1918" عن الحرب الأهليّة التي نشبت بعد ثورة أوكتوبر الاشتراكية عام 1917 بين أنصارها من جهة وبين أعدائهم من جهة أخرى، فكان أنصارها يلقّبون أنفسهم بالحمر وأعداؤها يلقبون أنفسهم بالبيض، ودارت هذه الحرب مدّةً طويلة زادت عن الأربع سنوات وانتهت بنصر البلاشفة (الأكثرية الحمر)، وفي عام 1918 جرت محاولة اغتيال لينين رئيس الوزراء في ذلك الوقت، وقائد الثّورة البلشفيّة، والأمين العام للحزب الشّيوعي الرّوسي، وجُرح لينين في كتفه، ولكنّ الإصابة لم تكن قاتلة، ولكنّها قصّرت حياته، فبعد ست سنوات توفّي أي عام 1924.

الجزء الثالث "صباح غائم"

أمّا الكتاب الثّالث من الرواية "درب الآلام" للكاتب ألكسي تولستوي فهو بعنوان "صباح غائم"، وكنّا قد أشرنا سابقاً إلى قول الكاتب حول هذا الكتاب الذي ذكره في سيرته الذّاتيّة في مقدمة كتابه الأوّل "الشقيقتان" حيث يقول إنّه في اليوم الذي بدأت فيه الحرب الوطنيّة الكبرى، يوم 22 حزيران 1941، فرغ من رواية "صباح غائم" التي كتب سطورها الأخيرة وصفحاتها الأخيرة يوم كان وطنه في نار الحرب، وهذا ما أقنعه بأنّ سبيل هذه الرّواية صائب كما يذكر في سيرته الذّاتيّة.

---

1 - المرجع السابق، ص 370، 371.

2 - المرجع السابق، ص 371

يبدأ الكاتب تولستوي كتابه الثّالث "صباح غائم" بحديث داريا دميتروفنا (داشا) مع رجل يُدعى كوزما كوزميتش نيفيدوف الذي تعرّفت عليه في قطار أخرجه القوازق البيض عن الخطّ، وتواصل السّير معه نحو تساريتسين للنفاذ منها إلى الجنوب، وأخبرته عن قصّتها، وعن تركها لأبيها ..، وتابعا سيرهما وهما لايعرفان الأحداث الدّمويّة التي كانت تجري في تلك الأماكن، فقد كان جيش الدون القوازقي العظيم المؤلّف من خمسة وسبعين ألف نفر قد عاد لمحاصرة تساريتسين بعد إخفاقات آب ..... وفي الطّريق يقبض عليهما جنود آمر فوج الحمر، وتخبره داشا عن والدها الدكتور بولافين وزير حكومة سامارا السّابقة، وأنّه عدّوها كما هو عدوّهم، فيخبرها الآمر أنّه يعرف زوجها إيفان إيلتيش الملازم الثّاني في الجيش القيصري، والذي كان آمر فصيلة في الجيش الأحمر الحادي عشر.[1]

أما إيفان تليغين زوج داشا فقد عُهد إليه تحميل الذخيرة، وإيصالها إلى تساريتسين، فقد كان الجيش الأحمر العاشر قد استنزف ذخيرته القليلة في معارك آب قرب تساريتسين، وكان يتذكّر زوجته داشا ....

أما فوج بيتر نيقولا يفيتش ملشين فقد بدأ يتراجع على طول الجبهة اليسرى من الدون صادّاً وحدات جيش الدون، وكانت شواطئ الدون تضجّ بين قريتي نيشني – تشير سكايا وكالاتش، فقد كانت أفواج جيش الدون العظيم تعبر النّهر، وكان الجنرال مامونتوف يراقب العبور..، وظلّت فرقة مروزوق تتقهقر ببطء تحت ضغط الطابور الخامس نحو ساريبتا، وقرية تشابورنكي الواقعة على بحيرة، ولم يترك الجنرال دينسوف الحمر يلتقطون أنفاسهم، وفي تساريتسين كان الشيوعيّون الذين أرسلهم المجلس العسكري يطلبون من العمّال في المصانع أن يتركوا العمل، ويحملوا السلاح، وينقذوا الجبهة...، وسقط قوزاق كثيرون في المعركة، وتراجعت الخيّالة البيضاء المحطّمة نحو الغرب ....، وأرسل إيفان إيلتيش مذكّرة إلى العقيد ميلشين، يخبره فيها أنّه يودّ رؤيته، لكنّ ميليشين لم يأتِ، ثمّ تلقّت بطّارية إيليتش أمراً بالاستعداد للمعركة، ويخطب إيلتيش في رجاله قائلا لهم: إنّ خيانة الثّورة هي أفظع من الموت، وكان لاتوغين، وبايكوف، وشاريغين من رجال إيلتيش، وأيضا سيرغي سيرغيفيتش الذي أبلغهم عن نجاح كبير حقّقوه قرب ساريبتا، وتحطيمهم فوجاً من مشاة القوازق، وفوجين من الخيالة .. وفهم إيليتش أنّ القوزاق لابدّ أن يتوغلوا في المنخفض، ولم يتمكّن العدوّ من خرق جبهة الحمر، وكانت الخسائر فادحة في جميع وحدات الجيش العاشر ...

[1] - انظر: تولستوي، ألكسي، الكتاب الثالث (صباح غائم)، ترجمة: غائب طعمة فرمان، دار التقدم، موسكو، 1976، الصفحات من 3 حتى 15.

يفكّر فاديم بتروفيتش في الهرب من الجيش ويقرأ عن نبأ اندلاع الثورة في ألمانيا، ومغادرة الإمبراطور غليوم مقرّ القيادة سرّاً، ويهرب إلى هولندة، ..ويسأل روتشين عن ماخنو.[1]

يقول الكاتب تولستوي واصفا الأحداث التي جرت فيما بعد:

"في بداية تشرين الثّاني كان فوج كوتشالين في الاحتياط للتعزيز والاستراحة ...، وكان بيتر نيقولايفيتش ميلشين الذي عهد إليه اللّواء كمفاجأة له نفسه قد تحدث في المجلس العسكري، وباقتراح منه عُيّن تليغين آمراً لفوج كوتشالين .. كما عيّن سابو جكوف مساعداً له، وإيفان غورا مفوّضاً للفوج. وضُمّت بطاريّة تليغين إلى مدفعيّة الفوج".[2]

عُيّن كوزما كوزميتش نيفيدوف في فوج تليغين في منصب غير رسمي هو كاتب الفوج، أمّا أنيسيا فقد كانت تعيش مع جنود تليغين، وقد سُجّلت في الفوج اسميّاً كجندي غير محارب، وكانت تغسل ملابس الجنود، وتؤمّن لهم الطّعام، وأنيسيا هذه كان القوزاق قد أحرقوا بيتها، واحترق والداها داخله...، أمّا تليغين فقد عادت إليه الحياة ببطء، بعد أن كان في غيبوبة مستديمة نتيجة إصابته من انفجار قنبلة، وتتعرّف عليه زوجته داشا، فيخبرها عن كآبته بعد افتراقهما في بتروغراد ...، أمّا كاتيا فقد اصطحبها ألكسي كراسيلنيكوف مع زوجة أخيه ماترينا في سفره إلى قرية فلاديمير سكويه، وأدركت أنّه يحملها كغنيمة لألكسي إيفا نوفيتش، وأخبرتها ماترينا أنّ ألكسي يحبّها، أمّا زوجها روتشين فقد توجّه من يكاترينوسلاف إلى غولاي، ولكن في الطّريق يقبض عليه فارسان، ويقودانه إلى باب كُتب عليه: "المركز الثّقافي التعليمي للجيش الثّوري الشعبيّ للأتمان ماخنو"، واستجوبه ليفازادوف الشديد البطش والذي كان موالياً للأتمان ماخنو، وضربه على وجهه فوقع روتشين مغشياً عليه.[3]

يقول الكاتب مبيّناً كيف قامت الجمهورية السّوفييتيّة بتنظيم جميع قوى الشّعب الرّوحيّة والماديّة:

"وكانت خطّة البلاشفة العسكريّة هي إخضاع كلّ شيء لمهمّات الدّفاع...، ومن ثمّ إنشاء جيش أحمر قوامه ثلاثة ملايين رجل، وتنظيم حماية في الشّمال، والقيام بهجوم في سيبريا وجنوب الأورال، وتشديد العمليات الهجوميّة بشكل رئيسي ضدّ قوزاق كراسنوف على الدّون، وضدّ دينيكين في شمال القفقاس. وأقامت جمهورية روسيا السّوفييتيّة الواقعة تحت ضغط

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 17 حتى 104

[2] - المرجع السابق: ص 104

[3] - انظر: المرجع السّابق ، الصفحات من 105 حتى 169.

الجيوش البيضاء من كلّ الجهات جبهة طولها أكثر من خمسة عشر ألف كيلومتر، أُضيفت إليها بعد ذلك جبهة معقّدة ومشربكة وهي الجبهة الأوكرانيّة. واشتدّ أوار الحرب الأهليّة بشكل خاصّ في أوكرانيا الغنيّة التي أحدث الاحتلال القريب العهد والحكم الهيتماني وعودة أصحاب الأراضي الانتقاميّة تصدّعاً عميقاً بين الفئات المختلفة من سكّانها".[1]

يلوم ماخنو لوفكا على ضربه لرونتشين، وعندما رأى صورة كاتيا، تذكّر رؤيته لها لأوّل مرّة، ويستجوب ماخنو رونتشين الذي يخبره أنّه مزّق هويّته العسكريّة، وجاء ليبحث عن زوجته، فيخبره ماخنو أنّ زوجته في السريّة السّادسة عند كراسيلنيكوف في ضيعة بروخلادني، وطلب منه أن يُدخل في ظنّ موفد البلاشفة أنّ ماخنو متواطئ مع جيش المتطوّعين وكان الموفد يُدعى تشوغاي...

يصل ألكسي كراسيلنيكوف إلى قريته فلاديمير سكويه، ويلتقي بأخيه سيميون، ويقرّر ألكسي أن يتّخذ كاتيا- التي كان قد ربحها من ماخنو في لعب الورق- خطيبةً له.[2]

بدأ تطويق جيش الدون لتساريتسين للمرّة الثالثة على التوالي منذ شهر آب، وفي هذه المرة جعل الجنرال مانتوف تساريتسين محاصراً من الجناحين، وبعد يوم بدأ هجوم خيالة الجنرال بوستوفسكي جنوباً بالقرب من ساريبتا واستولى بوستوفسكي على ساريبتا، وصار يهدّد تساريتسين من الجنوب...

وفي يكاترينودار هبطت طائرة إنجليزيّة، ونزل منها صحفي يُدعى بيتر بيتروفيتش جيرو، وكان يتكلّم الرّوسيّة، وتكلّم عن باريس، وعن كليمانصو المتعطّش للانتقام، وعن فوضى الثورة في ألمانيا، والاضطرابات في إنجلترا، وحكومة لويد جورج، ومسألة مساعدتها المباشرة بالقوّات لنوفوروسيسك...

وفي ضيعة بروخلادني كان رونتشين يعيش بلا أمل في إيجاد زوجته كاتيا، ويستجوب تشوغاي رونتشين، ويقترب جيش ماخنو المرتقب من السّهب، وفي الاجتماع طلب أن يُعيّن قائداً عاماً لجميع القّوات.[3]

اتّخذ ماخنو المحطّة مقرّاً لقيادته، واتخذت اللّجنة العسكريّة الثّوريّة مقرّاً لها في ساحة ملحقة بالمحطّة، وسارت فصائل العمّال نحو جادّة يكاترينسكي للقتال، أمّا رونتشين فقد شقّ طريقه نحو القائد العام ماخنو، وأخبره عن التعزيزات عند رأس الجسر، وعن الخسائر في

---

1 - المرجع السّابق، ص 169.

2 - انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 172 حتّى 191.

3 - انظر: المرجع السابق، ص 204 ص 205 والصفحات من 241 حتّى 269.

الرّجال...، وتحتلّ فصائل العمّال البريد والتلغراف ودوما المدينة والخزانة، وبدأ مشاة مـــاخنو يضجرون من القتال في المدينة، وكانت جميع نوافذ يكاترينوسلاف تهتّز من قصف المـــدافع، وهجمات فصائل العمّال والفلاحين ومشاة ماخنو على البيتليوريين، واقترح ميرون إيفـــانوفيتش إنذاراً نهائياً، ولكنّ القيادة البتليوريّة رفضت الإنذار، وفي ليلة اليوم الرّابع للانتفاضـــة أعلـــن المجلس العسكري الثّوري السّلطة السّوفييتيّة في المدينة. يرحل مـــاخنو بجيـــشه عـــن جـــادة يكاترينسكي، وتراكض مئات العمّال مع زوجاتهم وأطفالهم إلى الجسر، وعبـــروه، وعُرضـــت مسرحيّة "اللّصوص" لشيللر، وكانت فرقة التمثيل تتألّف من تليغين وزوجتـــه داشـــا وأنيـــسيا ولاتوغين وكوزما كوزميتش وإيفان غورا وأغريبينا، وسُرّ الجمهور بالعرض، وكان تليغـــين يجلس في الصف الأوّل بجانب المفوّض.

أثار اندحار الأتمان كراسنوف للمرّة الثّالثة قرب تسارتسين حيويّة في الجبهة الجنوبيّـــة كلّها حيث كانت تتسلّط بجيوشها الثلاثة على الدون والـــدونباس، وكـــان القائـــد العـــام فـــي سيربوخوف يستعجل الهجوم، وكان البيض قد احتلوا المعابر على نهر دونيتس، وتابع الجيش العاشر نحو الجنوب بناء على أمر القائد العام دافعاً ومحطماً فلول وحدات كراسنوف...، وفي مخبأ الأركان عند إيفان إيليتش استمرّ الاجتماع طول اللّيل، وكانوا ينتظـــرون أمـــر الفرقـــة بالهجوم، وتحدّث أمراء الوحدات عن معنويات وحـــداتهم، وعـــن رجـــال الجـــيش الأحمـــر المتهيّجين....، وكان دينيكين في الجبهة في قافلة من سبعة آلاف من مقاتلي جيش المتطوعين تحت قيادة كورنيلوف، وشقّوا طريقهم إلى يكاترينودار، وكان تليغين قبل بدء الهجوم قد وضع الاحتياط تحت قيادة سابوجكوف، وتراجع البيض من مانيتش وبحث تليغين عن إيفان غـــورا، فوجده منطرحاً على الأرض بعد أن خرقت رصاصة قلبه، وودّع المقاتلون الحمر المفـــوّض غورا فرداً فرداً.[1]

وتراجع الجيش العاشر من مانيتش شمالاً إلى تساريتسين شاقاً الحصار بجهود وضـــحايا ضخمة، وفي أحد المنخفضات هجم القوزاق على العربات المتراجعة، ووقـــع أحـــدهم أســـيراً وأخذ آمر السريّة موشكين يستجوبه ولكنّ أنيسيا نازاروفا عرفته، فقد كان هذا الأسير هو آمر السريّة نيقولاي نيقولايفيتش نيمشايف الذي أحرق ولديها. وجلدها مع رجال قريتها، ورفعـــت أنيسيا بندقيتها وأطلقت عليه النّار وقتلته.

تعمل كاتيا معلّمة في قرية فلاديمير سكويه، وكان ألكسي ينهب القرية وبيوت الفلاحـــين مع ياكوف وعندما طلب منه ياكوف المال المنهوب يقرّر ألكسي الهرب مع المـــال، وقـــد أراد

---

[1] انظر: المرجع السابق، الصفحات من 275 حتى 318.

أخذ كاتيا معه لكنّها ترفض، وتخبر ياكوف أنّها تريد السّفر إلى موسكو، ولكنّ القسّ ياكوف يطلب منها أن تعمل في القرية كمدرّسة، ولكنّ ياكوف يهرب، ويتخذ البتليوريون المدرسة مقرّاً لوحدة عسكرية، واستهلكوا جميع الكتب والدفاتر في المدرسة، لذلك قرّرت كاتيا أن تروي للأطفال الذين أحبّوها قصصاً من التّاريخ الرّوسي... ثم تأتي إليها ماترينا وتخبرها أنّ ألكسي الذي أضحى يسفك الدّماء في مكان قريب، وسيقتلها، لذلك أعطتها عربة ونقوداً وطلبت منها الرّحيل...، أمّا روتشين زوج كاتيا فقد تلقّى التّعيين الذي انتظره طويلاً في أركان لواء للطلبة العسكريّين، كان تشوغاي مفوّضاً له، وسافر إلى وحدته في كييف بعد خروجه من المستشفى. كانت عصابة زيليني التي انفصلت عن الأتمان غريغوريف تقترب من كييف محطّمة سوفيتيات القرى ومتصيّدة الشيوعيين...، أمّا تليغين فقد وصل مع سابوجكوف إلى مقرّ قيادة الجبهة الجنوبية في كوزولف.[1]

يقول الكاتب ألكسي تولستوي ذاكراً الأنباء الحربيّة، والتي علم بها تليغين وسابوجكوف:

"وكان الوضع العام كالآتي: القوّات العسكريّة للقائد العام دينيكين تواصل الهجوم نحو موسكو بثلاث تشكيلات، بعد توقّف قصير. وجيش شمال القفقاس بقيادة فرانفل يتقدّم على طول الفولغا قاطعاً وسط روسيا عن مناطق الحبوب- ما وراء الفولغا وسيبيريا-، والأتمان سيدورين على رأس جيش الدون...، وجيش المتطوّعين بقياد ماي- ما يفسكي الجنرال الموهوب"[2]

ويلتقي روتشين بتليغين الذي يسأله عن كاتيا، وبعد مضيّ شهرين لم يكن من الممكن إيقاف هجوم جيوش الجنرال دينيكين، وفي منطقة البلطيق انثالت النّوائب على الجيش الأحمر السابع، وكان كولتشاك حاكم روسيا الأعلى يضغط على الأورال بآخر جهد مستميت، وأصدر الجنرال يودنيتش أمره في قواته باقتحام بتروغراد..... واخترق الجنرال مامونتوف جبهة الجيش الأحمر للمرّة الثّانية، وتوغّل بفيلقه القوزاقي في غارة عميقة.

تعود كاتيا إلى موسكو، وتحصل على وظيفة معلّمة في مدرسة ابتدائية في منطقة بريسنا..، وكانت جحافل البيض تزحف على موسكو، وكان الأطفال في فترات الاستراحة يروون لكاتيا مختلف الأخبار فقد كانوا يعرفون ما كان يجري في حيّ بريسنا في موسكو، وهكذا عرفت كاتيا من الصّحف عن الثّغرة التي أحدثها البيض عند أوريل، وعن الخيانة في

---

[1] - انظر: المرجع السّابق، الصفحات من 322 حتّى 363.

[2] المرجع السابق، ص 364

الجبهة، وموت أفضل البروليتاريين، وسمعت صبيّتان ستيبان ميكولين الذي عاد من الجبهة جريحاً يقول لزوجته إنّه سوف يكتب لفلاديمير إيليتش لينين عن الخيانات في الجبهة، التي أدّت إلى سقوط أوريل، ثمّ أُعطيت مهمّة لخمسة فرسان وهم روتشين ودونديتش ولاتوغين وغاغين وزادويفيتر وهذه المهمّة هي النّفاذ إلى فورونيج، ومعاينة مواقع المدفعية ومقدار قوّات الخيالة والمشاة، ومن بعد ذلك تسليم الجنرال شكورو قائد الدفاع ظرفاً مختوماً فيه رسالة من بوديوني، ويُسلّمون الرسالة إلى الجنرال شكورو، وقد جاء فيها: " 24 تشرين الأوّل في الساعة السادسة صباحاً سأكون في فورونيج. آمرك يا جنرال شكور بأن تصفّ جميع القوّات المعادية للثورة في السّاحة، عند السّوق، حيث شنقت العمال. وآمرك بأن تقود الاستعراض بنفسك....."، وفي ليلة الثامن عشر من تشرين الأوّل تحرّك بوديوني، وكانت خطتّه تقوم على شنّ هجوم مضاد ضد الطوابير الثلاثة لفرقتي الدون وكوبان، وولّت جميع أفواج القوزاق الأدبار، واندحر الطابور الأوّل والثاني من رجال مامونتوف، وبدأ الطّابور الثالث بالتراجع، وتناثرت جثث القوزاق وتراجعت إلى وراء النّهر جميع فرق الدون وكوبان مدحورة، وعبر رجال بوديوني النّهر وأخذوا يهاجمون فورنيج.[1]

يقول الكاتب ألكسي واصفاً نتائج المعركة التّاريخيّة:

"كان دحر أحسن خيّالة البيض والاستيلاء على فورنيج أحد العمليّات الأوّلية لخطّة عسكريّة ضخمة وضعتها القيادة الجديدة للجبهة الجنوبيّة، وقد تلّقى قوّاد الجيوش والفيالق والفرق والألوية وأمراء الأفواج نسخاً من هذه الخطّة مطبوعة على ورق مزرق وموقّعة بتوقيع ستالين....، وخلافاً لتوقعات الجميع....، أو أولئك الذين كانوا يقضون السّاعات في غرفة استقبال حاكم أوربا في باريس... ، بل وخلافاً لما توقّع أنتون إيفانوفيتش دينيكين نفسه قام البلاشفة الذين كانوا في آخر رمق بشيء لا يتصوّره العقل، ونظموا هجوماً مضاداً جبّاراً... حتى تصدّعت كل السّياسة العالميّة لخنق وتقطيع أوصال روسيا الحمراء....، كما أنّ أفكار السّعادة للجميع والنّظام الاجتماعي العادل، تلك الأفكار التي ظُنّ أّنها قد انقبرت إلى الأبد تحت تلال جثث الحرب العالميّة، وقد انتشرت وكأنّ عاصفة نشرت بذور سدرة الجنّة في روسيا المعدمة المخرّبة...، إنّ الفلاحين الذين ما يزالون يحكون الحكايات، وعمّال المعامل.. يدحرون ويطاردون جيش دينيكين، وحطّموا وشتتّوا في ثلوج سيبريا جيش كولتشاك، وقبضوا على حاكم عموم روسيا، وهم الآن يدحرون ويطاردون اليابانييّن في الشرق الأقصى،

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 373 حتى 376 ومن ص 398 حتّى 433.

إنهّم، الملهمون بأفكار لينين، يؤمنون بأنهم أقوى من جميع مَنْ في العالم، وأنهم سيبنون على خرائب دولتهم المعدمة، وفي أقرب وقت مجتمعاً شيوعياً عادلاً"[1]

أمّا كاتيا فبعد أن انتهت من قراءة "الجريمة والعقاب" لدستويفسكي، طرقت على بابها صبيّة تُدعى كلافديا، وأخبرتها أن زوجة تشيسنوكوف تستدعيها لأنّ روتشين جاء من الجبهة وهو عندها، وفي بيت زوجة تشيسنوكوف كانت جميع زوجات العمّال الذين خرجوا من الجبهة، وكان القادم يتحدّث عن الشّؤون العسكرية، وعندما رأت كاتيا زوجها روتشين أخذت تتهاوى، وأخبرهم روتشين أنّها زوجته، وسارا سوية في زقاق ستاروكوينوشني، ودخلا بيتهما، وطرد روتشين ماسلوف الذي كان يعيش مع كاتيا في بيتها، وحدّث روتشين كاتيا عن دوران التّاريخ، وانهيار الحضارات العظيمة، عن روسيا التي خلقت الإنسان، والهدف الذي يعرفه كلّ مقاتل أحمر...، ثم تلتقي كاتيا بأختها داشا التي قدمت من يارسلافل......، وفي موسكو كان هجوم الجيوش الحمراء قد ابتلع كلّ القوى الحيّة ونفدت احتياطات القمح، وقد كان الوقت عصيباً في شتاء 1920، وفي الذكرى السّنوية للحملة الجليديّة هرب جيش المتطوّعين إلى نوفوروسيسك، وهاجر أنتون إيفانوفيتش دينيكين ليكتب مذكّراته في الهجرة، ودفع القوزاق ثمن عنادهم بقبورهم المنتشرة من فورنيج إلى نوفوروسيسك، وكانت المجاعة رهيبة في موسكو، إلا أنّ أفكار الجميع كانت متأجّجة، فقد دُمّر غول العداء للثّورة، وسيأتي قمح جديد، وسوف تشتغل الجيوش الحمراء المسرّحة بالعمل السّلمي وستنتهي كلّ مرارات المساءات الماضية.

يسافر إيفان إيليتش وروتشين إلى موسكو، ووصلوا إليها في صباح يوم غائم من آذار، واستقبلتهم كاتيا في محطّة القطار، ومشى الجميع إلى زقاق ستاروكونيوشني، ولحق بهم لاتوغين وأنيسيا، وقدّم لهم لاتوغين أربع تذاكر إلى مسرح البلشوي، وفي أعلى المسرح عُلقت خارطة روسيا الأوربيّة، وتكلّم أحد الرّجال عن مشكلة البناء الثّوري، وأشار إلى أنّ فلاديمير إيليتش لينين الجالس بينهم قد ألهمه إلى الخطّ العام للثورة الخلاّقة: الشيوعيّة هي السّلطة السّوفييتيّة زائداً الكهربة...، وكان ستالين الذي هزم دينيكين جالساً بالقرب من لينين، وأخبر تليغين داشا أنّه سيعود إلى المصنع للعمل، وهمس روتشين في أذن كاتيا: "سنحوّل العالم بجهودنا إلى مكان للخير... ليس هذا مجرّد خيال... وهذا في وطني، هذه روسيا".[2]

يقول الكاتب ألكسي تولستوي في نهاية كتابه "صباح غائم":

---

[1] المرجع السابق ص 434، ص 435.

[2] انظر: المرجع السابق، الصفحات من 437 حتى 452.

"لقد استقرّ العزم- كان الرّجل عند الخارطة يقول متّكئاً على العصا وكأنّه يتكــئ علــى رمح – إنّنا نقاتل وراء المتاريس من أجل حقّنا وحقّ العالم في أن نقضي وإلــى الأبــد علــى استغلال الإنسان للإنسان".[1]

وكما يقول النّاقد الصّحفي الشهير قسطنطين فيدين في مقدمة الكتاب الأوّل "الــشّقيقتان" من هذه الثلاثية: تُرسم اللّوحة الختاميّة للعاصمة الجديدة موسكو، منارة بأسماء جديدة لتــاريخ روسيا، و "الصباح الغائم من آذار" في نهاية الرّواية- كما يشير النّاقد قسطنطين- غير غــائم باليأس بل بالتشدّد الصّارم إزاء النّاس الذين شرعوا في بناء جديد، بعد أن مرّوا في كلّ دوائر الألم و "لا أنظف منهم".

تصوّر هذه الثلاثية الأحداث التّاريخيّة الكبرى التي عصفت بروسيا قبل ثورة أوكتــوبر الاشتراكيّة وفي أثناء الثورة وبعدها، ولكنّ الكاتب يصوّر هذه الأحداث متبنّيــاً وجهــة نظــر الحزب الشيوعي الرّوسيّ (السّوفييتي) فهو يعدّ الأحداث التي تلت الثورة بأنها انتصار للحــقّ على الباطل، وأنّ النّظام الجديد هو لصالح الطبقة الكادحة، ولمنع اســتغلال الإنــسان لأخيــه الإنسان، ولهذا قامت الثّورة بمنع بيع الأرض لأنها تُعدُّ ملكية عامّة لكلّ أبناء الوطن، وأممّــت الثّورة المصانع والمعامل فأصبحت ملكيّة عامّة.

إنّ رواية "درب الآلام" للكاتب الرّوسيّ ألكسي تولستوي، تشبه رواية الكاتب الــسّوري فارس زرزور "لن تسقط المدينة"، وأيضاً روايته "حسن جبل"، وكلا الكاتبين قد تنــاول الفتــرة التاريخية نفسها، وهي فترة النصف الأوّل من القرن العشرين، فالكاتــب ألكــسي تولــستوي يتحدث في روايته "درب الآلام" عن الحرب الأهلية التي جرت في روسيا بعد الثــورة، وبعــد نهاية الحرب العالمية الأولى، أمّا الكاتب فارس زرزور فيتناول في روايته "لن تسقط المدينــة" و "حسن جبل" ، نضال الشعب السّوري ضد الاستعمار الفرنسي.

ومن خلال المقارنة بين روايتي "درب الالام" و"لن تــسقط المدينــة"، نجــد أنّ هنــاك شخصيات حقيقية في كلا الروايتين، وكذلك هناك شخصيّات متخيلة، ولكنّ تــصوير الكاتــب تولستوي للشخصيّات في روايته أكثر غنىً، كما أنّه يتناول كــلّ شخــصيّة ويــدرس حياتهــا بالتفصيل، لذلك يمكننا أن نلحظ أن عدّة شخصيات في الرواية الرّوسية يمكن أن تكون أبطالاً للقصة، فالروائيون الروس بوجه عام يهتمون بأفراد الشعب البسطاء أكثر من الروائيين العرب الذي كانوا يركّزون على بطل واحد في الرواية. أمّا عند الكاتب فارس زرزور، فإنــه يركّــز على شخصيات قليلة، ويجعل كلّ الشخصيات الباقية تدور حولها، كما في روايته "حسن جبل".

---

[1] - المرجع السابق، ص 453.

رواية "قصة إنسان حقيقي" للكاتب الرّوسيّ بوريس بوليفوي:

ومن الروايات التاريخية التي تصوّر نضال وشجاعة الشعب السوفييتي، وقتاله في سبيل وطنه في الحرب الوطنيّة العظمى ضد ألمانيا الفاشيّة، رواية "قصّة إنسان حقيقي" للكاتب السوفييتي الصحفي الشهير بوريس بوليفوي، الحائز على جائزة الدّولة التي مُنحت له لقاء روايته "قصّة إنسان حقيقي" التي سوف نتحدّث عن أهمّ الأحداث التّاريخيّة فيها.

جعل الكاتب روايته أربعة أقسام، أتبعها بخاتمة، وفي هذه الرّواية صوّر لنا الكاتب قوّة إرادة الإنسان الرّوسي.

في القسم الأوّل من الرّواية يصف لنا الكاتب بوليفوي كيف وُضع الطّيّار ألكسي ميريسييف في مأزق، فقد وجد نفسه بعد أن أطلق كلّ ذخيرته، أعزل تماماً، وقد طوّقته أربع طائرات ألمانيّة، وقادته إلى مطارها الخاصّ، وقد حدث هذا عندما كان سرب من طائرات المطاردة بقيادة الملازم الأوّل ميريسييف يحرس عدداً من طائرات (الأيل) الذّاهبة لمهاجمة مطار ألماني، وقد حالف التوفيق هذه الغارة الجريئة، ولكنّ ألكسي ارتكب خطيئة، فانقضّ عموديّاً على طائرة نقل ألمانيّة ضخمة، وطارد طائرة (يونكرز) ثانية، ولكن لم يحالفه التّوفيق، وعاد وهاجمها بغتة وأسقطها، وبينما هو يستدير بطائرته عائداً إلى المطار الألماني، شاهد ثلاثاً من مطاردات سربه مشتبكة في قتال عنيف مع تسع طائرات ألمانية من نوع (ميسير شميت)، فاختار هدفه طائرة ألمانية انعزلت عن الأخريات، ولكنّ طائرته أصبحت فارغة عزلاء من الذّخيرة، ولاحظ الطّيّار الألماني ذلك، فأرسل إشارة لزملائه، وسرعان ما طوّقت أربع طائرت ألمانية ألكسي، ووضعته بين فكي كمّاشة، وقرّر ألكسي ألا يقع في الأسر، وحاول التملّص من تحت طائرة الألماني، ولكن أُصيب محرّك طائرته، وتدحرجت طائرته مندفعة إلى أسفل، واصطدمت الطائرة، عند سقوطها، بقمم أشجار الصنوبر، وتحطّمت أشلاءً، وأُلقي بألكسي في الهواء، وسقط على شجرة شربين ضخمة، وهوى على كثيب ثلجي، وفقد وعيه، وعندما حاول النّهوض سمع صوت تنفس صاخب، فظنّ أنّ بجانبه ألمانيّاً عدوّاً، وإذ به دبّ كبير قد جلس أمامه، وشدّ ثوب ألكسي بمخالبه، فأطلق عليه ألكسي طلقة من مسدّسه، فسقط الدّب صريعاً، وحاول ألكسي المشي لكنّه لم يستطع لأنّ العظام الصغيرة في مشط قدمه والأصابع فيهما كانت قد سُحقت، وسار على عقبي قدميه على الثلج...[1]

يقول الكاتب بوريس بوليفوي واصفاً معاناة ألكسي، وهو يسير على الثلج بصعوبة على قدميه المصابتين:

---

[1] - انظر: بوليفوي، بوريس: قصة إنسان حقيقي، دار التقدم، موسكو، 1950، ص 8 حتى 26.

"لم يخطر ببال ألكسي، وهو المولود في مدينة (كاميشين)، بين سهوب الفولغا، والمـدني غير المجرّب في شؤون الغابات، لم يخطر بباله في الوقت المناسب أمر تدبير مأوى أو إشعال شعلة للتدفئة، وها قد داهمته الظلمة، واجتاحه ألم لا يُطاق في قدميه المحطّمتين، المُجهـدتين، وهكذا لم يجد في نفسه القدرة على أن يحتطب ما يتدفأ به، فلجأ إلى عسالج كثيفة لـصنوبرات فتيّة، وجلس تحت إحداها، متكوّما على نفسه، ومخفيّاً وجهه بين ركبتيه، متدفئاً علـى وهـج تنفّسه"[1].

ولكي يخفّف ألكسي الألم الذي كانت تحدثه كلّ خطوة صار يحسب الخطوات والوقـت، وقرّر أن يسير في اليوم 10-12 كيلو متراً حتّى يصل إلى ذويـه خـلال أربعـة أيـام فـي الأقصى، وفي الليل هبّت عاصفة ثلجيّة، ولكنّه أشعل ناراً للتدفئة ولتحميه من الوحوش، ولـم يخف من الفاشست، فهم لا يجرؤون على الظهور في العاصفة الثلجيّة في غابة مجهولة نائية، وأحسّ بألم شديد ولم يستطع متابعة السّير، فصنع عكّازاً من غصون الـشجر، وكـان يدفعـه أمامه، ويتوكّأ عليه بذقنه ويديه، وكان ألكسي يتغذّى من قلافة صنوبرة فتيّة، وببراعم البتـولا والزيزفون، وبالطّحلب النّاعم، وكان يقشر كيزان شجر الشّربين... وفي اليوم السّابع لمـسيرته عرف ألكسي من أين جاءته أصوات المعركة البعيدة خلال تلك العاصفة الليلّية.

وعند أحد منعطفات الطّريق رأى ألكسي السيّارات الألمانية، وإلى جانب سيّارة مصفحة رقدت ثلاث جثث، ووقفت عربتا لاندوفر، محروقتين على الثلج، وتفحّـص ألكـسي سـاحة المعركة فرأى جثث الهتلريين وقد تمددت في الترع، فبرقت في ذهنه فكرة، وهي أنّ الأنصار ينبغي أن يكونوا على مقربة منه، فناداهم، وفجأة سمع طلقات صماء متكرّرة.[2]

وشعر ألكسي أن شيئاً ما حدث لساقيه، فلم يستطع الوقوف، وفي البعيـد كانـت تـدوّي أصوات قصف المدفعيّة، وزحف دون وعي، وشعر أن حركته صارت أسهل، فـربط علـى ركبتيه دثاراً من قشر الأشجار، وكان طعامه ثمار التوت البريّ الرّاقد تحت الثلج، وتابع زحفه وهو في حالة الغيبوبة، لا يثوب إليه رشده إلا حين يصطدم بشجرة، وصار يأكل من النّمـل، ويلتهم الثلج بدلاً من ماء الشّرب، وقرّر المبيت في حفرة ولكنّه عندما لم يستطع الخروج منها أخذ يحفر بأظافره في الرّمل المتجلّد حتى أدمى أصابعه، بعد ذلك وجد نفسه وسـط محتطـب كبير في الغابة، ثم سمع كلمات غريبة هتف بها روسيّ، وتجمّع حوله أطفال روسيّون سـألوه من يكون، فأخبرهم أنّه طيّار روسيّ، وطلب منهم المساعدة، فأمر سيريوجا من أخيه الأصغر فيديا أن يركض إلى القرية، ويدعو الناس، وبقي هو بجانب ألكسي يحرسه من الألمـان، ولـم

---

1 - المرجع السابق، ص 27-28.

2 - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 30-45.

يعرف ألكسي إلاّ فيما بعد التّاريخ المأساوي لقاطني قرية بلا فنـــي وقــصّة مــصيبتهم، فقــد اختطف الألمان، وأعدموا عدداً من فلاحيّ القرية، فهجر الفلاحون القرية لــيلاً، إلـــى أدغـــال الغابة، وحفروا أكواخاً في الأرض، وأحرق الفاشيّون القرية حتّى آخرها، وكان هذا ما أخبـــره سيريوجا لألكسي، وتحدّث عن والده رئيس الكولخوز الذي قتله الفاشست مع أخيــه الأكبــر، وبعد ذلك أتى جدّ سيريوجا العجوز ميخائيل، ولفّ ألكسي في فروة قديمة، وقد كان يبدو أشبه بكومة عظام جافة، ووضع الجد ألكسي على الزلاّقة، وربطه بحبل، وسحب الزلاقة مع حفيديه على الثلج، وكان أهل القرية يعيشون في أكواخ محفورة في الأرض قــد اســتعدوا لاســتقبال ألكسي، وتسابق الجميع لمساعدة ألكسي الذي أصبح يعيش معهم..[1]

يقول الكاتب مصوراً معاناة أهالي القرية:

"وقد رأى ألكسي في هذه القرية الغابيّة كثيراً من مثل هذا الذي أدهــشه بعمــق. كــان الفاشست قد حرموا ســكان قريــة بلافنـــي بيـــوتهم، والمؤونـــة، والمقتنيــات، والماشــية، والضّروريّات، والملابس، وباختصار، كلّ شيء ممّا كان ثمرة أتعــاب أجيــال كثيــرة، والآن صار النّاس يعيشون في الغابة مصطبرين على المصائب الكبيرة، معانين الرّعب من الخطــر الذي يمثُل أمام عيونهم في كلّ دقيقة من اجتياح الهتلريين لهم، وقد خبروا الجــوع والمــوت. لكنّ الكولخوز الذي تهيّأ للطليعيين من الفلاحين أن يؤسّسوه في عام 1930بعد جدل وخـــصام وشتائم لمدّة نصف سنة وبكثير من الجهد والعناء، هذا الكولخوز لم ينفرط عقده الآن، بل على العكس من ذلك، فإنّ ويلات الحرب الكبيرة قد لحمت الناس بعضاً بـــبعض... وقــد ســكنوا الأكواخ التي حفروها بشكل تعاوني...، وقد تولّى الجد ميخائيل مهمّــات رئاســة الكولخـــوز، مكان صهره الذي قتله الفاشست"[2].

وكان ألكسي يعيش في القرية التي عانت الجوع عند حلول الرّبيع، وذوبان الجليد، فبــدأ سكان القرية بالتفكير في البذار والحقول...، وفي صباح أحد الأيام سمع أزيز محرك طـــائرة "أو-2"، وغط في النوم، وعندما فتح عينيه رأى وجه صديقه رئيس سرب طائرات المطـــاردة أندريه ديفيتارنكو، وإلى جانبه كانت تقف الممرضة لينوتشكا، وفي البداية لم يتعــرف أندريـــه على ألكسي، وأخبر العجوز أندري كيف عثروا على ألكسي في المحتطَب، فسألهم الطيار متى وجدوه.

يقول الكاتب واصفاً دهشة الطيار من عزيمة ألكسي:

---

[1] - انظر: المرجع السابق، ص 48حتى77.

[2] - المرجع السابق، ص 79.

"واستذكر الطّيار في ذهنه التّواريخ وحساب الأيام، فتبين أن ألكسي ميريسييف قد زحف ثمانية عشر يوماً بتمامها. إن زحف مثل هذا العدد من الأيام، جريحــاً، دون طعــام، إن هــذا ليبدو ببساطة أمراً مستحيلاً.."[1].

ونُقل الملازم الأوّل ألكسي إلى الطائرة لتنقله إلى المستشفى العــسكري، وودّعــه أهــل القرية جميعهم.

في القسم الثّاني من الرّواية يصف لنا الكاتب ألكسي ميريسييف الذي وضع في أحــسن مستشفى عسكري في موسكو مع زميله الملازم كوكوشكين الذي أصيب في معركــة جويــة، وكان العاملون في المستشفى – جميعهم- ابتداءً من رئيسهم العالم الحائز على لقب الجــدارة، وهو نائب في المجلس السوفييتي الأعلى، وانتهاءً بــ (أيما) وهي مساعدة ممرضة كانوا كلهــم يواصلون المحافظة على أنظمة مؤسستهم ورعاية تقاليدهم، ووضع ألكسي في غرفة العقــداء بأمر من رئيس المستشفى البرفسور فاسيلي فاسيليفتش، وكان مــن نــزلاء الغرفــة: ســتيبان إيفانوفتش، وغريغوري غفو زديف بطل الاتحاد السوفييتي، وهو ملازم في سلاح الدّبابات[2].

وكان ألكسي يتلّقى رسائل من أمّه، ومن فتاة تدعى أوليا، كان ألكسي قد درس معها في المدرسة التكنيكيّة في المصنع، وبعد حين جلبوا إلى الغرفة جريح خــامس يُــدعى ســيميون فوروبيوف وهو مفوّض فوج، وكان يتعلّم اللغة الألمانيــة فــي المســتشفى، ويقــرر رئــيس المستشفى بتر ساقي ألكسي المسودّتين، وإجراء عمليّة له، ولكن حالة ركبتيه لا تحتمل تخــدير عام، وبذلك سيترتّب إجراء العملية تحت تخدير موضعي، وكان الألم رهيبــاً حــين نــشروا العظم، وعندما صحا رأى وجه الممرضة كلافديا ميخايلوفنا، وبعد العملية كان ألكسي صــامتاً أبداً، فقد صار يفكّر أنه لن يعود قطّ إلى الفوج، ولا إلى الطيران، والانطــلاق إلــى معركــة جويّة، فهو الآن مقعد، وكان أوّل من بارح المستشفى هو ستيبان إيفانوفيتش، وودّع رفاقه، بعد أن ارتدى ملابسه العسكريّة، وقد تألّقت على صدره نجمة البطل، ووسام لينين، وميدالية "لقــاء الشّجاعة"، وتماثل الجميع للشّفاء، وراح ألكسي يواظب على الأكل والنوم والدّواء والتمــارين الرياضيّة، فقد صمّم على الوصول إلى هدفه، وهو العودة إلى مهنة الطيار المطارد[3].

يقول الكاتب واصفاً حاله:

---

[1] - المرجع السابق، ص 102.

[2] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 114حتى122.

[3] - المرجع السابق، ص 129 حتى 179.

"كان ألكسي يعاني من حال غريب، فمنذ ذلك اليوم الذي أيقن فيه أنّه عن طريق التدريب يستطيع أن يتعلّم الطّيران دون قدمين ويصبح من جديد طيّاراً معتبراً، منذ ذلك اليوم تملكه تعطش إلى الحياة والحركة والعمل.

والآن صار هدف الحياة عنده هو العودة إلى مهنة الطّيار المطارد. وبذلك العناد الأسطوري الذي كان قد زحف به، فاقد القدرة على استعمال قدميه، إلى ذويه، انطلق الآن إلى هذا الهدف"[1].

ورغم أنّ رياضة القدمين كانت تسبب لألكسي ألماً حادّاً، فقد كان يزيدها في كلّ يوم، آملاً أن يستعيد قدرته على العمل، ويتحدّث من جديد إلى أوليا بشأن حبّه...، أمّا زميل ألكسي في الغرفة وهو المفوّض فقد مات في أوّل أيّار، وفي مساء ذلك اليوم، جيء بمريض جديد، وهو الطيار المطارد ستروتشكوف من فرقة الحماية الجوّية للعاصمة، الذي أُصيب في الغارة الكبيرة على العاصمة التي قام بها الفاشست في عيد أوّل أيّار، بعد أن أسقط طائرة (يونكرز) ألمانية...، ودُفن المفوّض باحتفال عظيم، وعندما سأل الرئيس الأول: من الذي يدفنون بالذات؟[2] أجابه قسطنطين كوكوشكين: إنّهم يدفنون إنساناً حقيقيّاً... يدفنون بلشفيّاً...

"ورسخ هذا في ذاكرة ميريسييف: إنسان حقيقي. لعلّه لن يستطيع بأفضل من هذا تسمية المفوض. وأراد ألكسي بكل قواه أن يصبح إنساناً حقيقياً، مثل هذا الذي شيعوه الآن إلى مقرّه الأخير"[3].

وبعد وقت وجيز من موت المفوّض غادر قسطنطين كوكوشكين المستشفى،.. ، وذات صباح صيفي دخلت كلافديا ميخايلوفنا إلى الغرفة تقود رجلاً مسّناً يُدعى زويف، وهو يحمل زوجاً من السّيقان الاصطناعيّة كان فاسيلي فاسيليفتش قد أوصاه عليهما، وعندما جرّبهما ألكسي قفز سريعاً من سريره، فسقط على الأرض، ولكنّه ظلّ يحاول المشي كلّ يوم....، أمّا غريغوري غفوزديف فقد غادر المستشفى في أواسط حزيران...

وكتب ألكسي رسالة إلى أوليا يخبرها فيها أنّه من الصّعب أن تنتظره، فقد يُقتل فجأة، أو يُشوّه، فالأفضل لها أن تنساه.....، وفي الأيام التّالية كان يحاول المشي دون عكّازات، وقد أهداه البروفسور فاسيلي عصاه الخاصّة.

---

[1] - المرجع السابق، ص 188.

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 190حتى 208.

[3] - المرجع السابق ، ص 209.

في القسم الثّالث من الرّواية يصف لنا الكاتب ألكسي بعـد خروجـه مـن المستـشفى العسكري في صيف عام 1942، وذهابه إلى مصحّ القوى الجويّة لغرض إكمـال المعالجـة، وفي المكتب استقبلته زينا فطلب منها ألكسي أن تعلّمه الرقص، وكان مفروضـاً لألكـسي أن يمكث في المصحّ ثمانية وعشرين يوماً، وبعد ذلك سيتقرّر فيما إذا كان سيقاتل، ويطير، لـذلك قرّر ألكسي أن تكون كلّ دقيقة من أيام المصحّ نضالاً من أجل أن يصير إنساناً حقيقيّاً، ودُهش الجميع عندما علموا أنّه يريد العودة إلى طيران المطاردة، وليس لديه قدمان، وأخـذت زينـا تعلّمه الرّقص، وأرسلت له أوليا رسالة تخبره فيها أنهّا تنتظره دائماً وأبـداً، وأعلـن نـزلاء المصحّ أنهّم يريدون التوجّه الفوري إلى الوحدات العاملة، وكان عليهم أن يمثلوا أمـام لجنـة الفحص، واجتاز ألكسي كلّ الفحوص وعندما سأله الطبيب عن جرحه ارتبك ألكسي، وعنـدما قرأ الطبيب ملفّ ألكسي الشخصي دُهش كثيراً[1].

ولكنّ ألكسي دعا الطبيب لمشاهدته في حفلـة راقـصة، وجلـس الطبيـب العـسكري ميروفولسكي عند النّافذة يراقب ألكسي وهو يرقص بمهارة، فأخبره برأيـه وهـو أنّـه مـع التدريب الملائم يمكنه أن يطير، وذهب ألكسي إلى قسم الذّاتيّة من أجل القـرار الـذي يقـرّر مصيره، وسأله الرئيس الأوّل عمّا يريده فأخبره ألكسي أنّه يريد أن يتسلّم تعيينـاً فـي فـوج طيّارات المطاردة، فظن الرئيس الأوّل أنّ ألكسي مجنون، وأرسله إلى قسم التشكيل ثـم إلـى قسم الذّاتية ولكن لم يسمحوا له بمقابلة الجنرال، وعندما قابل الجنـرال قـصّ عليـه قـصّته بالتفصيل، ورقص أمامه، وقرّروا إرساله إلى كتيبـة خـدمات المطـارات، فاسـتاء ألكـسي وأخبرهم أنّه يريد الطيران والقتال، ولا يسعى من أجل بطنه، وفي قاعـة الاسـتقبال جلـس جنرالات وعقداء يتحدثون بأمر ألكسي... ثمّ أمر الجنرال الهرم بتوجيه ألكسي إلـى مدرسـة الدراسة التدريبية التي كانت تقع في ضواحي موسكو بالقرب من مطار صغير.. وأخذ ألكـسي يبحث في فسحة المطار عن مدرب الفرقة الثالثة، الملازم ناوموف، الذي عـين هـو تحـت إمرته، وحضر ألكسي صباحاً إلى ساحة المطار، فأمره مدربه أن يطير في الطائرة رقـم "9" ...

ودخل ألكسي في القمرة بعد جهد خارق، وحين ارتفعت الطائرة في الجو كانـت عينـا ألكسي العنيدتان قد اعزورقتا بالدموع فجأة، وصنعت الطائرة أولى دوائرها فـي الجـو، فقـد طارت الطائرة جيداً حسب الأصول، وأخبر ألكسي مدربه أنه ليس له قدمان[2]..

[1] - انظر: المرجع السابق، ص211حتى 280.

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 283حتى313.

ومر على ألكسي أكثر من خمسة أشهر في مدرسة الدراسة التدريبية عندما وصلت الأنباء التي يذكرها الكاتب بقوله:

"وها قد ضجت الأنباء مفيدة بانهيار الألمان في ستا لينغراد، وبمصرع الجيش الألماني السادس، وأسر باولوس، فالهجوم الذي لم يُر له مثيل، والذي لا يقاوم قد بسط جناحيه في الجنوب. إن رجال دبابات الجنرال روتميستروف قد اخترقوا الجبهة وسحقوا، وقد شنّوا غارة جريئة، على مؤخرات العدو العميقة....

وحين كانت تحدث في الجبهة أحداث على غاية من الأهمية، وحين كانت تلعلع في سماء الجبهة معارك عظيمة، أضحى هذا بالنسبة لألكسي أصعب من تلك الأيام التي كان فيها يزيد عدد الخطوات على طول ممشى المستشفى... لكنه منذ كان في المستشفى قد آلى على نفسه أن يطير مهما كلّف الثمن. لقد وضع أمام نفسه هدفاً سعى إليه بعناد عبر الأحزان والآلام والتعب وألوان الخيبة"[1].

وذات يوم وصلت إلى ألكسي رسالة من أمّه تخبره فيها أنّهم طردوا الألمان من ستالينغراد، وأن أوليا تعمل الآن في كتيبة هندسة، برتبة ملازم، وقد مُنحت وساماً، وكتبت له أوليا أنهّم نُقلوا في سيّارة عبر ستالينغراد كلّها، فرأت تلالاً كاملة من الهتلريين الصرّعى، وأنهّا بعد معركة ستالينغراد تليق به هو بطل الأبطال...

وأخيراً قرّر المدرب ناوموف إجراء فحص لألكسي، وهنا تعيّن عليه الطّيران من الطائرة في طراز (أوت – 2)، وطار ألكسي طيراناً رائعاً أمام رئيس أركان حرب المدرسة ذاته، وخرج ألكسي ميريسييف من مدرسة التدريب بشهادات ممتازة، وقضى ميريسييف بقيّة الشّتاء وبواكير الرّبيع في مدرسة إعادة التدريب واستكماله، وأضحى ألكسي يشتاق إلى الجبهة، إلى جوّ القتال، وأخبره صديقه الرئيس الأوّل ستروتشكوف أنهّما سيحاربان حتّى الشّبع، وكان ألكسي يذهب في فترات الرّاحة إلى المطار، وكان يتقدّم من الطّائرة ويمسح جناحها كما لو كانت فرساً جميلة... وصار ألكسي يتدرّب وحده وكان يحاول التوغّل في تكنيك الطّيران، واستيعاب تفاصيله، ونتيجة التدريبات آمن ألكسي بأستاذيته من جديد، وقد التحم بطائرته، وجعل يشعر بها مّكملة لجسمه هو، وكان يقوم بعددٍ من الدّورات العميقة، ويقوم بانقلاب بطائرته الشهيرة (لا – 5)، وقد صار واضحاً له وللجميع أنه طيّار جيّد....، بعد ذلك وصلت إلى ألكسي رسالة من غفوزديف يخبره فيها أنّه جُرح بجناح طائرة ألمانيّة،

---

[1] - المرجع السابق، ص 314.

فقد كان غفوزديف يقود كتيبة الدّبابات في الغارة، واخترق فيلقهم جبهة الألمان المتقهقرين بعد أن عُزل الجيش الألماني السادس وحُوصر في ستالينغراد(1).

في القسم الرّابع والأخير من الرّواية يصف لنا الكاتب بوليفوي سيارة نقل قديمة كانت تجري في أحد طرق الجبهة في يوم صيفيّ قائظ من عام 1943، وكانت الطّريق معبّدة بقوافل فرق الجيش السوفييتي المهاجمة، وكانت السيّارة تجري باتجاه الجبهة مكتوب عليها عبارة "بريد الميدان"، وعلى رزم الجرائد الصّادرة حديثاً كان يجلس رجلان عسكريّان هما الملازم الأوّل ألكسي ميريسييف، ورأس العرفاء ألكسندر بتروف، ووصلا إلى مكتب آمر الفوج الذي طلب من الخفير أن يأخذهما إلى رئيس الأركان، وأن يعدّوا لهما الأمر الرسمي بإلحاقهما بسرب الحراسة بأمرة النّقيب تشيسلوف الذي قادهما إلى طائرتين جديدتين من طراز (لا – 5)، وكان على الطيّارَين الجديدين أن يطيرا بهما، وعادا إلى القرية، ونزلا في بيت صغير فيه تسعة نزلاء مع أم عجوز وابنتها الشابة مارينا التي أخذت تنتظر خلسة إلى بتروف، وبعد العشاء عرف الصديقان أنّ القرية إنمّا سلمت لأنّه في وقت من الأوقات حلّت بها هيئة أركان ألمانيّة، وعند بدء هجوم الجيش السّوفييتي فرّت هذه الهيئة بسرعة لم تفلح معها في أن تدّمر القرية، وقد رُجّ عقل العجوز بعد أن اغتصب الهتلريون أمامها ابنتها الكبرى التي أغرقت نفسها فيما بعد في البركة، أمّا مارينا فقد عاشت في مكان ما خلف الدّار دون أن ترى شمساً طوال الفترة التي أقام فيها الألمان في هذه المناطق، وتعرّضا في اللّيل للقصف، وهرب أهل المنزل، أمّا ميريسييف وبتروف، فقد توقّفا عند أنقاض البيت، ومن الفوضى طلع جنود الهندسة بمحفّة عليها العجوز وابنتها مارينا بعد أن وجدوهما في القبو تحت الأحجار...

وفي هذه الليلة انتقل الجيش الألماني إلى آخر هجوم كبير له على القطعات السوفييتية، وانطلقت الطيارات السوفييتية نحو الجنوب، وطار بتروف وميريسييف في أول طيران مشترك لهما... واستمرت معركة المدفعية(2). يقول الكاتب واصفاً المعركة:

"ويشتدّ أوار المعركة في قوس كورسك. وكانت خطط الألمان الأولية القاضية بتوجيه ضربة قصيرة مركزة سريعة من قوى الدبابات الجبارة.

وبتحطيم استحكاماتنا إلى الشمال وإلى الجنوب من كورسك، وتضييق الكماشة، وبتطويق كل تجمّعات الجيش السوفييتي في كورسك، وإقامة (ستالينغراد ألمانية) هناك، هذه

---

1 - انظر: المرجع السابق، ص 315 حتى 336.

2 - انظر: المرجع السابق، ص341 حتى 364.

الخطط قد تشوّشت بثبات الدفاع. وقد أصبح واضحاً للقيادة الألمانية منذ الأيام الأولى أنه ليس بوسعها تمزيق الدفاع.."[1].

ويذكر الكاتب أنه كانت لدى هتلر آمال عظيمة مرتبطة بهذه العملية، وأن خسائر الألمان كانت كبيرة، وقد صدّت القيادة السوفييتية ضربات الألمان بقوى الوحدات الأساسية المتوليّة أمر الدفاع.

بعد ذلك وصلت رسالتان إلى ألكسي من أمه ومن أوليا، واستدعي ألكسي إلى طائرته فدّس الرسالتين في عبّه، وكان عليه مع بتروف أن يغطّي مرور الدبابات عبر استحكامات العدو، وانطلق الفريق الثالث بالحركة، وتأهب فريق ميريسييف للانطلاق، ولقد كان العدو قريباً، وحدد ألكسي لنفسه هدفاً وهو طيار ألماني، وأصاب الطائرة الفاشية، وواصلت (صنادل الليف) الفاشية اتجاهها إلى المنطقة التي اخترقتها الدبابات السوفييتية[2].

يقول الكاتب واصفاً ما حدث:

"لقد حدث ما سيقرأ أنباءه في الجرائد غداً بجذل، الشعب السّوفييتي والعالم المحبّ للحرية بأسره. ففي أحد قطاعات قوس كورسك، بعد تمهيد جبّار من المدفعية لمدى ساعتين، اخترق الجيش خطوط الدفاع الألمانية، وتوغّل بكل قواه في الثغرة التي أحدثها، ممهّداً الطريق أمام القطعات السوفييتية التي انتقلت إلى الهجوم".[3]

ولم ترجع طائرتان من سرب النقيب تشيسلوف إلى المطار، وأسقطت تسع طائرات ألمانيّة، وتسلمت هيئة أركان الجيش أنباء استكشافية، تفيد بطيران جوي ألماني كبير إلى منطقة توغّل الدبابات السوفييتية، واستدعت القيادة الألمانية فرقة (ريختغوفن) الجوية المختارة طقومها من أفضل طياريّ ألمانيا، وانطلقت المجموعة الثانية يقودها الرئيس الأول فيدوتوف، بطل الاتحاد السوفييتي، وبينما ألكسي يتفحص الجو، محدداً لنفسه هدفاً، رأى صديقه بتروف بطائرته تهاجمه طائرة (فوك)، فانطلق لمساعدته، ولكن بتروف اختفى...، وعادت الطائرات السوفييتية العشر إلى المطار ما عدا طائرتي ميريسييف وبتروف، وفجأة وصلت طيارة بتروف، وكان جريحاً وسأل عن ميريسييف الذي أنقذ حياته...

وكان ألكسي ميريسييف بطائرته (لا-5) يهاجم طياراً ألمانياً ماهراً بطائرته (فوك – وولف – 190) وقد تمكن ألكسي من إسقاط الطائرة الألمانية، ولم يبق من البنزين في طائرته

---

[1] - المرجع السابق، ص 365.

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 366 حتى 378.

[3] - المرجع السابق، ص 379.

ما يكفي إلا لثلاث دقائق، ويلزمه عشر دقائق للطيران حتى المطار، ولكن ألكسي تمكن من الوصول أخيراً إلى المطار بعد أن طار الستة كيلومترات الأخيرة دون بنزين، وقدم ألكسي لآمر الفوج تقريره عن الطيران، وأخبره أنه أسقط طائرتي (فوك – وولف).[1]

في خاتمة الرواية يقول الكاتب بوليفوي:

"في تلك الأيام التي اقتربت فيها معركة أوريول من نهايتها الظافرة.. في تلك الأيام ورد إلى هيئة أركان جبهة بريانسك خبر مفاده أن طياري فوج مطاردات الحراسة، العامل في هذه المنطقة، قد أسقطوا في التسعة أيام الأخيرة سبعاً وأربعين طائرة من طائرات العدو. وفقدوا مع هذا خمس طائرات وثلاثة من الطيارين فقط...

لقد كان مثل هذا النصر باهراً حتى بالنسبة لأيام الهجوم العاصف للجيش السوفييتي تلك".[2]

ويحدثنا الكاتب أنه طار على طائرة مراسلة إلى ذلك الفوج عاقداً النية على أن يكتب في جريدة "البرافدا" عن مآثر طياري الحراسة... ويقابل الكاتب الصحفي ألكسي، والذي كان له ثلاث وعشرون سنة، ويذكر الكاتب كيف أسرته قصة ألكسي العجيبة، وكيف حضر اجتماع المحكمة العسكرية الدولية في نور نبرغ حيث تم استجواب غيرمان غورنغ (نازي ألمانيا الثاني) الذي تحدث للمدعي العام السوفييتي كيف انهار الجيش الفاشستي الجبّار تحت ضربات الجيش السوفييتي، وتحدّث عن الإنسان الروسي المحيّر ومقدرته الحربية الحقيقية[3].

يقول الكاتب بوليفوي:

"لقد أسميت الكتاب "قصة إنسان حقيقي" لأن ألكسي ميريسييف هو بالفعل إنسان سوفييتي حقيقي، لم يفهمه قط، ولم يتفهمه بحال، غيرمان غورنغ حتى ميتته المخزية ذاتها، والذي لم يفهمه، حتى هذا الوقت، كل أولئك الذين يميلون إلى نسيان دروس التاريخ، والذين هم الآن أيضاً في الخفاء يحلمون بالمضي في طريق نابليون وهتلر.

وهكذا ظهرت "قصة إنسان حقيقي"."[4]

يشير الكاتب إلى أنه بعد أن كتب هذا الكتاب، تمنى قبل نشره أن يُعرّف بطله الأساسي به، لكنه كان قد اختفى، وكانت الرواية قد نشرت في المجلة حين قُرع جرس التلفون، وسمع

---

[1] - انظر: المرجع السابق، ص 388 حتى416.

[2] -المرجع السابق، ص 422.

[3] - انظر: المرجع السابق، ص 423حتى 437.

[4] - المرجع السابق، ص 439.

بوليفوي صوت ألكسي، وعندما التقى الكاتب وألكسي حدّثه ألكسي كيف نفّذ مع فوجه الحملة الحربية للسنين 1943-1945، وكيف صفّى حسابه مع الألمان لقاء قدميه اللتين فقدهما في المعركة، وقد منحته الدولة لقب (بطل الاتحاد السوفييتي)، وأخبره أنه عندما أنهى الحرب تزوج من فتاته وولدت له فكتور.[1]

هذه الرواية شبيهة إلى حد ما برواية أبي صابر لسلامة عبيد، فكلتا الروايتين تصور معاناة إنسان وطني حقيقيّ في ظل الاحتلال الأجنبي، أحدهما اضطر لأكل النمل، وزحف ثمانية عشر يوماً على الثلج رغم إصابة قدميه، هو نفسه لم يظن أن لديه مثل هذه القوة. والآخر وهو أبو صابر أمضى سنوات عديدة في المنفى وفي السجن، وبعد ذلك عاد وتزوج وأنجب، وأنشأ أسرة، وكذلك ألكسي بعد انتهاء الحرب أسّس أسرة وأنجب طفلاً اسمه فيكتور، وبذلك فإنّ مصائر الناس البسطاء في ظل الاحتلال لدى شعوب مختلفة متشابهة، وأما المحتل فهو نفسه أيضاً سواء أكان ألمانياً أو فرنسياً، فصفاته واحدة هي القسوة والبطش والنّهب وبثّ روح الهزيمة والدّعاية المضادة للمقاومة، والكاذبة في أغلب الحالات، ومصيره واحد أيضاً فلقد انهزم الفرنسيون في سوريا، وانهزم الألمان في روسيا بعد أن ألحقوا بالشعب الروسي الخسائر الكبيرة المادّية والبشرية، وكذلك ألحق الفرنسيون الخسائر الكبيرة بالشعب السّوريّ.

إنّ شخصيّة الطّيار الرّوسي هي شخصيّة إيجابيّة وحقيقيّة، فالكاتب بوليفوي يتحدّث عن طيار روسي فقد قدميه في أثناء الحرب العالمية الثّانية، ومع ذلك استمرّ في القتال، وحقّق المعجزات، وبقي محافظاً على الرّوح الإنسانية فيه، فلم ينسَ حبيبته.

يصوّر الكاتب الرّوسي في قصّة "إنسان حقيقي" شخصيّة تكاد تكون أسطوريّة في بطولتها في سبيل الوطن لإيمانها المطلق بأنها تدافع عن الحقّ، وأنّ الجندي الألماني جاء معتدياً أو محتلاً لأرض غيره، وبذلك فإنّ هذه الشخصيّة تشبه في صفاتها الإيجابية الشخصيّات التي أبدعها الأدباء العرب مثل فارس زرزور وسلامة عبيد، إذ رسموا شخصيات عربية قدّمت تضحيات أسطورية في سبيل الدفاع عن أرض الوطن ومعاداة المحتل الفرنسي.

فهنا الموقف واحد وهو موقف أناس يدافعوان عن وطنهم والحقّ إلى جانبهم في الرواية الروسية وكذلك في الرواية العربية السورية، وكذلك الأبطال متشابهون.

[1] - انظر: المرجع السابق، ص 439- 440- 441.

رواية "الحرس الفتي" (1946) للكاتب الرّوسيّ ألكسندر فادييف :

من أشهر الرّوايات الرّوسيّة التي خلّدت الأحداث البطوليّة للحرب الوطنيّة العظمى، رواية "الحرس الفتي" للكاتب الرّوسيّ ألكسندر فادييف (1901- 1956) مؤلّف الرّوايتين الشهيرتين عن الحرب الأهليّة "الهزيمة" و"الأخير من أوديجه".

تتألّف رواية "الحرس الفتي" من جزأين، ومن خمسة وستين فصلاً، أمّا أحداث هذه الرّواية فهي مستقاة من الواقع الحيّ، ففي يوليو 1942 احتلّت القّوات الفاشيّة مدينة كراسنودون في أوكرانيا، وراحت تلقي القبض على مواطنيها الآمنين وتنفّذ فيهم أحكام الإعدام، ومثل كلّ أراضي الاتّحاد السّوفييتي التي احتلّها الهتلريون، ظهرت قوّات المقاومة الشعبيّة في كراسنودون تناهض العدّو المحتلّ، واشترك الشّباب في هذا النّضال إلى جانب الشّعب كلّه، وانضمّ حوالي مئة فتى وفتاة إلى منظّمة "الحرس الفتي" السرّية التي سرعان ما عرف العالم أجمع ببطولتها الخالدة.

وقام الكاتب ألكسندر فادييف بالسّفر إلى كراسنودون فور جلاء المحتلّ عنها، وبعد أن فرغ من دراسة الوثائق والمستندات، وقبل أن تجفّ دماء شهدائها سجّل الكاتب هذه الرّواية تخليداً لبسالة وجرأة وبطولة الشّباب السّوفييتي المجيدة.

إذاً تتناول رواية "الحرس الفتي" قصّة الحقيقة القاسية حول الحرب الوطنيّة العظمى، وقصّة الاحتلال الألماني، وأحداث عام 1942 المؤلمة، وقد استمالت هذه الأحداث الكاتب فادييف، فكتب روايته هذه في تلك الأيّام التي كانت الحرب تقترب فيها من نقطة النّهاية التي تعلن الانتصار، لذلك تُعدّ رواية "الحرس الفتي" من أشهر الرّوايات التي كُتبت عن الحرب الوطنيّة العظمى في روسيا. وقد بذل الكاتب في هذه الرّواية جهداً عظيماً، ليبيّن لنا صفات الشّعب الرّوسيّ وبخاصّة الشّباب الرّوسيّ، ويوضّح بطولاته العظيمة التي قام بها من أجل تحقيق النّصر على العدّو الألمانيّ.

كما أبرز الكاتب في هذه الرّواية المشاعر الدّاخلية للإنسان الرّوسيّ والأفكار التي يؤمن بها. يقول الكاتب الألماني يوهانس بيهر حول رواية "الحرس الفتي":

"أنا لا أعرف رواية غيرها عبّرت بشكل أكثر نفاذاً وأسراً عن ذلك الشّعور المتأصّل لدى الشّعب السّوفييتي، الشّعور بالوحدة الإنسانيّة، والوعي بمسؤوليّة المواطن السّوفييتي نحو المجتمع بأسره، رواية جعلتنا نشعر بأنّ هذا العديد من الشخصيّات المتنوّعة المتناقضة كلّياً في بعض الأحيان أحياء من لحم ودم".

أمّا شخصيّات رواية "الحرس الفتي" فهي شخصيّات حقيقيّة، لأنها شخصيّات تاريخيّة، خلّد التّاريخ ذكراها، ومن هذه الشّخصيّات، أعضاء منظّمة "الحرس الفتي" وهم: أوليج كوشيفوي، إيفان زيمنوخوف، أوليانا جروموفا، سيرجي تيولينين، ليوبوف شيفتسوفا، أنا تولي بوبوف، نيكولاي سومسكوي، فلاديمير أوسموخين، أنا تولي أورلوف، سيرجي ليفاشوف، ستيبان سافونوف، فيكتور بيتروف، أنطونينا يليسيينكو، فيكتور لوكيانتشنكو، كلافديا كوفاليفا، مايا بيجليفانوفا، ألكسندرا بونداريفا، فاسيلي بونداريف، ألكسندرا دوبروفينا، ليديا أندروسوفا، يفجيني موشكوف، ليليا إيفانيخينا، أنطونينا إيفانيخينا، فاسيلي بيروجوك، نينا مينا يفا، أنا تولي نيكولايف، نينا جيراسيموفا، فلاديمير زاجورويكو، فاسيلي بوريسوف، نيكولاي ميرونوف، نينا جيراسيموفا، أنجلينا ساموشينا، وغيرهم وهؤلاء جميعهم استشهدوا وهم يدافعون عن وطنهم ضد العدو الألماني.

ومن الشخصيّات الرئيسيّة أيضاً:

إيفان توركينيتش: قائد الحرس الفتي.

إيفان فيدروفيتش وزوجته يكاتيرينا بافلوفنا (كاتيا) التي تعمل مدرّسة، أما هو فكان قائد العمل السرّيّ ضد الألمان.

ماتفي ماكسيموفيتش: والد أوليانا جروموفا، وزوج ماترينا سافيليفنا، أوكراني الأصل.

العجوز كوندراتوفيتش: عامل منجم، بقي حيّاً بعد استشهاد رفاقه فالكو وكوستيفيتش وشيفتسوف.

فيكتور بيترنيوف: مهندس يعمل في المناجم.

الجنرال أندريه يفيموفيتش: أحد قادة فدائييّ أوكرانيا.

الملازم توركينيتش: قائد البطاريّة المضادّة للدبّابات، جُرح في حربه مع الألمان.

ماتفي كوستيفيتش: شيوعي حزبي سجنه الألمان.

- الطبيب فيدور فيدروفيتش.

- الجد فريل بيتروفيتش: عامل منجم، زوجته ألكسندرا فاسيليفنا من فلاحات أوريول.

- جورا أروتيونيانتس: صديق فانيا زيمنوخوف.

فولوديا أسموخين: كومسومولي نشيط.

فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف: سكرتير لجنة الحزب بمنطقة العمل السريّ، وحائز على لقب (بطل العمل).

العجوز ألكسندر فيدروفيتش زيمنوخوف: حارس مؤسسة، كان عامل منجم في الدونباس.

نيكولاي كوروستيليف (الخال كوليا): مهندس جيولوجي بمؤسسة (فحم كراسنودون)، خال أوليج كوشيفوي.

أندريه يفيموفيتش: أحد قادة أركان الفدائيّين.

جريجوري إيليتش، شيفتسوف، فالكو: عمّال في المناجم.

بروتسينكو: صديق إيفان فيدروفيتش.

أمّا الشخصيّات الألمانية فمنها: الملازم العجوز شفيديه، ضابط الصف بيتر فينبونج، رئيس الشرطة سوليكوفسكي، ستاتسينكو، المحقق كوليشوف. وغيرهم من الشخصيّات.

لقد سجّل ألكسندر فادييف في روايته "الحرس الفتي" أحداث تلك الأيّام في حينها بما يعكس أبعاد ومآسي وروح ذلك العصر الخالد، ونقرأ في مقدّمة هذه الرّواية تحت عنوان "رواية البسالة والبطولة":

"جرت أحداث "الحرس الفتي" في أوج فترة الحرب الوطنيّة، حين راحت غالبيّة الكتاب السّوفييت تأخذ مكانها على الجبهة جنباً إلى جنب مع بقيّة فصائل الشّعوب السّوفييتيّة. كانوا يحملون السّلاح، حيث لقي ما يربو عن أربعمئة كاتب –ثلث أعضاء اتّحاد الكتّاب- حتفهم على أرض المعركة، وكانوا يحاربون بالقلم، حيث ظهر في سنوات الحرب أشهر ما كتبه ميخائيل شولوخوف، وألكسي تولستوي، وقسطنطين سيمونوف، وألكسندر تفاردو فسكي وغيرهم من فنّاني الكلمة، وكان ألكسندر فادييف من أولئك الذين انخرطوا في العمل كمراسلين عسكريّين، وبدأت مقالاته عن الجبهة تجد مكاناً لها على صفحات "البرافدا" بانتظام، وكذلك في الإذاعة، وكانت هذه المقالات معبّرة...، عن الاهتمام الفائق الصادر من القلب بالمآثر البطوليّة لأولئك الذين هبّوا يواجهون بصدورهم، الفاشيّة المستأسدة والرّغبة الجارفة في سحقها".[1]

إنّ ألكسندر فادييف –ككاتب- يدين بالكثير إلى تلك الفترة التي تحدّث عنها في روايته التّاريخيّة "الحرس الفتي" كما يقول الكاتب نفسه. وقد انضمّ فادييف إلى حزب البلاشفة في السّابعة عشرة من عمره، وسرعان ما انخرط في فصائل الفدائيّين المقاتلة في سبيل تحرير

[1] - فادييف، ألكسندر: الحرس الفتي، ج1، ترجمة: الدكتور سامي عمارة، دار التقدّم، موسكو، 1981، ص 3.

الشّرق الأقصى، حيث بدأ طريقه مقاتلاً عاديّاً، واختتمه قوميساراً للّواء. وقد جمع الكاتب ما بين الدّارسة في معهد التعدين بموسكو والعمل الحزبيّ، وفي عام 1924 انتقل إلى القوقاز في عمل حزبيّ، ولم يختر فادييف الأدب كمهنة أساسيّة له إلا في عام 1926، حين فرغ من كتابة روايته "الهزيمة"، وكان يترأّس اتّحاد الكتاب السّوفييت على مدى ثلاثين عاماً، وأولى رواياته "الهزيمة" هي عن الحرب الأهليّة في الشّرق الأقصى، وأكمل حديثه عن هذا الموضوع في روايته الثّانية "الأخير من أوديجه"، وظهرت رواية "الحرس الفتي" على صفحات الجرائد والمجلات في غضون عام 1945، ثم ظهرت كاملة في طبعة خاصّة في عام 1946، وقد واصل الكاتب في هذه الرواية النّضال الذي خاضه طوال حياته ضدّ أعداء الثّورة والنّظام السّوفييتي، وقد وصف فيها التعذيب والتنكيل الذي تعرّض له الوطنيون السّوفييت على يد المحتلّين، والأهوال داخل أسوار سجون الجستالو، وعمليات الإعدام الرّهيبة، وقد فضح الكاتب التشابه العضوي لتلك الأساليب الفاشيّة مع الأساليب التي تعترف بشرعيّتها الإمبرياليّة العالميّة، وصوّر بشكل رائع شهامة المواطنين السّوفييت في مقاومتهم للفاشية المتوحشّة.[1]

يصوّر الكاتب فادييف في بداية الجزء الأوّل من روايته "الحرس الفتي" فتيات في مدينة كراسنودون وهنّ على شاطئ نهر، يتبادلن الأحاديث عن الأوضاع السّائدة في مدينتهم.

والفتيات هنّ: لوباشيفتسوفا بطلة الرّواية الأولى، أوليانا جروموفا بطلة الرواية الثّانية، فاليا، ساشا، أوليتشكا، فيريكوفا (زينا)، شورا دوبروفينا، تونيا...

وقد فرغت كلّ الفتيات هذا العام من دراستهن في المدرسة الثّانويّة في حيّ بيرفومايكا.. ومنذ بدء الحرب في الصيف الماضي، راح الصّبية والفتيات يعملون في المزارع التّعاونيّة والحكوميّة المجاورة لمدينة كراسنودون وفي المناجم وفي مصنع بناء القاطرات في فوروشيلوفجراد....

يقول الكاتب ألكسي فادييف مصوّراً الأوضاع السّياسيّة آنذاك:

"وفي الخريف اقتحم الألمان حوض الدونباس واحتلّوا مدينتي تاجا نروج وروستوف على الدون، ولم يبق من كلّ أوكرانيا سوى مقاطعة فوروشيلوفجراد وحدها التي لم تطأها قدم ألمانيّ، وحيث تراجعت سلطة كييف مع وحدات الجيش. أمّا مؤسّسات مقاطعتي فوروشيلوفجراد وستالينو -يوزوفكا سابقاً- فقد تمركزت اليوم في مدينة كراسنودون.

[1] - انظر: المرجع السابق نفسه، الصفحات : 4-5- 7- 11.

وقبل أن يتوغّل الخريف بعيداً عن بدايته وحتّى استقرّت جبهة القتال في جنوب الـــبلاد راح النّازحون من مناطق الدونباس التي احتلّها الألمان يعبرون شوارع كراسنودون...."[1]

يتابع الكاتب وصفه الأحداث التي جرت مع الفتيات فيذكر أنّهنّ رحن يقطعـــن بـــراري الدونيتس، وعلى طول الطرق الممتدة بين القرى والمناجم، كانت تتحرّك مجموعات النّـــازحين عسى أن تصل إلى الطريق المؤدّية إلى كامينسك أو إلى ليخايا، وفي البراري المكشوفة كانت تُسمع أصوات معارك كثيرة، وفي الطّريق الذي يفصل ما بين مستعمرة بيرفومايسكايا ومدينـــة كراسنودون كانت الفتيات، تشاهدن قوافل المهاجرين والوحدات العسكريّة، كما شاهدن المـــنجم رقم 1 الذي كان أعلى أبنية المدينة وهو ينهار بعد أن أصابه انفجار شديد.

أمّا لوبا التي كانت تُدعى (لوبكا الممثلة) فكانت تذهب إلى النّـــادي، وقـــد رفـــضت أن تذهب مع جريجوري إيليتش، وشيفتسوف وعمّال المنجم الآخرين الذين قرّروا السّفر، مع أنّها عضو في الكومسومول. وكان قادة المنطقة والمقاطعة الرّاحلون يتواعدون مع زملائهم القـــادة الباقين للإشراف على التهجير، على أن يختفي هؤلاء بمجرّد وصول الألمان دون أثر وســـط الجماهير ويتحوّلون إلى العمل السرّي، وقد سقطت بعض مناطق الدّونباس، وجـــاءت لحظـــة مغادرة هذه المنطقة من الدونباس، وكان ثقل المجموعة الطبيعي يتركز في إيفان فيـــدروفيتش بروتسينكو رجل اللجنة الإقليميّة الذي حُوّل للعمل الفدائي السرّي منذ خريف العام الماضـــي، حين تعرّضت المقاطعة لخطر الاحتلال، وقد راح إيفان فيدروفيتش يشدّ بـــاحترام علـــى يـــد أندريه يفيموفيتش، وهو أحد قادة أركان الفدائيّين التي شُكّلت منذ مدّة وجيزة في أوكرانيا، وقد وصل إلى كراسنودون للتنسيق بين فصائل فدائييّ المقاطعة ووحدات الجيش العامـــل، وطلـــب إيفان من هذا الشّخص أن ينقل إلى الرفيق ستالين القائد الأعلى أنهّم سوف يقومـــون بـــواجبهم خير قيام، ثمّ راح إيفان يعانق كلّ الشّباب العاملين في مفوّضيّة الشّعب للشؤون الدّاخلية وهـــو يودّعهم.... وتحرّكت الوحدات العسكريّة، وعربات النقل راحلة عن المدينة، وكـــذلك قوافـــل السكّان المهجّرين في ثلاثة اتّجاهات: نحو الجنوب، إلى نوفوتشير كاسك وروســـتوف، ونحـــو الجنوب الشرقي إلى ليخايا، ونحو الشّرق إلى كامينسك، وكانت فرقة الجنرال تـــشقّ طريقهـــا نحو كراسنودون، وقد بدأ هذا الجنرال الحرب الوطنيّة العظمى قائداً لفوج، وشارك في الحرب الفنلنديّة في شتاء 1939- 1940، وقد أدرك هذا الجنرال أنّ هذه الحرب سوف يكـــسبها مـــن يملك أكبر قدر من الاحتياطات البشريّة والماديّة.[2]

[1] - المرجع السابق، ص 23.

[2] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 31 حتى 52

كانت الطّائرات التي حلّقت فوق رأس أوليا جروموفا تقصف المعبر الكائن على نهر الدّونيتس، وساد الاضطراب مستعمرة بيرفومايسكي التي هي أقدم مستعمرات المنطقة، وعلى أساسها قامت مدينة كراسنودون، وقد شُيّدت المناجم في منطقة وجود الفحم في هذه المستعمرة، وسُمّيت منطقة مناجم سوروكين.

وأُقيمت مناجم جديدة كانت ملكاً لأحد كبار الملاّك ويُدعى يارمانكين أو "النبيل المسعور"، وبجانب منزل يارمانكين ارتفع مقرّ اللجنة التنفيذيّة للمنطقة، وشبّت أوليا وصديقاتها ورفاقها في المدرسة في مدينة كراسنودون، وكان الناس يتوافدون في شتّى أرجاء البلاد إلى الدونباس، وكان ماتفي ماكسيموفيتش جروموف الأوكراني الأصل من محافظة بولتافا قد خدم في فوج موسكو الثامن الذي اشترك في الحرب الرّوسيّة اليابانيّة، أمّا أوليا فقد كانت تودّ الالتحاق بالجيش وبالطّيران بالذّات، ولكنّها كانت تحبّ أمها وأباها، وتخاف أن تتركهما، وعندما يأتي ابن جيرانها أنا تولي، تقرّر السّفر معه للالتحاق بالجيش ولكنّ صديقتها توليا ترفض السّفر معهما، ويستعدّ أنا تولي مع صديقه فيكتور بيتروف وأوليا للسّفر.

ينزح أهالي كراسنودون إلى موروزوفسكي...، وفي منطقة كامينسك كانت تظهر طوال الليل ومضات قصف النيران، وتتابع القافلة سيرها نحو كامينسك وفيها أنا تولي وفيكتور وأوليج وأوليا ووالد فيكتور...

وهناك بعيداً فوق الدونيتس وكامينسك دارت المعارك الجويّة، وكان النازحون يواصلون اجتياز مدينة كراسنودون.[1]

ينخرط فانيا زيمنوخوف وجورا أروتيونيانتس بعد أن ودّعا أوسموخين في خضمّ تيار النّازحين الذي راحوا يسيرون في اتجاه ليخايا، وكانت المعارك تدور في الجنوب قريباً من نوفوتشير كاسك، أمّا على الشاطئ الآخر من نهر الدونيتس فقد كانت تعبث الدبابات والوحدات الألمانيّة الميكانيكيّة في البراري الرّحبة فيما بين نهري الدّونيتس والدون....، وكانت الطائرات الألمانيّة تشنّ غاراتها على الملاجئ بشكل مفاجئ، وكانت أوليا ترى ما يحدث وهي منبطحة أرضاً، وقد غابت عن أنظارها عربة المنجم رقم 1، وجريجوري إيليتش، فقد احترقت العربة وظهرت جثث الأطفال المشوّهة.[2]

يقول الكاتب فادييف مصوّراً وحشيّة العدو الألماني التي أصابت حتّى النّساء والأطفال:

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 52 حتى 88.

[2] - المرجع السابق، ص 124- 132-140- 141.

"... وعلى مسافة عدّة أمتار منها كان ما يزال عامراً بالحياة جزء بشريّ غريب يحيط به منديل أحمر، عرفت أوليا فيه الجزء الأعلى من جذع مديرة ملجأ الأطفال، أمّا نصفها الأسفل بحذائها المطاطيّ الذي ارتدته على جوربها النّسائي الخفيف مباشرة فلم يكن له وجود تماماً.

وقد كان هناك صبيّ يناهز عمره الثّامنة قد حنى رأسه نحو الأرض وألقى بيديه إلى الخلف كما لو كان يعتزم القفز، وراح يدور في مكانه ويضرب الأرض بقدميه صارخاً.

واندفعت أوليا دون أن تدري بنفسها نحو الطفل تحاول احتضانه إلا أنّه راح يرتعش ويصرخ. ورفعت رأسه لتشاهد وجهه المحترق وعينيه الجاحظتين اللّتين خرجتا من محجريهما. وسقطت أوليا على الأرض مجهشة بالبكاء".[1]

في الفصل الثّاني عشر من هذه الرّواية يتابع الكاتب وصفه للأحداث فيذكر أنّ الألمان احتلّوا فوروشيلو فجراد في السّاعة الثّانية من بعد ظهر 17 يوليو بعد معركة حامية دارت على أرض المزرعة التجريبيّة حيث هُزم أحد جيوش الجبهة الجنوبيّة الذي تولّى مهمّة الدّفاع في هذه المنطقة أمام قوّات العدّو فائقة العدد.....

تلتحق ناديا تيولينينا بدراسات التمريض منذ تلك اللحظة التي أصبح فيها خطّ الجبهة قريباً من الدونباس، وحين بدأ أوائل الجرحى يتوافدون على كراسنودون، وأخذت تعمل للعام الثّاني كبيرة للممرّضات في المستشفى العسكريّ، وكان سيريوجكاتيولينين يعمل في هذا المستشفى مع صديقه فيتكا، وقد أخبرا الطبيب فيدوروفيتش أنهّما جاءا لمساعدتهم في إيواء الجرحى بمساكن أهل المدينة، وكانت ناتاليا ألكسييفنا طبيبة بالمستشفى ما تزال في مقتبل العمر.[2]

يصل الضباط الألمان بسيّاراتهم إلى مبنى مؤسّسة (فحم كراسنودون)، وراح الجنود القائمون على خدمتهم ينقلون حقائبهم إلى داخل المبنى، وتوجّه ضابط وجنديّ نحو منزل آل كوشيفوي حيث كانت تسكن الجدّة فيرا ويلينا نيكولايفنا، ويدخل إلى منزلهما جنرال ألماني ويأمر جنوده بإزالة كلّ نباتات البساتين في الشّارع حول منزل الجدّة فيرا، بحيث لن يعثر الفدائيون على مكان يطلقون منه، وتفرّق الجنود والضبّاط الألمان في جميع أنحاء المدينة، عدا حيّ شانغهاي الكبير وشانغهاي الصغير، وكذلك حي (جولوبياتنيكي) النائي وشارع (دير يفيانايا) حيث كانت تقطن فاليا بورتس، وقد كان الشارع الذي تقطنه أسرتا أوسموخين

---

[1] - المرجع السابق، ص 141.

[2] - المرجع السابق، ص 42- 169- 172.

وزيمنوخوف، أوّل الشّوارع التي وصلها المشاة على متن عرباتهم، ودخل الجنود الألمان منزل يليزافيتا ألكسييفنا، وأخذ العريف ينظر إلى ابنتها ليوسيا الرّاقدة بجانب أخيها المريض فولوديا الذي تعالى إلى سمعه دبيب خطوات الجنود الألمان بأحذيتهم الثقيلة في المنزل، وتعالت الضحكات واللهجة الألمانية في المطبخ والفناء، وفي الغرفة التي كان يقيم فيها العريف وجنوده.

كما قام الألمان بطرد مرضى مستشفى المدينة، فتجمّع هؤلاء المرضى أمام المدخل الرئيسيّ لمستشفى الأطفال. وكانت يليزافيتا ألكسييفنا مع ابنها وابنتها يعانون من مضايقات الجنود الألمان في منزلهم، وفي إحدى الليالي شاهدت ليوسيا وأمّها وهج الحرائق يخيّم فوق المدينة، وقد احترق مبنى المؤسّسة الذي تمركزت به رئاسة أركان الألمان، ويأتي سيريوجكا إلى منزل يليزافيتا، فيخبرونه بتصرّفات الألمان الذين يسكرون طوال الليل، ويلتهمون كلّ الدّجاج، ويخبرهم هو بأنّ الألمان قتلوا الطبيب فيودور فيودروفيتش لأنّه اعترض على معاملة الجنود الألمان للجرحى، وقد أخبرت ناديا والدها بما كان يجري في المستشفى، أمّا شقيقها سيريوجكا فقد راح يحفر بيديه الحفرة التي خبّأ فيها الزجاجات الحارقة، وأخذ هذه الزّجاجات، وانطلق إلى وسط المدينة عن طريق مساكن (شانغهاي) الصغيرة، ثمّ توجّه نحو المدرسة واختبأ فيها، وألقى بالزجاجة الحارقة من نافذتها إلى مبنى المؤسّسة حيث يتواجد الجنود الألمان، ثم ألقى بزجاجة ثانية ثمّ ثالثة، وتعالت من نوافذ مبنى المؤسسة ألسنة اللّهب.[1]

لقد صوّر الكاتب فادييف فيما سبق بشكل دقيق ورائع، مقاومة النّاس في مدينة كراسنودون للاحتلال الألماني، فقد هبّ الكبير والصغير يفعل ما في وسعه لمقاومة المحتلّ الألمانيّ، وقد صوّر لنا الكاتب سيريوجكا بعد سماعه حديث أخته ناديا عمّا فعله الألمان في المستشفى، وعرض لنا مشاعره المتأجّجة غضباً حتّى أنّه لم يستطع النوم، وقرّر الانتقام بوسائله البسيطة من جنود الألمان، فألقى الزّجاجات الحارقة على مبنى المؤسسة الذي يسكنه الجنود الألمان...، لقد أراد المؤلّف أن يقول لنا من خلال تصويره ما قام به هذا الفتى الرّوسيّ الشّاب سيريوجكا، أنّ الشّعب الرّوسيّ لا يمكن أن يقبل الاستسلام والذلّ للعدو مهما كانت الظّروف المحيطة به، وهو مستعدّ دائماً للتضحية بحياته في سبيل حريّة وطنه، وفي سبيل تحقيق النّصر على العدوّ المجرم بحقّ الأطفال والنّساء والإنسانيّة جمعاء.

يقول الكاتب واصفاً مشاعر سيريوجكا المتأججة غضباً على الجنود الألمان:

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 201 حتى 242.

"ودلف إلى الغرفة حيث ارتمى في فراشه دافناً رأسه في الوسادة. كانت مشاعر الثّأر تجتاح كلّ كيانه، لدرجة لم يعد معها قادراً على التنفس....، ولم تكن ثمّة قوّة قادرة على إثنائه عمّا اعتزم القيام به."[1]

يصوّر الكاتب فادييف في الفصل العشرين تحرّك وحدات القوّات الألمانيّة الرّئيسيّة على مدى أيّام كثيرة عبر كراسنودون والمدن والقرى القريبة، وتمركز الوحدات الألمانيّة في كراسنودون، وكان الجنود والضبّاط الألمان يحتلّون منازل المدينة، وقد تحوّل بيت الجدّة فيرا، ويلينا نيكولايفنا إلى مقرّ لإحدى هيئات الأركان الألمانيّة برئاسة الجنرال البارون فون فينتسيل ومساعده وخادمه، وكانت الجدّة تقوم بخدمة السادة الجنرالات والضباط الألمان منذ الصباح الباكر حتى وقت متأخّر من الليل.

لقد صوّر الكاتب فادييف بصورة صادقة الأعمال الوحشيّة التي كان يقوم بها الجنود الألمان، ويبيّن المقطع الآتي من الرّواية مدى استهتار هؤلاء الجنود بالقيم الإنسانيّة ومدى إجرامهم:

"لقد كانت تُرتكب إلى جوار الجنرال فون فينتسيل أوفيما حوله المئات بل والآلاف من الأعمال الإجراميّة البشعة نزولاً على أمر أصدره، أو استناداً إلى موافقته الضمنيّة. كانوا ينهبون أشياء من كلّ منزل، كما نهبوا منزل الجدّة فيرا ويلينا نيكولايفنا بما فيه من دهون وعسل وبيض وزبد، إلا أنّ ذلك لم يكن يحطّ من قدره، حيث كان يسير مرفوع الهامة...."[2]

إذاً فقد احتلّ الألمان مدينة كراسنودون، وقد عاد المئات والألوف من سكّان هذه المدينة الذين لم يسعفهم الوقت للنّجاة من الكارثة، إلى ذويهم من بيوتهم التي احتلّها الألمان، وقد اقتاد الألمان أوليج ورفاقه، وفاينازيمنوخوف برفقة كلافا وأمهّا، وفالكو مدير المنجم رقم 1 إلى مكان قريب من نهر الدونيتس، وراح الجنود الألمان يدفعون ظهور النّازحين بأعقاب بنادقهم، وكان والد فيكتور بيتروف- ناظر الغابة- الذي أسهم في النضال ضد الألمان عام 1918 يعرف الخطر الذي يتهدّد ابنه فيكتور عضو الكومسومول، وكان فيكتور وصديقه أنا تولي يعيشان مشاعر الإهانة والمرارة لتراجع الجيش الأحمر.[3]

---

1 - المرجع السابق، ص238.

2 - المرجع السابق، ص 246.

3 - المرجع السابق، الصفحات: 249- 254- 255

ويذكر الكاتب أنّ المنشورات البلشفيّة المكتوبة بخطّ اليد قد ظهرت على جدران مداخل أكبر المناجم، وعلى مباني مدرستي جوركي وفورشيلوف، واللّجنة التنفيذيّة للمنطقة، وفي أماكن أخرى كثيرة.

"وكانت تلك المنشورات تحت توقيع "لجنة الحزب الشّيوعي لعموم الاتّحاد السّوفييتي (البلشفي) بمنطقة كراسنودون. وكان أكثر ما يثير الدّهشة هي تلك الأعداد القديمة من جريدة "البرافدا"، التي صدرت منذ سنوات تحمل صور لينين وستالين، وتعلّق اليوم جنباً إلى جنب مع المنشورات. وتقول الإشاعات التي انتشرت استناداً إلى أقوال الجنود الألمان أنّ الفدائيّين يهاجمون خطوط مواصلات الألمان ووحداتهم العسكريّة في مختلف مناطق الإقليم ولاسيّما عند الدونيتس وعلى حدود إقليمي روستوف وفوروشيلو فجراد في منطقتي بركوفو - أنتراتسيتوفسكي وكريمينسكي". [1]

يصوّر الكاتب في الفصل الرابع والعشرين كيف رفض المواطنين السّوفييت العمل لصالح الألمان، ومن هؤلاء فولوديا أوسموخين وتوليا اللذين كانا يشعران بضرورة الانخراط في العمل السرّيّ، في صفوف الفدائيين، وكان فولوديا بعد تماثله للشّفاء لا يجد ما يفعله هو وتوليا سوى الاستلقاء في البراري تحت أشّعة الشّمس، أمّا فيليب بيتروفيتش فقد كان أوّل صديق يزور آل أوسموخين منذ احتلال الألمان للمدينة، وفرحت يليزافيتا ألكسييفنا بزيارته، فأخبرها أنّه جاء لاستدعاء ابنها للعمل. وسأل فيليب بيتروفيتش فولوديا عن رفاقه الذين بقوا في المدينة، فأشار فولوديا إلى أولئك الذين يعرفهم شخصيّاً، ويثق بهم، وهم توليا أورلوف، وجورا أروتيونيانتس، وفانيا زيمنوخوف. تزور ليوبوف شيفتسوفا (ليوبكا الممثّلة) كوليج، وكانت ليوبكا تنتمي إلى ذلك الرّعيل من شباب وفتيات الكومسومول الذين جرى تحديدهم ليكونوا تحت تصرّف أركان الفدائيين، لاستخدامهم في مؤخّرة العدو، وكانت على وشك الانتهاء من دراسات التمريض العسكريّ في مدينة فوروشيلوفجراد، وتتأهّب للتوجّه إلى الجبهة، إلا أنّه جرى تحويلها لدراسة اللاسلكي بنفس المدينة، وأخفت ذلك على رفاقها بناءً على تعليمات الأركان، وفي السادس من يوليو، استدعى مدير الدراسات ليوبكا لإبلاغها بتردّي الأوضاع في الجبهة، وبقرار تهجير مقرّ الدّراسات، أمّا هي فسوف تبقى تحت أمرة أركان فدائييّ المقاطعة، وعليها أن تعود إلى مدينتها كراسنودون إلى حين استدعائها، وجرى تسليمها عنوان أحد منازل كاميني برود، وإذا ما احتل الألمان المدينة فيجب ألاّ يكون سلوكها مثار شكّ. ينضمّ إيفان فيدروفيتش بعد أن توادع مع ليوتيكوف وشولجا، تصحبه زوجته إلى فصيل الفدائييّن الذي تمركز في غابات ميتياكين على الضفّة الأخرى من نهر الدونيتس، وقد

---

[1] - المرجع السابق، ص 265

اضطّرا إلى قطع مشوار طويل للالتفاف حول المساحات التي احتلّها الألمان، وكانت منطقة غابات ميتياكين غير صالحة لإخفاء فصيل كبير من الفدائيّين، وكان الفدائيّون قد غادروا القاعدة ليخوضوا المعارك ضدّ الألمان على طرق الاتجاه الغربيّ، حين وصلها إيفان فيدروفيتش برفقة زوجته، وقد كان إيفان فيدروفيتش أحد هؤلاء الذين كُلّفوا بالإشراف على عدد من لجان المنطقة في مقاطعة فوروشيلوفجراد ومجموعات العمل السّريّ الكثيرة التابعة لها، وقد كانت تحت تصرّف فيدروفيتش شأن غيره من قادة العمل السّريّ بالمقاطعة، مساكن تقتصر معرفتها عليه وحده، بعضها للاتّصال بقيادة أوكرانيا، وبعضها للاتّصال بقادة الفصائل.[1]

يقول الكاتب مصورّاً نشاط فصيل الفدائيّين السّياسيّ:

"وقد راح فصيل الفدائيّين الذي يترأسه إيفان فيدروفتيش يعمل وحده وعلى نحو جيد، إذ قام في أولى أيّامه بتحطيم عدد من وحدات العدّو الفرعيّة الصّغيرة في معركة مكشوفة... قتلوا الجنود والضّبّاط الباقين، وأضرموا النيّران في صهاريج البنزين واستولوا على عربات المؤن، وتصيّدوا الإداريّين الألمان في القرى لينفّذوا فيهم أحكام الإعدام".[2]

يزور الفتى يفجيني ستاخوفيتش عضو الكومسومول رفيق دراسته فولديا أوسموخين، وقد قاتل ستاخوفيتش في صفوف فصيل الفدائيّين، وهو توّاق للانخراط في العمل الفدائيّ السرّيّ، وقد أرسلته قيادة الفصيل رسميّاً وعلى حدّ قوله، لتنظيم العمل في كراسنودون.....

تحدّث ليليا الفتاة العاديّة من بنات كراسنودون رفيقاتها شورادوبروفينا، وساشا بونداريفا، ومايا بيجليفانوفا كيف تمّ نقل النّسوة إلى قسم خاص بهنّ في المعسكر، حيث كانت تحرسهم حارسة ألمانية تُدعى هوترودا جيبيه، كانت تعذّب الفتيات حتّى الموت، فقامت ليليا مع النّسوة بتغطية هذه الحارسة بمعطف عسكري ثم خنقها، ثمّ أخذت تركض بعيداً مع بعض النّسوة والفتيات في أراضي بولندا ثم أوكرانيا.[3]

في الفصل الثاني والثلاثين يصورّ لنا الكاتب ماتفي كوستيفيتش هو في السّجن، فقد قبض عليه الألمان بسبب شيوعيّته وانتمائه الحزبيّ، وكانوا يستجوبونه مرّتين يوميّاً، وقد دأبوا على تعذيبه حتّى يعترف بأسماء شركائه، وحتّى يفضح منظمة البلاشفة في كراسنودون، وكانوا يذيقونه صنوف العذاب.

---

[1] - المرجع السابق، الصفحات من 304 حتى 366.

[2] - المرجع السابق، ص 368.

[3] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 385 حتى 395.

يقول الكاتب مصوّراً الأساليب الوحشيّة التي كان يستخدمها الألمان في استجواب المساجين الرّوس، ومبيّناً في الوقت نفسه صمود وصلابة المقاتل الرّوسيّ المؤمن بقضيّة شعبه ووطنه:

"وكان ضابط الصفّ فينبونج يكيل إلى كوستيفيتش المكبّل والذي أمسك به الجنود إلى جانب ذلك، ضرباته، يسومه صنوف العذاب في إتقان ولا مبالاة. فلقد كانت هذه العمليّة هي مهنته وتخّصصه... غير أنّ ماتفي كوستيفيتش لم يغيّر من سلوكه شيئاً على الإطلاق ومهما كانت ألوان العذاب التي تعرّض لها، وطالت فترتها، فقد ظلّ مستقلاً جموحاً عنيداً، أنهك الجميع وأثار لهم العديد من المشاكل.(1)

ثمّ يأتي الجنود الألمان بشخص إلى زنزانة كوستيفيتش، وكان هذا القادم الجديد هو رفيق كوستيفيتش ومواطنه فالكو مدير المنجم رقم 1، ويطلب منه كوستيفيتش أن يقصّ عليه أخبار الخارج، وقد كان فالكو يقوم بتجميع كلّ الخيوط السرّيّة لعمليّات التخريب في المنطقة بوصفه رجلاً يعرف كافة مناجم مؤسسة (فحم كراسنودون)، وكانت أوليا إيفانتسوفا تعمل بصفة مراسلة خاصّة بفالكو....، وكان فيليب بيتروفيتش يقلّب الأمور بحثاً عن وسيلة لتخليص ماتفي كوستيفيتش وكلّ المعتقلين بسجن كراسنودون...

وفي أثناء فترة اختراق الألمان لخطوط الجبهة الجنوبيّة، تلقّى الملازم توركينيتش قائد البطاريّة المضادة للدّبابات أمراً بالّصمود حتّى الموت، وراح يصدّ هجمات الدبّابات الألمانية في منطقة كالاتش على نهر الدون حتى توقفت مدافعه وسقط جريحاً وأُسر مع فلول السرايا، وأطلق عليه ملازم ألماني الرصاص، ولكن أنقذته أرملة قوزاقية.(2)

أمّا باراكوف وليوتيكوف فقد كانا يشرفان على أعداد المتطوّعين الذين سوف يقومون بالهجوم على السّجن، وقام إيفان توركينيتش وأوليج بتفويض منهما باختيار مجموعة الشّباب التي سوف تشترك في هذه العمليّة، وقد اتّخذ فانيا وأوليج أعواناً لهما زيمنوخوف وسيريوجكا تيولينين وليوباشيفتسوفا ويفجيني ستاخوفيتش...

وفي نفس الليلة التي جرى فيها اعتقال والد فيكتور، جرت بالمدينة جملة اعتقالات واسعة شملت كلّ من لم يسعفه الوقت للهجرة من أعضاء الحزب ورجال السّلطة المحليّة، وكثيراً من المعلّمين والمهندسين ومشاهير عمّال المناجم وبعض العسكريّين..

---

1 - المرجع السابق، ص 415.

2 - المرجع السابق، الصفحات من 420 حتى 423.

وبينما كان اجتماع الصبية جارياً في شقّة توركينيتش كان أندريه فالكو وماتفي شولجا يمثلان أمام المساعد الألماني بريوكنر ونائبه بالدر في نفس الغرفة التي جرت فيها مواجهتهما ببعضهما البعض، ثمّ اقتادوهما إلى التّحقيق، دون أن يقيّدوا أياديهما، وسأل المساعد بريوكنر فالكو عمّا إذا كان يعرف شولجا، فأجابه فالكو بأنّهما تعارفا في الزنزانة، فقام المساعد بغرز سيجاره في وجه العمّ أندريه، وغرز أطراف أصابعه في شفتي أندريه، فوجّه إليه فالكو لكمة قوية بين عينيه، فسقط المساعد بريوكنر بكلّ جسده على الأرض. وعندما حاول الضباط الهجوم على أندريه وشولجا، قاوم الاثنان وخاضا معركة مستميتة مع الضباط والجنود الألمان، وقاموا بكلّ شجاعة بطرح الجنود الألمان على الأرض، ثم قبض الجنود الألمان على الاثنين ووضعوهما في زنزانة مظلمة.[1] ويجري حوار بين أندريه وشولجا، وفي المقطع الآتي يشير الكاتب إلى شجاعة الإنسان الرّوسي، ومواجهته الموت في سبيل قضيّة شعبه ووطنه فيقول على لسان بطليه أندريه وشولجا:

"وضحك فالكو ساخراً:

- بينما أعداؤنا الحمقى يظنّوننا نهاب الموت، لقد تعودّنا نحن البلاشفة مواجهة الموت، وكم من البلاشفة سقط صريع الكفاح ضدّ العدّو! لقد قتلوا الكثيرين، جلادو القيصر ورجال الدرك والشرطة وطلبة الكليات العسكريّة أيام ثورة أكتوبر.... ومع ذلك فنحن نعيش استناداً إلى حبّ الشّعب لنا، ولربّما يقتلنا الألمان الفاشيست، ومع ذلك فلن يوري علينا التراب.. أوليس حقاً ذلك يا ماتفي؟

- إنهّا الحقيقة العظمى.. الحقيقة المقدّسة يا أندريه!

إنّني سوف أظلّ إلى أبد الآبدين فخوراً بأنّ قدري أنا الإنسان العامل البسيط قد جعلني أشقّ طريق حياتي في إطار صفوف حزبنا، الذي مهّد طريق الحياة السّعيدة للآخرين."[2]

في الفصل الخامس والثلاثين والأخير من الجزء الأوّل من رواية "الحرس الفتي" يذكر الكاتب فادييف أنّ المساعد بريوكنر ونائبه بالدر رحلا إلى مقرّ إدارة الشّرطة للدّائرة في مدينة روفينكي والكائنة على مسافة ثلاثين كيلومتراً من كراسنودون، أمّا بيتر فينبونج، روتنفوهرر فرقة "أس أس" فقد جرى تكليفه بنقطة شرطة كراسنودون، وقد كان بيتر فينبونج يخبّئ في ملابسه الدّاخليّة كيساً صغيراً من الجلد جمع فيه حوالي ثلاثين سنّاً ذهبيّة، كما كان يخبّئ عملات مختلفة وخواتم ودبابيس ذهبيّة وأحجار ثمينة.

---

[1] المرجع السابق، الصفحات من 424 حتّى 440.

[2] - المرجع السابق، ص 448.

يقول الكاتب فادييف مصوّراً الطّريقة الوحشيّة التي اتّبعها هذا الألماني بيتر في جمع ثروته:

"لم يكن ينتزع الأسنان من جثث الموتى وحسب، بل من أفواه الأحياء أيضاً، غير أنّه كان يفضّل انتزاعها من أفواه الموتى حيث لم يكن ذلك يسبّب له المتاعب. وحين كان يقع نظره على أشخاص من ذوي الأسنان الذّهبيّة ضمن مجموعة من المعتقلين، كان يركّز كلّ حواسه حول الرغبة في سرعة إنهاء كافة إجراءات التّحقيق، حتّى يتمكّن من الإجهاز عليهم في أقرب فرصة.

وكم كانوا كثيرين أولئك الرّجال والنّسوة والأطفال الذين قُتلوا وعُذبوا وسُرقوا، ليصبحوا مصدر تلك النقود والأسنان والمجوهرات".[1]

إنّ الكاتب فادييف يبيّن لنا من خلال المقطع السّابق مدى وحشية الإنسان الألمانيّ، كما يشير إلى أنّ الألماني يقاتل في سبيل جمع الثروة والمال، في حين يصوّر لنا الكاتب منذ بداية روايته هذه، عظمة الإنسان الرّوسيّ، وأنّه يقاتل ويضحّي بروحه وسعادته في سبيل وطنه روسيا، وفي سبيل قضيّة شعبه العظيم....

إن وحشيّة العدو المقاتل الألماني، والتي صوّرها لنا الكاتب بكلّ دقّة وتفصيل تذكّرنا بوحشية المغول قديماً عند ما هاجموا بغداد، وقتلوا شعبها وأزالوا حضارتها، وأحرقوا كتبها، كما تذكّرنا بوحشية العدّو الإسرائيليّ حديثاً، وإجرامه بحقّ شعبنا في فلسطين والعراق.

ويصوّر الكاتب تعذيب جنود الشّرطة للمعتقلين في الزنزانات، وذهاب ضابط الصفّ فينبونج مع خمسة جنود ألمان إلى زنزانة ماتفي كوستيفيتش وفالكو لإطلاق النّار على الاثنين، وعلى بعد معتقل واحد رأى الاثنان بيتروف مضرّجاً بالدّماء، وقام بيتروف بإحناء هامته تحيّة لهما، ثم قام فينبونج بعدّ المعتقلين، ليقتادوهم إلى الخارج نحو الشارع المفضي إلى التلّ، ثمّ اقتادوهم إلى الممرّ الرئيسيّ للحديقة بين بنائي نادي لينين، ومدرسة جوركي، ثم أخذوهم إلى حفرة في طرف الحديقة المهجورة.[2]

"وغصّت الحفرة بالمعتقلين لدرجة أنّه لم تكن هناك أدنى إمكانيّة للتحرّك أو الالتفاف. وحانت لحظة آخر التوتّرات الرّوحية.. فقد راح كلّ منهم يعدّ نفسه لتلقيّ الرصاص. بيد أنّ

---

[1] - المرجع السابق، ص 452.

[2] - المرجع السابق، الصفحات من 455 حتى 459.

الموت على هذا النمط لم يكن مقدّراً لهم. فقد انهالت أكوام الأتربة فوق رؤوسهم وأكتافهم وفي أفواههم وأعينهم، ليدركوا أنّهم يُدفنون أحياءً".[1]

الجزء الثّاني من رواية "الحرس الفتي":

يصوّر لنا الكاتب فادييف في بداية هذا الجزء رفاق الحرس الفتي وهم مجتمعون، وقد أقسموا جميعهم أن ينفّذوا دون اعتراض أيّة مهمّة توكلها منظّمة "الحرس الفتي"، وأن ينتقموا لدماء أبناء شعبهم ولموت الشّهداء أبطال المناجم، وللمدن والقرى التي خرّبها الألمان وأحرقوها. وهؤلاء الرّفاق هم: أوليج كوشيفوي، وأولياناجروموفا، وإيفان توركينيتش، وسيرجي تيولينين، وليوبوف شيفتسوفا، وإيفان زيمنوخوف، وغيرهم من أبطال "الحرس الفتي".

وقد تطلّبت الأمور رحيل ليوبكا إلى فوروشيلوفجراد، غير أنّها كانت مرتبطة بما يقتضيه نظام "الحرس الفتي" لذلك كان عليها إبلاغ أوليج قبل رحيلها، ولكنّه طلب منها الانتظار بعض الوقت، وتخبرها نينا إيفانتسوفا أنّ الكبار طلبوا منها إخبارهم حيث هي راحلة باستشهاد رفاقهم، وبألقابهم وكيف دفنوهم بالحديقة أحياء، وتبلغهم كذلك بأنباء الحرس الفتي، ولم تكن ليوبكاسيفتسوفا شأن أعضاء "الحرس الفتي" الآخرين عدا فولوديا أو سموخين تعرف أولئك الذين يتّصل بهم أوليج كوشيفوي، غير أنّ فيليب بيتروفيتش كان يعرف جيّداً سبب استبقاء ليوبكا في كراسنودون، وأسماء أولئك الموجودين على صلة بها في فوروشيلوفجراد، وتستقل ليوبكا سيارة إلى فوروشيلوفجراد، وكان في السّيارة ضابط ألماني، وعندما توقفوا للاستراحة سمعوا أصوات وصرخات الأسرى العسكريّين السّوفييت الذين يتولّى حراستهم الجنود والضبّاط الرّومانيّون، وكانت النّساء القوزاقيّات ينتحبن ويولولن.[2]

يقول الكاتب فادييف مصوّراً حالة هؤلاء الأسرى:

"كان الأسرى يسيرون نصف عراة، لا تكسو أجسادهم سوى بقايا سراويل وسترات عسكريّة ممزّقة علتها السّمرة والغبار، ما بين حفاة ومنتعلين بقايا أحذية مهترئة، وقد طالت لحاهم، وأصابهم الضّمور حتّى يخيّل للنّاظر إليهم وكأنّ ملابسهم عُلّقت على هياكل عظميّة."[3]

---

[1] - المرجع السابق، ص 460.

[2] - انظر: فادييف، ألكسندر: الحرس الفتي، ج2، ترجمة: الدكتور سامي عمارة، دار التقدم، موسكو، 1981، الصفحات من 5 حتى 14.

[3] - المرجع السابق نفسه ، ص15.

يبعث إيفان فيدروفيتش العجوز كورني تيخونوفيتش وحفيده إلى قاعدة ميتياكين لمعرفة مدى خسائر الفصيل. ويشرح له كيفيّة العمل في مجموعات صغيرة، وطريقة تشكيل المجموعات الفدائيّة الجديدة من الفلاحين والقوزاق والعسكريّين القدامى الذين استقرّوا بالقرى...

أمّا ماشا شوبينا فقد أعطاها إيفان فيدروفيتش عنوان إحدى الشقق في منطقة كاميني برود، وكانت هذه الشّقة تشكّل أهميّة خاصّة بالنّسبة له حيث كان يستطيع عن طريقها الاتصال بقيادة فدائيي أوكرانيا، ومعرفة كلّ ما يدور ليس في المقاطعة وحدها، بل وفي الأراضي السّوفييتية، وفي العالم أجمع...، وقد أدلى إيفان فيدروفيتش بوجهة نظره، وهي أنّ الألمان يتصوّرون أوكرانيا مستعمرة لهم، وأنّ الرّوس عبيد لهم، وأنّهم يسعون لتطوير الصناعة في ألمانية، لذلك يسعون للاستيلاء على حبوب وفحم أوكرانيا، وكان إيفان حزيناً للغاية بعد أن قصّت عليه ليوبكا قصّة استشهاد المتعقلين في سجن كراسنودون، وبسبب استشهاد ماتفي كوستيفيتش وفالكو،[1] وراح إيفان يتحدّث مع ليوبكا وكأنّما يتحدّث مع نفسه:

" إنّ ثمّة من يقارن عملنا السّريّ بمثيله أيّام فترة التدخّل الأجنبي وتسلّط البيض أبان ثورة أوكتوبر. فهل هناك وجه للمقارنة؟ إنّ قوة إرهاب هؤلاء الأوغاد تبلغ حدّاً يجعل البيض إلى جوارهم أطفالاً. إنهّم يقتلون البشر بالملايين! غير أنّنا نملك عنصر تفوّق لم يكن موجوداً آنذاك، ذلك أنّ رجالنا للعمل السّريّ، وفدائيينا يعتمدون على كلّ قدرات حزبنا ودولتنا، وقوّة جيشنا الأحمر. كما ويملك فدائيّونا وعياً أسمى، وقدرة تنظيميّة أفضل ومعدّات وأسلحة وسبل اتّصال أكثر حداثة. وينبغي علينا أن نوضّح للشّعب كلّ ذلك. إنّ أعداءنا يتّسمون بنقطة ضعف لا توجد عند امرئ آخر. إنّهم أغبياء لا يتصرّفون إلا وفقاً للتعليمات وحسب جدول وإطار محدّدين."[2]

لقد صوّر الكاتب في المقطع السابق، وحشية العدّوّ الألماني الذي فاقت وحشيته وحشيّة أيّ عدوّ آخر، ولكن على الرّغم من كل إجرام العدّو، وما قام به من تخريب وقتل إلا أنّ الكاتب مؤمن بقدرة الشّعب الرّوسيّ، وتصميميه على مواجهة عدّوه، فالشّعب الرّوسي شعب ذكيّ شجاع، في حين أنّ الألمان أغبياء يتصرّفون بما يُملى عليهم من أوامر وتعليمات، كما تسيّرهم غريزتهم الوحشيّة وحبّهم للمال والسّيادة، إنهم شعب متعجرف ينظر إلى الشّعوب الأخرى كأنّهم حيوانات لا تستحقّ العيش.

[1] - المرجع السابق، الصفحات من 22 حتى 30.

[2] - المرجع السابق، ص 31.

إنّ الكاتب في تصويره هذا للشّعب الألماني يذكّرنا بقصّة الكاتب الفلسطيني غسّان كنفاني (عائد إلى حيفا) وغيرها من القصص الكثيرة التي تتحدّث عن وحشيّة وإجرام العدو الإسرائيلي بحقّ شعبنا العربي في فلسطين وغيرها من الدّول العربيّة المحتلّة... وهنا تكمن الفكرة الرئيسية، إنّها المقاومة، مقاومة المحتلّ الأجنبي المعتدي، فالمقاومة لا تعرف عرقاً أو لوناً أو طائفة، إنهّا من حق جميع الشعوب المظلومة في العالم.

تخبر ليوبكا بعد ذلك إيفان فيدروفيتش بأنّ عدد أفراد "الحرس الفتي" يبلغ ثلاثين تقريباً، وأنّ قائدهم هو إيفان توركينيتش، والمسؤول السّياسي هو أوليج كوشيفوي، وأنّه جرى تقسيمهم في مجموعات كلّ منها خمسة أفراد، وعندما ذكرت ليوبكا اسم يفجيني ستاخوفيتش حذّرها إيفان منه بسبب اختفائه من فصيل الفدائييّن...، ثمّ ظلّت ليوبكا طوال تلك الأيام القليلة التي قضتها في فورو شيلوفجراد تحت أمرة ذلك الشخص الذي عرّفها بإيفان فيدروفيتش، وكان ذلك الشّخص مهتماً بكون ليوبكا قد أقامت مثل تلك العلاقات مع العقيد مسؤول الإمدادات الألمانية ومساعده، واستقرّت بشقّة حيث يتصوّرها أصحابها على غير حقيقتها.(1)

وكان أوليج مع رفاقه من "الحرس الفتيّ" يقومون بلصق المنشورات ليلاً في كراسنودون، وكانت هذه المنشورات تتضمّن تحذيراً لسكّان كراسنودون، وعمّال المناجم، والمزارعين من الألمان وهتلر الذي يسعى لسوقهم إلى ألمانيا للعمل بمصانعه، كما تؤكّد هذه المنشورات أيضاً أنّ الجيش الأحمر سوف يعود ثانية إلى الدّوبناس، وأنّ "الحرس الفتي" بمنشوراته سيقوم بنقل الحقيقة كلّها.. وقد تحدّثت ناتاليا ألكسييفنا طبيبة المستشفى مع سيريوجكا عن المستعمرة التي تحمل كذلك اسم كراسنودون والكائنة على مسافة ثمانية عشر كيلومتراً من المدينة والتي تشكّلت فيها مجموعة من الشّباب لمقاومة المحتلّين الألمان، فأوكلت القيادة إلى فاليا مهمّة الاتّصال بهذه المجموعة...، ويستمع أوليج مع رفاقه الشّباب إلى أنباء المساء من مكتب الإعلام السّوفييتي، وكان صوت المذيع ليفيتان يذكر ما يلي:

".. خاضت قواتنا في السّابع من سبتمبر معارك ضارية ضدّ العدوّ غربي، وجنوب غربي ستالينجراد وكذلك في منطقتي نوفوروسيسك وموزدوك... ولم تشهد الجبهات الأخرى أيّة تغيّرات جوهريّة".

وبدا الأمر وكأنمّا يتسلّل صدى المعركة العظيم إلى الدّاخل ليفرض نفسه على الأسماع.(2)

---

[1] المرجع السابق، الصفحات 32- 33- 34.

[2] المرجع السّابق، ص 47- 68- 69- 70- 71.

يذكر الكاتب أنّه في أواخر سبتمبر كانت منظّمة "الحرس الفتي" قد أصبحت في منطقة منجم بيرفومايسك ومنطقة المنجم رقم1 واحدة من أكبر المجموعات الشّبابيّة للعمل السرّيّ، وقد انضمّ إليها الشّباب من تلاميذ الصّفوف النّهائيّة بمدرسة بيرفومايسك، وكانت الأسلحة التي فاضت عن حاجة الشباب أعضاء المنظّمة من أبناء حيّ بيرفومايسك، قد سُلّمت إلى سيريوجكا تيولينين، وقد كانت أوليانا جرموفا وأنا تولي بوبوف القلب النّابض للمنظمة في حيّ بيرفومايسك، شأن أوليج كوشيفوي وإيفان توركينتش في كلّ منظّمة "الحرس الفتي"، وكوليا سومسكوي وتوسيا يليسيينكو في تنظم مستعمرة كراسنودون، وكانت القيادة قد عيّنت أناتولي بوبوف قائداً لمجموعة بيرفومايسك. أمّا أوليانا جروموفا فقد كانت صاحبة كلّ المبادرات، ومؤلّفة غالبيّة النّداءات والمنشورات التي يصدرها شباب الحيّ، وكانت محطّ اهتمام ورعاية الفتيان، وقد انضمّت شورا دوبرفينا إلى "الحرس الفتي" لأنها تحبّ مايا بيجليفانوفا، أمّا فيكتور بيتروف الذي طرأت عليه الكثير من التغيّرات منذ استشهاد أبيه، فقد قام مع رفيقه أنا تولي بطعن حارس المعتقل الألماني، وأفرجا عن الأسرى...(1)

وكانت أوليا تمارس مهامها اليوميّة كمراسلة اتّصال لدى قيادة "الحرس الفتي"، وكانت تعمل ثلاث مجموعات متتالية دائمة من شباب "الحرس الفتي"، كانت المجموعة الأولى تعمل على الطريق الكائن بين كراسنودون وكامينسك، وتهاجم عربات الركوب التي يستقلّها الضبّاط الألمان، ويرأسها فيكتور بيتروف، وتعمل المجموعة الثّانية على الطّرق الموصلة بين فوروشيلو فجراد وليخايا، تهاجم صهاريج نقل البنزين، وتقتل السّائقين والحرّاس، ويرأسها ملازم الجيش الأحمر جينيا موشكوف الذي جرى إطلاق سراحه، أمّا المجموعة الثالثة فيرأسها تيولينين وتعمل في كافّة الاتّجاهات، وكانت تتصدّى للوريّات الألمانيّة التي تنقل الأسلحة والمواد الغذائية، وتتصيّد الجنود الألمان الفرادى، وكان المقاتلون يتجمّعون عند أداء المهمّة ويتفرّقون بعدها كلّ في طريق، وعلى الرغم من أنّ "الحرس الفتي" كانت قد قامت بعدد من العمليّات الكبيرة، لم يكن ثمّة ما يدلّ على أنّ الألمان قلقون بصدد وجود مثل هذه المنظمة....، أمّا جبهات الحرب فقد ساد الهدوء فيها، وسُمعت أنباء عن معركة يدور رحاها في ستالينجراد العظيمة، وتوقّف تدفّق الأسرى الذين كانوا يقودونهم من الشّرق نحو الغرب عبر كراسنودون، أمّا في كراسنودون التي احتلّها الألمان فقد كان الضبّاط الألمان والرّومانيّون يقيمون ليل نهار، وتشكّلت في كراسنودون في ظلّ النظام الجديد "صفوة المجتمع"، وهي سلسلة طويلة من الألقاب والمراكز الاجتماعيّة، وقد كان يتصدّر هذه السلسلة الضّابط الألماني بريوكنر ومساعده بالدر، والملازم شفيديه رئيس الإدارة، وفيلدنير نائب

---

[1] المرجع السابق، الصفحات من 118 حتى 131.

شفيديه، والملازم أوّل شبريك، وزوندر فوهرر ساندرز، وسوليكوفسكي رئيس الشّرطة، وستاتسينكو عمدة المدينة، ويأتي في نهاية هذه السلسلة المساعد فينبونج وجنوده، والذين كانوا يقومون بكلّ شيء في واقع الأمر...

تصل ليوبكا من فوروشيلوفجراد، ويذهب فانيا لرؤيتها، ويخبرها أنّ الذكرى الخامسة والعشرين لثورة أوكتوبر العظمى سوف تحلّ قريباً.(1)

وقد كان شباب "الحرس الفتي" يقومون بالكثير من العمليّات في نضالهم ضدّ عدوّهم الألمانيّ، ومن هذه العمليات رفع الأعلام الحمراء في كراسنودون احتفالاً بعيد ثورة أوكتوبر العظمى، وقيام مجموعات تيولينين وبيتروف وموشكوف بقتل الجنود الألمان الذين كانوا يقتادون قطيعاً كبيراً من الماشية تحت حراسة بعض الرّعاة الأوكرانيين من مقاطعة روستوف إلى الأراضي الألمانية.(2)

في الفصل الخمسين يذكر الكاتب أنّ سكّان مدينة كراسنودون راحوا يتهرّبون من تسجيل أسمائهم في مكتب العمل، بعد أن فطنوا إلى ما يتهدّدهم من جرّاء ذلك، وبعد أن استطاع الألمان بالحيلة إرسال أوّل مجموعة من سكّان المدينة للعمل في ألمانيا، وبتفويض من قيادة "الحرس الفتي" تولّت أوليانا جروموفا كلّ شؤون العمل ضدّ تعبئة وترحيل الشّباب، فراحت تكتب المنشورات، وكانت تقوم بذلك انطلاقاً من وازع داخلي أيضاً، حيث كانت تشعر بالذنب لأنّها لم تستطع تجنيب فاليا ذلك المصير الرّهيب.

وحتى لا يقوم الألمان بترحيل أعداد أخرى من سكّان المدينة إلى العمل في ألمانيا، قام سيريوجكا تيولينين، وليوبكا شيفتسوفا بالتّعاون مع فيتيا لوكيا نتشينكو بإضرام النّار في مكتب العمل الذي يوجد فيه قوائم أسماء هؤلاء الذين سوف يتمّ ترحيلهم.(3)

ويذكر الكاتب أنّ كلّ يوم جديد كان يأتي بأنباء جديدة حول تطوير القوّات السّوفييتيّة لانتصاراتها عند ستالينجراد، فقد وصلت هذه القوّات إلى الشاطئ الشّرقي للدّون، وقامت بهجوم كبير في قطّاع الجبهة الرّئيسيّ عند منطقة فيليكي لوكي ورجيف....

يقول الكاتب مصوراً تطوّر الأحداث، وما قامت به القوّات السّوفييتيّة:

"في الثاني والعشرين من نوفمبر 1942 التقطت موجات عشرات أجهزة الرّاديو السّريّة في مختلف مناطق مقاطعة فوروشيلو فجراد بلاغ مكتب الإعلام السّوفييتي "آخر ساعة" حول

---

1 - المرجع السابق، الصفحات من 133 حتى 140.

2 المرجع السابق، الصفحات من 167 حتى 172.

3 - المرجع السابق، ص 176- 177- 181.

تمكّن القوّات السّوفييتيّة من قطع خطّين من خطوط السكّة الحديديّة التي تغذّي الجبهة الألمانية عند ستالينجراد، وأسر عدد كبير من الألمان. وفجأة ظهر إلى النّور كلّ ما قام بــه وأشــرف عليه إيفان فيدروفيتش بروتسينكو يوماً بعد يوم من عمل سريّ مجهول، وبــدا يتّــسم بطــابع الحركة الشعبيّة العامّة ضدّ "النظام الجديد".(1)

وكلّما كان يتوسّع الجيش الأحمر في تحقيق انتصاراته في ســتالينجراد وعلــى نهــر الدون وشمال القوقاز. كلّما كان يتزايد نشاط "الحرس الفتي" التي أصبحت تضمّ ما يزيد عــن مائة عضو..

وقد كانت ستالينغراد مرآة عظيمة للعبقرية العسكريّة التي كان يتمتّع بها أولئــك القــادة الروس، فقد استطاعت القوّات السّوفييتيّة تدمير ست وثلاثين من فرق العدّو، ومحاصرة اثنتي وعشرين فرقة. إنّ ستالينغراد تعبير عن القدرة المعنويّة والــوعي التّــاريخي للــشّعب الــذي تخلّص من أغلال الرأسماليّة ليدخل التّاريخ من أوسع أبوابه، وكان إيفان فيدروفيتش قد استقرّ أخيراً في إحدى قرى منطقة بيلوفودسك بعد أن وصله نبأ اختراق القوّات الــسّوفييتيّة للجبهــة الألمانيّة، وأصدر أمره بتشكيل فصيل كبير من مجموعات الفدائيّين بمنطقة بيلوفودســك يبلــغ عدد أفراده ما يقرب من المائتين، وكان جوردي كورنيينكو المقاتل العظيم يشرف علــى كــلّ مجموعات الفدائيين الشّماليّة، وكانت الحاميات الألمانية متمركزة في النقاط الآهلــة بالــسكّان، وكانت تقاتل حتّى آخر جنديّ تنفيذاً للأمر الذي أصدره هتلر بعدم التراجع وعدم الاستــسلام، وكان الفدائيّون يسيطرون على الطرق الترابيّة بقيادة إيفان فيدروفيتش.(2)

يتابع الكاتب وصفه لأحداث المعركة مع الألمان، فيذكر أنّ وحدات المدرعات السّوفييتية عبرت خطّ السكّة الحديدية فورونيج- ورستوف، وطردوا الألمان من خطّهم الدّفاعي على نهر كاميشنايا، ليصلوا إلى شمالي منطقة قرية نوفوماركوفكا، وعجّلت الوحدات الألمانية المنسحبة بتحويل الجزء الفاصل بين كاميشنايا وديركول إلى خطّ دفاعي أمامي..(3)

وكانت كاتيا (يكاتيرينا بافلوفنا) التي أرسلها زوجها إيفان فيدروفيتش إلى مكــان تواجــد القوّات السّوفييتيّة، قد التقت في مقرّ القيادة بأحد قادة فدائييّ أوكرانيا، وهو الجنــرال أندريــه يفيموفيتش.

يقول الكاتب واصفاً المعركة التّاريخيّة الكبرى التي أدّت إلى تحطيم القوّات الألمانيّة:

---

[1] المرجع السابق، ص 184- 185.

[2] المرجع السابق، الصفحات من 199 حتى 215.

[3] - المرجع السابق، ص 244.

"أمّا المعركة، إحدى أكبر المعارك في التّاريخ، والتي اعتبرت إحدى حلقات سلسلة المعارك الخالدة التي أدّت إلى تحطيم القوّات الهتلريّة عند ستالينغراد، فقد أخذت تتطوّر بنجاح كبير نحو الجنوب الغربيّ، ووسط الضّباب الذي بدأ يتلاشى تدريجيّاً كانت تندلع المعارك الجويّة تارةً هنا، وأخرى هناك، وتدكّ المدفعيّة الثقيلة كلّ أرجاء البراري".(1)

وتصل كاتيا إلى مارفا كورنيينكو، وهناك أذهلها سماع نبأ استشهاد صديقتها ماشاشوبينا، فقد اكتشف الألمان مقرّ التنظيم السّريّ في النقطة الطبيّة بقرية أوسبينسك، وقبل استشهادها أذاقها رجال الشّرطة في أوسبينسك كلّ صنوف التعذيب، ولكنّها أنكرت حتّى النّهاية صلتها بالعمل السرّيّ. وقد أدرك سكّان المناطق البعيدة عن الجبهة في كراسنودون أنّ نهاية الهتلريّين قد حانت، وذلك بعد فرار الهتلريّين الصغار المرتزقة المجريّين، والإيطاليّين، وفلول جيش أنطونيسكو رئيس الحكومة الملكيّة في رومانيا، وقائد الجيش في الحرب العالميّة الثّانية....

يقبض الألمان على موشكوف وزيمنوخوف وستاخوفيتش، ويعلم سيريوجكا بذلك، ويبلغ شقيقتيه ناديا وداشا وصديقه فيتكالوكيا نتشينكو، وكان أوليج والخال كوليا قد سجّلا بلاغ مكتب الإعلام السّوفييتي حول نتائج هجوم الجيش الأحمر في منطقة ستالينجراد الذي استمرّ ستّة أسابيع، وحول تطويق مجموعة الجيوش الألمانيّة عند ستالينغراد...، وينصح أوليج رفاقه بالتفرّق والرّحيل عن المدينة، فقد كان الألمان يبحثون عنهم بعد أن أصابوا قلب المنظمة، وقبضوا على رفاقهم الثلاثة.(2)

يقول الكاتب واصفاً مشاعر شباب "الحرس الفتيّ" بعد سماعهم بوجوب ترك المنظّمة:

"خمسة أشهر بأكملها ساروا جنباً إلى جنب... خمسة أشهر بأكملها كانوا فيها كلّ يوم تحت سطوة الألمان، وبما يصحب ذلك من آلام جسديّة ومعنويّة.. كيف مرّت تلك الأيّام.... وكم بذلوا في أثنائها من جهود ناصعة رائعة لصالح القضيّة المشتركة، وكم من الإحساسات والمشاعر التي حملها كلّ منهم للآخر، لقد أصبح اليوم فقط واضحاً ماذا تعني منظّمة "الحرس الفتيّ"، وكم هم مدينون لها! وهاهم ملزمون بتركها!"(3)

بعد القبض على ستاخو فيتش، وبعد تعذيب فينبونج وجنوده له، اعترف على تيولينين، ووشى بقيادة "الحرس الفتي" وبمراسلات الاتّصال، إلاّ أنّه لم يذكر اسم أوليانا جروموفا ...ثم

---

[1] - المرجع السابق، ص 250.

[2] - المرجع السابق، الصفحات من 255 حتى 267.

[3] - المرجع السابق، ص 268

قاموا بإلقاء القبض على توسيا ماشينكو، وعلى بعض أعضاء الحرس الفتـي، وكانـت هـذه الاعتقالات بسبب اعترافات ستاخوفيتش الرّهيبة، غير أنّه لم يجر اعتقال أيّ من رجال منظمة العمل السّريّ التي يتزعمّها ليوتيكوف و باراكوف، وكان الضبّاط الألمان يعذّبون سـتاخوفيتش ليس فقط لمعرفة كافّة أعضاء "الحرس الفتي"، بل و للعثور على ذلك الخيط الذي يفضي إلـى منظّمة البلاشفة للعمل السريّ بالمدينة، وأفصح ستاخوفيتش عـن اسـم بولينـا جيورجيفنـا، وليوتيكوف، وهكذا كان العدوّ يقبض على أعضاء "الحرس الفتي"، الواحد تلو الآخر، ولم يجر القبض على توليا أورلوف الملقب "بالرعد" الذي ذهب إلى مـسكن آل أوسـموخين، وأعطـى يليزافيتا وليوسيا منشوراً من لجنة حزب البلاشفة لمنطقة كراسنودون للعمل السّريّ، وفي هـذا المنشور خطاب إلى مواطني كراسنودون، وكلّ المواطنين السّوفييت بأنّ الجيش الأحمر قـد حطّم قوّات العدوّ الذي لاذ بالفرار، وأنّ الثأر قريب من هؤلاء الألمان الذين قتلوا الأبريـاء و عذّبوهم.(1)

يقوم سوليكوفسكي رئيس الشرطة، والرقيب الألماني فينبونج بمهاجمـة بيـت أوليانـا جروموفا، والقبض عليها، وكذلك قام المحقق كوليشوف بتفتيش بيت أنـاتولي، واقتيـاده إلـى زنزانة كبيرة .... وفي الزنزانة التي وُضعت فيها أوليانا، كانت تجلس مارينا وابنها الـصّغير، وماريا أندرييفنا بورتس، وفينيا شقيقة تيولينين، ومن "الحرس الفتي" كانت هناك آنيـا سـوبوفا من جماعة ستاخوفيتش، ومايا بيجليفانوفا، وساشا بونداريفا، وشورا دوبروفينا، وبنتا العمّ ليليـا وتونيا إيفا نيخينا، وغيرهنّ وكانت الزنزانة المجاورة مخصّصة للـصّبية، وقـد سُـجن فيهـا أناتولي وغاليّة صبية حيّ "بيرفومايكا" وقاموا بتعذيب أوليانا، لكنّها لم تجـب عـن أسـئلتهم، وكذلك عذّبوا أناتولي بوبوف حتّى سالت الـدّماء منـه. أمّـا ليوبكـا فكانـت تُـشاهد فـي فوروشيلوفجراد وفي كامينسك، وتزايدت دائرة معارفها من الضباط لدرجة كبيرة، ولكـن مـا لبث أن اقتادها رجال الشرطة إلى مركز شرطة فوروشيلوفجراد، ثم أخذوها إلى زنزانة شباب بيرفومايسكي، وتتابعت في المدينة موجات الاعتقال، والتي توقّفـت كـذلك علـى اعترافـات ستاخوفيتش.(2)

يقول الكاتب فادييف مصوّراً صمود وبطولة المعتقلين كباراً وصغاراً:

"ولم يقتصر إنكار أمر الانتماء إلى المنظّمة والوشـاية بالرّفـاق علـى كـلّ البلاشـفة الجسورين الصّامدين وحسب، بل وسلك نفس السّبيل كلّ المعتقلين من أعضاء "الحرس الفتي".

---

[1] المرجع السابق، الصفحات من 280 حتى 289.

[2] - المرجع السابق، الصفحات من 291 حتى 298.

وقد كان الصّمود والذي لم يشهد التّاريخ مثله لحوالي مئة من الفتيان والفتيات الذين كانوا أقرب في أعمارهم إلى الأطفال..."[1]

وشرع الألمان بالإفراج عن المعتقلين الصّغار، ولم يبقَ في أيدي الجلاّدين غير جماعة رجال العمل السّريّ الكبار برئاسة ليوتيكوف، وباراكوف، وأعضاء منظّمة "الحرس الفتي".

في الفصل الحادي والستين يصوّر الكاتب أوليج وهو يعبر مع مجموعته الدونتيس باتّجاه الشّمال، وفي طريقهم كانوا يشاهدون فلول وحدات المشاة الألمانية والمدفعية التي نجت من الحصار العظيم عند ستالينغراد، كما كانوا يلتقون بمجموعات من الجنود الإيطاليين تتّخذ طريقها من الشرق نحو الغرب، وتسير غالبية أفرادها بلا سلاح، وعند اقتراب أوليج كوليج ونينا، وسيريوجكا وفاليا من خط الجبهة شاهدوا الطائرات تقصف مؤخّرة الألمان، في حين راحت القوات الألمانية تتقهقر إلى الغرب، ثمّ ودّع الرّفاق بعضهم، وذهب كوليج إلى بيته، فقرّروا إرساله إلى أقارب مارينا في القرية، فسار مع الخال كوليا إلى روفينكي، ولكن في الطريق قبض الألمان على أوليج، واقتادوه إلى زنزانة حيث جلس وحيداً، ثم استجوبه الضبّاط الألمان، ولم يقتلوه لأنّهم كانوا ينتظرون قومندان المقاطعة الميجور جنرال كلير الذي كان توّاقاً لاستجواب قادة المنظّمة بنفسه، أمّا سيريوجكا فقد وصل إلى الجبهة، وأخبر رئيس الأركان عن نشاط "الحرس الفتي"، وكان القائد العام للجيش السّوفييتي يُلّقب "بالبقجة"، وكان سيريوجكا قد وصل إلى القوّات السّوفييتية في تلك الأيام التي شهدت انعطافاً هائلاً، حين بدأت حركة الهجوم الكاسح على جبهات فورونيج، وشمال القوقاز، والدون، وتلك الحركة التي أسفرت عن تحطيم وأسر القوات الألمانيّة الفاشيّة المحاصرة بالقرب من ستالينغراد، وعن تحرير مدن مثل فورونيج و كورسك وكراسنودار وروستوف وغيرها من المدن ...

وكان الرقيب أول ميشين يعمل في خدمة الجنرال قائد الجيش الرّوسي، وعندما كان الجنرال يطالع في الجريدة، قائمة أسماء الذين تمّت مكافأتهم و ترقياتهم من الضبّاط والجنرالات، وكانت القائمة تضمّ اسم قائد الفرقة التي يرأسها "البقجة "لبطولاته العديدة، ومن المكّرمين أيضاً تشوفيرين، وخارتشينكو، وكوكوليوف....، وقد أعدّ قائد الفرقة خطّة الاستيلاء على كامينسك، وكان يترأس مجموعة الاقتحام التي انضمّ إليها سيريوجكا الرّقيب كايوتكين، وبدأ المقاتلون هجومهم في الظلام، وفتح العدو نيرانه القويّة من داخل المدرسة، وقد أُصيب

[1] - المرجع السابق، ص 299

سيريوجكا برصاصة في ذراعه اليسرى ورقد سيريوجكا وحده بالنّجع الـذي يـسيطر عليـه الألمان.[1]

أمّا فاليا فقد وجدت لنفسها مأوى في أحد النّجوع القريبة من مدينة كامينسك التـي دارت بشوارعها في نفس الليلة رحى المعركة، وفي الصّباح علم سكان النّجع بنبـأ دخـول قـوات الجيش الأحمر مدينة كامينسك، وبأنّ المعركة تدور بشوارع المدينة، وبانحسار الألمـان عـن الجزء الأعظم منها، وراحت فاليا تسير على غير هدى قاصدة كراسنودون، أمّـا سـيريوجكا الجريح فقد راح يذرع النّجوع المحاذية لخطّ الجبهة بحثاً عن فاليا، ثم وصل إلى بيته، وهنـاك قبض عيه فينبونج وأحد جنود الألمان، وبعد استجوابه وضعوه في زنزانة انفراديّـة...، أمّـا ليوبكا فقد أرسلوها إلى روفنكي وفقاً لطلب الحاكم العسكري للمقاطعة الميجور جنـرال كليـر الذي أراد استجوابها بنفسه...، وعندما تقرّر إعدام المعتقلين، وصل عمدة المدينة ستاتـسينكو، ليوقّع على الحكم الخاص بعمليات الإعدام، ونُقل أعضاء "الحرس الفتي" في عربتين، وجلـس فينبونج إلى جوار سائق العربة الأولى، ووصلوا بهم إلى مبنى تابع للمنجم رقم 5، وصـادروا ثيابهم وأحذيتهم، وودّع أعضاء "الحرس الفتي" كلّ منهم الآخر، وتوجّهت كلافا كوفاليـا نحـو فانيا، ووضعت يدها على جبينه، لتظلّ معه إلى الأبد.[2]

يقول الكاتب فادييف مصوّراً قسوة ووحشية الألمان، ونهاية بطولات منظمـة "الحـرس الفتي":

"وجرى اقتيادهم في مجموعات صغيرة حيث راحوا يلقون بهم الواحد تلو الآخر إلى بئر المنجم، وقام كلّ من استطاع منهم برفع صوته ببضع كلمات ودّ أن يتركها لهذا العالم.

وقد خشي الألمان ألا يكون ذلك نهاية عشرات المعتقلين الذين ألقوا بهـم إلـى أعمـاق البئر، فقاموا بإلقاء عربتي تروللي لتستقرّا فوقهم تسدّان فوهة ذلك البئر، بيـد أنّ الأنـين راح يترامى لبضعة أيّام من بئر المنجم."[3]

أمّا فيليب بيتروفيتش ونيكولاي باراكوف ورفاقهما فقد كان مـصيرهم نفـس مـصير أعضاء "الحرس الفتي" حيث جرى إلقائهم إلى غياهب بئر المنجم 5، وأوليج كوشـيفوي قـد جرى إعدامه بالرصاص، وكذلك ليوبا قد تمّ إعدامها.[4]

---

[1] - المرجع السابق، الصفحات من 299 حتى 335.

[2] - المرجع السابق، الصفحات من 340 حتى 353.

[3] - المرجع السابق، ص 353.

[4] المرجع السابق، ص 354- 355.

في الفصل الخامس والسّتين والأخير من رواية "الحرس الفتي" يصوّر الكاتب فادييف كيف قُبض على فانيا توركينيتش، ولكن أنقذته مجموعة استطلاع سوفييتيّة، واندمج توركينيتش بفصيله في وحدات الجيش الأحمر النظاميّة.. ويذكر الكاتب أنّ عمّال المناجم قاموا بإخراج جثث البلاشفة وأعضاء "الحرس الفتي" الشهداء من بئر المنجم رقم5، كما اكتشفت جريمة أخرى من جرائم الألمان، وهي مقبرة عمّال المناجم في أرض الحديقة العامّة، ومن بين هؤلاء كانت جثث فالكو وشولجا وبيتروف وتلك المرأة التي ظهرت تحمل طفلها بين ذراعيها، وقد جرى دفن جثث أعضاء "الحرس الفتي" والكبار في مقبرتين جماعيّتين بالحديقة العامة، وشارك في مراسم الدفن كلّ الباقين من أعضاء منظمة البلاشفة للعمل السرّيّ بكراسنودون، وأعضاء "الحرس الفتي"، ومنهم إيفان توركينيتش وفاليا بورتس، وجورا أروتيونيانتس وأولياونينا إيفانتسوفا وراديك يوركين وغيرهم....، وعندما وصل إيفان فيدروفيتش وزوجته كاتيا إل كراسنودون لتمجيد ذكرى البلاشفة وأعضاء "الحرس الفتي" الشّهداء، وكانت قوات الجيش الأحمر قد دخلت القرية، وقد قرّر إيفان فيدروفيتش إعادة بناء مؤسّسة "فحم كراسنودون"، وبعث المناجم من جديد...

أمّا عن مصير الجلاّدين الألمان، فقد استطاع سوليكوفسكي وستاتسينكو الهرب مع أسيادهما، أمّا المحقّق كوليشوف فقد جرى احتجازه وتقديمه للمثول أمام القضاء السّوفييتي، وقد اتّضحت عن طريقه اعترافات ستاخوفيتش، والدّور الذي لعبته فيريكوفا وليادسكايا في القضاء على "الحرس الفتي".[1]

يقول الكاتب فادييف في نهاية روايته، وقبل أن يذكر كافّة أسماء أعضاء "الحرس الفتي"، مصوّراً كيف تمّ تخليد ذكرى هؤلاء الشّهداء الأبطال:

"وقد أقسم من بقي حيّاً من رفاق البلاشفة وأعضاء "الحرس الفتي" الشهداء، عند مقبرتهم على الانتقام لزملائه، كما وجرى تشييد نصبين مؤقّتين عند هاتين المقبرتين يتمثّلان في مسلّتين خشبيّتين بسيطتين، وقد سجّل أحد هذين النّصبين المقامين عند مقبرة رجال العمل السّريّ أسماءهم وعلى رأسهم فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف وباراكوف، أمّا نصب "الحرس الفتي" فقد سجلّ أسماء كافة أعضائها المقاتلين الذين استشهدوا في سبيل الوطن".[2]

إنّ رواية ألكسندر فادييف "الحرس الفتي" التي تصوّر شباباً وفتيات قاتلوا واستشهدوا كالأبطال وواجهوا الموت، وهم يردّدون أغنية الثورة، هي رواية تاريخيّة حقيقيّة لأنها تسجلّ

---

[1] - المرجع السابق، الصفحات من 359 حتى 365.

[2] - المرجع السابق، ص 365.

بشكل وثائقي أحداث عام 1942، كما تصوّر وحشية العدو الألماني الهمجي في كراسنودون، وسرقته لمنازل الشّعب الرّوسي، وقتله للنّساء والأطفال الأبرياء، ورغم أنّ هذه الرّواية تاريخيّة تتحدّث عن وقائع جرت على أرض الواقع، إلا أنّ فيها تفاصيل كثيرة عن حياة الشّعب الرّوسي وعواطفه الجيّاشة، وفيها تأمّل فلسفي عميق عن الحياة وعن النّفس الإنسانيّة، وقد عكس فيها الكاتب أحد المشاهد الخالدة للحرب الوطنيّة، كما عكست الرواية روح وطابع العصر الثّوري الذي كان يعيش فيه الكاتب فادييف.

وقد أجاد الكاتب في روايته هذه رسم صورة حقيقية لأولئك الأبطال وأخلاقهم ومقاومتهم الشعبيّة، وقد كان أولئك الأبطال شباباً متواضعين بسطاء، لكنهم ناضلوا وقاموا كالكبار واستشهدوا مرفوعي الهامة، لقد أدركوا أنّ الإنسان الحقيقيّ هو الذي يموت في سبيل القضيّة التي يؤمن بها ويدافع عنها بروحه ودمه.

ولهذا فهذه الرّواية تذكرنا برواية "قصة إنسان حقيقي" لبوريس بوليفوي التي سبق أن تحدثنا عنها في بحثنا هذا....، ولم ينسَ الوطن هؤلاء الأوفياء ففي الخامس عشر من شهر سبتمبر عام 1943 صدر مرسوم مجلس السّوفييت الأعلى ينصّ على منح الأوسمة لأبطال "الحرس الفتي" وللكثير منهم بعد استشهادهم.

رواية "الحرس الفتي" تشبه رواية "قصة إنسان حقيقي" فالروايتان تصوران الشخصيات الوطنية التي تضحي بذاتها في سبيل الوطن. والروايتان تتحدّثان عن المرحلة نفسها وهي فترة الحرب العالمية الثانية.

روايات وقصص روسية تاريخية أخرى:

كتاب "نحن السّوفييت" لمجموعة من الكتّاب السّوفييت:

هذا الكتاب من الكتب التي تحدّثت عن الحرب الوطنيّة العظمى في روسيا، وهذا الكتاب يقع ضمن سلسلة "مقاتلون في سبيل وطنهم السّوفييتي"، وهو ليس رواية كاملة بل عـــدد مـــن القصص كتبها مجموعة من الكتّاب السّوفييت عن فترة تاريخيّـــة هامّـــة فـــي حيـــاة الـــشّعب الرّوسيّ، لأنّ هذه القصص تؤرخ للحرب الوطنيّة العظمى التي قامت في روسيا في النّـــصف الأوّل من القرن العشرين، ومؤلّفو هذا الكتاب أدباء جبهويّون كانوا، في أيّام الحرب الوطنيّـــة العظمى ضدّ الغزاة الفاشست (1941- 1945)، وقد شاطروا الشّعب السّوفييتي مصائب تلـــك الحرب ونوائبها.

إنّ هؤلاء الأدباء السّوفييت، المشاركين في كثير من الوقائع، والشّهود على المعارك في ضواحي موسكو والفولغا ولينينغراد وبرلين يقصّون على صفحات هذا الكتاب المأثرة الخالـــدة للشّعب السّوفييتي الذي اضطلع بكلّ كيانه بأعباء النضال ضدّ المحتلّين الفاشست.

يقول الروائي الكبير ميخائيل شولوخوف:

"يتعيّن على الأديب أن يحيا حياة الشّعب، وأن يعاني عذابات النّاس وأن يسرّ بسرورهم، وأن يلتحم كلّية بهمومهم وحاجاتهم".

إنّ كلمات الروائي ميخائيل شولوخوف السابقة تصلح شعاراً للكتاب الذي سوف نتحـــدّث عنه، كتاب "نحن السّوفييت".

يتضمّن هذا الكتاب ثلاث عشرة قصّة لمجموعة من الكتّاب السّوفييت المشهورين، وهذه القصص هي:

"الطّبع الرّوسيّ" لألكسي تولستوي، "اللّيل قبيل المعركة" ألكـــسندر دوفجينكـــو، "العَلَـــم" فالنتين كاتايف، (فصل من "الحرس الفتي") ألكسندر فادييف، "امتنان تينـــيس أورغـــا" فيلـــيس لاتسيس، "ألياور الثالث" قسطنطين سيمونوف، "قاتلوا من أجل الوطن" ميخائيـــل شـــولوخوف، "كتيبة الرّجال الأربعة" ليونيد سوبوليف، "نحن- السّوفييت" بوريس بوليفوي، "هكـــذا أحرزنـــا النّصر" قسطنطين لورد كيبا نيدزه، "الميدان" نيكولاي تيخونوف، "نحو مغرب الشّمس" أنـــدري بلاتونوف، "آذار- نيسان" فاديم كوجيفنيكوف.

إنّ قصّة (فصل من "الحرس الفتي") التي كتبها ألكسندر فادييف (1901- 1956) هـــي فصل من رواية "الحرس الفتي" (1944- 1951) التي تحدّثنا عنها سابقاً، هذه الرّوايـــة التـــي

كانت شاهداً على البسالة والشّجاعة والبطولة الخالدة للشبيبة السّوفييتيّة، والفصل الذي تعرضه هذه القصة يتحدّث عن أحد أعضاء منظّمة "الحرس الفتي" وهو سيريوجكا الذي قام بإحراق بناية مؤسسة الفحم يكراسنودون، والتي كان يحتلّها الألمان، وكانت هذه العمليّة إحدى نشاطات منظمة "الحرس الفتي"، والتي كبّدت العدو خسائر فادحة.

أمّا قصّة قسطنطين سيمونوف "ألياور الثّالث" فهي تتحدّث عن بطولة المقاتل الرّوسيّ ألياور عام 1942، والكاتب سيمونوف المولود في عام 1915 هو ناثر، وكاتب مسرحي وشاعر، ومترجم، وحصل على ست من جوائز الدولة، ورواياته "الأحياء والأموات" و"لا يولدون جنوداً" و"الصّيف الأخير"، وقصصه الطويلة والقصيرة، ومسرحيّاته وأشعاره، كلّها تُعدّ أفضل ما كتب سيمونوف، وهي تحكي قصّة الحرب الوطنيّة العظمى ضدّ الغزاة الفاشست، فقد قامت الحرب عندما كان الكاتب سيمونوف في ريعان الصّبا وكان مراسلاً حربيّاً لجريدة (النّجمة الحمراء)، وقد اجتاز الطّريق الطويل من موسكو إلى برلين.

وكان هذا الكاتب شاهد عيان ومشاركاً في كثير من الأحداث، وكما يقول الكاتب نفسه، فإنّ الحرب مأساة إنسانيّة، وهو يحاول أن يجسّد ذلك في كتبه، وقصّته "ألياور الثالث"، هي إحدى الأقاصيص التي ألّفها الكاتب في سنوات الحرب، وفي طرق جبهاتها.(1)

في قصّة "ألياور الثالث" يصوّر الكاتب قسطنطين سيمونوف القوميسار رئيس الأركان في الجيش الأحمر، واستشهاد بعض أفراد فرقته ، ومنهم ألياور الأول، وألياور الثاني، أمّا ألياور الثالث فقد كان واجبه هو السّير بجانب القوميسار في أثناء المعركة مع الألمان، ويُجرح قائد الكتيبة النّقيب بولياكوف...، وقد أنزل الألمان قوّاتهم في شبه الجزيرة، وأبادوا السريّة الخامسة، لكنّ القوميسار الشّجاع قاد الجميع في هجوم ثلاث مرّات، وقتل الألمان، واقتاد بعضهم إلى الأسر، وجُرح ألياور الثالث، ولكنّه خرج من المستشفى بعد شهر من العلاج.(2)

يقول الكاتب سيمونوف مصوّراً نتيجة المعركة التي جُرح فيها ألياور الثالث:

"ليس سوى الأموات كان يستطيعون أن يحدّثوه بما جرى هنا ليلاً، أجل، فالأموات أيضاً يستطيعون الحديث. فبين جثث الألمان رقد قتلى السرية الخامسة من الجيش الأحمر، كان بعضهم راقداً في الخنادق مطعوناً مراراً بالحراب متشبّثاً، بيديه الميّتتين بالبنادق المحطّمة،

[1] - مجموعة من الكتّاب السّوفييت، نحن السّوفييت: دار التقدّم ، موسكو، 1975، ص 127- 128.

[2] - انظر: المرجع السابق نفسه، الصفحات من 130 حتى 147.

وهوى الآخرون، الذين لم يصمدوا متناثرين في الميدان المكشوف... جال الكوميسار ببطء ميدان المعركة الصامت، وعاين وضعيات القتلى، ووجوههم المتجمّدة".[1]

قصة "نحن السّوفييت" للكاتب بوريس بوليفوي

أمّا قصّة "نحن السّوفييت" التي كتبها بوريس بوليفوي، الكاتب والصّحفي السّوفييتي الشّهير بوريس بوليفوي، الذي كتب إحدى أكثر الروايات السّوفييتية شعبيّة، وهي "قصّة إنسان حقيقي"، وهذه الرواية تستند إلى القصّة الحقيقيّة للطيار ألكسي ماريسيف، وقد كنا تناولنا هذه الرواية فيما سبق، وعرفنا أنّ بطل رواية "قصّة إنسان حقيقي" هو ألكسي ماريسيف، الذي تعرّف إليه المؤلّف في سنوات الحرب في مطار عسكري في ضواحي مدينة أوريل، وكان المؤلف وقتها مراسلاً لجريدة (البرافدا)، وفي روايته هذه جسّد بوليفوي موضوعه الأثير، فهو يتحدث دائماً عن الإنسان السّوفييتي الذي يتجلّى في الظروف العصيبة إنساناً كبيراً، من المقام الأوّل.

إنّ مثل هذا المبدأ في الإبداع يلتزمه بوليفوي في كتابه الحائز على جائزة الدولة، وهو مجموعة قصص بعنوان "نحن السّوفييت"، والكاتب بوريس بوليفوي يستطيع دائماً أن يدلّ على أولئك النّاس الحقيقيين الأحياء الذين تستند مضامين كتبه إلى حيواتهم ومصائرهم.[2]

تتحدّث رواية "نحن السوفييت" عن فتاة اسمها المستعار: بريوزا، نشات في عائلة عريقة، وكانت تتكلّم منذ الطفولة باللغة الأوكرانية والرّوسية والفرنسيّة والألمانية بطلاقة، ومضت إلى دورة التمريض، وقرّرت المضيّ إلى الجبهة، وقد عُهد إليها بمهمّة سرّيّة، وهي تمثيل دور فتاة مدلّلة، معجبة بالغرب، والنزول في شقة العقيد الألماني الذي عرّفها برئيس الأركان- الجنرال- وكانت تذهب هي إلى رجل بلشفي قديم، يعمل في السرّ في أثناء الحرب الأهليّة، حيث كان هذا البلشفي وبريوزا يضعان تقارير بكلّ شيء، بكلّ ما رأته وسمعته حول الألمان....، عندما حاول الجنرال الألماني إهانة بريوزا قامت بطعنه وقتله، ثمّ اجتازت الجبهة بأمان، ووصلت إلى قوّاتها... وبعد وقت وظّفت إدارة القومندان العسكريّة الألمانية لمدينة خاركوف فتاة تُدعى أرنا فينر، مترجمة للقائد الألماني، وأخبرته هي أنّها ابنة مستعمر ألماني، وكان هذا الرئيس يُدعى البريغاد نفوهرر لقوّات الآس- آس، وكانت فينر تسعى لمعرفة

[1] - المرجع السابق، ص 145

[2] - المرجع السابق، ص 197- 198.

الأسرار الفاشية لأجل وطنها...، ومرّة استجوبوا رائداً روسيّاً أسيراً أمامها، وقاموا بتعذيبه أشدّ العذاب حتى مات، وقبل موته قال عبارة "نحن سوفييت".[1]

يقول الكاتب مصوّراً معاناة هذا البطل من وحشيّة الألمان وهمجيتهم ومبيّناً قوّة إرادة فينر وثباتها:

"... وحاولت أن أتذكّر كلّ شيء، أمام عيني ضربوه حتى الموت. وقد استشهد هذا الإنسان الرّائع الذي لم أعرفه، وهو يصدّ الضّربات. كانت الزنزانة كلّها ملّطخة بدمه، غير أنّي أنا أيضاً تكشّفت في هذه الساعة أنّي جديرة به، فلم أفضح نفسي".[2]

إنّ معظم الكتّاب الرّوس السّوفييت الذين عاصروا الحرب العالميّة الثانية، والتي تُسمّى عندهم الحرب الوطنية العظمى، كتبوا عن هذه الحرب ممجّدين بطولات الجنود السّوفييت، والشّعب الرّوسيّ بكامله الذي انتصر في هذه الحرب، وقدّم أكثر من عشرين مليون شهيد في سبيل الوطن، ووصفوا حالات معيّنة فرديّة حقيقيّة عن بطولات هذا الشّعب، ومن هؤلاء الكتّاب ألكسي تولستوي، وميخائيل شولوخوف الحائز على جائزة نوبل للآداب، والذي كتب قصّة عن هذه الحرب بعنوان "مصير إنسان"، ويتحدّث في هذه القصّة عن جندي روسيّ وقع في الأسر، ولكنّه لم يفقد في الأسر الشّعور بالكرامة والكبرياء والإخلاص لوطنه، واستطاع في نهاية القصّة أن يهرب من الأسر ويعود لوطنه، ولكنّه وجد بيته قد دُمّر، وفقد أسرته، وبحث عن ابنه فلم يجده، ولكنّه وجد ابناً آخر كان قد فقد والديه في أثناء الحرب، فأخذه وتبناه، والابن يظن أنّ هذا والده الحقيقيّ، ولهذا فهي قصة وطنيّة وتاريخيّة واجتماعيّة في الوقت ذاته ومؤثرة في النّفس.

قصّة "الطبع الروسيّ" للكاتب ألكسي تولستوي :

أمّا ألكسي تولستوي في قصّة "الطبع الروسيّ"، وهو من كتّاب الرّواية التاريخيّة المميّزين في الأدب الروسي فهو الذي كتب ثلاثية "درب الآلام" وكتب رواية "بطرس الأول".

فهو يرى أنّ الإنسان الرّوسيّ بطبعه يحبّ تقديم الخير للآخرين، وهو بعيد عن الأنانيّة، وبغضّ النّظر عن مدى صحّة هذه الآراء، فإنّ الكتّاب الرّوس بوجه عام خاضوا حرباً معنويّة ونفسيّة ضدّ الألمان فصوّرا الإنسان الرّوسيّ، هو الإنسان الذي لا يُقهر لأنّه يدافع عن أرضه، ولأنّ الحقّ إلى جانبه.

[1] انظر: المرجع السابق، الصفحات من 202 حتى 236.

[2] المرجع السابق، ص 234- 235.

رواية "الثلج الحار" للكاتب الرّوسيّ يوري بونداريف :

من الرّوايات التّاريخيّة الرّوسيّة التي تناولت موضوع الحرب في النّصف الأوّل من القرن العشرين، رواية "الثلج الحار" للكاتب الرّوسيّ يوري بونداريف، و في بداية الرّواية نجد بدلاً عن المقدّمة حواراً مع الكاتب نستنتج منه عمّا يتحدّث في روايته، و المعركة التي يصفها، يقول الكاتب: "إن تاريخ الإنسانيّة لم يعرف معركة يشابه نطاقها النّطاق الذي اتّخذته المعركة من أجل ستالينغراد التي استمرّت ستّة أشهر ونصف الشهر، من تموز 1942 حتّى شباط 1943، فقد اشترك من كلا الجانبين في مرحلتها الأخيرة فقط، حين تحوّلت القوّات السّوفييتية من الدّفاع إلى الهجوم، أكثر من مليوني شخص، و 26 ألف مدفع و هاون، وأكثر من ألفي طائرة.

إنّ تاريخ الإنسانيّة لم يعرف معركةً أكثر ضراوة و إراقة للدماء...... إنّ المدينة الكبيرة التي كان يعيش فيها قبل الحرب نصف مليون إنسان لم تعد تحوي على بيت واحد سليم، و إنّ أكثر من 90 بالمئة من الأبنية قد سوّيت بالأرض في أثناء المعارك."[1]

و عندما سُئل الكاتب عن سبب عودته إلى موضوع الحرب بعد ثلاثة كتب كتبها عن أوقات السّلم أجاب أنّه كتب عن الحرب عدة روايات منها: قصّتين طويلتين و رواية "الثلج الحار" وأنّ الرّغبة كانت تراوده في أن يكتب كتاباً عن ستالينغراد منذ أن كان في معهد الأدب حين كان يدرس في الحلقة الإبداعيّة تحت إشراف قسطنطين باوستوفسكي ، وليس فقط لأنّه كان قد اشترك في تلك المعارك، بل الأهمّ من ذلك – كما يقول الكاتب– هو أنّ تلك الحرب أتاحت الكشف عن خُلق شعبه الرّوسيّ.....

وفي رأي الكاتب أنّ المحور الرئيسي لقصّة "الكتائب تطلب النّار" هي قضيّة المسؤوليّة، أمّا محور قصّة "الطّلقات الأخيرة" فهو الخير و الشرّ، والحبّ في الحرب، و عندما سُئل الكاتب بماذا تتميز رواية "الثّلج الحار" عن قصّتيه الأولى و الثّانية عن الحرب، يجيب الكاتب:

"هو النّظر إلى الأحداث من زوايا مختلفة، بعيون النّاس الواقفين على درجات مختلفة من السلّم العسكري، و لهذا فهم يرون حوادث الحرب من نقاط مختلفة الارتفاع، و بالتالي، في سعة الرؤية".[2]

و يتابع الكاتب بقوله إنّ القرّاء قد تعوّدوا في كتاباته الأولى على غياب قادة عسكريين من مراتب عليا، كالجنرال بيسونوف، الذي لولا وجوده في الرّواية لنقص شيء مهمّ في

---

[1] - بونداريف، يوري: الثلج الحار، ترجمة: غائب طعمة فرمان، دار رادوغاس، موسكو، 1974، ص 3.

[2] - المرجع السابق، ص 4.

الرّواية، لأنّه يتحمّل مسؤولية حياة الآلاف من الجنود، وكذلك الملازم كوزنيتسوف في روايته "الثلج الحار" مختلف عن أبطاله في قصّتيه السّابقتين.

وعندما سُئل الكاتب: لماذا يهمّه معيار خُلقي كالشجاعة أكثر من أي شيء آخر؟ أجاب بأنّ مسألة الشّجاعة الإنسانية تهمّه لأنّ في ذلك منبع البطولة، ولأنّ تغلّب الإنسان على نفسه في الحرب كلّ ساعة و كلّ يوم إنّما هو إظهار الشّجاعة بالذات.[1]

كما يتبيّن لنا من حديث الكاتب في بداية روايته أنّ موضوع روايته "الثلج الحار" هو الحرب، و بالتّحديد معركة ستالينغراد، ونضال الشّعب الرّوسيّ وبسالته في قتاله مع الألمان......

و أيّ كاتب حين يبدع عملاً ما فإنه يختار موضوعاً محبّباً إليه يركّز عليه في روايته، ويجعل خيوط روايته جميعها تجتمع عند هذا الموضوع أو الفكرة، وموضوع رواية "الثّلج الحار" هو الشّجاعة، شجاعة الإنسان الرّوسيّ، وذوبان الذّات الرّوسيّة في سبيل المصلحة الجماعية التي هي في الوقت ذاته مصلحة الوطن روسيا، روسيا التي أنجبت أبطالاً شباباً ونساءً وشيوخاً ....

و القارئ يتلمّس موضوع الشّجاعة في الحرب في أغلب الرّوايات الرّوسيّة التي تتحدّث عن الحرب، و لكنّ الشّجاعة تتجسّد في رواية "الثلج الحار" بشكل أكثر وضوحاً وتميّزاً، إنّها شجاعة تجعل الجنديّ الرّوسي يلتصق بالرّشاش والمدفع، و يشعر كأنّه قطعة من هذا السّلاح، إنّها شجاعة الأب الذي يدفع بابنه إلى المعركة، وأكثر من ذلك شجاعة الأمّ عندما تتجلّد وتحبس دموعها عندما تودّع ابنها الذاهب إلى الحرب، فهي حريصة على إظهار التجلّد وعدم البكاء لئلاّ يؤثّر ذلك في معنويات ابنها، إنّهن النساء الرّوسيّات اللّواتي يدفعْن بأبنائهنّ إلى حضن الأم الكبيرة روسيا.

شجاعة الممّرضة التي نسيت حياتها الشخصيّة، وانخرطت مع الجنود الروسيين تقاتل بشراسة وتداوي الجرحى، و تقوّي معنويات الجنود.......

و الكاتب بونداريف في تصدّيه لوصف أحداث المعركة، وفي غمار إشارته إلى كلّ التفاصيل الصغيرة -و التي هي برأيه مهمّة – فإنه لا ينسى أن يركّز على الأخلاق الرّوسيّة النبيلة، وعلى الرّوح المرحة للإنسان الرّوسيّ رغم ظروف الحرب ومصاعبها.

لابدّ لنا قبل البدء بذكر أحداث رواية "الثّلج الحار" من أن نشير إلى الشخصّيات الرئيسيّة و الثّانويّة فيها.

---

[1] - انظر: المرجع السابق، ص5.

من الشّخصيات الرئيسية الجنرال بيسونوف (بيتر ألكسندرو فيتش) قائد الجيش الرّوسيّ، و زميله الجنرال فولوبوف رئيس الأكاديميّة العسكريّة في موسكو، و الملازم كوزنيتسوف، والجنرال ياتسينكو رئيس أركان الجيش، والملازم دروزدوفسكي قائد البطاريّة العسكريّة، والمحبوب من جميع أمراء الصّفوف، و سكوريك رئيس رقباء البطاريّة، و العقيد دييف قائد الفرقة، ومرافق بيسونوف الرائد بوجيتشكو، والعقيد درغاتشيف، والمشرفة الصّحيّة على البطاريّة زويا يلاغينا، ورئيس الرّقباء غولوفانوف، وشخصيات أخرى مثل فيكتور ابن الجنرال بيسونوف وغيره من الشّخصيات.

ومن شخصيّات الرّواية الرّقيب نيتشايف، وآمر المدفع أوخانوف، وهو رقيب أول، والملازم دافلاتيان آمر الفصيلة الثانية، وروبين سائق المدفع الأوّل، والجندي تشيبيسوف.

ومن الشخصيّات التاريخيّة الحقيقيّة شخصيّة ستالين الزعيم السوفييتي، وشخصيّة أودلف هتلر الزعيم الألماني ، والأوّل بنظر الكاتب شخصيّة إيجابيّة، والثّاني بنظر الكاتب شخصيّة سلبيّة.

في الفصل الأوّل من رواية "الثّلج الحار" نتعرّف على شخصيّات محوريّة رئيسيّة في الرّواية، من خلال الحوار الذي يجري في بطّاريّة الملازم دروزدوفسكي، حيث يجتمع قائد البطاريّة دروزدوفسكي مع الرّقيب نيتشايف، والملازم كوزنيتسوف والمشرفة الصّحيّة على البطاريّة زويايلاغينا، ومن خلال ردّ زويا على سخرية نيتشايف منها بعد ما سألها عن عمرها، يتبيّن لنا أنّها فقدت أبويها في مدينة بيريميشيل بعد عام 1941، وهذا العام كما يشير المترجم في الهامش هو عام هجوم الجيوش الهتلرية على الاتحاد السّوفييتي.

ويُشاع في البطّاريّة أنّ زويا معجبة بالملازم دروزدوفسكي، وفي أثناء ذلك يسمع الجميع أصوات الطائرات الألمانية (ميسير) حيث تتعرّض البطاريّة لغارة، وتتصدّى لها المدافع المضادّة للطائرات في القطار، فقد كانت ثلاث طائرات من طراز (ميسيرشميت) تنقض على القطار، واحترقت عربتان وكان الفريق بيسونوف قائد الجيش يتوقّف عند كلّ بطاريّة، ويستمع لبيان آمرها، وهو يتّكئ على عصاه، وسمعه كوزنيتسوف فجأة بصوته العالي الحادّ يقول:

"أودّ و أنا أجيبكم عن سؤالكم أن أقول شيئاً واحداً هو أنّهم كانوا يحاصرون ستالينغراد خلال أربعة أشهر، إلا أنّهم لم يستولوا عليها، والآن شرعنا بالهجوم. والعدّو لابدّ، أن يشعر بقوّتنا وكراهيتنا له على أتمّ وجه، ثمّ تذكّروا شيئاً آخر وهو أنّ الألمان يدركون أنّنا، هنا عند ستالينغراد ندافع، أمام العالم كلّه، عن حرّية روسيا وشرفها، و لا أريد أن أكذب وأعدكم

بمعارك سهلة، فإن الألمان سيقاتلون بآخر ما لديهم. و لهذا أطلب منكم الشّجاعة والإحساس بقوّتكم". (1)

إنّ هذا الكلام الذي نطق به الجنرال بيسونوف أمام البطاريّة الأولى من الكتيبة الثّانية، يبيّن لنا مدى السّلطة القويّة المقنعة التي يتمتع بها الجنرال رغم نحوله ووجه العليل، و ربّما أراد الكاتب أن يظهر لنا مدى شجاعة هذا الإنسان في قدرته على ضبط نفسه، و شعوره بالمسؤوليّة في قيادته النّاس، إنّه يزرع التّفاؤل في نفوس جنوده، ولكن في ذات الوقت يذكّرهم بخطورة عدّوهم الألماني، وبرأيي إن ما أوصله إلى رتبته العسكريّة هذه ليس عمله أو ثقافته العسكريّة فقط، وإنّما هو بالدّرجة الأولى روحه القتالية العالية، وعزّة نفسه التي ترفض الذّل والخضوع للعدو، وحبّه الكبير لروسيا.

و قد كان تعيين الجنرال بيسونوف كقائد جيش مفاجأة تامّة له، و قد تسلّم جيشاً جديداً حديث التكوين بعيداً في المؤخّرة.

يقول الكاتب مشيراً إلى عدم موافقته على تبريرات ممثّل المواصلات العسكريّة:

"ولم يرضه تماماً تعرّفه اليوم على إحدى فرقه التي تعرّضت لغارة الطائرات الألمانيّة أثناء نقلها إلى بضع محطّات شمال غربي ستالينغراد. و كان عدم الرضى هذا مرجعه إلى عدم تأمين غطاء جويّ في منطقة النّزول."(2)

في الفصل الثّاني من الرّواية يصوّر لنا الكاتب انفعال الجميع، وهم ينتظرون المعركة القريبة الغامضة في جهة ستالينغراد، ويقرأ كوزنيتسوف ورقة ألقاها الألمان من الطّائرة يهدّدون فيها قوّات ستالينغراد، وأنّهم سيسوقونهم إلى ما وراء الفولغا، ويجعلونهم طعاماً لقمل سيبيريا....

يأمر كوزينتسوف الجنود بالتقدّم، ويصل الطّابور إلى قرية قوزاقيّة مجهولة محروقة.....

يصوّر لنا الكاتب كوزنيتسوف في هذه اللّحظة، وما يحدس به، وهو ينتظر أمراً ما:

"لم يكن يعرف، ولكن كان يحدس فقط، أنّ ستالينغراد الآن في مكان ما وراءه، و كأنّما في المؤخّرة، و لم يكن يعرف أنّ الجيش كلّه، بما فيه فرقتهم التي كانت تضمّ فوج المدفعيّة، وبطاريّته، وفصيلته، كان يتحرّك مسرعاً باتّجاه واحد، هو الجنوب الغربيّ لمواجهة فرق

---

[1] - المرجع السابق، ص 27.

[2] - المرجع السابق، ص 31.

دبابات ألمانيّة كانت قد بدأت هجوماً في محاولة لفكّ الحصار على جيش بـــاولوس المحاصـــر بآلافه العديدة في منطقة ستالينغراد. كما لم يكن يعرف أنّ مصيره، ومصير جميع الذين معـــه –كل الذين من نصيبهم أن يموتوا، و الذين كانوا من نصيبهم أنّ يظلّوا أحيـــاء- أمـــسى الآن مصيراً مشتركاً، بغضّ النّظر عمّا كان ينتظر كلّ واحد على حدة...."[1]

في الفصل الثالث يذكر الكاتب أنّ فرق مانشتين للدبابات الألمانية كانت قد بدأت القتـــال لفتح ثغرة في منطقة كوتيلنيكوفو لتنفذ منها إلى ستالينغراد التي مزّقتها معركة يـــدور رحاهـــا منذ أربعة أشهر، وفي ذلك الوقت بالذّات وُجّه جيش روسيّ آخر شُكّل حديثاً في المؤخّرة بأمر من القيادة العليا إلى الجنوب،... و قد حدّد بيسونوف بوضوح وتبصّر مدى الخطر المقتـــرب. كان يعرف أنّ الجبهة في ناحية كوتيلنيكوفو لا تكاد تصمد، و أنّ الدّبابات الألمانيّة قدّ تقـــدّمت خلال ثلاثة أيّام أربعين كيلومتراً باتّجاه ستالينغراد، ولم يبق أمامها غير حاجز واحد هو نهـــر ميشكوفا، وكان جيشه من جانب وفرق مانشتين للدّبابات من جانـــب آخـــر يزحفـــان بـــنفس الإصرار إلى ذلك الحاجز الطبيعيّ......[2]

يستدعي ستالين بيسونوف إلى مقرّ القيادة العليا، و يبلغه أنّه عيّنه قائـــداً لجـــيش قـــرب ستالينغراد، و أنّ هناك معلومات عن تحويل قوّات ألمانيّة مـــن أوربّـــا الغربيّـــة إلـــى جهـــة ستالينغراد، لذلك يجب توجيه الضّربات المميتة إلى العدو المحاصر، و يجيبـــه بيـــسونوف أنّ تراجع عام 1941 لم يمح كلّياً من وعي الجنود، و كـــذلك صـــيف 1942، ويـــسأل ســـتالين بيسونوف عن الجنرال المغرور الخائن فلاسوف الذي استسلم للألمان ، فيجيبه بأنّه لم يلتقِ به في جبهة، ولا يستطيع أن يقول شيئاً عن صفاته، فيجيبه ستالين محتدّاً أنّه بذنب هذا الجنـــرال الهلوع هلك من جيشه ستّة آلاف شخص، وهنا فكّر بيسونوف مع نفسه شاعراً بألم محرق في رجله، بأنّه لا يمكن أن يكون ابنه فيكتور في عداد هؤلاء المفقودين الثمانية آلاف، و أنّه وقـــع في الأسر في عام 1942.....، ثم يأمر ستالين بيسونوف أن ينزل بجيشه إلى العمـــل لـــسحق وإبادة تشكيلة باولوس.[3]

يتابع الكاتب وصفه للأحداث وكيف تغيّر الوضع في الجنوب الغربيّ من ستالينغراد في اليوم الثالث من وصول بيسونوف إلى مواقع الجيش، ومن 24 حتى 29 من تـــشرين الثّـــاني خاضت قوات جبهة الدّون وجبهة ستالينغراد معارك هجوميّة متواصلة ضدّ التشكيلة الألمانيّـــة العديدة الألوف المحصورة، والتي كانت تقاوم بعنف... وأرسل الفريـــق الأوّل بـــاولوس قائـــد

---

[1] - المرجع السابق، ص 45.

[2] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 49 حتى 51.

[3] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 60 حتّى 75.

جيش الميدان السادس برقيّة مستعجلة إلى قيادة هتلر العليا طالب فيها السّماح بالانفلات من الطّوق بعد نقل القوّات إلى الجنوب الغربيّ، فوافق هتلر، وتراجع جيش الدّبابات الألماني عن الفولغا باتجاه روستوف، ثمّ أمر هتلر الذي كان في حالة من الحيرة باولوس بعدم التخلّي عن ستالينغراد، والقتال إلى آخر جنديّ، وقرار هتلر هذا – كما يقول الكاتب – كان يرمي إلى هدف استراتيجيّ، هو تأمين تراجع تشكيلة شمال القفقاس الألمانية إلى روستوف.....

بعد ذلك بدأ جيش بيسونوف في النّزول في شمال غربي ستالينغراد، ووردت أنباء مفصّلة عن بدء الألمان بهجوم مضادّ في جهة كوتيلينكوفو، وعن المعارك الدّامية على شاطئ نهر أكساي، و تحرّك جيش بيسونوف من الشّمال إلى الجنوب، إلى شاطئ نهر ميشكوفا بعد موافقة ستالين على ذلك.[1]

و تصل فرقة العقيد دييف إلى المنطقة المعيّنة على الضّفة الشّمالية لنهر ميشكوفا...، وكان الجميع ينتظر الغارة الألمانيّة، ويصوّر الكاتب كيف كان الألمان يفعلون ليضبطوا منطقة القصف بدقة، فيقول:

"ورأى كوزنيتسوف كيف بثّت الصّواريخ الألمانيّة نوافير من اللّونين الأحمر والأزرق وراء بيوت القرية. وبعد ذلك انفصل الصّاروخ الجوابي من الطّائرة الأمامية بوهج أحمر، راسماً خطّاً من الدّخان....، كان الألمان يرسلون الإشارات من الأرض والجو ليضبطوا منطقة القصف بدقّة..."[2]

ويُصاب كوزينتسوف في المعركة، ويقاوم هو وسفياتوف جنديّ الاتصال الذي كان يتلّقى الأوامر بالتلفون بإطلاق النّار، أمّا الرقيب الثّاني تشوباريكوف، ويستيغنييف فكانا يسدّدان على الدّبابات الألمانيّة.

يقول الكاتب مصوّراً قوّة إرادة الجنديّ الرّوسي وثباته في أرض المعركة:

"واندفع إلى الطّقم الذي كان يسحب المسندين وينقلهما بكلّ قوّة رجاله، ضاغطين بأكتافهم على العجلتين والدّرع، نافثي اللّعنات، مجاهدين أن يديروا المدفع خمساً وأربعين درجة إلى اليمين، و قد رأوا أيضاً الدّبابات هناك. كانت الأيدي تتحرّك بجلبة، وتتشابك، وتنزلق الأحذية على التراب، وترفّ عيون مشبعة توتّراً، بارزة، وظهر أمام الدّرع وجه يفستيغنييف المنتفخ المتفصّد عرقاً، كان يسند رجليه على المتراس، ويدفع عجلة المدفع بكلّ

---

[1] - انظر: المرجع السابق، من ص 76 حتى 79.

[2] - المرجع السابق، ص 122.

جسمه، وما يزال خطّ دقيق من الدّم يسيل من أذنه على ياقة معطفه. والظّاهر أنّ طبلة أذنه قد أصيبت."[1]

في المقطع السّابق يبيّن لنا الكاتب بونداريف عظمة الإنسان الرّوسي وبخاصّة المقاتل والجندي، إنّه في المعركة ينسى نفسه، وينسى أنّه من لحم ودم، ويتّحد مع سلاحه كأنّه يبحث عن الموت والاستشهاد في سبيل قضيّته التي هي قضيّة شعب ووطن، والكاتب لا يكتفي بتصوير أفعال و تصرّفات الجنديّ الرّوسيّ في أرض المعركة، بل يركّز أيضاً على وصف مشاعره في هذه اللّحظات ومعنويّاته، وتوتّره المستمرّ حتى يصل إلى هدفه وينجح في تحقيقه....

و برأيي إنّ يفستيغنييف الذي صوّره الكاتب في المقطع السّابق، و هو يدفع المدفع بكلّ جسمه، ولا يعطي أهميّة إلى الدّم الذي يسيل من أذنه، هو أشبه بيوسف العظمة، فهو يذكّرنا بهذا البطّل السّوري الذي قاوم الفرنسيين حتّى الموت في معركة ميسلون عام 1920 إنّها الشّجاعة الحربيّة، شجاعة الإنسان المؤمن بمبدئه و قضيّته، والشّجاعة ليس لها مكان محدّد أو جنس محدّد، فلا يوجد شجاعة روسيّة أو شجاعة سوريّة، إنّها نفسها الشجاعة التي ركّز عليها الكاتب بونداريف و أولاها اهتماماً كبيراً في روايته "الثلّج الحار".....

نتابع مع الكاتب في وصفه أحداث المعركة، فيذكر أنّ كوزنيتسوف و زويا كليهما قد أصيبا بصدمة انفجار، و فقدا سمعيهما، أمّا كاسيموف فكان يحتضر...

كانت ضربة الدّبابات الألمانيّة الرئيسيّة موجّهة إلى نقطة التقاء جيش بيسونوف بالوحدات المجاورة إلى اليمين، وفي نهاية اليوم أصبح الوضع صعباً في قطاع فرقة الجناح الأيمن للعقيد دييف، وفي الظهيرة احتلّ الألمان جزء القرية الواقع على الضفّة الجنوبيّة لنهر ميشكوفا واستولى الألمان على بعض الشّوارع في القرية.....، ويبلغ دييف القائد بيسونوف عن اختراق الألمان الخندق الأوّل، وعبورهم النّهر بحوالي كتيبتين من الدّبابات شرق المرتفع وغربه، وبدء فريق من مطاردي الدّبابات بمقاومتها،.. ويطلب اللواء ياتسينكو رئيس هيئة الأركان بيسونوف الذي يقدّم تقريراً عن المعركة إلى اللواء ياتسينكو يخبره فيه عن تقدّم الألمان، واستقرار الوضع في مركز دفاع الجيش، والتقاط رجال الاستطلاع في الجبهة برقية لاسلكيّة مكشوفة في تشكيلة الجيوش الألمانيّة المسمّاة (الدون) مرسلة إلى مقرّ قيادة باوليوس تقول: "اصمدوا.... النّصر قريب..."

[1] - المرجع السابق، ص 149- 150.

يتعرّف فيسنين على صورة فيكتور ابن الجنرال بيسونوف في منشور صغير، ويطلب من أوسين أن يصمت لأن الخطأ لا يغتفر.[1]

و كانت الدّبابات الألمانيّة تحيط بالقرية من جهة السّهب، وكان الألمان يحاولون تحسّس الوضع بإطلاق طلقات أوليّة ليعرفوا ما إذا كان هناك شخص حيّ..، و كان فيسنين قوميسار الفرقة ومعه أوسين وتيتكوف في سيارتهم يحاولون الوصول إلى البيوت، ويصف لنا الكاتب فيسنين في لحظاته الأخيرة وقد راودته أفكار شتّى، وقد صمّم أن يقاوم حتّى النّهاية فيقول:

"....لم يكن وعي فيسنين مسلماً بعد بأنّ الألمان قد دنّوا تامّاً، كان وعيه آنذاك يقاوم، ويرفض القدر المحتوم المقترب، وكان آنذاك يصدّق وهو يستشعر ارتداد المسدّس في يده، ويقنع نفسه بأنّ هذا القدر المحتوم لا يقترب الآن ، بل بعد بضع دقائق فقط، وليس في الحال، بل عندما تنتهي رصاصات أوسين وتيتكوف..."[2].

يموت فيسنين، فيحمل تيتكوف جسده الممزّق على ظهره، مبتعداً به عن السيّارة إلى الخندق...، وكان مدفع أوخانوف الوحيد، الذي نجا بأعجوبة يقف غير بعيد من الجسر المحروق الذي شوّهته القذائف.....

و كانت المعركة قد هدأت على الضّفة الجنوبيّة، أمام الخندق الأوّل للمشاة، وفي كلّ مكان كانت هناك رائحة حديد محترق، و أحسّ كوزنيتسوف بالغثيان من هذه الرّائحة، وكان الرّقيب الأوّل أوخانوف جالساً في موقع النّار في إعياء لا حدّ له، و كان قد فقد سمعه هو أيضاً في المعركة....

و يسير كوزنيتسوف و أوخانوف في خندق الاتّصال، وكان كوزنيتسوف يشعر بالذنب لأنّه غادر دافلاتيان حيث كان يطلق النّار على الدّبابات، و لم يرهلاك الطّقم إلاّ من بعيد، ولم يكن قادراً على أن يفعل شيئاً، و تذكّر رجال فصيلته، الذين لم يسنح له الوقت ليتعرّف عليهم بصورة تليق بإنسان.....[3]

يقول الكاتب مصوّراً كوزنيتسوف وهو يشعر باستنكار، ويكاد يقتل نفسه بسبب ما حدث لرجال فصيلته:

---

[1] - المرجع السابق، الصفحات من 157حتى 199.

[2] - المرجع السابق، ص 216.

[3] - انظر: المرجع السابق، من ص 218 حتّى 225.

" إنّه ما زال يتذكّر نظراتهم، أصواتهم، كانت تتردّد في حناياه، كأنّ موتهم كان خداعاً له، و لا بدّ أنّه سيسمعهم من جديد، ويراهم.... لقد بدا له أنّ ذلك لابدّ أن يقع، لأنّه لم يلحق أن يقترب منهم، وأن يفهم و يحبّ كلّ واحد منهم....

أحسّ كوزنيتسوف بأنّ وجهه و يديه قد تجمدّت وبشعور الاستنكار القتّال للنّفس تقريباً، استنكار ما حدث، و استنكار كونه لم يكن قادراً عندئذٍ، على تلافيه وإيقافه.."[1]

يذهب كوزنيتسوف إلى مدفعي دافلاتيان، فيرى كلّ شيء في موقع للفصيلة الثانية محطّماً ممزّقاً و في كلّ مكان حفر، فأسرع كوزنيتسوف إلى رؤية أوخانوف، فقد كان يجب أن يقرّر معه ماذا يفعلان بعد، وبأيّ تسلسل: نقل القذائف، محاولة الاتصال بنقطة المراقبة، العثور على زويا، و معرفة حالتها وأحوال الجرحى في المخبأ، وكيف حال دافلاتيان والآخرين.....

و كان يفصل كوزنيتسوف وأخانوف عن الألمان والآلية حوالي ثلاثمئة متر ....، ويرى كوزنيتسوف تشيبسوف في حفرة من الأرض، فأمره أن يراقب من الحفرة، ويرسل طلقة من البندقية إذا حصل شيء، ويذهب كوزنيتسوف مع أوخانوف إلى المخبأ، وكان في المخبأ ثلاثة: زويا، وروبين، ونيتشايف، وأعطت زويا كوزنيتسوف مذّكرة من دافيلاتيان الذي جُرح جرحاً بليغاً في بداية المعركة، ويذهب كوزنيتسوف مع زويا لرؤية دافيلاتيان....، وبدأ هجوم الألمان، فأصدر كوزنيتسوف أمره للجميع بالذّهاب إلى المدفع....، ويتمّ العثور على أسير ألماني في الحفرة.....[2]

في الفصل العشرين منّ الرّواية يصوّر لنا الكاتب كوزنيتسوف وروبين، و قد قرّرا الذّهاب إلى الوحدة.....و فكّر دروزدوفسكي بوجوب التحّرك نحو المنخفض، حيث كانت جماعة دروزدوفسكي مستلقية على الثلج تحت النيران، وكان أوخانوف أوّل شخص رآه كوزنيتسوف في المنخفض أمام الدبابات الألمانية المحطّمة، فأمره أن يسرع إلى الدّبابات، فيخبر أوخانوف كوزنيتسوف أنّ زويا قد جُرحت....، ويُصاب دروزدوفسكي الذي يحاول الهرب فيما بعد، فيمسكه أوخانوف وروبين، و تموت زويا ويقرّر كوزنيتسوف الذّهاب إلى دافيلاتيان والجرحى....، أمّا بيسونوف فقد أمسى واضحاً له أنّ القوّات الرّوسيّة لم تستطع

---

[1] - المرجع السابق، ص 227.

[2] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 228 حتى 243.

إخراج الألمان من رأس الجسر الذي احتلوه في الضّفة الشّمالية، و كسح دبّاباتهم مــن الجــزء الشمالي من القرية.......[1]

في الفصل الثاني والعشرين يذكر لنا الكاتب كيف تطوّرت أحداث المعركة بعد إصــدار بيسونوف أمره لبدء الهجوم وكانت معركة الدّبابات جارية في شوارع القرية، و كان الألمــان يقاومون متشبثين في الضّفة الشّماليّة غير أنّ المعركة كانت تنزلق نحو النّهر، وبــدأ الألمــان ينسحبون في بعض الأماكن نحو المعابر . . . .

و ينجح جيش بيسونوف بعد هجومه المضاد في جنوب غرب ستالينغراد.....[2]

يقول الكاتب مصوّراً نهاية المعركة، واصفاً حالة الجندي الرّوسي الخارج من الحــرب ومشاعره:

" احتلّوا أماكنهم في الخنادق، وكانوا أربعة، أفراد طقــم أوخــانوف، بقايــا الفــصيلة، متجمّدين، منهوكين، أنهكتهم الليلة الماضية، ما زالوا غير مدركين كلياً كيف بدأ الأمــر علــى الضّفة الشّماليّة، ولماذا يترك الألمان مواقعهم بهذه السّرعة. كانوا، بين الحين والآخر، يدفئون بأنفاسهم أكفّهم، و ترابيس البنادق لكيلا يتجمّد الزيت فيها. كان كوزنيتسوف يشعر بقــشعريرة، و كان أوخانوف يضرب منكبيه بقفازيه، و كان نيتشايف وروبين ينظّفان الحافة أمام المتــراس برفشين. وكان الجميع يفعلون ذلك صامتين لا يقوون على التفكير ولا النطق."[3]

ويسلّم الجنرال بيسونوف هؤلاء الأربعة أوسمة الرّاية الحمراء نيابة عن السّلطة العليــا التي منحته الحقّ العظيم الخطير في القيادة و تقرير مصير عشرات الآلاف مــن النّــاس....، ويغسل الأربعة أوخانوف و روبين و نيتشايف و كوزنيتسوف نياشينهم بالفودكا.[4]

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 277 حتى 295.

[2] - المرجع السابق، من ص 312 حتى 320.

[3] المرجع السابق، ص 324.

[4] - المرجع السابق، ص 330- 331- 332.

رواية "الثلج الحار" هي من الرّوايات التّي تتحدّث عن الحرب العالميّة الثّانية، وبالتّحديد عن أهمّ معركة، وهي معركة ستالينغراد، وهي معركة فاصلة في هذه الحرب، إذ اجتمع فيها مليون ونصف جندي روسيّ مقابل مليون ونصف جندي ألماني، وبالتّالي تحارب في هذه المعركة حوالي ثلاثة ملايين جنديّ، وكان النّصر فيها إلى جانب الرّوس، إذا وقع في الأسر مئات الألوف من الجنود الألمان، وبعد هذه المعركة تغيّر مسير الحرب بكامله، وبالتالي فإنّ هذه الرّواية رواية تاريخيّة تصوّر بطولات الجنديّ السّوفييتي البسيط.

رواية "رفاق الطريق" للكاتبة فيرابانوفا :

ومن الرّوايات التّاريخيّة الرّوسيّة التي كُتبت في هذه المرحلة التي نتحدّث عنها، وهي النّصف الأوّل من القرن العشرين، رواية "رفاق الطّريق" للكاتبة الروسية فيرانانوفا التي ولدت سنة 1905.

وهي كاتبة موهوبة، روائية و مسرحيّة، حصلت ثلاث مرّات على جوائز الدّولة. مؤلّفاتها مشهورة بين جمهور القرّاء في خارج البلاد الروسية، ومنها رواياتها: "كروجيليخا"، و"فصول السّنة"، و"رواية عاطفيّة"، وقصّتها "سيريوجا" التي أُعدّ منها فيلم سينمائي عُرض على كثير من الشّاشات في بلدان العالم.

و لا نبالغ إذا قلنا: إن أشهر مؤلّفاتها وأوسعها شعبيّة هي رواية "رفاق الطّريق" التي تتحدّث عن نضال الشعب الروسي البطولي ضدّ الفاشيّة. وصدرت الرواية عام 1946 في موسكو، وهذه الرّواية هي واحدة من مجموعة "مقاتلون في سبيل وطنهم السّوفييتي" التي تصدرها دار التقدّم في روسيا.

في بداية الرّواية تذكر الكاتبة فيرا شيئاً عن حياتها وعن عملها، فتخبرنا أنّها ولدت وترعرعت في مدينة روستوف الواقعة على نهر الدون، و سكّان هذه المدينة خليط من الرّوس والأوكرانيين والأرمن والجورجييّن والأذربيجانيّين، أمّا ولادتها فكانت سنة 1905، وكان أبوها يعمل محاسباً، و غرق في نهر الدّون في الثلاثين من عمره، و كان عمر الكاتبة آنذاك ستّة أعوام، فعاشت مع أمّها في فقر، وتذكر الكاتبة أنّها مدينة لمعلّمتها آنا فاديیفنا بروزوروفسكايا بكلّ ما حصلت عليه من المعارف الأوّليّة، وكانت في الثّامنة من عمرها عندما قرأت كتب بوشكين وغوغول وتورغينيف.....[1]

تقول الكاتبة فيرا مبيّنة اهتمامها بكتب التّاريخ:

---

[1] - بانوفا، فيرا: رفاق الطّريق، ترجمة: مواهب الكيالي، دار التقدم، موسكو، تاريخ النشر 1946، ص 3-4-6-8.

" ... وكانت تستهويني – ولا تزال – كتب التّاريخ المدرسيّة من دون تفريق بين غثّها وسمينها....

كنت في الثّامنة أو التاسعة من عمري لمّا بدأت في كتابة الشّعر والنثر، تارة أقلّد هذا الكاتب، و تارة أنسج على منوال ذلك، كان الكبار يقرؤون و يضحكون، فيؤلمني ضحكهم...... فأخذت أكتب من دون ضجّة، وأخفي تجاربي في حرز حريز ..." [1]

و عملت الكاتبة في الصّحافة حتى سنة 1946، و كانت الخطوة الأولى في كتاباتها، كتابها "رواية عاطفية"، وبدأت في كتابة المسرحيّات منذ سنة 1933، وفي بيرم بدأت في كتابة رواية " كروجيليخا". . .

و قد أرسل فرع مدينة بيرم لاتحاد الكتاب السّوفييتي الكاتبة فيرا في مهمة إلى قطار الإسعاف العسكري رقم 312، وفي رحلاتها في القطار كتبت عمّا رأته ودوّنت ما سمعته، وقد أدركت أنّ إقامتها في قطار الإسعاف كانت ضروريّة جدّاً، فقد جعلتها هذه الإقامة تدرك على نحو قاطع أنها ستكون كاتبة، وبعد رواية "كروجيليخا " أخذت الكاتبة في كتابة رواية "رفاق الطّريق" وأنجزت الرواية في ثمانية أشهر، ونُشرت سنة 1946، وعندكا كان يسألها القرّاء: لماذا كتبت عن قطار إسعاف ولم تكتب عن مستشفى، أو عن المعلّمين، أو الطلبة، أو عن معمل الورق ومصنع التعدين ؟ كانت الكاتبة فيرا تجيبهم:

"أعتقد أنّ الكاتب يكتب عندما تجتمع أصوله و موّاده، و يجتمع فيها زادها من الأحاسيس، فوقتئذٍ لابدّ لهذا كلّه أن يلتمس الشكل الذي تعبّر عنه الكلمة. على هذا النّحو سرت في "رفاق الطّريق" و "كروجيليخا " و" فصول السّنة".[2]

من قول الكاتبة السّابق يتبيّن لنا ضرورة توافر أمران ضروريّان في الكتابة، و هما توفّر موّاد الكتابة، و الأحاسيس التي تدعم هذه الموادّ، و قد شبّهت الكاتبة فيرا الأحاسيس في قولها السّابق بالزّاد، وقد كانت موفّقة في تشبيهها هذا، لأنّ في الزّاد الحياة والنّمو، فأحاسيس الكاتب هي زاد لموادّه، كما الماء زاد للشجرة، وكما الطعام زاد للإنسان . . .

إنّ الرّواية النّاجحة برأيي هي أشبه بثمرة ناضجة، إنّ شكل هذه الثّمرة لا يهّم بقدر ما يهّم طعم هذه الثّمرة، و ما تحتويه داخلها، و هكذا الرّواية فلا يهّم القارئ الشكل الذي اختاره الكاتب لروايته، بل ما يهمّه هو موضوع الرّواية و فكرتها، ومدى ما وضع هذا الكاتب فيها من أحاسيس، أو زوّدها بمشاعر إنسانية نبيلة.....

---

[1] - المرجع السابق، ص 9.

[2] - المرجع السابق، ص 18.

إن الأحداث في رواية "رفاق الطّريق" تجري في قطار الإسعاف، وهذا ما نستنتجه من مقدّمة الكاتبة فيرا بانوفا، فالقارئ لرواياتها يدرك أنّ الكاتبة جعلت هذا القطار عالماً بأكمله يجري فيه الموت والحياة، الحب والزّواج وغير ذلك من أمور الحياة، و أفراد الطّاقم في قطار الإسعاف أشبه بأسرة واحدة، كلّ فرد فيها يؤدّي دوره بإتقان و إخلاص. و الأدوار في هذه الرّواية أدوار صعبة تتطلّب صبراً و حكمة وتحمّلاً، لأنّ الموضوع في الرواية هو الحرب، ونضال أبناء روسيا ضد عدّوهم اللّدود الفاشيست، إنّها حرب الجميع ضدّ العدو المشترك.

أمّا الشّخصيّات في الرّواية فهي متنوعة في انتمائها ومهنها، فمن هذه الشخصيّات الطبيب و الجندي، والميكانيكي، و الممرّضة، وعامل الكهرباء وغيرهم.

من الشخصيّات البارزة في الرّواية: دانيلوف (إيفان إيفوروفيتش) ويدعونه بالرّفيق المفوّض، وعمره 38 عاماً، والطبيب بيلوف رئيس دانيلوف في القطار، وبافل سوبروغوف وهو طبيب مثقّف، وفاينا فاسيلييفنا كبيرة الممرّضات ولينا أوغورودنيكوفا وهي امرأة صغيرة مضحكة ولكنّها قويّة، وسوخوبدوف مناوب العربة التاسعة، وهو أسنّ من في القطار جميعاً ماعدا الرئيس، أُصيب في الجبهة بجروح عندما قاتل إلى جانب الجيش الأحمر ضدّ جيش يودينيتش، و بوتابنكو مدير المصحّ وصديق دانيلوف، وسوبول رئيس التموين، والمضمّدة يوليا ديميتريفنا . . .

ومن شخصيّات الرّواية أيضاً :

غوريميكين وهو جنديّ مناوب، وكرافتسوف ميكانيكي المحطّة الكهربائيّة، وميركولوف الذي حصل على وثيقة الخدمة الاحتياطيّة، والشاب نيزفيتسكي وهو عامل كهربائي، وصونتشكا زوجة الطّبيب بيلوف، وكلافا موخينا عاملة التنظيف، وبرتاتسوف . . . وغيرهم من الشخصيّات.

تتألّف رواية "رفاق الطريق" من ثلاثة أقسام، ومن ثلاثة عشر فصلاً، والقسم الأوّل جعلته الكاتبة بعنوان "اللّيل" وفيه نتعرّف على شخصيّات الرّواية، وصفات كلّ شخصيّة من خلال حوار الشخصيات مع بعضها، ومن خلال الأحداث التي تصفها الكاتبة، وعرضها لأفكار كلّ شخصية، و طريقة حياتها، و يبدأ هذا الفصل بحوار دانيلوف (إيفان إيغوروفيتش) مع الطبيب سوبروغوف، ومن خلال حوارهما نستنتج أنّهما راحلان مع الآخرين إلى ميدان القتال في الجبهة في قطار، مع فاينا كبيرة الممرّضات، ولينا أوغورودنيكوفا، وسوخويدوف، وكرافتسوف، و ينزفيتسكي، وبوتابنكو، وميركولوف، وغوريميكين، ويوليا ديميتريفنا وغيرهم...

و أنجز دانيلوف في ثلاثة أيام تشكيل هيئة العاملين في قطار الإسعاف، فقد ذهب يجوب أنحاء المدينة بحثاً عن حاجته من النّاس، فقد كان يحتاج إلى طبيب، ومسضمّدة، وممّرضات، وميكانيكي، وحرّاس مسلّحين....

و قد أُعدّ في المدينة مقدار خمسين قطاراً للإسعاف....، وانطلق قطار الإسعاف إلى الجبهة، و كان ينتقل في بطء من محطّة إلى محطّة، وكانت تتقدّمه قطارات أخرى بعضها يحمل جنوداً من الجيش الأحمر، وبعضها الآخر يحمل مدافع ودبابات، و كان دانيلوف كثيراً ما يعبر عربة الطّاقم عائداً من جولته التفتيشيّة . . .أمّا لينا أوغورود نيكوفا فقد تزوّجت قبل عشرة أشهر من بدء الحرب، و قد أُعجب دانيلوف بلينا و قال عنها إنّها قويّة، وأُعجبت هي بدورها بدانيلوف، و كانت تخاطبه بقولها: الرفيق دانيلوف، أمّا النّاس فكانوا يخاطبونه بقولهم: الرفيق المفوّض.[1]

لقد كان دانيلوف الشخصيّة البارزة في القطار، ومن خلال حديث الكاتبة عنه نستنتج أنّه يقوم بالدّور البارز والأكثر أهمية بين أدوار أفراد طاقم القطار... لقد كان حريصاً على تثقيف طاقمه بالثقافة العسكرية، وتعريفهم بعدّوهم اللّدود، وهذا ما نلمسه في قول الكاتبة عنه:

"وكان المفوّض دانيلوف يجمع أفراد الطّاقم كلّهم في الصّباح و يقرأ عليهم نشرة الأنباء، ثم يتحدّث عن وحشيّة الفاشيست، و يوضّح أنّ ما يصيبنا من الإخفاق ليس إلاّ حالة وقتيّة، وأنّ الجيش الأحمر سينتصر في النهايّة، أمّا الهتلريون فإنّ تدميرهم محقّق..."[2]

تتابع الكاتبة في وصفها الأحداث التي مّر بها القطار الإسعاف، فتذكر أنّه وقف في محطّة فيتبسك للفرز والتّوزيع بمدينة لينينغراد، وفي الاجتماع الحزبي حضر دانيلوف والمساعدة للدكتور بيلوف الرئيس الفعلي للقطار، و الذي كان يكتب يوميّاته قبل الحرب، ويشعر في أعماق نفسه بأنّه أديب، ولا عجب، فقد وجد بين الأطباء كتّاب مثل تشيخوف وفيريسايف، وكشف الدكتور بيلوف لزوجته صونتشكا عن أفكاره، ولكنّها سخرت منه، فغضب منها، وكان الدكتور إذا كتب شيئاً عمّن يعرف من النّاس اكتفى بالرّمز إلى اسمه بالحروف، وقد كان يكتب يوميّاته في السرّ، فلما تهيأ للسّفر وضع يومياته في إضبارة ختم عليها بالشّمع، وطلب من زوجته أن تحتفظ بها أمانة . . .، و بعد لقائه بزوجته في القطار أراد أن يعود إلى الكتابة فكتب في دفتر سميك:

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات: 25- 46- 59- 60- 61- 91.

[2] - المرجع السّابق، ص 95.

" في تاريخ 2يوليو 1941 جاءت صونتشكا ". و لكنّه عزف عن الكتابة لأنّ القطار بدأ بالسّير...[1]

إنّ وصف الكاتبة فيرا لشخصيّة الدكتور بيلوف من ناحية حبّه للكتابة، وإخفائه ما يكتب خوفاً من سخرية الآخرين، يذكّرنا بالكاتبة نفسها وما تقوله في مقدّمة روايتها، هو أنّها كانت في الثّامنة أو التاسعة من عمرها تخفي تجاربها في كتابة الشّعر والنثر خوفاً من ضحك الآخرين ممّا تكتبه، وقد كنّا أشرنا إلى هذا الأمر في بداية حديثنا عن روايتها "رفاق الطّريق".... و برأيي إنّ أيّ كاتب رواية يجعل في كلّ شخصيّة من شخصيّات روايته شيئاً يشبهه، أو جزءاً من شخصيّته هو نفسه، حتّى و إن كان هذا الجزء صغيراً جدّاً، أو يحمّل هذه الشخصيّة صفة من صفاته هو، وهذا باعتقادي ما نجده عند الكاتبة فيرا فهي كأنّها قد وزّعت شخصيّتها وصفاتها في شخصيّات الرّواية، وهذا ما يجعل الكاتب مبدعاً، فالكاتب المبدع وروايته يصبحان شيئاً واحداً، فعندئذٍ يصف الكاتب شخصيّات روايته بطريقة تجعلنا نشعر وكأنّ هذه الشخصيّات حيّة وموجودة فعلاً على أرض الواقع، و هذا ما يشعر به القارئ عند قراءته رواية "رفاق الطريق" للكاتبة فيرا، فهي بارعة في وصف الشخصيّات لدرجة أنها لم تهمل الجزئيات الصغيرة في شخصيّات أبطال روايتها، و هذه الجزئيات لا يمكن إهمالها لأنّها المفاتيح لدخولنا إلى عالم الشخصيّة، فالكاتبة تبرز لنا على صفحات روايتها أفكار شخصيّاتها ومشاعرهم، و أحلامهم وهواجسهم، وطريقة تعاملهم مع الظروف المحيطة بهم، وهذا هو الإبداع الحقيقي... تصف الكاتبة بعد ذلك استعداد الجميع في البيت لوداع يوليا ديميتريفنا قبيل التحاقها بالخدمة العسكريّة، حيث اجتمع أفراد أسرتها مع الأقرباء جميعاً، وأعدّت يوليا الموائد كالحال في الأعياد... وحدث بعد ذلك ما لم يكن بالحسبان فقد أقبل الجنديّان كوستريتسين وميدفيديف إلى العربة الصيدليّة وهما يصيحان: العربة الحادية عشرة تحترق ! أين الرئيس؟، وتضافرت الأيدي على إبعاد العربة المشتعلة، وقدّمت يولياديمتريفنا ما في وسعها في غرفة العمليات، أمّا الدكتور بيلوف فلم يكن قد ذاق طعم النّوم، فقد ظلّ ساهراً يوزّع الجرحى ويخمد الحريق، و كان الطبيب سوبروغوف ينتقل في أنحاء المدينة طوال اللّيل، فيسعف الجرحى تحت طلقات النّار ....

و تصف الكاتبة حال القطار بعد الحريق قائلة:

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات 98- 99- 108- 109.

"قفل قطار الإسعاف عائداً إلى المؤخّرة، أسخم أغبر مشويّ الجلدة محطّم النّوافذ، وفي ذيله العربة المحترقة، فتوقّدت المصابيح الخضر أمام القطار، وأفسحت القطارات الأخرى له الطّريق".[1]

تتابع الكاتبة وصفها للأحداث، وكيف تطوّرت بعد ما احترقت إحدى عرباته، فتذكر أن قطار الإسعاف الذي تدور أحداث القصة حوله أصبح من قطارات الخطوط الخلفيّة لأنّه لا يلائم الجبهة، فحزن دانيلوف لابتعاده عن الجبهة، أما عن المعركة مع الألمان فتقول الكاتبة:

"كان الألمان قد طُردوا من مشارف موسكو، واجتازت لينينغراد الشّتاء الرّهيب الأوّل، وبدأ الرّبيع، و انتظر دانيلوف اتّجاهات الأحداث في الصّيف وهو متوتّر الأعصاب. ثمّ قام الألمان بهجوم جديد. بدؤوا يزحفون نحو الكوبان والقفقاس، و كان دانيلوف يشعر بالغضب والعجز، ثم ينصح نفسه بالصّبر والتعقّل: "ألا يستطيعون شيئاً هناك من دونك ؟".[2]

أمّا لينا فقد كانت تؤدّي أعمالها على أحسن وجه، فقد كانت تساعد في تضميد الجرحى، وتقرأ لهم، وكان الجرحى يحبّونها، ومن بين الجرحى التي كانت تعتني بهم كرامين، وهو رجل نحيل، كان مصاباً في عموده الفقري، وساقاه مشلولتان، أمّا قصّته فتدلّ على أنّه محارب شجاع، فقد رفض إجازة البقاء في الخطوط الخلفيّة ودخل الجيش، واستلم قيادة فصيل، ثمّ عندما بدأت أيّام لينينغراد الرّهيبة، واستولى الألمان على غاتشينا و بوشكين وكراسنويه سيلو، أصبح كرامين يطرق هذه الأماكن بمهمّات استكشافيّة مع جماعته، و في ليلة مظلمة عبر كرامين نهر النيفا مع جنوده، و لمّا نزل الضفة اليسرى كان قائد سرية، وزحف هو ورجاله في خندق مملوء بالجثث، وكان الألمان يرشّون الخندق بالمدافع الرشّاشة ومضوا بالهجوم، وأخذوا بعض الأسرى، وفي أثناء العودة أُصيب كرامين بجروح في ظهره، وسحبه اثنان من الخندق إلى الشاطئ، ثمّ قضى في مستشفى الجبهة وقتاً قليلاً، ومنه نُقل إلى لينينغراد، وهكذا انتهت مسيرته الحربيّة، كما تقول الكاتبة من بين الجرحى في القطار كان كولكا (نيقولاي نيقولا ييفيتش)، وكان في الثامنة عشرة من عمره، اشترك في الحرب متطوّعاً، جُرح وشُفي ثم عاد إلى الجبهة، ثمّ جرح في ضواحي أوريول، وهو الآن في طريقه إلى المؤخّرة للعلاج بصورة جذريّة، و كان يحمل وسامين وسيستلم الثّالث. ومن بين الجرحى أيضاً غلوشكوف، ونيفونوف.[3]

---

[1] - المرجع السابق، ص 181.

[2] - المرجع السابق، ص 193.

[3] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 191 حتّى 251.

ما نلاحظه هو أنّ الكاتبة كانت حريصة على أن تذكر بالتفصيل كيف أُصيب كلّ جريح من الجرحى الذين كانوا في قطار الإسعاف، فترجع بالأحداث إلى الوراء، وتروي قصّة رائعة في بطولة واستبسال كلّ جريح، إنّ كل جريح يرقد ضعيفاً في القطار كان أسداً ضارياً في معركته مع الألمان.

ومن بين هؤلاء الأبطال كان لوتوخين وهو رجل في الثلاثين من عمره، ويشكو من الحرّ، وأنّه غير قادر على التنفّس، وكانوا يعالجونه بالاستحمام، وكان يصيح وهو يطلب حمّاماً، ونصحه الدكتور بالصبر، ثم نام و هو يدسّ رأسه في الوسادة، وبعد ذلك مات من نزيف دمويّ في المخّ.

و قد أثار موت لوتوخين شعوراً شديد الثّقل على النّفوس، فقد كان الجميع يشعر بالذّنب، وليس فيهم مذنب في الواقع، فقد كانت رضوض طفيفة تؤدي أحياناً إلى مثل هذه النتيجة، ولكنّ الدكتور بيلوف كان أكثرهم حزناً على ما جرى مع لوتوخين، فقد كان يشعر بعذاب الضّمير، و كان يجهد نفسه في تذكّر تفاصيل الفحص الذي أجراه على لوتوخين........

تقول الكاتبة واصفة لنا حال الدكتور بيلوف، ومدى حزنه و ألمه و هو يفكّر بما حدث:

"وفكّر الدكتور: لا يبتعد أن يكون متزوجاً و له أطفال.. زوجة.. أطفال. . .أصبحت الزوجة أيماً و الأطفال يتامى، ذلك لأن طبيباً عجوزاً لا يصلح لشيء لم يأبه لحالة بؤبؤ في عين. لماذا وجب أن يشقى آخرون بشقائي؟ وعلام تُصاب زوجة لوتوخين وأطفاله بمصيبتي؟..

لو أنّني أيقنت أنّني نقيّ اليد من هذا الحادث لاستراح صدري من ثقل عظيم!"[(1)]

إنّ المقطع السّابق الذي تصوّر فيه الكاتبة مدى ما يشعر به الدكتور بيلوف من الحزن والألم، يبيّن لنا أنّ الإنسان الرّوسيّ رغم قوتّه و شجاعته و صلابته في أرض المعركة، هو أشدّ ما يكون عليه من رهافة الحسّ، وربما أرادات الكاتبة هنا أن تصوّر النّفس الإنسانيّة الرّوسيّة، فعلى الرّغم من أنّ الدكتور لم يكن مسؤولاً عن موت لوتوخين إلاّ أنّه دائم التفكير والشعور بالذّنب، و هذا ما يُسمّى بنكران الذّات من أجل الآخرين.

بعد ذلك تصل رسالة إلى الدكتور بيلوف من صديق تحمل إليه نبأ مصرع زوجته صونتشكا و ابنته لالا في أثناء الغارات الجويّة الأولى على مدينة لينينغراد خلال شهر سبتمبر سنة 1941....

---

[1] - المرجع السابق، ص 295.

في الفصل الثّامن من القسم الثاني من الرّواية تقول الكاتبة مصوّرة تطّور الأحداث سنة 1942:

"في خريف سنة 1942 بلغ الجيش الألماني مدينة ستالينغراد ، و بدأت هناك تلك المعارك التي شغلت العالم طوال خمسة أشهر .

كاد الخوف في البداية أن ينفذ العدو إلى نهر الفولغا، ثمّ أخذت النفّوس تشرق بالأمل في ألاّ يحدث شيء من هذا، وولدت الثّقة بأنّ ستالينغراد هي العتبة التي لن يستطيع الألمان أن يجتازوها على الإطلاق، و المنطلق الذي سيبدأ منه الجيش الأحمر بطرد العدو نحو الغرب، وتحرير الأرض السوفييتيّة من الغزاة."[(1)]

في القسم الثّالث والأخير من رواية "رفاق الطّريق" والّذي جعلت الكاتبة عنوانه "النّهار"، نجد أنّ دانيلوف لم يعد يُلّقب بالمفوّض فقد أصبح نائب الرّئيس للشّؤون السّياسيّة، وأصبح برتبة نقيب، وأصبح سوبروغوف برتبة ملازم أوّل، والدّكتور بيلوف برتبة رائد في الخدمة الصحيّة، وظهرت النّجوم الصّغيرة على أكتاف كثير من النّساء...

وبعد انقضاء عام يعود الدكتور بيلوف إلى شغفه بالمذكّرات، فيكتب في دفتر مذكّراته أنّه متعجّب لأنّهم أعطوه الوسام، ولم يعطوه لشخص آخر رمز له بحرفي أ.أ، ومن المؤكّد أنّه يقصد بهذين الحرفين إيفان إيغوروفيتش (دانيلوف)، وكان يكتب عن شؤون القطار، ويتذكر زوجته وابنته، وابنه الذي فُقِد، وكتب أنّهم يسيرون في المناطق المحرّرة من أوكرانيا، وأنّ الألمان فقدوا ما كان لهم من التّفوّق الجوّي في بداية الحرب، وكتب عن منظر الخراب المروّع الّذي نزل بمدنهم وقراهم....

ثمّ يحصل الدّكتور بيلوف على رسالة تثبت أنّ ابنه إيغور ما يزال حيّاً.[(2)]

وفي الطّريق عندما كان قطار الإسعاف في طريقه إلى فارصوفيا استوقفه نفر من الجنود الرّوس والبولونيّين، يقودهم شاب برتبة ملازم ثانٍ، وطلب الملازم منهم أن يسمحوا لهم بالانتقال إلى القطار، حتّى يتمكّنوا من القضاء على عصابات قطّاع الطّرق في الغابات المحيطة بمدينة فارصوفيا، فقد جلا الألمان جميعاً، أمّا المدافع فقد سحبها الألمان معهم، وبقيت فلول عصابات أفرادها المسلّحين بالرّشاشات، .... فحُمِل رجال الفصيل في عربة القيادة، ثمّ نزلوا من القطار بعد مرحلتين، .... وفي الهزيع الأخير من اللّيل استقبل القطار قافلة من الجرحى حُمِلت إليه من جوف الغابة، وكان الجرحى من أفراد الجيش العامل في الجبهة، وفي

[1] - المرجع السابق، ص 296.

[2] - المرجع السابق، الصفحات: 376- 382- 385- 386- 402.

منتصف شهر نيسان سنة 1945، كانت المعارك الأخيرة تدور في ضواحي برلين، وقطار الإسعاف في طريقه إلى أومسك لإجراء الإصلاحات الّتي تجري عليه كلّ سنة...

ويعود دانيلوف إلى منزله بعد انتهاء الحرب، وتستقبله زوجته دوسيا وابنه بحرارة...

هذه الرّواية، والّتي هي من أشهر مؤلّفات الكاتبة فيرانانوفا رغم أنّها رواية تاريخيّة، تتحدّث عن الحرب، ونضال الشّعب السّوفييتي ضدّ الفاشيّة في النّصف الأوّل من القرن العشرين، فإنّنا نجد فيها قصص الحبّ والزّواج والإنجاب، وربما سبب شهرة هذه الرّواية أنّها تعرض مشاعر وأحاسيس وحيوات هؤلاء الّذين شاركوا في الحرب..

وبرأيي إنّ الكاتبة أرادت في وصفها للأحداث الّتي جرت مع أبطال روايتها "رفاق الطّريق" في قطار الإسعاف، أرادت أن تؤكّد على فكرة مهمّة وهي: أنّ الحياة لا يمكن أن تتوقّف، فهي مستمرّة رغم ظروف الحرب، وحياة الفرد في الجيش، وانغماره في ظروف المعارك والحروب لا يمنعان الإنسان من أن يحبّ ويتزوّج ويمارس حياته.

هذه الرّواية هي رواية تاريخيّة، والرّواية التّاريخيّة هي رواية ككلّ الرّوايات يوجد فيها عناصر الرواية بوجه عام، ولكن بالإضافة إلى ذلك يوجد عناصر خاصّة بالرّواية التّاريخيّة منها الأحداث التّاريخيّة عن الحرب العالميّة الثّانيّة، فتصف الرّواية محاولة الألمان احتلال موسكو الذين كادوا أن يصلوا إلى قلب موسكو، لولا استبسال الجنود الرّوس للدّفاع عن عاصمة بلادهم، ولولا إصرار القيادة الرّوسيّة في ذلك الوقت على البقاء في موسكو ولو تصرّفت القيادة بشكل آخر، أي لو أنّها تركت موسكو مخافة أن تقع القيادة نفسها في الأسر لسقطت موسكو، أي لما دافع عنها الجنود الرّوس دفاعاً بطوليّاً أسطوريّاً.

واستطاع الرّوس إبعاد الألمان عن عاصمتهم علماً بأنّ الألمان كانوا على مسافة عشرين كيلو متراً من موسكو.

وكذلك حاصر الألمان مدينة لينينغراد مدّةً طويلة، وقُتِل من أبنائها أكثر من مليون شخص، وكان عدد سكّان المدينة في ذلك الوقت حوالي ثلاثة ملايين، أي قُتِل ثلث سكّان المدينة، ومات قسم كبير جوعاً بسبب الحصار.

رواية "ضمائر حيّة" للكاتب بيوتر فيرشيغورا:

من الكتب الّتي تحدّثت عن حرب الشّعب الرّوسيّ في الفترة ما بين 1941 – 1945 ضدّ النّازيّة الألمانيّة، كتاب "ضمائر حيّة"، وهذا الكتاب ليس رواية مثل الرّوايات الأخرى الّتي تحدّثت عن هذه الفترة من نضال الشّعب الرّوسيّ، وإنّما هو بعض من مذكّرات بطل روسيا الكاتب بيوتر فيرشيغورا (1905-1963) الّذي كان إبّان حرب الشّعب السّوفييتيّ في 1941-1945 ضدّ النّازيّة الألمانيّة مساعداً لكوفباك القائد الشّهير لفصيلة الأنصار المجيدة..

ويستعرض الكتاب كفاح أنصار كوفباك في الظّروف العصيبة في مؤخّرة العدوّ الفاشي، وبطولة هؤلاء الأنصار ذوي "الضّمائر الحيّة" الّذين قطع الكاتب معهم 2500 كيلو متر في طريق الكفاح من غابات بريانسك حتّى الكاربات، والّذين قاتلوا في سبيل وطنهم روسيا.

هذه المذكّرات قسّمها الكاتب بيوتر فيرشيغورا إلى قسمين: الكتاب الأوّل عنوانه "حملة إلى ما وراء الدنيبر"، ويتألف من قسمين، والكتاب الثّاني بعنوان "حملة الكاربات" وجعله الكاتب في قسمين أيضاً.

في مقدّمة كتاب "ضمائر حيّة" يذكّر المؤلّف أنّه كتب عن فصيلة واحدة من المكافحين، وفي هذه الفصيلة ما هو صالح وما هو طالح، وكان مكان أفراد هذه الفصيلة على ظهور الجياد وفي العربات والحملات، ويشير المؤلّف إلى أنّه عندما شرع بتأليف كتابه لم تكن الحرب قد وضعت أوزارها، وكانت هناك أمورٌ كثيرة لا تزال مجهولة غامضة، وكان التّرابط بين الأحداث معدوماً، ولم يكن هناك غير التّأمّلات عن الرّفاق الّذين لا يزالون على قيد الحياة، وعن الرّفاق الذين استشهدوا في ساحات الحرب.[1]

وكتاب "ضمائر حيّة" هو مذكّرات المؤلّف بيوتر فيرشيغورا عمّا شاهده في الحرب وعاشه هناك وهذا ما يؤكّده المؤلّف بقوله:

"لقد كنّا على علم بالأمر الرّئيسيّ في هذه الحرب: بمآثر الجيش العظيم، وببطولة الشّعب في هذا الجانب من خطّ الجبهة، وبأبطال المؤخّرة السّوفييتيّة.

أمّا أنا فسأتحدّث هنا عمّا شهدته بأمّ العين، وما عشته وتحسّسته في مؤخّرة العدوّ.

لم أجد صعوبة في تأليف هذا الكتاب، وكان من دواعي سروري أنّه أعاد إلى ذهني الآلام والمسرّات الّتي عشناها والانتصارات المتواضعة الّتي حققناها.

---

[1] فيرشيغورا، بيوتر: ضمائر حيّة، ترجمة: خيري الضامن، دار التقدم، موسكو، 1974، ص 3.

ولم أواجه إلاّ صعوبةً واحدة هي أن أجد في نفسي الشّجاعة الكافية لذكر الحقيقة وحدها... ليس هذا الكتاب رواية أو قصّة، إنّما هو مجرّد مذكّرات."[1]

ومن هؤلاء أصحاب الضّمائر الحيّة كما دعاهم الكاتب بيوتر شيغورا، والذين ذكرهم في مذكّراته، وتحدّث عن مآثرهم الحربيّة، ودورهم في النّضال ضدّ الألمان:

كوفباك: قائد فصيلة الأنصار، وهو عجوز غير متعلّم في السّتين من عمره.

المفوّض رودنيف: محارب شجاع، مثقّف عسكريّاً، وخطيب جذّاب.

بازيما: المعلّم الشّعبي، ورئيس الأركان لدى كوفباك.

فاسيا فويتسيخو فيتش: مساعد رئيس الأركان، شاب شجاع، حقّق بطولات عديدة، وجُرح على جبال سينيتشكا.

الرّقيب كاربينكو: قائد السّريّة الثّالثة.

المارشال فوروشيلوف: القائد العامّ لحركة الأنصار، مارشال الاتّحاد السّوفييتي.

غوركونوف: مساعد رئيس الأركان لشؤون الاستطلاع في فصيلة الأنصار، وهو من أحبّ النّاس إلى رودنيف.

كولباكا: قائد الكتيبة الثّانية عند كوفباك، من المساهمين في الحملة الفنلنديّة.

تسيمبال: رقيب من فرقة روديمتسيف التي كانت تقاتل في ستالينغراد.

بيريجنوي: من أفراد الاستطلاعات لدى الجيش الأحمر، وهو شاب أوكراني مرح، أحبّه أنصار كوفباك.

جوروف: الخبير في شؤون حرب الجبال.

ليزوكوف: قائد الجيش في معركة فورونيج، استشهد 1942.

فولوديا لابين: حامل رشّاش، قاتل مع الكاتب بيوتر.

سيمينيستي وشيشوف: وهما نصيران في الرّابعة عشرة من عمرهما.

وكما أشرنا فيما سبق إلى إنّ الكاتب قسّم مذكّراته قسمين، فجعلها في كتابين، والكتاب الأوّل هو "حملة إلى ما وراء الدنيبر"، في القسم الأوّل من هذا الكتاب يذكر الكاتب بيوتر فيرشيغورا أنّ الحرب، بالنّسبة له، بدأت على سطح استوديو كييف السّينمائيّ، وفي اليوم

[1] - المرجع السابق نفسه، ص 4.

الرّابع للحرب كان في نوبة الحراسة على أحد الأبراج عندما حلّقت فوق الأستوديو أوّل عشرين طائرة سوداء، وكانت الطّائرات متّجهة لقصف المصنع الحربيّ على مقربة من الأستوديو، ثمّ استمرّت مغامرات المؤلّف الحربيّة في بولتافا، حيث جرى تشكيل فرقة المشاة 264، ثم وصل القطار بهم إلى محطّة ليبليافا في الضفّة اليسرى لنهر الدنيبر، وعلى ارتفاع شاهق كانت تحوّم (اليعاسيب) الألمانيّة، وفي اليوم التّالي عبروا الدنيبر نحو الغرب، ووصلوا إلى مقدّمة الجبهة عبر قرية ستيبانتسي، وكانت فرقتهم تشغل من الجبهة زهاء ستّة كيلومترات، ويذكر المؤلّف أنّه بدأ خدمته العسكريّة بمنصب مساعد لضابط الصفّ، وبدأ مع رفاقه في فجر الثّاني من أغسطس 1941 بحفر الخنادق، بعد أن توزّعوا على مجموعات صغيرة، وبدأ الألمان الهجوم، وقُتِل القائد، فأصبح المؤلّف هو قائد هذه الفصيلة بعد مقتل قائدها.

كانت الكتيبة الّتي تسلّم قيادتها المؤلّف مكوّنة من مئات المحاربين، وكانوا يشغلون مواقع الدّفاع على يمين ويسار الطّريق الرّئيسيّة المؤديّة من محطة القطار في ميرونوفكا إلى معابر الدنيبر قرب كانيف.[1]

ويتابع المؤلّف سرد مذكّراته، فيذكر أنّهم تشبّثوا بمواقع الدّفاع عن كاييف لعدّة أيّام أخرى، ثمّ تدهورت حالتهم عندما قصفت الطّائرات الألمانيّة الجسر والمعبر العائم، وشدّد العدوّ الهجوم، وكان قائد فوج المدفعيّة قد غطّى انسحاب الأنصار بمهارة، ويُجرح الكاتب، ثمّ يُرسل بعد شهر إلى سريّة ضبّاط الاحتياط لدى هيئة أركان الجبهة الجنوبيّة الغربيّة..

يقول المؤلّف مصوّراً كيف تطوّرت الأحداث مع الأنصار:

"وكنّا لا نزال نخدم في فرقة موسكو الآليّة الأولى عندما علمنا أنّ جحافل الألمان اخترقت الجبهة في اتّجاه أوريل. كانت تلك أيّاماً مأسويّة عصيبة من أكتوبر 1941، فنقلت الفرقة على عجل من القسم الجنوبيّ الغربيّ للجبهة إلى منطقة موسكو... وبعد عام كامل، عندما صرت أخدم في فصيلة الأنصار، سمعت أنّ قائد الفرقة ليزوكوف قاد الجيش في معركة فورونيج، واستشهد هناك في صيف 1942، غير أنّي هنا، في سهوب سومي، رأيت لأوّل مرّة أولئك المحاربين الّذين كانت وحداتهم أوّل من نال لقب الوحدات الفخريّة في الجيش الأحمر، وكانت ملامحهم في عام 1941 تنمّ عن الثّقة بالنّصر على العدوّ."[2]

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 7 حتّى 18.

[2] - المرجع السابق، ص26.

وبعد أن عاد كوفباك ومعه عدد من زعماء الأنصار الآخرين من موسكو، يذكر المؤلّف أنّ القسم السّياسيّ في غابات بريانسك أجرى محادثة مع القادة والمسؤولين السّياسيّين بين الأنصار عن المهمّات التي طرحتها الحكومة والرفيق ستالين شخصيّاً في اجتماع موسكو.

كان كوفباك قد كُلّف من قبل ستالين وفوروشيلوف بالقيام بحملة جديدة...

ويتابع المؤلّف سرد ذكرياته، ويتحدّث عن مسير حملة الأنصار التي كان هدفها الحربيّ هو إنزال الضّربات بالمواقع العسكريّة والصّناعيّة وشبكات العدوّ...، وهذا ما كان يحدث بالفعل فقد ولّى الألمان الأدبار بعد معركة قصيرة مع الأنصار في لويف، وكان ذلك في نوفمبر 1942، وفي السّابع والثّامن من نوفمبر احتفل الأنصار بالذّكرى الخامسة والعشرين لثورة أكتوبر...

وبعد عمليّات الأنصار النّشيطة التي أرعبت الهتلريّين، شرعت الاستخبارات الألمانيّة تعمل، وأصبح العدوّ على علم بأسماء الفصيلة، وفي تلك الأيّام قُتِل كثيرٌ من زوجات الأنصار وأمّهاتهم وآبائهم الأبرياء على أعواد المشانق، ولكنّ ثأر الأنصار من العدوّ كان شديداً جدّاً...

وفي الرّابع والعشرين من نوفمبر 1942 احتلّ الأنصار قرية ستودليتشي، وفي السّابع والعشرين من نوفمبر 1942 اخترق الجيش الأحمر خطّ الجبهة قرب كالاتش وكليتكايا، فبدأ بمحاصرة الجيش السّادس الألمانيّ بقيادة باولوس قرب ستالينغراد.[(1)]

في القسم الثّاني من الكتاب الأوّل يذكر المؤلّف أنّ عمل الأنصار في المطار كان يجري على قدم وساق، وشرع مقرّ أركان الأنصار في موسكو بتنويع إرساليّاته إلى الأنصار، إلاّ أنّ سلاح الجوّ الألمانيّ قد تمكّن من تحديد مكان مطار الأنصار، وبذلك انتهت فترة توقّف الأنصار في المطار الجليديّ.....، وعندما كان الأنصار في تيتيريف وصلت إليهم من الشّمال الكتائب الألمانيّة الّتي اقتفت أثرهم من كوروستين، وأحاط بهم الألمان من الشّمال والجنوب والغرب...

وانسحب مخفر الأنصار، فلاحقته كتيبة المقدّمة الألمانيّة، ووصلت إلى مواقع دفاع كولباكا، وحقّق الأنصار على الألمان نصراً بارزاً، وتساقطت جثث الأعداء أمام رشّاشات كولباكا..

---

[1] - انظر: المرجع السابق، الصفحات: 43- 44- 63- 66- 68- 127- 130.

وكانت تلك الأيّام الّتي قضاها الأنصار في منطقة بليتشا –والتي هي جزء أصـيل فـي أوكرانيا- مليئة بمختلف الأحداث: الحربيّة والاستراتيجيّة والاستطلاعيّة واصطياد الجواسيس، كما كانت خليطاً من الأحداث المسليّة والدّراميّة كما يقول الكاتب.(1)

في نهاية القسم الثّاني من الكتاب الأوّل من مذكّرات بيوتر فيرشـيغورا يقـول الكاتـب البطل:

"كانت الجيوش الهتلريّة تشرف على الانتهاء من الاستعداد للمعركة في الشّرق البعيـد، قرب أوريل وكورسك وبيلغورود، في الأنحاء التي انطلقنا منها قبل عشرة أشهر فـي حملتنـا هذه.

أمّا نحن فكنّا نواصل سيرنا لتقطيع شرايين العدوّ، ونساعد الجيش الأحمر، بكلّ ما أوتينا من قوّة، في نضاله الجبّار الهائل، وعلى إثرنا اتّجهت نحو الجنوب قطعات أخـرى للأنـصار الأوكرانيّين.

في يونيو 1943 بدأت حملة الأنصار إلى الكاربات بقيادة كوفباك ورودنيف. بدأت هـذه الحملة في الصّيف ففي أثناء الهدوء الذي عمّ الجبهة قبل شهر من معركة كورسك."(2)

ما نلاحظه في هذا الكتاب من مذكّرات المؤلّف بيوتر فيرشيغورا، هـو حـرص هـذا الكاتب البطل على ذكر الحقيقة، ويدلّ ذلك على إيراده التّفصيلات الكثيرة في الحـوادث التـي مرّوا بها في معاركهم مع الألمان، والدّقة أيضاً في ذكر التّواريخ باليوم والشّهر والسّنة، كقوله مثلاً:

"في نوفمبر 1942، في خريف وشتاء 1941، في الأوّل من فبراير، في التّاسع عـشر من نوفمبر 1942 بدأ هجوم الجيش الأحمر، في حوالي الثّانية عـشرة عـاد الاسـتطلاعيّون وأعلنوا أنّهم شاهدوا طوابير الألمان في كافّة الطّرق، وفي السّاعة الثّانية ظهراً بدأت المعركة في المخافر."(3)

وبرأيي إنّ همّ المؤلّف في مذكّراته هذه هو إبراز بطولـة الجـيش الرّوسـيّ العظـيم، وشجاعة الأنصار التي لا مثيل لها، ويدعّم رأينا هذا ذكر الكاتب بيوتر الحوارات الكثيرة التي كانت تدور بين الأنصار عندما كانوا يخطّطون لمعركة جديدة مع الألمان، وذكـره لخـسائر العدوّ الفادحة.

---

[1] انظر: المرجع السابق، الصفحات من 188 حتّى 247.

[2] - المرجع السابق، ص 285- 286.

[3] - انظر: المرجع السابق، الصفحات: 66- 67- 193- 197- 221- 222.

في الكتاب الثّاني من مذكّراتِ الكاتب بيوتر، والذي جعل عنوانه "حملة الكاربات" يقول الكاتب في بداية قسمه الأوّل:

"في الثّاني عشر من يونيو 1943 باشر الأنصار حملتهم الجديدة بقيادة الجنرال كوفباك والمفوّض رودنيف.... عندما وصلتُ بالطّائرة من موسكو، حيث استلمتُ وسام الراية الحمراء لأوّل مرّة تقديراً لعمليّاتنا في غابات بريانسك، كانت الفصيلة قد غادرت أماكنها، فلحقتُ بها في أثناء المسير."[1]

ويذكر المؤلّف أنّ الألمان كانوا يستعدّون لصيف عام 1943، بعدما انتبهوا إلى ما لحركة الأنصار الّتي نظمها وقادها البلاشفة من قوّة وخطورة ...، وعندما تعمّق الأنصار في أوكرانيا الغربيّة حدث اشتباك خاطف مع عدوّ مجهول عندما دخلوا غابة كريمينيتس، وفي اليوم التّالي وصلهم مراسلون من فصيلة الأنصار التي تحمل اسم الدكتور ميخائيلوف ويقودها المعلّم أودوخا...

ويذكر الكاتب أنّه في أثناء وجوده في موسكو كان قد عرف بنبأ العمليّة التنكيليّة الكبرى الّتي أعدّها الفاشيّون ضد الأنصار في بريانسك، فقد زجّ هتلر ضدّ هؤلاء الأنصار بقسم من احتياطياته المرسلة إلى الجبهة وبفرقتين من الجبهة قرب أوريل، وهكذا أكّدت الوقائع أنّ المعركة الصّيفيّة لعام 1943 ستبدأ من منطقة كورسك – أوريل بالذّات...[2]

ويتابع المؤلّف مذكّراته وتفصيلات الأحداث الّتي جرت مع الأنصار وهم يقاتلون بشجاعة العدوّ الألماني، ولم يهمل ذكر تلك الوقائع والأحداث التي تدلّ على إنسانيّة المقاتل الرّوسيّ الشّجاع، وتسامحه، وعطفه على نساء الألمان وأطفالهم، في مقابل وحشيّة العدوّ الألمانيّ وهمجيّته، ففي إحدى معارك الأنصار مع الألمان، يذكر المؤلّف أنّ الرّقيب كاربنيكو تسلّل زحفاً عبر الأسلاك الشّائكة، وبيده قنبلة، وكانت النّسوة الألمانيّات واقفات وقد التصقن بالجدار، وإحداهنّ كانت حاملاً، فوقف فيودور كاربينكو، وكتفاه تختلجان، ثمّ خرج إلى الشّرفة، أمّا المفوّض رودنيف فقد خاطب النّسوة الألمانيّات قائلاً:

"إذا كانت لديكنّ ذرّة من ضمير، ولو ذرّة واحدة... فعندما سيولد لكنّ أطفال، وعندما يكبرون ويفهمون معنى كلمة: الضّمير أو رحابة الصّدر، أخبرنهم بأنّهم مدينون بحياتهم إلى الأنصار الرّوس."[3]

---

1 - المرجع السابق، ص 289.

2 - المرجع السابق، الصفحات من 290 حتى 325.

3 - المرجع السابق، ص 363.

يصف المؤلّف في مذكّراته ما عانته فرقة الأنصار في قطعها سلسلة الجبال بعدما وصلوا إلى الكاربات... كما يذكر أنّه عندما قام بنسف الجسر قرب تيرنوبول في الثّامن والعشرين من يونيو 1943، بأمر من بازيما كان ذلك مزحة، ولكنّ هذا العمل أثار جنون هتلر ومساعده الفوهرر الذي أمر هيملر أن يحطّم فصيلة كوفباك مهما كلّف الأمر، وهذا ما أخبر به الألمانيّ الأسير ضابط الاتّصال الذي أسره الأنصار... بعد ذلك يفقد الأنصار المفوّض سيميون رودنيف.[1]

في القسم الرّابع والأخير من مذكّرات الكاتب بيوتر، يذكر الكاتب أنّهم بعدما قطعوا آخر جبل في الكاربات، أصبحت مهمّتهم الرّئيسيّة هي الوصول إلى غوروخولين، وهذا يتطلّب اجتياز نهربروت والمرور بلانتشين حتّى يصلوا إلى (الغابة السّوداء)...، وأصبح قسم كبير من فصيلة بوتيفل تحت إمرة الكاتب بيوتر، وبدؤوا الاستعداد للشروع بالعمليات الحربيّة لنجدة الرّفاق الذين لا يزالون هائمين على وجوههم في الجبال....، ويحاصر الألمان الأنصار في (الغابة السوداء)، ولكن يتمكّن الأنصار من الخروج من الغابة، ويعبروا نهر الدنيستر، ثم وصلوا إلى غورودنيتسا.

بعد أن تنتهي حملة الكاربات التي بدأت في 12 يونيو 1943، يعود الأنصار إلى (الأرض الكبرى)، وتهبط طائرتهم في كورسك، وكان الألمان يشدّون الرّحال من الأرض السّوفييتيّة، وقد تمّ تحرير أوكرانيا شرقي الدنيبر من الألمان كلّياً...، ويصل الكاتب إلى خاركوف، ويقصد مع الأنصار مقرّ أركان الأنصار الأوكرانيّين، ويستدعيه الجنرال تيموفي ستروكاتش رئيس أركان الأنصار الأوكرانيّين، ويقدّم له قراراً بتسلّم مهام قيادة فصائل كوفباك بعد إصابة هذا الأخير بجروح، وتقرر الحكومة الأوكرانيّة استبدال اسم فصيلة الكاتب، فأصبحت تُسمّى فرقة الأنصار الأوكرانيّة الأولى التي تحمل اسم كوفباك بطل الاتحاد السّوفييتي للمرّة الثانية، وأُطلق على الفوج الأول اسم بطل الاتحاد السّوفييتي الجنرال ماجور رودنيف...، وطوال شتاء وربيع وصيف 1944 جابت فرقة أنصار كوفباك الأوكرانيّة الأولى مؤخرات العدوّ في أوكرانيا وبيلوروسيا الغربيّة، فزرعت الرّعب في قلوب المحتلّين...

يذكر الكاتب بيوتر أنّه في عام 1946 جهّزت الحكومة الأوكرانيّة بعثة إلى الجبال ساهم فيها الكاتب وبانين وبازيما، وذلك للعثور على قبور الأنصار.....[2]

يقول الكاتب بيوتر فيرشيغورا في نهاية مذكّراته:

---

[1] المرجع السابق، الصفحات : 389-390- 413- 477.

[2] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 490 حتى 532.

"والكثيرون من أنصار كوفباك يعيشون ويعملون حتى اليوم.

آلاف الكيلومترات ومئات المعارك وآلاف من الأعداء القتلى، ذلك هو طريق الأمجاد الذي قطعته فرقة كوفباك وفوج رودنيف".[1]

هذه الرواية هي رواية تاريخيّة، ولكنّها جاءت على شكل مذكّرات للمؤلف بيوتر فيرشيغورا والأحداث في هذه الرواية هي أحداث تاريخيّة حقيقيّة، لأن هذه المذكّرات تصوّر ما جرى مع المؤلف نفسه في الدفاع عن وطنه ضدّ العدو الألماني.

رواية "كلّ إلى مكانه" للكاتب الرّوسيّ فيكتور تيبلوغوف:

من الرّوايات التّاريخيّة التي تحدّثت عن فترة الحرب الوطنيّة العظمى التي خاض الشّعب السّوفييتي غمارها ضدّ الغزاة الهتلرّيين، رواية "كلّ إلى مكانه"، وهي رواية تاريخيّة للكاتب الرّوسيّ فيكتور تيبلوغوف الذي ولد عام 1917 في موسكو، وفيها أمضى طفولته وصباه، ودرس في المعهد الأدبيّ باسم مكسيم غوركي، وفي عام 1940 التحق الكاتب فيكتور بالجيش، وأدركته بداية الحرب الوطنيّة العظمى جنديّاً في سريّة إنزال للمظليّين بمنطقة حدوديّة من جمهوريّة بيلورسيا، وأُصيب في المعارك بجراح بليغة، وخلال فترة إعفائه من الخدمة العسكريّة اشتغل في مصنع، وعقب الحرب اشتغل في اللجنة المركزيّة لمنظمّة الكومسمول ثمّ في جريدتها كومسمولسكايا برافدا، وفي الجريدة أخذ فيكتور تيبلوغوف مكانه ككاتب، وهو اليوم أحد الكتّاب الرّوسيّين من ذوي الصّيت الذائع، ويُعاد طبع مؤلّفاته مراراً داخل البلاد وخارج حدودها...

يعرض الكاتب تيبلوغوف في كتابه "كلّ إلى مكانه" الحرب بجوانب شتّى، جبهة القتال والمؤخّرة وتناوب طويل للأحداث. وفكرة الكاتب الرئيسيّة هي التفكير في الواجب وضرورة العمل في أصعب الأوقات والمحن على عرض وترشيح الأساس الإنسانيّ الوضّاء، وأن يكون الإنسان دعامة يعتمدها الآخرون استناداً إليها، ويتكّل عليها الغير خير اتّكال.

كما أشرنا سابقاً إن كتاب "كلّ إلى مكانه" هو رواية تاريخيّة، وتتألّف هذه الرواية من ثلاثة أجزاء هي: "المظلّيون" و"كلّ إلى مكانه"، "و "نبات الشيح على الثلج".

البطل الرئيسيّ لهذه الدراما يُدعى سيرغي سلوبودكين، وهو مقاتل شاب حديث العهد بسريّة المظليّين ومن شخصيّات هذه الرواية:

[1] - المرجع السابق، ص533.

براها: رئيس العرفاء، موطنه هو زيليوني غاي في مقاطعة خاركوف.

الملازم أوّل: بوبورتسيف، آمرالسريّة الأولى، كان يخدم مع براها في الجيش.

فاسيا فويتسيخوفيتش: شاب شجاع حقّق بطولات عديدة، جُرح على جبل سينيتشكا.

بروكوفي زيموفيتش: صديق سلوبودكين في ورشة المعمل.

أوستمنكو: رئيس القسم الدّاخلي في الورشة.

بادينكوف: رئيس الورشة التاسعة.

فاسين: الذي يموت برشّاش مدفع.

سيزوف: وهو مدفعي، يُجرح ويموت في المعركة مع الألمان.

العقيد كازافسكي

خلوبيستنيف: المكلَّف بالخدمة اليوميّة.

كوزينتسوف: موطنه موسكو.

نكولاي فاسيليفتش: عامل في الورشة.

كاغونوف: أسطى في الورشة.

كاستيرين وفاسين: رجلان من حرس الحدود، وفيما بعد أصبحا مقاتلَين في مفرزة (النّصر) العاملة في الغابات.

إينا: ممرّضة في السريّة. بالإضافة إلى شخصيات أخرى ثانوية.

الجزء الأوّل من هذه الدّراما هو "المظلّيون"، وفيه يعرض الكاتب أفراد سرية المظلّيين، وهم يتدربون في اللّيل على القفز بالمظلات بمعدّل مرّتين في الأسبوع، وأحد أوفر مظليي اللّواء خبرة ومراساً هو آمر السريّة الأولى الملازم أوّل بوبورتسيف، وهو أوّل القافزين على الدّوام، وكان يخدم مع براها رئيس العرفاء منذ وقت طويل، أمّا سيرغي سلوبودكين بطل هذه الدراما فقد كان يخاف القفز بالمظلّة، ثم أصبح فيما بعد يقفز كالآخرين، وفي أثناء التمّرين الأخير على إتقان القفزات امتاز بصفة خاصّة كوزيا (كوزينتسوف)، فشكره العقيد، ومنحه إجازة إلى موسكو.

تعرّضت ثكنة المظلّيين بعد ذلك لقصف الطّائرات الألمانيّة وانهارت، ودُمر المعسكر أيضاً، ولم ينجُ من المعسكر المحترق بأكمله سوى الرّسائل، ويجمع كوزيا وخلوبيستنيف

الرّسائل ثم يتوجّها في طريق العودة ، ويختفي المظلّيون في الغابة حيث كان الألمان يقصفون كلينسك.

يقول الكاتب تيبلوغوف مصوّراً ما تعرّض له المظلّيون إزاء قصف العدو لهم:

"كان معسكر المظلّيين من أوائل ما تعرّض لهجوم العــدو، فبعــد أن أحرقــه الألمــان وقصفوا المطار، قاموا بإنزال في ضواحي بيسكوفيتشي، وفي اللّيل كان لرجال المظلات وسط الغابة أوّل تعميد قتالي في معركة شاقّة ومعقّدة، ولكن لم يتسنَّ لسلوبودكين وكوزيا المــشاركة فيها حتّى النّهاية."[(1)]

وينضمّ رجلا حرس الحدود كاستيرين وفاسين إلى مفرزة (النّصر) العاملة في الغابــات، ويموت فاسين بعد أن يُجرح،... وعندما عاد كوزيا وسلوبودكين من جديد إلى سريتهما، كانت السريّة قد استعدّت للعمليات القتاليّة، وأصدر ممثّل القيادة العليا أمره بجعل الضّربات التخريبيّة بالعدو متلاحقة ومتزايدة، ونقل مجموعة من المظليين المحنّكين إلى وحدات الإنــزال حديثــة التشكيل في عمق المؤخّرة، وإرسال جميع الجرحى فوراً إلى موسكو لكي تتمّ معالجتهم.[(2)]

في الجزء الثّاني من كتاب الكاتب فيكتور تيبلوغوف، والذي عنوانه "كلّ إلــى مكانــه" وهذا العنوان هو عنوان الدراما الثلاثيّة للكاتب، وفي هذا الجزء يصوّر لنا الكاتب ســلوبودكين بعد أن بتّ في مصيره الأطباء، واجتيازه نهر الغولفا، وبعدما سأله رئــيس اللجنــة إن كــان يستطيع العمل خلف آلة مصنع ويعمل سلوبودكين في ورشــة، ويتعــرّف علــى بروكــوفي زيموفيتس وأوستمنكو.[(3)]

ويكتشف الألمان موقع المصنع، ويلقي الطيّار الألماني حملة مــن القنابــل وراء نهــر الفولغا، ويتحوّل السّهب المحيط بالمجمع إلى ميدان رحيب تملأه صفوف المدفعيّــة، ويجــري الكاتب الحوار الآتي بين سلوبودكين وأوستمنكو:

- "أرى أنك تعوّدت على هذا كلّه. قال سلوبودكين وهو ينظر إلى أستمنكو الذي حــافظ على هدوئه برباطة جأش ودون اضطراب.

- إلى حدّ ما. أتعرف ما الذي تعلنه الميكروفونات الآن في ورش المصنع؟

- "غارة جويّة" ؟

---

[1] - تيبلوغوف، فيكتور: كلّ إلى مكانه، ترجمة: محمد عبد الجليل الطيار، دار رادوغا، طشقند، موسكو، 1985، ص 38.

[2] - انظر: المرجع السابق، الصفحات: 56- 84- 90.

[3] - المرجع السابق، من ص 114 حتى 117.

- كلاّ. لقد ابتدعنا لهذا المقام عبارة خاصة بنا هي "كلّ إلى مكانه"."[1]

إنّ هذه العبارة "كلّ إلى مكانه" الّتي ابتدعها العمّال في ورش المصنع -كما يقول أوستمنكو- جعل منها الكاتب فيكتور عنواناً لدراماه الثّلاثيّة، لكي يدلّ على صمود النّاس البسطاء الرّوس الذين يثبتون في أماكنهم حتّى في أثناء الغارة الجويّة ويعرّضون أنفسهم للموت.

ويصوّر لنا الكاتب المعاناة والألم الّذي كان يشعر به سلوبودكين نتيجة تفكيره المتواصل بأمّه المريضة، حتّى إنّه اضطّر مرّة حين كان في السّوق أن يبيع بطاقته التّموينيّة مقابل ألف وخمسمئة روبل، واضطّر أن ينفصل عن صديقه زيموفيتش خلال فترة تناول الطّعام، ومرّت ستّة أيام دون أن يتناول سلوبودكين شيئاً من الطّعام، وكان يفكّر أنّه لا يزال باقياً على بلوغ نهاية الشّهر دهر بحاله وطوله.

ثمّ تُقام دورة تدريب للمظليّين في المصنع، وتعلم لجنة المقاطعة لمنظمّة الكومسومول بأمر دورة التّدريب هذه، واُستدعي سلوبودكين في مركز المقاطعة إلى السّكرتير الأوّل رادفولين، وسافر سلوبودكين إلى المدينة بسرور، وسأله رادفولين إذا كان بحاجة إلى مساعدة، فطلب سلوبودكين الحصول على مظلات هبوط مناسبة للتدريبات.[2]

ويخبر السكرتير الكومسومولي رادفولين سلوبودكين عن تنبؤات الطّيّارين بصدد العمليّات الحربيّة القادمة قائلاً له:

" .. سيفعل الألمان كلّ ما بوسعهم في محاولة لقهر قوّاتنا في الجنوب والاستحواذ على منطقة القوقاز والاقتحام إلى نهر الفولغا والاستيلاء على مدينة ستالينغراد. ولديهم حاليّاً في جبهة القتال الممتدّة من بحر بارينتس إلى البحر الأسود تحت السّلاح أكثر من ستّة ملايين فرد.."[3]

يستدعي ستروغانوف سلوبودكين إلى مكتبه، ويخبره بأنّ الاختيار وقع عليه حتّى يذهب إلى الجبهة، وأنّه سيسافر على متن طائرة..، ويحلّق سلوبودكين مع الطّيّار في الطّائرة (أو-2)، وينجح في الهبوط بالطّائرة.[4]

---

1 - المرجع السابق، ص 121.

2 - انظر: المرجع السابق، ص 190- 195- 202.

3 - المرجع السابق، ص 207.

4 - المرجع السابق، الصفحات: 210- 211- 222.

الجزء الثّالث من دراما الكاتب الثّلاثيّة هو بعنوان "نبات الشّيح على الثّلج"، وفي هذا الجزء يتابع الكاتب فيكتور حديثه عن بطل هذه الدراما سلوبودكين، فيذكر أنّ سلوبودكين اُستدعي إلى اللّجنة الكومسومولية للمنطقة، ويخطو سلوبودكين نحو المحطّة، وتوقّف بغتة عن السّير، فقد استرعت انتباهه شجيرة لنبات الشّيح ارتفعت فوق الثّلج، لقد سبق له أن شاهد مثل هذه الشّجيرة في طفولته عند جدّته في القرية في أثناء خدمته العسكريّة في النّاحية البيلوروسيّة الّتي هي الآن بعيدة عنه، ودُهِش سلوبودكين لأنّ نبتة الشّيح ما تزال حيّة على الرّغم من أنّها كانت مضغوطة تحت ركام الثّلج، ورغم صقيع الليل الشّديد، بعد ذلك يلتقي سلوبودكين بأمّه في موسكو، ولكنّها تمرض وتموت..[1]

ثمّ تقرّر بعد ذلك إرسال سلوبودكين إلى الجبهة، وتعيينه في المجموعة الخاصّة كمظليّ محنّك، ويخبر غفروسيف سلوبودكين بعد أن أشار إلى نقطة على الخارطة المطروحة قربه، أنّ الألمان يحاولون تطويق وتحطيم فصائل من أنصار المقاومة وهي في حالة حرجة لقرب نفاذ الذّخيرة ولقلّة الأدوية ومواد التّضميد ولتعطّل جهاز اللاسلكي عندهم عن العمل، ومهمّة سلوبودكين ورفاقه هي إبداء الدّعم المعنويّ إلى هؤلاء النّاس المنهكين والمرضى..، ويحثّ سلوبودكين ورفاقه الخطا واحداً تلو الآخر على المدرّج.[2]

يقول الكاتب فيكتور في نهاية كتابه "كلّ إلى مكانه" متحدّثاً عن سلوبودكين ورفيقه نيكولاي:

"توقّفا عن السّير. وألقى سلوبودكين بحركة معهودة حزام الجهاز (ر.ب) عبر الرّكن الحادّ من كتفه ثمّ زادا من حثّ الخطا لكي يلحقا بالمجموعة التي كانت قد تقدّمت عليهما نحو المحرّكات التي تحمحم وهي تهدر تحت جنح الظّلام بدويّ متزايد الارتفاع ومنتظم الإيقاع أكثر فأكثر وكأنّها كانت تزاول العدّ التّنازليّ في حسبان الدّقائق والثّواني تمهيداً للحظة الانطلاق: عشرة، تسعة، ثمانية، سبعة، ستّة، خمسة، ..."[3]

كتاب " خط الاتصال " للكاتب الرّوسيّ المشهور ليف كاسيل :

من الكتب الّتي تحدّثت عن سنوات الحرب الوطنيّة العظمى (1941-1945) في روسيا، كتاب "خطّ الاتّصال" للكاتب الرّوسيّ المشهور ليف كاسيل (1905-1969) الّذي ألّف عدداً من الكتب التي حظيت بإقبال الشّباب الرّوسيّ. وفي سنوات الحرب (1941-1945)

---

[1] - انظر: المرجع السابق: الصفحات من 240 حتى 317.

[2] - انظر: المرجع السابق: الصفحات من 362 حتى 370.

[3] - المرجع السابق، ص 372.

كان ليف كاسيل مراسلاً حربيّاً في الأسطول الشّماليّ وفي الجبهة الغربيّة والجبهة الأوكرانيّة الأولى.

وقد كتب في هذه السّنوات عدّة قصص عن الحرب، كُوفئ بجائزة الدّولة لقاءها.

يتضمّن كتاب "خطّ الاتّصال" بعض قصص ليف كاسيل عن الحرب، وفي هذه القصص نجد صوراً لأبطال مستعدّين للدّفاع عن وطنهم روسيا حتّى النّفس الأخير.

أولى هذه القصص الثّمانية بعنوان" قصّة عن غائب"، يقول الكاتب في مقدّمتها:

"في القاعة الكبرى التّابعة لهيئة أركان الجبهة نظر مساعد القائد في قائمة الحاصلين على الأوسمة، ونادى على الاسم التّالي، فنهض شخص قصير القامة من أحد الصّفوف الخلفيّة، وجنتاه الحادّتان مكسوّتان ببشرة صفراء رقيقة يتميّز بها عادة أولئك الذين لازموا سرير المرض وقتاً طويلاً. سار هذا الشّخص نحو الطّاولة يعرج على رجله اليسرى. خطا القائد خطوة نحوه وقدّم له الوسام، وصافحه بحرارة، وهنّأه، وناوله علبة الوسام."[1]

ويتسلّم الرّجل الوسام وعلبته، ويشكر القائد بحرارة، ثمّ يبدأ الرّجل بالتّحدّث قائلاً:

"في هذه اللّحظة من لحظات حياتي، وأنا أتسلّم الوسام الرّفيع، أودّ أن أحدّثكم عن شخص كان يجب أن يقف إلى جانبي هنا، كان مستحقّاً هذا الوسام الرّفيع أكثر منّي، عن شخص لم يبخل بعمره الغضّ من أجل نصرنا العسكريّ"[2]

ثمّ يحدّثهم عن الأمر الملازم أندريه بتروفيتش بوتورين الذي كان هو والرجل من قرية واحدة، وطلب هذا الرّجل الذي يدعى زادوختين من الآمر أن يسمح له بالخروج للاستطلاع بعد هجوم الألمان عليهم في الأورال، ويخرج زادوختين، ويلتقي بطفلٍ يصف له موضع الألمان، ويبدي استعداده لمرافقة زادوختين ورفاقه، بعد أن دلّه على خندق يمكن أن يخرجوا منه، ثمّ ينفجر لغم ويُجرح زادوختين ويتقدّم الألمان منهما وهما في الخندق،. ويركض الطفل حتّى يلفت أنظار الألمان وبذلك يُنقذ زادوختين، ولكنّ الألمان يطلقون النّار على الطّفل، ويموت.

يقول الكاتب مصوّراً مشاعر الذين كانوا في القاعة بعدما سمعوا قصّة الطّفل البطل:

---

[1] - كاسيل، ليف: خط الاتصال، دار التقدّم، موسكو، د.ط، ص3.

[2] 0 المرجع السابق نفسه ، ص4.

"وبهدوء نهض في القاعة طيّارون، ورجال دبّابات، وبحّارة، وجنرالات، ورجال من جيش الحرس ... أناس المعارك المجيدة وأبطال الوقائع الضّارية. نهضوا إجلالاً لذكرى طفل بطل مجهول لم يعرف أحد اسمه."[1]

القصّة الثّانية بعنوان "خطّ الاتّصال" وقد اختار الكاتب ليف كاسيل هذا العنوان ليجعله عنواناً لمجموعته القصصيّة التي نتحدّث عنها ربّما لأنّ هذه القصّة تدلّ أكثر من غيرها على شجاعة المقاتل الرّوسيّ، وقوّة إرادته، وثباته ومقاومته للعدوّ حتّى اللّحظة الأخيرة من حياته، إنّ بطولة وصلابة بطل هذه القصّة أشبه بالخيال، إنّها بطولة نادرة لا يقوم بها إلا المقاتل الرّوسيّ. تتلخّص هذه القصّة في أنّ الاتّصال انقطع فجأة بين نقطة القيادة التي كانت تتابع تطوّر المعركة، وبين إحدى الوحدات المقاتلة، فما كان من الرّجل –بطل القصّة- إلا أن تناول بندقيّته ومحفظة أدواته، وأخذ يزحف على الأرض المتجمّدة، ويراه الألمان وتنفجر الألغام به، فيصاب، ولكنّه يتسلّق منحدر التل باحثاً عن طرف السّلك المعلّق في أحد الأحراش، وينجح في إيجاده، ولكنّ الألمان أخذوا يقتربون منه، وأخذ يجاهد حتّى يشدّ طرفي السّلك، ورغم ألمه الشّديد أمسك أحد طرفي السّلك بأسنانه، ودفع الطّرف الآخر إلى فمه بكلتا يديه، ويُطبق على السّلك بأسنانه، وهاجمه الألمان فنهض للمرّة الأخيرة، وأطلق عليهم مشطاً كاملاً، بعد أن نجح في وصل خطّ الاتّصال.

يقول الكاتب واصفاً إرادة هذا الرّجل التي انتصرت على الموت:

".... ولم يعد الرّجل، بقي ميتاً في الميدان، على الخطّ، وظلّ جسراً للأحياء، تخدّر فمه إلى الأبد، ولكنّ الكلمات التي كانت تتوقّف عليها حياة مئات النّاس، ونتيجة المعركة انتقلت من طرف ميدان القتال إلى الطّرف الآخر شاقّة طريقها بتيّار ضعيف عبر أسنان فمه المصكوكة. لقد فُصل عن الحياة، إلاّ أنّه ما زال مندمجاً فيها. الموت جمّد قلبه، وقطع تيّار الدّم في العروق المتجمّدة. ولكّن إرادة الإنسان الضّاريّة قبيل موته قد انتصرت بالصّلة الحيّة بالنّاس الذين بقي وفيّاً لهم حتّى بعد مفارقته الحياة."[2]

أمّا القصص السّتّة الباقية فهي تحمل العناوين التّالية:

فيديا في قاعدة الغوّاصات – عاد كلّ شيء – أرنب البطاريّة – حاسة سمع فريدة – حمولة سريعة الاشتعال – صورة من نار.

وكلّ قصّة من هذه القصص تتحدّث عن بطولات الشّعب الرّوسيّ وحبّه لوطنه.

[1] - المرجع السابق، ص 12- 13.

[2] - المرجع السابق، ص 20-21

الروايات التاريخية العربية

وفيما يأتي ننتقل إلى الرواية التاريخية العربية، لنقارن بينها وبين الرواية التاريخية الروسية من حيث الشخصيّات الحقيقية والشخصيات المتخيلة، لندرس مدى التشابه والاختلاف بين الرّوايتين.

رواية " عمر بن الخطاب " للكاتب معروف الأرناؤوط:

ومن الرّوايات التّاريخيّة التي تحدّثت عن تاريخنا الإسلامي رواية "عمر بن الخطّاب" للكاتب معروف الأرناؤوط، وقد كتبها عام 1936 بعد ثماني سنوات من صدور روايته الأولى "سيّد قريش" التي اشتهر بها، وقد كان المؤلف يطمح لإصدار روايته "عمر بن الخطّاب" في أربعة أجزاء، غير أنّ المؤلّف لم يصدر إلاّ الجزأين الأوّل والثّاني، وهذه الرّواية اجتماعيّة تاريخيّة تصف حياة العرب الاجتماعيّة والسياسيّة، وكفاحهم في سبيل حريّة الشّام والعراق من زمن محمد سيّد قريش إلى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، كما وصفها مؤلّفها في مقدّمة الرّواية، ويمتدّ زمن الرّواية التّاريخي من عام 616 م إلى ما بعد معركة مؤتة بقليل أي إلى عام 624 م متممة أحداث روايته "سيّد قريش".

وقد جعل الكاتب عنوان الجزء الأوّل من روايته " ليالي شاعر"، أمّا الجزء الثّاني فقد جعله بعنوان " فرسان سيّد قريش".

يتألّف الجزء الأوّل من رواية "عمر بن الخطاب" من ستّة وعشرين فصلاً، وفي بداية هذا الجزء ، في الفصل الأوّل يصف لنا الكاتب – بأسلوبه الرّائع في الوصف – يوماً رائعاً من أيّام شهر أيّار سنة ستّمئة وست عشرة، في هذا اليوم أحدق بشاطئ بحيرة طبريا سرب من الفتيات، ويصوّر لنا الكاتب جمال كريستيا الرّائع ، وشبابه الفاتن، وقد كان شعره وفنّه مضرب المثل في بلاد الجليل، وقد أجمع على حبّه عذارى الأردن، وحسان طبريّا والنّاصرة، ولكنّ كريستيا الشّاعر الرّومانيّ والنّحات الملهم أحبّ فتاةً لعوباً تُدعى بنيامين وهي ابنة نبيل يُدعى نفتالي. وتحدّث نفتالي كريستيا عن البطريرك سرجيوس الذي سوّغ إحراق أبيها نفتالي حيّاً لأنّه على زعمه قد أزرى بصور الأولياء، وقد برزت نتيجة ذلك بثور وقروح في وجه نفتالي، وتعيش بنيامين في حجر أمّها على شاطئ (مجدلة) في الجليل إلى أن تموت الأمّ.[1]

يقول الكاتب مصوّراً ما عاناه نفتالي في حياته من قهر وظلم:

---

[1] انظر: الأرناؤوط ، معروف : عمر بن الخطاب ، الجزء الأول بعنوان (ليالي شاعر)، دمشق ، مطبعة فتى العرب 1355 هـ -1936 م ، الصفحات من 6 حتى 47 .

"لقد كان نفتالي من نبتة سامريّة في الأصل فتنصّر، وكان حافزه إلى النّصرانيّة إمعانها في اضطهاد ذويه، وإيغالها في تشريدهم وتبعيدهم، وهو لا يزال يحمل إرثه الشجيّ من الماضي ولا يزال هذا الإرث الذي يتمثّله في صبحه ومسائه يقصّ عليه نبأ الكارثة التي نزلت بالسّامريّة في سنة خمس وعشرين وخمسمئة، وكان قيصر الرومان لذلك العهد يوستنيايوس مجدّد أياصوفيا ومعيد ذكراها وزوج تيودورا الهائلة التي ظلّلت ماضي بيزنظة بشبح شديد التعتيم "[1]

وقد تحالف البطريرك وقيصر والشّعب على نفتالي لأنّه كان سيّد بلاد الجليل في وفرة مزارعه ووفرة متاجره، فعمد البطريرك إلى سلبه أراضيه، ونفاه إلى شاطئ البحر الميت، ولكنّه نذر نفسه للانتقام من القيصر والبطريرك، فكان يخرج من منفاه بلباس متسوّل، ويطوف حول بيت ابنته بنيامين دون أن تشعر بوجوده، أمّا الشّاعر كريستيا فقد كان يعتني بأخته المريضة سافو ولم تحركه انتصارات هرقل على الفرس، ولا احتفال قيصر في فلسطين بعودة الصّليب المسيحي الذي نهبه الفرس حين دخولهم القدس، فهو لم ينسَ حقده على قيصر ودم أبيه، فوالده موريس كان قيصر روما من قبل، واغتصب الحكم منه فوكاس سنة 602م، ثمّ جاء هرقل فأنهى حكم فوكاس، لكنّه استأثر بالحكم دون ابن القيصر المخلوع كريستيا، وهكذا عاش كريستيا مع أمّه وأخته في بلاد الجليل دون أن يعرف هرقل حقيقته. وفي تلك الفترة يزور هرقل القدس، وتخرج مواكب الجنود وأبناء الشّعب للقائه ....، ويمرّ هرقل قبل قدومه إلى طبرية ببصرى عاصمة الغساسنة، ويستقبله أمراء غسّان ومنهم حنظلة أمير الجولان، وامرؤ القيس أمير غزّة والبحر الميت، وشرحبيل بن عمرو الغساني أمير الأردن .... ، وكان فروة بن عمرو الجذامي سيّد قومه بني جذام، وكان في نفسه موجدة على القيصر، لأنّ أخاه تيودور حاكم البلقاء الرّوماني أنزل تمثال الملك العربي النّبطي الحارث قاهر الرّوم في زمانه في ساحة (سلع) ورفع تمثال هرقل مكانه.

يقول الكاتب في الفصل الثاني عشر الذي جعله بعنوان (بصرى عاصمة غسان):

"في صباح اليوم الخامس عشر من شهر أيار سنة اثنتين وعشرين وستمئة تعالى صوت البوق في دير مارية ذات القرطين ، فهزّ ترجيعه الغطاريف الكماة في القصور المجاورة فجفوا أسرّتهم وعاذوا برماحهم وسيوفهم ونهدوا إلى مقاصير الطّرق لتحيّة قيصر العائد من قتال الفرس!!

---

[1] - المرجع السابق نفسه، ص 76.

وفي الصباح الماتع انبعث الملك العربيّ الحارث بن أبي شمّر من قصره إلـــى خـــارج المدينة على رأس حاشية من أبناء أبيه .....، وفي هذا الصبّاح المـــضيء تفتّحـــت النّجـــوم المجاورة للأردن وعمّان ودمشق فكشفت عن فروة بن عمرو الجذامي فيلارك معـــان وأميـــر أيلة تلتفّ به حاشيته من الفرسان ، ثم لم يلبث فروة أن لحق بالملك الحارث ليـــستقبل قيـــصر على أبواب بصرى".[1]

ثمّ يتحدث الكاتب عن أمجاد بصرى التي كانت عاصمة النّبط الثّانيـــة، وعـــن ازدهـــار الفنون العربيّة فيها في زمن الحارث الثّالث ملك النّبط، وقد كان عصر فيليب العربـــي أزهـــى عصور بصرى ، وقد روى مؤرّخو الرّومان أنّ فيليب أحبّ أن يسلب روما مجـــدها الخالـــب على الرّغم من أنّ روما فتحت ذراعيها لهذا المغامر الشّجاع.[2]

وفي الفصل الخامس عشر الذي جعله الكاتب بعنوان (عمر بن الخطّاب) يتحدث الكاتب عن شهرة مالك الكندي راهب بصرى .... ، ثم يروي لنا كيف قتل عمر بن الخطاب قائد جند الرّومان فيقول:

"قتل عمر بن الخطّاب البطريق فلافيوس قائد جند الرّومان في دمشق، فقامـــت شـــرطة قيصر بزعامة تيودور الهائل والي سورية الرّوماني بالبحث عنه في البوادي، وأجزل القنصل الرّوماني ثواب الذين تكلّفوا بالعثور على مخبأ الرّجل، وبعث بعيونه إلى وادي القـــرى، ومـــع هذا كله فقد رضي مالك أن يفتح باب الدّير في وجه الرّجل الذي قتل كبير قوّادهم" [3]

ثم يتحدث الكاتب بعد ذلك عن ورود كتاب من الرسول العربي (ص) إلى هرقل يـــدعوه فيه إلى الإسلام، وقد جاء بهذا الكتاب رجل يدعى دحيّة بن خليفة الكلبيّ الذي سأله هرقل عن النبي الذي يتحدّث عنه، فيجيبه بأنّه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الذي بعثه الله إلى ملوك الدنيا وإلى شعوبها، ويأخذ الرسالة هراقليوس، ويسلّمها إلى الملك الحارث.

ويصوّر الكاتب الحادثة السّابقة في النّص الآتي الذي يشير الكاتب فـــي الهـــامش إلـــى المصدر الذي رجع إليه في إثبات ما ذكـــره، ومـــصدره هـــو (الطّبـــري، ج3، ص 1546)، والنّص هو:

"فغيّب دحيّة يده في صدره ، ثمّ أخرج رسالة محمد، ودفع بها إلـــى قيـــصر، فأخـــذها هراقليوس وأسلمها إلى الملك الحارث، وقال له: اقرأ فقرأ سيّد غسّان رسالة سيّد قريش:

---

[1] - المرجع السابق، ص 116.

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 117، ص 118.

[3] - المرجع السابق ، ص 138.

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الرّوم

السّلام على من اتّبع الهدى. أمّا بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرّتين، وإن تتـــولّ فإنّ إثم الأكّارين عليك."[1]

ويقترح بعض قادة الرّوم قتل حامل الرسالة ، ويقرر قيصر تسريح الرسول إلـــى بلـــده دون جواب.

ويجتمع فروة بن عمرو الجذامي سيّد أيلة وعامل قيصر على البلقاء وسيناء بكريـــستيا، ويطلب منه الزواج من أخته سافو فيقبل كريستيا بذلك ، وكان فـــروة مثـــل كريـــستيا يكـــره هراقليوس.

ويصوّر لنا الكاتب مشهد موكب قيصر الفخم، ويصوّر إطلالة قيـــصر علـــى الميـــدان الرّوماني في طبريا، وقد خرجت إلى لقائه من نواحي بلاد الجليـــل مجموعـــة مـــن الفتيـــان والشّيوخ والنّساء، ولحق بموكبه الفخم عيون الرّومان وأشرافهم، وكان جميع هـــؤلاء الـــذين جاؤوا من الضّواحي المجاورة قد قرؤوا رسالة عامل قيصر على طبريّا ، تلك الرّسالة التـــي سوّغ فيها البطريرك القسطنطيني سرجيوس تـــذبيح اليهـــود وتقتـــيلهم لغـــدرهم بالمـــسيحيين وتضافرهم مع الفرس على إحراق الكنائس والبيع في بيت المقدس، ولمّا تراءى خيال قيـــصر للجماهير لم يستطع واحد من كلّ هؤلاء الذين ألهب حماستهم كبر قيصر وزهوّه، أن يمنع قلبه من الشّعور بالبغض، فصاحوا صيحة الرّجل الواحد: إلى مساكن اليهود، إلى مساكن الأعـــداء القدامى.

يقول المؤلّف معروف الأرناؤوط:

"وكانت وفود اليهوديّة قد توافدت إلى الميدان الرّوماني لتحييّ قيصر الرّومـــان وتـــسأله الصّفح ، فرقّ قيصر لمشهد الشّيوخ والنّساء وخاطب الوفود بلغة دلّت على تسامحه وإغضائه، ولكنّ هذه اللّغة العذبة الرقيقة التي تحدّث بها هراقليوس إلى شيوخ اليهوديّة ظلت غامضة فلـــم تفهمها جموع الدّهماء"[2]

وممّا يدل على حرص الكاتب على الدّقة والصّدق أنّه أشار في الهامش إلـــى المـــصدر الذي أخذ منه النّص السّابق، والمصدر هو (تاريخ فتح العرب لمصر لجورج بتلر).

---

[1] - المرجع السابق ، ص 145.

[2] - المرجع السّابق ، ص195 .

وفي الفصل السادس والعشرين والذي هو بعنوان (العائد إلى الوطن) يتحدّث الكاتب عن خروج عمر بن الخطاب من وطنه مكة إلى الشّام في تجارة له، وانحداره إلى بصرى ودمشق، وكيف لم تعجبه حياة قومه وهي مزيج من العبوديّة والعار، ولم يرقه أن يخضع ملوك من الشام والعراق لقياصرة الرّومان وأكاسرة الفرس، ثمّ جعل يقارن بين الحياة الجديدة التي يحياها قومه في جزيرة العرب، وبين الحياة القديمة التي يحياها قومه في الشّام والعراق، فما اطمأنّ إلى هذه المقارنة، لأنّ الناسّ في جزيرة العرب بعد أن استساغوا رسالة اليتيم القرشيّ كانوا يتبارون في الامتداد بوطنهم إلى آفاق جديدة، بينما النّاس في الشّام والعراق لم ينتبهوا إلى تضاؤل الأرض تحت أقدامهم. يقول الكاتب:

"وقد كان أشدّ ما يرفض عمر بن الخطّاب، ويثير شجوه أن تبتلع الهوّة الرّاعبة التي انحدر إليها سلائل الرّومان أو الإغريق جيلاً كاملاً من قومه، وأن يغرق الغساسنة والمناذرة وهم ملوك العرب وعبيد الرّومان والفرس في أمد واحد أنفسهم في دجنات هذه الهوّة الرّاعبة بعد أن أخذتهم الشّكوك، وقرضتهم المخاوف، وهامت أفكارهم وخواطرهم بين وثنيّة بائدة ونصرانيّة كامدة ".[1]

ويصف لنا الكاتب عمربن الخطّاب هذه الشخصيّة التاريخيّة التي تثق بقدرة العرب على الانتصار، وتفتخر بانتصارات المسلمين السّابقة في الجزيرة العربيّة، فيقول:

"وقد كان عمر بن الخطاب يثق بقدرة الوطن العربيّ على الانتصار فتمثّله ذائداً ومنافحاً في يوم بدر، فابتسم لعنفوانه وشممه .... ، ثمّ امتدّت تصوّراته وهواجسه إلى ماضي هذه الديانة الغضّة التي ولدت في غار حراء فإذا هو قريب من ذلك اليوم الذي خرج منه محمد يتيم قريش في السّنة الرّابعة من الهجرة إلى قتال بني النّضير أصحاب اليهوديّة وحماتها، فصفّق لوطنه الذي طرد اليهود من يثرب، ولم تفته انتصارات الوطن في يوم الخندق" [2]

أمّا الجزء الثّاني من هذه الرّواية فيتألّف من ستّة وثلاثين فصلاً، يتحدّث الكاتب في الفصل السّابع تحت عنوان "الليلة الليلاء " عن كتاب رسول الله (ص) إلى كسرى ملك الفرس، فيذكر أنّ عبد الله بن حذاقة السّهمي كان رسول النّبي (ص)، الذي دخل على كسرى وهو في حاشية من قومه ، فقال له : إنّي رسول الله إليك ، وقد بعثني بكتاب فيه صلاح دنياك وآخرتك.

يقول الكاتب معروف الأرناؤوط مصوّراً ردّ فعل كسرى على ما جاء به الرسول:

1- المرجع السابق ، ص 243 .

2 المرجع السّابق ، ص 251

" فتناول كسرى الكتاب، وقرأ فيه:

من محمّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس.

سلام على من اتّبع الهدى، وآمن بالله ورسوله وشهد أنّ لا إله إلاّ الله وإنّي رسول الله إلى النّاس كافّة لينذر من كان حيّاً، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس، فاحمرّت عينا كسرى من الغضب، وتلفّت إلى قومه قائلاً: يكتب إليّ هذا وهو عبدي" [(1)]

ويخبرنا الكاتب أنّ كسرى أبرويز مات بعد أسابيع شرّ ميتة، فقد قتله ابنه شيرويه، وكان مقتله يوم لعنة رسول الله، فقد حدّث الرسولان اللذان بعث بهما كسرى الفرس عن معجزة محمّد (ص)، وقالا إنّهما دخلا على الرسول (ص)، وبلّغاه ما قاله كسرى، فرفع الرسول (ص) يديه إلى السماء وقال: فرّق الله ملكه، ونشير هنا إلى أنّ الكاتب معروف الأرناؤوط قد ذكر في الحاشية المصادر التي أخذ منها وصفه لحادثة كسرى ، وكتاب الرسول (ص) إليه، ومصادره هي: (الطّبري :ج3)، و(الأغاني).

يتحدّث الكاتب في الفصل الثاني والثلاثين عن معركة مؤتة، وقد جعل الكاتب هذا الفصل تحت عنوان "المعركة"، ويصوّر فيه أحداث معركة مؤتة، وكيف التقى جيش زيد بن حارثة الذي أرسله النبي الكريم (ص) بجيش الرّوم عند مشارف مؤتة، وتحوّل الرّوم بقيادة هرقل نفسه عن القتال إلى سلع، ويُقتل في هذه المعركة زيد بن حارثة، وأركاديوس، أمّا فروة فقد صلبه قيصر في ساحة المدينة.

أمّا كريستيا الشاعر فيعود إلى أريحا، ويلتقي بحبيبته بنيامينا، وكان قد فقد صوابه وأُصيب بالجنون ويصور الكاتب في نهاية الجزء الثاني كيف كانت بنيامينا تبكي وهي تنتظر من كريستيا أن يتكلم، ولكنه لم يسمعها صوته، بل أخذ ينظر إلى صورة للمسيح معلّقة على الجدار.[(2)]

بعد الانتهاء من ذكر أهم الأحداث التي ذكرها معروف الأرناؤوط في روايته "عمر بن الخطّاب" نشير إلى المصادر التي اعتمدها الكاتب، فمن المصادر العربيّة التي رجع إليها: طبقات ابن سعد، والسّيرة النبويّة لابن هشام، والطّبري، وابن الأثير، والأغاني.

[1] - الأرناؤوط ، معروف : عمر بن الخطّاب ، الجزء الثاني بعنوان (فرسان سيّد قريش) ، دمشق ، مطبعة فتى العرب 1355هـ - 1936م، ص111.

[2] انظر : المرجع السّابق ، ص427 .

أما مصادره الأجنبية فمنها: فتح العرب لمصر لجورج بتلر، وفتح العرب للشّام للمؤلف دي جوج، وأمراء غسّان لنولدكي، وتاريخ العرب لسديو، وتـاريخ العـرب لرينـه ديـسو، وبزنطية لشارل ديل، وتاريخ فارس القديمة وتاريخ العرب لكليمان هيلر.

وتجدر بنا الإشارة إلى ما ذكره قريب الكاتب معروف الأرناؤوط، وهو عبـد اللّطيـف أرناؤوط حول رواية "عمر بن الخطّاب" وذلك في كتابه " معروف الأرناؤوط رائـد الرّوايـة التاريخيّة في بلاد الشّام 1892 – 1948، وكنّا قد أشرنا سابقاً إلى هذا الكتاب ، ويـذكر عبـد اللطيف أرناؤوط أنّ هذه الرّواية معنونة باسم "عمر بن الخطّاب" إلاّ أنّ كاتبها لم يتحدث فيهـا كثيراً عن عمر ، حيث انصبّت عنايته على وصف الظّروف الاجتماعيّة والتّاريخيّـة لظهـور الإسلام زمن الرّوم والفرس، كما يشير عبد اللطيف أرناؤوط إلى أنّ الكاتب ركّز اهتمامه على البيئات خارج الحجاز ولاسيّما سورية والعـراق والأردن، دون أن يهمـل أصـداء الـدّعوة الإسلاميّة النّاشئة في تلك البيئات العربيّة ... ، كما يذكر أنّ المؤلف قد أحسن اختيـار مادّتـه التّاريخيّة في ضوء أهدافه القومية والدينية ، وأنه في روايته هذه أكثر التزاماً بالشروط الفنيـة للرواية التاريخية منه في رواية "سيّد قريش"، وفي رأي عبد اللّطيف أرناؤوط أنّ مـا ذكـره الكاتب معروف الأرناؤوط من تفصيلات تاريخيّة ومعلومات مسهبة لا يتحمّلها الفن القصصيّ يرجع إلى حرص الكاتب على تثقيف القارئ بالمعلومات التّاريخية، كما يذكر عبـد اللطيـف أرناؤوط أنّ أبطال رواية عمر بن الخطاب متنوّعون، فمنهم من له وجود تاريخي أضفى عليه الكاتب من خياله كفروة بن عمرو أمير سلع، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، ونوع آخـر ابتكره خياله، كشخصيّة كريستيا الشّاعر، ونوع ثالث له وجود تـاريخي عـابر كشخـصيتيّ نفتالي ومنصور بن سرجون.[1]

رواية " طارق بن زياد " للكاتب معروف الأرناؤوط:

أمّا الرّواية الثّالثة التي كتبها معروف الأرناؤوط فهي روايته التاريخيّة "طارق بن زياد"، وهي رواية عن تاريخ العرب في إفريقية والأندلس زمن الفتوح، أصدر الجزء الأوّل منها عام 1941 م، ولكنّه لم يتمّ جزأها الثّاني، وهذه الرواية هي أقصر روايات معـروف الأرنـاؤوط طولاً، وقسّم الكاتب الجزء الأوّل الذي أصدره من هذه الرّواية إلى قسمين، وجعل القسم الأوّل في أربعة عشر فصلاً، عرض فيه الكاتب تاريخ فتوح إفريقية.

---

[1] - انظر : أرناؤوط ، عبد اللّطيف : معروف الأرناؤوط رائد الرّواية التّاريخيّة في بلاد الـشّام 1892-1948، دار عكرمة ، دمشق ، ط1 ،2001م، الصفحات: 61 ،62 ، 63 .

جعل الكاتب عنوان الفصل الأوّل من القسم الأوّل بعنوان: (بنو أميّة والإمبراطوريّة البيزنطيّة)، ويستعرض فيه المؤلّف انهيار الإمبراطوريّة البيزنطيّة الشّرقيّة على يد البرابرة، وانقسام وانحلال هذه الإمبراطوريّة ممّا جعل الشعوب الخاضعة لها ترفض شرائعها وسننها، وتمتنع عن دفع الضّرائب وتحرّض الآمنين على التنكّر لقيصر، كما يتحدّث المؤلّف في هذا الفصل عن قتل الإمبراطور فوكاس الذي خلفه الإمبراطور هراقليوس، فاسترجع هذا الصّليب الكبير، وردّ الفرس إلى بلادهم، كما يذكر أنّ الأمّة العربيّة انتزعت من هراقليوس بلاد الشّام لتضعها في يد الخليفة أبي بكر الذي جاء بعده عمر الفاروق، فاضطلع هذا الخليفة بأعباء الفتح في فارس، وطرد الفرس من العراق، وأقصى كسرى عن مدائنه، ثمّ رجع إلى مصر، وقاتل أحد قوّاده، وهو عقبة بن نافع البربر في (فزان)، وفي سنة سبع وأربعين وستمئة خرج جيش من المدينة المنوّرة ليلتحق بجيوش مصر، وكانت أحوال إفريقية السياسيّة والاجتماعيّة مواتية للزّحف العربيّ ، ويتولّى الأمر بعد موت الخليفة عثمان بن عفان، وموت علي أمير المؤمنين، معاوية بن أبي سفيان الذي أرسل عمراً بن العاص إلى أطراف الإمبراطوريّة البيزنطيّة، ثم ولاه أمر مصر، ففتح المغرب، وهيّأ الجيوش.(1)

يقول الكاتب معروف الأرناؤوط متحدّثاً عن دور عقبة بن نافع ومعاوية بن حديج في هذا الفتح وبطولاتهما:

"وفي سنة خمس وستين وستّمئة خرج من تونس جيش بقيادة معاوية بن حديج، فرابط غير بعيد عن المكان الذي قامت عليه مدينة القيروان، وانتصر على جيش البيزنطيّين يقوده البطريق نيكفور، وكان عقبة بن نافع لذلك العهد في فزان فخرج منها إلى برقة، وبلغه أنّ معاوية بن أبي سفيان قد ولاه الأمر في إفريقيّة جميعاً، وكان ذلك في سنة تسع وستين وستّمئة، وفي هذه السّنة أنشأ عقبة مدينة القيروان، وأقام قواعدها في الأماكن التي رابطت فيها جيوش معاوية بن حديج"(2)

كما يذكر الكاتب أنّه في سنة تسع وثمانين وستّمئة اضطلع بأعباء الأمر في إقليم مرّاكش الكونت جوليان ابن عم الإمبراطور قسطنطين الثالث.

وفي الفصل الثّاني الذي عنونه الكاتب بعنوان (عقبة بن نافع) يتحدّث الكاتب عن عقبة بن نافع الذي أراد معاوية بن أبي سفيان منه أن يتوغّل في إسبانية والمغرب ليكمل العمل الرّائع الذي بدأه العرب في الشّرق. في أثناء استراحة جيوش عقبة بن نافع في قرية جبلية

1- انظر: الأرناؤوط، معروف : طارق بن زياد ، مطبعة فتى العرب ، دمشق ، ط2 ، (ب. ت) ، الصفحات من 1 حتى5 .

2 - المرجع السابق نفسه ، ص5 .

تشرف على البحر يتعرّف عقبة على ساحرة بربريّة تُدعى دامية تخبره عن قتل أبيهـا زعـيم البربر على يد كوسيلا الذي اعتصم في الجبال، وأنّه قبل موته أطلعها على سرّ رهيب، وهـو أنّه كان بطليطلة دار الملك بالأندلس حصن مغلق، وفي هذا الحصن تـابوت مغـشّى بـاللؤلؤ وعليه قفل ومفتاحه، ويأمر رودريك عندما وُلّي الأمر في الأندلس بفتح الأقفال، فلم يجد فيـه سوى رقّ، وفي جوانب التابوت صور فرسان بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العـرب، وهم معمّمون ومن تحتهم الخيل العربيّة، وهم متقلّدون بالسّيوف المحلاة، وجاء في الرقّ أنّـه متى فُتح هذا التابوت دخل القوم الذين صورهم في التابوت إلى الأندلس، وذهب ملك من فيهـا من أيديهم، وقد وردت هذه القصّة كما يشير المؤلّف معروف الأرناؤوط فـي (نفـح الطيـب، ج1، ص 167)، ويتابع الكاتب أنّ رودريك ندم على فتح التّابوت بعدما عرف مـاذا يحـوي الرقّ. ويطمئن عقبة الساحرة دامية إلى أنّه سيقضي على عدوّ أبيها كاسيلا، ثم يختـار عقبـة عشرة من رجاله بينهم طارق بن زياد وطريف ومغيث الرّومي ليجتازوا المضيق إلـى جبـل طارق.[1]

يصوّر لنا الكاتب حماسة رجال عقبة بن نافع، وإيمان هذا القائد العربي بشجاعة وقـدرة رجاله، فيقول:

"لم يكن عقبة في حاجة إلى خطبة يخطبها في رجاله العشرة فلقد كان هؤلاء يـستمعون له في حماسة ولهفة فلّما عرفوا مقاصده، رفعوا سيوفهم ولوّحوا بها في فضاء بحـر الـروم، وراحوا ينشدون تلك الأناشيد التي غنّتها جيوش الفتح في مصر وبرقـة وقرطاجنـة وجبـال الأطلس، فلذّ عقبة لحماستهم وخُيّل إليه أنّه يستطيع أن يفتح العالم كلّه بهذه الفئة القليلة التي ما كان يهمّها إلاّ أن تعبر البحر الزاخر لتصبّ من لججه وأمواجه هذه الأناشـيد التـي نظمهـا شعراء جزيرة العرب، وجاء عقبة بن نافع يردّدها في أفريقية عن كثب من آثار روما وأثينـا والقسطنطينية"[2]

وظلّ عقبة ورجاله في ساحة الحصن، وهم يهتفون باسـم محمـد، فاسـتفاق الحـرس وخرجوا بأسلحتهم إلى ساحة الحصن لقتال عقبة ورجاله، وكان الحرس جميعهم من البربـر، أمّا قائدهم فقد كان رومانيّاً بيزنطيّاً، وخاض الجميع المعركة في حمية وبأس، ودخـل طـارق وطريف إلى حجرة الكونت جوليان عامل الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وكان في سريره ينظر من خلال النّافذة إلى المعركة الدّائرة في ساحة اللعب، ثم اجتاز الثلاثة طارق وطريف وعقبة بـن نافع حصن سبتة إلى الشاطئ، وعاد الزورق إلى الأرض الإفريقيّة. أمّا كوسيلا فقـد أحـرق

---

1 - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 6 حتى 38.

2 - المرجع السابق، ص 47.

مضارب السّاحرة دامية، فاستنجدت بعقبة، ودلّها على مكانه قائده مغيث الرّومي وهو عربيّ من أمّ بيزنطيّة، ثمّ يقبض جنود عقبة على كوسيلا، فيسجنه عقبة...

في الفصل السابع وهو بعنوان (صوت الوطن) يصوّر الكاتب جنود عقبة بن نافع على ساحل طنجة، ومعهم قائدهم عقبة الذي كان يستمع إلى أنشودة رائعة هي أنشودة الوطن.[1]

يقول الكاتب معروف الأرناؤوط واصفاً ما شعر به عقبة بن نافع عند سماعه أنشودة الوطن:

"وولّدت هذه الأنشودة الرّائعة أمّة منتصرة هزمت قيصر في بطاح اليرموك، وأهوت بكسرى إلى جروف القادسيّة.

إنّ هذه الأنشودة البارعة التي لبست الحديد والنّحاس، تملأ أفريقية وساحل البحر من صقلية إلى طنجة، وتنزل في الأماكن التي نزلها الرّومان واليونان! إنّها لتطفر في صدر عقبة بن نافع فيحسّ في جرسها، خفق الرّايات وصليل الأبواق، وهتاف الجيوش"[2]

ثمّ عاد عقبة بن نافع إلى طلل فلافيوس، وتوجّه إلى معسكره في القيروان، ومرّت بخاطره ذكرى دمشق، وتذكّر شيوخ النّصر في اليرموك والقادسيّة ثم يقرّر ألا يُطيل بقاءه في القيروان، وأن يعود إلى طنجة ليخرج مها على سفنه إلى الأندلس لفتحها بعد أن دانت إفريقية له..... ثم يعفو عقبة عن كوسيلا، ولكنّ كوسيلا ينكث عهده، ويعلن العصيان، ويعتصم بالجبال.[3]

وتدور معركة بين رجال كوسيلا، ورجال عقبة الذين استقرّوا في الوادي، وكانت المعركة قاسية وعنيفة...

ويصوّر الكاتب في الفصل الرابع عشر وعنوانه (الشّهيد) المعركة التي دارت بين عقبة ورجاله، وبين كوسيلا ورجاله، وقد سقط في المعركة عشرة من قوّاد عقبة، ويتولّى قيادة المعركة بنفسه، ويقرّر أن يقاتل بروح الزّعيم قائد الجيش العرمرم..

يقول الكاتب مصوّراً بطولة وتضحية عقبة من أجل وطنه، مقارناً شجاعته وإخلاصه بغدر وخيانة كوسيلا قائد اللصوص:

---

[1] - انظر : المرجع السابق، الصفحات من 51- حتى 83

[2] - المرجع السابق، ص 83.

[3] - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 85حتى 107

"ومن حقِّ أمير المؤمنين عليه وقد اصطفاه لقيادة الجيش العرمرم، أن يقاتل علـــى رأس هذه العصابة القليلة، بروح الزّعيم قائد الجيش العرمرم، وأدرك كوسيلا هذا الذي يتــردّد فـــي خاطر عدّوه. فسأل لصوصه أن يجعلوه غرض أسنّتهم، ففعلوا، وتكاثر اللّصوص من حولـــه، وأمطروه بوابل من النّشاب، وهو يثخن فيهم، ورجاله القلائل يدافعون عنه، حتى مزّق النّشاب صدر ذلك الزّعيم المنافح، فتلقّته الأرض وعلى فمه اسم يتيم قـــريش، وفـــي عينيـــه صـــورة الوطن، وفي صدره خيّالة دمشق، وفي أحلامه وهواجسه ذكريات ذلك العهد الذي انقطع فيـــه إلى أتراع الأرض"[1]

وهكذا تنتهي حياة عقبة بن نافع القائد العربي الشجاع بعيداً عن دمشق.

أمّا القسم الثّاني من رواية "طارق بن زياد" فيقع في خمسة فصول، وفي هذا القسم ينتقل الكاتب إلى بلاد الأندلس، ويصف لنا في الفصل الأوّل من القسم الثّاني قـــصر (فـــال كـــلارا) المشرف على طليلطة، وفي هذا القصر تعيش فلوريندا ابنة الكونت جوليان مع عمّهـــا أســـقف أشبيلية، وكان يعيش معهم في القصر خولي ماهر جاء من طنجة، وهذا الخولي هـــو مغيـــث الرّومي قائد عقبة الذي تسلّل إلى الأندلس تمهيداً لفتحها.

أمّا الفصل الثاني فعنوانه (رسالة مغيث إلى الأندلس)، وفيـــه يـــصوّر الكاتـــب مغيـــث الرّومي، وهو يستمع إلى قصّة عقبة بن نافع من أفواه الرّفاق الذين رافقوه وشهدوا مـــصرعه، وأخبروه عن ولع عقبة بأشجار البرتقال وعن طموحه إلى النّزول بـــأرض الأنـــدلس، فأقـــسم مغيث أن يزرع قرى طليلطة بالبرتقال، وأوفى بنذره...، ثم يحكي مغيث الرّومي للكاردينـــال خال فلوريندا عن ماضيه وطفولته، ويخبره أنّ أباه هو الحارث بن جبلة بن الأيهم الذي عـــاش في القسطنطينيّة، وتزوج من ابنة هرقليوس قيصر الروم، فجدّ مغيث الرّومـــي هـــو قيـــصر نفسه.[2] ويذكر الكاتب وهو يعرض ماضي مغيث الرّومي قصّة تاريخية مشهورة حدثت زمن الخليفة عمر بن الخطاب، فقد أبى آخر ملوك غسّان أن يلين لجيوش عمر بن الخطـــاب التـــي أوغلت في الشّام، وآثر أن يقاتل إلى جانب الإمبراطور هراقليوس، وذلك خوفاً منه على ملكه، ولكنّ جيوش عمر استطالت على جيوش هراقليوس على ضفّة نهر اليرموك، فعند ذلك كتـــب ملك غسّان إلى عمر يعرض عليه إسلامه فقبل الخليفة إسلامه، وأذن له أن يلحق بـــه، وأمـــر عمر النّاس باستقباله، فيدخل الملك مدينة يثرب مع أصحابه وقد ركبوا الخيول المقلّدة بالـــذّهب والفضّة، ثمّ يذهب عمر بن الخطاب وقيصر إلى الحج......

---

1 - المرجع السابق، ص 132

2 - انظر: المرجع السابق، الصفحات من 137 حتى 168

ويصف لنا الكاتب ما جرى مع ملك غسّان والخليفة عمر بن الخطّاب والبدوي، فيقول:

"فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطئ إزاره بدوي، فانحلّ، فرفع الملك يده فهشّم أنف البدوي فاستعدى عليه عمر، فبعث إلى جبلة، فأتاه ، فقال له: ما هذا؟! فقال: نعم إنّه تعمّد حلّ إزاري ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف، فقال له عمر: قد أقررت فإمّا أن أرضي الرّجل وإمّا أن أقيّده منك، قال: ماذا تصنع بي؟ قال: آمر بهشم أنفك كما فعلت ، قال: وكيف ذاك وهو سوقة وأنا ملك، قال: إنّ الإسلام جمعك وإياه فلست تفضله بشيء إلا التقى والعافية، قال: ظننت أنّي أكون في الإسلام أعزّ منّي في النصرانيّة، قال عمر: دع عنك هذا، فإنّك إن لم ترضِ الرّجل أقدته منك، قال: إذن أتنصّر، قال: إن تنصّرت ضربت عنقك، لأنّك قد أسلمت فإن ارتددت قتلتك... فحمل جبلة نجليه ورواحله إلى الشّام، فأصبحت مكّة منهم بلاقع، فلّما انتهى إلى الشّام، تحمّل في خمسمئة رجل من قومه حتّى أتى القسطنطينية فدخل على هراقليوس فتنصّر هو وقومه".[1]

ويشير الكاتب معروف الأرناؤوط إلى المصدر الذي نقل منه هذه القصّة، ومصدره وهو (الأغاني، ج 14، ص 4).

ويتابع الكاتب فيذكر أن مغيثاً الرّومي عفّ عن ذكر تلك الرّعاية التي لقيها في قصور بني أميّة في دمشق، ولم يخبر الكاردينال أيضاً عن الأسباب التي دفعت به إلى الخروج من وطنه إلى أفريقيّة.

ويُنهي الكاتب معروف الأرناؤوط الجزء الأوّل من روايته بقرار مغيث الرّومي العودة إلى أفريقية تمهيداً للفتح، وكان فيها والي أفريقية الجديد موسى بن نصير، ويسافر مغيث وهو يحمل في قلبه صوت الوطن الذي ترعرع فيه على ضفاف دمشق.[2]

ولابد لنا من الإشارة إلى ما قاله عبد اللطيف أرناؤوط حول رواية معروف الأرناؤوط السّابقة. فهو يذكر أنّ معروف الأرناؤوط اهتمّ بالجوانب الحضاريّة التي نقلها العرب إلى الأندلس، وأنّه بدا أكثر التزاماً بالحقائق التّاريخيّة في القسم الأوّل من روايته، فلم يحوّر في التّاريخ، حتّى الأساطير التي بنى عليها روايته قد وردت في الوثائق كقصّة الحصن، وقصّة الكاهنة البربريّة، أمّا في القسم الثّاني فيذكر عبد اللّطيف أرناؤوط أنّ الكاتب قد حرّف قليلاً الوقائع، فكانت قصّة حبّ فلوريندا لمغيث الرّومي من بنات خياله، وجعلها تستعصي على رودريك مع أنّ كتب التّاريخ تذكر أنّه اغتصبها، وبدت بعض الوقائع أحياناً مخالفة للواقع

[1] - المرجع السابق، ص 187.

[2] - انظر: المرجع السابق، ص 192 وما بعدها.

كدخول طارق ومغيث الحصن..، كما يذكر عبد اللّطيف أرناؤوط أن الكاتب معروف الأرناؤوط في كلّ قصصه مولع بتاريخ الغساسنة، يختار منه شخصيّاته أو عالمه القصصي...، وبرأيه إنّ هذه الرواية هي مدرسة للأجيال يمتزج فيها حبّ المرأة بحبّ الوطن، ويتّحد فيها الشّعور الدّيني بالاعتزاز القوميّ، وقد جهد فيها معروف الأرناؤوط أن يبعث مشاعر الثورة في النفوس المستكينة.(1)

إنّ شخصيّة عمر بن الخطّاب شخصيّة تاريخيّة، وهو الذي أسلم عن طريق أخته فاطمة إذ أقنعته باعتناق الإسلام علماً بأنه كان من ألدّ أعداء الإسلام قبل اعتناقه، وعندما هاجر هاجر علناً إلى يثرب ممّا يدلّ على شجاعته وصلابة موقفه وقوّة شخصيّته ، وبعد اعتناقه الإسلام دافع عن هذا الدين بكلّ قوّة، وحادثته مع جبلة بن الأيهم تدلّ على عدله فلا فرق عنده بن أمير وفقير، وكان يرتدي لباساً متواضعاً ويُقال إنه كان ينام على التراب، ويتفقد أحوال الرّعيّة، ويقدّم مساعدات للفقراء، واستمرت خلافته عشر سنوات من عام 634 إلى 644، وفي أثناء حكمه انتصر العرب على الرّوم في معركة اليرموك 634م ، وبعد عامين في معركة اليرموك، وفي زمن خلافة عمر بن الخطّاب، انتصر العرب المسلمون على الفرس في معركة القادسيّة عام 636م، وبعد ثلاثة أعوام استطاع العرب فتح مصر، أي عام 639م، ولكنّ يد القدر غدرت بالخليفة الرّاشدي الثّاني، إذ طعنه أبو لؤلؤة المجسوسي طعنة قاتلة، تُوفي على أثرها بعد يومين الخليفة عمر بن الخطاب، وحدث ذلك عام 644 م، فهو شخصيّة تاريخيّة حقيقيّة، ومن أهم الشخصيّات العربية في التّاريخ.

أمّا في رواية "طارق بن زياد" ففيها الشخصية التّاريخيّة العظيمة وهي شخصية طارق ابن زياد الذي قام بعمل عظيم جليل في التاريخ، إذ استطاع فتح بلاد الأندلس، وبذلك فإنّ الرّوائي معروف الأرناؤوط يصوّر الشخصيّات التّاريخيّة العربيّة، فيتناول في رواية "سيدّ قريش" شخصيّة الرسول العربي الكريم، وبعد ذلك في رواية عمر بن الخطّاب يتناول هذه الشخصيّة الهامّة في التّاريخ، ويتابع هذه السلسلة من الشخصيّات بشخصيّة طارق بن زياد الذي استطاع أن ينقل الحضارة العربيّة من المشرق العربي إلى بلاد الأندلس.

---

[1] - انظر: أرناؤوط ، عبد اللطيف: معروف الأرناؤوط رائد الرواية التاريخية في بلاد الشام 1892- 1948، دار عكرمة، دمشق، ط1، 2001 م، الصفحات من 90 حتى 94.

خاتمة

ركّزنا في هذا الفصل على الشخصيات التاريخية سواء الحقيقية أم المتخيلة في الرواية التاريخية الروسية والعربية، بينما ركّزنا في الفصل السابق على الأحداث التي تنوّعت أيضاً بين أحداث حقيقية وأحداث متخيلة.

ومن خلال تناولنا في هذا الفصل للرواية التاريخية الروسية نرى أنّها كانت أكثر نضجاً من الرواية التاريخية العربية، وذلك لأنّ الرواية الروسيّة استندت إلى تاريخ الرواية الروسية بوجه عام وإلى تاريخ الرواية الأوربية، ولأنّ الروائيين الروس قد استفادو من تجارب الروائيين السابقين، أمّا كتّاب الرواية التاريخية العربية، ومنهم الكاتب معروف الأرناؤوط فإنّه في رواياته التاريخية ومنها "سيد قريش"، و"عمر بن الخطاب، " ورواية " طارق بن زياد"، فإنّه يركّز على التاريخ والأحداث التاريخية أكثر من تركيزه على الحبكة الفنية للرواية، وبالتالي نشعر أننا أمام كتاب تاريخي وليس رواية على عكس الرواية الروسيّة .

ممّا نلاحظه أيضاً عند كتّاب التاريخية العربية أنّ الكاتب يعنون روايته باسم أحد أبطال الرواية الرئيسيين، كما نجد عند الكاتب معروف الأرناؤوط في رواياته "سيد قريش" ، و "عمر بن الخطاب"، و"طارق بن زياد"، ولكنّ الكاتب في هذه الروايات لم يتحدّث كثيراً عن هذه الشخصيّات التاريخية في رواياته، فعناية الكاتب لم تنصبّ على شخصيّة عمر بن الخطاب أو طارق بن زياد، بل نشعر أنّنا أمام شخصّيات ثانوية مثل بقية الشخصيات، في حين نجد أنّ الكاتب قد ركّز على المعلومات التاريخية، وتفصيلات الاحداث ممّا لا يتحمله الفنّ القصصي ، وربما يرجع ذلك إلى حرص الكاتب معروف الأرناؤوط على تثقيف القارئ العربي بالمعلومات التاريخية.

إننا لا نشعر في بعض الروايات التاريخية العربية أننّا أمام رواية تاريخية، والكاتب فيها يوثّق الأحداث التاريخية من الكتب التاريخية المعروفة والمصادر العربية ، أمّا الرواية التاريخية الروسيّة فإنّها تجمع بين التاريخ والفن والحبكة الروائية التي تجذب القارئ ، فلا تجعله يملّ في قراءته لهذه الرواية، وهكذا فإنّ الرواية التاريخية الروسية أكثر نضجاً من الرواية التاريخية العربية.

من عناصر الرواية التاريخيّة وغير التاريخيّة، بالإضافة إلى الشخصيّات والأفكار والأحداث والحبكة الفنية ، الزمان والمكان ، وهناك زمان حقيقي وزمان فني ، ومكان حقيقي ومكان فني ، وتشترك الرواية التاريخيّة العربية مع الرواية التاريخيّة الروسية في تصوير مكان حقيقي ، فمثلاً تدمر في رواية "سيد قريش " هي مكان حقيقي وليس مكاناً متخيّلاً،

وأيضاً ستالينغراد في الروايات الروسيّة التي صوّرت الحرب العالمية الثانية هي مكان حقيقي، وكذلك مدينة بطرسبورغ في رواية "درب الآلام" هي مكان حقيقي .

والمكان المتخيّل في الرواية التاريخية العربية والروسية يحتلّ حيزاً أقلّ من الحيز الذي تحتلّه الرواية الاجتماعية أو النفسية ففي الروايتين العربية والروسية ، المكان الحقيقـــي هـــو الذي يحتلّ الحيّز الأكبر .

أما الزمان فلقد ركّزت الرواية التاريخية العربية والروسيّة على الزمان الحقيقي ولـــيس على الزمان المتخيّل، لأنها رواية تاريخية لا يحقّ لكاتبها التلاعب بالزمن، فإذا تحدّث الروائي عن زمن الأحداث فعليه مراعاة الصدق الزمني، لأنّ كاتب الرواية التاريخية لا يتمتع بالحرية الكاملة التي يتمتّع بها الروائي الآخر.

الخاتمة

إن لدراسة الأدب المقارن أهميّة بالغة، فالدراسات المقارنة هي من الدراسات الإنسانية، ونحن العرب يجب أن نولي هذه الدراسات أهميّة كبرى، كما يجب التوسّع في علم الأدب المقارن، وذلك لأهميّته في الدراسات الأدبية الحديثة، ولضرورته للنقد الحديث، ولدوره في تغذية شخصيتنا القومية، وإبراز مقومات قوميتنا في الحاضر، والوقوف على جوانب أصالة أدبنا العربيّ، وتوضيح دور جهودنا الفكرية في التراث الأدبيّ العالمي، كما أنّ للأدب المقارن رسالة إنسانية أخرى، وهي الكشف عن أصالة الروح القومية في صلتها بالروح الإنسانية العامة في ماضيها وحاضرها..

الأدب المقارن يعني معرفة الآخر، ومعرفة الآخر تعني معرفة أدبه، والوقوف على فكره، ومن هنا تأتي أهمية دراسة الأدب المقارن، فهذا الأدب يحمل رسالة قومية ووطنية ذات شأن كبير..

إنّ أدبنا العربيّ أدب غنّي في الماضي والحاضر، وقد أثّر هذا الأدب في غيره من الآداب، وتأثّر بها أيضاً، فالآداب تتبادل التأثّر والتأثير في الشّعر والنثر، والتأثر والتأثير مجال من مجالات الأدب المقارن، والمقارنة لا تعني إبراز أوجه التشابه والاختلاف بين أدبين أو أكثر، فكلمة (مقارن) لا تعني مجرّد الموازنة بين أدبين، ولا تعني المقارنة بمعناها اللغوي. إنّ كلمة (مقارنة) تشمل أيضاً المعنى التّاريخي، فيجب على الباحث في مجال الأدب المقارن ألا يغفل التاريخ، وألا يجعل همّه التركيز على اختلاف اللغة بين الأدبين المدروسين، وعلاقة أدب ما بغيره من الآداب، ومن هنا يأتي دور الباحث في إكمال عدّته قبل أن يخوض في المقارنة، فيجب عليه أن يكون على علم بالعصر الذي يدرسه، وما جرى فيه من أحداث وحقائق تاريخيّة.

كما يجب على الباحث أن يكون متسلّحاً بسلاح آخر، وهو قدرته على قراءة نصوص الأدب الآخر بلغاتها الأصلية، فلا يعتمد على الترجمة التي تشوّه النّص الأصلي، وتبعدنا عن روحه ومعناه.

لقد تطوّر الأدب الغربيّ في العصر الحديث تطوّراً ملحوظاً، فيجب علينا نحن العرب ألا نقف مكتوفي الأيدي أمام هذا التطوّر، بحجة المحافظة على التراث القديم، ورفض كلّ جديد غريب بدعوى أنه خطر علينا وعلى ثقافتنا العربية ولغتنا الأم، والأديب العربي مطالب بالانفتاح على التجارب الأدبيّة العالمية، وبالاطلاع على التيارات الفكرية الجديدة، وكذلك الباحث في مجال الأدب المقارن، يجب عليه مواكبة كلّ جديد، والباحث العربي في مجال

الأدب المقارن لا يمكنه أن يكون كإنسان العصر الحجري محتمياً بكهفه بسبب خوفه من الأخطار الخارجية، التي تمثّل المجهول بالنسبة له. هذا الإنسان إن لم يخرج من الكهف، ويواجه بشجاعة الأخطار الخارجية، فلن يستطيع التغلّب على المجهول، وهذا يشبه حال الباحث أو الأديب العربي الذي لا يمكنه إلا أن يؤثّر ويتأثّر بالآخر، دون أن ينسَ المحافظة على أصالته القوميّة العربيّة، إنه مطالب بأن يكون كالنحلة التي تجمع الرحيق من أصناف متنوعة من الأزهار لتصنع منه عسلاً صافياً، إنّها تجمع الرحيق من مختلف الأزهار لتصنع منه عسلاً خاصاً بها، وهكذا يجب أن يكون أديبنا يأخذ ما يناسبه من الآخرين دون أن ينسَ أصالته.

إذاً لابد للأديب العربي من الاطلاع على الآداب العالمية الأخرى، ومن هنا يأتي أهمية دور الأدب المقارن، فلابد لكلّ أدب سواء عربي كان أو غير عربي من الأخذ من الآخر، والاستفادة من تجربته، لأنّ الانعزال والابتعاد عمّا أنتجه الآخر من تجارب أدبيّة ونقديّة وفكريّة ، يؤدي إلى ذبول وتراجع الأدب بشكل عام.

ونحن لا يمكننا كعرب أن نعرف قيمة ما لدينا من أدب وفكر، ما لم ندرك صورة أدبنا عند الآخر، وعندئذٍ نفهم أنفسنا، وندرك مدى قدراتنا، فنحاول تطوير ما عندنا وتدارك ما ينقصنا، وهذا ما أكّده الباحث الدكتور محمد غنيمي هلال بقوله:

"إنّ أجمل نواحي الأدب القومي قد تعتمد في مصدرها على لقاح أجنبي تساعد على ازدهار تلك النّواحي في الأدب القومي، هذا إلى أنّ من فروع الأدب المقارن ما يساعد على فهم الأمّة لنفسها، برؤيتها صورتها في آداب غيرها، وتلك دروس ذات عظات بالغات في تربية الشعب وتبوئه مكانته بين الشّعوب".[(1)]

من النتائج التي توصلنا إليها في دراستنا أنّ شوقي أبو خليل في كتابه "جرجي زيدان في الميزان" برأيي قد تحامل على الأديب جرجي زيدان، وعلى ما يبدو أنّ آراءه كانت سابقةً لقراءته مؤلّفات جرجي زيدان. ولأنّ النّاقد لم يثبت بالدلائل القاطعة والبراهين صحّة أقواله التي اتهم بها الأديب جرجي بتشويه وإفساد تاريخنا العربي من خلال رواياته التاريخية.

والنقطة الثانية التي توصلنا إليها أنّ الدراسات العربية عن الرواية التاريخية العربية، والتي تمثّلت بالدرجة الأولى في كتاب شوقي أبو خليل، وكتاب عبد اللطيف أرناؤوط عن الأديب معروف الأرناؤوط، وكتاب الدكتور عبده قاسم "الرواية التاريخية في الأدب العربي

---

[1] هلال، محمد غنيمي: الأدب المقارن، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت، ط5، ص 431.

الحديث" كانت قليلة من حيث الحجم والعدد، ومن حيث أيضاً العمق، أضف إلى ذلك أنّ الروايات التاريخيّة بحدّ ذاتها أيضاً قليلة، ولا تغطّي الأحداث التاريخيّة الجسام التي مرّت بها الأمة العربية، ومن هنا جاءت أهمية هذا البحث الذي يغطي جانباً من جوانب الرواية التاريخية العربية، ومقارناً أحياناً الرواية التاريخية العربية بالرواية التاريخية الروسيّة.

وموضوع رسالتنا كما هو معلوم "الرواية التاريخية بين الأدبين العربي والروسيّ/ نماذج مختارة من النّصف الأول من القرن العشرين"، فدرسنا الروايات العربية والروسية التاريخية التي ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين، ولكنّ ضرورة البحث جعلتنا أحياناً نرجع إلى الأعمال الأدبية التاريخية التي تركت أثراً في الرواية التاريخيّة في النصف الأول من القرن العشرين، أي اضطررنا إلى العودة إلى البدايات لكي نعرف الينابيع التي استقت منها الرواية التاريخيّة في النصف الأول من القرن العشرين، ولذلك اعتمدنا أحياناً في دراستنا على المنهج التاريخي الذي يدرس الأعمال الأدبية في سياقها التاريخي، واعتمدنا المنهج النفسي في تحليلنا لبعض الشخصيّات الروائيّة كما اعتمدنا أحيانا المنهج التكاملي الذي يعتمد على المناهج كلّها نظراً لأنّنا احتجنا لأكثر من منهج في هذه الدراسة.

واستنتجنا أنّ الرواية التاريخية الروسية هي أقدم من الروايات التاريخية العربية من حيث النشأة، وهذا أمر طبيعي لأنّ الرواية الروسية بوجه عام هي أقدم من الرواية العربية، فمثلاً الرواية التاريخية الروسية لبوشكين "ابنة الآمر" كُتبت عام 1836 ، في حين أنّ روايات سليم البستاني التاريخية وهي من أقدم الروايات التاريخية العربية ظهرت في السبعينات من القرن التاسع عشر.

كما وجدنا تشابهاً كبيراً بين الرواية العربية التاريخيّة والرواية الروسيّة التاريخيّة لأنّ الشعبين العربي والروسي مرّا بمراحل متشابهة، فكلاهما قد تعرّض للاحتلال الأجنبي، فروسيا تعرّضت للاحتلال مراتٍ عدّة، ففي نهاية الحرب العالمية الأولى تعرّضت بعض أجزائها للاحتلال الألماني، وبعد الثورة الروسية عام 1917، تعرضت بعض أجزائها للاحتلال من قبل جيوش الدول الأوربية.

وفي الحرب العالمية الثانية بدءاً من عام 1941 تعرّضت للاحتلال الألماني الذي كاد أن يحتل العاصمة موسكو.

ومن ثمّ فإنّ التاريخين العربي والروسيّ متشابهان، فالعرب تعرّضوا للاحتلال العثماني الذي تخلّصوا منه في نهاية الحرب العالمية الأولى، وبعد ذلك ابتلوا بالاستعمار الفرنسي والإنكليزي والإيطالي الذي تخلّصوا منه في نهاية الحرب العالمية الثانية، ولقد صوّرت

الرواية التاريخية العربية والروسية بطولات الشعبين العربي والروسيّ في سبيل التخلّص من الاحتلال، فنجد تشابهاً بين شخصيّات فارس زرزور في روايته "لن تسقط المدينة"، ورواية "حسن جبل"، وفي أعماله الأخرى التي يصوّر فيها بطولات الشعب العربيّ في دفاعه عن تراب وطنه.

وكذلك نجد هذا التصوير لبطولات شعبنا عند الروائي والشاعر سلامة عبيد، ، وهذه الشخصيّات المناضلة تشبه شخصيّات الرواية الروسية المناضلة من أجل تحرير الوطن مثل شخصية بطل رواية "قصة إنسان حقيقي" ذلك الطيار الذي بُترت ساقاه في أثناء الحرب، ومع هذا عاد يطير ويقاتل الأعداء.

إنّها شخصيات واقعية، ولكنها في صفائها ونقائها تكاد تكون شخصيّات رومانسية خيالية.

الرواية التاريخية في كلّ الآداب العالمية لها خصوصية معينة، وهي أنّها تتناول بالإضافة إلى الشخصيات الخيالية التي من نُسج خيال الروائي شخصيّات تاريخيّة حقيقية، وهنا تظهر عبقرية المؤلف الذي يستطيع أن يمزج الواقع بالخيال دون أن يظهر أنّ هناك تكلّفاً أو صنعةً.

في كل رواية عادةً هناك شخصيّات إيجابيّة وشخصيّات سلبية وهي عادةً من صنع خيال المؤلف، ولكنّه خيال يعكس الواقع، أمّا في الرواية التاريخية فالشخصيات الإيجابية عادةً هي الشخصيات التي تدافع عن أرض الوطن، والشخصيات السلبية عادةً، إما من أبناء الوطن المتخاذلين، أو الذين يتعاونون مع المحتل أو من العدو المستبد المتوحش.

فمثلاً شخصية ألكسي في "قصة إنسان حقيقي" تشبه شخصية أبي صابر في رواية "أبو صابر" لسلامة عبيد، وذلك في التفاني من أجل الوطن ونسيان الذات.

المكان في الرواية التاريخية له قدسيته، وبذلك فإنّ المكان في هذه الرواية يختلف عن المكان في الروايات الاجتماعية أو البوليسية، لأنّ هذه الروايات بوجه عام ذات طابع وطني قومي.

الزمان في الرواية التاريخيّة على الأغلب زمان حقيقي، وهنا لا يحقّ للروائي أن يتلاعب بزمن الأحداث الحقيقية، وعنصرا الزمان والمكان في العمل الأدبي عنصران مهمّان في العمل الأدبي بوجه عام، ولكن لهما خصوصية في الرواية التاريخيّة.

نلاحظ في الأدب العربي أنّ الرواية التاريخية كما أسلفنا قصّرت في تناول الأحداث العربية الجسام، فبرز دور الشعر، فقد اهتمّ الشعراء في قصائدهم كثيراً بتناول القضايا العربية المصيرية، مثل قضية فلسطين، ولكنّ الرواية العربية التاريخيّة كانت في جديتها واهتمامها بهذا الموضوع كانت أقل بكثير من الشعر العربي، وذلك يعود على ما يبدو إلى طبيعة الشعب العربي لأنه شعب عاطفي، في حين نجد أنّ الرواية الروسية غطت معظم جوانب الأحداث التاريخية التي عصفت بالشعب الروسي خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية.

كتب الروائيون الرواية التاريخية عن أحداث عاصروها أحياناً ، مثل الرواية التي كتبها فارس زرزور وسلامة عبيد، والروايات الروسية التي تناولت الحرب الأهلية مثل رواية "درب الآلام" لألكسي تولستوي ، والروايات التي تناولت الحرب العالمية الثانية مثل روايات يوري بونداريف وسيمينوف وغيرهم، ويهدف الروائي من كتابة الرواية التاريخية إلى تخليد بطولات شعبه، ولذلك فمعظم هذه الروايات تدور حول الحرب والدفاع عن الوطن، وتصور بطولات الشعب ووحشية الأعداء.

وأحياناً يصوّر الروائي في رواياته أحداثاً لم يعاصرها، فهي أحداث تاريخية قديمة، مثل روايات معروف الأرناؤوط ومنها: رواية "سيد قريش" 1929 التي تتحدث عن شخصية الرسول (ص)، وعن المرحلة التاريخية التي عاشها العرب في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الميلادي، وعن رواية "عمر بن الخطاب" للكاتب نفسه عام 1936، التي تتحدث عن شخصية الخليفة الراشدي العادل عمر بن الخطاب.

وفي الأدب الروسي نجد الوضع ذاته، فهناك روايات تعود إلى التاريخ القديم مثل رواية لألكسي تولستوي بعنوان "بطرس الأكبر" التي يتحدث فيها عن شخصية بطرس الأكبر وعصره، ولكن في كلتا الحالتين عندما يتناول الكاتب الروائي الرواية التاريخية ذات الأحداث المعاصرة أو الرواية التاريخية ذات الأحداث القديمة فإنّه يهدف إلى حثّ المواطنين على حبّ الوطن ومقاومة الأعداء ، وحتى عندما يتناول الأحداث القديمة والشخصيات القديمة، فإنه يحاول أن يسقطها على الواقع المعاش.

ولا بأس من الإشارة إلى رأي الدكتور محمد غنيمي هلال وهو أنّ الرواية التاريخية نشأت في ظل المدرسة الرومانسية، وتوخى الرومانسيون من إبداع هذا الجنس الأدبي إحياء ماضيهم الوطني التاريخي، كما يذكر الدكتور غنيمي أن الكاتب الإنكليزي الرومانتيكي ولترسكوت هو أبو القصّة التاريخيّة في أوروبا.

قائمة المصادر و المراجع

أولاً: المراجع باللغة العربية:

1- أبو الوي، د. ممدوح: تولستوي ودوستيفسكي في الأدب العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999م.

2- أبو هيف، د. عبد الله: اتجاهات النقد الروائي في سورية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2006م، (ب. ط)

3- أبو هيف، د. عبد الله: العرب والحوار الحضاري، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق، 2007م، (ب. ت).

4- أرغون، هنري: جورج لوكاتش أو الجبهة الشعبية في الأدب، ترجمة: د. عادل العوا، مطبعة وزارة الثقافة ، دمشق، 1970م، (ب . ط).

5- أرناؤوط، عبد اللطيف: معروف الأرناؤوط رائد الرواية التاريخية في بلاد الشام 1892- 1948، دار عكرمة، دمشق، ط1، 2001م.

6- الأرناؤوط، معروف: سيد قريش، الجزء الأول، دار القلم، بيروت، لبنان، ط3 ، 1971م.

7- الأرناؤوط ، معروف: سيد قريش، الجزء الثاني، دار القلم ، بيروت ، لبنان، ط3، 1971م.

8- الأرناؤوط، معروف: سيد قريش، الجزء الثالث، دار القلم، بيروت ، لبنان، ط3، 1971م.

9- الأرناؤوط، معروف: طارق بين زياد، ، مطبعة فتى العرب، دمشق، ط2 ، (د.ت)

10- الأرناؤوط، معروف: عمر بن الخطاب، الجزء الأول بعنوان (ليالي شاعر)، دمشق، مطبعة فتى العرب، 1355هـ- 1936م، (د.ط)

11- الأرناؤوط، معروف: عمر بن الخطاب ، الجزء الثاني بعنوان (فرسان سيد قريش)، دمشق، مطبعة فتى العرب، 1355هـ- 1936م، (د.ط).

12- اصطيف، عبد النبي: العرب والأدب المقارن، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة، دمشق، 2007م، (د.ط)

13- اصطيف، عبد النبي: في النقد الأدبي العربي الحديث، الجزء الثاني، مطبعة الاتحاد، دمشق ، 1990 – 1991م، (د.ط).

14- ألبيرس، ر.م : تاريخ الرواية الحديثة، ترجمة: جورج سالم، منشورات بحر المتوسط وعويدات ، بيروت ، باريس ، ط2 ، 1982م.

15- أنطون، فرح: "الدين والعلم والمال"، "الوحش، الوحش، الوحش"، "أورشليم الجديدة"، قدم لها: د. أدونيس العكرة، دار الطليعة ، بيروت، ط1 ، تشرين الثاني، 1979م.
16- أنطون ، فرح : ابن رشد وفلسفته مع نصوص المناظرة بين محمد عبده وفرح أنطون، قدم لها: د. أدونيس العكرة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1 ، آذار ، 1981م.
17- باكثير، علي أحمد: وإسلاماه، دار مصر للطباعة، (ب.ط) (ب. ت).
18- بانوفا، فيرا: رفاق الطريق، ترجمة: مواهب الكيالي، دار التقدم، موسكو ، تاريخ النشر 1946، (ب.ط).
19- بدير، د. حلمي : بحوث تجريبية في الأدب المقارن، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة ، (ب. ط)، (ب . ت).
20- برادة، محمد ومجموعة من الكتاب: الرواية العربية واقع وآفاق، دار ابن رشد، ط1، 1981م.
21- البستاني، سليم: الهيام في فتوح الشام، مطبعة إدارة المرآة بنيويورك، نشرت تباعاً في الجنان عام 1874م، (ب.ط).
22- بوشكين، ألكسندر: ابنة الآمر، دار التقدم، موسكو، 1974م. (ب.ط).
23- بونداريف، يوري: الثلج الحار، ترجمة : غائب طعمة فرمان، دار رادوغا، موسكو، 1974م، (ب.ط).
24- تولستوي، ألكسي: درب الآلام، م1، الكتاب الأول (الشقيقان)، ترجمة: غائب طعمة فرمان، دار رادوغا، فرع طشقند، 1984م. (ب.ط).
25- تولستوي، ألكسي: م2 ، الكتاب الثاني (عام 1918)، ترجمة: غائب طعمة فرمان، دار "رادوغا"، فرع طشقند، 1984م. (ب.ط).
26- تولستوي، ألكسي: الكتاب الثالث (صباح غائم)، ترجمة: غائب طعمة فرمان، دار دار التقدم، موسكو، 1976م. (ب.ط).
27- تولستوي، ليون: الحرب والسلم، المجلد الرابع، الكتاب الأول : ترجمة: سامي الدروبي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1976م، (ب.ط).
28- تولستوي، ليون: الحرب والسلم، المجلد الثاني، ج1 ، ترجمة : سامي الدروبي ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980م، (ب.ط).
29- تولستوي، ليون: الحرب والسلم، المجلد الثالث، ج1، ترجمة : صباح الجهيم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ، 1981، (ب.ط).

30- تولستوي ، ليون: الحرب والسلم، م4 ، ترجمة : صـــياح الجهـــيم، وزارة الثقافـــة والإرشاد القومي، 1983م، (ب.ط).
31- تيبلوغوف، فيكتور: كلّ إلى مكانه، ترجمة: محمد عبد الجليل الطيار، دار رادوغا، طشقند، موسكو ، 1985، (ب. ط).
32- الخطيب، د. حسام: جوانب من الأدب والنقد في الغرب، منشورات جامعة دمـــشق، مطبعة دار الكتاب، دمشق ، 2000- 2001م، (ب.ط).
33- الخطيب، محمد كامل: تكوين الرواية العربية (اللغة ورؤية العالم)، وزارة الثقافـــة، سوريا، دمشق، ط1 ، 1990م.
34- الخطيب، محمد كامل: نظرية الرواية ، وزارة الثقافة، دمشق، 1990م، (ب.ط).
35- زرزور ، فارس: لن تسقط المدينة، دار الاعتدال، 1969م، (ب.ط).
36- زرزور، فارس: حسن جبل، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القـــومي، دمشق، 1969، (ب. ط).
37- زرزور ، فارس : الأشقياء والسادة، دار النشر ومكان النشر غير موجودين علـــى الغلاف.
38- سليمان، نبيل: الرواية السورية 1967- 1977 (دراسة)، منشورات وزارة الثقافـــة والإرشاد القومي، دمشق، 1982، (ب.ط).
39- سماق، فيصل: الواقعية في الرواية السورية، دار البعث الجديدة، ط1، 1979م.
40- طه بدر، عبد المحسن: تطور الرواية العربية الحديثة في مـــصر (1870- 1938)، دار المعارف، القاهرة ، 1963، (ب.ط).
41- عبود، عبده : الأدب المقارن ، منشورات جامعة البعث، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، 1997- 1998م (ب.ط).
42- عبيد، سلامة: أبو صابر (الثائر المنسي مرتين)، وزارة الثقافـــة، دمـــشق، 1971م، (ب.ط).
43- العريان ، محمد سعيد: على باب زويلة، دار المعارف، مصر ط3، 1957م.
44- العظمة، د. نذير: فضاءات الأدب المقارن، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2007م، (ب.ط).
45- فادييف، ألكسندر: الحرس الفتي، ج1، ترجمة: الدكتور سامي عمارة، دار التقـــدم، موسكو ، 1981م، (ب.ط).
46- فادييف، ألكسندر: الحرس الفتي، ج2، ترجمة: الدكتور سامي عمارة، دار التقـــدم، موسكو ، 1981م.

47- فيرشيغورا، بيوتر: ضمائر حية، خيري الضامن، دار التقدم، موسكو، 1974م.
48- الفيصل، سمر روحي: تجربة الرواية السورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 1985م.
49- الفيصل ، سمر روحي: الاتجاه الواقعي في الرواية السورية، اتحاد الكتاب العرب، 1986.
50- قاسم، د. عبده قاسم: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة ، 1979م.
51- كاسيل، ليف، خط الاتصال، دار التقدم، موسكو، (د.ت).
52- كريستيان، ر.ف، "تولستوي" مقدمة نقدية ، ترجمة: عبد الحميد الحسن، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983.
53- لوكاتش ، جورج : الرواية التاريخية ، ترجمة: د. صالح جواد الكاظم، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، 1978م.
54- لوكاتش ، جورج: الرواية كملحمة برجوازية، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، شباط ، 1979م.
55- مجموعة من الكتاب السوفييت، نحن السوفييت، دار التقدم، موسكو، 1975.
56- الموسى، د. خليل: ملامح الرواية العربية في سورية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2006م.
57- هلال، محمد غنيمي: الأدب المقارن، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط5 ، (ب.ت).
58- واط، إيان: نشوء الرواية، ترجمة : عبد الكريم محفوض، وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، 1991م.
59- قسم الدراسات في دار نوبليس، تاريخ العرب والإسلام من خلال روايات جرجي زيدان، المجلد الأول، دار نوبليس، بيروت، ط1 ، 2003- 2004م.

ثانياً: المراجع باللغة الأجنبية:

1- Comparative Literature, method and perspective, vevised (الأدب المقارن ، ترجمة: الدكتور فؤاد المرعي) , Stalk mecht, Neuton p edition . First published: November 1961.

ثالثاً: الدوريات:

1- أبو الوي، د. ممدوح : ألكسندر بوشكين، مجلة المعرفة، العدد 470، السنة 41، شعبان 1423هـ ، تشرين الثاني 2002، وزارة الثقافة، دمشق.

2- أبو الوي، د. ممدوح : حكم النبي محمد لتولستوي، مجلة الموقف الأدبي، العدد 290، السنة 25، حزيران، 1995م، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

3- أبو الوي، د. ممدوح: الكتابات العربية في النصف الأول من القرن العشرين حول ليف تولستوي ، مجلة كلية الآداب ، العدد 64، يوليو 1994م، منشورات جامعة القاهرة.

4- أبو الوي، د. ممدوح: ليف تولستوي 1828- 1910، مجلة المعرفة، العدد 450، السنة 40، آذار 2001م، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، سورية.

5- اصطيف، عبد النبي: الجديد في نظرية الأدب المقارن- القسم الأول، مجلة المعرفة ، العدد 511، السنة 45، ربيع الأول 1427هـ- نيسان 2006م، وزارة الثقافة، سورية.

6- ألكسان، جان: كيف نبدل الصورة عن العرب في الفكر الأجنبي؟، مجلة المعرفة، العدد 511، السنة 45، نيسان 2006م، وزارة الثقافة، دمشق.

7- بيتروف: ألكسندر بوشكين 1799- 1837، ترجمة: د. ممدوح أبو الوي، مجلة الآداب الأجنبية ، السنة 24، صيف ، خريف 1999، العدد 99- 100، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

8- الجرف، غياث رمزي، دعوة إلى إعادة النظر، مجلة بناة الأجيال، العدد 57، خريف 2005م.

9- جمعة ، أ.د. حسين: القيمة العظمى لآداب الأمم، مجلة الآداب الأجنبية ، العدد 123، السنة 30، صيف 2005م، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

10- الخطيب، د. حسام: حول الأدب العربي وامتحان العالمية، مجلة المعرفة، العدد 295، السنة 25، أيلول 1986، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، سورية.

11- دومان، بول: نظرية الرواية لجورج لوكاتش، ترجمة: عبد النبي اصطيف، مجلة الآداب الأجنبية، العدد 97، السنة 24، شتاء 1999م، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

12- صقور، مالك: بوشكين والقرآن ، مجلة الآداب الأجنبية ، العدد 99- 100، السنة 24، صيف ، خريف 1999م، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

13- عيون السود، د. نزار: شاعر روسيا الأكبر : ألكـــسندر بوشـــكين ، مجلـــة الآداب الأجنبية، العدد 99- 100، السنة 24، صيف، خريف 1999، اتحاد الكتاب العـــرب، دمشق.

14- كاسوحة، إبراهيم: بوشكين من خلال أدبه ، مجلـــة الآداب الأجنبيـــة، العـــدد 99-100، السنة 24، صيف، خريف، 1999، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

15- المرعي، د. فؤاد: في نظرية الأدب المقارن، مجلة المعرفة، العدد 295، السنة 25، أيلول 1986م، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سورية.

16- الملا، زياد: الرواية عبر التاريخ، جريدة الأسبوع الأدبي ، العـــدد 1107، 14/ 6/ 2008، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

Abstract

By : Amal Sheada Hassan
M.A. Candidate

This dissertation , entitled : ' The Historical Novel in Arabic and Russian literatures ; is a work that consists of 450 pages .
It is comprised of a general introduction, four chapters
The first chapter is entitled " A View on Comparative Literature ".
The second is " A View on the Study of Historical Novel ." The third is " Historical Events and Imaginary Events in Historical Novel " , and the fourth is " Historical Characters and Imaginary Characters in Historical Novel " . The reader of this work may ask : why is such a comparison between Russian literature and Arabic literature ? Hence , we need to mention the Arab –Russian literary relations which were strong form the beginning . the peoples in the southern Regions of Russia had cultures in which Arabic culture was a part , and those peoples ' alphabets were the Arabic alphabet itself.
No such comparison between Russian and Arabic historical novel , but there are comparisons between social novels in Russian and Arabic .
A comparison between Arabic and Russian historical novel does not exist because there is no direct influence between them.

Before choosing samples of Russian and Arabic historical novels , and conducting simple comparisons we felt the need to consider the term " comparative literature " and its implications in the west and its reception by Arab scholars .

It was also necessary to pause on the major Arab corporatists ;

Their efforts in this field cannot be ignored , tough they were not wholly original . but the most important point which cannot be ignored , and which we referred to in chapter one , is the role of translation in the realm of comparative literary studies , especially if the translation is accurate and faithfully , Needless to say that translation played a role in literature especially the Russian literature in particular in the 19 th c and 20 th c and translation played a major role in bringing our literature to other literatures form antiquity to our modem times . It was necessary before criticize them , to pause on the beginnings of the appearance of Arabic historical novel . therefore we death with the first Arabic historical novel " Al - huyam in futuh al –sham (1874) , Saleem Al - bustani

and Zenobia (1871) is extinct .

But the most important novel we discussed in chapter П is Sayyed Quraysh (1929) by Maa rouf al Arnaut , which we death with historical novel (1937) :we studied a work by George Lucach ,and we talked about the first Russian historical novel (the Master ' s Daughter) (1836) by

Pushkin , then Tolstoy ' s classic War and Peace (1863-1869).

We ended the third chapter by talking about the major Arabic historical novel in the first half of the 20 th c . There are Faris Zarzour ' s historical novels , we also talked about real historical events and in the fourth chapter we considered the most famous Russian historical novel which chronicled the events of world War Π , then we moved to Arabic historical novel and discussed Maaruof al- Arnau t ' s historical novel .

One of the most significant outcomes we reached here is that the critic Shawqi Abu Khalil was prejudiced against Georgi Zeedan , and went so far as to accuse him of defacing and corrupting our Arabic history through the historical novels he wrote .

A major part in bringing the literary masterpieces and the other outcome is that Arabic studies on Arabic historical novel were few , and we only found three : George Zeedan in Balance (1981) by the critic Shawqi Abu-khaeel , Maarouf Al- Arna'uout as a (2001) by Abdul al-latif al-Arnauout , and Historical Novel in Modern Arabic Literature (1979) by Dr-Qasem Abdu Qasem .

Also Arabic historical novels were few and did not cover the main historical events which our Arab nation experienced , and on the whole these novels were fewer than Russian counterparts .

The third result is that the Russian historical novel was older than its Arabic equivalent mainly because the Russian novel is older than its Arabic counter part .

The fourth result is that the Arabic history and the Russian history are similar , because the Arabs experienced Ottoman occupation , followed by the French , the English and the Italian occupations , then The Arabs gained their freedom and independence after a long struggle , and the same applies to the Russian people .
The fifth result is the similarity between the characters in these Arabic and Russian historical novel .
The sixth result is that place has its holiness in historical novel both Arabic and Russian , and it is always real , and hence it is different from its counterpart in other novels , social , deductive and the like . Time in the historical novel is real , therefore both place and time have their peculiarities .
The seventh outcome is that Arab and Russian historical novelists wrote about events which they either experienced or did not experience , but this does not belittle those novels ' values as historical works .
And lastly , the significance of this research springs from its indication that Arabic historical novels fell short of dealing with decisive Arab causes such as that of the Palestinian Cause , but Arabic poetry fared well in such a matter .
whereas the Russian historical novel covered most of these historical events which the Russian people experienced .